فلاديمير بارتول

آلموت

رواية

ترجمة: هالة صلاح الدين لولو

أشرف على الترجمة وراجعها: د. حسّان عبّاس

فلاديمير بارتول

آلموت

دار أمواج

يُخطئ من يبحث في هذا العمل عن «حقيقةٍ» تاريخية. ويُخطئ من يقرأه كبحثٍ أو كدراسةٍ تاريخيةٍ أو عقائدية. فهذا العمل هو أولاً «رواية» أي أنه يحكي، كأي رواية أخرى، قصة شخصيات وأمكنة وأزمان من حبر وورق تنحصر حقيقيتها ضمن إطار النص المكتوب. وهو ثانياً «رواية تاريخية» أي أن الروائي يتّكئ على التاريخ لصناعة الحكاية. وهذا لا يعني مطلقاً أنه يعيد سرد التاريخ كواقع وإنما يُنشئ واقعاً سردياً جديداً هو الرواية التي تُقرأ.

قلعة آلموت وشخصيات الحسَن بن الصباح وعمر الخيام ونظام المُلْك وعملية تقويض سلطة سلاجقة الأتراك في بلاد فارس عام 1092 وغيرها، كلها عناصر وُجِدتْ واقعياً في التاريخ لكنها ليست في هذه الرواية أكثر من عناصر سردية في نص لا يكتسب واقعيته سوى من كونه الآن بين أيدينا.

انتهى فلاديمير بارتول 1906 - 1967 من كتابة هذه الرواية عام 1938 ، أي في زمنٍ تميّز بصعود النظريات الشمولية وبوجود شخصيات سياسية قيادية تتطلع إلى تغيير العالم. ولا شك أن لذلك الظرف التاريخي الخاص دوراً في توجّه الكاتب نحو شخصية «شيخ الجبل» الفذّة ليجعل منها مِحوراً لروايته، معتمداً في ذلك على كتابات المستشرقين وعلى ما تضمّنته تلك الكتابات من حمولةٍ أسطوريةٍ أحاطت بِداهيةٍ من كبار دُهاة التاريخ السياسي الإسلامي في إيران.

الناشر

آلـموت

* فلاديمير بارتول
* آلموت
* ترجمة: هالة صلاح الدين لولو
* أشرف على الترجمة وراجعها: د. حسان عباس

* الطبعة الثانية 2005
* الناشـــــــر : ورد للطباعـة والنشـر والتوزيـع
أمواج للطباعـة والنشـر والتوزيع
* ص.ب: 113/6435 بيروت ـ لبنان
* هاتف: 750054 1 961 ـ فاكس 750053 1 961
* E-mail: daramwaj@inco.com.lb
* التوزيع على الإنترنت: www.alfurat.com

فلاديمير بارتول

رواية

ترجمة: هالة صلاح الدين لولو
أشرف على الترجمة وراجعها:
د. حسان عباس

العنوان الأصلي للكتاب:

ALAMUT

الفصل الأول

في ربيع عام ألف واثنين وتسعين ميلادية، كانت قافلة على قدر كبير من الأهمية تسلك الطريق الحربي القديم الذي يصل «سمرقند» و«بخارى» بسفوح مرتفعات «البورز»، عبر شمال خراسان. غادرت تلك القافلة بخارى مع بداية ذوبان الثلوج لتسير أسابيع عدة. وكان حداتها يلوحون بسياطهم وهم يحثون بصيحاتهم الجشّة دوابهم التي بدت بوادر الانهاك عليها. وفي رتل طويل، تقدمت الجمال العربية والتركمانية ذات السنامين والبغال في انقياد سلس على الرغم من أثقالها. وعلى صهوات أحصنتهم الصغيرة الوبرة، كان الخفر المسلحون المواكبون للقافلة، ينظرون ملياً إلى سلسلة الجبال الممتدة الشامخة في الأفق، وقد لاحت على وجوههم سآمة مشوبة بالترقب، متلهفين للوصول إلى مبتغاهم وقد أضجرهم سير الركب الوئيد. وأخذت قمة «دومافند»(*) المكللة بالثلوج تقترب شيئاً فشيئاً، ثم توارت خلف جدار عال يلتف حوله الطريق. وكانت الريح الباردة القادمة من الجبال تنعش الدواب والناس، بينما جعل برد الليالي القارس الحداة شأنهم شأن الخفر يتزاحمون حول النار مدمدمين.

كان أحد تلك الجمال يحمل بين سناميه مايشبه الكوخ أو القفص، ويد ناعمة تزيح من حين لآخر ستارة النافذة الصغيرة في طرف الهودج، فيلوح وجه فتاة خائفة، تلقي عيناها الواسعتان المحمرتان

(*) دومافند: قمة سلسلة جبال البورز (5700 م)، في شمال طهران.

بكاءً نظرات استفهام على الناس، بحثاً عن جواب لسؤال مؤلم عذّبها منذ بداية المسير: ترى إلى أين تسير بها القافلة، وما المصير الذي ينتظرها؟

إلا أن أحداً لم يعر انتباهاً لوجودها، خلا قائد القافلة، العبوس الخمسيني، والذي ارتدى سروالاً عربياً واسعاً، واعتمر عمامة كبيرة بيضاء، فقد كان يرشقها بنظرة وعيد كلما لمح وجهها عبر الكوة الصغيرة. وحينئذ كانت الفتاة تسحب الستارة بسرعة وتنكمش على نفسها داخل كوخها. كان يتقاسمها خوف قاتل وفضول شديد إزاء المصير الذي ينتظرها، وذلك منذ أن باعها سيدها في بخارى إلى أولئك الناس.

وفي أحد الأيام ـ وقد اجتازت القافلة جزءاً لابأس به من الطريق ـ إذ بفرقة خيالة تطوي مسرعة المنحدر الذي يعلو يمين القافلة، وتسد الطريق، وسرعان ما توقفت الدواب التي كانت تمشي في مقدمة الركب بشكل عفوي. وأمسك فرسان الطليعة، ورجال الحراسة بسيوفهم الثقيلة المعقوفة منتظمين في تشكيلة قتال. برز رجل من كوكبة المهاجمين ممتطياً صهوة حصان أصهب صغير، واقترب حتى أصبح صوته في متناول السمع، ثم أطلق صيحة بمثابة كلمة سر، فما كان من قائد القافلة إلا أن ردّ على الفور. فأسرع الرجلان واحدهما نحو الآخر ليتبادلا السلام بلباقة، وبعدئذ اتخذت الفرقة الجديدة مكان القديمة، وحولت القافلة اتجاهها متخذة طريق الجبال، ولم تحط الرحال إلا عند منتصف الليل. خيّم الجميع في واد صغير يستطيع المرء أن يسمع فيه هدير السيل البعيد. وأشعل الرجال النار وازدردوا طعامهم، ثم استسلموا ـ كأنهم صرعى ـ للرقاد.

ما أن بزغ الفجر حتى كان الناس على أهبة الاستعداد من جديد. اقترب قائد الفرقة الصغيرة من الهودج الذي كان الحداة قد فصلوه ووضعوه على الأرض للمبيت، فأزاح الستارة وصرخ بخشونة قائلاً:

ـ حليمة!

أطل الوجه المذعور من الكوة، ثم انفتح باب صغير ضيق منخفض. أمسك الرجل بيده القوية معصمها وسحبها خارج المخبأ.

كانت حليمة ترتجف بشدة، مفكرةً «انتهى أمري». كان كبير الغرباء الذين انضموا إلى القافلة في الليلة الماضية يمسك بيده عصابة سوداء، وبإشارة من قائد القافلة ودون أن ينبس ببنت شفة، وضع العصابة على عيني الفتاة، وربطها بإحكام حول عنقها. ثم وثب إلى ظهر جواده وجذب الفتاة الأسيرة نحوه بلطف ليحملها إلى سرج حصانه، ودثرها بردائه الواسع. تبادل بضع كلمات مع القائد، ثم وكز حصانه فانطلق يعدو. انكمشت حليمة على نفسها، وتشبثت بالفارس، وقد امتقع وجهها من شدة الخوف.

اقترب هدير السيل شيئاً فشيئاً، وتوقفا عن المسير ليتبادل الفارس حديثاً قصيراً مع مجهول، ثم حثّ حصانه مجدداً، إلا أن خطوات الفرس هذه المرة كانت أكثر بطئاً واحتراساً. وشعرت حليمة أن تلك الطريق الضيقة الخطرة، لابد أنها تحاذي السيل عن قرب، وهبت ريح باردة من أعماق سحيقة، فأحست بقلبها ينقبض من جديد بين أضلاعها.

توقفا ثانية، إلا أنها هذه المرة سمعت صخباً وصليلاً. وعندما عاودا المسير، كانت حوافر الحصان تطرق الأرض بقرقعة مكتومة: فقد شرعا في اجتياز جسر فوق السيل.

أما ماتوالى من أحداث فقد كان حلماً مرعباً لحليمة، إذ كانت تسمع صرخات ونداءات كما لو أن أفراد عصابة مسلحة يتشاجرون فيما بينهم. ترجل الفارس، وحرص على أن يدع رداءه على حليمة، ثم قادها بخطى سريعة، تارة على أرض شبه مستوية، وتارة أخرى مرتقياً مايشبه الأدراج، وسرعان مابدا لها أنهما دخلا مكاناً شديد الظلمة. فجأة نزع الرجل عنها معطفه وأحست بأيد أخرى تمسك بها، وسرت في جسدها قشعريرة، كما لو أن شبح الموت قد لامسها.

ندّت عن الرجل الذي تسلمها من الفارس ضحكة مكتومة، ثم اجتازا معاً مايشبه الممر، وعلى حين غرة أحست حليمة بلفحات برد غريب تلفها، كما لو أنها نزلت قبواً تحت الأرض. وحاولت أن تبعد عن رأسها كل الأفكار، لكنها لم تفلح في ذلك، وانتابها إحساس بدنو لحظتها، لحظتها الأخيرة الرهيبة.

أخذ الرجل الذي كان يحملها بين ذراعيه يتحسس الحائط، مقدّماً بحذر إحدى يديه. ثم أمسك بشيء ما، رفعه بقوة، فدوت ضربة صنج.

أطلقت حليمة صرخة وحاولت الانعتاق من قبضة الرجل المجهول الذي اكتفى بالضحك قائلاً لها بلهجة لاتخلو من اللطف:

ـ لاتصرخي، يا قردتي الصغيرة، فلن يمسك أحد بسوء.

سمعت صرير باب حديدي، ثم تسلل ضوء مبهم عبر عصابتها، وفكّرت: «سيرمون بي في السجن...» ثم أصبح هدير الماء يُسمع من مكان خفيض، فحبست الفتاة أنفاسها. ترامى إلى مسمعها وقع أقدام عارية، واقتراب شخص ما، ثم تركها الرجل الذي كان يمسك بها إلى القادم الجديد.

ـ إليك عُديّ، خذها.

كانت الذراعان اللتان تسلمتا حليمة قويتين كقوائم أسد، وعاريتين تماماً، وكذلك صدره كان عارياً أيضاً، وقد أدركت حليمة ذلك حينما رفعها نحوه. لابد أنه عملاق حقيقي.

استسلمت حليمة لقدرها هذه المرة، مسلوبة الإرادة إزاء ماينتظرها. حملها الرجل راكضاً بها فوق مايشبه عبّارة، اهتزت تحت ثقلهما اهتزازاً مزعجاً. وأخذت الأرض تصرّ تحت وطء دعسات الرجل المجهول، كما لو أنها مغطاة بحصوات صغيرة. وفي ذات الوقت أحست الفتاة بدفء أشعة الشمس اللطيفة، والتي كان نورها ينفذ عبر العصابة الموضوعة على عينيها، وفجأة انبعثت رائحة العشب الأخضر الندي، وفاح أريج الزهور.

ثم حدث ارتجاج عنيف، فأدركت حليمة أن الرجل قد قفز لتوه إلى زورق يتأرجح بقوة. فصرخت وتشبثت بكتفي العملاق، الذي أخذ يضحك بصوت حاد كأنه صوت طفولي، وبعدئذ قال في رقة:

ـ لاتجزعي، أيتها الغزالة الصغيرة. سآخذك إلى الضفة الأخرى، إننا على وشك الوصول إلى... اجلسي هناك!

وأجلسها على مقعد مريح، وشرع يجذّف.

خُيّل إليها أنها تسمع ضحكات بعيدة مفعمة بالمرح تطلقها فتيات شابات. أرهفت السمع، لا، ليست مخطئة، فالأصوات تصل بجلاء إلى مسامعها، وأحست بعزاء كبير، إذ ربما لن ينالها مكروه طالما هناك أُناس في غاية السرور.

رسا القارب إلى الشاطئ، وحمل الرجل الفتاة من جديد بين ذراعيه، وقفز إلى اليابسة. صعدا طريقاً شديد الانحدار، وحال بلوغهما ذروته، وضع الرجل حمله، وساعد الفتاة على الوقوف على قدميها. كان المكان حولهما يضج بصيحات صاخبة من كل الأرجاء. واقترب وقع دعسات العديد من الصنادل. صاح العملاق وقد اختلط صوته بضحكة مجلجلة:

ـ هاكم! إنها الآن في عهدتكن.

ثم عاد أدراجه إلى القارب في الأسفل، وتوارى مجذّفاً.

اقتربت فتاة من حليمة لتنزع عن عينيها العصابة، بينما صاحت الأخريات:

ـ ما أشد نحافتها!

ـ وكم هي صغيرة أيضاً! إنها طفلة حقاً...

ـ طفلة هزيلة جداً! لقد أنهكها السفر... لكن انظرن إلى طولها وقدّها الممشوق كأنها شجرة سرو!

انزلقت العصابة عن عيني حليمة. فتطلعت حائرة مندهشة، كانت الحدائق تحيط بها من كل صوب، حدائق حقيقية في بداية ازهرارها الربيعي. وكانت الفتيات اللواتي أحطن بها رائعات كأنهن حوريات، إلا أن أجملهن كانت تلك التي نزعت العصابة عن عينيها.

ـ أين أنا؟ سألت بصوت واهن خجول.

فشرعن في الضحك، كما لو أن حياءها كان مبعث لهوٍ لهن.

صعد الدم حينئذ إلى وجهها، إلا أن الفتاة الحلوة التي أراحتها من عصابتها أحاطت خصرها بحنان وقالت لها:

ـ لاتخشي شيئاً ياطفلتي الغالية، فأنت عند أفضل النساء.

كان صوتها عطوفاً دافئاً. فأسرعت نحوها، وأفكار غريبة تجول في مخيلتها: «ربما انتهى بي المطاف عند أحد الملوك...»

اصطحبت الفتيات حليمة في درب ضيق مفروش بحصى صغيرة بيضاء. وكانت مساكب الأزهار المزروعة بانتظام تمتد في كل الأرجاء، وقد ازدانت بأزهار التوليب والياقوتية(*) من كل الأحجام والألوان: بصلات منتفخة صفراء لامعة، وأخرى حمراء زاهية أو بنفسجية، وبعضها مبرقش ومنقط؛ كما تزاحمت باقات غضة من الزنابق البيضاء، والزهرية، وأخرى زرقاء سماوية أوزرقاء داكنة، أو ليلكية أو صفراء باهتة. وكان بعضها رقيقاً شفافاً كالزجاج. كما انتشرت أزهار البنفسج وأزهار الربيع على الحواف. وفي ناحية أخرى أكثر بعداً، تفتحت أزهار السوسن والنرجس. وكانت الزنابق البيض في كل مكان تختال ببواكير زهورها، وقد تضوّع العطر المسكر في الأنحاء. ووسط كل ذلك كانت حليمة كالمسحورة. مشت الفتيات بجوار أحواض الزهور المنتشرة على مدّ البصر، وقد أحاطت بها أشجار كثيفة شذبت بعناية، وتفتحت براعمها الضخمة عن أزهار حمراء وبيضاء وصفراء انتشرت في بعض الأرجاء.

وأوصلتهن الطريق الضيقة بعدئذ إلى أشجار رمان كثيفة مبرقشة بأزهار قرمزية. ثم توالت صفوف أشجار الليمون والدراق. وإذ بتلك الدرب تنتهي بهن في روضة أزهرت فيها أشجار اللوز والسفرجل والتفاح والأجاص... وكانت حليمة تحملق مأخوذة في كل ذلك.

ـ ماسمك ياصغيرة؟ سألت إحدى الفتيات.

ـ حليمة، قالت متمتمة بصوت يكاد لايسمع.

وعادت الفتيات يضحكن ثانية، وترقرقت الدموع في عيني حليمة.

ـ توقفن عن الضحك، ياعجائز القردة! قالت حاميتها مؤنبة إياهن.

(*) ياقوتية: زهرة جميلة من الفصيلة الزنبقية.

دعن الصغيرة وشأنها، علّ روعها يهدأ، ألا ترينها حائرة متعبة! ثم التفتت إلى حليمة قائلة:

ـ لاتحملي في نفسك عليهن لما بدر منهن، فهن صغيرات طائشات؛ وعندما ستعرفيهن جيداً، سترين أنهن لسن بشريرات، وأظن حتى أنهن سيحببنك كثيراً.

من ثم بلغت الفتيات أجمة سرو، وكان صخب ماء غامض المصدر يواكب سيرهن؛ وبدا ذاك الهدير المبهم البعيد آتياً من أحد السيول المتدفقة من علٍ. ثم أخذ شيء ما يتألق بين الأشجار، ولم تلبث حليمة أن تبينت أمره، فقد كان واجهة قصر صغير محاط بالأشجار كالسوار. وقد ابيضت واجهته تلك من انعكاس أشعة الشمس عليها. ثم ظهر أمامهنّ حوض مستدير تزينه نافورة ماء. توقفت الفتيات في تلك الناحية، وأخذت حليمة تجيل النظر حولها. كانت الجبال العالية تحيط بهن من كل جانب، وقد أرسلت الشمس أشعتها فوق الجدران الصخرية فتلألأت بسناها القمم الثلجية. حانت من حليمة التفاتة نحو الجهة التي جئن منها، فرأت صخراً عالياً هائل الضخامة كأنه جبل بحاله، وبدا أنه أُلقي هناك عن عمد ليسد الوادي الذي تطل عليه تلك الحدائق المعلقة بينهما عمودياً، والتي تشكل حولها مضيقاً جبلياً عميقاً، وفي الأفق العالي كان نور شمس الصبح يغمر قلعة محصنة شيدت فوق قمة الصخر.

ـ ماسم هذا المكان الغريب؟ سألت حليمة متوجسة، وهي تشير بيدها إلى الأسوار المحصّنة للصرحين الشامخين.

ـ سيكون أمامكِ لاحقاً متسعٌ من الوقت لتطرحي أسئلتك ـ أجابت حاميتها ـ إنك مرهقة، سنحممك أولاً، ونقدم لك ما تأكلينه، ثم ندعك ترتاحين.

أخذت حليمة ـ التي عادت إليها شجاعتها شيئاً فشيئاً ـ تتمعن رفيقاتها بفضول، فبدون لها وكلٍ منهن تفوق الأخرى سحراً وأناقة ملبس. وكان يُسمع حفيف سراويلهن الحريرية الفضفاضة حين يمشين، وقد ارتدت كل منهن اللون الذي يليق بها. أما صداراتهن المشدودات فقد طرزت تطريزاً فاخراً، وزينت بمشابك ذهبية، ورصعت

بأحجار ثمينة، وقد تكشفت عن قمصان فاتحة اللون وأخرى زاهية، نسجت من حرير تناهى في الرقة. كما زينت أيديهن بأساور نفيسة، وأحاطت أطواق من لؤلؤ أو مرجان أجيادهن. وكانت عديدات منهن قد أطلقن شعورهن، أما الأخريات فقد كوّرن مناديل حول رؤوسهن كأنها عمائم صغيرة، وانتعلن جميعهن صنادل فُصّلت بمهارة من جلود ملونة. نظرت حليمة إلى مظهرها البائس فأحست بالخجل، وقالت في نفسها:

ـ «ربما كن يسخرن مني لأجل هذا».

كان القصر الصغير الذي وقفت الفتيات أمامه دائرياً محاطاً بدرج وطيء من الحجر الأبيض ليسهل بلوغه. وقد ارتفع السقف فوق عدة أعمدة كمعابد الأزمنة الغابرة.

خرجت امرأة عادية المظهر من الحصن الصغير، كانت ضامرة فارعة كعصا طويلة، وأخذت ترشق أتباعها بنظرات لاتخلو من التعاظم. كانت ذات بشرة سمراء، ووجنتين غائرتين، وقد التمعت عيناها الواسعتان الداكنتان ببريق محموم، واستدقت شفتاها المطبقتان لتوحيا بصرامة تقارب القسوة. وكان يتبعها حيوان غريب يشبه القط، وبره أشقر وحجمه عجيب، وقد علا علواً غريباً فوق قوائمه الأربع. أخذ يحدق في حليمة وينخر نخيراً عدائياً، أطلقت الفتاة صرخة هلع وانكمشت بالقرب من حاميتها التي حاولت تهدئتها قائلة:

ـ لاتخافي من أهريماننا(*) هو فهد أصيل، لكنه مروّض أليف كالحمل ولايؤذي أحداً. وسيألفك، فتغدوان صديقين. نادت الحيوان، وأمسكته بإحكام من طوقه وهدأت غضبه، وسرعان ماتوقف عن النخير والتكشير.

ـ أرأيت ـ استأنفت كلامها ـ لقد أصبح الآن أقل وحشية، وعندما تبدلين ثيابك، ستجدينه أكثر ألفة، والآن داعبيه بيدك ليأنس لك، ولاتخافي منه، فأنا أمسك به جيداً.

(*) أهريمان: إله الشر في الديانة المجوسية القديمة.

تغلبت حليمة على شعورها الأول بالهلع، وتقدمت بحذر نحو الأمام، وفي حركة تنم عن مدى الفزع، أسندت يدها اليسرى إلى ركبتها، ومدت ذراعها وبدأت تمسح بلطف ظهر الحيوان، الذي أطلق نخيراً ودياً خفيفاً، وكأنه قط حقيقي. قفزت الفتاة إلى الخلف، وشرعت في ضحك اختلط بضحكات صاحباتها.

ـ من هي هذه القردة الرعديدة يامريم؟ استعلمت العجوز محدّجة حليمة بنظراتها.

ـ أباما، لقد أحضرها إلينا عدي منذ قليل، وماتزال حيية جداً، أجابت الفتاة التي أرشدت القادمة الجديدة. واسمها حليمة.

اقتربت العجوز متفرسة في الفتاة الغريبة من رأسها حتى أخمص قدمها، وجسّتها كما يفعل بائع الخيل بفرس أصيل.

ـ ربما جعلناها تفي بالغرض، لكن ينبغي تسمينها، فهي شديدة النحول كمسمار.

ثم أضافت، وقد تملكها غضب مفاجئ:

ـ وهذا الحيوان الأسود، الخصي صاحب النحس، تقولين أنه أحضرها لك؟ حملها بين ذراعيه إذاً! آه! هذا السافل المخصي! كيف يوليه سيدنا مثل تلك الثقة!

ـ ماقام عدي إلا بواجبه، ردت مريم. هيا بنا، حان وقت الاهتمام بتلك الطفلة.

أمسكت يد حليمة وباليد الأخرى طوق الفهد، وانطلقت بالاثنين معاً، وسارت في إثرها مجموعة صغيرة من الفتيات.

سرن في البداية في دهليز عالي السقف يحيط البناء كله، وأُقيمت جدرانه من مرمر مصقول صقلاً ناعماً، حتى أن الأشياء كانت تنعكس عليه انعكاسها عن مرآة. ومُدت سجادة فاخرة يتلاشى عليها صوت الخطى فلا تُسمع. وعند أحد المخارج العديدة، أطلقت مريم الفهد: فأخذ يثب على قوائمه الطويلة، مثل كلب، وهو يدير رأسه الصغير الرشيق بفضول نحو حليمة التي بالكاد تهيأت لها فرصة التقاط أنفاسها. ثم سلكن ممراً مستعرضاً، ودخلن قاعة عالية مقببة، صرخت

حليمة في ذهول، إذ لم تتخيل قط مثل هذا الجمال ولاحتى في الأحلام. كان السقف مغطى بفسيفساء بللورية، يرشح من ألوانها الزاهية نور قوس قزح فينصب وابل من الأشعة البنفسجية، والزرقاء، والخضراء، والصفراء، والحمراء، والبيضاء في حوض دائري تداعب ماءه بقبقة خفيفة من دفق خفي المنبع. فتحرك صفحة الحوض المتقزحة الألوان المنتشرة في كل ناحية وصولاً إلى المقاعد اللصيقة بالجدار، والمزدانة بأرائك طرزت بمهارة.

توقفت حليمة عند العتبة، فاغرة الفم، وعيناها تائهتان ذهولاً. نظرت إليها مريم وعلى وجهها ابتسامة صغيرة. ثم انحنت فوق الحوض وغمرت يدها فيه.

ـ الماء مقبول: سخونته ملائمة، قالت.

وأمرت الصبايا اللواتي كن يرافقنها بتحضير مايلزم للحمام. ثم شرعت تخلع عن حليمة ثيابها. فأحست حليمة ببعض الحرج أمام الفتيات، وحاولت في البداية أن تختبئ خلف مريم وقد أطرقت حياء، إلا أن هذا لم يمنع الأخريات من تفحصها بفضول، وهن يضحكن بصوت خافت.

ـ ابتعدن من هنا، أيتها الخسيسات! قالت مريم محتدة.

وأطعن الأمر دون كلمة منهن، وتفرقن في الحال. رفعت مريم شعر الطفلة الحلوة، وعقدته جديلة معقوصة إلى الوراء لتجنبه البلل، ثم دعتها للنزول إلى الحوض، حيث دعكتها وغسّلتها جيداً. وبعدئذ أخرجتها من الماء، وجففتها بقوة، بمنشفة ناعمة. ناولتها قميص الحرير، وألبستها السروال العريض الذي أحضرته الفتيات. وأخيراً، ارتدت صداراً جميلاً، إلا أنه كان واسعاً جداً وساعدتها على لبس سترة طويلة، انسدلت حتى الركبتين.

ـ عليك في الوقت الحاضر أن تقنعي بملابسي. وعما قريب سنفصّل أخرى جديدة على قدّك؛ وسترين حينها كم سيكون جمالها أخاذ عليك.

وأجلستها على أريكة الاستراحة المغطاة بكومة وسائد.

ـ استريحي قليلاً هنا، وسأرى ماذا هيَّأن لك من طعام شهي.

وبيدها الناعمة الوردية، داعبت وجهها. فأحست كلاهما بحبهما لبعضهما. وبلا تفكير، قبلت حليمة أنامل حاميتها الرقيقة، فتظاهرت مريم بجفاء نظراتها. إلا أن حليمة عرفت جيداً أنها لاتحمل في نفسها عليها، فابتسمت والسعادة تغمرها.

ماكادت مريم تخرج حتى أطبقت حليمة أجفانها. وحاولت في البداية التغلب على نعاسها متشبثة بفكرة واحدة: «علي أن أفتح عيني في الحال»، إلا أنها مالبثت أن غطت في نوم عميق.

وعندما استيقظت، أحست بالضياع للوهلة الأولى: ما ذاك المكان الذي وجدت نفسها فيه؟ وماذا جرى لها؟ دفعت عنها الغطاء الذي غطتها به الفتيات أثناء نومها، خشية البرد، وجلست على طرف السرير. فركت عينيها، ثم نظرت من حولها. فبدون لها بوجوهن الأنثوية، شابات يملأهن الحنان، وقد غمرهن الضوء المتقزّح. كان الوقت متأخراً في فترة العصر. جثت مريم على وسادة بالقرب منها، وناولتها كوباً من الحليب البارد. أخذته حليمة وشربته بشراهة. فقامت صديقتها التي كانت تحمل إبريقاً مزركشاً بملء كوبها من جديد، فأفرغته هذه المرة أيضاً بجرعة واحدة. اقتربت صبية ذات بشرة سوداء وقدمت لها على طبق مذهب قطع حلوى من جميع الأصناف مصنوعة من سميد القمح والعسل والفواكه. فذاقتها حليمة كلها.

ـ كم هي جائعة! قالت إحداهن.

ـ وكم هي شاحبة! قالت أخرى متعجبة.

ـ لنضع صباغاً أحمر على وجنتيها، وشفتيها، اقترحت شقراء حلوة.

ـ ينبغي أولاً أن تشبع الطفلة جوعها، قالت مريم. ثم توجهت مخاطبة الفتاة السوداء التي أحضرت الطبق المذهب قائلة:

ـ سارة! قشّري لها موزة وبرتقالة، ثم التفتت نحو حليمة وقالت:

ـ أي منهما تفضلين، ياطفلتي؟

ـ لاأعرف أياً منهما، وأود أن أتذوق الاثنتين. فأضحك جوابها الفتيات كثيراً، وابتسمت حليمة بدورها حينما قدمت لها سارة الفاكهتين الغريبتين. ولم تستطع مقاومة مذاقهما اللذيذ فأخذت تلعق أصابعها.

ـ لم أشعر قط بحال أفضل من اليوم، أسرّت القول لهن. واستحوذ ضحك مرح غير مرة على الفتيات، وابتسمت مريم نفسها، وربتت على وجه حليمة، التي أحست بالنشاط والحيوية مجدداً. فتألقت عيناها، واستعادت مرحها، وانطلقت تتحدث بثقة.

كانت الفتيات يجلسن حولها، بعضهن يطرزن، والأخريات يخطن، وجميعهن كن يطرحن الأسئلة عليها. وفي هذه الأثناء، وضعت مريم بين يدي حليمة مرآة معدنية صغيرة، ثم أخذت تضع الأحمر على خديها وشفتيها، والأسود على الحاجبين والهدب.

ـ اسمك إذاً حليمة، قالت الشقراء التي اقترحت تزيينها. أما أنا، فاسمي زينب.

ـ زينب اسم جميل، قالت حليمة باستحسان.

وانطلقت الضحكات مجدداً.

ـ ومن أين جئت؟

ـ من بخارى.

ـ لقد جئت منها أيضاً، قالت حلوة تدخلت في الحديث، ذات وجه مستدير كالبدر، وجسم مكتنز (لها ذقن صغيرة مدوّرة أخّاذة وعينان ناعستان). اسمي فاطمة. ومن كان سيدك السابق؟

همّت حليمة بالإجابة، إلا أن مريم التي كانت تزوّق شفتيها منعتها قائلة:

ـ انتظري الآن قليلاً، وأنتن، لاتفسدن عليها زينتها.

وقبلت حليمة خلسة أنامل مريم، مما استدعى تعنيفها:

ـ ابقي هادئة، أيتها البنت الخبيثة!

لكنها لم تفلح في جعل نظرتها قاسية. وتيقنت حليمة أنها اكتسبت محبتهن جميعاً. فغمرها الحبور.

ـ سيدي السابق؟ قالت مستأنفة حديثها، حينما انتهت مريم من تحمير شفتيها، وهي تنظر إلى نفسها في المرآة بعين الرضى... لقد كان تاجراً يسمى علياً، رجل طيب مسن.

ـ ولم باعك، مادام رجلاً طيباً؟ سألت زينب.

ـ كان رقيق الحال، ألمت به الفاقة، حتى لم يعد لدينا مانسد به رمقنا. وكان لهذا الرجل الكريم ابنتان هما كل ثروته، وخدعه طالبو الزواج فتناسوا أن يدفعوا له. وكان له ابن أيضاً، اختفى في أحد الأيام، كان ضحية على الأرجح لقطاع الطرق أو المرتزقة.

وترقرقت الدموع في عينيها.

ـ لقد أسموني له...

ـ ومن هم أهلك؟ سألت فاطمة.

ـ لم أعرفهم، ولاأعلم شيئاً عنهم. أذكر فقط أني كنت في بيت علي. وطيلة وجود ابنه في المنزل كنا نتدبر معيشتنا. ومن ثم حلّ بنا العوز: فكان سيدي يتأوه، وينتف شعره بمرارة، ويقضي وقته في الصلاة. وذات يوم أشارت عليه امرأته أن يأخذني إلى بخارى ويبيعني. فحملني على حمار إلى تلك المدينة. وكلما عرضني على واحد من التجار كان يستفسر مهموماً: إلى أين سيذهبون بي، ولمن سيقدمونني؟ إلى أن لقي نخاساً يشتري لحساب سيدكن. وأقسم ذاك الرجل بلحية النبي أني سألقى معاملة الأميرات. واتفق معه على الثمن، وعندما ذهبوا بي ذرف دموعاً مدرارة. وبكيت أنا أيضاً. واليوم أرى أن النخاس كان محقاً. فإني هنا فعلاً مثل أميرة...

كانت الفتيات يبتسمن متأثرات، وهن يتبادلن النظرات الخاطفة بأعين دامعة.

ـ وسيدي بكى أيضاً وهو يبيعني، قالت زينب. فأنا لم أولد أمَة. وكنت صغيرة جداً عندما خطفني الأتراك، واصطحبوني معهم إلى

أعماق سهوبهم. تعلمت ركوب الخيل، ورمي القوس كالصبية. لقد أعجبتهم كثيراً عيناي الزرقاوان، وشعري الأشقر. فجاؤوا يترصدونني عن بعد. وقدّروا لو أن واحداً من كبار القوم علم بوجودي لاشتراني من فوره. ثم جاءنا جيش السلطان، وقُتل سيدي. وكان عمري حينئذ حوالى عشر سنين. وتقهقرنا على أعقابنا أمام جحافل الأعداء بعد مذبحة كبرى قُتل فيها الخيل والرجال. وأصبح ابن سيدي في منزلة كبير العائلة. شغف بي واتخذني في حريمه زوجة شرعية له. لكن السلطان أسر الجميع، وأصبح سيدي فظ الطباع، فكان يضربنا كل يوم. ولقد أبى أن يُذعن لسلطة الأمير. أخيراً، عقد الزعماء الصلح فيما بينهم. وجاء نخاسون إلينا، وشرعوا في المساومة. رآني نخاس أرمني فأخذ يلاحق سيدي؛ وعرض عليه الماشية والمال. وذات يوم، رأيت أولئك النخاسين يدخلون خيمته: وماأن لمحني سيدي حتى استلّ خنجره، وأراد أن يطعنني به، خشية أن يُغرى ببيعي. إلا أن النخاس كفّ يده عن ذلك، وانتهى بهم الأمر إلى إبرام الصفقة. وحسبت الهلاك مصيري. وساقني الأرمني إلى سمرقند. لقد كان رجلاً قبيحاً. وهناك باعني إلى سيدنا. لكن ذلك كله أصبح من الماضي...

ـ لقد تألمت كثيراً، أيتها المسكينة الصغيرة، همست حليمة وهي تداعب وجهها بحنان.

ـ أكنت زوجة لسيدك؟ استفسرت فاطمة.

أحست حليمة بالدم يصعد إلى وجهها.

ـ لا.. ماقصدك من ذلك؟

ـ فاطمة، لاتسأليها أسئلة كتلك، اعترضت مريم حانقة، ألا ترين أنها ما تزال طفلة؟

ـ أماكان علي أن أكابد هذا، وذلك قبل بلوغي عمرها بكثير؟ قالت فاطمة متحسرة. لقد باعني بعض الأقارب أنا وأمي، إلى فلاح. وكنت بالكاد في العاشرة من عمري عندما فُرض علي أن أكون امرأته. كان رجلاً مديناً، ولما عجز عن السداد، قدمني لغريمه لقاء الدين. لكنه نسي

البوح له أني كنت زوجته. فكان أن أذلني سيدي الجديد بشتائمه، ولم يتوقف عن جلدي وتعذيبي، صارخاً في كل مكان، أني والفلاح دلّسنا عليه، وأقسم بجميع الشهداء أنه سيقتلنا. ولم أكن أفقه شيئاً من كل ذلك. كان سيدي عجوزاً بشعاً، وكنت أرتجف أمامه كما لو أني بحضرة سلطان. وأخذت زوجاته الأوَل يضربنني، وتركهن يفعلن ذلك. ثم أحضر امرأة رابعة ليكون معها في غاية اللطف، الأمر الذي زاد من فظاظته نحونا. في نهاية الأمر أنقذنا قائد قافلة سيدنا الذي اشتراني زينة لهذه الحدائق...

كانت حليمة تنظر إليها من خلال دموعها. ثم ابتسمت وقالت:

ـ أرأيت، هاقد انتهى المطاف بك هنا، وأنت اليوم في أحسن حال.

ـ كفى حديثاً اليوم، قاطعتهنّ مريم. ستظلم عما قريب، وأنت منهكة بمافيه الكفاية. غداً سيكون لدينا عمل. هاك هذا العود لتنظفي به أسنانك.

أعطتها مسواكاً رفيعاً شائكاً وفي نهايته خيوط دقيقة؛ وكان من السهل تخمين كيفية استعماله. وناولنها كوباً صغيراً من الماء، وعندما فرغت منه، صحبنها إلى غرفتها.

ـ سارة وزينب، ستكونان رفيقتيك ـ قالت لها مريم.

ـ حسن، أجابت حليمة.

كانت أرض الغرفة مفروشة بسجاد مزركش، حيك من صوف كثيف، كما مدّ السجاد على الجدران، وعلى السرير الوطيء الذي زينته وسائد طُرزت برهافة. وبجانب كل سرير منضدة صغيرة للزينة، نقشت بمهارة، وعلتها مرآة مفضضة. وتوسطت السقف ثريا مذهبة، ذات أشكال غريبة متشابكة، وقد حملت خمسة مصابيح.

ألبست الشابات حليمة غلالة من الحرير الأبيض، وعقدن شريطاً أحمر حول خصرها، ثم أجلسنها أمام المرآة. وسمعتهن يتهامسن حول سحرها وروعتها. «نعم، حقاً إني لجميلة، جميلة كأميرة ـ قالت في نفسها متأملة.» ثم تمددت على السرير، وأخذت الفتيات يرتبن لها

الوسائد. غطينها بلحاف من ريش، وانسحبن على رؤوس أصابعهن. غاصت برأسها في الوسائد الناعمة، مستسلمة لرقاد هانئ، وقد اطمأنت أخيراً إلى سعادتها.

أيقظتهن خيوط الشمس الأولى المتألقة خلف النافذة. ففتحت حليمة عينيها، واستغرقت في تأمل الرسوم الملونة على السجاد. وأحست للوهلة الأولى أنها ماتزال في السفر. إذ أبصرت على الحائط صياداً على جواد يتعقب ظبياً، ورمحه في يده. وفي الأسفل نمر وجاموس، يتنازعان بوحشية؛ ومن خلف ترسه، كان عبد أسود يسدد رأس حربته على أسد هائج؛ وفي موضع آخر، رأت فهداً يترصد غزالاً. وحينها ردّت أحداث العشية ذاكرتها إليها: فعرفت أخيراً أين هي.

ـ صباح الخير، يامرموطتي الصغيرة![*] قالت زينب تحييها ـ وأقبلت لتجلس على سرير صديقتها.

تطلعت حليمة إليها، مسحورة بها: كان شعرها يتلألأ تحت الشمس كالذهب الخالص، وقد تناثرت خصله الجعدة على كتفيها. «أجمل من جنية»، قالت في نفسها. ثم ردت التحية، وهي جدّ مسرورة، وألقت نظرة على السرير الآخر. كانت سارة لاتزال نائمة، نصف عارية، ولحم جسدها الأسمر يلمع كالأبنوس[**]. فتحت عينيها، وقد أيقظها حديث جارتيها. كانتا متألقتين كنجمتي ليل داج. حدقت في حليمة، وابتسمت ابتسامة غريبة، ثم سرعان ما غضّت الطرف، كأنها قطّة أزعجتها نظرة البشر. نهضت واقتربت من سرير حليمة، وجلست بدورها عليه.

ـ في مساء الأمس، عندما أخلدنا للنوم، لم تستمعي إلينا، قالت. وقبلناك، إلا أنك وببساطة، أدرت ظهرك لنا، متأففة مستاءة.

أخذت حليمة تضحك، رغم أن نظرة الجمال الأسود أخافتها بعض الشيء. ولاحظت أيضاً زغباً خفيفاً يزين الشفة العليا للفتاة الغريبة.

(*) المرموط: حيوان لبون قاضم، ينام طول الشتاء.
(**) الأبنوس: خشب أسود، يؤخذ من شجر الأبنوس.

ـ لم أسمعكن على الاطلاق، أجابت. كانت سارة تحملق فيها. وأرادت أن تقبلها، لكنها لم تجرؤ على ذلك. وألقت نظرة عابرة على زينب التي جلست قبل برهة أمام مرآتها تمشط شعرها.

ـ ينبغي أن نغسل شعرك اليوم، همست سارة في أذن حليمة. أتأذني أن أقوم بذلك؟

ـ بطيبة خاطر.

وكان عليها أن تنهض أخيراً، وأخذتها صاحبتاها إلى غرفة حمام أُعد لاستخدامهن الخاص.

ـ أتستحممن كل يوم؟ قالت متعجبة.

ـ بالطبع! أجابت الفتاتان وهما تضحكان.

ثم غمرنها في مغطس خشبي، وانتهى بهما الأمر أخيراً إلى رشها بالماء بدلال وغنج كبيرين.

أرسلت الصيحات والضحكات، ثم جففت جسدها بمنشفة، ولبست ثوباً على عجل، وقد سرّتها البرودة المنعشة.

تناولن طعام الفطور في غرفة طعام مستطيلة. وقد اتخذت كل منهن مكانها المحدد، أحصتها حليمة فكانوا أربعة وعشرين كرسياً، بما فيها كرسيها. أجلسنها على رأس الطاولة، إلى جانب مريم.

ـ ماذا تحسنين من عمل؟ سألتها مريم على حين غرّة.

ـ أعرف التطريز والخياطة، والطبخ أيضاً.

ـ أتقرئين وتكتبين؟

ـ أعرف شيئاً من القراءة.

ـ ينبغي إتمام هذا، وفن الشعر؟

ـ لم أدرسه.

ـ حسن، سنعلمك كل ذلك، وأموراً أخرى أيضاً.

ـ هذا أفضل، قالت حليمة متحمسة فرحة، لقد تاقت نفسي للتعلم دوماً.

ـ اعلمي أننا نتبع هنا توقيتاً مدرسياً دقيقاً، وعليك أن تتقيدي به

[illegible] من ريش، وانسحبن على رؤوس أصابعهن. [illegible] في الوسائد الناعمة، مستسلمة لرقاد هانئ، وقد [illegible] إلى سعادتها.

أيقظتهن خيوط الشمس الأولى المتألقة خلف النافذة. ففتحت حليمة عينيها، واستغرقت في تأمل الرسوم الملونة على السجاد. وأحست للوهلة الأولى أنها ماتزال في السفر. إذ أبصرت على الحائط صياداً على جواد يتعقب ظبياً، ورمحه في يده. وفي الأسفل نمر وجاموس، يتنازعان بوحشية؛ ومن خلف ترسه، كان عبد أسود يسدد رأس حربته على أسد هائج؛ وفي موضع آخر، رأت فهداً يترصد غزالاً. وحينها ردّت أحداث العشية ذاكرتها إليها: فعرفت أخيراً أين هي.

ـ صباح الخير، يامرموطتي الصغيرة![*] قالت زينب تحييها ـ وأقبلت لتجلس على سرير صديقتها.

تطلعت حليمة إليها، مسحورة بها: كان شعرها يتلألأ تحت الشمس كالذهب الخالص، وقد تناثرت خصله الجعدة على كتفيها. «أجمل من جنية»، قالت في نفسها. ثم ردت التحية، وهي جدّ مسرورة، وألقت نظرة على السرير الآخر. كانت سارة لاتزال نائمة، نصف عارية، ولحم جسدها الأسمر يلمع كالأبنوس[**]. فتحت عينيها، وقد أيقظها حديث جارتيها. كانتا متألقتين كنجمتي ليل داج. حدقت في حليمة، وابتسمت ابتسامة غريبة، ثم سرعان ما غضّت الطرف، كأنها قطّة أزعجتها نظرة البشر. نهضت واقتربت من سرير حليمة، وجلست بدورها عليه.

ـ في مساء الأمس، عندما أخلدنا للنوم، لم تستمعي إلينا، قالت. وقبلناك، إلا أنك وببساطة، أدرت ظهرك لنا، متأففة مستاءة.

أخذت حليمة تضحك، رغم أن نظرة الجمال الأسود أخافتها بعض الشيء. ولاحظت أيضاً زغباً خفيفاً يزين الشفة العليا للفتاة الغريبة.

(*) المرموط: حيوان لبون قاضم، ينام طول الشتاء.

(**) الأبنوس: خشب أسود، يؤخذ من شجر الأبنوس.

ـ لم أسمعكن على الاطلاق، أجابت. كانت سارة تحملق فيها. وأرادت أن تقبلها، لكنها لم تجرؤ على ذلك. وألقت نظرة عابرة على زينب التي جلست قبل برهة أمام مرآتها تمشط شعرها.

ـ ينبغي أن نغسل شعرك اليوم، همست سارة في أذن حليمة. أتأذني أن أقوم بذلك؟

ـ بطيبة خاطر.

وكان عليها أن تنهض أخيراً، وأخذتها صاحبتاها إلى غرفة حمام أُعد لاستخدامهن الخاص.

ـ أتستحممن كل يوم؟ قالت متعجبة.

ـ بالطبع! أجابت الفتاتان وهما تضحكان.

ثم غمرنها في مغطس خشبي، وانتهى بهما الأمر أخيراً إلى رشها بالماء بدلال وغنج كبيرين.

أرسلت الصيحات والضحكات، ثم جففت جسدها بمنشفة، ولبست ثوباً على عجل، وقد سرّتها البرودة المنعشة.

تناولن طعام الفطور في غرفة طعام مستطيلة. وقد اتخذت كل منهن مكانها المحدد، أحصتها حليمة فكانوا أربعة وعشرين كرسياً، بما فيها كرسيها. أجلسنها على رأس الطاولة، إلى جانب مريم.

ـ ماذا تحسنين من عمل؟ سألتها مريم على حين غرّة.

ـ أعرف التطريز والخياطة، والطبخ أيضاً.

ـ أتقرئين وتكتبين؟

ـ أعرف شيئاً من القراءة.

ـ ينبغي إتمام هذا، وفن الشعر؟

ـ لم أدرسه.

ـ حسن، سنعلمك كل ذلك، وأموراً أخرى أيضاً.

ـ هذا أفضل، قالت حليمة متحمسة فرحة، لقد تاقت نفسي للتعلم دوماً.

ـ اعلمي أننا نتبع هنا توقيتاً مدرسياً دقيقاً، وعليك أن تتقيدي به

بدقة. وأحذرك أيضاً من أمر: لاتطرحي أسئلة حول مواضيع لاتتصل مباشرة بمواد الدراسة.

في ذاك اليوم، بدت لها مريم أكثر جدية، وأكثر صرامة من الأمس. ورغم ذلك شعرت حليمة أنها ذات حظوة لديها، وتحمل لها حتى الكثير من المودة.

ـ سأطيعك في كل شيء، وسأعمل كل ماتريدين أن أفعله، قالت معاهدة إياها.

كان واضحاً أن مريم تتمتع بشيء من الرفعة على أقرانها، وحيّر ذلك حليمة بعض الشيء، إلاأنها لم تجسر على طرح الأسئلة. أفطرت الفتيات حليباً وقطعاً صغيرة من الحلوى المصنوعة من الفواكه المجففة والعسل، ثم تناولت كل منهن برتقالة.

وبعد الفطور، بدأ التعليم. دخلن غرفة محاطة بالزجاج وفي وسطها حوض ـ كان ذاك هو المكان الغريب الذي أعجب حليمة كثيراً في العشية الماضية. جلسن على أرائك، وأسندت كل منهن لوحاً صغيراً إلى ركبتيها القائمتين أمامها، وهيأن أقلامهن، وانتظرن. وكانت مريم قد خصصت مكاناً لحليمة، وأعطتها ما تكتب به.

ـ أمسكيه كما ترين الأُخريات يفعلن، وإن كنت لاتعرفين الكتابة بعد. سأعلمك لاحقاً؛ أما اليوم فتدربي على إمساك اللوح والقصبة.

ثم اتجهت نحو باب المدخل وضربت الصنج المعلّق على الجدار. وفي اللحظة التالية دخل زنجي عملاق القاعة، وفي يده كتاب ضخم. كان يرتدي سروالاً قصيراً مخططاً ورداءً مفتوحاً من الأمام، ينسدل عليه حتى العقبين. وفي قدميه انتعل صندلاً متواضعاً، واعتمر عمامة خفيفة حمراء. جلس متربعاً، قبالة الفتيات، على أريكة أُعدت له.

ـ اليوم، عصفوراتي، وحماماتي، سنستأنف قراءة مقاطع من القرآن ـ وعند تلك الكلمة، وضع جبهته بخشوع على كتابه ـ وفيها حدثنا النبي عن مباهج وملذات الدار الآخرة. أرى بينكن فتاة شابة حديثة العهد، تشع عيناها حيوية وفضولاً، تلميذة نهمة للمعرفة،

وأتصورها فاتنة في كل شيء. ولئلا تفوتها جُذاذة حكمة مهما ضؤلت، ولاذرة علم مهما صغرت، فإن فاطمة الحاذقة الأريبة، ستعيد علينا قراءة وتفسير ماأفلح البستاني المخلص «عدّي» حتى اليوم في غرسه وزرعه في قلوبكم الصغيرة...

نعم، لابد أنه كان عدي، ذاك الرجل الذي نقلها في الأمس إلى هذه الحدائق! إذ تعرفت عليه حالما سمعت صوته. واجتاحتها رغبة بالضحك، إلا أنها تمالكت نفسها بشجاعة.

رفعت فاطمة نحو المعلم ذقنها الجميلة المستديرة، وشرعت تتلو بصوت عذب شبه مغنّى:

ـ نقرأ في السورة الخامسة عشرة، من الآية الخامسة والأربعين، وحتى الآية الثامنة والأربعين: «إن المتقين في جنات وعيون. ادخلوها بسلام آمنين. ونزعنا مافي صدورهم من غلّ(*) أخواناً على سرر متقابلين. لايمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرَجين.»

أثنى عليها عدي، ثم تلت عدة مقاطع أخرى عن ظهر قلب، وعندما انتهت، التفت نحو حليمة وقال:

ـ غزالتي الفضية، ذات الخطى الرشيقة، والذهن المتوقد، لقد أعجبتك حبات اللؤلؤ التي تزين كلام رفيقتك الصغيرة، أختك صغيرة السن، كبيرة الحكمة، وتبصرين مازرعه علمي ونفاذ بصيرتي، وما أفلحا في إنباته في صدور حورياتنا ذَوات العيون الجميلة. وأنت اليوم أيضاً انزعي من قلبك التصبْيُن، واصغي اصغاء اللبيب لما سيكشفه لك علمنا المقدس، فتظفري بالسعادة في الدنيا وفي الآخرة.

ومن ثم شرع يتلو متمهلاً سورة جديدة، وهو يشدد على مخارج حروف كل كلمة، وانطلقت الأقلام تخطّ على عجل مصدرة صريراً فوق الألواح الصغيرة. وأخذت الفتيات يحركن شفاههن ويكررن بصوت منخفض ماكانت تخطه أيديهن.

(*) غلّ: حقد.

انتهى وقت الدرس، وأطلقت حليمة لنفسها العِنان. وقد بدا لها كل شيء مضحكا وغريبا، وكأنه وهم خيال. وقف الرجل الزنجي، ثم وبإجلال ألصق جبهته ثلاث مرات بكتابه، وقال:

ـ فتياتي الحلوات، وتلميذاتي النجيبات، كم أنتن رشيقات ويقظات، كفانا اليوم علماً، وحسبكن ما تلقيتن من بذار حكمتي! وكل ماسمعتن وكتبتن بأمانة على ألواحكن، ثبتنه جيداً في عقولكن، واحفظنه غيباً دون أن تسهَيْنَ عن شيء منه. واحرصن أخيراً على تعليم هذه القطاة اللطيفة، رفيقتكن الصغيرة، العلوم المقدسة، وعلى قلب جهلها إلى معرفة.

وابتسم ليفتر ثغره عن صفين من الأسنان البيضاء، ثم جال بعينيه المستديرتين برزانة مصطنعة، وغادر بوقار قاعة الدرس.

وما كاد الستار ينسدل من جديد حتى انفجرت حليمة ضاحكة. وسرعان ماانتقل مرحها إلى الأخريات، إلا أن مريم زجرتها بلهجة صارمة قائلة:

ـ حليمة، لاتعودي للسخرية مطلقاً من عدي، ربما للوهلة الأولى بدا غريباً بعض الشيء، لكن له قلباً من ذهب، ويفعل أي شيء من أجلنا. وهو صاحب علم غزير، سواء في مجال القرآن أو الفلسفة الدنيوية. كما أنه ضالع في الشعر والبلاغة، ويعرف القواعد العربية والفارسية. ويوليه سيدنا ثقة كبيرة...

أطرقت حليمة بصرها، وشعرت بالخجل. إلا أن مريم أضافت وهي تداعب وجهها:

ـ صحيح أنك ضحكت، لكن لابأس عليك. فأنت الآن تعرفين، وستتصرفين على نحو مختلف في المستقبل.

وبعدئذ حيتّها بإيماءة من رأسها، وسارت في إثر البنات الأخريات نحو الحدائق.

حرصت سارة على اصطحاب حليمة بنفسها إلى الحمام لتغسل لها شعرها. وبدأت بتشعيثه ثم خلعت عن حليمة ثيابها حتى الخصر.

كانت يداها ترتعشان قليلاً، وشعرت حليمة بضيق مزعج، إلا أنها آثرت ألا تعر الأمر كبير اهتمام.

ـ من هو سيدنا إذن؟ سألت.

كان الفضول أقوى منها. ودون أن تقف على السبب، أدركت أن لها تأثيراً ما على سارة، التي ومن فورها استعدت للإجابة فوشوشتها ورجفة غريبة في صوتها:

ـ سأقول لك كل ما أعلمه، لكن الويل لك إن خنتني. ثم ينبغي أن تحبيني. أتعدينني بذلك؟

ـ أعدك.

ـ نحن جميعاً ملك لسيدنا، أي مولانا. وهو سيد متنفذ قوي، قوي جداً. وماذا أقول لك أيضاً...

ـ تكلمي!

ـ ربما لن ترينه أبداً. إذ مضى عام على وجودنا هنا، أنا وبعض الفتيات، ولم نلمحه بعد.

ـ ومن هو «مولانا»؟

ـ انتظري! سأقول لك كل شيء. أتدرين من العظيم الذي يلي الله مرتبة لدى الناس؟

ـ الخليفة.

ـ خطأ! ولاحتى السلطان نفسه. إن العظيم الذي يلي الله، هو سيدنا.

جحظت عينا حليمة من الذهول. وشعرت أنها تعيش حكاية حيكت من أسرار. لا، لن تكتفي بعد اليوم بالاستماع إلى الراوي، لكنها ستكون نفسها جزءاً من الحكاية...

ـ أتقولين أن أياً منكن لم تبصر سيدنا حتى اليوم؟

مالت حليمة على أذنها وهمست:

ـ بلى، واحدة منا تعرفه جيداً. لكن الويل لنا لو عرف أحد ما أننا نتكلم في ذلك.

ـ سأصمت عن ذلك صمت القبور. لكن من هي التي تعرف سيدنا جيداً؟

خمّنت حليمة تماماً من تكون تلك. إنما أرادت فقط أن تستوثق من الأمر.

ـ إنها مريم، وشوشت سارة. لقد دخلت في حظوته... إنما ويل لك إن خنتني.

ـ لن أبوح بهذا لأحد.

ـ حسن، لكن عليك أن تحبيني، إذ أني وثقت بك.

كان الفضول ينهش حليمة أكثر فأكثر، فسألت مجدداً:

ـ ومن هي تلك العجوز التي صادفناها في الأمس أمام البيت؟

ـ إنها «أباما». لكن الكلام عنها أكثر خطورة من الكلام عن مريم. فمريم طيبة وتحبنا. لكن أباما شريرة وتكرهنا. وهي أيضاً تعرف سيدنا جيداً. لكن حذار، إياك أن يفلت لسانك، ولاتطلعي أحداً على ماعرفته!

ـ لن أخونك أبداً، ياسارة.

وعجلت الصبية السوداء في غسل شعرها. وهمست في أذنها:

ـ كم أنت ناعمة ياحليمة!

تضايقت الصبية الأخرى إلا أنها تظاهرت بعدم سماعها شيئاً. فمازال هنالك أشياء كثيرة تود الاطلاع عليها.

ـ وعديّ ذاك؟ تابعت الحديث.

ـ إنه خصيّ.

ـ خصيّ؟

ـ هو رجل، إنما ليس برجل حقاً.

ـ لاأفهم جيداً.

وشرعت سارة في شروح أكثر دقة، وحينئذ قاطعتها حليمة متبرمة:

ـ لاأود سماع كلام عن هذا الأمر.

ـ عليك سماع أمور أخرى كثيرة من هذا القبيل.

كانت تبدو على سارة ملامح المهانة. ولما انتهت من غسل شعر صاحبتها، شرعت في دهنه بالزيوت العطرة. ثم مشطته. آه! كم ودت لو تحضنها وتقبلها. إلا أن حليمة نظرت إليها من أسفل نظرة شزر مما جعل سارة تخشى أن تجازف بحركة. دعتها للخروج من غرفة الحمام واصطحبتها إلى مكان مشمس لتجف خصلات شعرها بسرعة.

يمكن القول على وجه الدقة، بأنها المرة الأولى التي تجد حليمة فيها نفسها وحيدة، وذلك منذ ولوجها ذاك العالم الغريب. لم تدرِ شيئاً عما حولها؛ لاأين هي ولاماذا ينبغي أن تفعل. الأسرار وحدها كانت تكتنفها. إلا أن ذلك لم يزعجها، بل سرّها. كما لم يكن ذاك العالم الخليق بالجن والعفاريت ليزعجها. إذ كان ثمة مايشبع فضولها! وقالت في نفسها: «من الأنسب أيضاً أن أبدو ساذجة في تصرفاتي، وبذلك لاألفت الأنظار إلي، وأستطيع أن أندس في أي مكان أشاء. ثم إن تصرفي على هذا النحو، سيجعل الأخريات يولينني عناية أكبر عن طيب خاطر...»

ماباحت به سارة من أسرار قذف بحليمة إلى عالم مليء بألغاز شدتها بدورها إلى إمعان تفكيرها في كل شيء. فهاهي مريم اللطيفة والمفعمة بالطيبة، والتي عرفت حليمة الكثير عنها، هي أيضاً لها وجه خفي آخر. فعلاقاتها طيبة مع سيدنا. لكن ماذا يعني ذلك؟ وما هي امتيازات أباما، تلك الشريرة، والتي مع ذلك تربطها أيضاً عروة وثقى مع سيدنا؟ وذاك المهرج عديّ، علام يوليه سيدنا تلك الثقة الكبيرة على حد قول مريم؟ وأخيراً من هو سيدنا، «مولانا» عظيم الشأن، الذي لاتجرؤ سارة على الحديث عنه إلا بصوت هامس.

لم تطق المكوث في مكانها، فانطلقت مقحمة نفسها، منقِّبة، في درب ضيق. وانحنت فوق الأزاهير الصغيرة، مخيفة الفراشات التي كانت تملأ المكان. بينما كان النحل البري والدبابير المبرقشة، المحملة بغبار الطلع تطن من حولها. وذباب صغير وحشرات أخرى كانت تحوم في دفء الشمس الربيعية. أفرحت تلك الخلائق الكثر قلب حليمة وجعلتها في انسجام متناغم مع الطبيعة كلها. وهاهي حياتها الماضية

ال[illegible]جرة قد طواها النسيان كما طوى مخاوف وشكوك الرحلة الشاقة. وقلبها اليوم يخفق فرحاً وابتهاجاً بالحياة. وأحست أنها حقاً قد حلت في جنان النعيم.

تحرك شيء ما في دَغل أشجار الرمان. فأصغت السمع. وإذ بحيوان رشيق بقوائم دقيقة، يثب من خلف أوراق الشجر. «غزالة»، قالت في نفسها. توقفت الغزالة محدقة بعينيها العسليتين. وبعد أن تجاوزت الصبية شعورها الأول بالخوف، جلست القرفصاء ودعت الحيوان للاقتراب منها، وأخذت تقلد دون قصد الرجل الغريب الذي كان يفسر القرآن، قائلة:

- غزالتي الصغيرة، نحلتي الصغيرة، تثغين وأنت تقتربين مني، بقوائم رشيقة، وقرون دقيقة، أترين، لم أعد أستطيع أن أسترسل أكثر في ذلك الكلام، فأنا لست العالِم عدي. تعالي إلى حليمة الصبية الجميلة التي تحب الغزالة اللطيفة الصغيرة...

ولم تستطع أن تمنع نفسها من الضحك على ذلاقة لسانها. اقتربت الغزالة، وخطمها ممدود للأمام، وأخذت تشتمّ حليمة وتلعق وجهها. ضحكت الصبية مسرورة بتلك المداعبة، وتظاهرت بالدفاع عن نفسها، في حين مضى الحيوان أكثر فأكثر في ملاعبته. وفجأة أحست بوجود آخر لايقل حيوية، واستطاعت أن تشعر حتى بنَفَسه، اقترب منها من خلف ظهرها إلى أن لامس أذنها. استدارت، ثم تسمّرت من الخوف. إذ كان يقف على مقربة منها أهريمان، الفهد الأصفر، الذي سرعان ما أخذ يزاحم بحفاوة جامحة الغزالة. وقعت حليمة على قفاها وبالكاد لامست الأرض بيديها. لم تستطع الصراخ ولا القيام من جديد. وبعينين مفعمتين بالقلق حدقت إلى القط الناهض على قوائمه، مترقبة لحظة وثوبه عليها. إلا أن الحيوان كان واضحاً أنه لايحمل لها نية عدوان. وسرعان ماكفّ عن الاهتمام بها، والتفت للمرح مع الغزالة ممسكاً أذنيها متطاولاً نحو عنقها ممازحاً. كانت بينهما بلاريب معرفة وثيقة وصداقة ودودة. وتجاسرت حليمة فجأة، فعانقت بذراعيها رقبتيْ الحيوانين. نخر الفهد وشرع يموء كأنه قط حقيقي، في حين عاودت الغزالة لعق وجه الصبية التي تفننت في مداعبة الحيوانين مخاطبة

إياهما بأرق العبارات. وحارت في فهم صداقة تربط فهداً بغزالة في هذه الدنيا، في حين أن الله، كما يقول النبي، قد خصّ أهل الجنة بتلك المعجزة.

ترامى إلى حليمة صوت نداء. فهبت منطلقة باتجاه الصوت. تبعها أهريمان، ترافقه الغزالة التي اندفعت نحوه تلهو مداعبة، وهي تكيل له يمنة ويسرة ضربات قوية من رأسها، كما لو أنها جديٌ فتيّ؛ لكنه لم يعرها أدنى انتباه، مكتفياً بامساك أذنها من حين لآخر ممازحاً.

انضمت حليمة إلى صاحباتها اللواتي كن ينتظرنها لأجل حصة الرقص. عقصن شعرها في جديلة خلف رأسها واصطحبنها إلى القاعة الزجاجية.

كان استاذ الرقص هو الخصيّ «أسعد»، شاب متوسط القامة، أمرد، ذو ليونة شبه أنثوية. وكان أيضاً أفريقياً وجلد بشرته داكناً، إلا أن اسوداده أقل من عدي. وجدته حليمة جذاباً ومضحكاً. ولدى دخوله خلع رداءه الطويل ووقف أمامهن بسروال أصفر شديد القِصَر. انحنى محيياً إياهن وقد ابتسم ابتسامة لطيفة، فرك يديه مسروراً، ودعا فاطمة لتعزف على القيثار ثم انطلق منهمكاً في التواءات كثيرة بارعة، وذلك على إيقاع الآلة الموسيقية.

كانت براعة فنه تقوم على تحريك البطن والتحكم بعضلاته. وبدقيق العبارة فإن حركة الذراعين الدائرية، وخطوات الرقص لم تكن إلا نوعاً من المصاحبة الإيقاعية لباليه حقيقي يشترك فيه البطن. انتهى الراقص من عرض ماينبغي فعله؛ وتوجب على الفتيات حينئذ أن يبذلن جهدهن في محاكاته. أمرهن أن يخلعن صداراتهن وأن يتعرين حتى الخصر. ألمّ بحليمة ضيق شديد، لكنها حين رأت الأخريات يذعنّ دون قلق كبير، قلدتهن عن طيبة خاطر. أشار المعلم إلى سليقة ثم إلى فاطمة لتكونا البادئين بالرقص، ثم تناول من جانبه مزماراً طويلاً رفيعاً وانطلق في العزف. ووحدها حليمة راقبت سليقة: قوامٌ هو الأجمل بلا ريب؛ وأطراف مستديرة، رشيقة، وجلد كالمخمل نعومةً. كانت في مقدمة الصف تساعد المعلم في الرقص، وتنفذ بدقة مايطلبه؛ بينما كانت الأخريات يقلدنها بأقصى جهد استطعنه. كان المعلم والمزمار في

يده يتنقل فيما بينهن، معايراً معايرة الخبير رشاقتهن وأداء عضلاتهن، مصححاً بنفسه ومؤدياً الحركة المطلوبة...

بعد انتهاء الدرس، أحست حليمة المنهكة بجوع يمضّها. عادت أدراجها مجدداً إلى الحدائق، لكنها حرصت على ألا تبتعد كثيراً، إذ كان في انتظار الفتيات مادة جديدة: وتدور هذه المرة حول علم العروض. أسرّت حليمة لسارة أن معدتها تقرقر جوعاً. فأشارت إليها أن تنتظرها، وانسلت متوارية داخل القصر؛ وبعد برهة قصيرة عادت ودست في يديْ حليمة موزة مقشرة، قائلة لها:

ـ لايُسمح لنا بالأكل بين الوجبات. ومريم صارمة جداً في هذا الخصوص: إذ تخشى أن ترانا مكتنزات اللحم. ومن المحتم أنها ستعاقبني إن هي علمت بما فعلته لتوي من أجلك.

لاتجرؤ على الطعام خشية السمنة! بدا ذلك لحليمة أمراً عجباً، فالعكس عندها هو الصحيح! كلما ازدادت المرأة سمنة، كلما أصابها الاستحسان. ومانطقت به سارة منذ قليل ليس مزحة جديدة، إذ أن تلك البقعة المدهشة من الأرض تزخر بأشياء حلوة كثيرة!

كان عليهما العودة إلى قاعة الدرس، حيث يدرّس عدي أيضاً الفن الشعري. وقد ألِفت حليمة تلك المادة أكثر المواد تسلية. حتى أنها ـ بوجيز العبارة ـ هامت بها من اللحظة الأولى.

أخذ المعلم اللطيف يفصّل في تحليل البيت الأول من الغزل، وكان على الفتيات أن يمعنَّ خيالهن فيه. ثم أنشدت مريم البيت الشعري المراد الارتجال على وزنه، ولم تُكلَّف بقية الوقت بشيء، بينما انهمكت الفتيات على التنافس فيمابينهن، وهن يضعن قوافي تلو الأخرى. وبعد حوالى عشرة أبيات استنفدت غالبيتهن قوة ابتكارهن؛ ولم يتبق في حلبة التنافس غيرفاطمة وزينب، اللتان استبسلتا بعناد، ومع ذلك انتهى بهما المطاف إلى طلب الرحمة. في المحاولة الأولى والثانية، ترك عدي حليمة في سلام؛ بغية أن تألف الموضوع. وحين سمعته يدعوها أن تحضّر نفسها للهجوم الثالث غمرتها سعادة عارمة. أحست أن إدراكها للأمر سطحي، إلا أن الثقة التي أوكلت إليها أطربتها، فرغبت في سريرتها أن تقيس نفسها بالأخريات.

ونطقت مريم بالبيت الأول:

ـ «لو أن لي جناحي عصفور ذي زرقة...»

انتظر عدي بعضاً من الوقت، ثم طلب منهن الكلام كل بدورها. فأجبن الواحدة تلو الأخرى:

سليقة: «لطرت بهما نحو الشمس الساطعة...»

سارة: «ولملأتني الطيبة حتى الثمالة...»

عائشة: «ولساعدت كل ذي فاقة...»

سيت: «ولشدوت بأغنية تضج بالفرحة...».

جادا: «وبحثت دوماً عن الحقيقة...».

وحينئذ، أومأ عدي برأسه إلى حليمة، داعياً إياها بلطف إلى متابعة قول الشعر. بذلت محاولتها وقد احمروجهها:

ـ «أود معك...».

وفجأة توقفت عن الكلام.

ـ الكلمات على طرف لساني، قالت حليمة معتذرة.

ضحكت الفتيات جميعهن. وأشار عدي إلى فاطمة قائلاً:

ـ هيا، فاطمتي الصغيرة، ساعديها.

أكملت فاطمة بيت حليمة قائلة: «أود لو أحلق معك نحو السرمدية.»

أسرعت حليمة تستعيد دورها.

ـ لا، ليس هذا ماأردت، قالت متبرمة. انتظروا، سأعثر على الكلمات وحدي.

وانطلق صوتها في جلاء:

ـ «... أود أن أنطلق معك نحو الجنان اللازوردية.»

وتعالى صخب الضحك مصاحباً كلماتها. وقفت وقد احمر وجهها غضباً وخجلاً، واندفعت نحو الباب راكضة. فحالت مريم دون خروجها. وهرعت الفتيات نحوها يراضينها ويشجعنها. هدأت شيئاً فشيئاً وكفكفت دموعها. أوضح عدي أن علم العروض هو زهرة سهلة

المنال، إلا أنها تتطلب عناء طويلاً، وأضاف أن حليمة وإن كانت قد أخطأت في المرة الأولى إلا أنه ينبغي عليها ألا تفقد شجاعتها. وبعد ذلك، دعا الشابات إلى المتابعة. كن حينئذ قد استنفدن مافي خيالهن من قوافٍ. ولم يتبق إلا فاطمة وزينب في حوار سجال:

فاطمة: «استفيدي حليمة، من التعليم المسموع.»

زينب: «فاطمة، ليس لديك سلطة قط، لتتحدثي هكذا، حسبما هو معلوم.»

فاطمة: «وإن كنت أعلم أكثر منك، إلا أني لايداخلني شيء من الغرور.»

زينب: «اكبحي أيتها السفيهة إذن مافي نفسك من جموح!»

فاطمة: «يبدو أن حضور بديهتيي يزعزع مافيك من هدوء.»

زينب: «لاشيء البتّة من هذا، وحده الغرور هو للخلاف موضوع.»

فاطمة: «الجمال والزّهو صنوان، في حين أن القبح يجلب الخضوع.»

زينب: «أترمينني أنت بسهام دمامتك الثقيلة؟»

فاطمة: «آه، يالغرابة الأمور! أوتحسبين أن هزالك للقوام رشاقة؟»

زينب: «على أي حال. يضحكني فقط عمى بصيرتك.»

فاطمة: «هكذا إذن! وماقولك في سذاجتك؟»

زينب: «أوتحسبين أنك بالشتيمة تعوضين عن تفاهتك.»

ـ كفى، حماماتي الصغيرات، قال عدي متدخلاً. فبقواف جميلة، وأقوال ذكية تواجهتما وتبخترتما، وتجادلتما، وقطعتما أوصال بعضكما، وكلٍ بنباهة نالت من الأخرى تجريحاً وتمزيقاً؛ وأرسلتما لبعضكما أزهاراً، وتراشقتما بنظرات وعيد. والآن انسيا شجاركما وتصالحا. ودعن العلم الرفيع والمناظرة الخطابية، وانطلقن لتستمتعن في قاعة الطعام.

وعلى ذلك أومأ برأسه بحركة لطيفة وترك غرفة الدرس. وسرعان ماحذت الفتيات حذوه، متلهفات لأخذ أماكنهن في صالة الطعام.

وعلى خلاف فطور الصباح، الذي كان جاهزاً في انتظارهن على المائدة، فإن الوجبة الحالية قدمها إليهن ثلاثة من الخصيان: حمزة، طلحة، وسهيل. وفي تلك المناسبة علمت حليمة أن عدد الخصيان اللذين كانوا في خدمتهن سبعة. ففضلاً عن المدربيْن اللذين عرفتهما قبلاً، والثلاثة الذين يخدموهن على المائدة، فإن اثنتين من تلك الشخصيات الفريدة قد كُلفت بالعناية بالحدائق وهما معاذ ومصطفى. كان الطهو على وجه الخصوص مهمة «أباما»؛ وماكان على حمزة وطلحة وسهيل إلا مساعدتها. وقد تفرغوا للأعمال المنزلية، والتنظيف وتدبير المنزل وغسل الصحون، والمحافظة على النظام والنظافة في أرجاء المنزل كله. وكان جميع الخصيان يسكنون، وكذلك «أباما»، في حديقة مستقلة، تعزلها حفر عن منطقة الفتيات. وكان لهم بناؤهم، في حين أن «أباما» سكنت وحدها في منزل صغير. أثارت أشياء كثيرة الفضول في نفس حليمة. إلا أنها لم تجرؤ على طرح أي سؤال بوجود مريم؛ فانتظرت بفارغ الصبر أن تستفرد من جديد بـ «سارة». بدا الطعام وليمة حقيقية أمام عيني حليمة. شواء دواجن طري مع يخنة غنية بالتوابل تفوح منها رائحة لذيذة، خضار منوعة، سمك مقلي، جبن، فطيرة، حلوى بالعسل والفواكه المطبوخة. وفي الختام، كأس من شراب صعد إلى رأسها بشكل غريب.

ـ ذاك خمر، همست سارة في أذنها. لقد أباحه لنا سيدنا.

وبعد الغداء، ذهبتا إلى غرفتهما، وأصبحتا أخيراً بمفردهما، لكن حليمة كانت تحمل أسئلة كثيرة تود طرحها:

ـ كيف يحق لسيدنا أن يبيح الخمر، في حين أن النبي محمد قد حرَمها؟

ـ له الحق في ذلك. لقد قلت لك أنه العظيم الذي يلي الله. إنه نبي جديد.

ـ قلت لي أنه عدا مريم وأباما، مامن شخص بينكم أبصر سيدنا؟

ـ مامن أحد، خلا عدي، فهو رجل ثقته. لكن عدي وأباما يبغضان بعضهما بغضاً مريراً. وعموماً، فإن «أباما» لاتحب أحداً. لقد كانت في صباها رائعة الجمال، لكن زمنها ولّى والحنق يتأكّلها.

ـ ومن تكون أباما تلك، على وجه الدقة؟

ـ صه! إنها امرأة بغيضة. تعرف كل أسرار الحب، وقد استقدمها سيدنا إلى هنا لتعلمنا ماتعرفه. سترين ذلك بعد الظهر. ويبدو أنها استفادت جيداً من شبابها.

ـ لم ينبغي علينا تعلم الكثير من الأمور؟

ـ لاأعلم بالضبط. لكني أظن أننا نُهيأُ لأجل سيدنا.

ـ هل نحن مسميات لحريمه؟

ـ ربما. والآن أخبريني هل أصبحت تحبينني قليلاً؟

اغتمت حليمة. فقد نكد صفوها سؤال سارة لها عن حماقات كتلك، في حين أن صدرها لايزال يختلج بأشياء كثيرة هامة تود فهمها. تمددت على ظهرها، وقد أسندت رأسها بيديها، تحدق في السقف.

جلست سارة بالقرب منها على سريرها، ونظرت إليها متأملة، ساكنة. وفجأة، مالت نحوها وأخذت تقبلها بشغف. تظاهرت حليمة بادئ الأمر بتجاهل معنى تلك القبلات. لكن احتدامها لم يترك مجالاً للتغافل عنها. فانتهى بها الأمر إلى دفع سارة عنها.

ـ أريد أن أعرف ماذا ينوي سيدنا عمله بنا. قالت حليمة.

استعادت سارة أنفاسها ورتبت شعرها.

ـ وأنا أتوق لمعرفة ذلك أيضاً، لكن مامن أحد يتكلم عن ذلك، فضلاً عن أن الأسئلة المتعلقة بهذا الخصوص يحظر طرحها.

ـ أتحسبين أن بالإمكان الهروب من هنا؟

أجابت سارة:

ـ أمجنونة أنت لتسألي أسئلة كتلك ولما يمض على وجودك هنا سوى زمن قصير؟ ويحك لو أن أباما سمعتك! ألا ترين تلك التحصينات،

وهذا الصخر الشديد الإنحدار؟ إنه مخرجنا الوحيد إلى العالم. حاولي اجتيازه إن كانت لديك الجرأة!

ـ ولمن تعود هذه القلعة؟

ـ لمن؟ كل ماترينه هنا، ومن حولنا، بما في ذلك نحن أنفسنا، ملك لسيدنا.

ـ وهل أنت متأكدة أن سيدنا يسكن هذا القصر؟

ـ لاأعرف. ربما.

ـ ربما... ربما... وربما لاتعرفين أيضاً اسم هذه البقعة من الأرض؟

ـ لاأعلم. أنت تسألينني أكثر مما أعرف. لعل أباما وعديّ نفسيهما لايعرفان الشيء الكثير عن ذلك. وحدها مريم...

ـ ولم مريم وحدها؟

ـ ألم أقل لك أنهما على علاقة طيبة؟

ـ ومامعنى أنهما على علاقة طيبة؟

ـ أي هما مثل زوج وزوجة.

ـ لكن من أخبرك بهذا؟

ـ اخرسي! لقد اكتشفنا ذلك بأنفسنا.

ـ لاأفهم شيئاً.

ـ بالطبع، ليس بمقدورك أن تفهمي، إذ لم يسبق لك أن عشت في حريم قط.

ـ وهل عشت أنت في حريم؟

ـ نعم، صغيرتي. آه لو تدرين! كان اسم سيدي الشيخ معاوية. في البداية، كنت أَمَة عنده. اشتراني حينما كنت في العشرين من عمري. ثم أصبحت عشيقته. وذات يوم، وكما ترينني اليوم بالقرب منك، جلس على طرف سريري ينظر إلي: «قطتي السوداء الساحرة الصغيرة...» وكانت تلك الكلمات التي يستخدمها، وأخذ في تقبيلي. لو أستطيع أن أعبر لك عما كنت أشعر به! كان رجلاً وسيماً، نهشت الغيرة مني نسائه

كلهن. لكنهن لم يفلحن في النيل مني، إذ كنت الأثيرة لدى سيدي. لقد شيبهن الغضب والغيظ، مما زاد من قبحهن أكثر في عيني ذاك الذي أردن فتنته. وكان يصطحبني في رحلاته. وفي أحد الأيام أغارت قبيلة معادية علينا. وقبل أن تسنح الفرصة لرجالنا لاتخاذ وضعية الدفاع، كان قطاع الطرق قد تمكنوا من خطفي واصطحابي معهم. وباعوني في سوق بصرى لحساب «مولانا». كنت في غاية التعاسة..

وأخذت تنتحب. وتدحرجت الدموع السخية على وجه وصدر حليمة.

ـ سارة! لاتحزني. فأنت اليوم في حال طيبة عندنا.

ـ لو أعلم فقط أنك تحبينني قليلاً. كان «معاويتي» وسيماً جداً وأحبني حباً جماً.

ـ لكني أحبك ياسارة كثيراً، قالت حليمة، واستسلمت لقبلاتها... لتعاود على عجل طرح أسئلتها.

ـ ومريم، ألديك علم أنها عاشت أيضاً في حريم؟

ـ نعم. لكنها لم تخبر القدر نفسه. لقد كانت أشبه بأميرة. ومات رجلان بسببها.

ـ ولم إذن جاءت إلى هنا؟

ـ لقد باعها بعض أقارب زوجها لينتقموا منها، إذ كانت خائنة له. فشعر كل أهل زوجها بالعار...

ـ ولم خانته؟

ـ حليمة، هناك أمور ليست بمتناول إدراكك بعد. لم يكن هنالك الرجل الذي يليق بها.

ـ من المؤكد أنه لم يكن يحبها.

ـ آه! بلى، أحبها. حتى أنه مات من فرط حبه لها.

ـ وكيف استطعت أن تعرفي ذلك؟

ـ لقد أخبرتنا هي نفسها بكل ذلك عندما وصلت إلى هنا.

ـ إذن لم تكن معكن منذ البداية؟

ـ لا، كنا أنا وفاطمة وجادا وصفية أول القادمات. وأتت بعد ذلك مريم. وكنا جميعاً يومها على قدم المساواة. وكانت أباما وحدها هي التي توعز لنا.

ـ إذن لابد أنك تعلمين كيف تعرفت إلى سيدنا؟

ـ لاأستطيع أن أخبرك بأكثر مما أعرف. إن سيدنا مرسلٌ من السماء. وعلينا الإيمان بأنه يعرف كل شيء ويرى كل شيء. لقد أحضرها إلينا في أحد الأيام. وهي لم تخبرنا كيف تعرفت عليه، لكننا تكهنا بذلك. ومن يومها لم نعد نعتبر أنفسنا نظيرات لها. وشرعت تعطينا الأوامر، وتقف في وجه أباما. ومن حينها، وسلطتها في ازدياد. واليوم على أباما نفسها طاعتها... ولذلك محضتها كرهاً لايستكين.

ـ يالغرابة ماتقولين.

دخلت زينب وجلست أمام مرآة منضدة زينتها لتصفف شعرها وتتجمل.

ـ حان الوقت ياحليمة، قالت لها، فالآن دور أباما، وليس من المستحسن التعرض لتعنيفها. إياك واللواتي يصلن متأخرات إلى حصة الدرس... هاك الأحمر لتضعي منه على وجنتيك والأسود لتزيني حاجبيك. وإليك خلاصة الزهر لتتعطري بها. أعطتني إياها مريم لأجلك. هيا بنا، انهضي!

ساعدتها سارة وزينب في ترتيب شعرها. ثم عدن ثلاثتهن إلى غرفة الدرس.

لما دخلت أباما القاعة، كابدت حليمة الأمرين لئلا تنفجر ضاحكة. إلا أن نظرة العجوز والصمت الكئيب الذي أعقبها جعلاها تتوخى الحذر. وقفت الفتيات وأحنين رؤوسهن انحناءة كبيرة.

كانت السيدة العجوز تلبس زياً شديد الغرابة. وساقاها النحيلتان تخوضان في سروال واسع من الحرير الأسود. وقد ارتدت صداراً أحمراً، من البروكار، معتمرة عمامة صغيرة صفراء تزينها ريشة طويلة من ريش طائر الكركي، وقد تدلى من أذنيها قرطان ضخمان

مذهبان ومرصعان بأحجار ثمينة. كانت تتباهى إضافة إلى ذلك بعقد لؤلؤ ذي حبات كبيرة، ضُفر صفوفاً عدة حول عنقها، وبحلقات ثمينة، مرهفة الصياغة، أحاطت بمعصميها وقدميها. لكن كل ذاك الترف لم يسهم إلا في إظهار عمرها وقبحها. أما الأحمر الفاقع والأسود المصطنع اللذان صبغا وجنتيها وحاجبيها فلم يجعلا منها إلا شبه فزاعة من لحم ودم. وبإشارة منها، أمرت الشابات أن يجلسن. وجالت بعينيها باحثة عن حليمة وعلى فمها ابتسامة هزء، ثم وبصوت كالعواء قالت: حسناً. أراكن زينتن جيداً هذه الصغيرة! إنها تحملق فيكن كعِجلة معروضة لثور لم تشاهد غيره قط ولاتدري مايراد منها. إذن اليوم أصيخي السمع، ولتجتهدي في تعلم شيء من الرشاد! ولاتحسبي أن صاحباتك قد هبطن من السماء ومعهن علمٌ موحى. ربما توسعت مداركهن في الحريم قبل مجيئهن إلى مدرستي، لكن وهنا فقط، بدأن في تلمس مدى صعوبة العلم الذي يتطلبه التكرس للحب. في موطني، في الهند، يبدأ هذا التعليم منذ نعومة الأظافر، إذ من الحكمة القول إن الحياة قصيرة الأمد إن قارناها بالأمد الطويل الذي يتطلبه كل تعليم جيد. أتدرين أيتها البائسة ـ ما هو الرجل؟ أتدرين لم هذا العبد القبيح الذي جاء بك بالأمس إلى هذه الجنائن، ليس برجل حقيقة؟ تكلمي...

كانت حليمة ترتجف. وأخذت تنظر حولها بيأس متلمسة مساندة ما، لكن الفتيات كن ينظرن أمامهن دون طرفة عين نحوها وقد تسمرت أبصارهن على الأرض. فألحت العجوز عليها قائلة:

ـ يخيل إلي أن لسانك قد التصق بحلقك، أيتها الدجاجة المسكينة، انتظري، سأشرح لك الأمر.

وشرعت بفرح خبيث تشرح مفصّلة ما تقوم عليه العلاقات بين الرجل والمرأة. شعرت حليمة بخجل شديد جعل نظراتها تائهة في كل اتجاه.

ـ هل فهمت الآن، صغيرتي؟ سألتها العجوز في نهاية الأمر.

أشارت حليمة على استحياء بالإيجاب، رغم أنها لم تسمع نصف ماتلفظت به الأخرى، والنصف الآخر لم تفهمه.

ـ إنه لعذاب من الله جل جلاله! أن يتوجب علي ادخال تلك الحكمة

السامية في رأس أولئك الحمقاوات! قالت بانفعال. هل لهذه الحشرات ذرة علم وفطرة لإرضاء السيد العاشق؟ بالممارسة، وفقط بالممارسة، ولاشيء غير الممارسة، يبلغ المتعلم هدفه. ومن حسن الحظ أن القدر العادل قد جردكن من كل فرصة لارضاء شهوانية الفرس لديكن وبذلك لاتسببن أذية لفن الحب السامي. اعلمن أن الرجل مثله مثل قيثارة مرهفة، وعلى المرأة أن تتقن العزف عليها بألف لحن ولحن منوّع! فإن كانت جاهلة أو رعناء، فلن تُسمع إلا أصواتاً نشازاً. وعلى العكس إن هي موهوبة ومتعلمة، فهي قادرة بمهارتها أن تجعل القيثارة تشدو بأحلى الألحان. أيتها القردة الجاهلات! عليكن أن تهتممن كثيراً بأن تُسمع الآلة التي عهدت إليكن أنغاماً أكثر مما تبدو أنها قادرة على إصدارها. ولتحمني الأرواح الخيّرة من عقوبة الصمم بفعل طرطقة أصابعكن الخرقاء، وما يصاحبها من صرير وقوقأة.

ثم اندفعت في شرح دقيق للممارسات المتعلقة بما دعته بعلمها السامي وفنها الإلهي. أما حليمة التي احمرت حياء حتى أذنيها وعنقها، فقد كانت تصغي رغماً عنها. وبدأ فضول جامح يجتاحها. لو أنها كانت وحدها مع سارة، أو على الأقل بدون مريم، والتي سبّب وجودها أكبر ضيق، لربما كانت شروحات أباما مسلية لها. لكن وفي الظرف الحالي، فإنها لاتستطيع أن تمنع نفسها من غض طرفها، وتحس، دون أن تدري لذلك سبباً أنها آثمة ومتواطئة.

انتهت أباما أخيراً، وتركت بجلال قاعة الدرس دون استراحة أو إيماءة. وعجلت الفتيات في الخروج، متلهفات لأخذ فسحة، وتفرقن جماعات صغيرة عبر الحدائق. تأبطت سارة حليمة التي لم تجرؤ على الاقتراب من مريم. إلا أن مريم نادتها من تلقاء نفسها، ثم أحاطت خصرها بذراعها وجذبتها نحوها. وتبعتهما سارة كظلهما.

ـ هل اعتدت الآن بعض الشيء على نمط حياتنا؟ سألتها مريم.

ـ كل شيء يبدو أمامي غريباً وجديداً، أجابت حليمة.

ـ أرجو ألا تكوني متكدرة هنا؟

ـ آه... على العكس! فالحياة هنا تعجبني برمتها إلا أن هنالك أموراً كثيرة لاأفهمها وحسب.

ـ اصبري، صغيرتي، فكل شيء يأتي في أوانه.

أسندت حليمة رأسها إلى كتف مريم واسترقت النظر إلى سارة، وتملكتها رغبة في الضحك. كانت تضبط على حين غرة نظرة صاحبتها السوداء، التي استعرت فيها نار الغيرة. وقالت في نفسها: «إنها تحبني»، وذلك مما أفرح قلبها.

وقادتهن الطريق الضيقة عبر الزروع الكثيفة حتى حافة السور، فوق السيل الذي كان يتدفق هادراً نحو أعماق الوادي الصخري. ولاحظت حليمة أن تلك الجنائن لابد أنها نُظمت بحيث تكون في وسط الصخور. وعلى حجر قائم في الأسفل يشرف على تيار الماء، كانت عظايا تتدفأ تحت أشعة الشمس، وقد التمعت ظهورها كالزمرد.

ـ انظرن كم هي رائعة، قالت مريم متعجبة.

ارتعشت حليمة.

ـ بررر! أنا لاأحبها. إنها شريرة.

ـ لماذا؟

ـ يقال أنها تهاجم البنات.

فتبسمت سارة ومريم من قولها.

ـ ومن قص عليك ذلك، ياصغيرتي الغالية؟

وخشيت حليمة أن تتفوه من جديد بحماقة ما. فقالت بحذر:

ـ كثيراً ماكان سيدي السابق يقول: «حاذري الصبية! وإن هم مروا من فوق الحائط ودخلوا الحديقة فاهربي منهم. فهم يخبئون تحت ملابسهم عظاية أو ثعباناً. وإن هم أطلقوه عليك، فإياك ولدغته!»

قهقهت سارة ومريم. والتهمت سارة حليمة بنظراتها؛ بينما عضت مريم على شفتيها وقالت مطمئنة محميتها:

ـ هيا بنا، فما من صبية أشرار هنا، والعظايا أيضاً مسالمة وأنيسة. ولاتؤذي أحداً.

ثم صفرت مريم. فأدارت العظايا رؤوسها في كل اتجاه، كما لو

أنها تبحث عمن يناديها. فما كان من حليمة إلا أن تكورت بين مريم وسارة وقد شعرت بأمان أكثر هكذا.

ـ في الواقع، هي جميلة. قالت حليمة.

ومن مكان ليس ببعيد إذا برأس صغير صنوبري الشكل يخرج من صدع صخرة ويقذف مرات عدة كالبرق لسانه الصغير المشقوق. ظلت حليمة متسمرة من الخوف. كان الرأس يرتفع أكثر فأكثر... والعنق المرن لايفتأ يتطاول.

مامن شك الآن: فمن الواضح أن الثعبان الكبير الداكن الصفرة قد جذبه صفير مريم فانزلق خارج الشق زاحفاً. وفرت العظايا منه في كل صوب. أطلقت حليمة صرخة، وأرادت أن تسحب مريم وسارة إليها، وهن يبذلن جهدهن في تهدئتها.

ـ لاتخافي، حليمة، قالت مريم. هذا صديق قديم أسميناه «بيري»؛ ويكفي أن نصفر له، فيخرج حالاً من مكمنه ويقبل نحونا. إنه وديع جداً ومامن أحد يشتكي منه. وعموماً فإننا نعيش هنا جميعاً، بشراً وحيوانات، في وفاق في هذه الجنائن: فنحن وقد عزلنا عن بقية العالم، سعداء في العيش معاً، هذا كل ما في الأمر.

أطلقت حليمة تنهيدة ارتياح، لكن رغبتها في الابتعاد عن تلك الأماكن لم تضعف.

ـ أرجوكن، لنذهب، قالت متوسلة.

فأذعنتا لها ضاحكتين.

ـ لاتكوني رعديدة، قالت مريم معاتبة. ترين تماماً أننا نحبك جميعاً.

ـ هل يوجد هنا أيضاً حيوانات أخرى؟

ـ يمكن أن تعجبك حيوانات أخرى، فالمنطقة ملآى بأنواع الوحوش. لكن لايمكننا الذهاب إليها إلا بالقارب؛ فعندما تجدين متسعاً من الوقت، اطلبي من عديّ أو مصطفى أن يصحباك إليها.

ـ آه! بكل سرور! منطقتنا إذن واسعة مترامية الأطراف؟

إنها من الإتساع بحيث من يتيه فيها قد يلقى حتفه جوعاً.

- إذن، لن أغامر بعد اليوم بالذهاب إليها وحيدة.

- ومع هذا فما من خطر محدق في ذلك. فالحديقة التي نعيش فيها هي في حقيقة الأمر أشبه بجزيرة، يحيط بها السيل من جهة، وبقية الجهات تحيطها انحدارات محصّنة. وهذه الجزيرة ليست بالغة الكبر؛ فإن أنت لم تخرجي منها، أعني إن لم تعبري النهر، فلن تضيعين. لكن هناك في الأسفل، وراء تلك الأسوار الصخرية، تبدأ الغابات المسكونة بالفهود الضارية...

- كيف أمكنك أن تضعي يدك على أهريمان، البالغ الاستئناس والوداعة اليوم؟

- لقد ولد في هذه الحدائق ذاتها. ومن أمد ليس ببعيد كان مايزال أشبه بقط صغير؛ كنا نُشربه حليب الماعز، وإلى اليوم، ونحن نحاذر إعطاءه ولو قطعة صغيرة من اللحم، مخافة أن يصبح متوحشاً. إن مصطفى هو الذي أحضره إلينا.

- لاأعرف مصطفى.

- هو رجل طيب، مثله مثل جميع الخصيان هنا. كان فيما مضى حامل المشاعل عند أمير مشهور، وهذا عمل مضني، ولذلك آثر الفرار. فعهد إليه مع معاذ بالعناية بحدائقنا... لكن حان وقت العودة إلى قاعة الدرس. وستعلمنا فاطمة وسليقة الموسيقا والغناء. ففاطمة ذات صوت ساحر.

- وهذا مايروق لي!...

كان وقت الموسيقا والغناء بالنسبة للشابات فترة تسلية مبهجة لهن. وقد منحتهن مريم كامل الحرية. فكن يغيرن أماكنهن، وينفخن في الناي التتري، ويعزفن على القيثارة والعود، ويداعبن أوتار الجيتار المصري، ويؤلفن ويغنين الأغاني الخفيفة اللعوب، وكن ينتقدن بعضهن بعضاً ويتنازعن متنافسات. وكانت جهود فاطمة وسليقة

تذهب هباء حين يحاولن فرض سيطرتهما. كما كن أيضاً يضحكن، ويروين الحكايا ويتمازحن مسرورات. وتعلقت سارة مجدداً بحليمة.

- أنت مغرمة بمريم. لقد أبصرت ذلك جيداً.

هزت حليمة كتفيها.

- لايمكنك أن تخفي ذلك عني. فأنا أقرأ مافي قلبك.

- حسن، وماذا بعد؟

امتلأت عينا سارة بالدموع وقالت:

- لقد وعدتني أن تحبينني.

- لم أعدك بشيء.

- أنت تكذبين! لقد حملني تعهدك لي بذلك على أن أوليك ثقة كبيرة.

- لم أعد أرغب في الخوض في تلك الأمور.

وخيم صمت مطبق؛ فكل من سارة وحليمة سكتت بدورها لتصغي فجأة. كانت فاطمة قد تناولت القيثار، وسرعان ماأرفقت عزفها بقطع راقصة لأغانٍ قديمة، تدور حول الحب. كانت حليمة بالغة التأثر.

- أتكتبين لي هذه الكلمات؟ سألت حليمة سارة.

- سأفعل إن أحببتني.

وأرادت الاقتراب منها، إلا أن حليمة دفعتها عنها:

- لاتزعجينني الآن. أريد أن أستمع.

انتهى الدرس، وظللن لبرهة من الوقت في صالة الدرس، وقد انشغلت كل منهن بعملها. يخطن ويطرزن، وقد انكبت بعضهن حول سجادة كبيرة يغرزن فيها بصبر وأناة. وكانت أخريات قد أحضرن إلى الصالة دواليب الغزل ذات الخشب المحفور ببراعة. وجلست كل منهن تغزل أمام مغزلها. ودارت أحاديثهن حول الشؤون المنزلية، وحياتهن الماضية، والرجال والحب. كانت مريم تراقبهن متجولة فيما بينهن، ويداها خلف ظهرها.

كانت حليمة تفكر في مواضيع شتى، تجول هنا وهناك دون عمل محدد، مصغية لما يقال حولها، إلى أن اتجهت أفكارها أخيراً نحو

مريم. مالذي حدث بينها وبين سيدنا، حتى يكونا على أتم وفاق؟ لقد عرفت هي أيضاً حياة الحريم؛ فهل من الممكن أنها كانت تقوم بتلك الحركات التي تحدثت عنها أباما؟ لكنها طردت تلك الأفكار الشنيعة رافضة تصديق ذلك، مقتنعة أن مثل تلك الأمور لا يمكن أن تحدث.

تناولن العشاء قبيل مغيب الشمس. ثم ذهبن يتنزهن، بينما كان الظلام ينسدل بسرعة على الجنائن. والتمعت النجوم الأوَل في السماء. مشت حليمة في ممر بين سارة وزينب اللتين أمسكتا بيديها. كن يتجاذبن أطراف الحديث بصوت هامس. وبدا هدير السيل وكأنه قد ازداد حدة مفاجئة، ومبهمة؛ وامتدت الطبيعة على مرمى البصر أمامهن. أحست حليمة بانقباض صدرها. كان ينتابها شعور بالكآبة ممزوج بشيء من السكينة. أحست بنفسها تائهة، صغيرة جداً، في عالم سحري فريد. وقد بدا لها كل شيء غريباً: فهناك ألغاز كثيرة تستعصي على فهمها.

أخذ نور متموج يلمع في ظل الحراج. ولما رأت حليمة الألق يتحرك مقترباً منهن، تشبثت مذعورة بصاحبتيها. وإذ برجل يحمل مشعلاً يقبل لملاقاتهن.

ـ إنه مصطفى، مشرف الحدائق، قالت سارة موضحة.

أبصرن زنجياً طويلاً، وجهه مستدير، يلبس رداءاً طويلاً وقد شد وسطه بحبل ثخين انسدل مقارباً قدميه. وحالما لمح الفتيات، ابتسم لهن ابتسامة واسعة مبدياً لهن رفقاً جلياً. وقال بلطف وهو ينظر إلى حليمة:

ـ هذه هي إذن حمامتنا الصغيرة الجديدة التي حملتها الريح إلينا مؤخراً، إنها مخلوقة في غاية الحساسية والرقة...

أخذ ظل أسود يتراقص في الوميض المتحرك للشعلة. كانت فراشة ليلية كبيرة تدور حول النار. وتتبعها الجميع بأعينهم. تارة تلمس اللهب، وتارة أخرى ترسم دائرة كبيرة نحو الأعلى ثم تتلاشى في الظلام. لكنها سرعان ماتعود، ليصبح رقصها محموماً أكثر فأكثر.

وأخذت الدوائر التي ترسمها حول بؤرة النور تضيق شيئاً فشيئاً، إلى أن أحرقت النار أجنحتها. فسمع الجميع صريراً، وكالنيزك تهشمت الدويبة البائسة على الأرض.

ـ ياللمسكينة! صرخت حليمة. أتصل الحماقة بها إلى هذه الدرجة؟

ـ الله وضع فيها ذاك الميل إلى النار ـ علق مصطفى بإيجاز ـ طاب مساؤكن.

ـ كم هذا غريب... همهمت حليمة.

انكفأت الشابات عائدات إلى غرفهن؛ ثم خلعت كل منهن ملابسها واندست في سريرها. كانت حليمة ثملة بأحداث اليوم: عديّ المثير للضحك بكلامه المقفى، وأسعد أستاذ الرقص الرشيق، وأباما بزيها الهزلي وتعليمها الماجن، ومريم الغامضة، الفتيات والخصيان. ووسط كل أولئك، كانت حليمة، التي ومنذ أمد بعيد تحلم ببلاد مجهولة وتصبو إلى مغامرات عجيبة! قالت في نفسها «الحال حسن هكذا»، وحاولت الاستسلام للنوم.

أحست بشخص ما يلمسها لمسة خفيفة. ومأأن همت بالصراخ حتى سمعت همس سارة في أذنها:

ـ اصمتي! حليمة، ستوقظي زينب!

وبعد برهة، انسل الجمال الأسود بالقرب منها تحت الغطاء، وجذبتها نحوها.

ـ قلت لك لاأريد ذلك، احتجت حليمة بصوت منخفض ـ لكن سارة كانت قد أمطرتها بقبلات شلّت مقاومتها.

أفلحت أخيراً في الإفلات منها. فلجأت سارة إلى الإقناع، وشرعت تهمس إليها بكلمات الغزل المعسول. أدارت حليمة ظهرها لها، وسدّت أذنيها، وغطت في النوم.

لبثت سارة برهة لتدرك ماجرى. وحين لم يعد أمامها إلا العودة إلى سريرها، فعلت ذلك بقلب تعتصره الدهشة والحيرة.

الفصل الثاني

في الوقت الذي وصلت فيه حليمة، وبظروف بالغة الغرابة، إلى حدائق سيدها المجهول، كان شاب يمتطي حماراً بلون الليل، ويسلك بدوره الطريق الحربي الواسع. ودربه ينتهي إلى المبتغى نفسه، إلا أنه جاء من الجهة المقابلة أي من الغرب. كان واضحاً أنه ودع منذ أمد قريب تعاويذ الطفولة، ليلف عمامة الرجال حول رأسه. وبالكاد نبت زغب خفيف على ذقنه وقد شعت عيناه بحيوية ماتزال تحمل تعبيراً شبه صبياني. قَدِم من مدينة «سافا»(*) العاصمة القديمة الواقعة بين «همذان» و«الري»(**). جده «طاهر» الذي أسس في «سافا» حلقة إسماعيلية صغيرة، يُلقن فيها حباً قريباً من العبادة للشهيد «علي»، وكانت تحاك فيها سراً الأهداف المعادية للسلطان السلجوقي. وقد قُبل مؤذن «أصفهان» السابق في تلك الجماعة. وبعد حين من الوقت، داهمت السلطات زمرة المؤمنين الصغيرة أثناء اجتماع سري واعتقلت بعضهم. فبثت عيوناً لمراقبة المؤذن سراً، ولم يطل الأمر حتى اقتنعوا بصحة الشكوك التي دارت حوله. وحكم على الرجل بالموت، ونفذ الحكم على عجل. وإثر ذلك اعتقلت السلطات زعيم الجماعة الدينية، طاهراً، وتم ضرب عنقه بناء على أمر عاجل من الوزير الأكبر «نظام

(*) سافا: مدينة لاتبعد كثيراً عن مدينة «قم».

(**) الري: مدينة إيرانية قديمة، وقد أقيمت بالقرب من موقعها لاحقاً مدينة «طهران». ازدهرت في العهد السلجوقي، ودمرها المغول عام 1220.

الملك». فتفرقت الجماعة الصغيرة التي تملّك أعضاءها الخوف وساد اعتقاد أن هذه الحادثة ستدفن تماماً مشاريع الطائفة الإسماعيلية في «سافا». ولما بلغ حفيد طاهر العشرين من عمره، أطلعه أبوه على المسألة برمتها... وعلى هذا، أمره أن يُسرج حماراً ويأخذ عدته للسفر. وفي يوم الرحيل، صحب الشاب إلى أعلى سطح في الدار، ومن هناك، أشار إلى القمة المخروطية الثلجية لـ «دومافند»، والتي جاوزت الغيوم في بعدها اللامتناهي، وقال له:

ـ «عوني»، بني، حفيد طاهر! سر في اتجاه مستقيم على الطريق المؤدي إلى جبل «دومافند». وحينما تصل إلى مدينة «الري»، اسأل عن وجهة «شاه رود»، «النهر الملكي». وسر نحوه إلى أن تصل منبعه. وهو نهر يتدفق نحو أعماق مضيق هاوٍ. وستبصر في الأعلى قصراً محصناً: إنه مكان اسمه «آلموت»، أي عش النسر. وفي هذا القصر، قام صديق لمن كان جدك وأبي: طاهر ـ الرحمة على روحه ـ بجمع كل ماله علاقة بالتعليم الإسماعيلي. قل له من أنت وقدم له خدماتك. وبذلك تسنح لك فرصة الانتقام لموت جدك. اذهب، ولترافقك بركتي!

تقلد حفيد طاهر سيفاً معقوفاً، وأحنى رأسه باحترام لوالده، ثم امتطى حماره الصغير، ميمماً وجهه صوب مدينة «الري»، التي بلغها دون أية عوائق. وفي خان للقوافل، تحرّى عن أفضل سبيل يتخذه للوصول إلى «النهر الملكي». فسأله صاحب الخان مندهشاً:

ـ ماالذي يجذبك نحو «شاه رود»؟ لولا أن ملامحك تنم عن براءة، لراودني شك أنك تود الانضمام إلى ذاك الزعيم الذي يحشد حوله، في الجبل، تلك الكلاب الفاسقة.

ـ لاأفهم إلى ماذا تلمح، قال حفيد طاهر مراوغاً. لقد جئت من «سافا» على جناح السرعة للقاء قافلة أرسلها أبي إلى «بخارى» والتي اضطرت إلى التأخر كثيراً في مكان ما في طريق العودة.

ـ عندما تغادر المدينة، اجعل «دومافند» على يمينك، قال الرجل موضحاً. وستصل إلى طريق واضح المعالم، تسلكه قوافل الشرق. اتبعه، فتصل إلى النهر.

شكره حفيد طاهر وامتطى حماره. وبعد مسير يومين، ترامى إلى سمعه هدير ماء من مكان بعيد. ترك الطريق ووجه دابته نحو النهر الذي كان يحاذيه درب ضيق، متخذاً تارة حافة النهر الرملية المكشوفة، ومتوغلاً تارة أخرى بين أدغال كثيفة. ازدادت وعورة انحدار النهر شيئاً فشيئاً، وأخذ ضجيج المياه يرتفع أيضاً. وبعد أن أمضى شطراً كبيراً من النهار على هذا النحو، على ظهر حماره أو مشياً على أقدامه، وجد الشاب نفسه فجأة وقد أحاطت به مفرزة من الفرسان. باغتوه بهجومهم مباغتة شديدة حتى أنه نسي أن يشهر سيفه. ولما استفاق من وقع المفاجأة وأمسك بقبضة سلاحه، كان الوقت قد فات. فالرماح الحادة صوبت نحوه. قال في نفسه: «الجبن عار، لكن ماالعمل إزاء غلبة كهذه؟»

بادر قائد الفرسان الشاب قائلاً:

ـ ماالذي يحملك على التسكع هنا، أيها الغرّ؟ أجئت تصطاد سمك الترويت؟ حاذر أن تعلق الصنارة في حلقك!

كان حفيد طاهر شديد الارتباك. فإن كان أولئك الفرسان أتباع السلطان، فقول الحقيقة سيؤدي به إلى التهلكة. وإن كانوا إسماعيليين وأصر على الصمت، فسيحسبوه جاسوساً. أرخى يده عن قبضة سيفه متحرياً بيأس عن تعبير ما في وجوه الجنود الجامدة.

غمز القائد رفاقه عابثاً وقال:

ـ تبدو لي أيها الوغد الفارسي أنك تبحث عن شيء لم تفقده.

قال ذلك، ثم أدخل يده فجأة في قَرَبوس[*] سرجه ورفع عصا قصيرة في نهايتها علم أبيض يرفرف، وهو شعار متشيعي علي.

«هل هذا فخ؟ فكر عوني. ليكن! سأجازف.» ترجل عن دابته، ومد يده نحو العلم الذي تركه قائد الخيالة يخفق أمامه، ووضعه بإجلال على جبهته. فصرخ القائد:

ـ الحمد لله! أنت تبحث عن قصر آلموت. اتبعنا إذن!

اتجه بدابته نحو الطريق المحاذي لـ (شاه رود). امتطى حفيد

(*) القربوس: القسم المقوس المرتفع من السرج.

طاهر حماره ثانية منطلقاً وراء القائد؛ وسارت بقية الجند في المؤخرة.

توغلوا في أعتى الجبال وضجيج (شاه رود) يشتد هادراً. إلى أن بلغوا أخيراً نتوءاً صخرياً يعلوه برج مراقبة. وقد خفق علم أبيض على قمة البرج. كان مجرى النهر يحيط بهذا الانحدار الطبيعي، المنحصر في شِعب ضيق. شد قائد المفرزة لجام فرسه وأمر الآخرين بالتوقف، ثم لوح بعلمه نحو البرج، فجاءته إشارة من الرجال المتمركزين هناك في الأعلى تفيد أن الممر سالك.

ولجوا شِعباً بارداً مظلماً. كان الطريق ضيقاً لكنه ممهد وقد شقت جوانبه في الصخر مباشرة. بينما اندفع السيل بهياج نحو أعماق الوادي. وفي أحد المنعطفات، توقف القائد ومد يده صوب الجبال؛ لاحظ حفيد طاهر حينئذ، من بعيد، برجين عاليين يتميز بياضهما عن عتمة خيال الجبال، تماماً كالأحلام، والشمس تضيؤهما بأشعتها المتلألئة.

- آلموت! صاح القائد وهو يلكز حصانه.

اختفى البرجان مجدداً خلف السفح الشديد التحدر. واستمر الطريق المتعرج بمحاذاة السيل، إلى أن اتسع المضيق فجأة. نظر حفيد طاهر محملقاً، وقد بدا أمامه نتوء صخري هائل تتوّجه تحصينات تلتحم جزئياً مع الصخر. كان النتوء يشمخ عالياً في السماء، وانقسم (شاه رود) في تلك المنطقة إلى فرعين طوقا الصخر الأجرد. أما المجال المحصور بينهما والذي تشرف عليه القلعة فقد سوّي على مدرجات ترتفع على خاصرة الوادي، وحصّنت زواياه الأربع بأبراج، يشرف العلويان منها على الجميع. وكانت القلعة التي طوقها النهر بإحكام، والذي اندفع عمودياً بين جدارين يستحيل الوصول إليهما، قد سدت المعبر كأنها رتاج. هذه هي آلموت! أشد القلاع الخمس تحصيناً في منطقة (رودبار) التي شيدها في الماضي ملوك الديلم: وعرفت بالحرز المكين.

أعطى زعيم المفرزة إشارة: وذلك لتشغيل جسر ثقيل متحرك بوساطة آلة على الجانب الآخر من الجدار، فانخفض الجسر متوضعاً

فوق السيل. ارتقاه الفرسان ثم دخلوا الساحة عبر ممر تعلوه قبب هائلة.

نفذوا إلى فسحة رحبة في الهواء الطلق: كان الجبل فوقهم قد قدّ إلى ثلاث مستويات هائلة، ربطها جميعاً مرتقى حجري في الوسط، وبسقت على اليمين والشمال، بمحاذاة الأسوار أشجار الحوَر والدُلب الضخمة وتحتها امتدت مراع حقيقية رتعت فيها قطعان من الأحصنة والحمير والبغال. وفي إسطبل منعزل كانت تجتر بضع عشرات من الجمال الراقدة بدعة وسكون. بينما انتشرت على الجوانب إسطبلات وثكنات، وأجنحة حريم، وأبنية أخرى.

كانت حركة نشطة صاخبة في استقبال حفيد طاهر. الذي جال بعينيه حوله لايصدق مايرى. بعض وحدات من الجند على سطح في الوسط تؤدي تمارينها. أوامر خشنة، وقرقعة دروع ورماح، وصليل سيوف، وكل ذلك يختلط أحياناً بصهيل حصان أو نهيق حمار. وفي مكان آخر كان رجال يدعمون الأسوار: بغال تجر أحجاراً ثقيلة يقوم العمال برفعها عن طريق رافعة إلى الجهة المرادة. كما ودوت صيحات وصرخات في كل مكان طاغية على هدير السيل.

تفرقت عناصر الحرس ورفع القائد صوته منادياً جندياً مرّ بالقرب منهم.

- هل القائد (مينوتشهر) موجود في برج المراقبة؟

تسمر الجندي في مكانه وأجاب:

- نعم أيها العريف (أبونا).

أشار القائد للفتى أن يتبعه، وتوجها صوب أحد الأبراج السفلى. وترامى إلى السمع صوت غير بعيد لضربات خاطفة مصحوبة بآهات توجع. أدار حفيد طاهر رأسه: وإذ برجل قد ربط إلى عمود حجري وظهره عار إلى الخصر، كان زنجي عملاق يرتدي سروالاً قصيراً مخططاً وطربوشاً أحمر على رأسه، يجلد الظهر العاري بسوط من الجلد المضفور. ومع كل ضربة ينفزر الجلد في موضع مختلف

وينبجس الدم. وإلى جانب المعذَّب، وقف جندي وبيده دلو ماء ينضح منه على وجه المسكين من حين لآخر. ابتسم العريف (أبونا) ابتسامة ساخرة حينما قرأ الرعب في عيني حفيد طاهر وقال:

ـ في هذا المكان، نحن لاننام على الأرياش ولانُدّهن بالعنبر المعطر. إن كنت تحسب نفسك فوق ذلك فأنت توهم نفسك.

مشى حفيد طاهر بهدوء بالقرب منهم. وبه رغبة ملحة لمعرفة مااقترفه الرجل المسكين ليعاقب مثل ذاك العقاب القاسي، لكن ضيقاً غريباً منعه من التجاسر على طرح الأسئلة.

دخلا بهو البرج، وقدّر الفتى وهو تحت قببه ثخن جدران القلعة الهائل حيث قامت على مداميك ثقيلة من الدَبش(*) توضعت فوق بعضها. وصعدا درجاً مظلماً رطباً أفضى بهما إلى الأماكن المرتفعة. وصلا إلى ممر طويل ثم إلى بهو واسع غطت أرضه سجادة متواضعة، وقد صفت وسائد عدة في إحدى الزوايا، اتكأ عليها رجل خمسيني شبه مستلق. كان ممتلئاً بعض الشيء، لحيته قصيرة مجعدة وشتها خيوط فضية، وعلى رأسه عمامة بيضاء واسعة وقد ارتدى صداراً من البروكار. انحنى العريف (أبونا) منتظراً مبادرة تلك الشخصية بالحديث.

ـ ماذا أحضرت لنا مجدداً، يا(أبونا)؟

ـ اعتقلنا هذا الفتى أثناء جولة استطلاع، أيها القائد (مينوتشهر). ويدعي أن وجهته آلموت.

نهض القائد على مهل. فبدا أمام حفيد طاهر رجلاً قدّ من صخر ينتصب أمامه، وسأله بصوت جَهْوَري:

ـ من أنت، أيها التعيس؟

اضطرب الفتى لبرهة قصيرة، لكنه مالبث أن تذكر كلمات أبيه: ألم يحضر إلى هذا المكان ليقدم عن طيب خاطر خدماته؟ فتمالك نفسه حينئذ وتمكن من الإجابة بهدوء قائلاً:

(*) الدبش: الحجارة كما تستخرج من المقلع للبناء.

ـ اسمي عوني، وأنا حفيد طاهر، من سافا، وهو الذي أمر الوزير الأكبر بقطع عنقه منذ سنين عدة.

تأمله القائد بدهشة مشوبة بعدم التصديق.

ـ أتقول الحقيقة؟

ـ ولم أكذب أيها السيد الشريف؟

ـ إن كان حقاً ماتقول، فاعلم أن اسم جدك منقوش بأحرف من ذهب في قلوب جميع الإسماعيليين. وسيكون سيدنا مسروراً في ضمك إلى مناضليه. ألأجل ذلك جئت إلى هنا؟

ـ نعم، لأكون في خدمة القائد الإسماعيلي الأعلى، ولأنتقم لموت والد أبي.

ـ جيد. ومالذي تحسن القيام به؟

ـ تعلمت القراءة والكتابة، سيدي. والنحو وعلم العروض أيضاً. وأحفظ حوالى نصف القرآن عن ظهر قلب.

ابتسم القائد.

ـ لابأس. وفن القتال؟

تردد حفيد طاهر ثم قال:

ـ أركب الخيل، وأرمي بالقوس، وأجيد ضرب السيف والرمح.

ـ ألديك امرأة؟

احمر وجه الفتى حتى أذنيه.

ـ لا، ياسيدي.

ـ وهل عشت حياة الفجور؟

ـ لا، سيدي.

ـ حسن.

التفت القائد (مينوتشهر) نحو العريف وقال:

ـ (أبونا)! اصحب الفتى ابن طاهر(*) إلى الداعي أبوسراقة. وقل له

(*) ابن طاهر: هو حفيد طاهر لكن القادة في آلموت ألحقوه بجده صاحب المقام والسمعة في الدعوة الإسماعيلية.(م)

أني أنا الذي أرسلته إليه، فإن لم تكن خدعة فيما حدّث آنفاً، فإني أظن أنه سيسر به.

انحنيا احتراماً وغادرا الغرفة.

وفي الفناء، كان عمود التعذيب الذي ربط إليه الرجل الذي شاهداه يجلد خالياً. وكانت بضع علامات دماء تنبىء وحدها بما جرى عليه. كان ابن طاهر يحس برعب مبهم، إلا أن إحساساً مشجعاً بالثقة بالنفس خفف من رعبه فيما بعد. ففي نهاية المطاف ليس أمراً نافلاً أن يكون المرء حفيد طاهر الشهيد!

صعدا السلم الذي أفضى بهما إلى الساحة الثانية وبلغا بناء إلى يمينهما قليل الارتفاع بدا أنه ثكنة. توقف العريف أمامه وجال بنظراته في كل اتجاه كمن يبحث عن شخص ما.

مر شاب يركض غير بعيد عنهما، أسود البشرة، يرتدي صداراً وسروالاً أبيضا اللون، ويعتمر طربوشاً أبيض أيضاً. استوقفه العريف وخاطبه بدماثة قائلاً:

ـ أرسلني القائد مع هذا الفتى إلى عند الداعي أبو سراقة.

ضحك الشاب الأسمر ضحكة واسعة وقال:

ـ اتبعاني! إن الداعي المحترم يعلمنا الآن فن العروض. ونحن هناك في الأعلى على السطح.

والتفت نحو ابن طاهر وقال:

ـ أجئت إلى هنا لتصبح فدائياً؟ لاتحسب أن مفاجآتك قد شارفت على الانتهاء. أنا المُريد عبيدة.

تبعه ابن طاهر، والعريف يرافقه، دون أن يفهم جيداً قصد الشاب. صعدوا إلى أعلى البناء الذي كان سقفه بمثابة سطح؛ وقد غُطيت الأرض بالكامل تقريباً بسجاجيد ثخينة الصفر. جلس عليها مايقارب العشرين شاباً متربعين ومتسربلين جميعاً بالبياض مثل المريد عبيدة. وقد أسند كل منهم إلى ركبتيه لوحاً صغيراً وانكب يدون عليه بقلم طويل مايقوله العجوز ذو الصدار الأبيض الطويل المتربع قبالتهم، وكتاب بين يديه. وما أن أبصرهم حتى نهض مقطباً جبينه استياءً. وقال موجهاً الخطاب للعريف:

ـ عما تبحث هنا في هذا الوقت؟ ألا ترى أن الدرس جارٍ؟

ارتبك الجندي وهو يستمع إلى السؤال، في حين انسل المريد عبيدة منضماً إلى رفاقه الذين كانوا يتفرسون بفضول في القادمين الجدد.

ـ اعذرني على إزعاجك أثناء درسك، أيها الداعي المحترم، قال (أبونا). لقد طلب مني القائد أن أصطحب هذا الفتى إليك، ليكون في عهدتك.

تفحص المعلم العجوز ابن طاهر من رأسه حتى أخمص قدميه.

ـ من أنت وماذا تبغي أيها الشاب؟

انحنى له الفتى باحترام وقال:

ـ اسمي(عوني)، حفيد طاهر: طاهر الذي أمر الوزير الأكبر بقطع رأسه في سافا منذ زمن. بعثني أبي إلى آلموت لأخدم القضية الإسماعيلية ولأثأر لموت جدي.

أشرق وجه العجوز. وتقدم على عجل نحو ابن طاهر وذراعاه ممدودتان ليعانقه بحرارة.

ـ هنيئاً لعينين أبصرتاك في هذا القصر، ياحفيد طاهر! كان جدك صديقي وصديق (سيدنا)... اذهب (أبونا)، واشكر القائد باسمي!. وأنتم، أيها الشبان، تأملوا جيداً رفيقكم الجديد! وعندما سأقص عليكم مفصلاً التاريخ الإسماعيلي ونضاله، فلن يكون بوسعي أن أتجاهل المأثرة التي قدمها الجد العظيم لهذا الفتى، طاهر الإسماعيلي، الذي أصبح الشهيد الأكبر لقضيتنا في إيران.

غمز (أبونا) بعينه لابن طاهر إشارة إلى أن المقابلة قد تمت على أفضل وجه، وتوارى في المنفذ المؤدي إلى الدرج. صافح الداعي أبو سراقة الشاب، وسأله أسئلة جمة حول أبيه وعائلته ووعده بأن يحيط القائد الأعلى علماً بوصوله. ثم أشار إلى أحد المريدين الجالسين حولهما قائلاً:

ـ سليمان! اصطحب ابن طاهر إلى المهجع ودله على مكان ذاك الأرعن الذي استحق المهانة. واحرص على أن تقدم له مايخلصه من

أعفار السفر، واعطه ملابس جديدة، حتى يكون على استعداد لصلاة العشاء!

نهض المدعو سليمان بوثبة واحدة وانحنى أمام العجوز:

ـ سأحرص على تنفيذ ذلك، أيها الداعي المحترم!

ودعا ابن طاهر إلى أن يتبعه. ولما وصلا إلى الأسفل سلكا ممراً ضيقاً؛ وما أن بلغا منتصفه، حتى أزاح سليمان ستارة تغطي منفذاً دخله ورفيقه. وأفضيا منه إلى مهجع فسيح.

كان مايقارب العشرين سريراً واطئاً مصفوفين بمحاذاة الحائط المقابل للمدخل. أما الأسرّة فهي ببساطة أكياس كبيرة من الكتان المحشو بالعشب اليابس وقد انسدلت عليها أغطية من شعر ذنب الخيل التي استخدمت سروجها وسائد. وفي الأعلى ثبتت على الحائط مجموعة من الرفوف الخشبية التي تضم حاجيات متنوعة وقد رتبت في نظام دقيق: أطباق فخارية، سجاجيد صلاة، أدوات غسل وتنظيف. وفي أسفل كل سرير إطار خشبي أسندت إليه أسلحة متنوعة: قوس، كنانة، سهام، حربة، رمح. وعلى الحائط المقابل كانت ثلاثة مصابيح جدارية برونزية ذات فروع يعلوها عدد مماثل من المشاعل. وارتكز إناء من الزيت على عمود في إحدى الزوايا. بينما رتب عشرون سيفاً ثقيلاً معقوفاً فوق المصابيح، ومثلها من الدروع المضفورة دائرياً وقد بدت دعامة برونزية في الوسط. أما ضوء النهار فقد تسلل إلى الغرفة عبر عشر نوافذ صغيرة مسيجة. كان كل شيء نظيفاً ومرتباً ترتيباً كاملاً.

ـ هذا السرير خال، قال سليمان مشيراً إلى إحدى فرش القش. من كان يشغله جرد من رتبته منذ بضعة أيام. وأنا أنام هنا بجانبك، وعلى الجانب الآخر ينام يوسف ـ وهو من (دامغان)(*) إنه الأقوى والأطول بين طلاب الجماعة.

ـ تقول إن سلفي قد جرد من رتبته؟ قال ابن طاهر مندهشاً.

ـ نعم. فهو لايستحق أن يصبح فدائياً.

(*) دامغان: مدينة تقع على السفح الجنوبي للبورز، شرق طهران.

تناول سليمان من الرف الجداري صداراً أبيضاً طوي بعناية، وبنطالاً وطربوشاً أبيضين. وقال:

ـ هيا إلى غرفة الحمام.

دلفا إلى الغرفة المجاورة حيث توضع حوض حجري تغذيه بالماء قناة جارية. استحم ابن طاهر على عجل، ثم ناوله سليمان الملابس التي مالبث أن ارتداها، وعادا كلاهما إلى المهجع.

ـ طلب مني أبي أن أنقل سلامه إلى القائد الأعلى، فمتى تعتقد أن بإمكاني المثول عنده؟

ابتسم سليمان وقال:

ـ انزع من رأسك تلك الفكرة ياعزيزي. فأنا هنا منذ سنة، ولاأعرف أبداً من هو. وما من أحد بيننا قد رآه بعد.

ـ ألا يعيش في هذا القصر؟

ـ إنه هنا، لكنه لايغادر برجه مطلقاً. وستسمع أيضاً أشياء أخرى، وأموراً تجعلك فاغر الفاه دهشة. سمعتك تقول أنك من سافا. وأنا من قزوين(*).

كان ابن طاهر ينعم النظر فيه ملياً، فوجده أجمل فتى على الإطلاق. كان ممشوقاً كشجرة سرو، وملامح وجهه ساحرة رغم جمودها. وقد لوحت وجنتيه الشمس والريح؛ وبدت تحت بشرته البرونزية ألوان العافية. كانت عيناه عسليتين تنظران إلى العالم بشموخ النسور، وقد نبت زغب خفيف على شفته وحول ذقنه. وظهرت الشجاعة والإقدام في كل تعابير وجهه. أما ضحكته فقد كشفت عن صفين من الأسنان البيضاء القوية: كانت ضحكته صافية، فيها شيء من الهزء، لكنها لاتجرح أبداً. وفكر ابن طاهر: «كأنه فارسي من شخصيات سفر الملوك»(**).

ـ يدهشني أمر هنا، قال ابن طاهر ـ لاحظت منذ برهة وجوهكم: كانت جميعها متصلبة ومتغضنة؛ وعلى الفور قدرت أعمار كل منكم

(*) قزوين: وتقع أيضاً على السفح الجنوبي للبورز، لكن في الشمال الغربي من طهران.

(**) سفر الملوك أو «الشاهنامه» الشهيرة للفردوسي (940- 1020)، وهي ملحمة وطنية لقدماء الفرس.

بثلاثين عاماً، إلا أن نظرة إلى لحاكم تكشف عن أن غالبيتكم قد بلغت بالكاد العشرين عاماً.

كانت الابتسامة ذاتها ماتزال على ثغر سليمان:

ـ انتظر فقط خمسة عشر يوماً وستشبهنا كأنك أخ لنا. اعلم أن المرء هنا لايتسلى بقطف الأزهار ولابالتقاط الفراشات.

ـ أود أن أطرح عليك سؤالاً. استطرد ابن طاهر ـ لقد رأيت منذ برهة قصيرة رجلاً يجلد وقد ربط إلى عمود. وأريد أن أعرف ما الخطأ الذي اقترفه ليستحق مثل ذاك العقاب؟

ـ إنها جريمة لاتغتفر، ياعزيزي. كُلف بمرافقة قافلة متجهة إلى تركستان. واستسلم حداتها الذين لم يكونوا إسماعيليين لجرار الخمر يعبّون منها أثناء المسير. وقدموا له منها فقبل الشرب، رغم أن سيدنا قد حرمها عليه تحريماً قاطعاً.

ـ سيدنا حرمها عليه؟ قال ابن طاهر متعجباً ـ لكن التحريم جاء من النبي محمد نفسه وينطبق على جميع المؤمنين![*].

ـ حتى الآن لم تستطع أن تفهم الأمر، ياعصفوري الصغير، قال الآخر. إن سيدنا يحرم ويحلل مايريد. نحن إسماعيليون، وليس علينا طاعة أحد غيره.

بهت ابن طاهر. وأحس بضيق يخنق صدره. واستفسر ثانية:

ـ لقد قلت منذ قليل أن سلفي قد نزعت عنه رتبته. فما الذي اقترفه أيضاً؟

ـ كان يتكلم عن النساء، وبطريقة لاتليق أبداً.

ـ وهل هذا محظور؟

ـ محظور حظراً باتاً! نحن فرقة مختارة، وعندما نُكرّس، سنكون في خدمة سيدنا مباشرة.

ـ وماذا تعني بقولك: عندما نُكرس؟

ـ قلت لك آنفاً: سنكرس فدائيين! فحينما ننهي فترة التعلم ونجتاز الامتحان، نرقى إلى تلك الرتبة.

ـ ومن هو الفدائي بالضبط؟

(*) تحريم شرب الخمر جاء من الله تعالى.

ـ الفدائي هو إسماعيلي مستعد للتضحية بنفسه تضحية عمياء بحسب أوامر القائد الأعلى. فإن مات أثناء قيامه بواجبه، فسيكون شهيداً. وإن نجح وبقي على قيد الحياة، رُفّع إلى مرتبة الداعي، ومراتب أعلى أيضاً.

ـ إن كل ماأسمعه هنا جديد على مسامعي كل الجدة. أوتظن أن الامتحان سيكون صعباً؟

ـ بلا شك. وإلا لما حضّرنا أنفسنا له كل يوم من الفجر حتى عتمة الليل. لقد ناء تحت ثقله ستة منا حتى اليوم. أحدهم هوى ميتاً في أرضه، والخمسة الآخرون طلبوا من تلقاء أنفسهم إسقاط رتبهم.

ـ ولِمَ لم يؤثروا الخروج من آلموت بدل أن يذلوا أنفسهم هكذا؟

ـ إيه! عزيزي، نحن لانمزح في آلموت. فما أن يصل المرء إلى القصر، حتى يتعذر عليه الخروج منه حياً بحسب رغبته الخاصة. هناك الكثير من الأسرار في هذه الأنحاء.

وثب المريدون إلى غرفهم. وقد توضؤوا من نبع وتهيؤوا لصلاة العشاء. استلقى عملاق يتجاوز ابن طاهر في الطول مسترخياً على السرير، وقدم نفسه قائلاً:

ـ أنا يوسف من (دامغان). لست بشخص شرير، لكني لا أنصح أحداً أن يتحداني أو يستهزىء بي. وسنتعرف على بعضنا قريباً.

ثم تمطى بأطرافه الضخمة، كما لو أنه يريد إثبات صحة كلامه.

ابتسم ابن طاهر.

ـ سمعت أنك أطول المريدين وأشدهم بأساً.

وبسرعة البرق وقف العملاق.

ـ من قال لك ذلك؟

ـ سليمان.

ـ ياللخيبة، وعاد يوسف للتمطي من جديد. كان الفتية حولهما يضحكون من طرف خفي. اقترب عبيدة بدوره من ابن طاهر، وكانت

شفتا الزنجي الغليظتان تتحركان بشكل غريب حينما يتكلم. فقال:

ـ أتسرك الإقامة عندنا ياصديقي؟ بديهي أنك لاتستطيع أبداً إبداء رأيك ولما يمض زمن على وصولك. حسبك أن تعلم أنك حينما تُمضي مثلي أربعة أشهر في القصر، فكل ما أحضرته معك إلى هنا سيتلاشى إلى دخان.

ـ أسمعتم ماقاله هذا الزنجي؟ ـ قال سليمان متهكماً وعلى فمه ابتسامة صغيرة ـ لم يكد أن يغمس منقاره في نبيذ عسل آلموت حتى أراد أن يعطي دروساً للآخرين!

فرد عبيدة عليه ساخطاً:

ـ هل تحدثت إليك أيها الأبله؟

ـ اسكتا، صديقيْ الصغيرين، دمدم يوسف وهو في سريره. لاتضربا المثل السيئ أمام القادم الجديد!

وبعدئذ قدّم شاب نفسه لابن طاهر، كان عريض المنكبين، مقوس الساقين، ذا ملامح رصينة، وقال:

ـ أنا جعفر، ولدت في (الري)، وأنا في القصر منذ سنة؛ إن كنت في حاجة لبعض الشروح المتعلقة بالتعليم، فما عليك إلا أن تسألني.

شكره ابن طاهر. ثم تقدم المريدون واحداً تلو الآخر، وقدموا أنفسهم: عفان، عبد الرحمن، عمر، عبد الله، ابن وقاص، حلفة، سهيل، أسيد، محمد، أرسلان. وجاء أخيراً دور أصغرهم، الذي قدم نفسه بصوت خجول:

ـ أنا نعيم، من منطقة دومافند.

أخذ الجميع في الضحك.

ـ على الأغلب، هو أحد الشياطين التي تسكن الجبل، قال سليمان مستهزءاً.

رماه نعيم بنظرة غضبى، وتابع قائلاً:

ـ لدينا أموركثيرة ينبغي دراستها. أتعرف مدربينا؟ ذاك الذي رحب بك كثيراً هو الداعي المحترم أبو سراقة. وهو واعظ مشهور:

جال بوعظه بلاد الإسلام كافة. واتخذه سيدنا قائداً لنا. يعلمنا سيرة النبي محمد والشهداء الأبرار الذين ماتوا في سبيل القضية الإسماعيلية. كما ويعلمنا إضافة لذلك القواعد وعلم العروض في اللغة الفارسية.(*).

ـ أتستمع لزقزقة هذا الزُرزور! أصغرنا والأكثر ثرثرة بيننا! ـ قال سليمان مقهقهاً، وسرعان ما انتقل الضحك إلى الجميع ـ ثم تابع موجهاً حديثه للقادم الجديد ـ قريباً ستتعرف بنفسك إلى مدربيك، حسبك أن تذكر يا ابن طاهر أن الداعي (ابراهيم) الذي يعلمنا أصول العقيدة، الجبر، والقواعد العربية والفلسفة هو صديق حميم لسيدنا وليس من الكياسة التعرض لتعنيفه. وعليك أن تعرف كل شيء عن ظهر قلب. أما (الحكيم) اليوناني، فهو يتساهل مع أية ثرثرة، فالمهم ألا يبقى المنقار مغلقاً. وهنالك القائد (مينوتشهر) الذي لايطيق أقل اعتراض. وعلى الجميع أن يكونوا معه على أهبة الاستعداد في الحال. وكلما نفذت أوامره بحماسة وهمة، كلما ازداد تقديره لك وفزت بحظوته. وأخيراً الداعي عبد الملك، وهو فتي؛ لكن سيدنا لايخفي إعجابه به. هو رجل ذو جلد قاس، والجهد والألم لاحسبان لهما عنده، ويزدري أيضاً ذاك الذي لايعرف أن يكز على أسنانه. إنه يربي إرادتنا وقدرتنا على التحمل: سترى أن المجال الذي يهتم به جوهري، وله من الأهمية في نظر الرجال هنا ماالأصول العقائد نفسها.

ـ لاترعب الزغلول كثيراً! ـ قال يوسف مقاطعاً ـ وإلا قد يهرب، انظروا! إنه شاحب اللون تماماً.

فاحمر وجه ابن طاهر.

ـ إني جائع لم آكل شيئاً منذ الصباح.

فقهقه سليمان فكهاً.

ـ إيه ماذا بك! بل ستصوم زيادة على هذا، وأنت راض النفس، ياعزيزي. انتظر فقط حتى تتعرف إلى عبد الملك.

وانطلق صوت مديد من بوق مدوي.

ـ إلى الصلاة! صاح يوسف.

(*) الفارسية: لهجة إيرانية محكية في شمال البلاد.

وتناول كل واحد ـ وابن طاهر كما الآخرين ـ من الرف الجداري سجادته الملفوفة وهرول ليأخذ مكانه على سطح البناء حيث كان الداعي أبو سراقة في انتظارهم. وعندما تحقق هذا الأخير من حضور الجميع، وأن كل واحد قد بسط سجادته بشكل مناسب، استدار نحو جهة الغرب باتجاه القبلة، وابتدأ الصلاة. رتل أولاً بصوت عال، ثم وضع جبهته على الأرض باسطاً ذراعيه، ثم نهض ثانية بحسب ماتأمر به التعاليم المؤمنين. بعد ذلك وقف مرة أخرى، وقد مدّ ذراعيه نحو السماء وجثا مجدداً إلى أن لامست جبهته الأرض. وقال داعياً:

ـ تعال إلينا، أيها (المهدي) الموعود والمنتظر! أنقذنا من المغتصبين، خلصنا من المارقين! أيها الشهيد علي، والشهيد إسماعيل، كونا شفيعين لنا!

قلد المريدون حركاته ورددوا كلماته مع وعلى حين غرّة هبط الليل عليهم. وترامت إليهم الأصوات الفاترة من المصلين على الأسطح المجاورة، واجتاح ابن طاهر إحساس قلِق غريب. بدا له أن كل ماهو حي في هذه الآونة لانصيب له من الحقيقة أكثر مما لحلم، لكنه حلم ذو وضوح غريب. وتلك الابتهالات العلنية لعلي وإسماعيل... أمر لايقدم عليه المؤمنون خارج آلموت، إلا خلف أقفال مكينة! كان حائراً مضطرباً.

نهض الجميع، وعادوا أدراجهم إلى المهجع حيث رتبوا سجاجيدهم بعناية، وانطلقوا لطعام العشاء.

كانت صالة الطعام فسيحة وتقع في البناء نفسه، لكن في الجهة المقابلة للمهجع. واتخذ كل طالب مكانه محاذياً الحائط: إما جالساً أو متربعاً على حُصر نسجت من أغصان الصفصاف المضفورة والمفروشة على الأرض مباشرة. وقام ثلاثة من رفاقهم المعينين للمناوبة بخدمتهم. فأحضروا لكل طالب رغيفاً ضخماً من خبز القمح، وأحياناً رغيفاً محشواً بالتين أو التفاح المجفف، وسكبوا لهم في أقداح كبيرة لبناً روّب في قدور خزفية ضخمة. وكانت الأسماك تقدم لهم مرات عدة في الأسبوع، أما لحم البقر أو الحمل أو الخروف، فكان

يقدم مرة واحدة مشوياً على الجمر. كان أبو سراقة يراقبهم ويأكل معهم. تناولوا عشاءهم في هدوء، مستغرقين في أفكارهم.

بعد انتهاء الطعام تفرقوا في جماعات صغيرة. مضت بعضها تتجول على السطح، وأخرى توارت في اتجاه الأسوار. أخذ يوسف وسليمان ابن طاهر معهم، ليسردوا عليه مسار الحياة في القلعة. كان الصخب والضجيج قد توقفا، وعم الهدوء القصر؛ وأصبح بمقدور ابن طاهر أن يسمع بجلاء هدير (شاه رود)، الذي ملأ صدره بحزن غريب. ولفتهم العتمة، وقد تخللها بريق لطيف لنجوم تلألأت في السماء. اجتاز الفناء رجل يحمل بيده مشعلاً مضيئاً. وظهر حراس يحملون المشاعل أمام أبنية السطح العلوي وانتصبوا في المداخل، متسمرين، كأنهم سبحة طويلة من نور. وهبت ريح خفيفة من الجبال، حاملة معها هواء مثلجاً. كان لهب المشاعل يرتعش لترسم ظلال الأبنية والأشجار والرجال على الأرض رقصة من أسرار؛ في حين أضاء ألق عجيب الأسوار المحيطة، وعلى حين غرة، كأن الأبراج والأبنية والمتاريس تحولت عن شكلها وضاعت معالمها. ليتخذ كل شيء في تلك الساعة شكلاً فريداً، أو بالأحرى خيالياً. كأنما المشهد برمته مشهد حكاية.

اجتازوا قسماً كبيراً من السور المحيط بالأسطح السفلية.

ـ لم لانذهب إلى القسم الأعلى؟ سأل ابن طاهر وهو يشير إلى البناء الذي يقف أمامه حاملو المشاعل حارسين.

فأجاب سليمان:

ـ ليس لأحد الحق ـ سوى القادة ـ بالذهاب إلى أعلى. هناك عمالقة زنوج يحرسون مدخل أبنية سيدنا، وهم خصيان أهداهم الخليفة المصري(*) إلى القائد الأكبر.

ـ وهل يدين سيدنا بالولاء لهذا الحاكم؟

ـ هذا أمر لانعرفه على وجه الدقة، أجاب سليمان. ومن الممكن أيضاً أن يكون العكس هو الصحيح..

(*) وهو الخليفة الفاطمي في القاهرة؛ والذي ناصر المذهب الإسماعيلي، ولم يعترف بسلطة الخلفاء العباسيين في بغداد.

ـ كيف ذلك؟ قال ابن طاهر متعجباً ـ ألم يستولي سيدنا على آلموت باسم ذلك الأمير؟

ـ هذا موضوع آخر، قال يوسف منبهاً ـ فالمرء يسمع أقاويل من هنا وهناك. وأنصحك ألا تطرح أسئلة كثيرة حول هذا الأمر.

ـ كنت أظن أن خليفة القاهرة هو القائد الأعلى لجميع أتباع علي، ونحن الإسماعيليون قسم منهم.

ـ سيدنا هو قائدنا الوحيد وليس علينا طاعة أحد غيره. قال يوسف وسليمان بصوت واحد.

وفوق تلعة(*) جدار، في أسفل السور جلس ثلاثتهم.

ـ ولم لايظهر القائد الأعلى أمام المؤمنين؟ قال ابن طاهر متابعاً أسئلته.

ـ إنه ولي من أولياء الله، قال يوسف معترضاً. يدرس القرآن طيلة النهار، يصلي، ويكتب لنا التوجيهات والأوامر.

وأبدى سليمان رأيه قائلاً:

ـ ليس من شأننا التباحث في عدم مخالطته لنا. هكذا أراد، وهو وحده صاحب التدبير.

ـ إني أنظر إلى الأمور من زاوية مختلفة، اعترف ابن طاهر. فنحن هناك نحسب أن القائد يجمع جيشاً من الإسماعيليين لمهاجمة السلطان والخليفة الفاسقين.

ـ هذا أمر ثانوي، أجاب سليمان. ومايطلبه سيدنا منا بشكل أساسي هو الطاعة والاندفاع المقدس، لأجل القضية الإسماعيلية.

ـ أتحسب أن بإمكاني اللحاق بكم، وقد سبقتموني أشواطاً في هذا الدرب؟ استفسر ابن طاهر قلقاً.

ـ نفذ دون تردد كل ما يأمرك به رؤساؤك، وستحصل على ماأنت بحاجته، رد سليمان باقتضاب، لاتحسب أبداً أن الطاعة أمر سهل. في البداية ستظهر لديك روح التمرد، فالجسد يرفض الانصياع لأوامر

(*) تلعة: حدر (ماانحدر من الأرض).

الإرادة، وعقلك سيهمس لك بألف اعتراض على الإيعازات التي تصدر إليك. لتعلم أن هذه المقاومة برمتها ماهي إلا حيلة حاكتها الشياطين لتحيدك عن جادة الصواب. اقهر دون رحمة كل عصيان في داخلك، وستصبح سيفاً بيد (سيدنا).

دوى متقطعاً صوت البوق.

ـ علينا الآن أن نخلد للنوم، قال يوسف ناهضاً.

عادوا أدراجهم إلى أجنحتهم ودخلوا مهجعهم.

كانت شمعات عدة في الغرفة، وبضعة مريدين يخلعون ملابسهم، في حين غط الآخرون نائمين. وأقبل أبو سراقة ليلقي نظرة على رقادهم، وليتأكد من وجود الجميع، وانضباط كل شيء، ثم أسند سلماً قصيراً إلى الحائط وأطفأ المشاعل. وفي إحدى الزوايا كان مصباح زيت صغير يتلألأ فوق دعامته. اقترب منه الداعي وأشعل عوداً صغيراً ثم اتجه نحو باب الخروج بخطى هادئة، ورفع محترساً الستارة خشية أن تحترق إن لامست شعلته، وانسل عبر الباب، لتخلف خطواته وراءها في الممر صدى طويلاً.

في الصباح الباكر، أيقظ صوت البوق الفتية من نومهم. نهضوا وأدوا صلاة الصبح وأفطروا، ثم تناول كل منهم سرجه وأسلحته مسرعاً نحو الفناء. وفي طرفة عين أصبحت القلعة كلها على أهبة الاستعداد. اصطف المريدون بعد أن أحضروا خيولهم من الإسطبل في صفين، واقفين بالقرب من دوابهم، وعلى رأس كل صف اتخذ عريف مكانه. أقبل القائد (مينوتشهر) ممتطياً فرسه نحوهم. استعرض السرية وأعطى أمره باعتلاء السروج. ثم أمر برفع الجسر، فقرقعت سنابك الخيل وولج الفرسان الواحد تلو الآخر في المضيق.

عبروا أسفل برج الحراسة وصعدوا طريقاً يفضي إلى مايشبه الهضبة الواسعة. وأعاد القائد باختصار من أجل القادم الجديد توضيح الأوامر الأساسية. ثم قسم السرية إلى مجموعتين تقابل كل منهما الأخرى. بدأ الفرسان بتنفيذ استدارات الخيل في تشكيلات متراصة، ثم

أدوا الهجمة التركية والهجمة العربية. ولأول مرة رأى ابن طاهر صورة حية لهجوم خيالة واشتعل صدره حماسة وخفق قلبه بشدة. ثم تفرق الفتية للتمرن على ضرب السيف، وإطلاق الحراب، ورمي القوس.

عادوا أدراجهم إلى القصر قبل موعد صلاة الظهر. وكان ابن طاهر شديد الإنهاك حتى بالكاد ثبت على ظهر جواده. وعندما ترجل الفرسان وقادوا خيولهم إلى الإسطبل، غامر ابن طاهر بسؤال سليمان قائلاً:

- أنكرر تلك التدريبات العسكرية كل يوم؟

أجاب سليمان الذي كان نشيطاً متيقظاً كما لو أنه عائد من نزهة جميلة، وابتسامة تعلو محياه:

- لاتقلق، ياعزيزي، فهذه ليست سوى البداية. انتظر قليلاً حتى يأخذ بيدك عبد الملك إذ سيطلعك على أشياء أخرى!

- بي جوع شديد أغشى بصري. قال ابن طاهر متشكياً. ألا أستطيع حقاً أن أمضغ شيئاً بأسناني؟

- تجلّد! لايسمح لنا بالطعام أكثر من ثلاث مرات في اليوم. وإن فاجأك أحد وأنت تأكل خارج الوجبات النظامية، فستربط إلى عمود التعذيب، مثل ذلك الجندي الذي رأيته بالأمس والذي شرب الخمر.

أخذ الفتية يرتبون أسلحتهم في المهجع، وتوضؤوا، ثم تناولوا ألواحهم الصغيرة وأقلامهم وصعدوا إلى السطح. اقترب من القادم الجديد رجل طويل ضامر، يرتدي صداراً فضفاضاً. كانت وجنتاه متهدلتين وعيناه غائرتين في محجريهما، وبسحنة عابسة أخذ يتفرس في طلابه. كان أنفه دقيقاً معقوفاً كمنقار شوحة، وقد أرخى لحية رمادية خفيفة حتى صدره، وغاصت أصابعه المنحنية الناتئة العظم كالبراثن في كومة أوراق كتبت بخط جميل. كان ذاك هو الداعي ابراهيم، واعظ عجوز ذو أفضال، مقرب من القائد الأعلى. بدأ بإمامة المريدين في صلاة الظهر. أخذ يتمتم بصوت منخفض كتيم النصوص المفروضة. لكنه حين أخذ يدعو المهدي، ارتفع صوته وأصبح أشد جشاً، وانطلقت كلماته فجأة بضراوة ضارب طبل.

ثم تطرق إلى موضوعه. شرح القواعد العربية الجافة بأسلوب ممل موضحاً إياها بأمثلة مقتبسه من القرآن. والأقلام تخط طيعة على الألواح الصغيرة. ويا ويل من يجرؤ من الحضور على التقاط أنفاسه. كانت هذه الحصة بالنسبة لابن طاهر فترة استراحة. فقد كان ماهراً في القواعد وشعر برضى عن نفسه، فتلك المادة ليست بذات صعوبة له.

لما انتهى الداعي ابراهيم من درسه. انحنى محيياً الطلبة بطلعته الكئيبة، ورفع بجلال ذيل صداره الواسع لئلا يعرقله، وتوارى في هالة من الوقار، هابطاً درجاً شديد الانحدار انتهى به إلى الأسفل. وتسنى للمريدين أخيراً أن يتحركوا! تمهلوا برهة قصيرة خشية أن يلتقوا بالداعي ابراهيم على الدرج، ثم وثبوا وثباً إلى الفناء حيث انتظموا في صفين.

- ستتعرف إلى الداعي عبد الملك، همس سليمان في أذن ابن طاهر. وسأنصحك نصيحة: اضغط على أسنانك، واستجمع إرادتك. فقد مات أحدهم، كما قيل لك، في أرضه وهو في غمرة التدريب. ثق بالله وبحكمة سيدنا.

اتخذ يوسف مكانه في مقدمة الصف الأول، وسليمان في وسطه تقريباً، أما ابن طاهر فقد كان في آخر الصف. ووقف على رأس الصف الثاني عبيدة، وفي النهاية كان نعيم.

أقبل عملاق شديد النحول بخطوات مندفعة متخذاً مكانه أمامهم. كان وجهه بارز التقاطيع ونظرته قاسية ثاقبة. وما أن أبصر ابن طاهر بين الفتية المجتمعة حتى قال له:

- هيه! مااسمك يابطل؟

- اسمي عوني، وأنا حفيد طاهر، من سافا.

- حسن، سمعت عنك. وأتمنى أن تبرهن على استحقاقك مجد جدك.

تراجع بضع خطوات إلى الوراء ثم زمجر آمراً:

- اخلعوا نعالكم، وجميعاً إلى السور!

وفي لمح البصر تعرت الأقدام، وهرول الشباب نحو السور

منقضين على الجدار العمودي. امتدت الأيدي نحو الشقوق وكوى الرمي، لتتعلق بأصغر نتوء في الحجر. ودب الخوف في قلب ابن طاهر عندما أبصر ذلك الحائط الشديد التحدر. ولم يعد يدري أين ولا كيف يضع قدمه. وإذ بصوت من فوقه يهمس له:

ـ اعطني يدك!

نظر إلى أعلى. كان سليمان قد تمكن من التشبث جيداً في تسلقه. وأمسك بإحدى الكوى بينما مد اليد الأخرى إلى ابن طاهر الذي تعلق بها، وجذبه سليمان بيد من حديد إليه.

ـ حسن جداً! والآن إلى الأمام معي!

ومضى كل شيء على مايرام بعد ذلك، ليجد ابن طاهر نفسه بعد قليل على قمة السور.

كان الآخرون قد نزلوا الحائط الآخر، فوق الهوة، و(شاه رود) يزبد في أسفل الجدار. ألقى ابن طاهر نظرة على النهر فأحس بدوار يلفه، ثم تمتم:

ـ سأهلك... واستعد للاستسلام لنداء الفراغ.

ـ اتبعني عن قرب! همس سليمان بصوت آمر.

وشرع في النزول. وما أن بلغ موضع ارتكاز مكين، حتى أمسك بيد ابن طاهر، ثم بكتفه. وهكذا نزلا الحائط بحذر وقد صرّا أسنانهما، وهما على حافة الهاوية تماماً. وبدا الزمن الذي استغرقاه للوصول إلى صخور النهر أمام ابن طاهر مديداً لانهاية له.

تنفس بعمق، رفع عينيه ونظر، فارتعد هلعاً. كان الحائط العمودي شامخاً يطاول السماء: لم يصدق أنه نزل منذ لحظات خلت جداراً كهذا دون حبال تسلق.

وظهر عبد الملك في أعلى السور، ثابتاً، مباعداً بين ساقيه وصرخ في الطلبة:

ـ إلى أماكنكم!

وشرعوا في التسلق مجدداً. تشبث ابن طاهر بسليمان؛ وتبعه كظله، وأخذ يتسلق بحذر من موضع ارتكاز إلى آخر. وبلغا أخيراً ذروة الحائط، وبدا النزول على الحائط الآخر ضرباً من اللهو. وبعد

برهة قصيرة، شعر ابن طاهر بمتعة الوصول مجدداً إلى الأرض المستوية تحت أقدامه.

لهث الطلاب للحظات. وهمّ ابن طاهر بشكر سليمان، الذي نظر إليه نظرة عجلى وهمس قائلاً:

ـ في المرة القادمة، سنأخذ حبلاً. وحينئذ ينبغي عمل ذلك بسرعة... بسرعة كالبرق.

لبسوا صنادلهم، واصطفوا من جديد. كانت على وجه عبد الملك ابتسامة ساخرة وقال: ـ مامنعك اليوم ياسليماني ألا تكن السبّاق كعادتك؟ أأصبحت كسولا؟ أم أن جسارتك خارت؟ وربما استسلمت للقادم الجديد يسحبك... إذ التصق بك في نهاية الأمر كأنه قرادة(*) والآن، أريه قليلاً أي بطل تكون! هيا قف أمامه واحبس أنفاسك!

اتخذ سليمان مكانه قبالة ابن طاهر وأطبق على شفتيه ومنخريه. تطلع أمامه مباشرة، لكن نظرته كانت مبهمة كما لو أنها تحدق في نقطة بعيدة جداً. استبد بابن طاهر خوف حين توقفت أنفاس سليمان. وبعد لحظات احتقن وجهه؛ وسرعان مابدت عيناه البليدتان والهامدتان وكأنهما ستثبان من محجريهما. كان ابن طاهر يرتجف خوفاً عليه، إذ بهفوة منه نزل هذا العقاب القاسي بذلك الفتى الشجاع!

أقبل عبد الملك ليقف إلى جانب سليمان. وفي هدوء كتّف ذراعيه وأخذ يراقب سليمان مراقبة العارف الخبير. بدأ سليمان في الاختناق، إذ انتفخ عنقه بشكل غريب، وأصبح مرأى عينيه الجاحظتين يثير الرعب، وفجأة أخذ يترنح، كما لو أنه على ظهر قارب، ومن ثم انهار على الأرض، كشجرة اجتثت من أصلها.

ـ أحسنت، قال عبد الملك مادحاً.

تنفس سليمان بجلبة. وعادت الحياة إلى عينيه.

نهض على مهل وانطلق عائداً إلى مكانه.

ـ هيا، عبيدة! أنت أيضاً أرنا ضروب التحسن التي حققتها في الإرادة!

(*) قرادة: حشرة تعيش على المجترات وتمتص دمها.

تحول وجه عبيدة الأسود إلى لون الرماد. نظر بيأس حوله وبخطوات مترددة، مشى خارج الصفّين. وما أن حبس نفسه، حتى أصبح وجهه الأسود بنياً لامعاً. وسرعان ماظهرت بوادر الاختناق عليه. كان عبد الملك ينظر إليه من أسفل مراقباً، ومرّ بابن طاهر انطباع عابر أن عبد الملك يسخر من الفتى المسكين. ترنح عبيدة ووقع بهدوء على قفاه، ضحك عبد الملك ضحكة هازئة لاتخلو من بعض المكر. ولاحت ابتسامات خفية على وجوه الطلاب. ركل الداعي ذاك المتمدد على الأرض ووبخه بازدراء ناعم:

ـ انهض، انهض، زغلولي، ألاّ يصيبك مكروه!

ثم أردف قائلاً بخشونة:

ـ كيف كان ذلك؟

وقف عبيدة وابتسم باضطراب خالطه خوف.

ـ لقد فقدت الوعي، أيها الداعي المحترم.

ـ والكذب ما عقابه عند الإسماعيليين؟

أخذ عبيدة يرتجف.

ـ لم أعد أتمالك نفسي أيها الداعي المحترم.

ـ حسن. تناول السوط وعاقب نفسك بنفسك!

تناول عبيدة من الأدوات الكثيرة التي كان المربي قد أحضرها معه، سوطاً قصيراً من الجلد. حل أزرار صداره، وتعرى حتى الخصر، وعقد كمّيه حول حقوه لئلا تنزلق ملابسه أكثر إلى الأسفل. كان كتفاه الأسودان ممتلئين وعضلاتهما قوية. رفع السوط فوق رأسه وجلد أول جلدة على الظهر. دوت فرقعة قوية وارتسم ثلم أحمر على الجلد الداكن. تأوه لكنه لم يتوقف عن جلد نفسه.

ـ هذا الشاب ناعم جداً، قال عبد الملك مستهزئاً. اضرب بقوة أكثر، أكثر، أيها البطل!

أخذ عبيدة يجلد جنبيه. وانهمرت الضربات عنيفة، وتقاربت أكثر فأكثر، إلى أن أصبح يجلد نفسه بنزق متوحش. كان السوط يصفع الجلد الميت الذي بدأ يتمزق في جوانب عدة. وملأ الدم ظهره، ملطخاً

صداره وبنطاله الأبيضين. كان يمزق نفسه دون رحمة، كما لو أنه يضرب أشرس أعدائه.

رفع عبد الملك يده أخيراً وقال:

ـ كفى!

أرخى عبيدة السوط من يده وسقط يئن متوجعاً. أمر عبد الملك سليمان بأن يأخذ الفتى إلى النبع، ليغسل جروحه ويضمدها. ثم استدار نحو المريدين ممعناً النظر في ابن طاهر:

ـ لقد أوضحت لكم مراراً وتكراراً مغزى وهدف تدريباتنا. بينكم اليوم قادم جديد، ولن يكون أمراً نافلاً أن أعيد عليكم باختصار مرة ثانية مالذي ينبغي عليكم معرفته. إن عقل الإنسان، فكره، تطلعاته ستنطلق جميعاً كالنسر إن لم تعترضها عقبة كبيرة. وتلك العقبة هي جسدنا بكل مافيه من نقاط ضعف. هل من شاب لايحمل في صدره طموحات نبيلة؟ ومع ذلك، لايحقق من مقاصده الكثيرة إلا مقصداً واحداً. لماذا؟ لأن جسدنا المجبول على الكسل والدعة، يرتاع من الصعوبات التي تنتظره لتحقيق الأهداف السامية. إن أهواء الجسد الوضيعة تشل إرادتنا كما تشل غاياتنا الرفيعة. وقهر تلك الأهواء، وتحرير الروح من ربقتها، هو هدف تدريباتنا. إن تقوية الإرادة وتوجيهها كما ينبغي نحو هدف محدد هو السبيل الوحيد للتقدم حتى يستطيع المرء إنجاز الأعمال الباهرة التي تتطلب التضحية بنفسه. فليس المقصود بالتالي حشد الأعداد الوافرة من أولئك الذين يخضعون لرغبات جسدهم وضعفه، بل الهدف اصطفاء شخص من بينهم، هو الآمر لجسده حتى في أقل لحظات ضعفه. ليكن ذلك مطمحنا! وبهذا سنكون قادرين على خدمة سيدنا وعلى تنفيذ أوامره.

كان ابن طاهر يصغي إليه، وفجأة اتقدت عيناه. نعم، هذا بالضبط ماكان يتوق إليه دوماً في لاشعوره: أن يقهر ضعفه ليخدم قضية سامية. وأحس فجأة أن مارآه منذ قليل لم يعد مرعباً له. وعلى هذا وباقتناع راسخ أجاب حينما سأله عبد الملك إن كان قد فهم جيداً ماقاله:

ـ نعم فهمت، أيها الداعي.

ـ إذن، قف قبالة رتلك واحبس أنفاسك!

أطاع دون أدنى تردد. وأرغم نفسه على النظر بعيداً مباشرة أمامه، مثلما رأى سليمان يفعل. جمّد نفسه. وبدا له كل شيء ساكناً من حوله وفي داخله. وغشي بصره. وسرعان ماشعر بتوتر أوردته؛ وراودته رغبة في تنشق الهواء، لكنه استطاع أن يضبط نفسه. وأخذت أذناه في الطنين بشكل غريب، ليحس أخيراً بضعف غير مألوف في ساقيه. كان مايزال طيف من وعي في داخله، ثم استسلم للغيبوبة. لكن شعاعاً أخيراً من الإدراك بقي يهمس: «علي أن أتماسك، علي أن أتماسك.» ولفّه ظلام تام. ثم ترنح ووقع بكل ثقله على طوله، وفي اللحظة التالية، شعر بأنفاسه تعود إليه.

ـ كيف كان ذلك؟ سأله عبد الملك ضاحكاً.

قام ابن طاهر واقفاً.

ـ جيداً، أيها الداعي المحترم.

ـ سنجعل لذلك الفتى شأناً ما ـ ثم استدار نحو ابن طاهر وقال: ليس ذاك إلا فاتحة تدريبات أخرى في التنفس. كان بالضبط اختباراً يسمح بتقدير الحد الذي بلغه المرء في السيطرة على جسده. وماخطا التعليم الحقيقي إلا خطوته الأولى وحسب، لكننا أصبنا اليوم بعض التحسن.

عاد سليمان وعبيدة. وأعطى عبد الملك إيعازاً آخر. فشرع الطلاب يحفرون الأرض على عجل، في مكان محدد، ليصنعوا حفرة تُهيأ أولاً ثم تُطمر بالرمل. كانت مربعة وقليلة العمق. وفي هذه الأثناء، ذهب بعضهم لإحضار حوض واسع من المبنى المجاور ممتلئاً بالجمر المتوهج الذي رموه في الحفرة وأذكوه بعناية.

ـ بالمثابرة والتدريب ـ قال عبد الملك ـ تبلغ السيطرة على الجسد وقوة الإرادة مبلغاً تتغلبان فيه ليس فقط على الضعف الإنساني وأنما على الطبيعة نفسها وقوانينها. أيها القادم الجديد! لتفتح عينيك ولتشهد الحقيقة من لدني!

خلع صندله، ورفع صداره حتى ركبتيه وحزمه بحيث لايضايقه.

ثم شمّر عن بنطاله الضيق، ووقف أمام حفرة الجمر ونظر محدقاً أمامه.

ـ انظر، إنه يركز فكره ويستجمع إرادته، همس في أذن ابن طاهر جاره.

حبس ابن طاهر نفسه مترقباً، وإذ بصوت يهمس له:

«إنك تعيش الآن أشياء عظيمة، ياحفيد طاهر! أشياء لاتخطر حتى في بال أولئك الناس في الخارج، هناك...»

وفجأة تحرك عبد الملك. وبخطوة حذرة، جسّ ببطء الفحم المتوهج؛ ثم، وبسرعة وباستقامة كشجرة سرو، اجتاز الفحم. ولما وصل الجانب الآخر من الحفرة، هز رأسه بهدوء كما لو أنه يستيقظ من نوم عميق. ثم استدار نحو الطلبة بوجه رائق، وأراهم باطن قدميه. لم تكن تبدو عليهما أي آثار للحرق.

ـ هذا ماتصنعه تربية ملائمة للإرادة، قال جازماً، من بدوره يغامر مجرباً؟

وأبدى سليمان رغبته في المجازفة.

ـ الفتى نفسه دوماً! دمدم عبد الملك متبرماً.

ـ حسن! سأحاول، قال يوسف ـ وصوته يشي بشيء من التردد.

ـ أإلى الجمر رأساً؟ سأل عبد الملك متبسماً.

فارتبك يوسف وجال بنظره حوله.

ـ انتظر بالأحرى لنحمّي الصفيحة المعدنية، قال الداعي باهتمام.

أعلن جعفر أيضاً أنه يود التجربة.

ـ هذا جيد، قال عبد الملك مستحسناً. لكن قل لنا أولاً بماذا ينبغي أن تفكر لتركز إرادتك. فدعا جعفر قائلاً:

ـ اللهم، أنت العظيم العلي القدير، اجعلني لاأحرق نفسي، وأنا لن أحرقها.

ـ حسن. وهل لديك الثقة الكافية أيضاً؟

ـ نعم، أيها الداعي المحترم.

ـ إذن، امض، باسم الله!

اقترب جعفر من الحفرة وبدأ يركز أفكاره وإرادته. وقد رآه

المريدون من قبل مرات عدة يقرر اجتياز النار، لكنه كان يتراجع دوماً.

ـ استرخ، قال عبد الملك ناصحاً، حرر نفسك من كل توتر وامش واثقاً! فأقدارنا بيد الله.

اندفع جعفر مثل قارب يقلع عن الشاطىء، واجتاز الجمر بخطوات سريعة واثقة. ولبث بعد ذلك للحظات جامداً، كالمذهول، ثم أدار رأسه ببطء من فوق كتفه: فأبصر على قدميه الفحم المتوهج مع دخانه، وأضاءت وجهه الشاحب ابتسامة غبطة بالغة. كانت الراحة تغمره فعلاً.

ـ حقاً إنك لفتى شجاع! صاح عبد الملك وقد سرت في الصفوف همهمة استحسان.

ـ هيا يا سليمان! أثبت امكانياتك أنت أيضاً، وإن كنا قد رأينا في المرة السابقة ماقدرت على القيام به!

كان عبد الملك مبتهجاً. وانصاع له سليمان بفرح ظاهر. ركز أفكاره، ثم اجتاز الجمر كما لو أن هذا التدريب يمارسه منذ وقت طويل.

ـ سأحاول أنا أيضاً! قال يوسف متحمساً ـ وبدت عليه أمارات التفاخر، مطّ عضلاته وانطلق نحو الحفرة.

بذل جهداً واضحاً ليركز أفكاره، وتمتم بصوت شبه مرتفع بالأدعية المطلوبة، لكن فكرة إمكانية احتراقه بعد كل شيء لم تفارقه أبداً. وعندما همّ باتخاذ قراره في المضي، نظر أمامه، واضطربت يداه كمستحم يخشى القفز إلى الماء البارد، وتراجع بسرعة.

ابتسم عبد الملك، وقال له ناصحاً:

ـ فكّر في الله، استجدي عونه وانس كل ماعداه. ماالذي تخشاه إن كان معك؟

وأخيراً، وبعد طول تردد، تقدم يوسف بهدوء خطوة واحدة نحو الجمر. لكنه سرعان ماأطلق صرخة وانكفأ بقفزة مذعورة. وسرت في الصفوف ضحكة صغيرة مكتومة.

ـ أنت شجاع، لكن إرادتك واهنة، كان ذلك كل ماقاله عبد الملك معلقاً.

طأطأ يوسف رأسه وعاد إلى مكانه.

ـ أأستطيع أنا أيضاً أن أقوم بالمحاولة؟ سأل ابن طاهر على استحياء.

ـ بالنسبة لك، لم يحن الوقت بعد، ياحفيد طاهر، أجاب عبد الملك. لكن لايخامرني أدنى شك في أنك ستكون يوماً في الطليعة.

انطلق المريدون إلى الثكنة ليحضروا منها صفيحة من حديد. وقاموا بتأجيج الجمر ثانية ثم وضعوا الصفيحة فوقه. وأوعز عبد الملك بإشارة منه، فتقدموا في رتل وعبروا نار الجمر فوق ذلك الجسر المرتجل: مرتين، ثلاث مرات، أربع مرات. وسخنت الصفيحة بسرعة، محرقة أسفل أقدامهم بألم ازداد تدريجياً. ولما مال لون الصفيحة إلى الاحمرار، ظل يوسف في مكانه، يثب كالمسعور، مستسلماً للشوي والحرق. كان يعاقب نفسه على خيبته الماضية، وأصاب الحرق قدمي ابن طاهر أيضاً الذي صرّ على أسنانه محاولاً إقناع نفسه أنه لايشعر بشيء. لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً حيال الأمر؛ إذ لم يفلح في تركيز فكره كما ينبغي. وخشي لبرهة أن يغمى عليه وقد أضناه عدم تعوده تلك الاختبارات.

صرخ أخيراً عبد الملك فيهم أن يتوقفوا وأن يرتبوا أدوات تعذيبهم. وانتظمت الصفوف مجدداً للمرة الأخيرة. وقف قبالتهم من جديد، وتفحصهم بنظرات صارمة موصياً إياهم بالتأمل فيما رأوه وسمعوه منذ قليل، ثم حياهم بتحية سريعة وغادرهم بخطوات واسعة نشيطة كتلك التي أقبل بها.

عاد المريدون أدراجهم إلى السطح، وقد حان وقت الداعي أبو سراقة ليعلمهم علم العروض بلغة بلاد فارس. وأجاد ابن طاهر على الفور هذه المادة. وفي كل نمط شعري، كان يتلو أمثلة يقتبسها من (الفردوسي)، و(الأنصاري) ومن الشعراء القدماء. كان أبو سراقة في أتم الرضى وقال مهنئاً إياه أمام الجميع:

ـ مامن شك أن فن الحرب وتهذيب الإرادة لاغنى عنهما للإسماعيلي المجاهد. لكن تدريب الذهن على المقال، لايقل عنهما أهمية، وهو الذي يهدف إلى جعل الذهن مرهفاً قادراً على التعبير عن

أفكاره بدقة وإحكام. إني بالغ السرور أن أجدك ياحفيد طاهر، تلميذاً موهوباً.

أزف موعد صلاة العصر، ومن مكانه أذّن لها أبوسراقة، محاطاً بالفتية. ولم يكن قد انتهى بعد من الابتهال إلى علي وإسماعيل حتى غاب ابن طاهر عن الوعي وقد نال منه الإنهاك. ولما نهضوا عقب اختتام الدعاء الأخير، تعجب نعيم الذي كان بالقرب من ابن طاهر حينما رآه قابعاً دون حراك. مال نحوه فأبصر وجهاً كرمال الصحراء صفرة. نادى على يوسف وسليمان، بينما تحلق المريدون حول زميلهم الممدد. وهرع أحدهم محضراً الماء ومالبثوا أن ردوا إليه الوعي.

ماأن شبع ابن طاهر، حتى عادت إليه قواه. ربت يوسف بمودة على كتفه قائلاً:

ـ لاتقلق، سيصلب عودك عما قريب؛ وستحتمل حينها المعدة الخاوية ليوم أو يومين رغم قيامك بالجهد الشاق. فالصيام عندنا ليس أمراً استثنائياً. وعبد الملك يدأب عليه!

ـ ماذا سنفعل بالحمار الذي قدمت عليه إلى القصر؟ قال أبو سراقة مستفهماً.

ـ بإمكانكم الاحتفاظ به، أجاب ابن طاهر. فأبي لن يكون بحاجة إليه. ومن جهة أخرى يمكن أن ينفعنا هنا.

ـ نِعم الإجابة، قال المعلم. وابتداء من اليوم، عليك ألا تفكر في العودة إلى البيت، فأنت وقد قطعت آخر حبالك مع العالم الخارجي لتتجه أفكارك من الآن فصاعداً نحو قضية آلموت وحدها!

بعد الغداء، ذهب المريدون لينالوا شيئاً من الراحة في المهجع. جلسوا على أسرتهم وأخذوا يثرثرون. ورغب ابن طاهر رغم شدة تعبه أن يظفر بإيضاحات حول كثير من الأمور التي أثارت فضوله والتي لم يفهمها بعد.

ـ أود أن أعرف ماهي بالضبط علاقتنا مع جنود الحامية؟ سأل

مستفسراً. وماهو موقع مختلف الدعاة بالنسبة للقائد (مينوتشهر)؟ إني أجد نفسي جاهلاً كل مراتب الهرم الإسماعيلي في آلموت.

فأجابه يوسف وجعفر:

ـ كل مؤمن عند الإسماعيليين يشغل مركزاً محدداً فاللصقاء يشكلون مجموعة المؤمنين العاديين. ويأتي الرفاق في مرتبة أعلى منهم، وهم مؤمنون متيقظون ومجاهدون يعلّمون اللصقاء الحقائق الأساسية. وبذلك يمكن أن يصبح اللصقاء المتعلمون جنوداً، تحت إمرة الرفاق الذين يقومون هنا بمهمة العرفاء وضباط الصف. أما نحن، فدائيو المستقبل، فلنا وضع مستقل. إذ مادمنا في طور التعلم، فنحن مسؤولون أمام الأكبر منا سناً وأمام رؤسائنا مباشرة. لكن حالما نصبح مكرّسين، فلا طاعة لنا إلا لأوامر القائد الأعلى أو نائبه، إن أحب أن يعيّن أحداً. ثم تأتي مرتبة الدعاة، الذين يقومون بتهذيبنا وتعليمنا الحقائق السامية. أما القائد مينوتشهر، الآمر العسكري للقلعة، فهو مساو لهم في المرتبة. وفي مرتبة أعلى من الدعاة تأتي مرتبة داعي الدعاة. ويشغلها اليوم ثلاثة: داعي الدعاة أبو علي، الذي قدم إلينا مؤخراً من سوريا، وداعي الدعاة بوزرك أوميد (الروح الأكبر)، وهو آمر قصر (رودبار)، وداعي الدعاة حسين القيني، الذي وباسم سيدنا استولى على قلعة (زور غامباذان) في خوزستان. وأخيراً في قمة هذا الصرح، وعلى رأس الإسماعيلية كلها، يحكم سيدنا الحسن بن الصبّاح.

ـ ياله من تنظيم محكم! صاح ابن طاهر.

ـ لكن الفروق بين الرتب ذات دلالة أوضح أيضاً، قال سليمان. فالداعي عبد الملك على سبيل المثال أدنى مرتبة بقليل من الداعي ابراهيم، وأعلى قليلاً من الداعي أبي سراقة، رغم أن عبد الملك أصغر سناً منه. لكن القضية الإسماعيلية وجهادها تدين له أكثر، وهذا أمر موجب في تقييم الرتب. كما ويوجد فروق في المنزلة بيننا. فأنت الذي جئت في الأمس، أدنى مرتبة بقليل من أي واحد من رفاقك. لكنك حينما تتميز في سبيل القضية الإسماعيلية بطريقة أو بأخرى، أو حين تتفوق يوماً على الآخرين في الامتحان، فستنال الرتبة العليا التي تستحقها بفضل معارفك وجهودك.

- وهل لهذا التمييز الدقيق للرتب أهمية كبيرة؟

قال ابن طاهر مندهشاً.

- بالطبع! أجاب سليمان بإصرار. ففي اللحظة الحاسمة كل إسماعيلي يعرف موقعه، وكل يعرف بالضبط على من سيلقي أوامره ومن يتوجب عليه طاعته. وبذلك يحال سلفاً دون أي ارتباك وسوء **فهم**. هل توضحت الأمور أمامك الآن؟

- نعم، كل الوضوح.

ودوت ضربة صنج لتدعوهم إلى واجباتهم. ولما كان الجو شديد الحرارة على السطح في تلك الساعة، فقد جرى تعليم مابعد الظهر في قاعة الطعام.

أخذ الداعي أبو سراقة يعلمهم أصول الإسلام وتاريخ الإسماعيلية. وبدأ بطرح أسئلة على المريدين حول الموضوع الذي عالجوه قبلاً، بحيث أوضح للقادم الجديد ماقد فاته منه. تابع الداعي قائلاً:

- إن حادثة تزويج النبي محمد لعلي ابنته الوحيدة فاطمة تثبت أنه اختاره ليكون خليفته. لكن وبعد موته، استطاع حموه أبو بكر إبعاد الخلف الشرعي واعتلى هو نفسه كرسي أمير المؤمنين. ومن حينها، انشق صرح النبي محمد الرائع إلى شقين: فإلى اليسار أولئك الذين يقرون بحق أبي بكر في الخلافة الشرعية. وعلمهم أسود وكتابهم السنة: مجموعة أحاديث منقولة شفهياً وشهادات عن النبي محمد، مشكوك بصحة الكثير منها، وعاصمتهم بغداد، حيث يحكم اليوم الخلفاء المدّعون من سلالة العباس. وكان العباس عم النبي محمد(*) قد نجح بفضل تملقه الكبير وأكاذيبه الآثمة في أن يجعل نفسه من عداد مخلصيه... حينما لم يراود أحد شك بغلبة الإيمان الصحيح. وخلفاء العباس(**) يحميهم اليوم السلطان التركي (ملكشاه)، وهو كلب سلجوقي

(*) يخلط المؤلف - كما لايخفى على أحد - بين العباس عم النبي محمد الذي توفي عام 653 م وأبي العباس عبد الله أول الخلفاء العباسيين.(م)

(**) استلموا مقاليد الحكم في 750 م - إثر انتفاضة الشيعة - وجعلوا الخلافة في بغداد.

جاءت سلالته المتشردة من بلاد (ياجوج وماجوج) لتستولي على عرش إيران.

«نحن نؤيد الإمام الشرعي الأول علي وحده، وذلك كما أراد النبي محمد، متمسكين بالصراط المستقيم. رايتنا بيضاء وعاصمتنا القاهرة في مصر. والخليفة الذي يحكم فيها يرجع نسبه في الحقيقة إلى علي وفاطمة، ابنة النبي محمد...

«اعلموا أن أبا بكر قد خلفه إمامان من خلفه: عمر وعثمان. وعقب موت الأخير طالب الناس أن يكون علي خليفة النبي محمد. وبويع علي على ذلك، لكن وبعد فترة وجيزة سفك دمه قاتل مأجور. وخلفه ابنه الحسن، لكنه اضطر للتخلي عن الخلافة إلى معاوية(*) وحينئذ طالب الناس بأن يعتلي الحكم الحسين وهو الابن الثاني لعلي وفاطمة، والذي قضى شهيداً إثر اغتياله هو وجميع أتباعه في وادي كربلاء(**) ومنذ ذلك الحين اضطرت الذرية الطاهرة للنبي محمد أن تعيش في الجبال والفيافي، نصيبها الاضطهاد والقتل على يد الأئمة المدعين وأنصارهم المجرمين. لاجدال، أن مامن أحد بوسعه الإطلاع على الكتاب حيث سطرت المقادير التي هي جميعاً بيد الله... لكن المروءة تقضي أن نبكي الشهداء...

«اسمعوا أيضاً... لقد قلنا إن الخلفاء الشرعيين للنبي محمد، من ذرية علي وفاطمة، يحكمون في القاهرة. نحن نعترف بهم، بالتأكيد، لكن مع بعض التحفظات. وتلك التحفظات هي سرنا، الذي ننوي أن نكشفه لكم تدريجياً. ويكفينا اليوم أن نذكر الأئمة الذين تعاقبوا بعد الحسين، الذي هو ثالث خليفة شرعي للنبي محمد. إن الإمام الرابع هو ابن الحسين نفسه، وهو علي زين العابدين. والخامس ابنه محمد الباقر؛ والسادس جعفر الصادق. أما السابع فهو موضع خلاف. إذ أن جعفر الصادق كان له ولدان: موسى الكاظم وإسماعيل. والذين يقرون

(*) مؤسس السلالة الأموية الحاكمة (650) م؛ وهو الذي جعل الخلافة وراثية.

(**) كربلاء: وتقع في العراق، وهي مدينة يقدسها جميع الشيعة، ويعتبرون الحج إلى أضرحة الشهداء فيها واجباً دينياً.

بأن الأول هو الإمام السابع يعترفون أيضاً بمجموعة خلفائه الخمسة، والذي آخرهم حسن العسكري. أما نحن، فإننا نعرف أن الخليفة الأخير المنادى للنزول يوماً بيننا باسم المهدي ـ وهو آت ـ ليس من ذرية موسى الكاظم، وإنما من ذرية إسماعيل! نحن نؤمن بذلك، إذ هناك علامات أكيدة تؤكد النسب العودة كما نعرفهما نحن. كما لانعترف أيضاً إلا بسبعة أئمة لايتطرق إليهم الشك، وآخرهم وأعظمهم شأناً ليس موسى الكاظم وإنما إسماعيل. والحقيقة أن أحد فروع سلالته حصل له في مصر سلطان عظيم. لكن أين الفرع الآخر، الأكثر نبلاً وشأواً؟ حتى اليوم لانعرف إلا أمراً واحداً وهو أن الأسرة الحاكمة في مصر لاهمّ لها إلا تهيئة الطريق له، إلى أن يتم الانتصار، وتتم سيطرة المؤمنين الحقيقيين على كامل أرض الإسلام. إذ كتب أنه سيأتي بعد الأنبياء الستة العظام: آدم، نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، ومحمد، رسول سابع، هو الأعظم: المهدي. وسيكون من سلالة إسماعيل. وهو الذي ننتظره اليوم ولأجله نجاهد. وأصدقكم القول أن قصر آلموت يضم بين جنباته أسراراً كبيرة.

كانت تلك المرة الأولى التي ينهل فيها ابن طاهر من لباب العقيدة الإسماعيلية. بدت له غامضة، لكنه انتظر بفارغ الصبر مكاشفات جديدة.

غادر أبو سراقة قاعة الدرس. ودخل بعده اليوناني تيودوروس، المسمى بالحكيم (الطبيب) والذي اعتنق الإيمان الصحيح، كان رجلاً قصيراً سميناً، ذا لحية سوداء مدببة وشارب قصير من اللون نفسه. وجهه مستدير ومشرئب بالحمرة، وقد قسمه بشكل غريب أنف طويل مستقيم امتد حتى الشفتين تقريباً، اللتين كانتا مكتنزتين وحمراوين كشفتي امرأة. أضف إليها، ذقناً ناعمة ذات لغدة، وعينين مستديرتين ضاحكتين... ولايُعرف المرء على وجه الدقة إن كان يتكلم جاداً أو مازحاً. وكان المريدون يكرمونه بإطلاق لقب (الداعي) عليه، رغم أنه لم يكرس أبداً. ولايعرف عنه سوى شيء واحد: أن القائد الأعلى شخصياً قد أحضره من مصر. كما أنه طبيب غزير العلم ويدرّس مواد عدة. إنما وبشكل أساسي يعلّم بنية ووظيفة الجسم البشري. وقد

اشتهر بتمتعه بنوع من الحكمة، طامحاً إلى التوفيق بين تعاليم القرآن والفلسفة اليونانية. وحينما كان يصف الأمراض، السموم، ومختلف أشكال الوفيات، كان يملأ شروحه باستشهادات يقتبسها من فلاسفة بلاده، لاسيما من الشكاكين والكلبيين والماديين. وكان المريدون يحملقون دهشة وهم يصغون له، ورأى أكثر من مريد أن تعليمه يشوبه شيء من الكفر. كانت لديه على سبيل المثال طريقة تعجبه، إذ يشرح أصول الإنسان، ويخلط اختلاقات من بنات أفكاره مع تعاليم مفكري اليونان وإرشادات القرآن. فكان مما يحب قوله:

ـ تذكروا أن الله خلق آدم بدءاً من عناصر أربع. في البداية لزمته المادة الصلبة، لكنها كانت قاسية وهشّة. فجعلها تراباً، وخلطها بالعنصر الثاني: الماء. ومن مزيج التراب والماء، صنع طمياً ومنه صاغ هيئة الإنسان. لكن تلك الهيئة كانت طرية وتتشوه لدى أقل لمس، لذا خلق الله النار ليجفف الغلاف الخارجي للتمثال البشري، وبذلك أصبح للإنسان جلد، أبقاه ليناً، لكنه كان بالغ الثقل. فغلفه الله بقليل من المادة في وسط الصدر، ولئلا يعرض للخطر الفراغ المشكّل صلابة الكل، نفخ فيه الهواء. وبذلك تم إنجاز الجسد البشري، الذي مازال حتى اليوم يتكون من تلك المواد الأربعة: التراب، الماء، النار والهواء. ولتسري الحياة في الإنسان، تابع الخبير، اعلموا أن الله نفخ فيه روحاً، ذات أصل إلهي، روح حساسة بشكل رائع للتناغم الذي ينبغي أن يسيطر بين العناصر المتمايزة والتي منها يتكون الجسد. وما أن يختل التوازن، حتى تفارقه الروح وتعود إلى أصلها، الذي هو الله ذاته.

وأشكال اختلال التوازن بين العناصر يمكن أن تندرج في صنفين: الصنف الطبيعي والصنف السحري. والاضطرابات الطبيعية يمكن أن تؤدي إلى أربعة أنواع من الوفيات. فإن فقد الجسد دمه، نتيجة لجرح، فسيحدث استنفاد للعنصر المائي، والموت هو العاقبة. وإن ضُغط على عنق شخص ما أو أعيق تنفسه بطريقة ما، فسيحرم من العنصر الهوائي ليختنق ويموت. والشخص الذي يموت متجمداً إنما فقد العنصر الناري. وأخيراً حينما يتصدع جسد ما، فإن العنصر الصلب هو الذي يتهشم ويهلك؛ والموت هنا أيضاً محتم.

وتبقى الوفيات السحرية، والتي تسمى أيضاً بالطبية، والتي هي أكثر غموضاً... وتحدث نتيجة مواد طبيعية نسميها بالسموم. ومهمة العلوم الطبيعية أن تطلعنا على استخدام السموم المذكورة وتعلمنا تصنيعها... إنها فن نافع وضروري لكل إسماعيلي مجاهد...

فاجأ ذلك التعليم ابن طاهر مفاجأة لاتقل عن مفاجأته بالتعليم السابق. فكل تلك الأمور جديدة تماماً عليه كما شق عليه من جهة أخرى بعض الشيء إدراك الأسباب التي لأجلها يتحتم عليه دراسة مواد غريبة كل الغرابة. حيّاهم اليوناني مبتسماً وانصرف. وظهر الداعي ابراهيم مجدداً أمام المريدين. وتلا دخوله صمت كصمت القبور. تكهن ابن طاهر أنه سيحدثهم عن موضوع هام؛ وكان يتعلق في واقع الأمر بأصول العقيدة الإسماعيلية. طرح المعلم في البداية سؤالاً مشيراً بإصبعه إلى المريد الذي عليه الإجابة. وتعاقبت الأسئلة والإجابات، سريعة، مختصرة، ومحسومة بشكل غريب. كان ابن طاهر يصغي إصغاءً تاماً.

ـ من هم الجنيّات؟

ـ الجنيات هي أرواح شريرة أنثوية كانت تسيطر على العالم قبل (زرادشت)، الذي طردها إلى الجحيم.

ـ ومن هو (زرادشت)؟

ـ هو نبي كذاب، عابد للنار، جعله النبي محمد بين الشياطين.

ـ أين تسكن الشياطين؟

ـ في قمة جبل دومافند.

ـ وكيف نعرف ذلك؟

ـ من الأبخرة المتصاعدة من الجبل(*).

ـ هذا ليس كل شيء!

ـ ومن عويل الأصوات التي نسمعها قادمة من هناك.

ـ من هم السلاجقة؟

(*) دومافند: بركان خامد اليوم.

ـ السلاجقة غزاة أتراك جاؤوا من (ياجوج وماجوج) ليستولوا على السلطة في إيران.

ـ وما طبيعتهم؟

ـ لهم طبيعة ثنائية: نصف بشر، ونصف شياطين.

ـ ولماذا؟

ـ لقد تزاوجت هيئات أو أرواح شريرة يوماً مع نساء من الجنس البشري، اللاتي أنجبن بعدئذ السلاجقة.

ـ ولم اعتنق السلاجقة الإسلام؟

ـ ليخفوا طبيعتهم الحقيقية.

ـ وماهي مقاصدهم؟

ـ تدمير الإسلام وإقامة سلطة الشياطين على الأرض.

ـ وكيف نستدل على ذلك؟

ـ من حقيقة دعمهم للخليفة الكاذب في بغداد.

ـ وما شر عدو للقضية الإسماعيلية في إيران؟

ـ الوزير الأكبر للسلطان، نظام الملك.

ـ ولِمَ يمحض كرهاً شديداً للقضية الصحيحة الوحيدة؟

ـ لأنه نفسه جاحد بها.

ـ وماهي جريمته الأشد كفراً؟

ـ جريمته الأشد كفراً أنه خصص عشرة آلاف قطعة ذهبية ثمناً لرأس سيدنا.

سرى الحماس في ابن طاهر. أجل، الوزير الأكبر المجرم الذي كان قد أمر بقطع رأس جده. واليوم يحاول اغتيال القائد الأعلى للإسماعيليين نفسه!...

تلك كانت الأسئلة والأجوبة التي بواسطتها لخص الداعي ابراهيم كل ماعلمه لهم حتى اليوم. وأشار بيده دلالة على أنه سيتابع درسه. وضع المريدون بهمة ألواحهم الصغيرة على ركبهم وحضروا أقلامهم،

وشرع المعلم يملي عليهم مايجدر بهم أن يعرفوه حول طبيعة السلطة الممنوحة للقائد الأعلى للإسماعيليين. أخذ يلقي أسئلة يجيب عليها هو بنفسه، ودوّن ابن طاهر، وقد أصابته الدهشة:

«ممن يستمد سيدنا سلطته على المؤمنين؟ ـ مباشرة من خليفة مصر المستنصر بالله وبشكل غير مباشر من الله.»

«من أي نوع هذه السلطة؟ ـ هذه السلطة ذات ماهية ثنائية: طبيعية وسماوية.»

«وعلى ماذا تشتمل سلطته الطبيعية؟ ـ على حق التصرف في حياة وموت جميع الإسماعيليين الموجودين في إيران.»

«وماهي سلطته السماوية؟ ـ له السلطة والحق في أن يرسل إلى الجنة من يشاء.»

«ولم سيدنا أكثر نفوذاً من جميع البشر الذين عاشوا على ظهر الأرض؟ ـ لأنه استلم من الله المفتاح الذي يفتح باب الجنة.»

انتهى التعليم عند موعد صلاة المغرب. وتجمع المريدون حينئذ على السطح، وهم يعلّقون بحماس على ماتعلموه خلال النهار. كانوا متلهفين بشكل خاص لمعرفة رأي ابن طاهر، القادم الجديد، في كل ماسبق.

ـ مارأيته وسمعته لدى عبدالملك يبدو لي واضحاً، قال ابن طاهر. لكني لم أفقه شيئاً مما قصده الداعي ابراهيم عندما درسنا أن الله أعطى سيدنا مفتاح الجنة.

فقال سليمان جازماً:

ـ وماالحاجة للتفكير في ذلك؟ هذا تعليم سيدنا وواجبنا أن نؤمن به.

ـ حسن جداً. لكني أتساءل إن كان يتوجب علينا أن نأخذ تلك العقيدة بالمعنى الحرفي أو أن ننظر إليها على أنها صورة وحسب...

ـ عن أي صورة يمكن أن تتحدث؟ قال يوسف وقد نفد صبره. علينا أن نفهم الأمر بألفاظه التي قيل بها.

فقال ابن طاهر في إلحاح:

ـ إذن وقعت معجزة جديدة.

ـ ولم لا! أجاب يوسف منفعلاً.

ـ لم لا؟ لأن النبي محمد أوضح بجلاء أن المعجزات ماكان يمكن أن تحدث إلا في العهود الغابرة. ولم يجزها لاإبان عهده ولافي العهود اللاحقة.

ولم يحر يوسف جواباً.

ـ إن حادثة إعطاء الله سيدنا مفتاح الجنة، قال جعفر مجادلاً، لاينبغي أن تبدو لنا كمعجزة. فالنبي محمد أيضاً لم ينظر إلى رحلته إلى قلب السماء ولا لقائه برئيس الملائكة (جبريل) على أنهما معجزتان.

ـ حسن، لنفترض أن الموضوع هو كرامة منحها الله لسيدنا، تابع ابن طاهر كلامه، بقي أن نعلم أين ومتى وبأي واسطة أعطى الله معلمنا مفتاح الجنة.

ـ لابد أن الله قد ظهر لسيدنا بصورة شوك النار أو سحابة دانية، قال سليمان موضحاً ـ وذلك كما ظهر للأنبياء في العهود القديمة. فسلمه هذا المفتاح، تماماً كما سلم (الصحائف) إلى موسى، فوق جبل (سيناء).

ردّ ابن طاهر الذي كان يناقش في إصرار، وقد رغب بموافقته.

ـ إني أتصور كل ذلك في يسر، لكني لاأستطيع أن أحشر في رأسي فكرة أننا نعيش في جوار ملاصق لنبي مقتدر، رفيع المقام.

ـ ربما لاتحس كفاية بذلك، قال سليمان مازحاً، بم نحن أسوأ من الشعب المختار في الزمان الغابر؟

جال ابن طاهر ببصره وقد بدا الارتباك عليه. فأبصر وجوهاً تتقد حماسة دينية. لا، لم يستطيعوا أن يفهموا أبداً الحيرة والشك اللذين كانا يتأكلانه.

وأدلى جعفر بدلوه قائلاً:

ـ بدلاً من أن أتمسك بتخمينات سليمان، أرى من المنطقي أكثر أن نتصور أن الله أرسل ملاكاً صحب سيدنا إلى الجنة، وهناك وبسهولة تامة عهد إليه بالمفتاح.

ـ مهما يكن الأمر، تظل دوماً الحاجة إلى معرفة طبيعة هذا المفتاح. إذ علينا الإعتقاد أن الله والجنة وماتحويه ليسوا من جوهر عالمنا نفسه. فكيف يمكن إذن أن يوجد بيننا، على أرضنا، جسم له مادة العالم الآخر نفسها؟ وهل نستطيع أن ندركه بحواسنا؟ وإن أمكننا ذلك، فهل من الممكن أن يكون أيضاً شيء من الجنة؟

ـ لقد طرحت لتوّك سؤالاً ذكياً ياحفيد طاهر، قال يوسف فرحاً وهو يفرك يديه رضى وسروراً.

وتدخل نعيم قائلاً:

ـ من جهتي، أنا أرى أن هذه المناقشة تتعدى حدود المسموح.

ـ اخرس إذاً أيها الزيز! قال سليمان زاجراً.

وتابع جعفر معللاً:

ـ جاء في القرآن، أن الصالحين بعد موتهم سيجزون مسرات الجنة، التي ستكون مماثلة تماماً لتلك التي على الأرض. والسعداء سيكون لهم حواسهم نفسها في هذا العالم وسيمتعون بالملذات ذاتها. وعلى هذا فأشياء الآخرة لاينبغي أن تختلف بشكل ملموس عن تلك التي في عالمنا، ومن المحتمل جداً أن تكون مادة مفتاح الجنة مماثلة لمواد أشياء هذه الدنيا.

أما عبيدة، الذي كان حتى ذلك الوقت يصغي بانتباه دون أن ينطق بكلمة، فقد ابتسم بمكر وقال:

ـ لدي تفسير معقول، يمكن أن يوضح ذلك السر المحيط بالمفتاح الشهير. لقد قيل لنا أن هذا المفتاح يفتح باب الجنة. وهو بيد سيدنا، الذي يعيش بيننا على الأرض. وهذا يعني أن المفتاح يفتح باب الفردوس من الخارج، من جانب الأرض. إذن أياً تكن طبيعة الجنة، فمفتاح سيدنا يفتح الباب من جهة الأرض، وعليه لابد أن يكون جوهره من جوهر هذه الدنيا نفسها.

ـ تأويل رائع، صاح يوسف في إعجاب.

ـ أجل، فالتفسير ذكي، قال ابن طاهر موافقاً.

ـ نعم، فعبيدة ماكر كالوشق، قال سليمان متهكماً.

ـ لكن ألا يجدر بنا أن نسأل الداعي ابراهيم إن كان هذا التفسير صحيحاً فعلاً؟ سأل نعيم قلقاً.

ـ إن سؤالاً كهذا قد تدفع ثمنه غالياً، قال سليمان محذراً.

ـ ولمَ! قال نعيم في انفعال.

ـ لأن الداعي المحترم ابراهيم أوجب ـ هذا إن كنت لاتعرف حتى الآن ـ ألا يجيب المرء إلا إذا وجّه إليه السؤال. فإن حاولت أن تتبجح أمامه، أيها الغرّ، فأنت تجازف فعلاً بأن تجلب إليك مشكلة خطيرة.

أضحك كلام سليمان المريدين، واحمر وجه نعيم غضباً. أما يوسف الذي كان في قمة الحبور من تلك المحادثات البارعة والمعقدة فقد رشقهم بنظرة منه. وقال مخاطباً رفاقه:

ـ تابعوا، تابعوا الحديث، يا أطفالي!

إلا أن صوت البوق دوى داعياً إياهم لأداء صلاة العشاء.

بعد طعام العشاء، امتنع ابن طاهر الذي كان شديد الإرهاق عن مرافقة الآخرين في نزهتهم المسائية. وانسحب إلى المهجع حيث تمدد فوق فراشه، ومضى بعض الوقت قبل أن يستطيع النوم. إذ أن كل ماشهده منذ وصوله إلى آلموت تقاطر أمام عينيه في صور عنيفة متعاقبة. ومازال الداعي البشوش أبوسراقة والقائد الصارم مينوتشهر يذكرانه بعض الشيء بالحياة في الخارج. لكن (الحكيم) الغامض والغريب، والداعي عبد الملك، اللذان يتمتعان كلاهما بقدرات هائلة، وربما أكثر حتى، ذاك الكئيب المحاط بالأسرار الداعي ابراهيم قد أدخلوه في عالم جديد برمته. وبدأ اليوم يدرك أن لهذا العالم الجديد قوانينه الخاصة الدقيقة والصارمة؛ ومن الداخل يُنظم ويدار، من القلب إلى الخارج، عالماً كاملاً ومكتفياً بذاته، منسجماً لاخرق فيه. وماكادت تطأه قدماه، حتى قُذف فيه بخشونة. واليوم هاهو غارق فيه حتى أذنيه. أجل، بالأمس كان مايزال هناك في الطرف الآخر. واليوم، يعي هذا العالم جيداً، وينتمي بكليته إلى آلموت.

استحوذ عليه حزن عميق، إذ ودع عالماً بأكمله، وأحس أن طريق

العودة قد سدّ أمامه للأبد. لكنه وفي الآونة ذاتها استيقظ لديه تلهف مسكِر للغد، وفضول يعشق أسراراً يحدسها من حوله في كل مكان، وإرادة صلبة تأبى أن يكون أدنى من زملائه في شيء.

ـ هآنذا في آلموت، قال محدثاً نفسه بصوت عال. لمَ مازلت أنظر إلى الوراء؟

ومع ذلك استحضر في ذهنه مرة أخرى ذكرى بيت الطفولة، أبيه، أمه، وشقيقاته. وقال لهم وداعاً من صميم قلبه. بعدئذ لفّ الضباب أحلام يقظته، واستسلم للنوم في انتظار هنيّ للمجهول.

الفصل الثالث

بعد قدومها بزمن قليل إلى عالمها الجديد، ألفت حليمة الحياة فيه. وبسبب من الظروف الغريبة التي لم تفهمها، حصلت على كل مارغبت به. والحقيقة أن الجميع، حيوانات وبشراً، أحبوها حباً جماً. حتى أباما نفسها، كانت تتنازل أحياناً حينما ترتكب حليمة بعض الحماقات، فتكشر عن ابتسامة تسامح. ولم تقصّر حليمة في استغلال تلك الميزة، فكانت تمازح الآخرين بسرور وتتصرف على هواها، وبدا لها طبيعياً أن يخضع الجميع لرغباتها. تلك الرغبات التي كانت من جهة أخرى متواضعة إلى حد ما.

كانت سارة ضحيتها الأولى، فأقل إشارة من حليمة هي بمثابة أمر لها؛ فكونها تخدمها في كل الأمور جلب لها السعادة ـ وهي بذلك تخلص لماضيها كأمَة. احتملت خاضعة كل أهوائها وجميع نزواتها، وإذا اتفق أن فضلت حليمة فتاة أخرى، اشتطت سارة في كربها وتعاستها إلى أبعد الحدود.

كان ذلك الحال أثناء النهار. وعندما يأتي المساء، وما أن تضع الصبايا رؤوسهن فوق وسائدهن وتستسلم زينب للرقاد، حتى تسرع سارة لتندس تحت غطاء حليمة، معانقة إياها مقبّلة. في بادئ الأمر قاومت حليمة تلك الغارات بعض الشيء، لكن وبعد أن اعتادت نوعاً ما على دلائل العشق تلك، غفلت عن ردّها. وكانت تحدث نفسها أنه ينبغي إظهار بعض التساهل، مقابل الخدمات الكثيرة التي تقدمها لها سارة أثناء النهار. لكن أمراً واحداً ماطاقت له احتمالاً: غيرة سارة

المتأججة. إذ كانت حليمة تحب أن تنثر رقتها في كل اتجاه، وأن تتبادل القبلات مع صديقاتها، مظهرة لطفها لهذه أو تلك، وتنفر من أن تُكره على ذلك. وعندما كانت سارة تحدجها بنظرات تنبئ عن ضيقها، كان ذلك يثير حليمة، فلا تستطيع أن تمنع نفسها عن استفزازها، وتعذيبها. وعندما تعنّفها صديقتها فيما بعد، حينما تخلو بها، كانت حليمة تهددها بأنها لن تحظى منها بعد اليوم بنظرة واحدة.

كان جلياً أن سارة تشعر بحاجة ماسة لخدمة أحد حباً به، ولتلبية جميع رغائبه، حتى لو كان ذلك لقاء غيرة تؤرقها على الدوام. بينما كانت حليمة سعيدة بحياتها، تتنعم بصباها وبالشمس مثل عصفور أو فراشة. ووجدت من الطبيعي أن تصبح مركز اهتمام ومحط عناية من يحيط بها، وأن يدور العالم حولها. وكانت في حال فراغها تركض في الحدائق التي يزداد ازدهارها يوماً بعد يوم، مستنشقة عطر ورودٍ من كل صنف ولون، تباهت بتويجاتها الرائعة، فكانت حليمة تجمع منها باقات تزين بها الأجنحة، لاهية مع أهريمان والغزالة الصغيرة، التي سميت بسوزان. كانت تتجول في العديد من الأماكن، مكتشفة الكثير من الزوايا المنعزلة، متيقنة بعينها أن حدائقهن قد أحاط بها الماء من كل الجهات. وقد ساورها الاستحسان أيضاً حينما رأت النبات، على مدّ النظر، يطاول على هواه نبات الروضة، في الطرف الآخر من الضفة. لقد كان ذلك أشبه بالعيش في فردوس حقيقي.

وسرعان ما تجرأت على أن تتقدم مغامرة بمفردها نحو الصخور التي تتشمس عليها العظايا، ويسكن فيها (بيري) الثعبان الأصفر. لكنها بقيت بعيدة بعض الشيء عنها، مقتنعة في أعماقها بصواب رأي مريم، مرددة بصوت عال: «ما أجمل هذه العظايا!» وحتى أنها حاولت الصفير، مثل مريم، لتخرج الثعبان بيري من جحره. إلا أنها وقبل أن يبرز الحيوان رأسه الصغير المثلثي الشكل، انطلقت حليمة تعدو بكل مافيها من قوة، ولم تجرؤ على الالتفات إلى الوراء إلى أن وصلت إلى الأنحاء التي تتردد إليها صاحباتها عادة.

وفي تجوالها المنفرد ذاك، وجدها ذات يوم عدي ومصطفى.

حاولا الاقتراب منها في هدوء، يريدان إخافتها. إلا أن حليمة التي كانت كفأرة بين كمائن، سمعت الضجة، وولت هاربة لما رأت أن الزنجيين يريدان مباغتتها. فصاح عدي في مصطفى، إذ كان متخلفاً عنه:

ـ أمسكها!

وأدركها مصطفى في بضع قفزات، ليحملها بين ذراعيه القويتين ويعود بها إلى عدي. أخذت حليمة تتخبط، تضرب، تعض، صارخة أن يتركاها، إلا أن الخصيّين كانا يسخران منها ويضحكان أكثر فأكثر.

ـ ارمها للعظايا! قال مصطفى.

فأطلقت حليمة صرخات حادة ألقت الرعب فيهما.

ـ كلا، لنلعب بالأحرى لعبة الكرة معها، قال عدي مقترحاً.

وخطا عدة خطوات جانباً، وفتح ذراعيه قائلاً لصاحبه:

ـ أرسلها إلي!

ـ اجعلي ذراعيك تحت ركبتيك! أمرها مصطفى، هكذا! أمسكي بقوة بمعصميك.

حينئذ بدأت حليمة تشعر بالمغامرة الممتعة. فعلت مثلما قال لها مصطفى وما لبثت أن طارت في الهواء لتقع مثل كرة حقيقية بين ذراعي عدي. وأخذت تصرخ مثل حي يسلخ جلده، بفزع مازجه الفرح، مستمتعة بسماع صوتها.

جذبت الصيحات أهريمان، الذي أقبل ليرى الشيء الغريب الذي يحدث هناك. وقف إلى جانب عدي، متتبعاً بعينيه ورأسه الكرة الحية التي تطير من يد إلى يد. كان واضحاً استمتاعه بهذه اللعبة، إذ أخذ ينخر في حبور.

ـ أرأيت كم أصبحت طرية ومكتنزة! قال مصطفى في دهشة.

فضحك عدي مسروراً وقال:

ـ نعجتي الصغيرة الغالية، كعكتي الحلوة، رجاء علمي ونجيبة حكمتي. لقد كبرت وباللحم اكتنزت منذ أن عندنا قدمت!

شّقت الهواء مرات عدة، وهي على هذا النحو، جيئة وذهاباً، فوق عشب الحديقة الأخضر، وإذ بصيحات حانقة تدوي من الضفة المقابلة.

ـ أباما! قال مصطفى بصوت مخنوق، وبادر إلى إيقاف حليمة على قدميها ـ لتطلق الفتاة ساقيها للريح مولية الأدبار، واختفت خلف أدغال الدرب الضيق.

ـ ماأنتما إلا دابتين قذرتين، حيوانين شبقين! زعقت أباما من الضفة الأخرى. سأبلغ عنكما سيدنا وسيأمر بخصيكما ثانية. لقد وطأتما أجمل زهراتي: برعم ورد يافع!..

قهقه الخصيّان وقال عدي متهكماً:

ـ لم تزعقين أيتها الضفدعة الشنيعة، أيتها العاهرة الهرمة! انتظري قليلاً، ساحرة منحوسة، ذات حَوَل ونتن، سنرجمك ونسلخ جلدك.

ـ أحمق مسكين حقير، قالت أباما وهي تضرب الأرض برجليها، هيه، أتشتهي اللحم الطري! في شهوتك المبتورة! حمداً لله أن سُلبت منك في الوقت المناسب قدراتك البائسة، أيها التيس الأسود ذا القرن المهشم! آه! يالحسن الحظ... تشتهي ولاتستطيع!...

تابع عدي كلامه، وهو يضحك من جديد هازئاً:

ـ انظري كم نحن نكرمك، أيتها القردة العجوز، الشيطانة المضحكة! أنت تحلمين أن يضاجعك الملوك السبعة في آن معاً، لكن كلباً عجوزاً إن رغب بك يجعلك تطيرين فرحاً.

صرّت أباما أسنانها، وقد استشاطت غيظاً عاجزاً. هرولت إلى الضفة، كما لو أنها تريد أن ترمي بنفسها في الماء. ولما رآها عدي نزل مسرعاً بدوره إلى حافة السيل، وتناول أحد المجذافين اللذين حرص على إخفاءهما تحت دغل وقفز إلى الماء ضارباً سطحه بضربات رشيقة، ليرش المرأة الصيّاحة رشاً محكماً.

أطلقت العجوز صرخات حادة، في حين كان الخصيّان يضحكان ملء شدقيهما. وأخيراً ألقى عدي المجذاف تحت الدغل وأسرع هارباً

مع مصطفى، بينما كانت أباما تلوح بقبضتها نحوهما، وهي تقسم على قتلهما.

وريثما يتحقق ذلك انصب على حليمة جام غضب أباما. ففي نفس اليوم ذاك، عاملتها أمام جميع رفيقاتها على أنها فاجرة منافقة، داعية عليها بكل صنوف عذاب الدنيا والآخرة. وحليمة اتهمت نفسها أحياناً بالفساد الشائن، إذ ماتكاد معانقات السمراء تنتهي، حتى تتجرأ على النظر في عيني مريم في سيماء من الطهارة. أحست اليوم إحساساً مبهماً بإثم منحها سراً تنازلات لسارة، وأصابتها توبيخات أباما في الصميم، فغضت طرفها وقد علا الاحمرار وجهها حتى أذنيها.

ما أن ابتعدت أباما، حتى أخذت مريم تخفف عن حليمة وتحثها على ألا تلقي بالاً إلى انتقادات المرأة العجوز: فكل الناس تعرف أن أباما شريرة وتبغض الخصيان. ومن جهة أخرى، مامن أحد يشك في براءة تلك الألعاب. انطلقت حليمة وقد نال منها التأثر بالثقة التي محضتها إياها مريم، والتي بدا لها أنها لاتستحقها، لتختبئ في إحدى الزوايا منتحبة على نفسها. وأقسمت أن تصبح أفضل فتاة وألا تستسلم بعد اليوم لسارة. وبما أن التخلي عن عادة قديمة أمر صعب، فقد بقي كل شيء على حاله.

طالت ساعات النهار، وامتلأت جعبة الأماسي بالأسرار، وغنت الجداجد في الحدائق ونقّت الضفادع في الأحواز. أما الخفافيش فقد طارت إلى حواف النوافذ المضاءة، تلاحق حشرات لاتحصى قانعة بتحليقها الصامت. كانت مسرة الفتيات الكبرى في تلك السهرات أن يصغين للحكايا والأساطير التي تحكيها لهن فاطمة، وهي فتاة بارعة من كل النواحي، قد أحاطت علماً بأوجه الأشياء الجميلة ولاتتحير أمام أي كان. كانت تعرف الكثير من الأحجيات، وتكشفها لهن، وتحيك أحجيات جديدة من خيالها كل يوم. وحفظت الأغاني العاطفية المغناة امتداداً من سوريا إلى مصر، ومن أرض العرب البعيدة حتى السهوب الجليدية في تركستان. ووقفت أيضاً على أسرار أخرى. وكان الخصيان قد بنوا لها نوعاً من دفيئة زجاجية مديدة تكاثر فيها دود

القزّ، متخذاً مكانه فوق الأغصان المنتزعة من أشجار التوت التي كانت تنموفي الأسفل شأنها شأن الصفصاف على ضفة الماء. ولطالما أكدت فاطمة أنها تعرف كيف تستخلص من الشرانق كل الحرير الذي تحتاجه الفتيات لملابسهن.

وشغفت الصبايا على الخصوص بسماعها تقص عليهن حكايات لانهاية لها تجرّ الواحدة منها الأخرى لألف ليلة وليلة، أوتنشد مشهداً تقتبسه من (سفر الملوك) للفردوسي. وقد برهنت فعلاً على خيال يليق بشهرزاد. أما مامحاه الزمن من ذاكرتها، فقد كانت تحل محله اختلاقات من بنات أفكارها، أضف إلى ذلك العديد من القصص التي كانت تبتدعها بنفسها من أولها لآخرها. ومن بين الحكايات التي لامست شغاف قلوب الصبايا على نحو خاص: حكاية النحات (فرهاد) والأميرة شيرين. ولم يستطعن أن يمنعن أنفسهن وهن يستمعن إليها عن التفكير في مريم، وألححن باستمرار أن تحكي مرة أخرى تلك الحكاية التي تحرك مشاعرهن. أما حليمة فقد بلغ تأثرها بها مبلغ الدمع. كانت شيرين مثل مريم مسيحية الأصل. تتمتع بجمال فريد أخاذ حتى أن الأزهار لدى مرورها في المروج والحدائق كانت تحني تويجاتها حياء وغيرة. ولما أصبحت زوجة للملك خسرو برويز، أقوى عاهل في بلاد فارس القديمة، هبّ الشعب كله ثائراً، إذ شقّ عليه اعتلاء كافرة العرش. لكن الملك وبحبه الجم لها استطاع أن يفرضها حتى على أعدائه. فخسرو برويز لم يكن ملكاً مقتدراً وحسب، وإنما أيضاً رجلاً حكيماً. وقد أدرك إلى أي حد الجمال الأرضي قصير العمر. فتاق إلى الإحتفاظ بصورة خالدة للوجه الساحر والجسد الفاتن لزوجته، واستدعى النحات الأكثر شهرة في عصره: فرهاد. وأمره أن يخلّد على الرخام الهيئة النفيسة. وبدأ حب الأميرة ينمو في قلب الفنان الشاب وهو الذي كان يواجه سحرها الفتان يوماً بعد يوم. فأينما حلّ، وفي أي عمل انشغل، في اليقظة أو المنام، كان يبصر وجهها الملائكي. وفي نهاية المطاف، لم يعد بمقدوره إخفاء وجده. وفي حين كان التمثال يزداد شبهاً بأصله الحي، كان حماس فرهاد لعمله، نظراته وحتى نغمة صوته، وكل مافيه يشي بالعاصفة الهائجة في فؤاده. ولاحظ الملك

يوماً بنفسه ذلك الهوى. فاستل سيفه، وقد استبدت الغيرة به، لكن شيرين تدخلت وبجسدها حمت الفنان. أبقى الملك النحات على قيد الحياة هبة منه، من شدة تأثره بكمال العمل الذي أنجزه، لكنه نفاه نفياً مؤبداً إلى جبال (بيزتم) النائية. وفي غمرة هاجس بلا سلوان لحب بلا أمل، فقد فرهاد رشده، وأمسك بالمطرقة والإزميل وقد أطار الحزن الشديد صوابه ليشرع في نحت تمثال هائل لشيرين في نتوء الجبل الصخري. وهذا التمثال مايزال على مرأى من الناس إلى اليوم: وقد كان المرء يقسم لدى مشاهدته، على أنه يضاهي الشكل الحي للأميرة الملائكية لدى خروجها من حمامها، وقد حيّاها فرس الملك الأثير، شبديس، ضارباً الأرض بحوافره، ممتلئاً حيوية ونشاطاً.

وتردد أن الملك أرسل إلى جبال بيزتم رسولاً كلفه بنشر خبر كاذب عن موت الملكة شيرين، فلم يعد فرهاد يطيق البقاء هناك على قيد الحياة. وتحت وطأة ألم فاق احتماله، ألقى بنفسه فوق فأسه، التي فلقت صدره فلقتين. ويروى أخيراً أن حديد الفأس الذي هوى انغرس في التراب، وتشربت قبضته الدم المتدفق من قلب الفنان النضر، فأزهرت وأثمرت: وما الثمرة التي أعطتها إلا الرمانة، التي ينفلق أيضاً قلبها وينزف إحياء لذكرى النحات البائس ـ ومن هنا جاء اسمها بـ «تفاحة فرهاد»...

كانت الفتيات تصغين للقصة بعيون دامعة. بينما مريم تحدق في السقف مظهرة اللامبالاة. لكن نظرتها كانت ثابتة بشكل غريب وكأن بعداً لايطال يناديها. وقد سمعت فاطمة وجادا اللتان كانتا تنامان في الغرفة نفسها، تململها وتقلبها على السرير طيلة الليل.

وأحببن أيضاً سماع حكاية العجوز الإيراني رستم الذي، ودون أن يعلم، قتل في مبارزة ابنه سهراب؛ وحكاية علي بابا واللصوص الأربعين، ورواية مصباح علاء الدين أيضاً... ولم يغفلن عن القصص المستمدة من إحدى سور القرآن، والتي كانت تتصرف فيها فاطمة على هواها. ولما روت مقدار حب امرأة العزيز ليوسف، نظرت الصبايا كلهن عفوياً إلى صديقتهن سليقة وابتسمن لها. ولم تر فاطمة في

المصرية امرأة شهوة وسوء، وإنما ببساطة عاشقة رقيقة لم يجرؤ يوسف أن يرفع بصره نحوها. والحقيقة، أن كل فتاة استطاعت أن تجد في حكايا فاطمة النموذج الذي يناسبها: نموذج يتسنى لها بحرية أن تقارنه بنفسها ـ وتقارن الأخريات به.

ومن وقت لآخر، كانت نزيلات القصر يُقمن لأنفسهن ولائم فخمة يأكلن فيها ويشربن في أبهة تليق بالملوك. وكانت أباما في تلك الأيام خاصة خبيثة الطبع. أما مريم من جهتها فقد كانت تضحك من طرف خفي. وتهامست الفتيات أنها قد حصلت من سيدنا شخصياً على إذن بإقامة تلك الاحتفالات لتسلية صديقاتها. لكن أباما استشرى فيها الحنق لاضطلاعها وحدها بتحضير الشراب والطعام لتلك المآدب. وفي تلك المناسبات، لم يتوان الخصيان عن الذهاب لصيد السمك الكثير، بينما انطلق مصطفى حاملاً قوساً ومصحوباً بصقر إلى صيد الطيور منذ بزوغ ضوء النهار. وكان عليه أولاً أن يأخذ قارباً يقوده مع التيار وصولاً إلى الضفة حيث تبدأ الأدغال الجبلية، وبعدها يتوجه نحو الغابات الممتدة أسفل قمم جبال البورز التي كانت جنة صيد حقيقية.

وفي معرض التحضير لأحد تلك الاحتفالات، طلبت حليمة من مريم أن تأذن لها بمرافقة الصيادين في تعقب طرائدهم. لكن مريم رأت الطريق بالغة الخطورة. فأشارت عليها أن ترافق عدي الذي يذهب لإحضار الدواجن والبيض من جزيرة الحيوانات.

وهكذا كان، إذ جلست حليمة في أحد الأيام في القارب الذي يقوده عدي مع التيار. سارا في البداية في إثر الصيادين، لكن وفي منتصف الطريق، دلف عدي نحو مقطع مائي جانبي، وانزلق الزورق الصغير الذي تدفعه ضربات تجذيف خفيفة، فوق صفحة الماء الساكن، صوب الجزيرة التي هي بمثابة زريبة مشتركة للحيوانات الداجنة وتلك المروضة.

كان الصباح رائعاً، والشمس لم تصل الوادي، لكن أشعتها ذهّبت منحدرات الجبل والقمم الثلجية. وقد حلقت طيور كثيرة مزقزقة مغردة.

بينما كانت طيور أخرى تحوم فوق الماء ترفرف أو تغطس بحثاً عن السمك. وتطرزت الضفتان بورود كبيرة لاتحصى، أزهرت بينها ورود السوسن والنيلوفر. وكان هناك بلشون فضي اللون غمره الماء حتى بطنه، يوغل منقاره الحاد في أعماق التيار بحثاً عن الغذاء. وما أن لمح القارب ينزلق بهدوء نحوه، حتى نصب بجلال قنزعته الشائكة، ثم وبعد أن رفع على مهل إحدى قائمتيه خارج الماء، ابتعد نحو الضفة. وتتبعته حليمة ببصرها، متسلية. وقالت:

ـ ليس بخائف، إنما غضب لأننا عكرنا صفو غدائه.

ـ آه، نعم، قال عدي موافقاً، فكل الحيوانات التي تعيش في هذه الحدائق أنيسة. إذ لم يصبها أحد بسوء...

تجاوزا البلشون، لكن ذا الساق الطويلة لم يعد يلقي بالاً لهذين الزائرين، إذ انهمك مطمئناً في متابعة صيده في مكان قريب. ومن مكان لآخر كان يلمع بطن إحدى السمكات وهي تلقف ذبابة صغيرة خارج الماء. واستيقظت اليعاسيب مرتجلة عروضاً غير منظمة فوق سطح الماء.

صاحت حليمة:

ـ كم هذا جميل!

ـ نعم، كم هذا جميل، قال عدي فجأة بصوت مخنوق. لكنه أجمل عندما يكون المرء حراً...

اندهشت حليمة من قوله:

ـ أتقول أن يكون حراً؟ ألسنا أحراراً هنا؟

ـ ليس بمقدورك أن تفهمي، فأنت امرأة. سأقول لك أمراً: إن ابن آوى الجائع في الصحراء أكثر سعادة من أسد شبعان في قفصه.

هزت حليمة رأسها غير مصدقة.

ـ أنحن حقاً في قفص؟

ـ لقد قلت ماتقدم دون تفكير مني، اعتذر مبتسماً. والآن الزمي الصمت بشأن ذلك. هاقد وصلنا.

بلغ القارب الضفة ونزلا إلى الأرض. كان هنالك درب ضيق شبه مخفي يتلوى بين أدغال الصفصاف وغابات صغيرة من الحَوَر الرجراج. وصلا منحدر صخري حيث نمت كل أنواع الأعشاب الغريبة والأزهار النادرة، ثم دخلا مرجاً واسعاً تحيط به غابة صغيرة: وترامت إلى السمع أصوات متوحشة، قادمة من هناك: همهمة، صفير، زمجرة. أمسكت حليمة بذراع دليلها متوجسة. فقد شاهدت لتوها عند طرف الحرج أشكالاً من الأقفاص الضخمة، في داخلها طيور مرفرفة وحيوانات راكضة. وحين اقتربت حليمة، انقضت بعض الطيور مذعورة على الأسيجة ضاربة بأجنحتها، بينما وثب فهدان ضخمان على أثرها وهما يزمجران غضباً.

تراجعت حليمة إلى الوراء، بينما وضع عدي على الأرض السلة الكبيرة التي أحضرها وشرع يطعم الحيوانات التي سرعان ماهدأت، وانهمكت في التهام طعامها اليومي.

ـ هذا عمل معاذ ومصطفى، قال عدي معلقاً. لكنهما ذهبا للصيد، فاتخذت مكانهما اليوم.

كانت الأدغال تخفي زريبة متطاولة ومنخفضة وضعت فيها الدواجن. دخل عدي الزريبة وطفق يلتقط البيض.

ـ الآن، اذهبي من هنا، طلب منها عدي وابتسامة ارتباك على وجهه. علي أن أقوم ببعض الأشياء التي لاينبغي أن ترينها.

ركضت حليمة نحو أقفاص أخرى، وفي هذه الأثناء أخذ عدي يلوي بمهارة عنق بعض الدجاجات والأوزات. لم تطق حليمة سماع صرخة الحيوانات المخنوقة فآثرت أن تسد أذنيها. خرج عدي من القن، وقد غطى الدواجن الميتة بقماش أبيض. وبادر يحدث رفيقته عن طباع مختلف الحيوانات التي شاهداها.

وأبدت حليمة ملاحظة قائلة:

ـ لو أُطلق هذا الفهد العجوز مثل أهريمان، لكان مزقني إرباً، ماقولك؟

ـ ربما. وربما أيضاً لاذ بالفرار. فالفهود تخشى الإنسان.

ـ ولم إذن تحتجزونهما في القفص؟

ـ سيدنا بحاجة إليهما لإنجاب الصغار. فهذان اللذان رأيتهما هناك هما زوجان: ويريد سيدنا أن نربي له بعض الضواري، إذ يسره أن يرسلها هدايا إلى العديد من الأمراء أصدقائه.

ـ أحقاً أن الفهود اليافعة تشبه صغار القطط؟

ـ الحقيقة أن الاختلاف يتجلى في أنها أيضاً أكثر ظرفاً وطرافة.

ـ أرغب أن يكون لي واحد منها.

ـ إن كنت عاقلة، فسأحضر لك واحداً تحتفظين به مادام صغيراً.

ـ آه! أتظن أن سيدنا سيسمح بذلك؟

ابتسم عدي.

ـ أنت لديك أصدقاء ذوو نفوذ.

أحمر وجه حليمة. وعرفت أنه يلمح إلى مريم.

ـ لمَ تبغضكَ أباما؟ سألت حليمة.

ـ إنها تكره كل الناس. ولاتخشى أحداً إلا سيدنا. وأنا تكرهني بشكل خاص لأني ذات يوم... لكن ماجدوى أن أقول لك هذا...

ـ تكلم، عدي!

ـ هذا شيء سخيف... إنما أرجوك ألا تنطقي بكلمة لأحد... تعرفين أنه حين قدمت أباما إلى هذه الجنائن، مافتئت تلمح إلى الصداقة القديمة والمديدة التي ربطتها بسيدنا ـ إذ كانت تظن أنه وهبها قلبه، في الأيام الخوالي، في كابول. أرادت أن تجعلنا نصدق أن سيدنا، الذي أصبح ذا شأن، قد دعاها إلى قصره لتكون محظيته. أخذت تتصرف بغطرسة، لبست الحرير، تزينت واتخذت هيئة ملفتة للنظر، ابتسمت بملامح مكبوتة وكالت الشتائم للجميع ـ حتى أنا نفسي لم أسلم منها، أنا الذي عرفت سيدنا منذ أن كان في مصر وجعلت جسدي درعاً له من أعدائه. ذات يوم، وبمحض المصادفة، فاجأتها أثناء انهماكها في فعل من أفعال البشر، لقد كانت مضحكة ومنفرة أيضاً. فضحكت

عليها كثيراً، ومن وقتها، كما ترين، تستمطر اللعنات فوق رأسي المسكين. وساورتها شكوك في أني فضحت عارها أمام الآخرين، وهي لايشق عليها أن ترانا ننفق جميعاً الواحد تلو الآخر. ولولا سيدنا، لكانت منذ زمن طويل دست لنا السم حتى آخرنا.

ـ هل هي حقاً شريرة؟

ـ هي شريرة، لأنها تتعذب ولأنها عبدة عجرفتها. لاتريد أن تكون مسنة، وتعلم أنها أصبحت كذلك.

وتوغلا نحو الأمام أكثر في منطقة حراج، ووصلا إلى قفص القردة. صرخت حليمة فرحة إذ أبصرت الحيوانات الصغيرة تلاحق بعضها البعض متشبثة بالحاجز الشبكي، تتأرجح من غصن إلى آخر، وهي تقفز قفزات بهلوانية تكاد لاتحصى، تمسك ببعضها البعض، وتتشاجر.

ـ كان عندنا أيضاً دب، قال عدي، لكن سيدنا أمرنا أن نقتله لأنه كان أكولاً. ويمكنك أن تري أيضاً في الجزيرة قطع ماشية، جملاً صغيراً، أربعة خيول وبعض الحمير. وحتى يوجد فيها الكلاب والقطط أيضاً... وعلي أن أخبرك أنه لايسمح لأحد غيرنا بالمجيء إلى هذا المكان... إنها أباما التي نالت موافقة سيدنا على أن يكون الأمر هكذا.

ـ أيأتي سيدنا أحياناً إلى حدائقنا؟

ـ ليس لي الحق في أن أخبرك، صغيرتي الغالية.

ـ أود أن أعرف كيف شكله.

ـ هذا أمر يصعب وصفه. له لحية طويلة، وهو سيد واسع النفوذ...

ـ أهو جميل؟

أخذ عدي يضحك.

ـ لم أفكر في ذلك على الإطلاق، عصفورتي الصغيرة. إنه بالتأكيد ليس قبيحاً. قد يكون بالأحرى مخيفاً...

ـ هل هو طويل القامة؟

ـ لاأقول ذلك، فقامته أقصر مني.

ـ لابد إذن أن يكون شديد البأس.

ـ لاأحسب هذا، فأنا قد أصرعه بيد واحدة.

ـ لكن بم يتمتع حتى خافه الجميع هكذا؟ هل لأن تحت إمرته جيش كبير؟

ـ ليس بالضرورة. ومع ذلك، وحتى في مصر حيث كان غريباً لاسند له، شاعت حوله هذه الرهبة مما حدا بالخليفة في نهاية الأمر إلى أن يأمر بإلقائه في السجن، حيث أمضى فيه ليلة، وفي الصباح وضعوه في قارب وهم يرجونه أن يغادر البلد. كانت الفرصة سانحة لأعدائه أن يقتلوه، لكنهم لم يتجرؤوا على فعل ذلك.

ـ أمر غريب، غريب، قالت حليمة مندهشة. إذاً هو والسلطان صديقان؟

ـ آه! على الإطلاق! فالسلطان ألد أعدائه.

ـ وإذا ماهاجمنا! ماذا سيحل بنا؟

ـ لاتخافي. فمصيره أن ينهزم أمامنا برأس مدمّى، هذا إن بقي رأسه فوق كتفيه.

ـ أخبرني الآن، أتعلم إذا كان عند سيدنا نساء كثيرات؟

ـ أنتِ كثيرة الفضول. أعرف أن لديه ابناً، وربما قردتين أو ثلاث مثلك.

ارتبكت حليمة وتمتمت كأنها تحدث نفسها:

ـ كيف تراه يجدني؟

ولم يستطع عدي أن يمنع نفسه من الضحك على ذلك التعليق. ثم قال:

ـ لديه هموم أخرى كثيرة تعج في رأسه، على الأقل في الوقت الحاضر.

ـ من المؤكد أنه يلبس الأُرجوان والحرير...

ـ ذلك تبعاً للظروف. لقد رأيته يلبس رداء من الصوف.

ـ إن كان لباسه هكذا. فعلى الأغلب لئلا يتعرف عليه أحد وحسب... أليس هو ملك في هذا العالم؟

ـ أعظم من ملك. إنه نبي!

ضحك عدي ضحكة عالية صافية.

ـ يالك من عصفورة صغيرة فضولية! ماالذي يدور في رأسك!

ـ وهل تخاف النساء منه أيضاً؟

ـ هن أول من يخشينه. أباما على سبيل المثال تقف طائعة بين يديه كالحمل.

ـ وماذا يفعل ليكون كذلك؟

ـ لاشيء! وهذا بالضبط مالأجله يخشاه كل الناس.

ـ إذاً هو شرير، وجائر.

ـ ليس هو كذلك أيضاً، حتى أنه يمازح مسروراً. ومع ذلك فعندما ينظر إليك تشعرين وكأنك تلاشيت.

ـ هل عيناه مرعبتان؟

ـ لا، لاأدري. لاتطرحي علي هذا المقدار من الأسئلة. ماالذي عنده حتى يخشاه كل الناس؟ لاأعرف شيئاً عن ذلك. لكنك إن أبصرته يوماً، فستشعرين أنه يعرف كل أفكارك، حتى تلك التي تحسبين أنك تخفينها على أفضل وجه. ويبدو لك أنه يرى حتى أعماق روحك وأن من العبث التظاهر بشيء، أو تمثيل السعادة، لأنك ستدركين بوضوح أنه يرى ويعرف كل شيء.

أحست حليمة أن حلقها تيبّس؛ وعلا الإحمرار وجهها.

ـ الآن عرفت أن الخوف منه نصيبي إن التقيته! إنك على حق. فالرجال من هذا الصنف هم أكثر الرجال مثاراً للرعب.

ـ حسن، لندع الشرح جانباً! ولنأخذ السلة ونعود إلى المنزل. أما

أنت، غزالتي الصغيرة، فأغلقي فمك الفاتن ولاتنبسي ببنت شفة حول كل ما دار بيننا من حديث منذ قليل..

ـ أعدك بذلك ياعدي، وانطلقت تركض في إثره نحو القارب.

في المساء، اجتمعت الصبايا حول البركة في القاعة الكبيرة. كانت الصالة مزينة تزييناً فخماً، إذ ضوعف عدد المصابيح المعلقة على الثريا. وتمايل اللهب المتعدد الألوان في الزوايا والمنبعث من أقداح زيت صغيرة وضعت فوق الرفوف. وزُيّن كل شيء بالأزهار وزُخرف بالأوراق الخضر.

كان ثلاثة مساعدين لأباما يقومون على خدمة الفتيات في طعامهن وشرابهن، أحضروا على أطباق برونزية الطيور والدواجن المشوية، والسمك المقلي المتبل بحمض الليمون، وفواكه وحلوى. وكانت الخمر المحفوظة في جرار فخارية ضخمة تصبّ في الكؤوس، لتشربها بمرح تلك الآنسات. وما لبثت همسات الحديث الرزينة أن انقلبت إلى هذر شامل تتخلله ضحكات صاخبة. وأباما التي راقبت المشهد في البداية جاهدة في اخفاء مرارتها، انتهى بها الأمر إلى الانسحاب، وقد بدا الغيظ عليها جلياً، وفي طريقها هاجمت مريم قائلة:

ـ لاتنسي أن الحرص على النظام واجبك.

ـ لاتشغلي بالك، أباما، أجابت مريم وعلى ثغرها أعذب ابتسامة.

وسمعت الفتيات السيدة تدمدم وحدها في الممر قائلة:

ـ هذا أمر شائن! مخجل!...

ومالبث عدي وأسعد أن انضما إلى الصبايا، وتبعهما محمد ومصطفى. وطبعاً لم ينتظروا حتى يؤذن لهم ليأكلوا ويشربوا على سجيتهم. وبمختصر العبارة، كان الفرح والسرور شاملاً.

ـ حان وقت الانتقال إلى العرض! قالت فاطمة ـ وهذا ماوافقها عليه الجميع مسرورين.

شرعن يستظهرن ما يحفظن، واختارت بعضهن آيات من القرآن،

وأخريات مقاطع من الأنصاري(*)، أو من أشعار الأقدمين. وأنشدت فاطمة قصائد ألفتها بنفسها، ثم دخلت مع زينب في مساجلة شعر منظوم. أما الخصيان، الذين لم يتعرفوا بعد على براعة الصبيتين في هذا الفن، فقد دمعت عيونهم من شدة الضحك، وهنّأهما عدي بحرارة، وقد استنار وجهه فخراً وحبوراً.

وتلا الإنشاد الرقص. وتناولت فاطمة وبعض صاحباتها آلات الموسيقى، بينما انطلقت وحليمة وسليقة في رقص غني بالمعاني. ولما انتهين من عرضهن المشترك، تابعت سليقة الرقص منفردة... تمايل جسدها كله أولاً ببطء، على إيقاع الصنج، ثم تسارع تمايلها أكثر فأكثر، لتقفز أخيراً نحو حافة البركة ولتدور حول نفسها في سرعة جنونية، إلى حد أن جميع الحضور وقد تملكهم الرعب حبسوا أنفاسهم، ثم ومثل زوبعة ريح ارتمت فوق الوسائد.

تعالت صيحات الاستحسان، وركضت حليمة نحوها وعانقتها بجنون. ملأ الخصيان الكؤوس من جديد، لتشرب الصبايا نخب سليقة. وأخذت الخمرة تصعد إلى رؤوسهن. ثم انطلق الجميع في الغناء، والتأوّه، والعناق، واستسلمن للغنج والعتاب الرقيق الذي كانت تتخلله ضحكات مجنونة. لكن ملكة كل تلك الحماقات كانت أيضاً حليمة، التي أدارت الخمرة رأسها من الكؤوس الأولى. أحست أنها خفيفة كفراشة وأن أجنحة غير مرئية ترفعها عن الأرض. بعد انتهاء سليقة من الرقص بوقت قصير، طلبت حليمة بدورها - وقد تملكها حب الظهور - من الموسيقيات أن يعزفن لها لحناً راقصاً. شرعت في البداية تخطو بعض الخطوات، ثم أخذت تدوّم حول نفسها، جاهدة في تقليد الحركات التي قامت بها سليقة. ضحك الجميع وهم يرونها مستغرقة في هذا الجنون الرقيق، الأمر الذي ألهب حيويتها المفرطة. ووثبت أخيراً نحو حافة البركة. صرخت صاحباتها، وركضت مريم لتمنعها، لكن الأوان فات. إذ فقدت حليمة توازنها وسقطت في الماء بكامل قامتها.

(*) الأنصاري: صوفي شهير، له ابتهالات في نثر مقفى.

خفّ الجميع نحوها. مدّ عدي ذراعه القوية وسحبها من البركة. نظرت إلى مريم بهيئة تثير الشفقة، وقد خالط ضحكها دموعها. عاتبتها مريم بلطف واصطحبتها إلى غرفتها. وهناك، لفتها بفوطة وساعدتها على تغيير ملابسها. رجعتا مجدداً، وجهدت حليمة على أن تبقى طائعة هادئة، إلا أن بضع أكوابٍ من الخمر مالبثت أن ردت إليها ثقتها بنفسها. فهرعت نحو الممر وضربت الصنج طلباً للهدوء.

- صديقاتي وأخواتي الجميلات، استهلت كلامها، مقلدة عدي في كلامه، أمامكن الوديعة الفاتنة حليمة، التي أسكرت خمرة الاحتفال رأسها...

ضجّ الصبايا والخصيان في ضحك مجلجل.

- عبثاً تستمرين ياحليمة، استوقفتها مريم، هذا لايليق أبداً.

- أردت أن أعتذر وحسب، قالت حليمة وقد ظهر الكدر عليها جلياً.

نهضت مريم، وأقبلت إليها ثم أخذتها إلى أريكتها. أما حليمة التي نال منها التأثر فقد أجهشت بالبكاء، وحضنت يد مريم مقبلة أصابعها الواحد تلو الآخر.

طيلة الحفلة الساهرة، لم تفلح سارة في جلب الاهتمام إليها، وهي التي اعتادت على ماكانت حليمة، في هذا الوقت، تمنحه لها وحدها دون منازع. لاحقت أدنى حركاتها بنظرة غيرى. ولم يبدُ على حليمة طيلة الوقت أدنى اكتراث بها. أخذت سارة المفتونة، تنظر إليها مستلقية بالقرب من مريم تقبل أصابعها. وفاجأت حليمة نظراتها تلك التي قرأت فيها الغيرة اليائسة، فابتسمت ابتسامة غنج ودلال، وفي مسعى منها لإثارة حفيظتها، أخذت تداعب شعر ووجه وعنق مريم، ملتصقة بها، ومقبلة بشغف شفتيها.

أما سارة التي أصابها عذاب لايطاق، فقد أخذت تفرغ في جوفها الكؤوس الواحد تلو الآخر. وفي نهاية المطاف، لم تعد تحتمل أكثر، فاستسلمت للنحيب وولت نحو الباب هاربة. تملصت حليمة من ذراعي مريم وجرت وراء سارة، وقد نال الندم منها فجأة، وهمت بمواساتها.

وفهمت مريم كل شيء من نظرة واحدة. امتقع وجهها ونهضت واقفة.

ـ سارة! حليمة! إلى هنا! صرخت في صوت جاف.

وبخوف، وبعينين مطرقتين، اقتربت الفتاتان.

ـ مامعنى ذلك؟

كان صوتها صارماً. وهوت حليمة على قدميها، تقبلهما وشرعت تنتحب بصوت عال.

ـ هكذا إذن، قالت مريم بصوت مخنوق.

ـ لا، لا! لست مذنبة، صرخت حليمة. سارة هي التي أغوتني.

دفعت مريم حليمة عنها. واقتربت من سارة وصفعتها؛ انهارت الأخيرة دون أن تنطق بكلمة.

أشاحت مريم بوجهها عنهما. ولما رأت سيماء الفزع واللهو مرتسمة على وجهيهما، ابتسمت ابتسامة خفيفة.

ـ سارة! صرخت. اجمعي أغراضك وانتقلي من غرفتك في الحال؛ وستمكثين في غرفة منفردة دون نوافذ في نهاية الممر. وستنامين فيها حتى تغيري مابنفسك من سوء. انهضي واذهبي من هنا، ولا أريد أن أرى وجهك ثانية في المساء.

شعرت حليمة بالندم على تلك الحركة الواشية التي بدرت منها، وأدركت أنها قد خانت سارة. تلك التي نهضت، ورمتها بنظرة حزينة وغادرت القاعة دون أن تتحرك شفتاها بكلمة واحدة.

أما حليمة الجاثية على ركبتيها، فقد حبت نحو مريم ورفعت يديها نحوها متوسلة؛ وفي عينيها نظرات الحزن والغم.

ـ أما أنت، أيتها الصغيرة الآثمة، قالت مريم موبخة، فستقيمين معي من الآن فصاعداً، وبذلك لاتغيبين عن عيني. وسنرى إن كان مايزال هنالك متسع من الوقت لإصلاحك. وأنتما: صفية وجادا، خذا مكانيهما في غرفة زينب.

أحست حليمة أن أبواب السماء انفتحت لها. ولم تجرؤ حتى على

تصديق ماقالته مريم. تجاسرت ورفعت بصرها نحو رفيقتيها، فلمحت ابتسامة على محييهما. فابتسمت هي أيضاً من خلال دموعها.

كان الخصيان قد غادروا دون أن يلحظ أحد ذهابهم.

ـ حان وقت النوم، قالت مريم.

وانسحبت الفتيات الواحدة تلو الأخرى وحركات أجسادهن تكشف بوضوح عن مدى إعيائهن. وانتظرت حليمة، مترددة، بالقرب من الباب.

ـ مابالك تقفين هناك دون حراك؟ قالت مريم بنفاد صبر. اذهبي واجمعي أشياءك واتبعيني!

حينئذ فقط بدأت حليمة تصدق ماجرى. نعم، إنها آثمة ومنبوذة... لاسيما وأنها فقدت ودّ مريم. لكنها مقابل كل ذلك، سقطت عليها أجمل هدية من السماء. فهي ستنام في غرفة مريم، وستستنشق الهواء الذي تستنشقه مريم، وستنعم على الدوام بوجودها! وستتمكن أخيراً من الإقتراب مما كان بالنسبة لها سراً من الأسرار.

بالكاد انتبهت إلى الابتسامات التي وجهتها إليها صاحباتها. فقد وجدنها ظريفة وحلوة، وأخذن يتهامسن في ذلك ويرسلن إليها من بعيد قبلاتهن الناعمة. رمتهن حليمة بنظرة سوداء وقد تطلعت إليهن شذراً، وانطلقت تلملم أغراضها من غرفتها القديمة. وساعدتها زينب وجادا وصفية. كان خجلها لايوصف، وعيناها مشدودتان إلى الأرض وعلى وجهها سمة البرود. جهزت سريراً في غرفة مريم بمساعدتهن، خلعت ثيابها على عجل، واندست تحت الغطاء متظاهرة بالنوم، لكن أذناها كانتا تلتقطان كل صوت في الغرفة. ووصلت مريم أخيراً. وسمعتها حليمة تنزع رداءها وتحل صندلها. ثم سمعت ـ والقلب توقف هُنيهة عن الخفقان ـ خطوات صامتة تقترب من سريرها. شعرت بنظرة مريم لكنها لم تجرؤ على فتح عينيها. حينئذ ـ ويا للرقة اللامتناهية! لامست قبلة ناعمة جبهتها. فحبست رعشة، واستسلمت للنوم في الحال.

بالنسبة لحليمة، بدت الأيام اللاحقة بالغة الروعة. فضميرها لم يعد يؤنبها كما في السابق: فمنذ أن أقرت بإثمها ونالت جزاءها، شعرت بقلبها وكأنه تخفف من وقر؛ وعاودتها السعادة مجدداً. لاجرم

أن شيئاً من الضيق كانت ماتزال تشعر به أمام صاحباتها، اللواتي لم يحرمن أنفسهن من توجيه ابتسامات لها ذات معان مضمرة، وكن يتظاهرن مداعبات، برغبتهن عند أي مناسبة، بإغوائها. فكانت تغلق يدها الصغيرة، مهددة إياهن بقبضتها وتحدجهن بنظرة سوداء. ورغم ذلك، شمخت بأنفها كما لم تفعل سابقاً، إذ لم يزعجها أن تصبح من جديد هدفاً مراداً، حتى وبصفتها آثمة صغيرة.

كانت سارة تتجنبها، أما حليمة فقد كانت تنزعج من مصادفتها. وغالباً ماتراها محمرة العينين من كثرة البكاء. وفي أثناء وجبات الطعام؛ تجد نظراتها منكسرة مثقلة بالألم والملامة. واستجمعت أخيراً شجاعتها لتفاتحها قائلة:

ـ اعلمي ياسارة أني ماقصدت خيانتك. لقد أفلتت مني تلك الحركة الشنيعة...

امتلأ وجه سارة بالدموع؛ ورجفت شفتاها، كانت تود أن تقول شيئاً ما، لكنها لم تقو على ذلك. غطت وجهها بيديها وولت هاربة.

واتفق أن ضيقاً مماثلاً حلّ في نفس حليمة ـ وقد شعرت به تماماً ـ إلا أنه لايعد شيئاً أمام السعادة الكبرى التي أصابتها: هي تنام في غرفة مريم! وتكرس نفسها لخدمتها. وأسفت بعض الشيء أنها وبسبب هفوتها اضطرت جادا وصفية إلى الابتعاد عن مريم. وهما توأمتان متشابهتان مثل قطرتي ماء، وكذلك كانت طباعهما التي هي ألطف وأرق مايمكن أن يتخيله المرء. وهذا التماثل في الخُلق والملامح جعل حليمة تعجز عن تسمية واحدة منهما عندما تلقاهما... الأمر الذي كان مدعاة لهو وتسلية لجادا وصفية والدعابة الوحيدة التي سمحتا بها لنفسيهما، إذ تتظاهر كل منهما أنها الأخرى أمام حليمة. مما كان يبعث لديهما الضحك كثيراً. ولما اضطرتا لمغادرة غرفة مريم بدا الحزن جلياً عليهما؛ إلا أن بضعة أيام تلت، كانت كفيلة بأن تتوطد صلتهما مع زينب، وسرعان ماأصبحن ثلاثتهن أفضل الصديقات في الجناح.

في الأيام التي كانت حليمة تنام فيها إلى جانب زينب وسارة،

كانت تتوجس خيفة من الليل. لكنها اليوم تنتظره بفارغ الصبر. ومنذ الليلة الثانية قالت لها مريم:

ـ لاتسأليني أي سؤال ولاتحكي شيئاً. إن مهمتي أن أسهر عليكن جميعاً. وليس مطلوباً منك معرفة المزيد.

تلك الكلمات الغامضة حركت في حليمة شتى الأفكار. لكنها اكتفت لحينها بالمراقبة في هدوء. كانت مريم آخر من تخلد إلى النوم. وكانت حليمة تجهز لها بعناية كل مايمكن أن تحتاجه، ثم تخلع ملابسها وتأوي إلى فراشها متظاهرة بالنوم. لكنها خلف جفونها المغمضة، كانت «تتلصلص» على مريم العائدة إلى غرفتها، والتي كانت تضع ملابسها شاردة، وتطفئ الشمعة... ثم تسمع خطواتها تقترب منها، وتشعر بقبلة تلامس جبهتها.

ذات ليلة، وفي غمرة نومها، استيقظت حليمة مذعورة، وقد أكربها على حين غرة شعور غريب. أرادت والخوف يغالبها، أن تنادي مريم، لكنها حين نظرت إلى سريرها، وجدته خالياً. فتملكها فزع خفي. «إلى أين ذهبت؟ الأرجح أنها على وسادة هذه أو تلك، قالت لنفسها في البداية. لا أبداً! إنها عند سيدنا!...» وشيء ما في داخلها أنبأها أنها ليست مخطئة...

في جناح سيدنا! ولاحت أمام روحها هوّة تفيض بالأسرار. وفجأة أحست ببؤس عظيم، فانكمشت على نفسها، وحبست أنفاسها، وأصاخت السمع. لكن مريم لم تعد. كان النعاس قد فارق أجفانها تماماً. أخذت تشعر أنها عرضة لشعورين متباينين: خوف يرجف أوصالها من جهة وفضول جامح ينبؤها أنها بدأت تلامس قلب الأسرار من جهة أخرى. ولما انطفأت النجوم، وسمعت تباشير زقزقة العصافير، إذا بالستارة التي تحجب الممر تنزاح برفق. ومثل طيف ليلي، دخلت مريم ترتدي طيلساناً يزينه فرو ثعلب. ألقت نظرة ريبة على حليمة، وحلّت بحركة منهكة أزرار طيلسانها الذي انزلق عن كتفيها لتقف دون حراك أمام سريرها. لم يبق على جسدها سوى قميص رقيق. خلعت صندلها واندست تحت الأغطية بهدوء.

لم يزر النعاس أجفان حليمة إلا حينما دوى صوت الصنج مؤذناً بالاستيقاظ. حينئذ غطت في نوم عميق، لتنال لحظة من الاستراحة الناجعة. ولما استيقظت، كانت مريم كالعادة تجلس على طرف سريرها مبتسمة لها.

ـ لقد تأخرت في استيقاظك اليوم، قالت مازحة في لطف. لابد أنك حلمت أحلاماً مزعجة.

والحقيقة أن حليمة لم تعرف بعد بالضبط حتى تلك اللحظة، إن كان كل ماسبق مجرد حلم. نهضت شاحبة متعبة، ولم تجرؤ على النظر في عين أحد طيلة النهار.

ومن تلك الليلة، وثقة مريم بها في ازدياد. وفي أوقات فراغها، كانت تعلمها الكتابة والقراءة، الأمر الذي استمتعت به كلتاهما. وبذلت حليمة قصارى جهدها لتنال تقدير معلمتها محرزة تقدماً سريعاً، ولم تبخل مريم في الثناء عليها. ولم تتردد بغية تشجيعها في أن تقص عليها ذكريات شبابها، والحياة التي عاشتها صبية في كنف والدها في حلب، والقتال بين المسيحيين واليهود، والبحر الواسع والمراكب التي كانت تأتي من البلاد البعيدة. وهكذا تعلقت إحداهما بالأخرى تعلقاً وبيقاً، إلى حد أنهما أصبحتا كأختين في عمرين متباينين.

ذات مساء، حين عادت مريم إلى الغرفة وشرعت تخلع ملابسها، سمعتها حليمة تقول:

ـ هيا، لاتتظاهري بالنوم. تعالي إلى جانبي ـ وأقبلت تلمس حليمة! ـ وبخوف مبهم في القلب، ذهبت حليمة إلى الفراش المجاور؛ لكنها وخشية أن تشي بانفعالها، تمددت على الطرف الأبعد من السرير. فما كان من مريم إلا أن جذبتها نحوها. وحينئذ فقط تجاسرت حليمة واقتربت من صديقتها.

ـ سأقص عليك تعاسة حياتي، استهلت مريم حديثها، تعرفين أن أبي كان تاجراً في حلب. وكان ذا ثراء عظيم، تبحر سفنه نحو بلاد الغرب البعيدة، محملة بالأقمشة النفيسة. وقد أصبت في طفولتي كل

ماشتهته نفسي. رفلت في أثواب الحرير، وتزينت بالذهب والأحجار الكريمة، وكان ثلاثة من الخدم رهن إشارتي. اعتدت أن ألقي الأوامر وبدا إذعان الجميع لي أمراً طبيعياً.

ـ ياللسعادة التي عشتها! تنهدت حليمة.

ـ ومع ذلك، كوني على ثقة أني ماكنت أكثر سعادة من أية فتاة أخرى، تابعت مريم قولها، هذا على الأقل مايبدو لي اليوم. كل رغبة من رغباتي كانت تنفذ في الحال. لكن أي رغبة؟ فقط تلك التي يستطيع المال أن يلبيها. إنما الأحلام المخبوءة، الخفية، الغالية على قلب كل صبية، كان لابد لها أن تظل حبيسة أعماقي. والحقيقة أني ومنذ بواكير عمري رحت أتفكر في حدود القوى البشرية. وحينما انهالت المصائب الواحدة تلو الأخرى فوق رأس أبي، لم أكن أبلغ بعد الرابعة عشرة. بدأت أولاها بموت أمي وحينذاك رأيت هذا الرجل يغرق في حزن عميق. وبدا أنه قد فقد طعم كل شيء. وكان له من امرأته الأولى ثلاثة صبيان عملوا في التجارة لحسابهم، فأضاع الأول كل ثروته، أما شقيقاه فقد كفلاه. وأرسلوا مراكب نحو شواطئ أفريقيا منتظرين أرباحهم، لكن سرعان ما وصلت أنباء تحطم تلك المراكب في عاصفة هوجاء. فالتفت ثلاثتهم نحو أبيهم الذي عرض عليهم مشاركته في ماله. فأرسلوا هذه المرة سفنهم نحو بلاد الفرنجة، لكن القراصنة استولوا عليها، وبين ليلة وضحاها أصبحنا معوزين.

ـ والحالة هذه، ربما من الأفضل لو أنكم ولدتم فقراء! حدثت حليمة نفسها بصوت مسموع.

فابتسمت مريم لقولها، وضمت البنت الساذجة إليها لتعانقها بحنان. وتابعت قائلة:

ـ كل تلك الرزايا، وقعت علينا بالكاد في بحر عامين. وفي ذلك الحين جاء اليهودي موسى الذي عُرف بأنه أغنى رجل في حلب إلى عند أبي وقال له: «اسمع ياسيمون ـ وكان ذلك اسم أبي ـ أنت بحاجة إلى مال، وأنا بحاجة إلى امرأة!...» فسخر منه أبي في لطف قائلاً: «قل هذا لغيري، قل هذا لغيري!... أنت لم تعد في مقتبل العمر: فلديك ابن يمكن أن يكون أباً لابنتي! لم لاتفكر بالأحرى في الموت الذي يقترب

منك!...» لكن موسى لم يكن مستعداً للتراجع عما يريد. وأشاع في أنحاء المدينة أني أجمل صبية في حلب. «سأقرضك كل المال الذي تريده ـ قال في إلحاح ـ وحسبك أن تزوجني ابنتك، لاأكثر. أنت تعلم أنها لن يصيبها مكروه عندي.» في البداية لم يأخذ أبي طلب الزواج ذاك على محمل الجد، لكن أخوتي نصف الأشقاء لما علموا بالأمر، أخذوا يضايقونه، ودفعوه دفعاً حثيثاً ليبرم العقد مع موسى. كان أبي في وضع مالي ميئوس منه. وكان أيضاً مسيحياً صالحاً، وثار على إمكانية تزويج ابنته ليهودي. لكن سيل المصائب أضعفه وأنهكه، فانتهى به الأمر إلى القبول بفكرة ذلك الزواج. ولم يأخذ أحد رأيي. وفي أحد الأيام أبرم العقد وأُجبرت على الانضمام إلى عائلة غريبة.

ـ مسكينة، مسكينة يامريم! همست حليمة وقد تخضل وجهها بالدموع.

ـ أترين، أحبني زوجي على طريقته... أردفت صديقتها، لكن كنت أفضل ألف مرة لو أنه كرهني أو أنه لم يكترث بي. عذبتني غيرته، أوصد علي الأبواب المنيعة في أجنحته، وحين رآني غير مبالية بتقرباته، التي لم تبعث في إلا القرف، كان يصرّ أسنانه ويهددني بأن يطعنني بالخنجر. كنت أشعر أحياناً أنه رجل مجنون وخفته خوفاً عظيماً.

سكتت مريم كما لو أنها تود أن تستجمع قواها لتنطق بما تبقى عليها قوله. أما حليمة التي سرت القشعريرة في جسدها فقد توقعت أن مريم ستفضي إليها أخيراً بسرها. وضعت خدها الساخن فوق صدر مريم وحبست أنفاسها.

ـ اعلمي أن زوجي، أضافت مريم بعد هُنيهة، كانت لديه عادة خدشت حيائي على نحو فظيع. فشعوره أنه قد تملكني أخيراً بالكلية جعله يفقد عقله تماماً. إذ لم يتوقف عن الحديث عني لعملائه التجاريين، فكان يصف لهم محاسني وصفاً فاضحاً، ويتغنى بما لايجوز الكلام عنه، وبجمال جسدي، ويتباهى أنه أصبح سيد الجمال الأبهى في المنطقة كلها. كان واضحاً أنه يريد إثارة رغبتهم. وغالباً ماكان يقص علي في المساء كيف شحبت وجوه أصدقائه تشوقاً حينما

وصف لهم سحري، ولم يخفِ عني التسلية التي كان يجدها في ذلك. يمكنك أن تتخيلي بسهولة الحقد والاشمئزاز اللذين كان يسببهما لي. وحينما كان يتوجب علي أن آتي إليه، كنت أحس أني نحو العذاب أسعى. ومع ذلك كان يضحك ويسخر من أصدقائه الشبان، الذين كان يسميهم بالأغرار: «إيه! عزيزتي، المال يشتري كل شيء. ومعوز فقير وإن كان بهي الطلعة، لايحظى حتى بنظرة إلى امرأة شمطاء.» كان هذا الكلام يجرحني ويغيظني أكثر من أي كلام آخر. آه! لو أني استطعت أن أعرف واحداً من أولئك الأغرار! لكنت برهنت لموسى أنه كان يتعلل بالأوهام الكاذبة. لكن ماحدث كان أكثر مما توقعت... إذ وفي أحد الأيام، دست إحدى خادماتي في يدي ورقة صغيرة. فتحتها وارتعش قلبي من كلماتها الأولى. وإلى اليوم وأنا أحفظها حتى آخر كلمة فيها عن ظهر قلب. اسمعي...

كانت حليمة تختلج متلهفة وكلها آذان صاغية.

ـ هذا ماكتب فيها: «من الشيخ محمد إلى مريم، زهرة حلب، قمر يضيء بخيوطه الفضية الليل ويلهب النهار! اعلمي أني أحبك، أجل، أحبك حباً لاحدّ له منذ أن سمعت موسى، سجانك الملعون، يطنب في إطراء جمالك وفضائلك. وكما الخمرة تدور برأس الكافر وتسكره، كذلك صورة كمالك أثملت قلبي... أيها القمر الفضي! لو تدرين كم من الليالي قضيتها، في قلب الصحراء، أتخيل سحرك، وكم كانت صورتك أمام عيني تنبض بالحياة، وقد فاقت بروعتها الفجر الذي يورّد السماء. حسبت أن البعد ينسيني هواك، لكنه زاده اضطراماً! وها أنا اليوم جئت حاملاً إليك قلبي. اعلمي يازهرة حلب، أن الشيخ محمد رجل لايهاب الموت، وأنه أتاك ليستنشق الهواء الذي تستنشقينه. والسلام!»

«حسبت في البداية أن هذه الرسالة ماهي إلا فخ. فناديت الخادمة التي أحضرتها إلي وألححت عليها بخشونة لتقول لي الحقيقة كلها. فأخذت تبكي وأرتني القطعة الفضية التي أعطاها إياها ابن الصحراء لتسلمني الورقة. وسألتها مجازفة: «وماشكل ابن الصحراء ذاك؟» فأجابتني «جميل وشاب أيضاً» واهتزت مشاعري. وفي الحال أحسست أني أصبحت أسيرة محمد هذا. والحقيقة أني قلت لنفسي،

كيف يجرؤ على كتابة رسالة كتلك لو لم يكن فتياً وبهياً. حتى خشيت أن يخيب أمله حينما يراني. وأعدت قراءة الرسالة أكثر من مائة مرة. وكنت أضعها نهاراً في صدري، وأقفل عليها بعناية ليلاً في صندوق صغير. ثم وصلتني منه رسالة أخرى، لعلها أكثر جمالاً وعشقاً من الأولى. كانت نار حب خفي تحرقني. وأخيراً واعدني محمد على السطح، أسفل نافذتي تماماً - إذ أنه كان قد استعلم عن الأماكن المحيطة بي! آه! ياحليمتي، كيف أصف لك مشاعري حينئذ! عشر مرات في اليوم غيرت رأي. أذهب أم لا أذهب؟... وبعد تردد كبير، اتخذت قراري بألا أذهب إلى السطح. وبقي رأيي ثابتاً حتى أزفت ساعة اللقاء، وفي تلك اللحظة، وكما لو أني طوع أمر خفي خرجت إلى السطح. كانت ليلة ساحرة متشحة بالسواد؛ قمرها لم يبزغ بعد لكن النجوم رصعت السماء مرسلة ضياءها الرقيق. انتظرت وأنا أراوح بين تحرق وتجمد بضع دقائق في ظل السطح. وكنت أقول في نفسي: «ماذا لو أن هذا كله مجرد خدعة أو مقلب من هازل سمج يبتغي جعل موسى أضحوكة؟» وفجأة سمعت صوتاً يهمس: «لاتخشي شيئاً، هذا أنا، الشيخ محمد.» كان رجلاً رشيقاً كريشة، أقبل في رداء رمادي يجتاز السور، وقبل أن أستطيع التقاط أنفاسي، أخذني بين ذراعيه. شعرت أن الأكوان انقلبت وأني تجرعت كأس الخلود. لم يسألني إن كنت أود مرافقته. أمسك خصري ورفعني برفق لينزلني على سلم الحبال الذي صعد عليه من الحديقة. وفي الطرف الآخر منها، كان فرسان في الانتظار. أمسكوني ليتيحوا له اجتياز قمة السور بلا عناء. ثم وضعني على سرج حصانه، وخرجنا من المدينة مسرعين، تحت جنح الليل الحالك.

- أنتِ عشت ذلك كله! تنهدت حليمة. يالسعادتك يامريم يالسعادتك!...

- كيف تقولين مثل هذا الكلام، ياحليمة الصغيرة؟ اعلمي إذن أن قلبي يتمزق حينما أتذكر ماجرى بعد ذلك. لقد عدونا على ظهر الخيول طيلة الليل. ولاح القمر أخيراً من وراء الجبال، وأغرقنا بضيائه. وبدا لي ذلك مخيفاً ورائعاً في آن، كأنه الحكاية. ولبعض الوقت لم أجرؤ على النظر إلى وجه الفارس الذي كان يحملني بين ذراعيه. وتشجعت

أخيراً ورفعت عيني نحوه. كانت نظرته نظرة نسر لكنه لما نظر إلي أصبحت عيناه عيني غزال تفيض مودة وحناناً. أحببته... أحببته لدرجة أني كنت سأرضى الموت لأجله في الحال. فالشيخ محمد كان أجمل الرجال جميعاً. ذو شارب أسود، ولحية قصيرة كثيفة، وشفاه حمر... آه! ياحليمة، أصبحت زوجته أثناء الطريق... وبعد ثلاثة أيام، كانوا في إثرنا: أخواتي نصف الأشقاء، وابن زوجي وعصابة من الميسورين المسلحين! وعلمت لاحقاً أنه بمجرد اكتشاف هروبي، أُمر الخدم جميعاً أن يستعدوا للقتال. وتم العثور على رسائل محمد، أما موسى فقد أصابه الفالج من الحسرة والعار. وسرعان ما حمل رجال العائلتين أسلحتهم، وامتطوا أفضل خيولهم وانطلقوا في إثرنا... كنا في الصحراء بعيداً حين رأينا في الأفق كوكبة الفرسان. ولم يكن مع محمد سوى سبعة رجال. وصاحوا فيه أن يتركني، لكنه آثر أن يعدو بفرسه مسرعاً، مكتفياً بالتلويح بذراعه في إشارة احتقار لهم. وبعد قليل، وعلى الرغم من تغيير حصاننا التعِب، أدركنا الرجال الذين كانوا يتعقبوننا. ولما أبصرهم عاشقي أنزلني إلى الأرض والسيف في يده، وهجم على رأس رجاله السبعة. كانت معركة عنيفة لم يسبق لها مثيل، إلا أن الغلبة كانت للعدد الكبير. وسقط أحد إخوتي صريعاً، ثم رأيت محمداً يقع بدوره. ولولت من الألم وركضت هاربة، إلا أنهم سرعان مالحقوا بي، وشدوا وثاقي وألقوني فوق أحد السروج. ثم ربطوا محمداً إلى ذنب حصاني...

- أمر مريع، مريع، تأوهت حليمة وقد غطت وجهها بيديها.

- لاأستطيع أن أصف لك ما اختلج في نفسي حينئذ. لقد تحول قلبي إلى حجر ولم يعد ينبض إلا بهوى واحد: الانتقام. بعد ذلك بالكاد شعرت بالذل والخزي الذين أعدا لي. فحين رجعنا إلى حلب، وجدت زوجي على فراش الموت. ومع ذلك لما رآني دبت الحياة في عينيه. جرّني ابنه إلى سريره وبيده جلدني بالسوط جلداً قاسياً. صررت أسناني ولم أدع صرخة تفلت مني. ومات موسى، وأحسست بعزاء لاحد له. وبدا لي أن الشطر الأول من انتقامي قد تم... وما جرى لاحقاً سأرويه لك باختصار. حين رأوا أنهم قد نالوا مني تعذيباً، أخذوني

إلى البصرة وباعوني كما تباع الجواري. وهكذا وجدت نفسي تحت يد سيدنا، الذي أقسم أن ينتقم لي من اليهود والنصارى.

صمتت مريم صمتاً طويلاً. وأحست حليمة أن مريم ماتزال تكبر في عينيها إلى أن اتخذت ملامح شبيهة بنصف إلهة. وبدا لها أنها قد استفادت كثيراً، هي أيضاً، من صداقتها.

ـ هل صحيح أن اليهود والنصارى يأكلون الأطفال الصغار؟ قالت وقد تجرأت أخيراً.

عادت مريم التي مازالت غارقة في ذكرياتها المرعبة فجأة إلى الواقع وقالت وعلى وجهها ابتسامة حزينة:

ـ ليس ذلك بمستبعد. فهم محرومون من الكثير من العاطفة حتى يفعلوا ذلك...

ـ يالهنائنا أننا أصحاب دين صحيح!... صاحت حليمة. لكن قولي لي يامريم، أمازلت مسيحية؟...

ـ لا، لم أعد أدين بالمسيحية.

ـ يهودية؟...

ـ لا، لست بيهودية أيضاً.

ـ إذن أنت تتبعين الدين القويم، مثلي!

ـ كما تودين، أيتها الصبية الغالية.

ـ هل يحبك سيدنا كثيراً؟

ـ قلت لك لاينبغي أن تطرحي هذه الأسئلة، قالت مريم متذمرة وقد تظاهرت بالضيق، لكن الآن، وبما أني بثقة عهدت إليك بالكثير من الأمور، فسأبوح لك بشيء آخر أيضاً... ربما يحبني، لكن من المؤكد على أي حال أني ضرورية له.

ـ وكيف أنك ضرورية؟ لاأفهم شيئاً.

ـ هو وحيد، ليس عنده أحد يكلمه.

ـ وأنت، أتحبينه؟

ـ هذا شيء ليس بمقدورك أن تفهميه. صحيح أنه ليس مثل الشيخ

محمد، إلا أنه أفضل من موسى بكثير!... إنه نبي كبير، وأنا معجبة به كثيراً...

ـ لابد أنه رائع الجمال؟...

ـ أيتها القطة الصغيرة الحمقاء! ألتشعرينني بالغيرة تسألينني مثل تلك الأسئلة؟

ـ آه! على الرغم من كل شيء، أعرف أنك سعيدة جداً يامريم، هتفت حليمة من أعماق قلبها.

ـ اصمتي، أيتها الزيزة الصغيرة! تأخر الوقت وحان النوم. عودي إلى سريرك.

قبلتها ورجعت حليمة إلى فراشها بهدوء. لكنها أمضت وقتاً طويلاً، طويلاً جداً قبل أن تغفو. استعرضت في فكرها كل ما قصته مريم عليها. وتمثل أمامها مع وقع خاص الاختطاف، والرحلة على الجواد بين ذراعي محمد الذي شعرت بنَفَسه يلامس جلدها، وبشاربيه يداعبان وجهها. وأحست برقة فريدة أرعشتها، وهنأت نفسها أن الوقت ليل ومابمقدور أحد أن يراها هكذا. لكنها لما تخيلت محمداً ميتاً، وقد ربط إلى ذنب الحصان الذي جرّ جسده فوق التراب، دفنت في الوسادة وجهها المخضّل بالدمع. وعلى تلك الدموع أغمضت عينيها وغفت.

بعد مرور حين على ماجرى آنفاً، رأت مشهداً ملأها بقلق غريب. إذ كانت تهيم في الجنائن على عادتها وتأخر مكوثها في الغياض حينما سمعت حفيفاً غير مألوف قادم من خلف الدغل. اقتربت بهدوء. فرأت سارة ومصطفى مستلقيان على العشب، مستغرقان في تلك الملذات التي تفننت أياما في تعليمهن أسرارها. انتفضت. وأرادت الهرب؛ لكن قوة خفية سمرتها في مكانها. وبأنفاس مقطوعة، لم تستطع أن تحول نظرها عن الاثنين: ظلت هناك، تنظر إلى مايفعلان، إلى أن فرغا مما هما فيه وتهيأا للذهاب.

تساءلت في نفسها إن كان عليها أن تبوح لمريم بما رأت؛ كانت

تكره في سريرتها أن تحمل سراً تخفيه عنها. لكن ألم تخن سارة من قبل؟ لا، لايجدر بها الآن أن تتهمها! وفضلت أن تقول لنفسها أنها لم تشاهد شيئاً. لأنها في النهاية لم تكن لتكتشف كل ذلك إلا بمحض المصادفة... ستلزم السكوت إذن، ولم تلبث أن شعرت بتخففها من عبء. إنها تستطيع الآن النظر في عيني سارة في اطمئنان. وبدا لها، بسكوتها، أنها وفّتها ديناً قديماً عليها.

الفصل الرابع

في غضون تلك الأيام، عاش ابن طاهر في القصر التحول الأكبر في حياته. بعد أيام عدة من وصوله، كان شيء من الدوار مازال يغشي بصره، كما لو أنه تلقى بضع ضربات من الهراوة على رأسه. إلا أنه تآلف بسرعة مع هذا الوضع الجديد. وبعد أن أمضى الخمسة عشر يوماً الأولى، لم يصبح من أفضل التلاميذ وحسب، وإنما أيضاً نصيراً نشيطاً ومتحمساً للعقيدة الإسماعيلية. وتغيرت ملامح وجهه تغيراً كبيراً: إذ فقد الوجنتين المستديرتين الناعمتين؛ وأصبحت تعابير وجهه تنم عن الصرامة والحزم. أجل، ليس مستبعداً أن يبدو أكبر بعشر سنوات من يوم قدومه. وأخذ يتعرف جيداً على رفاقه، ومن هم أعلى منه، ولم يعد نظام المدرسة سراً بالنسبة له.

أما القائد مينوتشهر فلم يدربهم على الروتين العسكري وحسب، وإنما علمهم أيضاً الجغرافية. كان يذهب بهم أحياناً نحو الجنوب في رحلات طويلة على ظهر الخيل، وفي أعقابها كان يطلب منهم أن يستديروا ليتأملوا ملياً، في الأفق، قمة دومافند التي تعلو كل الجبال المحيطة. متخذاً من هذا المشهد نقطة انطلاق شروحاته. إذ جال في الزمن الذي خدم فيه في جيش السلطان، مرات عدة أرجاء السلطنة. وحينذاك كان يرسم على رقّ عريض موقع المرتفعات الرئيسية للبلاد، والمدن جميعها، والأسواق الأكثر أهمية، والطريق التي تسلكها الجيوش والقوافل... نشر تلك الخارطة على الأرض أمام المريدين متخذاً من دومافند مَعْلَماً للتوجه، وشرع يبين لهم موقع مختلف

الأماكن والتقاطعات الاستراتيجية الهامة. مرفقاً شروحاته بذكريات من حياته العسكرية، مما جعل تعليمه شيقاً على نحو خاص، مثيراً لحماس المريدين. وتوجب على كل مريد أن يحدد بالضبط المسافة، واتجاه وموقع مكان مولده. وقد قدّر الفتية تلك الدروس تقديراً جماً.

أما الحكيم فقد شرع يعلمهم علماً جديداً، بدا لهم أنه ذو طابع طريف. فهذا الرجل تردد في السابق كثيراً على بلاط الفرنجة. وعرف كل الحياة التي كانت تدور في قصور بغداد، والقاهرة وحتى بيزنطة. كما زار الكثير من أمراء ومتنفذي البلاد، وعرف شعوباً كثيرة ودرس عاداتها وأعرافها. وقد قدمت له خلاصة الخبرات تلك مادة تعليم متميزة كل التميز. فأخذ يعرض أمام المريدين مختلف أشكال التحية عند اليونانيين، واليهود، والأرمن والعرب، كذلك طبائعهم، وأساليب مأكلهم ومشربهم، ولهوهم وصنائعهم. وعلمهم كيف يمْثلون بشكل لائق بين يدي هذا الأمير أو ذاك، ووصف لهم خفايا المراسم السارية لدى بعض الملوك، وتفصيل نظام التشريفات في البلاط على اختلافه. ولقنهم أخيراً أصول اللغة اليونانية والعبرانية والأرمنية. وكان يقوم بتمثيل أدوار مختلفة مطبقاً بذلك تعاليم مسرحيي العصور الغابرة، فيتنقل من شخصية أمير مشهور، إلى صاحب حاجة منكسر، طوراً فخور ومتعال، وطوراً آخر يهوي وجبهته على الأرض، وأحياناً أخرى ينحني أمام مجلس نبيل وقد عبّرت ابتسامته عن اللطف والمكر معاً. وكان على التلاميذ أن يقلدوه، وأن يمثلوا معه، وأن يحيّوه بجميع اللغات. ولم يتوانَ اليوناني العالِم عن المشاركة راضياً في الضحك الذي كان يتخلل الدرس أكثر من مرة.

إضافة إلى أصول العقيدة والقواعد العربية، كان الداعي ابراهيم يعلمهم القرآن، الجبر وعلوم الحساب الأخرى. ومالبث ابن طاهر أن شعر تجاهه باحترام صادق. وبدا له أن ابراهيم يعرف كل شيء. وهو الذي عمق أثناء شرحه للقرآن الجوانب الفلسفية، إلا أنه لم يتوان أيضاً عن بحث الأديان الأخرى؛ إذ عرض على المريدين أسس المسيحية، واليهودية، ووصف لهم مختلف أوجه الوثنية، متطرقاً حتى إلى خفايا العقيدة التي علمها بوذا في الهند. وقد ركز على دراسة تلك المعتقدات الضالة ليظهر أفضلية تعاليم النبي محمد، والتي تمثل الإسماعيلية

التعبير الأصدق لها. وكان الداعي ابراهيم يلخص كل شروحاته في عبارات واضحة، توجب على المريدين كتابتها وحفظها عن ظهر قلب.

ذات يوم، حضر أبو سراقة إلى درسه متأبطاً لفافة ضخمة من الرق، نشرها بحذر، كما لو أن بها أشياء ثمينة أو أنها مليئة بالأسرار، وسحب منها رزمة أوراق من الرق أيضاً وقد خطت بعناية. ووضعها أمامه على السجادة وأخذ يلمسها بحذر بباطن يده الثقيلة. واستهل كلامه قائلاً:

ـ سأباشر اليوم أول دروسي المخصصة لسيرة سيدنا الذاتية. ستتعلمون من خلالها آلامه، نضاله وتضحياته الكبرى التي كان عليه أن يرضى بها ليحوز نصر القضية الإسماعيلية. هذه الرزمة من الأوراق هي ثمرة كد لايعرف التعب؛ وكل ماترونه مكتوباً فيها إنما هو لأجلكم، وبخط يده، لتتعلموا من نموذج حياته كيف ينبغي التضحية في سبيل قضية عادلة. وعليكم أيضاً أن تدونوا، ثم تتعلموا، كل ماستستمعون إليه. هذه هي ثمرة العناية التي يوليكم إياها!

نهض المريدون وأقبلوا لتفحص الكتابة التي بسطها الداعي أمامهم. مفعمين بإعجاب صامت، أخذوا يتأملون الصفحات المكتوبة بخط جميل والتي كانت تنزلق بحفيف ناعم بين أصابع المعلم. مدّ سليمان يده نحو إحداها، ليدرسها عن قرب. لكن أبو سراقة وضع من فوره يديه عليها، كما لو أنه يريد حماية مربع الرقّ الرقيق من التدنيس.

ـ هل جننت! صاح أبوسراقة. إنها مخطوطة نبي حي!

رجع المريدون على مهل إلى أماكنهم. وبصوت مفخم، شرع الداعي يلقنهم حياة وأفعال قائدهم الأعلى. عرض في البداية لمحة بسيطة عن الأحداث التي تشكل إطاراً لسيرة سيدنا، وذلك لينتقل بسهولة أكبر إلى التفاصيل المدونة على الأوراق المنشورة أمامهم. فعرفوا أن سيدهم قد ولد منذ حوالى ستين سنة في توز(*) وسمي باسم حسن وأن أباه علي ينحدر من نسب عربي شهير يعود لأقوام سبأ الحميريين.

(*) توز: مدينة صغيرة شمال شرق إيران، غير بعيدة عن مشهد.

وفي بواكير شبابه تردد على معلمي ودعاة الإسماعيلية، وأحس على الفور بعمق عدالة عقيدتهم. وكان أبوه أيضاً يدرّس خفية مذهب علي، وبغية ألا يثير الشكوك، أرسل الشاب حسن ليدرس في نيسابور، بإشراف الرفيق السني موفق الدين. وهناك تعرف حسن على ذاك الذي سيصبح الوزير الأكبر والمدعو نظام الملك، وكذلك تعرف على الفلكي والرياضي عمر الخيام(*). كان الاثنان زميليه في الدراسة وسرعان مااقتنعوا بضعف تعاليم السنة وعدم كفاءة متحمسيها، وقرر ثلاثتهم أن يكرسوا حياتهم للقضية الإسماعيلية. وقبل أن ينخرطوا في ميدان الحياة، تعاهدوا على أمر وهو أن الذي ينجح بينهم أولاً في الحياة العامة عليه أن يقدم العون لرفيقيه، وبذلك توحد جهودهم على نحو أفضل لصالح العقيدة الصحيحة. إلا أن الوزير الأكبر خان هذا العهد، واقترف ماهو أسوأ! إذ دعا سيدنا إلى بلاط السلطان لينصب له هناك فخاً شيطانياً. لكن الله كان يحرس مصطفاه: دثّره بجنح الظلام، وذهب به إلى مصر وقاده إلى بلاط الخليفة. وهناك أيضاً مع ذلك وقف حساد ضده. فأحبط مؤامرتهم، وعاد إلى وطنه بعد طول ترحال. ووهبه الله حينئذ قلعة آلموت، ليقاتل بضراوة العقيدة الزائفة وليطيح في نهاية المطاف بمن استولوا على السلطة بغير وجه شرعي، وبالمغتصبين على اختلاف مشاربهم.

ـ حياته ليست إلا نسيجاً من المعجزات، قال أبو سراقة موضحاً؛ وليس بمقدور المرء أن يحصي الأخطار المميتة التي لم ينج منها إلا بفضل الله وحده... وحينما تستمعون للقصص العجيبة التي تشكل حبكة وجوده، والتي تبدو أقرب إلى الحكاية منها إلى الحقيقة، سرعان ماترون في سيدنا النبي العظيم المقتدر.

وانصب جهده في الأيام التالية على أن يقصّ مفصّلاً الأحداث والوقائع ـ والتي بالكاد يرقى بعضها للتصديق ـ والتي ميزت حياة القائد الأعلى. أخذت صورة الزعيم العظيم ترتسم تدريجياً أمام

(*) عمر الخيام الشهير (1050– 1123 م) الذي عُرف في عصره على الخصوص كرجل علم؛ كما وعرف بشعره المتشائم والأبيقوري والمتشكك بالدين، والذي لم يحمل عموماً طابع القداسة لدى الإيرانيي المتدينين.

المريدين، الذين لم تعد تساورهم إلا رغبة واحدة: أن تتسنى لهم يوماً رؤيته بأم أعينهم، وأن يتميزوا أمامه بعمل باهر أو بتضحية عظيمة. فاستحقاق تقديره يعود في نظرهم إلى السمو فوق واقع سائر البشر.

في الغد، لم يعد شيء يثير دهشة ابن طاهر. وهاهو مريد نبيه، يقظ ذو بصيرة. وقد ركز انتباهه بشكل خاص على مايُنتظر منه في الوقت الراهن، وقد أقنع نفسه بيسر حينئذ أن العالم من حوله هو تماماً كما يصوره الدعاة له. لكن وفي المساء، وما أن يستلقي للنوم، مسنداً رأسه إلى يديه وعيناه تحملقان في الشعلة الحمراء الخافتة للمصباح الموضوع هناك، على رف زاوية غرفته، حتى يعي جيداً أنه يعيش عالماً غريباً تكتنفه الأسرار. وكان القلق يعتصره حينئذ، حتى أنه حدث نفسه متسائلاً:

«أنت أيها النائم هنا، أأنت، نفسك عوني الذي كان يرعى مواشي أبيه في سافا؟» لقد بدا له جلياً، أن بين العالم الذي يعيش فيه اليوم وعالمه في الأمس، هوّة أشبه بتلك التي تفصل بين عالمي الأحلام واليقظة. وعندما تكون حالته النفسية كذلك، كان نظمه للشعر يؤوب به إلى الواقع. وليرسخ فيهم جيداً فن العروض، أوصى أبو سراقة مريديه على سبيل التمرين أن ينظموا أشعاراً مقفّاة بالشخصيات وبالوقائع المؤثرة في تاريخ الإسماعيلية. وأن ينظموا كذلك أشعاراً بالنبي محمد، وعلي وإسماعيل، وبمآثر الشهداء. وكانت لدى ابن طاهر أثرة خاصة لعلي، الصهر المحبوب للنبي محمد. فكان ينظم له بضع مقاطع شعرية من الروعة بحيث نالت اعجاب أبو سراقة الذي قرر عرضها أمام سيدنا بالذات؛ وما أن عرف زملاء ابن طاهر بالأمر حتى ذاع صيته كشاعر في آلموت.

دأب ابن طاهر على محاولاته، بعد أن شجعه نجاحه الأول. إذ بدا له أنه عثر على طريقة ليعبر بها جهاراً عن بعض هذا المجهول الذي كان يرعبه كثيراً كل مساء، وليحرر نفسه في الوقت ذاته من مخاوفه. فكان يجهد في صوغ كل مايراه غريباً في أبيات شعرية وليظهره في أوضح صورة. وسرعان ما أصبحت بعض محاولاته تلك جزءاً من

الديوان الشعري في آلموت وحفظها الكثيرون عن ظهر قلب ـ كما ونالت الأشعار التي طاب للفتى أن يكرسها لآلموت ولسيدنا استحساناً خاصاً.

واقترن علم العروض بتمارين فن الخطابة. وتفوق سليمان وابن طاهر فيها على الجميع. كان سليمان يتكلم بحماس أكبر، أما ابن طاهر فبوضوح أجلى. وكان أقلهم حظاً في جميع تلك المواد يوسف. إذ كان يردد غالباً أمام ابن طاهر أنه يفضل التمرن في وطأة الشمس تحت إشراف مينوتشهر الصارم، وحتى جلد نفسه بناء على أمر عبد الملك، والقفز على الصفيحة المحماة حتى البياض، وإن توجب الأمر يؤدي تمارين التنفس العشرة التي كانت بالنسبة للمريدين عذاباً حقيقياً سرعان ما اعتادوا شيئاً فشيئاً عليه... إلا أن أمراً واحداً كان يخشاه كما يخشى العروض، وفن الخطابة، والقواعد والجبر: وهو الصوم الذي يفرضه عبد الملك. إذ تبدو له الحياة حينئذ وكل مايجري في القصر أمراً غير مجدي وعديم المعنى. وتجتاحه في تلك اللحظات الرغبة في النوم والرغبّة في ألا يفتح عينيه على الإطلاق.

وماخلا ذلك، لم تبدُ مشكلة على وجه الخصوص تؤرق يوسف. إنما أشياء طفيفة أدهشته أيضاً. كان أبسطها كفاءة ابن طاهر في إبداع الشعر المكتوب الذي لم يسبق له أن قرأ شيئاً منه أو أملاه أحد عليه. وكان يسميه صراحة بالساحر، لكن حسه السليم همس له سراً أن ابن طاهر لابد وأن لديه منبع خفي ينهل منه فنه. فأمر مفهوم لديه أن يكتب الشعراء القصائد التي يعرفها، فنماذج كتلك ترقى إلى العهود الساحقة حيث كانت الأرض مسكونة بأبطال يمضون وقتهم في مقارعة الشياطين وكائنات أخرى خارقة. لكن أن يكون واحد من رفاقه، ينام في سرير إلى جانب سريره، ويقصره بشبر، شاعراً، فهذا ما تجاوز أفق إدراكه. وهو يستطيع أن يفهم أيضاً إن اقتضى الأمر أن سيدنا، الذي يعيش مثله في القصر، هو نبي كبير: إذ سيدنا غير منظور ولايتفضل بالظهور على أي منهم. لكن ابن طاهر ذاك الذي يتخاصم ويمزح معهم كل يوم!...إلا أن الشكوك مع ذلك لم تحل إطلاقاً دون

إعجاب يوسف بابن طاهر إعجاباً صادقاً وتباهيه بالصداقة التي تجمعهما.

أما سليمان الذي كان يضرب بالسيف ويرمي الرمح كما لم يفعل أحد، والذي كان مجلياً في كل التمارين الخطرة، فقد كان يحسد الآخرين على نجاحاتهم. وإن أشاد أحد أمامه بمزايا يوسف وابن طاهر، فسرعان ماينبري قائلاً في دعابة:

ـ ما الأول إلا أحمق، والثاني إلا مغرور...

شكل ثلاثتهم ثلاثياً متلازماً، وإذا ماهاجم الآخرون عرضاً شريكي سليمان، فإنه لفوره يدافع عنهما ويحتد قائلاً:

ـ عندما ترمون الرماح مثلهما بعيداً، وتكابدون مكابدة يوسف، ربما حينئذ يمكنكم الكلام، وليس قبل ذلك.

وفيما يخص ابن طاهر كان يقول:

ـ لو أن في دماغكم ذرة واحدة من فهمه، لما رضيتم لرأسكم أن يمتلىء بالغرور، ولتركتموه ينفلق من العجرفة.

لم يجرؤ أحد من المريدين على لوم طبعه الساخر. وحتى ابن طاهر ويوسف نفسيهما، ودون خشية منه، أقرّا أنهما لايحبانه حقاً. والواقع أن جميع من في المدرسة، بما فيهم المدربين، لم يحبوه.

كان يُحظر عليهم قطعياً، أكثر من أي شيء آخر، التحدث عن النساء والجنس عموماً. ولذلك انبهرت أنفاسهم عندما تطرق ابراهيم أثناء أحد دروسه إلى هذا الموضوع الشائك. والواقع أنه شرع يتكلم عن نساء النبي محمد. وفجأة، وبعد أن انجلى صوته قليلاً، رفع بصره برهة ثم حدق بالمريدين دون أن ترمش عيناه. وأخذ يتحدث بنبرة منخفضة قائلاً:

ـ إن النبي محمد لم يحرم على المؤمنين الزواج، ولا التمتع ببهجة الحياة المشتركة مع الجنس الآخر. وهو نفسه كان زوجاً قدوة وأباً كاملاً. وعرض على المؤمنين به مثلاً أعلى من القداسة الجلية: الشهادة في سبيل الإيمان المقدس. أما الجزاء الأوفى لهذه التضحية، فهو

النعيم الخالد في جنان الفردوس. واستطاع الرعيل الأول من المؤمنين مقتدين بقدوته الحسنة أن يوفقوا بين شكلين من الحياة: حياة راغدة بصحبة نسائهم، والتفاني الشجاع في خدمة عقيدتهم. لكنكم تعلمون أنه عند موت النبي محمد، قام شقاق بين المؤمنين ولم يعد للرجال همّ منذئذ إلا التمرغ في أجنحة الحريم والتنازع للاستيلاء على الحكم والخيرات الدنيوية. وأصبحت وصية النبي محمد طي النسيان منذ ذلك الحين، والتي تنص على أن القضية العظيمة لابد لها من تضحيات جسام: الرضى بالجهاد ومخاطره، بل وحتى مكابدة العذاب حتى الموت... واليوم أقام سيدنا حداً فاصلاً جلياً بين ذاك السلوك الفاسد والسلوك الذي يوصي به. إذ تواجهنا في المعسكر الآخر بغداد والطغاة السلاجقة، ومؤيدوهم الفاسقون. وفي طرفنا نحن وأنتم... أنتم الذين ستكرسون فدائيين، أنتم الفرقة المختارة التي تحمل هدفاً سامياً هو التضحية والشهادة في سبيل القضية المقدسة. لذا عليكم أن تكونوا مختلفين عن سائر الناس. ولهذا سنّ سيدنا لأجلكم هذا التحريم: لاينبغي أن تتزوجوا ولاأن تمارسوا أي شكل من الفجور. وبما أنكم تسكنون اليوم جنان النعيم، يحظر عليكم الكلام في الأمور الرجسة. ولايسمح لكم أيضاً التفكير فيها، ولا أن تقوموا خفية بحركات ملعونة. فلا شيء يخفى على الله! الذي اختار سيدنا وجعله مرشداً لكم! ومن يخرق حظر سيدنا في هذا المجال سيلقى القصاص الأشد. ومن يُضبط وهو يتكلم كلاماً غير لائق سيجرد من رتبته فوراً. وقد سبق لأحد المريدين أن تعرض لهذا العذاب. والموت المريع سيكون في انتظار أي واحد منكم، بعد تكريسه، إن ضبط مع امرأة أو حتى إن سوّل لها بالزواج. وحينئذ سيبدأ الجلاد بقلع عينيه بحديد محمى حتى الإحمرار؛ وأكثر الآلام فظاعة ستكون حينما يقطع إرباً وهو حي. ذاك هو العذاب الذي أعده قائدنا الأعلى لأولئك الذين يجازفون وينتهكون تحريمه.

لم يعد بمقدور المريدين، وقد سمّرهم الرعب، أن ينظروا في أعين بعضهم البعض. كان بعضهم يتخيل صورة حية لصنوف العذاب المخيفة: فيهرش رأسه قلقاً؛ واندفعت آهات محصورة من الصدور.

لما أبصر الداعي ابراهيم وقع حديثه، ابتسمت شفتاه الجامدتان ابتسامة خفية. وتابع حديثه بنبرة أكثر اعتدالاً:

ـ لاتخافوا؛ فهذا الحظر من سيدنا ليس قاسياً إلا ظاهرياً. إذ من منكم يمكن أن تراوده فقط فكرة استبدال الثواب الموعود بشهوة مريبة ينالها منتهكاً حظر سيدنا! فكل الذين سيثابرون على القيام بما أمروا به، ستكون الخيرات الخالدة من نصيبهم! ياشهداء القضية المقدسة، إن منازلكم ستكون في جنات تترقرق فيها أنهار صافية كالبلور؛ وسترتاحون في مقصورات من زجاج؛ مستلقين على أرائك؛ وستتنزهون عبر أيكات تخلب الألباب، في ظلال وافرة؛ وستطأ أقدامكم مساكب زرعت فيها أزهار نادرة ذات عطر مسكر. أما الحور العين، فسيقدمن لكم الطعام والخمر الصافي. وهن رهن إشارتكم! وقد حبى الله أولئك الشابات طبيعة خاصة: إذ هن على الدوام شابات وعذراوات، مع أنهن طائعات جسداً وروحاً لجميع رغباتكم... لاتنسوا: ما أن تُكرسوا، حتى تستحقوا نيل تلك الخيرات! لقد عهد الله إلى سيدنا بمفتاح الجنان التي أعدت لكم. والذي ينفذ بدقة أوامر الله، سيفتح له سيدنا باب الفردوس! فأي وهم يمكن أن يحول بينكم وبين الطريق المؤدية إلى مثل ذلك الجزاء!

في المساء، والجميع على السطح مجتمعين، إذا بابن طاهر يطلق الحوار قائلاً:

ـ لقد أوصانا مدربونا أن نستفيد كل مساء من أوقات فراغنا لنتناقش حول ماتعلمناه خلال النهار. وقد رأى اليوم الداعي ابراهيم أن يوضح لم سيدنا حرم علينا اقتراف الرجس في الفعل والقول وحتى في الفكر. إذن ليس انتهاكاً لهذا الحظر أن نتناول بالحديث ماتعلمناه نهاراً كما دأبنا على ذلك... أفليست هذه الطريقة المثلى لنقوّم سلوكنا حتى نتجنب الوساوس المبتذلة ومواقع الزلل.

روع هذا الكلام بعضهم.

ـ أنا لاأتفق معك في هذا، قال نعيم محتجاً لقد منعنا الداعي

ابراهيم منعاً قاطعاً أن نتعرض لتلك المواضيع الفاسقة. وسمعت بأذنيك العذاب الرهيب الذي ينتظر الآثمين...

ـ نعيم، لاتجعل من الحبة قبة، قال جعفر ساخراً. لنا الحق رغم كل شيء في أن نتحدث حول ما كلمنا فيه معلمونا منذ قليل. من سيفكر في معاقبتنا إذا ماحرصنا على معالجة الأمر بحكمة وذكاء؟

ـ ليكن، لكن ليس فيما يتعلق بالنساء، ولا بالحماقات الأخرى، قال نعيم بإصرار.

ـ إذن لنتخلص منك من فوق المتراس! قال يوسف غاضباً.

فتراجع نعيم إلى الوراء مذعوراً.

ـ ابق مكانك! حذره سليمان. لا تقل فيما بعد أنك لم تكن هنا. وإذا تابعت مضايقتنا... فلنقل أن أذنيك ستطنّان بشكل مزعج عندما ستأوي هذه الليلة إلى غرفتك!...

بادر ابن طاهر قائلاً:

ـ سأتكلم بصراحة، وسأتناول الموضوع مباشرة. ينبغي علينا أن نعرف رغم كل شيء وبشكل نهائي على ماذا نحرص. هل أنا مصيب إن اعتقدت أن أياً منا، وابتداء من هذا اليوم، لن يزوره الخاطر الذي يمكن أن ينسى فيه نفسه مع امرأة؟... يمكن أن نظن في الواقع أننا سنتجنب من اليوم فصاعداً وبحرص كل محادثة حول الموضوع، وسيكون من السهل الآن أن نضبط أفعالنا وأقوالنا. لكن كيف نقمع أفكارنا، تلك الأفكار التي تنقض علينا في أسوأ اللحظات، وحتى في أحلامنا؟ من المؤكد أن إبليس ليس له سلطة على إرادتنا، لكن سلطته على خيالنا وأحلامنا. من جهتي، فأنا طردت أكثر من مرة أفكاراً غير لائقة. وبدا لي في كل صراع ناشب، أني انتصرت نهائياً، لكن الوسواس الخناس يتفنن في الإيحاء لنا بأحلام داعرة تستعبد الخيال طيلة النهار. وهكذا نجد أنفسنا نهوي مرة أخرى عاجزين على النحو ذاته. إن التحريم صارم ولايعترف بضعف الطبيعة الإنسانية. فما العمل ياأصدقائي؟

ـ ماالجدوى من الإفراط في التفكير! قال سليمان منزعجاً. إن

الأحلام تظل أحلاماً ومن يمكن أن يدان بمسؤوليته عنها؟ وكل الأفكار التي تأتي عفوياً لاينبغي أن تكون أيضاً مصدر خطيئة كبرى!

ـ هذا هو الكلام السليم! كان على شفتي! هتف يوسف.

ـ لا، لم يقل لنا أحد أنه سليم، قال ابن طاهر مصّراً. إن التحريم قطعي وواضح؛ وينبغي إيجاد طريقة ما للتغلب على ضعفنا.

ـ إنه على حق، ارتأى جعفر. إن كان التحريم على هذا النحو، فإمكانية مراعاته ينبغي أيضاً أن توفر لنا. وما على كل منا إلا أن يقاوم بكل قواه اغواءات الوسواس الخناس؛ تُرى هل علينا بذل المزيد من المقاومة لنحرر أفكارنا وحتى أحلامنا من هيمنته؟...

ـ لقد حاولت كثيراً، قال ابن طاهر معترفاً. لكن الضعف الإنساني كبير...

ـ ليس من الحكمة أن تدعو للقتال خصماً يفوقك قوة، قال يوسف بوقار مصطنع.

ابتسم عبيدة حينئذ برقة وقال:

ـ ياأصدقائي الأعزاء، ماجدوى كل هذا الكلام والمشاحنات، حول أمر في غاية البساطة! أتحسبون أن سيدنا يمكن أن يأمرنا بأمر يفوق طاقتنا؟ من جهتي، لاأعتقد ذلك. والآن، انصتوا! ألم يعدنا سيدنا بالمثوبة لقاء صلابتنا وتضحياتنا؟ والتي تشمل النعيم الذي ينتظرنا في جنان الحياة الآخرة! أود أن أسألكم: أليس المؤمن الصالح له حق التمتع بمثوبة مستقبلية؟ ستقولون لي جميعاً: بالتأكيد! إذاً نحن أيضاً، نستطيع بملء الحق أن نتذوق مقدماً المسرات التي وعدنا بها سيدنا نصيباً لنا بعد الممات. بإمكاننا إذن أن نتمتع في فكرنا بالجنان الرائعة وبرقرقة الينابيع، وأن نتخيل أصناف الطعام والخمور الممتازة المعدّة لأجلنا، وأخيراً أن ننعم ـ في خيالنا ـ بعناق تلك الحورالعين المهيآت لخدمتنا إلى أبد الآبدين. أين الدنس في كل هذا؟ إن جاءنا الوسواس الخناس في المستقبل مرهقاً إيانا بإغواءاته، فسنفلت منه بالحيلة... متخيلين جنات النعيم الساحرة حيث نستطيع أن نضاجع على راحتنا دون أن يُفسد الندم متعتنا! فلنرضي الله الذي أعد

لنا تلك الجنان الرائعة، ولنرضي سيدنا الذي له سلطة أن يفتح لنا الباب بحسب جدارتنا ولنرضي أنفسنا إذ نستطيع بذلك أن نطلق العنان لخيالنا دون إثم...

استحسن المريدون قوله بفرح صاخب. وصاح يوسف:

ـ إنك رائع، ياعبيدة! كيف حدث أني لم أفكر في هذا من قبل؟

ـ لقد قدم لنا عبيدة حجة بالغة اللطف، قال ابن طاهر مبدياً رأيه. وشكلها ليس عليه اعتراض. لكني أشك أن الرغبة الدنسة يمكن أن تصبح طاهرة بهذه السهولة، وإن وضع لها المرء إطاراً هو جنان الفردوس...

ـ إن حجتك لاتقنعني، قال عبيدة مهتاجاً... سيما وأنك لم تكتشف هذا بنفسك.

ـ لا، ابن طاهر على حق، أصرّ جعفر. والخطيئة تظل خطيئة، أينما اقترفناها، ولايجوز أن نراوغ بالمكر حول تحريم أمر به سيدنا بهذا الجلاء.

ـ تريد أن تضيعنا بتشددك في هذا، تمتم يوسف حانقاً. أنا شخصياً مقتنع بصواب رأي عبيدة؛ فمامن أحد يستطيع أن يمنعنا من التنعم مسبقاً بالمثوبة التي نريد أن نستحقها بشرف.

ـ ليعمل كل مابوسعه، ختم جعفر النقاش وهو يرفع كتفيه استهزاءً.

عندما أضيئت المشاعل آن هبوط الليل أمام جناح القائد الأعلى وسط هدوء يلفه عن بعد هدير شاه رود، وانطلق بوق المساء داعياً إلى الصلاة والنوم، استحوذ على المريدين حزن أليم. إذ خلفوا وراءهم نهاراً أمضوه في المدرسة القاسية، والامتحانات المضنية، وفي ترويض النفس، وأطلقوا العنان لأفكارهم. بعضهم لاذ بالوحدة واستسلم لحنين البلد، والبعض الآخر استحضر في ذهنه الأعمال الكثيرة التي تجري في الحياة خارجاً، والمختلفة كل الاختلاف عن حياتهم تلك.

ـ لو كنت عصفوراً. قال سليمان ذات مساء، مفكراً بصوت عال، لحلقت عالياً لأرى ماتفعله أختاي. لقد ماتت أمي، ولدى أبي اليوم امرأتين أنجبتا له أيضاً أولاداً... وشقيقتاي تقومان برعايتهم، ومامن شك أنهما لاتعيشان حياة سهلة. والمرأتان في المنزل لاتحلمان بالتأكيد إلا بالتخلص منهما. لدي كل الأسباب التي تدعوني لأن أخشى أن تنجحا في إقناع أبي ببيعهما لأول طالب زواج...آه! ياللشقاء والتعاسة في ذلك كله!...

كانت قبضتاه على جبهته وبهما أخفى وجهه.

ـ إن قدر أمي العجوز ليس حاله أفضل كثيراً، إن كان ذلك يخفف عنك قليلاً، قال يوسف وهو يجعل يده الثقيلة أمام عينيه في حركة منهكة. إنها تكدّ مع دوابها، ومما يسعد جيرانها بالتأكيد أن يستغلوا وحدتها في اختلاس مالها. لم إذن تركتها؟...

ـ نعم، لم؟ قال ابن طاهر يريد معرفة السبب.

ـ لقد كانت تلك رغبتها. كانت كثيراً ماتقول لي: «إنك فارسيّ أصيل، يابني، وأنت قوي. والنبي محمد نفسه سيكون مسروراً عندما يراك بقربه! لوكان أبوك حياً ـ وهو الذي كان يبجل الإمام علي أكثر من جميع الناس ـ لكان أرسلك، إني على يقين، إلى أحد أولئك الدعاة الذين هم في خدمة الخليفة الحقيقي: وهناك ستتعلم العقيدة الصحيحة!» حدث هذا آن كان الداعي الكبير حسين القيني يجند في منطقتنا لصالح سيدنا، فذهبت إلى عنده وأرسلني إلى آلموت. هذا ماحصل...

ـ وأنت يانعيم، كيف وصلت إلى هذا المكان المغلق؟ قال ابن طاهر مستعلماً بدوره.

ـ قريتي ليست بعيدة عن هنا ـ أجاب الصبي ـ لقد سمعت أن داعياً كبيراً يحشد لأجل آلموت جيشاً ضد السلطان الفاسق. ونحن جميعنا في المنزل من المؤمنين. فرأى أبي أن من الطبيعي ذهابي لخدمة سيدنا...

ـ وصديقنا سليمان...

ـ قصتي كذلك ليس فيها ماهو جديد. كان يقال إن الحرب

ستنشب، وإن الداعي الكبير الذي كانت تروى عنه المعجزات، قد استولى على آلموت باسم خليفة مصر وإنه يتهيأ لمحاربة السلطان. فقلت في نفسي: «سيقع أمرٌ هامٌ في الأنحاء». وفي هذا الوقت بالضبط أُعلن عن زيارة الداعي عبد الملك؛ فالتحقت به.

ـ أما أنا فقصتي أكثر بساطة، قال عبيدة متابعاً الحديث. عائلتنا توقر منذ عهد بعيد اسم علي، وتضم تسعة أخوة وعلى واحد منا أن يغادر المنزل، فرجوت أبي أن يدعني أرحل وأن يهبني بركته.

ـ وأنت ياجعفر؟

ـ من خلال دراستي المتأنية للقرآن والسنة وتاريخ الإسلام، جاءتني أولاً بعض الشكوك: إذ من الواضح أن علي قد أقصي ظلماً عن خلافة النبي محمد؛ فإن كان الوضع كذلك، فمن الجلي أن خليفة بغداد قد ارتقى إلى العرش بشكل غير شرعي... وسنحت لي الفرصة لأتحدث عن ذلك كله مع أحد الدعاة المخلصين للمبادئ الإسماعيلية، وليكن بعلمكم أنه ليس إلا كبيرنا أبو سراقة...! فأجريت معه محادثات كثيرة عميقة. وشعرت بقوة اقتناعي بأسلوب تفكيره. فرجوت أبي حينئذ أن يدعني أمضي مع الداعي. ولما علم أبي أن وجهة أبو سراقة ستكون آلموت ليلحق بسيدنا، لم يبد أي اعتراض. وقد شاع في ناحيتنا أن القائد الأعلى هو القداسة متجسدة...

ساعدهم ذلك الحديث في التغلب على حنينهم لمواطنهم وعلى شعور الوحدة والعزلة التي كانت جميعها تخنقهم أحياناً. وفي الغداة، عندما أيقظهم البوق من نومهم، طوى النسيان هروبهم في الأمس من المسؤولية، وذكّرهم الماء البارد الذي توضؤوا به أن أمامهم نهاراً طويلاً من الامتحانات والدرس. هاهم كلهم من جديد في آلموت، ولاهم يشغلهم سوى تلبية أوامر معلميهم وإظهار قدرتهم على الاضطلاع بمسؤوليتهم. وبجد رصين شرعوا في العمل: ولاشيء نصب أعينهم إلا خدمة القضية الإسماعيلية.

ذات صباح وقد عادوا من التدريب العسكري مع مينوتشهر، قال لهم أبو سراقة:

ـ أنتم في عطلة فيما تبقى من النهار. إذ سيأتي دعاة القلاع المجاورة لأخذ مشورة القائد الأعلى من أجل الحملة القادمة. ولن ننسى التحدث بشأنكم في هذه المناسبة: فنجاحاتكم وإخفاقاتكم تهم القضية أيضاً. وفي هذه الأثناء احرصوا أن تبقوا هادئين وأن تستغلوا وقتكم في الدرس.

غمرت السعادة المريدين. فركضوا إلى المهجع ليأخذوا ألواحهم ومدوناتهم. ثم جلس بعضهم أسفل الأسوار، والبعض الآخر الأكثر فضولاً، جلس في الفناء في ظل الأجنحة، وأعينهم تحدق يقظة في قصر القائد الأعلى، الذي شددت الحراسة أمام مدخله. بينما اصطف الحرس الزنوج، والمقامع في أيديهم(*) متأهبين، ثابتين دون حراك كالتماثيل. ومن حين لآخر كان واحد من الدعاة بردائه الأبيض المهيب يجتاز المدخل. فيتبادل المريدون حينئذ وشوشات خاطفة، وهم يشيرون إلى الدعاة الذين يعرفونهم ويحاولون التكهن بهوية الآخرين.

وعلى حين غرة، حدثت بلبلة فوق السطح الأسفل، أمام برج الحراسة. إذ عبرت فرقة فرسان الباب ودخلت القصر. فخفّ جنود أمامها، وأمسكوا الخيل من شكائمها، وذلك ليساعدوا الزائرين في الترجل. وقفز رجل قصير عادي المظهر، يرتدي صداراً طويلاً، من على ظهر حصان أبيض صغير وبِر، وارتقى الدرج بخطى رشيقة، وقد أحاط به رجال حرسه، مظهرين له أسمى آيات الاحترام.

ـ أبو علي! الداعي الكبير! إني أعرفه! صاح سليمان وقد هب واقفاً كأن زنبركاً حرّكه.

ـ لنتوار، قال يوسف مقترحاً.

ـ انتظر! قال ابن طاهر. أود أن أراه عن قرب أكثر.

اقتربت الفرقة. واستدار الجنود الموجودون هنالك نحو القادم الجديد وانحنوا له احتراماً.

ـ كل أولئك الرجال في مرتبة الدعاة!... همس سليمان بصوت مفعم بالحماس. وأبو علي يتقدمهم شخصياً...

(*) مقمعة: دبوس صغير تعلوه كتلة معدنية.

ـ انظر! الداعيان ابراهيم وعبد الملك هما في عداد الحرس، صاح يوسف.

اجتاز أبو علي بوقار السطح متدثراً بصداره الواسع، وبدا جسده كله يتمايل ببطء يشي بنبل يفصح عن نفسه: فالابتسامة الودودة التي تعطف بها نحو رجال الفرقة رداً على تحيتهم، كانت بالطبع منّة منه ليكافئ أتباعه الذين كرسوا أنفسهم لشخصه. كان ذو وجه خطته التجاعيد، ولحية خفيفة ضاربة للرمادي، وشاربان متهدلان من نفس اللون نفسه يحيطان بفم أثرم. وحال مروره أمام المريدين، أحنى أولئك رؤوسهم تواضعاً. كانت عيناه الصغيرتان تلمعان ببريق فرح: أخرج يده من تحت صداره ولوّح بها بلطف بما يشبه التحية. من يراه عن قرب يدهش بمدى شبهه لامرأة عجوز.

انتظر المريدون أن يتجاوزهم الموكب كله ليرفعوا رؤوسهم.

ـ أرأيتم؟ نحن الوحيدين الذي تكرم ولوح لنا بيده، صاح سليمان بصوت يرتعش من فرح لم يستطع له كتماناً. وأبو علي يلي سيدنا مباشرة!...

ـ خسارة أنه يفتقر إلى مهابة أكثر بعض الشيء، قال يوسف متأسفاً.

ـ ألأن ذكاء الرجل في رأيك يعتمد بالضرورة على ارتفاع قامته؟ لمحّ نعيم بمكر.

ـ من يراك، لايستطيع منع نفسه عن الاعتقاد بذلك.

ـ أعجبتني بساطته. قال ابن طاهر. لقد ابتسم لنا كما لو أنه يعرفنا جميعاً منذ أمد بعيد.

ـ إنها لن تحط من وقاره في شيء، قال نعيم.

ـ وهو رجل علم وفضل، قال سليمان موافقاً. لكني أرى أن هيئة الجندي لاتلائمه.

فأجاب نعيم منزعجاً:

ـ ألأنه لم ينقض علينا مستلاً سيفه؟ إن أغلب الدعاة الذين أتيح لي

لقاءهم كانوا هزيلي البنية. ومع ذلك فالقادة وغلاظ الذهن الجسام الذين يحملون السلاح إلى جانبهم حسبهم الطاعة.

ـ أتمنى لو أراك في شجار دائم مع عبد الملك، قال سليمان متهكماً. فسترى حينئذ إن كان الدعاة هم حقاً ضعيفو البنية.

ـ كيف شكل سيدنا؟ سأل ابن طاهر.

تبادل الجميع النظرات ثم رد نعيم قائلاً:

ـ أما هذا الأمر فلم يحدثنا حتى اليوم أحد عنه.

كانت قاعة الاجتماعات الفسيحة تشغل تقريباً كل الجناح الأرضي من القصر، وفيها اجتمع المعلمون والدعاة وآخرون من أصحاب الرتب العالية في المذهب الإسماعيلي طيلة الصباح تقريباً. وقد قدموا من رودبار وقزوين وداماغان وشاهدور(*) وحتى من منطقة قزوين(**) البعيدة حيث انتشرت الحركة الإسماعيلية، بتأثير الداعي الكبير حسين القيني. وفي انتظار تعليمات القائد الأعلى، انهمك القادمون الجدد مع مضيفيهم في الحديث وتبادل الأخبار.

كانت النوافذ مغطاة بستائر ثقيلة؛ ولم تضئ القاعة سوى مصابيح علقت على بعض الثريات. وكانت آنية تشتعل بالراتنج(***) في الزوايا، وفوق قواعد الأعمدة وهي تنشّ ناشرة حولها عطراً مسكراً لطيفاً.

وتحلقت جماعة صغيرة حول اليوناني تيودورس وهي تتحادث تحت أحد تلك المصابيح. وكان هنالك القائد ابن إسماعيل، آمر حامية رودبار، والداعي الزاهاروي، وهو رجل أكرش مرح، والشاب المصري عبيد الله الذي تعرف على الطبيب اليوناني لدى إقامة الأخير في القاهرة. كان مزاج الجميع يميل حينئذ للمزاح، ودوت الضحكات في سرور كبير.

ـ هكذا إذن، جئت أنت أيضاً لتلحق بابن الصباح في قصره، ياحكيمي الطيب؟ سأل المصري مندهشاً. لقد انتشرت إشاعات لاتصدق

(*) رودبار، وشاهدور: قلعتان في الجبل في شمال قزوين.
(**) قزوين: مقاطعة في الغرب، قريبة من مصب نهري دجلة والفرات.
(***) الراتنج: مادة صمغية لزجة تفرزها بعض النباتات ولاسيما الصنوبر.

في كل الأنحاء، حول الاستيلاء على آلموت... وزُعم أن ابن الصباح قد أكره بالحيلة الآمر السابق للقلعة ليخلي له المكان. وتهامس الناس أيضاً حول لجوئه إلى الخداع. وأنا نفسي إلى اليوم مازلت أجهل ماحدث بالضبط.

أخذ اليوناني يقهقه مسروراً، لكنه لم يقل شيئاً. أما القائد ابن إسماعيل، فقد رفع صوته، وأشار إلى الآخرين بالاقتراب وقال:

ـ أظن من المناسب أن أشرح لهذا الشاب كيف تمكن ابن الصباح من إسقاط القلعة بين أيدينا. لم أكن هناك بالتأكيد، لكن واحداً من ضباط الصف الذين هم بإمرتي والذي قدم العون العسكري في ذلك اليوم لقائدنا روى لي ماحدث.

أصغى السمع عبيد الله والزاهاروي البدين، أما تيودورس فقد مط شفتيه ريبة واستهزاء، ونأى بجنبه عن الآخرين.

ـ كما تعلمون، أخذ ابن إسماعيل يقص، فإن ممثل السلطان في قصر آلموت، كان(مهدي): القائد الشجاع. أنا لم ألتق به أبداً، لكني أبيح لنفسي القول أنه لم يكن يتمتع بعبقرية خارقة. وكان ابن الصباح قد أفلت لتوّه من مكيدة الوزير الأكبر ونجح أخيراً في الوصول إلى الري، حيث كان آمرها متسوفر واحداً من أعز أصدقائه. فساعده هذا الأخير على أن يكوّن جماعة صغيرة تضم عشرة رجال، ومنهم ضابط الصف الذي حكى لي هذه القصة. فكيف لايخطر على بال سيدنا الاستيلاء على آلموت!...وهي المكان الأكثر تحصيناً في المنطقة بأسرها... لقد تداول الأمر مع ميتسوفر وتخيل الحيلة التالية...

ولم يلاحظ المصري والداعي البدين، المصغيان بانتباه شديد ضحك الطبيب الهازئ المتشكك. فما كان من القائد الذي اضطربت ثقته إلا أن امتعض ساخطاً وقال:

ـ لم لاتقص الأمر بدلاً عني، أنت الذي يبدو عليك أنك تعرف جيداً ماحدث؟

إلا أن اليوناني برّأ نفسه ساخراً وقال:

ـ ترى جيداً أني أصغي إليك شغفاً.

ـ دعه إذن يحرد في زاويته، قال المصري وقد عيل صبره، نحن نعرفه. يريد دوماً أن يبدو أكثر معرفة من الآخرين.

ـ وهكذا تخيل قائدنا حيلة، تابع ابن إسماعيل مقاله. وقرر الذهاب ليزور مهدي بنفسه، في قصر آلموت. «أنا داعي، قال له، وسافرت كثيراً عبر العالم الواسع. واليوم ها أنا وقد أنهكني السفر؛ جئت أبحث هنا عن زاوية صغيرة هادئة. وحسبي أن تبيعني من الأرض ماحدوده حدود جلد ثور: ولأجل أرض بتلك المساحة المتواضعة سأنقدك خمسة آلاف قطعة ذهبية.» فكاد مهدي أن يختنق من شدة الضحك: «إن وضعت حقاً هذا الثمن، فسأتخلى لك في الحال عن الأرض التي تختارها!» وبدا له استحالة امتلاك داع بائس مثل تلك الثروة. أدخل ابن الصباح يده إلى صداره، وسحب منه صرّة ثقيلة من القطع الذهبية وشرع في عدها. لم يصدق مهدي ماتراه عيناه. ومالبث أن فكر في ما يمكن أن يحدث لاحقاً: «لن يصيب القلعة خسارة كبيرة إن بعث هذا الداعي العجوز قطعة أرض صغيرة في أسفل الأسوار... أما أنا، فسأصبح ثرياً!» وعلى ذلك أبرمت الصفقة: حُمل جلد الثور، وأُنزل الجسر المتحرك فوق شاه رود، ونزل شريكانا إلى وسط الصخور حتى أسفل جدران القلعة. وحينئذ أخرج ابن الصباح من حزامه نصلاً حاداً وأخذ يقطع جلد الحيوان إلى شرائط ناعمة. وأخذت الدهشة الضباط والجنود الذين كانوا يشاهدون هذا المشهد وهم يرون هذا الأجنبي الغريب الأطوار يتصرف على هذا النحو، لكن وحتى ذلك الحين لم يساور الشك أحداً في نوايا الداعي. وما أن تم تقطيع الجلد، حتى عقد ابن الصباح الخيوط الطويلة مع أطراف بعضها البعض، ثم ثبت وتداً في الأرض وربط به إحدى نهايات هذا الحبل المرتجل. وشرع وهو يمسك بيده الطرف الآخر بالتجول حول القلعة. وأخيراً فطن مهدي إلى الأمر فزعق شاهراً سيفه: «سارق! غشاش!». وفي تلك اللحظة ترامى إلىالسمع جلبة كوكبة فرسان قادمة من فوقهم. رفعوا أنوفهم: وإذا بفرقة خيالة بسيوفها المشرعة تندفع فوق الجسر وتغور داخل القلعة. ابتسم ابن الصباح وقال: «فات الأوان، أصبح القصر ملكي؛ واعلموا أيضاً أنكم إذا لمستم شعرة واحدة من رأسي، فلن يفلت

أحد منكم. لكني يا مهدي سأحترم العقود! خذ الخمسة آلاف قطعة ذهبية واذهب مع رجالك إلى حيث يحلو لك.»

انطلق الحكيم في نوبة ضحك مجلجلة، حتى دمعت عيناه وقد أسند يديه إلى بطنه الصغير الممتلئ. أجل ظل يضحك حتى كاد أن يصيبه سوء. ومالبث المصري والداعي البدين أن قلداه، إنما بين جدّ وهزل. إذ حيّرهما موقف اليوناني الساخر. ونظر القائد ابن إسماعيل إلى الطبيب نظرة ازدراء وعلى وجهه ملامح الغضب.

ـ يا للسذاجة البريئة، قهقه اليوناني. أنت أيضاً صدقت هذه الحكاية البديعة! اعلم أن الممتع في الأمر الذي عزمنا عليه أنا والحسن أنه لم يقصد به إلا السلطان...

ـ إذن كل مارواه لي ضابط الصف ماهو إلا ترهّات! قال القائد الفائر محتدماً، وقد احتقنت عيناه واختلجت عروق الغضب في صدغه. آه! سأجلده مثل كلب!.. سأخنقه!...

ـ سيكون ذلك ظلماً توقعه به، ياابن إسماعيل، قال اليوناني. إذ لم يقل لك إلا الحقيقة ناصعة، هذا من وجهة نظره على الأقل. لكن إن فكرنا بالمرتبة التي تشغلها، فأنت لايمكنك الاستمرار في هذه النظرة للموضوع...! أحقاً أنك لم تتكهن بما جرى؟

ـ كف عن التعاظم! والأجدر أن تتكلم! دمدم القائد غاضباً.

ـ ينبغي أن تعلم أولاً أن مهدي ذاك الذي كان يسيطر على المكان هو من سلالة علي. ولكي يستميله السلطان إلى جانب قضيته، جعله حاكماً ولما يبلغ الثلاثين من عمره، ولكي يبعد الخطر الذي يمكن أن يجلبه إليه، أرسله إلى آخر العالم، أي إلى هنا، إلى آلموت. ومالبث هذا الشاب صاحب الملذات أن أصابه سأم قاتل، فأخذ يشرب، ويلعب بالنرد ويتخاصم مع مرؤوسيه ومن هم أدنى منه من الصباح إلى المساء. ولأجل الليل كان قد اتخذ لنفسه جناحاً ضخماً من الحريم والراقصات والمغنيات والمهرجين؛ باختصار، فإن الرجال الصالحين في مدينة الرأي لم يكونوا ليجرؤوا على التطرق لما يجري هنا إلا بأصوات هامسة. ورجلنا، إضافة إلى ذلك، اهتم بتربية الصقور والفهود المروضة ومعها كان ينطلق للصيد في الجبال والغابات المحيطة. وكان يلعن بالحماس بنفسه الخليفة والسلطان معاً، ويقسم على

الإنتقام منهما بحد السيف. وترامت أخبار عن تصرفاته إلى سمع ملك شاه. لكن العاهل نظر إلى الأمر بحكمة وقال في نفسه: «عبثاً يرميني بلعناته: إذ عندما يهاجم البرابرة التخوم، فلن يكون أمامه خيار آخر إلا المضي لملاقاتهم مادام حريصاً على حياته.»

وحسب ما يُعتقد، لم يفت ميتسوفر أن يقص تلك القصة على مسمع ابن الصباح حينما التجأ الأخير إلى الري. وأنا أيضاً كنت هناك، وبواسطة ميتسوفر، رتبنا للقاء مع مهدي إياه مدعين القيام بنزهة صيد. وكان الحسن قد تلقى من خليفة القاهرة مبلغاً كبيراً من القطع الذهبية؛ فقدم لمهدي خمسة آلاف منها لقاء القصر. وذلك ليؤمن له السفر إلى القاهرة حيث لم ينس ابن الصباح أن يوصي به أصدقاءه بتوصية خاصة، وحيث سيجد الشاب الماجن تحت تصرفه كل ملاهي المدينة الكبيرة. وأصبح مهدي على أهبة الاستعداد، ولم يتبق إلا إيجاد طريقة تبرئه أمام جنوده، مخافة أن ينتقم السلطان من عائلته فيما بعد. كان في جعبة ابن الصباح الكثير من الحيل، لكنه أراد أن يُري السلطان واحدة منها. وتشبث بالمنطق التالي: «أريد أن استولي على القصر بطريقة ملفتة للنظر وغريبة في آن واحد، ويتكلم عنها الناس في ما بعد في أرجاء إيران كلها». أما السلطان فقد ضحك من تصرفه وقال في نفسه: «مازال ابن الصباح عجوزاً محتالاً. وكيفما نظرنا إليه فسيُظهر دوماً جانبه الساخر. فلندعه يستمتع مرة واحدة.» وغربلنا متفحصين مايقارب العشرة خيارات. وعدت بذاكرتي حينئذ إلى الإسطورة القديمة للملكة (أليسار) التي استولت على قرطاجة، وأطلعت الحسن عليها. فتشبث من فوره بالفكرة. ومازال صوته يزعق في أذني فرحاً وهو يقول: «يالها من خدعة مدهشة، ياأخي العجوز! هذا بالضبط ماينبغي أن أفعله!» وباشر مهدي والحسن لتوهما في حياكة تفاصيل تلك الخطة. ولما فرغا، ضحكنا ثلاثتنا ضحكاً كثيراً كدنا أن نختنق من شدته. والحقيقة أن ماجرى بعد ذلك، ياعزيزي القائد، قد تم كله على النحو الذي قصّه عليك جنديك الخدوم...».

وعصف بالحضور جميعاً ضحك مجلجل.

ـ وهل يمكن معرفة ماحلّ بمهدينا اللطيف؟ سأل المصري لما هدأت نوبة الضحك قليلاً.

- أنت غادرت القاهرة، وهو ذهب إليها، أجاب اليوناني. وربما هو في هذه اللحظة بالذات يمضي وقته مع الفتيات اللواتي أمضيت معهن قبله صحبة ممتعة.

فقال الداعي الجسيم:

- وأنا الذي راهنت بمئة مقابل واحد، على أن صاحبنا ابن الصباح ومنذ أن أقصاه الوزير الأكبر عن بلاط أصفهان قد أصبح رجلاً جدياً! إذ أينما حلّ المرء لايسمع عنه إلا حديثاً مشفوعاً بآيات الإحترام... وينظر إليه أناس كثيرون على أنه ولي حي! لكن وبحسب ماقصصته علينا منذ قليل، فلا ريب أنه مازال مزوحاً رائعاً كعهده دائماً.

- الأجدر ألا تخوض كثيراً في هذا الأمر، لو سمحت، قال اليوناني بصوت خفيض. إذ أن قائدنا قد تغير بعض الشيء منذ أن استقر في آلموت. فهو يظل منعزلاً ليل نهار في برجه ولايستقبل أحداً سوى أبو علي، وحيث أوامره لاتصل إلينا إلا عن طريقه. وهذا أمر يزعجنا نوعاً ما، صدقني أننا لم نعد نفهم مقاصده الخفية...

وفي هذه اللحظة، دخل القاعة أبو علي برفقة حرسه المتألق. نهض الجميع عن أرائكهم وانحنوا له. كانت على محيّا الداعي الكبير ابتسامة لطيفة، وتوجه إليهم ببضع كلمات مجاملة. ثم دعاهم ليجلسوا على سجيتهم حوله، وبعد ذلك استهل كلامه قائلاً:

- أيها المجلس الفاضل، ياأعيان القضية الإسماعيلية المقدسة! إن سيدنا الحسن بن الصباح يمنحكم بركته. ويرجوكم في الوقت نفسه أن تتفضلوا بتلقي خبر غيابه. إذ أن تنظيم جماعتنا الواسعة، وإعداد القوانين والأوامر الجديدة، وتقدمه في السن، كل ذلك حال دون انضمامه شخصياً إلى اجتماعنا. لكنه يشاركنا بروحه وقد منحني مطلق السلطة لأحلّ باسمه كل القضايا الهامة. وسأبلغه من جانبي بموضوع مداولاتنا وسأنقل له رغباتكم على وجه الخصوص.

كان لخبر عدم مشاركة القائد الأعلى في الاجتماع وقع مؤلم على الدعاة الأجانب. فقد تراءى لهم أن سيدهم يستخف بهم، ويضع حاجزاً بينه وبينهم، وبمختصر العبارة، أنه ينأى بنفسه عنهم في برج عاجي.

همس الداعي البدين الزاهاروي في أذن اليوناني:

- أليس في هذا مظهر جديد لنكاته المعهودة؟

- هذا أمر ليس بمستبعد، أجاب الآخر، لكنني أخشى ألا يتقبل أصدقاؤنا الحاضرون هنا هذه الدعابة.

طلب الداعي الكبير في البداية من المدربين أن يبلغوه عن نجاحات مريديهم. كان أول من تحدث قائد المدرسة أبو سراقة، وشرع يبين موجهاً كلامه للقادة الأجانب، الهدف العام من الدراسة التي يقوم بأعباء إدارتها. ثم تكلم عن المريدين الذين يحرزون التقدم تحت إمرته فقال:

- أحسنهم تفوقاً شاب مسقط رأسه في سافا، وهو حفيد طاهر ذاك الذي، كما تذكرون، أمر بقطع عنقه الوزير الأكبر منذ عشرين سنة. وهو لايتمتع بذاكرة ممتازة وحسب، لكنه ذو موهبة رائعة في الشعر أيضاً. وأود أن أنوه بعده بجعفر، وهو شاب جدي بشكل فريد، وقد تولع حماساً بتفسير القرآن. ويليهما عبيدة، وهو امرؤ أوفر روحانية، لكن ينبغي العلم أنه لايمكن الاعتماد عليه بشكل أعمى... أما نعيم فهو مثابر...

كان أبوعلي يكتب الأسماء وكذلك يدون تعليقات مختصرة. أما ابراهيم الذي أعقب أبو علي في الكلام، فقد جعل هو أيضاً ابن طاهر في المقدمة. ومدح القائد مينوتشهر على الخصوص يوسف وسليمان. أما عبد الملك فكان رأيه أن سليمان هو الأول بلا منازع، وابن طاهر يعقبه مباشرة. وبالنسبة للطبيب فقد كان مسروراً من الجميع، ولم يخص بالذكر أياً من الأسماء.

دهش الدعاة الأجانب من صرامة وسعة هذا التعليم. وقد أثار ماسمعوه هناك شيئاً من الريبة في نفوسهم إذ لم يفقهوا تماماً الهدف والمغزى الأخير من هذه التربية. لكن أبا علي وبعد أن قدم المعلمون تقاريرهم، فرك يديه مسروراً وقال:

- كما سمعتم منذ قليل، نحن لاننام في آلموت. وكل حسابات سيدنا، منذ أن استولى على هذا القصر قبل عامين، قد بانت صحتها. وكما أعلن منذ سنتين، فالسلطان ليس في عجلة لينازعنا السيطرة على هذه القلعة. والواقع أن البرابرة الذين هم على الجانب الآخر من

الحدود، ليس مهماً بالنسبة لهم من المُشرف عليها. وإن أرادوا اقتحام البلد، فعليهم مهاجمتنا كما عليهم مهاجمة جيوش السلطان(*)، وبما أن الأمر كذلك فينبغي أن ندافع يومها عن أنفسنا نحن أيضاً. وفي انتظار ذلك، نحن نستفيد على أفضل نحو من الوقت الذي قدمه السلطان ولأسبابه الخاصة، هدية سخية لنا. لقد أعاد قائدنا تنظيم الإسماعيلية بشكل جذري. وكل مؤمن إنما هو جندي صلب كالفولاذ. وكل جندي هو في الوقت ذاته أشد المؤمنين حمية. لكن ومن بين الاستعدادات المتخذة، والتي يعتبرها سيدنا ذات أهمية كبيرة إقامة مدرسة الفدائيين. تلك المدرسة التي تدرب نخبة مستعدة لجميع التضحيات. مازال الوقت مبكراً لتستشفوا العمق الكامل لتلك المشاريع وكذلك صحة هذا التدريب. وباسم سيدنا، لايسعني إلا أن أقول لكم شيئاً واحداً: الفأس التي ستقطع شجرة السلجوقيين ستكون مسنونة عما قريب. وربما ليست بعيدة تلك اللحظة التي ستدوي فيها الضربة الأولى. إن المنطقة كلها حتى الري تؤيد قضيتنا. وإن كان صحيحاً مايقوله مبعوثو خوزستان من أن الداعي الكبير حسين القيني يفكر في إشعال البلاد كلها بثورة شاملة ضد السلطة، فنحن إذن نعرف، تقريباً، اللحظة التي ينبغي فيها علينا نحن أيضاً أن نمتحن قوتنا. وهذا الأمر لن يكون على الأغلب في القريب العاجل. وفي انتظار ذلك أيضاً لايسعني أيها الدعاة والقادة المحترمون إلا أن أدعوكم للعمل كما فعلتم دائماً. حمّسوا أنصاراً ومؤيدين لقضيتنا، وانتقلوا من رجل إلى آخر. هذا مايجب علينا فعله.

وإذا بصوت أبو علي الذي كان في البداية عادياً رتيباً يفور بعض الشيء. وأخذ يحرك ذراعيه ويوزع ابتسامات ماكرة ويغمز بعينيه في كل الجهات، لينهض أخيراً عن الأريكة التي يجلس عليها ويقف بكل رصانة وسط مستمعيه ويقول:

(*) وماحدث بعد قرن من موت الحسن بن الصباح، أن قلعة آلموت، التي كانت تشتهر بمناعتها، سقطت وهدمت على يد المغول. والمؤلفات التي وضعها الحسن، والتي تفيد كمراجع حول تلك الطائفة، أتت عليها النار.

ـ أصدقائي! علي أن أنقل إليكم أيضاً نصيحة خاصة من سيدنا. لاتدعوا النجاح يعميكم عن دعوتكم المتحمسة. وفي هذا الوقت بالذات فإن كل فرد نافع لنا. ولايخدعنكم العدد الكبير من أنصارنا، ولاتدعوا أنفسكم تحدثكم: لمَ نجهد في سبيل أن نكسب لدعوتنا فلاناً من الناس؟ بحجة أنه لايتمتع بشهرة ولابثروة. إذ ربما هذا هو بالذات الذي سيرجح كفة الميزان لصالحنا. لاتوفروا جهودكم! اذهبوا من رجل إلى آخر وحاولوا الإقناع. إذ ينبغي في المقام الأول كسب الثقة. ولأجل ذلك لاتوفروا حذاقتكم: احرصوا على أن تجعلوا دعوتكم تلائم خصوصية كل حالة. فعليكم مع شخص يجهر بإيمان صارم وثقة مطلقة بالقرآن أن تحاوروه في نقمةٍ شجاعة: تأسّفوا على الدين الذي هبط إلى الحضيض منذ أن فرض السلاطنة السلجوقيون سلطتهم في بلاط خليفة بغداد الذي أصبح نفسه من خدام أولئك الغرباء. وعلى النقيض، إن صادفتم محاوراً يتشكى من أن حاكم القاهرة ماهو إلا غريب غاصب، فوافقوه على مايقول في البداية، ولكن لمحوا وبمساندة حجج مفحمة أن كل شيء من طرف بغداد إنما هو كذلك ناقص. وإن كنتم أمام موال لعلي أو على الأقل متعاطف مع عقيدته، فمهمتكم ستكون أكثر سهولة. وإن كان رجلكم فخوراً بأجداده الإيرانيين، فأصروا على أن حركتنا تحافظ على مسافة بينها وبين النظام المصري. وإن شكا الظلم والإذلال من ذويه فخففوا عنه قائلين أن العدالة التامة الكاملة ستتحقق له لو بسط فاطميو مصر سلطتهم إلى هذه البلاد. وإن التقيتم برجل ذي ذهن متبصر يشك سراً أو حتى جهراً في كتاب الله وفي التعاليم الدينية، فاهمسوا في أذنه أن الإسماعيلية تتطابق جوهرياً مع الفكر الحر... تصرفوا على تلك الشاكلة مع كل فرد وذلك بحسب خلقه وأسلوب تفكيره، واستدرجوه بحذق إلى إدانة شرعية النظام القائم.

تحاشوا على الخصوص الترهيب: أظهروا التواضع والقناعة بالقليل، وسايروا عادات وتقاليد الإقليم والمجتمع الذي أنتم فيه وأبدوا كل تساهل مهما قل شأنه لتداهنوا أولئك الذين تحدثونهم. ينبغي أن تخلّفوا انطباعاً لدى محاوركم بأنكم متعلمون ومحنكون،

ورغم ذلك، تكنّون له التقدير العظيم... وبمختصر القول أنكم حريصون قبل كل شيء على هدايته هو بالذات. وعندما تكسبون ثقته على هذا النحو، تنتقلون إلى المرحلة الثانية من مخططكم. كاشفوه أنكم تنتمون إلى جماعة دينية تسعى إلى إقامة العدالة والحق في أرجاء البلاد وتبغي الثأر من المغتصبين الغرباء. استدرجوه إلى نقاش حام، أثيروا فضوله، أظهروا أنكم غامضون، ألقوا إليه بتلميحات واقطعوا له الوعود، إلى أن تصيب الحيرة تفكيره. وحينئذ اطلبوا منه أن يقسم يمين الصمت، بينوا له قصة الأئمة السبعة، واعملوا على زعزعة إيمانه لمّحوا له تلميحاً عن وضع استعداداتنا، أشيروا إلى جيش النخبة الذي لايهمه إلا أمر مهاجمة السلطان... ثم ألزموه بحلف يمين جديد، بوحوا له أن نبياً عظيماً يقيم في آلموت، تدين له بالولاء ألوف مؤلفة من المؤمنين، مهيئين إياه بذلك لميثاق عظيم. اسلبوا منه إن كان غنياً، أو على الأقل يعيش عيشة موسرة، مبلغاً كبيراً ليشعر بالتزامه. فالتجربة تدل على أن الرجل يظل معلقاً بالهدف الذي من أجله يهب ماله. واقتطعوا من ذلك المبلغ مبالغ قليلة توزعونها على الموالين الجدد، لكن ليكن ذلك على فترات متباعدة، بحيث يظلوا في حال انقياد لنا؛ وأفهموهم جيداً أن ذلك المال ماهو إلا عربون من أصل المال الذي سيتلقونه لاحقاً من قائدنا الأعلى لقاء وفائهم للقضية. وحينما يقع شخص بالكلية بين أيديكم، شدوا عليه حبال شرككم. صفوا له صنوف العذاب المخيف الذي ينتظر حانث اليمين، وحياة قائدنا المتواضعة والمعجزات التي تتحقق من حوله. ولاتنسوا أخيراً أن ترجعوا بانتظام إلى الأماكن التي زرتموها، ولاتهملوا أية صلات عقدتموها في تلك الأمكنة. إذ، وكما يقول سيدنا، مامن شخص مهما قل شأنه لايستطيع أن يخدم قضيتنا.

كان الدعاة يصغون باهتمام كبير لهذا الحديث. وكان أبو علي من حين لآخر، ينظر في عيني كل واحد منهم ويشير بيده نحوه، كما لو أنه يخاطبه هو بالذات. وأخيراً صاح قائلاً:

ـ لنعمل دون هوادة! ليكن ذلك شعارنا. أنتم ياقناصو وصيادو

الأرواح، لقد جمعكم سيدنا لهذه الغاية وسيبعثكم في الأصقاع لتنفذوا أوامره. لاتخافوا من شيء، فخلف كل رجل منكم تقف قوتنا كلها، مؤمنينا كلهم، وجنودنا أجمعين.

بعد ذلك، أحضر صندوقاً مملوءاً بالمال وتهيأ لتقسيمه. جلس بقربه عبد الملك وقد فتح سجلاً كبيراً دونت فيه النفقات المخصصة لكل منهم، وقائمة العطايا التي خصهم بها القائد الأعلى.

ـ من الآن فصاعداً، قال أبو علي منبهاً إياهم، سينال كل منكم راتباً ثابتاً؛ لكن ثقوا أن قيمة هذا الراتب ستتحدد تبعاً لإخلاصكم وعملكم، ونتائجكم وجدارتكم.

بعد ذلك شرع القادة في الإفصاح عن أمانيهم الخاصة. ففلان يتحمل عبء موكب من النساء والأطفال، وآخر أمامه طريق طويل يقطعه. وثالث يريد أن ينقل لصديق لم يستطع المجيء ما خصص له من مال. ورابع يعيش في منطقة مزرية... غير أن مبعوث الداعي الكبير في خوزستان حسين القيني، الذي أحضر معه ثلاث صرر مقببة مملوءة ذهباً، لم يطالب بشيء لنفسه ولالسيده.

ـ هذا يجب أن يكون مثَلَكم! قال أبو علي بصوت عال، معانقاً بحرارة الرسول الكريم.

ـ إن اللصوصية تغلّ كثيراً، همس الحكيم في أذن الداعي الزاهاروي وهو يغمز بعينيه غمزة ذات معنى. يقال في الواقع أن الداعي حسين القيني يضع الكمائن للقوافل القادمة من تركستان ويسلبها بناء على أمر القائد الأعلى شخصياً ـ أو على الأقل، كما يُزعم بمباركة منه. فهذا مصدر من المصادر التي تتيح للحسن بن الصباح أن يحافظ على جماعته القوية.

بعد أن انتهى القوم من قسمة المال، قدّم القادة المقيمون في القصر لضيوفهم اللحم المشوي والخمر الصافي وانخرطوا معهم في حديث أكثر مودة. فأسرّوا لبعضهم بعض ضجرهم وهمومهم: فالعديد منهم لايؤمن على الإطلاق بالنصر النهائي للقضية الإسماعيلية. كما تطرقوا لشؤون العائلة... ففلان له ابنة في آلموت، وآخر له ابن في مكان ما وينبغي تهيئة ظروف الزواج واستقرار الأزواج: فكل منهم

يريد أن يضم أهله تحت جناحه، وتجادلوا وقتاً طويلاً لمعرفة من ذاك الذي يقبل بالانفصال المرّ... ومع إحساسهم مجدداً بالإلفة نحو أصدقائهم القدامى، أخذوا في اغتياب قائدهم الأعلى والتنقيب في شؤونه. كان في رعاية أبو سراقة، في حريمه الخاص، ابنتي الحسن: خديجة وفاطمة. الأولى لها من العمر ثلاث عشر سنة والثانية بالكاد تبلغ الحادية عشرة. ولم يدعوهما الحسن على الإطلاق إلى عنده، ولم يسأل يوماً عن أخبارهما منذ أن تخلى عنهما إلى أبو سراقة. وسرد الداعي على مسمع مبعوث خوزستان، الذي كان ضيفه، أنهما ترتجفان خوفاً لدى ذكر اسم أبيهما. ولم يستحسن أبو سراقة مسلكاً كهذا. فقد كان هو نفسه في الواقع أباً بالغ الحنان. زد على ذلك أن ما من أحد يعرف شيئاً عن نساء الحسن. إنما تسري همهمات بأنهن لايسكنَ في محيط القصر. أما مبعوث خوزستان، من جهته، فقد باح لأبي سراقة قائلاً إن الحسين، ابن قائدهم، يعيش في زار كامبادان وهي قلعة استولى عليها حسين القيني... إذ في الحقيقة أنه تخاصم مع أبيه الذي أرسله معاقباً إياه إلى عند داعي خوزستان الكبير، ليخدمه كجندي بسيط!

ـ صحيح أن هذا الصبي كضواري الغابة توحشاً، أضاف مبعوث خوزستان، ومع ذلك فلو كنت أباه، لاحتفظت به إلى جانبي. لأنه، صدقني، إن كان تحت سيطرته، فستكون لدى الحسن فرصة أسهل لتغييره أو على الأقل لإصلاحه... بدلاً عن الذل الذي يتجرعه الحسين والذي سيعزز خلقه السيء وعدوانيته...

أقام الضيوف ثلاثة أيام كاملة في آلموت؛ وفي اليوم الرابع، عند الفجر اتجه كل منهم نحو بلده. واستعادت الحياة في القصر وقعها المعتاد، إلى أن وصل زائر غير منتظر.

الفصل الخامس

كان ذلك إبان الصيف، في يوم قائظ، عندما وصل إلى الممر الجبلي عجوز يُقدر عمره بحوالى ستين عاماً، مخفوراً بخمسة عشر فارساً. أوقف الركب الحارس المتمركز في مدخل المضيق ليسألهم عن هويتهم وعن هدف مجيئهم إلى القصر. عرّف العجوز عن نفسه قائلاً أنه الآمر السابق لموقع أصفهان: أبو الفضل اللمباني، وقد جاء من الري، ورييس تلك المدينة أمره بأن ينقل إلى القائد الأعلى خبراً على قدر كبير من الأهمية. فانطلق مأمور الخدمة على عجل نحو القلعة ليعلم رئيسه بوصول الغرباء.

كان الوقت حينئذ عقب صلاة العصر. والمريدون في قيلولتهم حينما انطلق صوت البوق داعياً للتجمع. ربطوا شراك صنادلهم على جناح السرعة، وحزموا صداراتهم، وأمسكوا بتروسهم وسلاحهم وركضوا نحو الفناء. وكان في انتظارهم على أحصنة مسرجة القائد مينوتشهر، والدعاة أبو سراقة وابراهيم وعبد الملك. وأُمر الفتية بأن يعتلوا أيضاً صهوات جيادهم.

ـ شيء ما يحدث، همس سليمان في أذن جاره. ومنخراه يرتعشان وعيناه تلتمعان بألق محموم من الترقب.

أسرع أبو علي في هذه الأثناء، ليقبل ممتطياً بدوره حصانه الصغير الأبيض. وقد تشبثت ساقاه المقوستان بحركة نشيطة بجنبي الدابة، وأسرع نحو المريدين ليحثهم قائلاً بإيجاز:

ـ أيها الفتية! سأخصكم بشرف استقبال رجل جليل وهو صديق كبير لسيدنا. وهذا الرجل هو الريس السابق أبو الفضل، الذي خاطر خلال أربعة أشهر بإخفاء قائدنا الأعلى عنده، منقذاً إياه بذلك من مطاردات الوزير الأكبر. فيجدر بنا أن نعد له استقبالاً يليق بمكانته وبالخدمات التي أسداها لقضيتنا.

غمز جواده واجتاز على عجل الجسر الملقى على الهاوية.

بدأ صبر أبو الفضل في النفاذ. أخذ يتحرك ويلقي نظرات حانقة صوب المضيق. وجواده يضرب بحوافره الأرض كما لو أنه شعر بحال سيده. وأخيراً خرجت فرقة فرسان من الشِعب. وعلى الفور تعرف الزائر على قائدها صديقه القديم أبو علي. وعلى وقع سنابك فرسه السريع اقترب متعجلاً ليعانق الزائر حتى دون أن يترجل عن الفرس.

ـ إني سعيد كوني أول من يستقبلك في قصر آلموت!

ـ شكراً، وأنا سعيد بذلك أيضاً، أجاب أبو الفضل وصوته يشي ببعض الاستياء. لكن أرى أنكم تأخرتم قليلاً. في الماضي، كان الآخرون هم الذين ينتظرون استقبالي لهم... كما يقول المثل: «اليوم أنا، وغداً أنت...».

أخذت الرغبةُ بالضحك أبو علي لدى سماعه هذه الملاحظة وقال:

ـ لقد تغير الزمن، لكن لاتغضب، ياصديقي العجوز، إنما أردت فقط أن أحضّر لك استقبالاً يليق بمقامك.

اقتنع أبو الفضل بهذا العذر. وداعب لحيته الجمِيلة الفضية، وصافح الدعاة الآخرين، وألقى السلام على مينوتشهر.

ثم أعطى القائد أمراً، وإذا بمفرزة من المريدين تندفع على مرأى من الزائرين نحو الهضبة الممتدة إلى الأعلى قليلاً، وذلك في نظام كامل. وهناك، انقسمت، بسرعة البرق، إلى رتلين انطلق كل رتل على جياده في اتجاه محدد، لتتفرق فيما بعد في عدم انتظام رائع. وما أن دوى صفير ثاقب، حتى تجمع الفرسان في مجموعة متراصّة. ثم أطلق قائد الرتلين إيعازاً، فتشكلت من جديد مجموعتان بادرتا في الحال،

الرماح منكسة، إلى هجوم عاصف. وبدا أن الفرسان سيطيحون بعضهم بعضا أرضاً وينفذون برؤوس أسلحتهم في أجساد بعضهم بعضا. لكن وفي حركة محكمة تماماً، اكتفوا بملامسة بعضهم، ثم أدوا ارتدادة، واجتمعوا للمرة الأخيرة وعادوا، منتظمين في صف كامل، إلى نقطة انطلاقهم.

ـ ياللشجعان الرائعين! ويالكمال فروسيتهم! صاح أبو الفضل بإعجاب صادق. أعترف أني تصببت عرقاً بارداً لما رأيتهم يقومون بترتيب الوحدات... تهانيّ!

ابتسم أبو علي بسعادة وقال:

ـ لكن ربما مفاجآتك لم تنته بعد، ياصديقي الريس. انتظر حتى تصل القصر...

وأوعز بأمر. فتحركت المفرزة باتجاه المضيق المؤدي إلى القلعة.

لما وصلوا آلموت، ترك مينوتشهر مريديه وأصدر أوامره برعاية خفر الريس وخيوله. ثم رافق ضيفه والدعاة إلى قاعة الإجتماع.

في أثناء المسير، تفحص أبو الفضل القلعة والأجنحة واندهش من وفرة أعداد الدواب والجنود الموجودين هنالك:

ـ لكن هذا حصن عسكري حقيقي، ياعزيزي! حسبت أني سأذهب لرؤية نبي... أرى أني أمام قائد جيش حقيقي! لكن ماهو أشد وقعاً، أني لاأصدق أن كل ماأراه هنا هو من صنع صديقي العجوز ابن الصباح...

ـ ألم أقل لك أن مفاجآتك لم تنتهِ بعد؟ قال الداعي الكبير ضاحكاً. صحيح أن عددنا لايتجاوز الثلاثمائة والخمسين في هذا الموقع. لكن وكما ترى، هم جنود مدربون تدريباً رائعاً، كما يتوافر لدينا الكثير من القوت والعتاد، وينبغي أيضاً أن نأخذ بالحسبان وجود مايقارب من مئتي مقاتل في كل قلعة من القلاع المجاورة، وأولئك حسبهم إشارة

منا ليأتوا لتعزيزنا، وجميعهم يتحرقون بحماس ديني ملتهب لنصرة قضيتنا. إن المنطقة بأسرها تساندنا وفي حال الخطر، نستطيع أن نجمع في آلموت وفي أقصر مدة ما يصل عدده إلى ألف وخمسمائة رجل.

ـ رغم كل شيء، فهذا عدد قليل جداً بالفعل... دمدم أبو الفضل.

نظر أبو علي نظرة استغراب وقال:

ـ ماالذي ترمي إليه؟

ـ لاأظن أنكم تحسبون أن باستطاعتكم أن تقاوموا بهذه الحفنة من العسكر كل جيش السلطان.

ـ كيف لا، بالطبع نحن نفكر بذلك! لكن ربما لاشيء يستعجل المجابهة في الوقت الراهن.

هز أبو الفضل رأسه.

ـ سأتكلم عن ذلك إلى ابن الصباح، وتلك كانت كل إجابته.

نظر الدعاة إلى بعضهم البعض. ووصلوا أخيراً إلى السطح الأعلى. وقد مروا بالحراس الذين كانوا يرفعون مقامعهم عالياً، ودخلوا قصر القائد الأعلى.

كان أصحاب المقامات في انتظارهم في قاعة الاجتماعات. تصفح أبو الفضل وجوههم بحثاً عن صديقه القديم دون جدوى.

ـ أين ابن الصباح؟ سأل.

حك أبو علي لحيته وقال:

ـ سأعلمه على الفور بوصولك. وفي هذه الأثناء سيقوم الدعاة على خدمتك ومرافقتك.

انطلق أبو علي مبتعداً في حين كان أبو الفضل يصرخ فيه قائلاً:

ـ قل له أني لم أقم بهذه الرحلة الطويلة لمسرتي الخاصة. لقد أرسلني الريس ميتسوفر إليه حاملاً رسالة هامة! وسيندم على كل لحظة اضطرني فيها لانتظاره!

استلقى على الوسائد وإمارات الاستياء بادية عليه. واتخذ الدعاة

أماكنهم إلى جانبه، وهرول الخدم نحو الزائر مقدمين له الحلوى والمرطبات.

ـ أشعر أن هذا سيكون أيضاً فضلاً علي!... تمتم بصوت خافت.

ـ لاتغضب، أيها الشيخ الموقر، تدخل أبو سراقة. فهذه هي العادات اليوم في آلموت.

ـ إن القائد الأعلى لم يغادر مرة واحدة أجنحته منذ أن استولى على القصر، قال ابراهيم موضحاً. وربما مرت أيام وأسابيع دون أن يكلم أحداً، ماعدا كبار الدعاة.

ـ نعرف تلك الإجراءات، قاطعه أبو الفضل. حينما كنت ريس أصفهان، كنت أدع الرجل الذي أريد أن ألوي عزيمته ينتظر أمام بابي. لكنه كان باباً مشرعاً دوماً للأصدقاء! وفي جميع الأحوال، سأسمع ابن الصباح كلاماً بخصوص هذا الأمر...

ـ لقد سمعنا، أيها الشيخ المحترم، أنك في الأيام الخوالي قد خبأته أربعة أشهر في بيتك، في الوقت الذي كان يتعرض فيه لمضايقات الوزير الأكبر، همس اليوناني وفي عينيه نظرة ماكرة.

أخذ الريس يقهقه.

ـ وهل قيل لك أيضاً أني حسبته مجنوناً؟ أود أن أعرف من الذي سيعتقد خلاف ذلك لو كان مكاني!

ـ لقد سمعت كلاماً عن هذا الأمر، قال أبو سراقة، مدلياً بدلوه، لكني أعترف أني لاأعرف على وجه الدقة كيف جرت الأمور.

ـ آه! لاتعرف كيف سارت الأمور! حسن إن كان ذلك يهمكم، فسأخبركم! قال الريس السابق.

وبادر الدعاة إلى وضع بضع وسائد أخرى تحت رأسه ليتمكن من الاستلقاء المريح، ثم تجمعوا حوله مظهرين له آيات التبجيل والإحترام.

وبعد أن جلا صوته لهنيهة، شرع في الكلام قائلاً:

ـ مضت سنوات عدة لم ألتق فيها بابن الصباح. وكل شيء يدعو إلى الاعتقاد أنه لم يتغير كثيراً منذ ذلك الحين. لكن وفي الزمن الذي

عرفته فيه، كان رجلاً مزوحاً ومسلياً مضحكاً، لايبزه أحد في ذلك. وكان البلاط كله يضحك من دعاباته، التي تكفي واحدة منها لأن تبدد مزاج السلطان العكر، وكان واضحاً أن الوزير الأكبر قد نظر إليه نظرة لاتخلو من الحسد، ولم يتوانَ عن تدبير مكيدة خبيثة ضده. لكن الحسن أفلح في الفرار من مصر، وبعد عام كان نادراً مايذكر أحد اسم الحسن في البلاط ـ بخلاف الوزير الأكبر الذي كان يذكره بالطبع إذ كانت له بواعث قوية في أن يخشى انتقامه. ولما بلغه أن ابن الصباح قد غادر مصر، كلف الوزير الأكبر مخبريه في البلاد بأن يكتشفوا مقره الجديد، وأن يتخلصوا من الرجل إن هم عثروا عليه. لكن شاع أنه توارى تحت الأرض... وذات يوم، انزاحت ستارة بابي ليدخل غرفتي شيخ وقور، يلتف من شدة البرد في دثار سفر واسع. وتملكني خوف شديد كاد يقضي عليَّ. ولما سكن روعي، أخذتُ أصرخ في خدمي: «هيه، أيها الحمقى! من أَذِن لهذا الرجل بدخول منزلي؟» وفي تلك اللحظة أماط الرجل طرف دثاره العالي عن وجهه، فأبصرت أمامي وجه صديقي الفَرَح: الحسن، الذي كان بأعجوبة سالماً معافى... وحينئذ فقط بدأت أوصالي ترتجف. وعلى جناح السرعة، أسدلت ستائر سميكة على بابي. وقلت مهتاجاً: «هل أصبحت مجنوناً؟ مئة من عسس الوزير في إثرك. وأنت تأتي أصفهان متنزهاً، تبغي التعلق دون سابق إنذار بعنق مسلم شريف!» ضحك، وكعادته القديمة، ربت على كتفي وقال: «إيه، ياريّسي، ياريّسي الطيب، عندما كنت صاحب نفوذ في البلاط كان حولي الكثير من الأصدقاء. ومنذ أن زالت حظوتي، أغلقتم كل الأبواب في وجهي». ماذا بقي أمامي أن أفعل؟ كنت أودّه كثيراً وهكذا دعوته في آخر المطاف إلى الإقامة في بيتي ـ لكن مع حرص شديد ألا يعرف إنسان بذلك. كان في الواقع يمضي أغلب وقته حابساً نفسه في غرفته. كان صبوراً وظل أياماً كاملة يخط بريشته أو يسرح بأفكاره، ولم يفته أبداً أن يسلّيني بملحه ودعاباته في كل مرة كنت أزوره فيها.

«... وفي أحد الأيام، باح لي بأمر فاجأني. والعجيب أنه لجأ، في تلك الواقعة الغريبة، إلى تلك اللهجة المبهمة والمضحكة التي اعتادها حينما يريد أن يروي بعض الدعابات؛ لدرجة اعتقدت أنه في هذه المرة

أيضاً لاينبغي أن آخذ كلامه على محمل الجد وأن أضحك منه. إلا أنه قال لي الآتي: «صديقي العزيز! لو توافر لي ثلاثة رجال أهل ثقة مطلقة، لقلبت في أقل من عام السلطان وحكمه». وانتابني الضحك حتى استلقيت على قفاي. لكنه فجأة أصبح جاداً، وأمسك بعضدي ونظر في عيني نظرة اخترقتني. حتى أني بسببها شعرت بقشعريرة تسري فيَّ. وقال أخيراً وبصوت بالغ الوضوح: إني أتكلم بجد مابعده جد، أيها الريس أبو الفضل اللمباني.» تراجعت في وثبة إلى الوراء، ونظرت إليه كما لو أن الأعجوبة التاسعة قد وقعت لتوها في وسط الغرفة. فمن الذي لايقف فاغر الفم لدى سماعه شخصاً، وليس أي شخص، وهو يعلن على مسامعه أن حسبه رجلين أو ثلاثة ليقوض سلطنة تمتد من الأناضول إلى الهند ومن بغداد إلى البحر الأسود! والتفسير الذي حضرني حينئذ أن هذا الرجل قد أصابه الجنون من طول معيشته وحيداً ملاحقاً. فتوجهت إليه ببعض العبارات المطمئنة وأخذته بحذر إلى جناحي. واستدعيت لفوري الطبيب ورجوته أن يصف له دواء يشفي من الجنون. وقدمت مرات عدة هذا العقار لضيفي البائس الذي كان يرده في كل مرة، ومن ذلك اليوم فهمت أنه فقد ثقته بي.

حملتْ تلك القصة في طياتها تسلية كبرى للدعاة.

ـ يالها من مغامرة شهيرة! صاح اليوناني. لقد جاءت مناسِبة له تماماً في أحداثها.

ـ ومارأيك اليوم بكلام الحسن ذاك، أيها الشيخ المحترم؟ أراد أبو سراقة أن يعرف.

ـ أخشى أنه كان يتكلم بجدية تامة، قال الآخر متجهماً.

وأخذ يجيل بناظريه من شخص لآخر وهو يهز رأسه مفكراً.

ماأن ظهر أبو علي مجدداً، حتى سارع نحو ضيفه قائلاً:

ـ هاهو ابن الصباح في انتظارك!

نهض الريس بصعوبة من فوق أرائكه، وحيّا الجميع في كل اتجاه منحنياً انحناءة خفيفة وانطلق في إثر الداعي الكبير.

سارا في ممر طويل، يحرس مدخله ومخرجه زنجي عملاق، يحمل مقمعة ثقيلة. بعدئذ بلغا درجاً حلزونياً شديد الانحدار بدا أنه يفضي إلى قمة البرج وشرعا في صعوده.

ـ يبدو أن ابن الصباح يقيم في رأس البرج! قال الريس متضجراً وهو يمسح العرق المتصبب فوق جبينه.

ـ أصبت، أيها الداعي المحترم.

ازداد محيط الدرج ضيقاً وانحداراً. كان الداعي الكبير يتسلقه كما لو أنه ابن عشرين عاماً، بينما كان لهاث الريس يزداد مع الصعود.

ـ لنتوقف قليلاً، قال أخيراً. لقد ضاقت أنفاسي، ولم أعد شاباً. فاستراحا لبرهة، واسترد الريس السابق أنفاسه؛ ثم عاودا الصعود. لكن ماهي إلا لحظات قليلة حتى عاد أبو الفضل يزمجر مجدداً:

ـ أقسم بلحية أبي! أليس لهذا الدرج اللعين من نهاية؟ هل اتخذ هذا الثعلب وجاره على هذا القدر من العلو ليتسنى له الاستمرار في مداعبتنا على نحو أفضل؟

ضحك أبو علي في سريرته. ولما اقتربا من نهاية الدرج، كانت أنفاس الريس السابق تتلاحق من الإرهاق وقد أطرق رأسه حتى أنه لم يلاحظ الخفير الذي يتولى الحراسة في الأعلى، وقد سد بقامته الطريق إلى الجناح: وهكذا لما انتهى أبو الفضل إلى الدرجات الأخيرة، كادت جبهته أن تصطدم بقوة بالساقين السوداوتين العاريتين. رفع رأسه وقفز إلى الوراء مذعوراً وقد نال منه وقع المفاجأة. كان يقف أمامه منتصباً مايشبه التمثال البرونزي، لزنجي شبه عار، طويل وقوي كأنه الصخر، وقد أمسك بقبضته هراوة ضخمة لايقوى الريس على رفعها بكلتا يديه. سارع أبو علي إلى سند العجوز لئلا يهوي من أعلى الدرج. التفّ أبو الفضل بحذر حول الحارس الصامت الجامد. وما أن دلف إلى الممر حتى التفت وراءه ليضبط النظرات التي كانت تتبعه؛ إذ كان الزنجي يلاحقه بعينين بيضاوتين واسعتين مشبعتين بالريبة.

ـ لم أر في حياتي إلى يومي هذا سلطاناً ولا شاهاً تحيط به

حراسة كهذه، قال الضيف مدمدماً. وهذا الأفريقي المسلح بهراوة كتلك لايدل قطعاً على حرارة الترحيب...

ـ لقد أرسل خليفة القاهرة كهدية إلى الحسن مفرزة كاملة من هؤلاء الخصيان، قال أبو علي معلقاً. إنهم حرس يتمتعون بأكبر ثقة يحلم بها المرء.

ـ انظر، إن آلموت بأكملها ماعدت استسيغها. قال الريس متشكياً. فقلما يعثر المرء هنا على شيء من الراحة. في عمري...

وبلغا باباً يقوم على حراسته خفير يشبه الأول تماماً. همس أبو علي في أذنه ببعض الكلمات فرفع الزنجي الستارة.

دخلا إلى غرفة انتظار فيها القليل من الأثاث. سعل الداعي الكبير. فتحرك شيء ما خلف إحدى السجاجيد التي وضِعت لتكون ستوراً. ورفعت يد خفية السجادة الثقيلة. ومن خلال تلك الفرجة ظهر القائد الأعلى للإسماعيليين: الحسن بن الصباح. كانت عيناه تشعان بفرح غامر. خطا خطوات سريعة نحو صديقه العجوز وصافحه بقوة.

ـ عجباً، عجباً! مضيفي في أصفهان! آمل أن تكون هذه المرة قد أعفيت نفسك من إحضار دواء يعالج الجنون؟

وبابتسامة مرحة، أدخل العجوزين إلى غرفته.

ألفى الريس نفسه في غرفة ذات أثاث مريح: كل شيء فيها يدل على أنها غرفة عالِم. فالرفوف تمتد على طول الجدران، وقد امتلأت بالكتب والأوراق المكتوبة. وقد غطت الأرض السجاجيد. ومن حين لآخر كانت تسترعي الانتباه أدوات الفلك والقياس والحساب، وألواح صغيرة وأقلام، ومحبرة تلبي كل مايحتاجه كاتب. حملق الزائر في كل ذلك مندهشاً، ولم يستطع أن يربط في ذهنه بين ما رآه من تقشف أسفل القلعة وبين مايراه الآن.

ـ يبدو أنك لم تُحضر معك عقاراً يداوي الجنون! قال الحسن مازحاً وهو يداعب مبتسماً لحيته الطويلة، التي، ماخلا بضع شعيرات، كانت ماتزال ذات سواد داج مليح. أيمكنني الآن أن أطلع على القصد الكريم الذي أتى بك إلى هنا، إلى أقصى بقعة في الأرض؟

ـ بالتأكيد لا، إذ لم يعد هناك وقت لأحضر لك دواء ضد الجنون، قال أخيراً الريس. لكن ميتسوفر عهد إلي أن أنقل إليك خبراً: فبناء على أمر السلطان، خرج الأمير أرسلان طاش من همذان(*) متجهاً نحو آلموت على رأس جيش يضم ثلاثين ألف رجل. وطليعة الفرسان الأتراك قد تصل اليوم أو غداً إلى رودبار وستخيم بعد بضعة أيام أسفل جدران القلعة.

تبادل الحسن وأبو علي النظرات لبرهة.

ـ الآن؟... سأل الحسن، شارد الذهن. ما كنت أنتظر أن يقرروا بهذه السرعة. يبدو أن ذلك يشير إلى حدوث بعض التغيرات في البلاط...

أجلس صديقه على سرير مفروش بالأرائك، ثم اتخذ مجلسه بقربه وأخذ يفكر وهو يهز رأسه.

ـ سأقول لك كل ما أعرفه، قال أبو الفضل متابعاً كلامه. عليك من جانبك أن تستعد لإخلاء الأماكن بأقصى سرعة ممكنة.

كان الحسن ملتزماً الصمت. والريس يلحظه من طرف خفي. لم تكن سنواته الستون بادية عليه. وحركات جسده الرشيقة لاتزال كتلك في شبابه. بشرته نضرة، تومض فيها عينان كبيرتان ذكيتان تخترقك نظراتهما المفعمة بالحياة. وماتبقى، ليس بذي بال ليقال: قامة متوسطة ليست بالفارعة، وجسد معتدل الجسامة، ليس بضامر ولابدين. وبالنسبة للوجه: فالأنف طويل مستقيم، والشفتان ممتلئتان ينم شكلهما عن الحزم. كان صوته قوياً، وكلماته واضحة، أما وتلك النبرة الهازئة فكانت تشي بسخرية عميقة. لكن وعندما يفكر فإن ملامح وجهه تتغير على نحو كبير. إذ تغيض ابتسامته وتتخذ قسمات وجهه تعبيراً كئيباً وحتى قاسياً. أو يبدو شارداً كما لو أنه يستغرق في تأمل أشكال غير مرئية، كما هو حال أولئك الناس أصحاب الخيال الواسع.

(*) همذان: مدينة تقع في غرب إيران، تحيطها الجبال؛ ومايزال موقعها اليوم على الطريق بين بغداد وطهران.

وبهيئته تلك، كان يبعث الخوف دون إرادة منه في نفوس الذين يخضعون لسلطانه. وبصورة عامة يمكن القول إنه كان رجلاً وسيماً ـ حتى أن الكثيرين كانوا يأسفون لتباهيه في مناسبات كثيرة بما لديه من مزايا.

ـ أعطني التفاصيل، إني أصغي إليك، قال أخيراً مخاطباً ضيفه، مقطباً جبينه.

فأجاب الريس بهدوء وبصوت واضح:

ـ إن كنت لاتعلم شيئاً عن ذلك حتى الآن، فسأخبرك أن عدوك القديم نظام الملك لم يعد الوزير الأكبر.

هب الحسن واقفاً؛ وقد اختلج جسده كله.

ـ ماذا تقول؟ صرخ كما لو أنه لايصدق ماتسمعه أذناه.

ـ لقد خلع السلطان نظام الملك وعين بشكل مؤقت في مكانه وزير السلطانة.

ـ تاج الملك؟ قال أبو علي مندهشاً وعلى وجهه إمارات السرور. إنه حليفنا.

ـ لم يعد كذلك منذ أن أمِلت السلطانة أن يُنادى على ابنها خليفة للعرش بوجه شرعي، قال الريس موضحاً.

ـ ياللخيانة الدنيئة، دمدم الداعي الكبير.

كان الحسن يفكر في هدوء. وقد مال بجذعه للأمام، وهو يرسم بإصبعه دوائر على السجادة. وسكت العجوزان الأخريان أيضاً، واكتفيا بمتابعة حركات مضيفهما، وكان من الواضح أنهما ينتظران شروعه في الكلام.

ـ إن حلّ وزير السلطانة محل نظام الملك، قال الحسن أخيراً. فمن الجلي أن وضعنا في البلاط قد تغير تغيراً جذرياً. وهذا يفسد بعض الشيء حساباتي. كنت أحسب أني في سِلم حتى الربيع. واستعداداتي كانت ستنتهي حينئذ... أما الآن فينبغي التعجيل بها على نحو جاد.

- نعم، كدت أنسى الأمر الأهم، تابع الريس حديثه. إن نظام الملك قد احتفظ بمكانة الوزير...إنما ليقوم بمهمة محددة: تقويض الحركة الإسماعيلية في أقصر وقت.

- هذا يعني قتالاً لاتخمد ناره، قال أبو علي بنبرة جافة. إن الوزير الأكبر السابق حاله كحال الذئب الذي أمر بإفناء القطيع.

- لم نصبح بعد قطيع نعاج، قال الحسن مازحاً - وقد اتخذ لتوه قراراً بنفسه وبدا أن صفاءه قد عاد إليه. واستطرد قائلاً: علينا أن نتخذ الترتيبات العاجلة. مارأي ميتسوفر في الأمر؟ هل هو مستعد لمساعدتنا؟

- لقد استعرضنا بدقة جميع الاحتمالات. أجاب أبو الفضل. إني أحبك وأنا على استعداد لتغطية انسحابك أمام الفرسان الأتراك. فبمواجهة جحافل جيش الأمير، لن تستطيع أن تؤمن الانسحاب لوحدك.

- أفهمك، أفهمك جيداً، همهم الحسن، بينما ارتسمت ابتسامته المعهودة المزوحة على شفتيه، وشع البريق من عينيه. وإلى أي مكان تنصحني جلالته المستنيرة أن أنسحب؟

- دار نقاشنا الحامي حول هذه الإمكانات بالضبط، قال الريس متظاهراً بعدم انتباهه لتهكم الحسن. ليس أمامك إلا مَخْرَجين: يتجه أقصرهما نحو الغرب، عبر بلاد الأكراد الهمج: متيحاً لك الوصول إلى بيزنطة ومن ثم إلى مصر. ويتجه الأطول نحو الشرق، وهو ماينصحك به ميتسوفر. ففي مدينة مرو، أو حتى في نيسابور، سيكون في استطاعة حسين القيني أن ينضم إليك بجيشه، ولن يكون عليكما بعدئذ إلا أن تنسحبا معاً نحو كابول، حيث ستجد فيها من أمراء الشرق من يقدم لك الملاذ الآمن.

- خطة ملفتة للنظر، قال الحسن متفكهاً. وماذا إن تبين أن جنودي لم يتحركوا بالسرعة الكافية أمام خيالة السلطان؟

- لقد بحثنا هذا الاحتمال أيضاً، تابع الريس كلامه مقترباً أكثر

من مضيفه. إن كان يبدو لك أن الانسحاب مع جميع رجالك يحمل مخاطرة كبيرة، فإن ميتسوفر يقدم الملجأ لك ولأهلك. وهذا بالضبط تماماً مالأجله أرسلني إلى هنا.

- إن ميتسوفر امرؤ ذو بصيرة ولن أنسى له موقفه المتعاطف. لكنه لايعرف مايدور في خلدي، ولايقرأ مافي قلبي - وحين نطق الحسن بتلك الكلمات أصبحت نبرة صوته جافة حازمة. آلموت حرز منيع، لذا سنظل في القصر. وسنسحق الفرسان الأتراك. وعندما تصل جحافل السلطان القلعة، سنكون على استعداد تام.

كان أبو علي ينظر إلى الحسن بعينين تشعان بريقاً، مفعمتين بالثقة، لكن أبا الفضل كان في حال من الذهول.

- كنت أعتبرك على الدوام، ياعزيزي الحسن، رجلاً فطناً تحسن التصرف، قال. وقد انتشرت في الآونة الأخيرة هيبتك انتشاراً عظيماً، ويتحدث الناس عنك في أرجاء إيران كلها. وحيلك في البلاط، برهنت أيضاً أنك تستطيع أن تكون رجل دولة يفوق الكثيرين حذاقة. لكن وبصراحة فإن ماتقوله هنا قد ملأني رعباً وقلقاً.

- إني بالكاد أنجزت نصف مشروعي، أجاب الحسن. وأنا في الحقيقة مازلت أفخر بقدراتي كسياسي... وسأجرب الآن مايستطيع أن يفعله الإيمان.

وشدد في نطقه على هذه الكلمة الأخيرة. ثم التفت نحو الداعي الكبير وأصدر أوامره قائلاً:

- ادع مجلس القادة، وليأخذ الجنود أهبتهم للقتال في الحال. وليخضع المريدون في الغد للامتحان الذي سيكرسهم فدائيين. وعلى الجميع أن يحيطوا علماً بكل شيء...سترأس أنت المجلس العظيم بدلاً عني. وقل للقادة أن ثمة زواراً يقتربون وأننا قررنا انتظارهم في موقعنا. وليدلي كل منهم برأيه. وعندما تصغي إليهم جميعاً، ارجع إلي لتقدم تقريرك. وليأمر القائد مأموريه باتخاذ كل الإجراءات لتأمين الدفاع عن القلعة.

ـ سيتم كل شيء كما أمرت، قال الداعي الكبير مؤيداً، وغادر القاعة.

بعد قليل، دوى صوت البوق وقرعت الطبول تهيب بالجنود إلى حمل السلاح وبالقادة إلى الاجتماع. وبوجه وقور كان أبو علي في انتظارهم في قاعة المجلس التي وصلها الدعاة والمأمورون على جناح السرعة. ولما التأم الشمل، تصفح الداعي الكبير وجوههم واحداً تلو الآخر.

ـ إن السلطان قد خلع الوزير الأكبر، استهل كلامه دون مقدمات، وكلفه بمهمة عاجلة: القضاء على الحركة الإسماعيلية. وأمير همذان، أرسلان طاش، يتجه نحونا على رأس ثلاثين ألف رجل. وطلائع الفرسان الأتراك ستصل اليوم أو غداً إلى رودبار. وقد ترفرف الرايات السوداء بعد عدة أيام أمام باب قلعتنا. إن آمر موقع الري، ميتسوفر، قد وعدنا تقديم العون. إلا أن تصميمنا على النصر هو أفضل حلفائنا. لقد أرسلني سيدنا لأتحرى رأيكم حول أنجع أسلوب لرد الهجوم. وسيأمر بعد سماع مشورتكم باتخاذ مايلزم من تدابير.

تبادل القادة نظرات الدهشة، وهم على أرائكهم جالسون. همس أحدهم في أذن جاره بتعليق، ثم مكث فترة طويلة صامتاً...

ـ أيها القائد، أنت جندي محنك، قال أخيراً أبو علي موجهاً كلامه لمينوتشهر، برأيك ماهو الأمر الأهم لنقوم به؟

ـ مامن سبب يدعونا للخوف من هجوم الفرسان الأتراك، أجاب القائد. إذ تستطيع القلعة أن تقاوم غارة من هذا النوع: ومن يريد أن يستولي عليها بالقوة سيكون الفشل الذريع نصيبه. لكن كم من الوقت نستطيع الصمود تحت ضغط جيش قوامه ثلاثون ألف رجل، مزودين بآلات وأدوات الحصار، إن الإشكال كله يكمن هنا.

ـ كم من الوقت نستطيع الصمود بالمؤن التي جهزتها حتى الآن في القلعة؟ قال اليوناني مستعلماً.

ـ لنقل ستة أشهر على أقل تقدير، أجاب القائد العسكري. لكن إن

كان لدينا متسع من الوقت لإرسال قافلة إلى الري، فيستطيع ميتسوفر أن يمدنا بما يلزم للصمود ستة أشهر أخرى.

ـ هذه نقطة هامة، قال أبو علي وخطّ بضع كلمات على لوحه الصغير.

ثم بادر عبد الملك قائلاً:

ـ في رأيي، من الحماقة أن نسارع إلى الاختباء في القصر. فبمقدورنا أن نحاول استدراج الطلائع التركية إلى مكان مكشوف، سيما إن عاجلنا ميتسوفر حقاً بتعزيزاته. فجيش السلطان مازال بعيداً.

يمكننا أن نتصور الوقع الكبير الذي تركته هذه الخطة في نفوس المأمورين الشباب.

ـ حذار أن نتعجل الأمر، قال أبو سراقة منبهاً إياهم. فعلينا أن لاننسى أن في القصر نساءنا وأطفالنا: وسينتهي أمرهم إن دارت علينا الدوائر في أرض المعركة. فقال ابراهيم مهتاجاً:

ـ ألم أقل دائماً، أن النساء والأطفال لاينبغي أن يأخذهم المقاتلون في الحسبان!

ـ لاتنسَ أني لست الوحيد صاحب أهل في القلعة، رد عليه أبو سراقة ـ وكان واضحاً أنه يلمح إلى ابنتي الحسن.

زمّ الداعي ابراهيم شفتيه غاضباً.

ـ دعوني أسدي إليكم نصيحة رائعة، قال الحكيم ضاحكاً. لنضع النساء والأطفال على ظهور الجمال والبغال ولنرسلهم إلى ميتسوفر. وما على القافلة إلا العودة إلينا محملة بالمؤن الضرورية. الأمر الذي يعني أننا أصبنا ثلاثة عصافير بحجر واحد: سنقلل عدد الأفواه الجائعة في القصر، وسنرفع عن كاهلنا همّ ذوينا الثقيل، ثم إن القافلة ان تقطع نصف الطريق سدى.

ـ فكرة ذكية، أقرّ أبو علي وهو يسجل الاقتراح على لوحه الصغير.

وسرعان ماانخرط الجمع في نقاش حام. فتبادلوا الرأي حول الأشياء التي مازال القصر يفتقر إليها، وتجادلوا حول توزيع المهام المتوجبة على كل واحد منهم. ولم يبق أحد إلا وأدلى بدلوه في أصغر تفاصيل ذلك الأمر.

وفي نهاية المطاف، فضّ أبو علي الاجتماع. وأمر قائد القلعة بأن ينتظر صدور الترتيبات النهائية، ثم انطلق على عجل لملاقاة الحسن في قمة البرج.

أخذ الحسن من الوقت مايكفي ليستوضح من ريس أصفهان السابق حول التغييرات التي حصلت في البلاط والتي تبرر القرار العجول للسلطان. وكان حتى ذاك الوقت على معرفة قريبة بدوائر الحكم حيث كان تاج الملك، وزير السلطانة الشابة توركان خاتون يؤدي له دور المخبِر. وما حدث أن السلطان قد جعل باركياروق ابنه الأكبر من زوجته السابقة الخليفة الشرعي له على العرش. كان شاباً في العشرين من عمره، فرغ لتوه من إخضاع فريق من الأمراء المتمردين أثناء حملة على طول الحدود الهندية. وقد استغلت السلطانة الشابة غيابه لتحاول أن تؤمن لابنها محمد، ابن الأربع سنوات، خلافة عرش إيران. وكان نظام الملك من أشد المعارضين لهذا المشروع. فكان السلطان يخضع تارة لتأثير وزيره القديم، وتارة أخرى لسحر زوجته الشابة الجميلة. وظن الوزير الأكبر أن الخليفة وكل شيوخ السّنة يدعمونه بما يكفي من القوة. بينما أيد السلطانة العديد من أعداء نظام الملك، وعموماً كل أولئك الذين يتوقون إلى رؤيته مهيض الجناح. وحتى يتمتع فريق السلطانة بثقل مواز لثقل شيوخ السنة، سعى وزيرها الخاص إلى عقد صلات مع الموالين لعلي وعلى رأسهم الحسن بن الصباح. وكان هذا الشقاق في البلاط بمثابة هدية على طبق من فضة لسيد آلموت. وقد أكد للسلطانة أن أتباعه سيدعمون قضيتها في إيران كلها، وتعهد تاج الملك أمامه بإقناع الجميلة توركان خاتون بأن تمارس كل الضغوط اللازمة لتهدئة السلطان، الذي قد تدفعه نجاحاته

العسكرية الجديدة في شمال البلاد إلى اتخاذ مبادرات لم يستعد ابن الصباح بعد لمجابهتها.

خلال عامين برّت السلطانة ووزيرها بعهدهما. وحينما ضغط نظام الملك على السلطان ليتدخل ضد الإسماعيليين، بذلت السلطانة ووزيرها كل مابوسعهما ليقللا من الخطر الذي تمثله هذه الحركة، وادعى كلاهما أن مخاوف الوزير الأكبر ماهي إلا ثمرة كرهه الشخصي للحسن بن الصباح. وماكان ليُطرب السلطان أكثر من هذا الكلام. إذ أنه بقدر ما يميل إلى نظام الملك في كل ما يتعلق بخلافة العرش كان ميالاً إلى التساهل مع السلطانة ووزيرها فيما يخص الإسماعيليين.

وهكذا نقل الريس أبو الفضل للحسن أخباراً بدا أنها تقلب الأوضاع بشكل معقد. أخبار تأتيه مباشرة من فم مبعوث ميتسوفر إلى بلاط أصفهان... فقد علم نظام الملك أن حسين القيني قد اعتزم حشد قواته حول قلعة زور غامبادان، بعد أن أثار باسم الحسن كل خوزستان ضد السلطان. وكان لديه ثمة مايدعوه إلى الخوف. إذ أن ثمة حساباً ثقيلاً يربطه مع الحسن، وهذا ماحثه على أن يقوم بمحاولاته الأخيرة لدى السلطان. لقد أفقد في السنين الخوالي، كل اعتبار للحسن لدى سيده ملتجئاً إلى المكر، فصوره محتالاً يفتقر إلى أدنى قدر من الكفاءة، وأنه يعمل رغم ذلك على استبعاده، وهو وزير البلاط، مستخدماً الدجل الخسيس. سخط السلطان، فكان على الحسن مغادرة أصفهان في الليلة ذاتها. إلا أن السلطان ومن يومها اعتقد اعتقاداً خاطئاً أن نجاحات الحسن لاينبغي أن تُحمل على محمل الجد. فكان لابد للوزير الأكبر أن يعترف أنه في الماضي قد حطّ من اعتبار الحسن لدى شخص السلطان مستخدماً حججاً لاأساس لها، وأن زعيم الإسماعيليين هو في حقيقة الأمر رجل قوي وخطر. ولما سمع السلطان مقالته، شحب وجهه غضباً وحنقاً ودفع بقدمه العجوز الراكع النادم الذي انسحب دون أن ينبس بكلمة إلى جناحه الخاص. وأصدر العاهل بعد فترة قصيرة أمراً ينص على أن نظام الملك لم يعد الوزير

الأكبر وأن وزير السلطانة سيخلفه مؤقتاً. وفي الوقت ذاته تلقى نظام الملك أمراً محتماً بأن عليه هزيمة الحسن في أقصر وقت، وأن عليه تقويض الحركة الإسماعيلية نهائياً. واتضح منذ ذلك الحين أن السلطانة ووزيرها قد تخليا عن حليف الأمس، فقد تم إقصاء خصمهما اللدود ولم يعودا بحاجة إلى عون أحد ليوطدا نهائياً هيمنتهما على السلطان.

وبعد ساعات من الهياج والاضطراب، سافر السلطان إلى بغداد مع جميع أفراد بلاطه ليزور أخته وصهره الخليفة، وفي رأسه مخطط على قدر من الأهمية: إقناع هذا الأخير بأن يجعل الابن الذي أنجبته أخته ـ هو السلطان من أصل تركي ـ لأمير المؤمنين وريثاً للخلافة.

حينما عاد أبو علي حاملاً تقريره، كان الحسن قد استخبر عن جميع تفاصيل الدسائس الأخيرة في بلاط أصفهان. وأراد الآن أن يعير شديد اهتمامه لآراء قواده. وما أن انتهى الداعي الكبير، حتى نهض الحسن وأخذ يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً، مستعرضاً الموقف في ذهنه، مقلباً الحلول التي قدمت إليه. والتفت أخيراً نحو أبو علي قائلاً:

ـ خذ لوحك واكتب!

اتخذ الداعي الكبير في جلوسه وضع الكاتب، واضعاً لوحه الصغير على ركبته اليسرى ورفع قلمه.

ـ إني جاهز، يابن الصباح.

تسمر الحسن إلى جانبه، حتى يستطيع القراءة من فوق كتفه، وشرع يملي عليه أوامره مرفقة بكل التوضيحات اللازمة:

ـ فيما يخص استقبال الفرسان الأتراك، قال مستهلاً كلامه، فإن عبد الملك على صواب؛ لاينبغي أن نستسلم بسرعة لحصار القصر. بل سنفاجئهم في مكان مكشوف نختاره ونشتت شملهم. ولأجل هذا، علينا أن نحرص على أن يرسل إلينا ميتسوفر في الموعد المحدد تعزيزات جنوده. وأنت، أبو علي، ستقوم بقيادة الجيش الذي سيستقبل

طلائع السلطان. وسيتولى مينوتشهر الدفاع عن القلعة. وهذا أمر سيسبب له الإزعاج قليلاً، إذ أنه يحب أرض المعركة التي لايضن فيها المرء بدمه، لكننا بحاجة إلى كفاءاته لتكون القلعة على أهبة الإستعداد لكل طارىء... ثم من الأهمية بمكان أن نتخلص من الأفواه غير النافعة وكل مالاطائل منه. وعلى عبد الملك أن يجعل مافي أجنحة الحريم من نساء وأطفال على ظهور الجمال والبغال قبل حلول الليل: أريد أن تغادر القافلة بعد صلاة العشاء مباشرة. إن ميتسوفر رجل طيب القلب وعليه تحمل هذا العبء الحي طوعاً أو كرهاً. ويجب فضلاً عن ذلك أن ينطلق رسول في الحال إلى الري ليعلمه بما ينتظره: إذ عليه أن يجهز على جناح السرعة المؤن التي ستعود بها القافلة وعليه أن يرسل إلينا أيضاً على الفور كل الجنود الذين يستطيع وضعهم تحت تصرفنا. وأن يستخدم النساء والأطفال في العمل، بغية كسب الوقت... وأنت، ماذا تود أن تفعل ياصديقي أبو الفضل؟

ونظر إلى الريس بابتسامة خفية.

ـ سأهرب في الساعة التي ستنطلق فيها قافلة عبد الملك، أجاب الآمر السابق. فأنا لاأريد وإن جمعت لي الدنيا بحالها أن أجد نفسي في هذه المصيدة إذ ينقض عليكم جيش السلطان. نصائحي ونصائح ميتسوفر لم يؤخذ بها. وقد أديت واجبي؛ ولم يبق إلا الفرار مادام الأوان آن.

ـ يناسبني قرارك كثيراً، قال الحسن ضاحكاً. إن عدد رجال حرسك كاف لحماية القافلة، وبذلك سيكون بمقدور عبد الملك ألا يأخذ معه إلا حفنة من الرجال. أما بالنسبة لطريق العودة فإن ميتسوفر سيرسل بعضاً من رجاله لحراسة القافلة وسيكون ذلك كافياً. وأحسب أنه سيعتني أيضاً بمن نرسله له من نساء حريمنا اللطيفات.

ثم وجه حديثه مجدداً إلى أبو علي قائلاً:

ـ ليذهب رسول في الحال إلى رودبار حاملاً إلى بوزروك أوميد أمراً بأن يأتي قبل كل شيء لينضم إلينا في الموت. فأنا بحاجة إليه. ومما يؤسفني أن خوزستان بعيدة جداً وأن حسين القيني لايستطيع أن

يقطع طريقها خلال الوقت المتبقي أمامنا. لكن هو أيضاً ينبغي أن يكون على علم بما يجري. إذ ستقع أمور هنا تُذهل منها الأجيال القادمة...

كان الحسن حينما يستغرق في أفكاره، يترك انطباعاً أنه يعيش نوعاً من الضحك الداخلي. وبعد فترة صمت قصيرة، توجه نحو الريس مخاطباً:

ـ يبدو لي أنك تحسبني على الدوام رجلاً أحمق، كحال أيام أصفهان البعيدة. فأنت ترى جيشاً من ثلاثين ألف رجل يسير نحونا، نحن الذين لانزيد عن حفنة من الرجال. لكنك لاتبصر جموع الملائكة التي تسارع إلى نجدتنا والتي ترعانا كما رعت في الماضي النبي محمد وأقرباءه، في معركة بدر.

ـ إنك تمزح، وتمزح على الدوام! أجاب أبو الفضل وهو يبتسم ابتسامة لاذعة ـ فقد كان يغيظه بعض الشيء أن الحسن مازال يتهكم عليه في مثل هذه الظروف.

ـ لا، أنا لاأمزح أبداً، ياصديقي العزيز، قال الحسن جزلاً. لنقل إني أتكلم عن شيء من الخيال. وسأخبرك أمراً: إني أعدّ لك مفاجأة، مفاجأة لن تصدق أمامها ماتراه عيناك وماتسمعه أذناك. أريد أن أريك أية معجزة يستطيع أن يحققها الإيمان.

ثم تابع إملاء توجيهاته، وبخصوص أبي علي، جزم رأيه قائلاً:

ـ لتخبر على وجه الدقة كل امرىء بالمهام التي أوكلتها إليه. ولتختر بنفسك المبعوثين وحرر الأوامر إليهم بسرعة. يجب أن ينطلقوا في الحال. وليُحضر عبد الملك إليّ ابنتي قبل المسير. وعندما تفرغ من ذلك، اجمع الجنود وبلغ الرجال أن السلطان قد أعلن الحرب علينا. وأخيراً أصدر أمرك إلى المريدين بأن يستعدوا، ففي صباح الغد الباكر سيبدأ امتحانهم. وأريد أن يبلوا فيه بلاء حسناً: هددهم إن لزم الأمر بحرمانهم من التكريس إن هم تهاونوا فيه. وفي المساء، اجمعهم في قاعة الصلاة وكرسهم كلهم فدائيين. ولتكن تلك اللحظة الأكثر ندرة، والأكثر أبهة في حياتهم كلها. وكل ذلك على غرار ماأتيح لنا أن نشاهده في القاهرة... هل هذا واضح؟

ـ كل الوضوح، ياابن الصباح.

أمر الحسن العجوزين بالانصراف. وبعد ذلك تمدد على وسائده مستعرضاً القرارات التي اتخذها منذ قليل. وحينما تأكد له عدم نسيانه أمراً ذي بال، استسلم لأهدأ غفوة يحلم بها إنسان.

كان الجنود ينتظرون تحت أشعة الشمس الحارقة. وفي استطاعتهم رؤية رؤسائهم يدخلون جناح القائد الأعلى؛ ولايخرجون منه إلا بعد فترة طويلة. وكان من الصعب على هؤلاء الجنود أن يكتموا مللهم.

أما المريدين، فقد وقفوا في رتلين أمام ثكنتهم، مستقيمي القامة كأشجار السرو، محدقين أمامهم. كان شرف اختيارهم لاستقبال رجل ذي مرتبة عالية فيما مضى، مازال يثير فخرهم؛ لكنهم هم أيضاً بدأ صبرهم بالنفاد.

وأول من قطع خيط الصمت سليمان إذ قال:

ـ أريد أن أعرف ماذا يدور. فربما ننتهي عما قريب من هذا الأمر اللعين...

ـ يخيل إلي أنك تريد لحية حتى قبل أن ينبت لك زغبها. قال يوسف مستهزئاً.

وسرى الضحك في الرتلين.

ـ أشعر، رد سليمان، أنك تخشى على شحم بطنك من الذوبان. هل خوفك سيقع لدى سماعك قرع الطبل أم صوت البوق؟

ـ فضولي شديد لمعرفة من الذي سيكون المقاتل الأول أمام العدو.

ـ أنت دون شك، أليس كذلك؟... لكنك وبساقيك الطويلتين ستتمكن من العدو سريعاً، لذا عليك أن تكتفي، في اللحظة الحاسمة، باللحاق بي...

ـ توقفا عن الشجار، قال ابن طاهر متدخلاً، فأنتما لم تقتلا بعد الدب...

ـ لو أن بمقدوري التحول إلى ذبابة، لاستطعت سماع مايدور من أحاديث بين القادة، قال عبيدة حالماً.

ـ وكم مرة أيضاً تريد أن تتحول إلى ذبابة حين يظهر العدو، قال سليمان متهكماً.

ـ إن كان هناك لسان لاذع خليق بهزيمة العدو، فستكون أنت أول الأبطال، قال عبيدة هازئاً، وسترجف أعمدة عرش إيران منه!

ـ وأنا أعرف أيضاً واحداً اسمه عبيدة سيرتجف يوماً أمام قبضتي، قال سليمان مهدداً.

مرّ العريف أبونا أمامهم راكضاً. وقال لهم بصوت منخفض:

ـ يبدو أن الأمر سيستعر، ياصبيتي الصغار. فجحافل السلطان تسير نحونا.

صمت الجميع، وشعروا بقلق مبهم يجتاح بطونهم الخاوية، ليتحول بالتدريج إلى حماس وفرح متوحش.

ـ وأخيراً، في نهاية المطاف!... صاح سليمان ـ وبدت صيحته أنها من أعماقه فعلاً.

نظروا إلى بعضهم البعض. كانت أعينهم متقدة ووجناتهم ملتهبة. ومن حين لآخر كان فرد منهم يبتسم. وأخذت مخيلاتهم تتقد: استشفوا أفق الأعمال البطولية... أنجزوا المهام المستحيلة... كُللوا بالغار... بلغوا مراقي الخلود...

ـ عجباً، ألا ينتهي هذا الانتظار! قال سليمان غاضباً ولم يعد يطيق الوقوف في مكانه. فليأمرونا على الأقل بامتطاء دوابنا وقتال المارقين!...

اجتاز أبونا ورجلان برفقته الفناء؛ كانوا يمسكون بشكائم ثلاث دواب: فَرَسان أسودان وحصان أبو علي الصغير.

همس أحدهم:

ـ سيتكلم سيدنا.

فسرت همهمة في الصفوف.

ـ ماذا؟ من سيتكلم؟

ـ سيدنا.

ـ من قال هذا؟ الحصان الأبيض لأبي علي. وأحد الحصانين الأسودين للقائد.

ـ ولمن الحصان الثالث؟

أمام مدخل القصر، جاء حارس وتسمر رافعاً سلاحه. خرج الداعي الكبير والقادة الآخرون من الجناح. ركب أبو علي والقائد والداعي إبراهيم الأحصنة التي كانت في انتظارهم. وانضم القادة الآخرون إلى فرقهم؛ وقف كل منهم على رأس رجاله، آمراً إياهم أن يلتفتوا برؤوسهم نحو قصر القائد الأعلى.

سار أبو علي ورفيقاه بجيادهم حتى حافة السطح الأعلى؛ ثم رفع الداعي الكبير ذراعه إشارة منه لالتزام الهدوء... وفي الحال عمّ الساحتين السفليتين صمت كصمت القبور. وارتفع الداعي الكبير بخفة على مهمازيه. وصرخ بصوت عال:

ـ أيها المؤمنون الإسماعيليون! باسم سيدنا وقائدنا الأعلى! إن ساعة الامتحان والفصل قد أزفت. سلاحكم في أيديكم، برهنوا على إخلاصكم، وعلى الحب الذي تحملونه للشهداء الأبرار ولمرشدنا. أيها المؤمنون الراشدون، إن الجلاد ابن الكلب أرسلان طاش، وبأمر من السلطان يسير لقتالنا؛ على رأس جيش ضخم؛ وهدفه القضاء علينا. وستدوي بعد بضعة أيام، أبواق فرسانهم أمام آلموت وسيرفرف علم الكلب العباسي الأسود فوق قلعتنا. ولأجل ذلك آمر، باسم سيدنا، ألا يترك أحد منكم من الآن فصاعداً، ليل نهار، سلاحه. ومن يخالف هذا الأمر سيعتبر متمرداً وسيقتُل. عندما ينطلق صوت البوق، عليكم جميعاً وفي الوقت المراد أن تكونوا في مكان تجمعكم. وسيقوم رؤوسائكم بإعطائكم التعليمات المفصلة...

ثم أدار لجام فرسه ونظر صوب المريدين. وتوجه إليهم بالكلام قائلاً:

ـ أنتم يامن استعدت نفوسكم للفداء، أطيعوا أمر سيدكم! وفي الغد

ستدعون لخوض الامتحان. ومن يجتازه بنجاح سيكرس في المساء نفسه. وسأهيب بكم بهذا النداء: لتتأهب أرواحكم فلحظة التكريس ستكون بالنسبة لكل واحد ذروة حياته كلها.

واستدار مجدداً نحو حشد الجنود. ودوى صوته في الموقع كله:

ـ أيها المجاهدون في سبيل القضية الإسماعيلية! ليكن وعد الأنبياء أمام أعينكم. قاتلوا كالأسود. فالخوف لاينجي أحداً من الموت! لاإله إلا الله! محمد رسول الله! ولتأت إلينا أيها المهدي!...

اجتاحت المريدين ريح اهتياج كما لو أن صاعقة نزلت عليهم. كان يوم الامتحان العظيم أمامهم... ولم يستعد له أحد إلى الآن. عادوا شاحبي الوجوه إلى قاعاتهم وهم ينظرون إلى بعضهم بعضا من موَق الأعين.

ـ سننقض اليوم على السلطان! صرخ سليمان. لانعرف شيئاً وبالتالي، أفضل مانفعل أن نقرّ أننا مجرد جنود بسطاء.

ـ نعم، سنقرّ جميعاً بذلك، وليفعلوا بنا بعدئذ مايشاؤون، قال عبيدة مؤيداً.

كان يوسف الرعديد الأكبر بينهم. انتظر وهو يمسح باستمرار عرق جبينه، أن يبرق أمل هدنة رغم كل مابدا.

ـ هل سيكون أمراً مهولاً حقاً؟ سأل وعلامات الاضطراب بادية عليه.

ـ سيلبسك الفشل من رأسك حتى أخمص قدميك، ضحك سليمان ساخراً.

تنهد يوسف بحزن وغطى وجهه بيديه.

ـ لكن مالعمل الآن؟ سأل نعيم.

ـ الق بنفسك في شاه رود. هذا أفضل شيء تفعله، قال سليمان متهكماً.

تكلم حينئذ ابن طاهر قائلاً:

ـ هيا، هيا ياأصدقائي! أتعتقدون أن سيدنا قد اختارنا مريدين ليحط من مرتبتنا فيما بعد إلى مرتبة الجنود البسطاء؟ مع ذلك فنحن تعلمنا هنا اثنين أو ثلاثة من الأمور الصغيرة. بالنسبة لي، سأذهب من دوري لأدس أنفي في مدوناتي وأحاول أن أراجع قليلاً كل الكلام المتراكم. وأقترح عليكم أن تفعلوا الشيء نفسه.

ـ إذن قدم لنا المشورة، واقرأعلينا شيئاً مما لديك! قال المريدون مستحسنين رأيه.

دعاهم ابن طاهر إلى اللحاق به على السطح. جلسوا على الأرض، وألواحهم الصغيرة ومدوناتهم بأيديهم، وابن طاهر يطرح عليهم الأسئلة؛ كان يحاول أن يبين لهم باذلاً كل مابوسعه ماصعب عليهم. وبهذا الأسلوب أخذ قلقهم يتلاشى. ومن حين لآخر، كان هذا المريد أو ذاك يرتجف حين يفكر باليوم الذي ينتظره. وهو اليوم الذي شعر الجميع إزاءه بقلق مبهم. والشيء الغريب حقاً أن أحداً لم يعد يفكر في جحافل العدو الذي كان يقترب.

في الطرف الآخر من السطح السفلي، كان صف كثيف من شجر الحوَر والسرو يخفي جناح الحريم الواقع إلى يسار البرج، والمجاور لأبراج الحمام. انقض عبد الملك مثل شوحة وسط الأطفال والنساء، وأمرهم بالإستعداد للرحيل الفوري. أعقب أمره صياح، وصرخات ثاقبة، ونحيب، وخطوات مذعورة. في حين كان الحراس الخصيان يشاهدون كل ذلك بلامبالاة وهدوء، إلى أن استعجلهم الداعي لمساعدة النساء في توضيب الأشياء. وفي هذه الأثناء، ألقى حوالى عشرة من رعاة الإبل البرادع على البغال والجمال الواقفة أمام الجناح. ثم وصل أخيراً المرؤوسون والدعاة ليودعوا نساءهم وأطفالهم.

كانت لأبي سراقة زوجتان في القصر. الأولى امرأة قصيرة في مثل عمره، هرمة وثرماء؛ أنجبت له ابنتين تزوجتا في نيسابور وكان متعلقاً بها منذ شبابه، وبحاجة إليها حاجة الطفل لأمه. أما الثانية فكانت أصغر سناً، وله منها صبي وبنت رباهما في حريمه برفقة ابنتي الحسن. وأحب أيضاً هذه المرأة بحنان، وإذ سترحل اليوم، أدرك فجأة

إلى أي حد سوف يفتقدها. وشق عليه أن يضبط انفعاله بعض الشيء... لكن لايليق به أبداً أن يدع مشاعره تظهر للعيان...

أما الحكيم فكانت امرأته عجوزاً مصرية. اصطحبها معه من القاهرة. ولم تنجب له أطفالاً، وكانت نساء الحريم يتهامسن عليها أنها كانت قبل زواجها تعيش حياة البغاء. وكان يروق للطبيب العجوز أن يمتدح الجمال المصون بأعجوبة رغم عاديات الزمن. ويلعن بنفسه عبوديته لها وهيمنتها عليه... لكن وفي كل مرة تتوقف فيها قافلة في القصر، لم يكن ليتوانى عن شراء بعض الهدايا لها رجاء إسعادها. وكانت عجوز حبشية تحمل عن تلك السيدة اللطيفة كل أعباء البيت. أما هي فلم يكن لها هم إلا الإسترخاء فوق الأرائك، والتزين ولبس الحرير والاستغراق في أحلام اليقظة طيلة النهار...

أما القائد مينوتشهر الذي لم يكن له إلا امرأة واحدة في القصر والتي أوكل إليها العناية بأبنائه الثلاثة من زوجتيه السابقتين، فقد اكتفى بوداع خاطف لجميع أهله. فقد خشي فعلاً أن يغلبه التأثر إن هو تريث أكثر من اللزوم.

بعدئذ، استأذن الرجال الذين لهم أهل في القلعة بالانصراف وعادوا إلى واجب الرجال. واستغل أبو سراقة والحكيم هذه المناسبة ليتبادلا بضع كلمات:

ـ سيبدو أمامنا القصر اليوم خاوياً تماماً، تنهد الأول.

ـ ينبغي أن أمدح أولئك الحكماء الذين أكدوا أن مسرة صحبة المرأة، مع الطعام والشراب، لاتزال الخير الوحيد الذي يستحق عناء السعي في هذه الحياة، قال اليوناني مزايداً. فعبّر الداعي عن ملاحظة إذ قال:

ـ ورغم هذا فقادتنا ذوو المراتب العالية ممتنعون عن ذلك.

مطّ الطبيب شفتيه في استهزاء.

ـ أنت تتكلم عن الأمر وكأنك تلميذ صغير.

وأمسك بذراع أبو سراقة ووشوش في أذنه قائلاً:

ـ وماذا تحسب أن أسيادنا يخفون هناك في هذه الجنائن خلف القصر؟ أتقول ربما مجموعة من القطط الصغيرة؟ قل هذا لغيري، قل هذا لغيري!... سيكونون حمقى فعلاً إن هم لم يستفيدوا على أفضل وجه. نحن، كلانا، لم نذق بالتأكيد هذا الصنف من الأوز السمين الذي يُربى هناك، بعيداً عن أعين المتطفلين.

توقف أبو سراقة وبدت عليه علامات التفكير.

ـ لا، أنا لاأوافقك في هذا، قال بعد زمن. أشك أن أشياء تدبر هناك، خلف هذا الجدار... لكني وفي جميع الأحوال مازلت واثقاً أن كل ذلك ليس لأجل تسليتهم، وإنما لصالحنا جميعاً...

ـ لك الخيار ألا توافقني الرأي، رد الطبيب وقد أظهر شيئاً من خيبة الأمل. لكني ألفت نظرك إلى أن السيد يحتفظ لنفسه دائماً بأفضل حساء.

ـ آه! كدت أنسى شيئاً، قال الريس أبو الفضل حينما استأذن الحسن بالإنصراف مساء ـ وتابع قوله وهو يغمز بعينيه بدهاء... نعم! أحضرت لك هدية حسب ذوقي، إنما اطمئن، فهذه المرة، لاعلاقة لها بدواء يشفي من الجنون. بل ربما تجلب لك السرور. ألم تحزر ماهي؟ ارتسمت على شفتي الحسن ابتسامة ارتباك. ألقى نظرة باتجاه الريس، ثم نحو أبو علي الذي وقف جانباً.

ـ حقاً. إني لم أحزرها.

ـ لنقل أنك لن تستطيع أخذ هذه الهدية المتواضعة إلا إذا خمنتها، قال الريس مازحاً. أنت غني بما فيه الكفاية، وتزدري الحلي. أما مايتعلق بشخصك، فأنت قليل المطالب، ماخلا شيئاً واحداً... فلتحزر الآن!

ـ ربما جلبت لي كتاباً ما؟

ـ لقد أصبت تماماً، ياحَسَني. فالأمر يتعلق بكتابة. لكن بقلم من؟

ـ وكيف أستطيع معرفة هذا؟ ربما كاتب قديم؟ ابن سينا(*)؟ أليس هو؟ إذاً أحد أترابنا؟ قد يكون الغزالي(**) أليس كذلك؟

ـ لا، لم أفكر أن أحضر لك كتابة بقلمه، قال الريس مازحاً. لقد بدا لي أنه بالغ التقى بالنسبة إليك... إن الذي أحتفظ باسمه قريب جداً منك.

ـ بالله عليك، لاأدرك مقصدك!

ابتسم أبو علي وقال متسائلاً:

ـ أأستطيع أن أحاول بدوري؟

ـ لقد اشتد فضولي: هيا فلتجرب حظك، وافق الحسن متخلياً عن محاولته.

ـ ربما يبدو لي أن الريس أحضر لك بعض كتابات صديقك العزيز عمر الخيام!

ضحك الآمر السابق ضحكة مجلجلة أكدت صحة الجواب.

ـ كيف لم أفكر بذلك! صاح الحسن واضعاً كفه على جبينه.

ـ اخترت لك أربع قصائد نسخها أحد أصدقائي في نيسابور. وقد تلقاها من فم عمر نفسه. أظن أنك ستسر بها.

فشكره الحسن قائلاً:

ـ مامن هدية أفضل منها يمكنك تقديمها! إني شاكر لك جزيل الشكر تلك المبادرة.

أخرج أبو الفضل من تحت صداره مغلفاً أعطاه لصديقه. فتحه الحسن وقرأ. وحينما رفع عينيه كانت نظراته حالمة.

ـ كم هذا غريب!... قال بعد برهة. ها أنا أتلقى، وفي يوم واحد، أنباء عن زميليّ الدراسة: نظام والخيام...

غير أن الخصي أعلن ومن غرفة الإنتظار عن وصول عبد الملك وابنتي الحسن.

(*) ابن سينا (980 ـ1037) الطبيب ـ الفيلسوف من بلاد فارس الإسلامية.

(**) محمد الغزالي (1058ـ 1111) عالم دين متصوف، ومؤيد للمذهب الصوفي.

ـ اذهب الآن، ياصديقي العزيز، قال الحسن وقد أحاط بذراعه كتفي الريس، اعتن بنسائنا وأطفالنا. وإن احتجت يوماً شيئاً ما. فتذكرني واعلم أن لك فضلاً علي.

ثم أشار لأبي علي فغادره العجوزان.

أزاح عبد الملك الستارة فتقدمت ابنتا الحسن خديجة وفاطمة وجلتين. وسرعان ما أخذتا مكانهما إلى الحائط، قرب الباب، بينما سار الداعي بخطى واثقة نحو القائد الأعلى.

ـ أحضرت ابنتيك، سيدنا.

طوق الحسن الصبيتين بنظرة ثاقبة.

ـ ماذا دهاكما لتظلا مسمرتين هناك مثل دجاجتين مذعورتين! اقتربا! زمجر الحسن مخاطباً إياهما. أرسلتكما أمكما بغرض إزعاجي حتى أتذكرها؛ هي تعرف جيداً أني لاأستطيع كبح غضبي لدى رؤيتكما... فليكن! سأستقبلكما إذن كما يأمرني واجبي كأب. والآن، يكفي هذا. ستتبعان ما تبقى من الحريم إلى الري، حيث ستكونان في رعاية ميتسوفر.

واستدار بعد ذلك نحو عبد الملك قائلاً:

ـ قل لميتسوفر ألا يعطيهما من الطعام إلا بقدر ماستكسباه من الغزل. وألا يأخذ في الحسبان كونهما ابنتيّ! وإن لم تكونا طائعتين، فبإمكانه أن يبيعهما بيع العبيد. وليحتفظ بنصف ثمنهما عوض نفقتهما، وليرسل إلي الباقي. هيا، لنسرع: أولاً إلى الصلاة، ومن ثم الرحيل!

انسحبت الصغيرتان كفأرتين، بينما استبقى الحسن عبد الملك لبرهة.

ـ سيعرف ميتسوفر تماماً كيف يعاملهما. إنه رجل حكيم ولديه هو نفسه موكب من الأطفال.

مع ذلك انتظرت الصبيتان أمام المدخل مجيء الداعي، وهما تبكيان.

ـ لكن له وجهاً جميلاً... قالت الصغرى مندهشة.

ـ لم لايحبنا؟ تأوهت الكبرى عبر دموعها.

اصطحبهما عبد الملك خارج البرج.

ـ لاتخشيا شيئاً، ياصغيرتي السُمانيتين، قال مخففاً عنهما، إن ميتسوفر ذو قلب من ذهب، ولن يطلب أطفاله منكما إلا اللعب والتسلية معهم... هيا، فلم يصبكما شيء يستحق الشكوى...

الفصل السادس

أحضر الطاهي العشاء، لكن الحسن كان مستغرقاً في أفكاره لدرجة أنه لم ينتبه إليه. سحب المشعل من قاعدته المكينة على الحائط وقرّبه من لهب مصباحه. وبحركة متمرسة وحذرة، أبعد السجادة التي تقوم مقام الباب، القابلة للاشتعال، ودلف إلى ممر ضيق حيث كان درج قصير يقود إلى سطح البرج. أفضى إلى المنصة جاعلاً المشعل على ارتفاع عال فوق كتفه لينير أمامه مساحة كافية. تنشق الهواء البارد النقي، اقترب من الحاجز، رفع الشعلة المتقدة ودوّمها ثلاث مرات من فوق رأسه.

وما لبثت إشارة مماثلة أن أضاءت من الأسفل في الظلمة. دوّم الشعلة ثانية علامة الموافقة، ثم عاد أدراجه إلى غرفته. أطفأ الشعلة غارزاً إياها في مطفأة أعدت لهذا الغرض؛ بعد ذلك تدثر بعناية في رداء عريض، أبعد سجادة أخرى كانت على الحائط المقابل هذه المرة، ليعبر باباً صغيراً، دخل إلى غرفة ضيقة أشبه بالكهف فرشت بالسجاد الناعم. التقط من الأرض مطرقة ثقيلة وضرب بها صنجاً معدنياً لامعاً: انتقل الصوت الحاد الذي جعل سلكاً خفياً يهتز، مباشرة إلى أسفل السور. وفجأة أخذت الحجرة الضيقة تتحرك وتغوص، حاملة الحسن معها، وذلك وفق مبدأ رافعة أُعدت بمهارة وحركتها أيد خفية من الأسفل. استغرق الهبوط زمناً. وكان القلق يطبق على صدر الحسن في كل رحلة من رحلاته الهوائية تلك. فمَاذا سيحل به لو وقعت قطعة من

الآلة، أو انقطع الحبل، قاذفاً إياه هو والمنصة الضيقة فوق الصخور التي تشكل قاعدة البرج؟ ماذا سيحل به لو راودت الرغبة أحد الزنوج، ممن يثق به كثيراً، بأن يتلف عن عمد تركيبة الآلة بغرض قتله؟ واحد من أولئك الرجال الذين قُتلت فيهم الرجولة بشكل مصطنع، يمكن أيضاً في فورة مفاجئة من التبصر، أن يسعى للانتقام لكرامته المهانة، موجهاً ضربة عنيفة من المقمعة الى رأس سيده. أجل، هؤلاء الحرس المرعبون الذين روضهم بنظراته كما لو أنهم ضوارٍ، وسحرهم بعزف الناي كما لو أنهم أفاعٍ، من المحتمل جداً أن يتمردوا. لقد بذل كل مابوسعه ليرسخ ثقتهم. فأضحوا لايطيعون أحداً في الدنيا غيره. وتصيب الرجفة كل من يمر أمامهم ـ حتى أبو علي لم يستطع أن يكبح قشعريرة قلق مبهم حينما كان يمر بهم في طريقه. كانوا السلاح الأعمى الذي بفضله استطاع أن يؤثّر حتى على دعاته وقادته الأكثر عتواً. وبوساطتهم، مارس على تابعيه من فوق ضغطاً رهيباً. ولكي يخضعهم من طرف آخر، لكن من تحت هذه المرة، سرعان ماتخذ فدائيين له! فأمسكهم كما لو أنهم بين طرفي كلابة. لم يسعَ أبداً إلى خداع نفسه: فالدعاة والقادة لايؤمنون بشيء، ولايلوب أغلبهم إلا على مصلحته الشخصية... لم يستطع أن يمنع نفسه عن مقارنة هذه الآلة البشرية بالرافعة التي تساعده على التحرك من الأعلى إلى أسفل برجه، كما في بئر. وفرضية واحدة مغلوطة وينهار الأساس كله. وخطأ واحد في الحساب وعمل حياته كله يلقى الدمار.

توقفت الآلة، وأضحت المنصة في سفح البرج. رفع الزنجي الذي كان يحرك الرافعة الستارة. ودلف الحسن إلى ممر بارد حيث كانت هبات ريح ناعمة ترعش لهب المشاعل فيصبح أشبه بعصافير فزعة. استدار نحو الخصي الذي كان يتبعه، وحدّجه بنظرة ثاقبة. فاستعاد مجدداً هدوءه، كامل هدوئه.

ـ أنزل الجسر! أمر بجفاء.

ـ السمع والطاعة، سيدنا.

أمسك الزنجي بعَتلة هائلة واتكأ عليها بقوة. أخذ جدار من

الجدران البارزة يتحرك، وترامى للأسماع هدير المياه. وبدا في اللحظة التالية بريق النجوم عبر الفتحة الضيقة، ثم ظهر حيز واسع من السماء. انخفض الجسر بهدوء فوق السيل، وكان في الطرف الآخر رجل ينتظر وبيده مشعل. ركض الحسن إليه، وارتفع الجسر خلفهما، مقفلاً المخرج الضيق، وعادت للقصر خاصيته: مكان مغلق تماماً.

ـ هل من جديد ياعدي؟

ـ كل شيء يسير حسناً، ياسيدنا.

ـ ستصحب مريم إلى المقصورة اليسرى، سأنتظرها هناك. ثم ستذهب إلى أباما وتأخذها إلى المقصورة اليمنى. إنما ولا كلمة تصدر من إحداهما إلى الأخرى!

ـ سمعاً وطاعة، ياسيدنا.

تبادل الرجلان ابتسامة خاطفة. ومشيا إلى أن وصلا قطاع شلالين حيث رُبط زورق اتخذا فيه مكانهما. جلس عدي في مكان التجديف. سلكا قناة ضيقة وسرعان ماأرسيا الزورق عند ضفة رملية. كان هناك ممر مائل يرتقي السفح المزروع أشجاراً جميلة وأدغالاً مزهرة: وفي الأعلى كانت مقصورة مزججة تلمع في الليل كلمعان قصر من البلور.

فتح عدي الباب وهرول ليشعل الراتنج في المصابيح الموضوعة في زوايا الغرفة الأربع. كانت انعكاسات النور على الماء تتلألأ فوق سطح الحوض الدائري الذي احتل وسط المقصورة. فتح الحسن صنبوراً فانطلقت فوارة قوية ترشق حزمتها السائلة التي كادت تبلغ السقف.

ـ ليس في نيتي أن أبدد وقتي في الانتظار، قال سيد الأماكن وهو يتخذ مجلسه فوق الأرائك الملاصقة للحائط. اركض مسرعاً وأحضر مريم ـ ثم مالبثت أفكاره أن استسلمت لصوت الماء العذب، الأمر الذي شده كثيراً لدرجة أنه لم يلحظ قدوم الفتاة التي حيته قائلة:

ـ السلام عليك، ياحفيد الصباح.

ارتعش لما تنبه لقدومها. ثم أشار إليها جزلاً بالاقتراب. وضعت

على الأرض سلة كبيرة مملوءة بالطعام والشراب، حلّت أزرار ردائها فانزلق عن كتفيها وجلست على ركبتيها أمامه. وإذ همت بتقبيل يده، سحبها بشيء من الارتباك.

ـ كيف حال تقدم الفتيات؟

ـ حسب توجيهاتك، ياابن الصباح.

ـ حسن! لكن زمن الدراسة انتهى. فالسلطان أرسل منذ قليل جيشاً لدحرنا؛ وبعد بضعة أيام سيعسكر أسفل القصر.

حملقت مريم فيه. وتسنى لها أن ترى ابتسامة خفية على شفتي الحسن.

ـ ومع هذا فأنت مطمئن جداً!

ـ وماذا أفعل غير ذلك؟ ماهو مقدّر لامناص من وقوعه. كما أني لاأرى سبباً يجعلك لاتسكبين لي من هذه الخمرة التي أحضرتها معك.

نهضت وملأت قدحين. لم يكن على جسدها سوى قميص نوم رقيق من الحرير الوردي. تأملها الحسن ملياً. كانت يدا الفتاة البيضاوان شبه شفافتين وسط النور، وهما تصبان الخمر من الجرة إلى الأقداح. كانت الكمال بعينه. كبح الحسن حسرة موجعة أحسها فجأة في صدره. كان يدرك أنه عجوز وأن كل ماعلى هذه الأرض قد جاءه بعد فوات الأوان.

قدمت إليه قدحاً، وشربا نخبيهما. لمحت لبرهة في عيني هذا الرجل الصلب بريقاً شابَهُ شيء من الدمع. استشفت من ورائه المعنى الخفي. ثم عادت الابتسامة المعتادة الساخرة لترتسم على شفتي الحسن...

ـ كان ينبغي منذ وقت طويل أن تتساءلي، قال، ماالنفع الذي أجنيه من هذه الجِنان الباذخة وتلك المقصورات المزججة، وماذا أنوي أن أفعل بكل أولئك الشابات اللواتي أمرت أن يتعلمن على نحو... ممم!... خاص جداً. إنك لم تسأليني أبداً في هذا الشأن، وثقى تماماً أني أقدر لك رزانتك.

أخذت مريم بين يديها يد الرجل اليمنى، التي كانت قوية ومع هذا بالغة النعومة. والتمست في عينيه نظرة وقالت له:

ـ في الحقيقة، ياحفيد الصباح، إن كنت لم أسألك، فإني تكهنت ولمرات عدة بمرامك.

ـ سأهبك مملكتي إن أنتِ خمّنت ـ نطق الحسن تلك العبارة وعلى وجهه ابتسامة ساخرة وعطوفة في آن معاً.

ـ وإن أنا حزرت الأمر فعلاً؟

ـ تكلمي وحسب.

ـ ألا تهيء هذه الحدائق لرجالك المخلصين، جزاء أوفى على تضحيتهم ووفائهم؟

ـ لقد ذهبتِ بعيداً، ياعزيزتي.

ـ لقد قلت لنفسي هذا. ولاأعرف شيئاً آخر.

كانت مريم مضطربة، وهذا أمر لم يفت الحسن أن يتلهى به خفية.

ـ لقد شكوتِ ذات يوم ـ أتذكرين؟ أن سأماً قاتلاً يعتريك من العالم، وأن مامن شيء يسترعي اهتمامك، كما أن الأمور لم تعد تبهجك. وشرعت حينئذ أحدثك عن فلاسفة اليونان وفلاسفتنا نحن، وأكشف لك أسرار علوم الطبيعة، وبواعث الإنسان المخبوءة، ودوافع أفعاله الخفية، وبينت لك بأقصى جهدي ما للكون من أجزاء. قصصت عليك أسفاري، مآثري الخائبة، حدثتك عن الأمراء، وعن ملوك فارس في الزمن الغابر، والسلاطين والخلفاء. وغالباً ماكنت أضيف أن عندي أشياء أخرى أود أن أقولها لك، لكن الوقت لم يحن بعد لذلك. وسألتك ذات مرة إن كنت مستعدة لمساعدتي على قلب حكم السلطان ملك شاه! ابتسمت وأجبت: «ولم لا؟» مددت لك يدي علامة قبولي لموافقتك. ربما ظننتِ أني كنت مازحاً. وها أنا جئت هذا المساء لأطلب منك أن تفي بوعدك.

نظرت مريم إليه نظرة استفهام. ولم تدر تماماً ماذا يقصد من هذا الكلام الغريب.

ـ أود أيضاً أن ألفت نظرك إلى الوجه الآخر للأشياء، ياعزيزتي. غالباً ماكنت تقولين لي أن ليس بمقدورك، بعد الذي مررت به في شبابك، أن تظلي مؤمنة ببعض الأمور. وأجبتك حينئذ أن حياة طويلة كرست للبحث عن المعرفة قادتني إلى النتيجة ذاتها. سألتك: إذاً، ماالمباح أمام رجل اكتشف أن الحقيقة، العصية المنال في أصلها، ليس لها وجود بالنسبة له؟ أتذكرين بم أجبتني؟

ـ بالطبع ياابن الصباح. أجبتك تقريباً بالآتي: إن الذي يكتشف أن مايسميه الناس بالسعادة، والحب، والفرح ماهو إلا خليط تقديرات زائفة، قائمة على فرضيات مغلوطة، هذا المرء لن يجد في قلبه حينئذ سوى الفراغ المخيف. والشيء الوحيد الذي يمكن أن يوقظه من ذلك الخبل أن يجازف بمصيره وبمصير الآخرين. والذي يقوى على هذا، فكل شيء أمامه مباح.

صفّر الحسن مسروراً.

ـ ياعزيزتي، حملت إليك الليلة إمكانية المخاطرة بمصيرك ومصير الآخرين... هل أنت راضية؟

حدقت مريم في عينيه وقالت بعد حركة خاطفة من المفاجأة:

ـ أتحاول أن تطرح عليَّ بعض الأحاجي؟

ـ لا. وإنما أحضرت لكِ بعض أشعار عمر الخيام التي أحب أن تقرئيها. لقد شاء القدر أن أذكر هذا الصديق العزيز هذا المساء بالضبط. وللمفارقة، فإن ريس أصفهان ـ الذي حدثتك عنه والذي حسبني في الماضي مجنوناً قدم لي اليوم بعض أبياته. وهو من جهة أخرى الرسول نفسه الذي أعلمني أننا سنتلقى زيارة العدو.

فتح المغلف وسلم مريم الأوراق. فشكرته قائلة:

ـ إنك تعمل دوماً على إسعادي.

ـ لا، لا، أردت فقط أن أمتع نفسي بسماع صوتك. تعلمين جيداً أني لاأميل بطبعي إلى هذا النوع من الرقة...

ـ هل أقرأ إذن؟

وأسندت رأسها إلى ركبة العجوز وشرعت تقرأ...

لاتشغل البال بماضي الزمان   ولابآتي العيش قبل الأوان
واغنم من الحاضر لذاته   فليس في طبع الليالي الأمان

ـ ياللحكمة! تنهد الحسن لما فرغت من القراءة. ما دمنا نخاف المستقبل، فالحاضر سيفلت من أيدينا. في أربعة أبيات... نظرة على العالم... لكن تابعي! لاأريد أن أقاطعك. وتابعت مريم:

ولى الدجى قم هات كأس الشراب   كأنما الياقوت فيها مذاب
واحرق من العود بخوراً وخذ   من غصنه المعطار واصنع رباب

ضحك الحسن ضحكة صافية، وعيناه رطبتان بالدمع.

ـ يعرف صديقي العزيز ماالسعادة على الأرض، صاح فرحاً. نشوة رقيقة منذ الصباح الباكر...

وقرأت مريم أربعة أبيات أخرى:

خير لي العشق وكأس المدام   من ادعاء الزهد والاحتشام
لو كانت النار لمثلي خلت   جنات عدن من جميع الأنام

ـ يالها من حقيقة بسيطة! صاح الحسن. لكن قدرنا أن نخوض الحرب ضد السلطان... وأن نحيك النوايا السوداء.

والتزم كلاهما الصمت برهة.

ـ أردت منذ قليل أن تبوح إلي بشيء ما، ذكّرته مريم أخيراً.

ابتسم الحسن.

ـ نعم، أود هذا، لكني لا أعرف كيف أشرع في ذلك لتفهميني على الوجه الأكمل. لقد حملت هذا السر في نفسي عشرين سنة، أخفيته عن الناس، وفجأة، حان اليوم وقت البوح به، ولم أعد أجد الكلمات...

- إن فهمي لك يتضاءل. أتقول إنك ومنذ عشرين سنة تحمل في نفسك سراً؟ وهل هذا السر يتعلق بالجنائن؟... بتقويض مملكة إيران؟... في الحقيقة إن كل ذلك يبدو غامضاً أمام عيني التعيستين...

- أعرف، إذ طالما لم أبين لك الأمر تماماً، فليس في مقدورك أن تفهمي. هذه الجنان، الصبايا، أباما وتعليمها، وأخيراً أنت وأنا.. باختصار قصر آلموت هذا وما يختبىء خلف... كل ذلك يدخل في نسيج خطة واسعة نقلتها من خيالي إلى عالم الحقيقة. وآن الأوان لتنكشف دقة مقدماتي المنطقية. إني بحاجة إليك، فنحن مقبلون على امتحان عسير. وبالنسبة لي لم يعد هنالك طريق للرجوع. يصعب علي أن أعبّر لك...

- إنك تأخذني على حين غرة دوماً، ياحَسَني. تكلم، فأنا أنصت إليك بملء شغاف قلبي...

- لتفهميني على الوجه الأفضل، سأعود بك إلى عهد الصبا البعيد... فكما تعلمين، ولدت في توز، لأب يدعى علي. وكان خصماً لبغداد ومذهبها، وغالباً ماكانت تُذكر تلك الأمور في المنزل. وبدت تلك النزاعات أمامي حول النبي محمد وخلفائه ذات غموض كبير وأصابتني بسحر غريب. لكن أكثر من أثار عاطفتي من مجاهدي الدين الإسلامي، كان الشهيد علي. فكل مايتعلق به، هو وأهله، بدا أمامي محاطاً بهالة من السرية المقلقة. لكن ما أثر فيّ أكبر تأثير، كانت تلك البشرى بأن الله سيرسل إلى الأرض بعد علي واحداً من سلالته له مقام «مهدي»»، والذي سيكون آخر وأعظم الأنبياء. سألت أبي، كذلك سألت أهلي، وأصدقائي، تحرقت لمعرفة العلامات التي سنتعرف بها على المهدي. وبدوا أنهم غير قادرين على إخباري بأي شيء على وجه الدقة. واتّقد خيالي، تارة أبصر المهدي بملامح هذا أو ذاك من المؤمنين المشهورين، وتارة أراه يحمل قسمات وجه فلان يعيش بيننا، حتى أني تساءلت في وحدة لياليّ إن كنت أنا نفسي المنقذ المنتظر! لقد كنت أتحرق، أتحرق إلى أبعد الحدود لأغوص حتى قرارة تلك العقيدة الذائعة الصيت...

- وفي أحد الأيام سمعت أن أحد الدعاة يختبئ في مدينتنا وأن

اسمه (أمير السراب) وقد عرف بإطلاعه على كل أسرار قدوم (المهدي). استعلمت عنه، فأخبرني ابن عم لي أكبر سناً مني، ولايناصر بوجه خاص قضية علي، أن هذا الداعي ينتمي إلى الملة الإسماعيلية التي يتصرف أتباعها في الخفاء تصرف السفسطائيين، والملحدين، وتصرف الزنادقة... حينئذ فقط دبّ الحماس فيّ. ولمّا أبلغ بعد العشرين من عمري. وعزمت أن أزور بنفسي ذلك الشخص، ولما جئته أمطرته بالأسئلة. أردت أن أسمع منه بالذات إن كانت حقاً العقيدة الإسماعيلية ماهي إلا إلحاد مقنّع... ثم ما أمر مجيء المهدي؟ شرع أمير السراب وبجدل فارغ لاينتهي يشرح لي، العقيدة الظاهرة للحركة الإسماعيلية. أكد لي أن علي هو الوريث الشرعي الوحيد للنبي محمد وأن ابن إسماعيل، محمد، الرجل الثامن في ذرية علي، سيرجع يوماً إلى الأرض حاملاً اسم (المهدي). بدا كل جداله حول الأشخاص بائس متواضع. إذ لا إشارة منه لسر خفي. عدت أدراجي إلى المنزل مستاء ساخطاً، عازماً على ألا أهتم بعد اليوم بنزاعات الدين، بل قررت على العكس، وعلى غرار معظم أترابي، أن أتحرى مسراتي بأسهل الطرق.

كان ذلك المسار سينجح دون شك، لولا أن قَدِم في إحدى السنين إسماعيلي آخر، هو أبو نجم السراج، إلى منطقتنا. ذهبت لملاقاته، والغيظ مازال يملؤني من سلفه الذي عجز عن أن يكشف لي ستار سرّ ما، سخرت منه ومن عقيدته ذات الجدال، والتي ألفيتها مضحكة حالها حال عقيدة أتباع المذهب السائد في بغداد. لم يعرف هو ولا أشياعه، وكنت مستعداً لأراهن على ذلك، أي شيء على وجه اليقين يخص قدوم المهدي.. ودأبوا على مخادعة المؤمنين المتعطشين للحقيقة... توقعت طيلة الوقت الذي أمطرته فيه بهذا الوابل، أن أراه يقفز من مكانه ويلقي بي خارجاً. لكن الرفيق أنصت إلي بهدوء. حتى أني لمحت ابتسامة رضى تلوح على شفتيه. وأخيراً ولما لم يعد بوسعي أن أتكلم أكثر، رد قائلاً: «لقد خضت الإمتحان على وجه رائع، ياصديقي الشاب. ودعني حتى أتنبأ لك بهذا: ستصبح يوماً داعياً أعظم شأناً من الدعاة كلهم. أجل، إنك أهل لتلقي العقيدة الإسماعيلية الحقة. لكن عليك أن تعدني بألا تبوح لأحد بشيء مما سأعلمك إياه، طالما أنك لم تكرس.» أصابتني

تلك الكلمات في الصميم. إذاً كنت على حق إذ ارتبت أن هنالك سراً ما. وبصوت مرتجف قطعت له الوعد الذي طلبه مني؛ ومضى بعدئذ في حديثه قائلاً: «إن قصة علي والمهدي ماهي إلا سراب نقصد به المؤمنين الذين يبجلون صهر النبي محمد ويكرهون بغداد(*) لكننا نشرح للقادر على الفهم، على غرار الخليفة الحاكم(**) أن العقيدة ناقصة بالضرورة وأن ليس بوسع أحد معرفة الحقيقة. وبالتالي فنحن لانؤمن بشيء... ونستطيع أن نفعل أي شيء.» كنت كمن ضربته الصاعقة. عقيدتنا موضوعة إذن وكل ماتعلمته حول الرسالة المقدسة للمهدي، تلك العقيدة الرائعة والمليئة بالأسرار المتعلقة بمجيء منقذ ما هي إلا حكاية لجموع البسطاء! أعترف أني لم أستطع أن أحبس صرخة سخط بدرت مني في الحال: «ولم إذن تخدعون الناس على هذا النحو!» فألقى علي نظرة قاسية وقال: «ألا ترى أننا أصبحنا عبيد الأتراك؟ وأن بغداد قد وقفت إلى جانبهم وأن السخط قد ملأ الناس؟ لأجل هذا اسم علي مقدس. نحن نستخدم هذا الإسم لنحرض الشعب ضد السلطان والخليفة. هذا كل شيء.» التصق لساني بحلقي. وركضت إلى المنزل كالمجنون. وألقيت بنفسي على السرير وأخذت أنتحب. فهاهو العالم الذي أخذني بسحره ينهار أمام عيني. ووقعت مريضاً. وظللت أربعين يوماً بلياليها معلقاً بين الموت والحياة. وأخيراً برأت من الحمى. واستعدت قواي، لكن رجلاً جديداً فيّ نهض إلى الحياة...

صمت الحسن غارقاً في أفكاره. فسألته مريم، التي كانت عيناها طيلة هذا الوقت تحدق في شفتيه:

ـ كيف حدث، يابن الصباح، أنك انضممت على جناح السرعة إلى هذه العقيدة. في حين أن المعلم السابق خيّب أملك كثيراً بها؟...

ـ سأحاول أن أشرح لك. لقد بذل الداعي الأول جهوده عبثاً ليقدم لي بعض الحقائق الواضحة كل الوضوح، والتي شعرت أن خلفها شيئاً ما يريبني. فلم تخفف من عطشي للمعرفة، وطموحي إلى حقيقة لايمكن

(*) أي مؤمنو العقيدة الشيعية.

(**) الحاكم بأمر الله (996 ـ1021): خليفة مصر الفاطمي الذي، وبتأثير من الإسماعيليين، ذهب إلى حد ادعاء الألوهية في شخصه.

بلوغها، كما اعتقدت، إلا ببلوغ معرفة رفيعة. بذلت جهدي لأستوعب تلك المبادئ الرائعة على أنها حقائق صحيحة، لكن قلبي رفض. وأقول أني لم أفهم أيضاً على الفور مارمى إليه معلمي الثاني. إنما في تلك المرة، ترك التعليم الذي تلقيته في أعماق روحي شكاً قوياً بأمر ما معتم ومفزع سيبلغ يوماً شعوري الواضح. أراد عقلي أن يرفض ذلك الشك، لكن قلبي، فجأة، تعلق به بحماس. حينما أبليّت من مرضي، عزمت على أن أتدبر حياتي بحيث أعمق تفكيري وأسمو بنفسي إلى أن أصل إلى معرفة تمكنني من فهم تأكيدات الرفيق وتكشف لي عن صحتها، أو تظهر لي سخفها. وقلت في نفسي: «ينبغي النظر إلى الحياة بعين الجد، والتثبت منها بالتجربة، في حال كانت تأكيدات الرفيق صحيحة» قررت أن أدرس وأن لاأغفل عن شيء يعرفه الناس. وسرعان ماسنحت أمامي الفرصة. ولم أستطع التزام الصمت. وهذه سمة خاصة في شبابي. إذ كنت أخوض مع من يريد سماعي في نقاش حول ما يعذب نفسي. وألم بأبي الخوف وهو الذي عُرف بموالاته السرية لعلي. وأملاً في أن يبعد عنه شكوك الهرطقة، أرسلني إلى نيسابور لأدرس على يد (موفق الدين). وتعرفت هناك على عمر الخيام الشهير، وبعدئذ تعرفت على ذاك الذي لم يكن بعد الوزير الأكبر نظام الملك...

«ليس ثمة أمر بالغ الأهمية ليقال عن المعلم الذي علمنا. كان ينقل عن العديد من المؤلفين ويحفظ القرآن عن ظهر قلب من أول سورة فيه إلى آخر سورة. لكن قطرة واحدة من علمه لم ترو عطشي... وترك لقائي مع زميليْ الدراسة الأثر الأكبر في نفسي. فقد ولد الوزير المقبل مثلي في توز وحمل نفس اسمي: الحسن بن علي. وكان يكبرني بثمان أو عشر سنوات وله باع طويل في العلوم، سيما في الرياضيات والفلك. لكن المشاكل الدينية وتحري الحقيقة لذاتها، كانا أمرين لم يلتفت إليهما البتة. وهكذا لمحت للمرة الأولى الهوة الفاصلة بين انسان وآخر. لم يسمع على الإطلاق أحداً يتكلم عن المعلمين الإسماعيليين المقيمين في توز! وبالطبع لم يتعرض أبداً لأية أزمة روحية أشرف بسببها على الموت. ومع هذا فقد كان بالغ الذكاء، يفوق بذلك متوسط الذكاء الذي ميز زملاءنا.

أما عمر فكان مختلفاً كل الاختلاف. كان من نيسابور وعُرف عنه أنه صبي مهذب هادئ. لكن حينما يكلمه أحد وجهاً لوجه، يكشف عن لون فكره الحقيقي: يسخر من كل شيء ولايؤمن بشيء. كان يستطيع ـ بشكل غريب ـ أن يبدو تارة صاحب نزوات، خفيف الظل إلى درجة أن تأخذك الرغبة في التفكه بكلامه ليل نهار، ثم تارة أخرى يظهر غارقاً في التفكير متجهماً. وكنا ننظر إليه أنا ونظام على أنه رجل خفيف الروح إلى درجة كبيرة. وكل مساء، كنا ثلاثتنا نجتمع في حديقة أبيه ونخطط معاً مشاريع المستقبل الكبرى. ومن حولنا يفوح عطر الياسمين، وترشف فراشات الليل رحيق الأزهار... ونحن تحت الأيك جالسون، نحيك خيوط مستقبلنا...

وفي أحد الأيام، وهو يوم أذكره كما لو أنه حدث مساء الأمس، تملكني فجأة حب الظهور، فاعترفت أمامهما أني كنت أنتمي إلى جماعة إسماعيلية سرية. وقصصت عليهما لقائي مع المعلمينْ وعرضت عليهما ما أعرفه عن العقيدة الإسماعيلية التي قدمتها لهما على أنها كفاح ضد الحكام السلجوقيين وخليفة بغداد، خادمهم. ولما تيقنت من دهشتهما رأيت من المناسب أن أعرض عليهما فكرتي الأثيرة: «أتقبلون ونحن أحفاد خسرو(*) في فارس الغابرة، أحفاد رستم(**) والفردوسي، أن ننضوي تحت راية لصوص الخيل في تركستان؟ فإن كان علمهم أسود اللون، فليكن علمنا أبيض. فليس هنالك ماهو أكثر خزياً من الاستكانة الذليلة أمام الغريب، وطأطأة الرأس أمام الهمجية.» لامست كلماتي مشاعرهما. «وماذا ينبغي علينا أن نفعل برأيك؟» سأل عمر.

ـ «علينا أن نحاول التسلق بأقصى سرعة ممكنة سلم المجد. ومن يصل أولاً عليه أن يساعد زميليه.» أعجبهما اقتراحي، ومهرنا اتفاقنا بوعد مهيب.

صمت الحسن واقتربت مريم منه بحنان وهمست متأملة:

ـ الحقيقة أن الحياة أشبه بحكاية.

(*) لقب الملك في الأسرة الحاكمة الساسانية، التي حكمت إيران قبل الإسلام.
(**) بطل شاه نامة الشهيرة (سفر الملوك) للفردوسي.

فتابع الحسن قوله:

ـ وأنا أيضاً، صنت خلال عشرين عاماً حنيناً في أعماق قلبي إلى حكايات طفولتي، كما صنت اعتقاداً بريئاً بقدوم المهدي، وإيماناً بالأسرار العظيمة لخلافة النبي محمد. لكن الجرح ظل على الدوام دامياً، من خيبة الأمل الأولى القاسية. وبدأت الحجج المؤيدة لمذهب اللاأدرية(*) بالتراكم. فعلي غرار أتباع علي دافع الجميع عن موقفهم، كما دافع أهل السنة أيضاً عن موقفهم. ويشعر المرء بالحماس ذاته لدى المسيحيين بجميع طوائفهم، واليهود، والبراهماتيين، والبوذيين، وعبدة النار، والوثنيين جميعاً عند إثبات صحة عقيدتهم. والفلاسفة على اختلاف مشاربهم يؤكدون بدورهم وجهة نظرهم، ويتنازعون فيما بينهم، فمنهم من يؤمن بإله واحد، وآخرون يؤمنون بآلهة عدة، وهناك من يذهب حتى إلى التأكيد بأن الله غير موجود وأن كل شيء وليد مصادفة محضة. أخذ إدراكي لرهافة حكمة الدعاة الإسماعيليين يزداد. فالحقيقة متعذرة البلوغ أمامنا، ولاوجود لها بالنسبة لنا. إذن ماالوجهة الواجب اتباعها؟ ومن أدرك أن ليس بمقدور المرء معرفة شيء، ولايؤمن بشيء، فإن كل شيء أمامه مباح، ويمكنه أن يتبع هواه دون خوف. فهل تكمن هنا حقاً المعرفة النهائية الممكنة؟ كان شغفي الأول أن أدرس وأن أستعلم عن كل شيء. ذهبت إلى بغداد، والبَصرة، والإسكندرية، والقاهرة. درست جميع جوانب المعرفة، والعلوم كافة: الرياضيات، الفلك، الفلسفة، الكيمياء، علم الطبيعة، التاريخ الطبيعي. وتعمقت في اللغات الأجنبية، لاحظت عادات الشعوب المجهولة، والعقليات الغريبة، وازداد قربي أكثر فأكثر من العقيدة الإسماعيلية... وكنت لاأزال في شبابي حينما بدأ أمر يقضني وهو أن السواد الأعظم من البشر رضي بالضلال، وتولع بعناء أرعن، وهام بالأكاذيب. وبدا لي أن من واجبي في هذا العالم أن أشرع في نثر بذور الحقيقة، وفتح أعين الناس، وتحرير البشرية من أوهامها وإنقاذها من المحتالين الذين رموا بها في الظلمات. كانت الحركة الإسماعيلية بالنسبة لي راية الكفاح ضد الكذب والضلال، أحسست أني أنا الذي أحمل المشعل الذي يضيء للإنسانية تخبطها الأعمى.

(*) اللاأدرية: مذهب ينكر قيمة العقل وقدرته على المعرفة.

ـ اسكتي! إن سيدنا سيهتم بنا. ومن الآن فصاعداً، كل عصيان سيكون عقابه الموت. وفي انتظارنا امتحانات عسيرة: يجب أن تكوني على علم بهذا. ولاينبغي إن سألك أحد أن تخبريه أين نحن ولامن نحن.

ثم قبلت وجنتيها وعادت إلى سريرها.

وفي الليل، لاهذه ولاتلك غمضت عيناها. أحست مريم وكأن جبالاً دكّت في رأسها، وكأن الكون استوىعلى حد سكين. ومن يدري إلى أي جانب سيميل في الأيام المقبلة؟

أما حليمة فقد اجتاحها رعب ممتع. فكل هذه الحياة أشبه بمغامرة عجيبة! فالأتراك طوقوا القصر، وسيدنا دافع عن الفتيات، وكل هذا دون أن يسمع أو يرى أحد شيئاً! ومع ذلك فمازال خطر مخيف يترصدهن. كم ذلك غريب: جميل وغريب!

الفصل السابع

في صباح الغد الباكر، امتطى الفتية خيولهم وغادروا القلعة بصحبة معلميهم. عبروا الجسر كل اثنين معاً في نظام كامل ثم دلفوا إلى المضيق. وعلى الرغم من سرعتهم، فقد كان تقدمهم في توافق تام. أما الذين كانوا إلى جانب السيل فوق خيولهم على بعد خطوتين من الهوة وهم اليوم فرسان ممتازون، فإن أياً منهم، ولو للحظة واحدة، لم يوشك على السقوط.

وعندما أصبحوا في الوادي، أوقفهم مينوتشهر في أسفل سفح ذي انحدار خفيف. كان الفتية يرتعشون بشكل واضح من التوتر المحموم، وانتقل قلقهم إلى دوابهم التي أخذت تصهل متبرمة. وسرعان ما انضم إليهم أبوعلي ممتطياً حصانه، يرافقه الداعي إبراهيم الذي تبادل بضع كلمات مع القائد، ثم انطلق بجواده إلى قمة الهضبة.

أطلق مينوتشهر أمراً، فتباعد الصفان على نحو سريع. ثم قاما بحركات صعبة معقدة بين كرّ وفرّ، وكل ذلك في صفوف متراصة ونظام كامل.

كان أبو علي على رأس الربوة، جاثماً فوق حصانه الصغير الأبيض الوبر، يراقب تلك المناورات ويبلغ الدعاة بملاحظاته:

ـ لقد دربهم مينوتشهر جيداً، أنا لاأنكر هذا. لكنني أتساءل إن كان هذا الأسلوب التركي يلائم جيداً مناطقنا الجبلية. لقد كنا في الماضي

يقدم لها الأساطير والترّهات. ولهذا تظل الحكمة دوماً في منأى عن الناس.» ـ «بيد أن محمداً أراد خير الناس.» ـ «أجل، أجل، لقد أراد خيرهم، لكنه أدرك أيضاً بلاهتهم التي يتعذر شفاؤها. والشفقة وحدها هي التي دفعته إلى أن يعدهم بالجنة جزاء مايقاسونه في هذه الدنيا.» ـ «ولم برأيك، سمح محمد بموت آلاف الرجال في سبيل عقيدته، المبنية على أسطورة؟» ـ «أعتقد لأنه أدرك أنهم قد يتذابحون على أية حال في سبيل بواعث أدنى. فأراد أن يؤمن لهم بطريقة ما شكلاً من السعادة على الأرض. وليصل إلى ذلك كلمهم عن أحاديثه مع الملاك جبريل... وإلا لما آمن به أحد!... ووعدهم بعد مماتهم بصنوف النعيم في الجنة... الأمر الذي جعلهم بجهد قليل شجعاناً لايقهرون!» ـ «يبدو لي، تابعت قولي حينئذ بعد برهة تأمل، أن مامن امرئ اليوم يسعى مسروراً إلى الموت على أمل وعد بدخول الجنة لاحقاً.» ـ «إن الشعوب تشيخ أيضاً، أجاب، وفكرة الجنة ذهب بريقها من عقول الناس ولم تعد تثير حماس الأيام الخوالي. كما لم يعد الناس يؤمنون بها إلا كسلاً، وخشية التعلق بأمر جديد.»ـ «أتظن إذاً أن النبي في أيامنا هذه، الذي يبشر الجموع بالجنة ليستميلهم إلى قضيته قد يخيب مسعاه.؟» فابتسم عمر قائلاً: «بل سيفشل حتماً، فالشعلة لاتحترق مرتين، ووردة التوليب الذاوية لاتزهر ثانية. إن الناس سعداء بهناءاتهم المتواضعة. فإن لم تملك المفتاح الذي يفتح لهم جنة وجودهم، فالأفضل التخلي عن أية فكرة في أن تصبح نبيهم».

«عندما سمعته ينطق هذه العبارة، أخذت رأسي بين يدي كمن أصابته الصاعقة. لقد عبَّر عمر بالمزاح عن فكرة جعلت روحي تتوهج. أجل، إن الشعوب تريد الخرافات والأباطيل، وتحب العمه(*) الذي تتيه فيه. شرب عمر قدح خمر. وفي الحال ولد مخطط في نفسي، أحسسته عظيماً، لامتناهياً، كما لو أن الناس لم تعرف شبيهاً له قط: اختبار العمه الإنساني إلى أبعد حدوده! واستخدامه لبلوغ أوج القوة فيصبح المرء مستغنياً عن بقية العالمين! تجسيد الخرافة! تحويل الأسطور

(*) العمه هو ضرارة البصيرة، بينما العمى هو ضرارة البصر.

ال، حقيقة، بحيث يتحدث التاريخ عنها مطولاً فيما بعد! وإنجاز تجربة ،ليمة مع الإنسان!

دفع الحسن مريم ووثب وثبةً هب فيها واقفاً. كان في هياج لم ، ، ه فيه قبلاً، شرع يركض حول الحوض كالمسعور، كما لو أن داخله ي تلك اللحظة شيء ما مخيف. حتى أن من يراه يحسبه مجنوناً. ساور الشك حينئذ مريم في مغزى كلماته. فسألته بصوت خائف:

ـ وماذا فعلت بعدئذ؟

توقف الحسن فجأة. وتمالك نفسه من جديد. وارتسمت ابتسامة لى شفتيه حملت السخرية والعبث معاً.

ـ ماذا فعلت بعدئذ؟ أخذ يردد. بحثت عن وسائل تحقيق الأسطورة. في نهاية المطاف جئت إلى آلموت. ودبت الحياة في الأسطورة، خلقت الجنة التي لاينقصها إلا زوارها.

نظرت إليه مريم كالمسحورة. وقالت له بهدوء:

ـ يبدو أنك مثلما كنت أتخيل...

ابتسم الحسن ابتسامة عابثة:

ـ إذاً من أنا؟... اسمحي أن أعبر عن نفسي بطريقة مجازية بعض الشيء: أنا حالم مخيف.

وإذا به يضحك ضحكة مجلجلة غريبة.

ـ إني مداهن دون ريب، قال مخففاً كلامه السابق أخيراً... هيا بنا! لقد اطّلعت الآن على مقاصدي، وحان الوقت لأعطيك توجيهات دقيقة. سيُقتل أي شخص من ساكني هذه الجنان يكشف عن نفسه للزائرين. لاتبوحي بأي شيء. ولن يكون لدي أي استثناء. أرجو أن تكوني قد فهمتني. ينبغي أن تُفهمي الفتيات أن عليهن ولبواعث سامية أن يتصرفن كما لو أنهن فعلاً في الجنة. هذه مهمتك في الوقت الحالي. استعدي؛ وتعالي مساء الغد وانتظريني مجدداً. والآن طابت ليلتك!

قبلها بحنان ثم انطلق بخطى سريعة.

كان عدي يقوم بالحراسة على الضفة، بالقرب من الزورق الذي سرعان ما اتخذ الحسن مكانه فيه، وأمر بصوت منخفض:

ـ إلى أباما!

كانت صديقته العزيزة تنتظره في مقصورة تشبه الأولى تماماً. لم تستطع الجلوس في مكانها، فتارة تراها ممددة بجلال فوق الأرائك، وتارة أخرى تهب واقفة مستسلمة لنفاد صبرها، فتشرع راكضة عبر الغرفة. كانت تنظر باستمرار إلى الباب، تكلم نفسها، تغضب، تقسم بصوت خافت، وتقوم بعروض مسرحية عنيفة مخاطبة متحدثاً وهمياً، وقد رافقت عرضها بحركات واسعة من ذراعيها. وفجأة أصاخت السمع، فقد اقترب الزائر. تدثرت بدثار الكرامة وخطت بضع خطوات نحو المدخل.

حينما لمحها الحسن، حبس بصعوبة ابتسامة ساخرة. كانت في أبهى حللها. وقد تزينت بالمجوهرات من رأسها حتى قدمها: رقبتها، أذنيها، ذراعيها، ساقيها، لم تترك موضعاً إلا وزينته. والتمع على الرأس تاج من الذهب تناثرت فيه الأحجار الثمينة. وعلى هذه الشاكلة تبهرجت منذ مايقارب الثلاثين عاماً، في كابول، عندما تعرّف الحسن في أثناء المهرجانات على أحد أمراء الشرق الأقصى. لكن شتان بين أباما تلك الأيام وأباما اليوم! فهو يحفظ ذكرى فتاة رائعة الأطراف، ممتلئة ورشيقة في آن؛ والآن أمامه هيكل عظمي يغطيه الجلد على نحو قبيح... بشرة ذابلة، قاتمة، مجعدة كالهمّ. وزينت وجنتيها المتهدلتين، وكذلك شفتيها، بلون أحمر فاقع. وحولت لون شعرها وحاجبيها وجفنيها إلى لون أسود ثقيل. بدت أباما للحسن صورة حية لتغير كل مخلوق من لحم وعظم.

قبّلت على عجل يد ضيفها اليمنى ودعته للجلوس بالقرب منها على الأرائك. ثم قالت له بنبرة عتاب:

ـ جئت من عندها. بينما في الزمن الماضي لم تكن تدع لي حتى وقتاً للجلوس.

ـ هُراء! قال الحسن وهو يطرف بعينيه تبرماً. لقد استدعيتك لأمور هامة. لندع الماضي جانباً، ثم مامن أحد يستطيع أن يخطفه منا.

ـ أتأسف عليه؟

ـ هل قلت شيئاً يشبه ذلك؟

ـ لا. لكن...

ـ لاأريد لكن! سألتك إن كان كل شيء جاهزاً؟

ـ كل شيء يسير حسب أوامرك.

ـ ستستقبل الجنائن ضيوفاً. أريد أن أفخر بكِ عظيم الفخر.

ـ حول هذه النقطة كن مطمئناً. فأنا لم أنس قط بؤسي في هذه السنين الأخيرة... هذا البؤس الذي نشلتني منه.

ـ حسناً، كيف تتطور أمور المدرسة؟

ـ بأحسن مايمكن فعله مع فتيات حمقاوات.

ـ حسناً.

ـ أرى من واجبي أن ألفت نظرك إلى أمر. إني لاأرى خصيانك أهلاً لثقة عالية.

ضحك الحسن.

ـ الأغنية القديمة ذاتها. ألا تعرفين سواها؟

ـ أنا لاأقصد من ذلك أننا لانستطيع الاتكال عليهم. إنهم يخشونك كثيراً، لكني أرتاب أن بعضهم مازال لديه شيء من الرجولة.....

ازداد مرح الحسن...

ـ وهل جربتهم؟

فتراجعت إلى الوراء وقد أهانتها كلماته.

ـ ماذا تظن بي! مع مثل تلك الكلاب!

ـ مالذي جعلك تفكرين بهذه الفكرة المسلية إذن؟

ـ إنهم يحومون حول الفتيات، وبشكل أراه مثيراً للريبة. لكن لن يخفى علي مايعملون! زد على هذا...

ـ وماذا أيضاً؟

ـ في المرة الماضية أظهر لي مصطفى شيئاً ما، عن بعد...

ضحك الحسن ضحكة خفية.

ـ لاتتظاهري بالخبل. أنت عجوز وعمصاء. لقد أوهمك بذلك ليسخر منك. أتظنين أن مظهرك مازال يبعث الرعشة في القلوب؟

ـ إنك تعيبني. لكن فليفسدوا أولئك الشابات!...

ـ وهل هم قادرون على شيء آخر؟

ـ ومن بينهن فتاة قد تبعث فيك التحسر...

ـ كفى، كفى، ألا ترين أني عجوز؟

ـ لستَ عجوزاً إلى حد أنك غير قادر على الوله حتى صميم القلب!...

كان الحسن يتسلى إلى أبعد الحدود.

ـ إن كان ذلك حقاً، فليس بوسعكِ إلا أن تهنئينني على هذا. لكن لسوء الحظ، أشعر أني لم أعد إلا بركاناً خامداً.

ـ لاتخطئ في هذا. لكن الأحرى بك وفي عمرك، أن تفكر بمن هي أكثر نضجاً.

ـ لابد أنها أباما؟ آه! آه! ياصديقتي العزيزة. إن الحب شأنه شأن الشواء: كلما هرمت الأسنان، كلما توجب أن يكون الحَمَل أصغر عمراً.

بدت الدموع في عيني أباما. لكنها ابتلعت غلّها بشجاعة، وعاودت الكلام من جديد:

ـ لم إذن تتمسك بواحدة فقط؟ ألاتدري ماتقوله الحكمة؟ من أن ضروب التغيير المستمرة تحفظ للرجل وسامته وجسارته! إن النبي محمداً نفسه أعطى المثل. في المرة الماضية، أمعنت النظر في الحمّام، في واحدة من تلك السمانيات اليافعات. رأيت كل مافيها غضاً رشيقاً. وفي الحال فكرت فيك. وبالكاد يبلغ عمرها الرابعة عشرة...

ـ... واسمها حليمة. أعرف، أعرف. لقد أخذتها بين ذراعي قبل

أن ترينها. إني أنا الذي عهدت بها إلى عدي يوم وصولها! لكني سأقول لك أن من الحكمة اليوم الاقتصار على واحدة فقط.

ـ لكن لم هي بالذات: دوماً هي نفسها! ألم تنفر منها بعد؟

ضحك الحسن من طرف خفي وقال:

ـ تقول الحكمة: كن قنوعاً ورغيف شوفان سيفتح شهية يومك أكثر من كل أطباق الجنة.

ـ ستنتهي إلى أن يضيق ذرعك بتلك الجاهلة المتعجرفة!

ـ بشرة كبياض الحليب وشفتان ورديتان ستعوضان المعرفة الأكثر يقيناً في هذا الشأن.

ـ قلتَ لي ذات يوم، وأنا أذكر هذا تماماً، أنك تعلمت في الأشهر الثلاثة التي عشناها معاً أكثر مما تعلمته في السنين العشر التي كرست فيها نفسك لدراستك الأثيرة.

ـ إن الدراسة تلائم الشباب، ومتعة التعليم تناسب الشيخوخة...

ـ مع ذلك قل لي ما الذي يجذبك نحوها!

ـ لاأدري ربما قرابة قلب بعيدة.

ـ أتقول هذا لتهينني!

ـ لم تخطر حتى هذه الفكرة على بالي.

ـ الآن أهنتني!

ـ دعك من هذا، فهاأنتِ وفي هذا العمر تصبحين غيورة!...

ـ ماذا تقول! أنا؟ أنا غيورة؟ أباما، كاهنة الحب، التي ركع أمامها ثلاثة أمراء، وسبعة من أبناء الملوك، وخليفة مرتقب، وأكثر من مئتي فارس نبيل... أباما اليوم تصبح غيورة! وممن تغار؟ من امرأة فظة عاهرة هزيلة!

كان صوتها يرتجف غيظاً. فبادر الحسن حينئذ قائلاً:

ـ ياعزيزتي، لقد ولت تلك الأيام! ومضى عليها ثلاثون سنة، وقد خلا اليوم فمك من الأسنان، وضمر لحمك عن عظمك، وفارقت النضارة بشرتك...

كانت أباما تلهث.

ـ أتظن أن حالك أفضل مني؟

ـ أستعيذ بالله من تلك الأوهام! نحن الاثنان ليس بيننا إلا هذا الاختلاف: أنا عجوز وقد تكيفت مع هذه الحالة؛ وأنت أيضاً عجوزة، لكنك تكابرين في إنكار هذا.

فقالت ودموع سخية تجري على وجنتيها:

ـ لم تأت إلى هنا إلا للاستهزاء مني!...

ـ أبداً، ياصديقتي العزيزة. لنكن حكماء. لقد أحضرتك لأني بحاجة إلى خبرتك ومعرفتك. وقلت منذ قليل بلسانك إني انتشلتك من الشقاء يوم أحضرتك إلى قصري. وأعطيتك كل ما ترغبين به. إني لاأقدّر من الفضائل إلا تلك التي تميز الفرد عن غيره من البشر. وأنا أثمن عالياً معارفك في شؤون الحب. وأُعرب لك أيضاً عن ثقتي المطلقة. فماذا ترغبين أكثر؟

استمرت في البكاء وقد نال منها التأثر، بينما كان الحسن يضحك في صمت. انحنى على أذنها وسألها:

ـ ألا زالت لديك الرغبة؟...

ألقت عليه نظرة سريعة واعترفت قائلة وهي تعانقه:

ـ ليس في اليد حيلة، هكذا أنا.

ـ إذن دعيني أرسل إليك زنجياً لديه...

فتراجعت للوراء وقد جرحتها كلماته.

ـ أنت على حق. إني شديدة القبح وطاعنة في السن. لكني عاجزة عن الإفصاح عن مقدار ألمي لدى سماعي تلك الأمور السارة الماضية...

وعاد الحسن إلى جديته وقال:

ـ ستهيئين المقصورات التي أعدت لاستقبال الضيوف. احرصي على أن يكون كل شيء كامل النظافة؛ وراقبي ثرثرة الفتيات: لاأريد أن

يشعرن بأي شيء. في مساء الغد، ستأتين أيضاً وتنتظرينني هنا. وسأعطيك توجيهات مفصلة. والآن هل من أمنية تودين الإفصاح عنها؟

ـ أبداً، ياسيدي. إني أشكرك. ومع ذلك ألا ترغب في أن تجرب واحدة أخرى...

ـ لا، شكراً. طابت ليلتك.

عادت مريم إلى غرفتها بقلب مثقل. لقد كلمها الحسن الليلة بكلام لم تستطع لكثرته التمعن فيه. لكنها أحست بذكاء مرعب يحمله هذا الرجل، ومن خلاله يرى هذا العالم بكل مافيه من حيوانات وأناس، وطبيعة جامدة، أداة للعبة ضخمة هدفها تجسيد وهم مظلم. أحبت هذا العقل الذي خافته وكرهته بعض الشيء فيما مضى. وشعرت فجأة برغبة ملحة في أن تكشف عن قلبها لتتبادل كلمات وحسب مع شخص خال من المكر. اقتربت من سرير حليمة ونظرت إليها عبر العتمة الخفيفة. فبدا لها أن الصبية تتظاهر بالنوم.

ـ حليمة! همست وهي تجلس على طرف سريرها. هيا... أنا أعرف أنك تتظاهرين. انظري إلي.

فتحت حليمة عينيها ودفعت عنها الغطاء، كاشفة عن صدرها الفتي.

ـ مالأمر؟ سألت متوجسة.

ـ أتقدرين على الصمت؟

ـ أجل، مريم...

ـ كصمت القبور؟

ـ كصمت القبور.

ـ لو علم أني تحدثت إليك، فسيقطع رأسينا نحن الاثنتين. إن جنود السلطان يحاصرون القصر...

ندت عن حليمة صرخة.

ـ وماذا سيحل بنا؟

ـ اسكتي! إن سيدنا سيهتم بنا. ومن الآن فصاعداً، كل عصيان سيكون عقابه الموت. وفي انتظارنا امتحانات عسيرة: يجب أن تكوني على علم بهذا. ولاينبغي إن سألك أحد أن تخبريه أين نحن ولامن نحن.

ثم قبلت وجنتيها وعادت إلى سريرها.

وفي الليل، لاهذه ولاتلك غمضت عيناها. أحست مريم وكأن جبالاً دكّت في رأسها، وكأن الكون استوىعلى حد سكين. ومن يدري إلى أي جانب سيميل في الأيام المقبلة؟

أما حليمة فقد اجتاحها رعب ممتع. فكل هذه الحياة أشبه بمغامرة عجيبة! فالأتراك طوقوا القصر، وسيدنا دافع عن الفتيات، وكل هذا دون أن يسمع أو يرى أحد شيئاً! ومع ذلك فمازال خطر مخيف يترصدهن. كم ذلك غريب: جميل وغريب!

الفصل السابع

في صباح الغد الباكر، امتطى الفتية خيولهم وغادروا القلعة بصحبة معلميهم. عبروا الجسر كل اثنين معاً في نظام كامل ثم دلفوا إلى المضيق. وعلى الرغم من سرعتهم، فقد كان تقدمهم في توافق تام. أما الذين كانوا إلى جانب السيل فوق خيولهم على بعد خطوتين من الهوة وهم اليوم فرسان ممتازون، فإن أياً منهم، ولو للحظة واحدة، لم يوشك على السقوط.

وعندما أصبحوا في الوادي، أوقفهم مينوتشهر في أسفل سفح ذي انحدار خفيف. كان الفتية يرتعشون بشكل واضح من التوتر المحموم، وانتقل قلقهم إلى دوابهم التي أخذت تصهل متبرمة. وسرعان ما انضم إليهم أبوعلي ممتطياً حصانه، يرافقه الداعي إبراهيم الذي تبادل بضع كلمات مع القائد، ثم انطلق بجواده إلى قمة الهضبة.

أطلق مينوتشهر أمراً، فتباعد الصفان على نحو سريع. ثم قاما بحركات صعبة معقدة بين كرّ وفرّ، وكل ذلك في صفوف متراصة ونظام كامل.

كان أبو علي على رأس الربوة، جاثماً فوق حصانه الصغير الأبيض الوبر، يراقب تلك المناورات ويبلغ الدعاة بملاحظاته:

ـ لقد دربهم مينوتشهر جيداً، أنا لاأنكر هذا. لكني أتساءل إن كان هذا الأسلوب التركي يلائم جيداً مناطقنا الجبلية. لقد كنا في الماضي

نقض كلٌ على حدة، ذابحين كل من يقع تحت سيوفنا لنختفي من ثم في لمحة عين. وبعد هجومين أو ثلاث من هذا النوع، كان العدو يتلاشى.

في التدريب التالي، غيّر الفتية نمط هجومهم، فحلّوا إسار الصفين، واندفع كل منهم ليواجه الآخر في سلسلة مبارزات ثنائية، والتمعت عينا أبو علي فرحاً. وداعب شعر لحيته الخفيف وهز رأسه استحساناً. ثم ترجل، وخطا بضع خطوات نحو أسفل الربوة ممسكاً بفرسه من لجامه، ليبسط سجادة في الظلّ ويجلس عليها في ارتياح، وسرعان ماقلده الدعاة المرافقون له.

أطلق القائد الأمر الثاني. فوثب المريدون عن جيادهم، خلعوا صداراتهم ليُبقوا على زرودهم الخفيفة. وتخلوا عن رماحهم وأمسكوا بدروعهم وحرابهم.

لقد أظهروا أيضاً أنهم جنود مشاة جيدون مثلما هم فرسان جيدون. نظر القائد خلسة إلى الداعي الكبير. فلمح ابتسامته الصامتة.

ثم جاء دور امتحان مهارة القتال. أعد الفتية الأهداف بحيث تكون على مدى مناسب، وأخذوا يختبرون قدرتهم على الرمي بالقوس. لم يخطئ ابن طاهر وسليمان إلا رمية واحدة من بين عشر. وكاد الآخرون أن يقاربوا دقة تصويبهما. بعد ذلك انتقلوا إلى قذف الحراب. وفي تلهفهم في البداية لترك أفضل انطباع لدى الداعي الكبير، كانوا ينفذون الأوامر وكأنهم فوق جمر ملتهب دون النطق بأية كلمة، لكنهم لما رأوا كبير الدعاة يهز رأسه مستحسناً، شعروا بالارتياح وما لبثت حمى التنافس أن ألهبتهم. فما عادوا يترددون في تبادل الكلمات اللاذعة؛ وفي الإمعان في التحدي. إذ أراد كل منهم أن يتميز عن الآخرين وأن يقدم أفضل مالديه، تفوق يوسف على الجميع في هذا التدريب. غير أن سليمان الذي احتقن وجهه من الجهد، لم يشأ الاعتراف بهزيمته.

ـ عليك أن تأكل أكثر، قال يوسف مستهزئاً.

زم سليمان شفتيه، ثم سدد حربته وأطلقها. شق السلاح الهواء مصفراً. لكن الرمية لم تحرز بُعداً يثير قلق يوسف، الذي تحسن أداؤه كثيراً في تنافس الرمي التالي.

ـ رائع! قال أبوعلي مهنئاً.

أما في ضرب السيف، فلم يستطع أحد التفوق على سليمان. كانوا يتبارون كل اثنين معاً، ويخرج المهزوم من المنافسة التالية. تغلب ابن طاهر على عبيدة، ثم على ابن الوقاص... لكنه لم يستطع الصمود أمام قوة هجوم يوسف. إلا أن سليمان أقصى جميع منافسيه الواحد تلو الآخر. وفي النهاية، وجد نفسه مرة ثانية في مواجهة يوسف. رفع ترسه عالياً، لكن عينيه المتربصتين خلف الترس كانتا تبتسمان ساخرتين من خصمه.

ـ فلترنا الآن أي بطل أنت! قال ليثيره.

ـ لاتفرحي باكراً أيتها الفرس السريعة، أجاب يوسف، ألم تتميز على نحو فريد في قذف الرمح منذ قليل...

واشتبكا في القتال. كان يوسف يدرك تفوقه في هذا المضمار. وانقض في وثبة واحدة على خصمه ليستغل مرة أخرى ميزة قوته. لكن سليمان باعد ساقيه الطويلتين، ودون أن يتحرك من مكانه، تجنب الهجوم بحركات ماهرة. ثم وبوثبة مراوغة دقيقة، استطاع بلمح البصر أن يخدع المهاجم الذي أدار ترسه متحصناً به. ولم يعد عليه القيام بأكثر من حركة أنيقة، ضرب فيها الترس الذي يحمي صدر يوسف.

ضحك المريدون والقادة من الغضب الذي شنج قسمات وجه هذا الأخير.

ـ لنعد الكرة، إن كنت ترغب! قال في نهاية المطاف. وأثناءها لن تغيظني.

أراد مينوتشهر التدخل لكن أبا علي أشار إليه بأن يدعهما. وتشابكت من جديد سيوفهما. اندفع يوسف متمسكاً بأسلوبه، مثل ثور هائج وأخذ يضرب ضربات كبيرة ترس سليمان الماكر، الذي كان يتكلف الضحك وهو يرقص على قدميه المتباعدتين، متنقلاً بوثبات رشيقة. ثم فجأة، أطلق قدمه للأمام ليمس خصمه، ويجعل سيفه تحت درع يوسف التعيس ملامساً به صدره.

انطلق هتاف صاخب يحيي المنتصر. وإذا بأبي علي يقف، يستعير ترس وسيف أحد الفتية، داعياً سليمان للتباري معه. اتجهت

كل الأنظار نحوهما. كان أبوعلي رجلاً عجوزاً، ومظهره لايدل على أنه قادر على الصمود أمام ضربات المسايفة. التفت سليمان مضطرباً نحو القائد.

ـ نفذ الأمر، قال له.

عاد سليمان إلى مكانه وعلامات التردد بادية عليه.

ـ لايقلقنك أني لست شاكي السلاح. بادر الداعي الكبير إلى القول بسذاجة. إنما أردت أن أرى إن كنت لاأزال أحتفظ بلياقتي البدنية، ويمكن أن يسير الأمر على مايرام.

بعدئذ لوح بسيفه نحو ترس سليمان ليبدأ القتال. كان من الجلي أن سليمان لم يدر ماذا يفعل.

ـ لم التردد؟ هيا اضرب! حضّه الداعي الكبير وقد شاب الغضب عبارته.

استعد الفتى للهجوم، لكن وحتى قبل أن تتسنى له المبادرة بأية حركة، إذا بسيفه يقفز من بين يديه. مدّ خصمه ذراعه بعضلها المنتفخ كرأس طفل.

سرت همهمة إعجاب بين الصفوف. ابتسم أبو علي بخبث وقال:

ـ أتريد المحاولة ثانية؟

في هذه المرة، استعد سليمان على نحو جدي. رفع ترسه حتى عينيه، وبانتباه شديد، حدق في خصمه الخطر. واحتدم القتال بحماس. كان أبو علي يرد ببراعة غارات الشاب المندفع. ثم مالبث أن حمل عليه ببضع ضربات متسارعة، أفلح سليمان في تجنبها وذلك قبل أن يهجم بسلسلة حركات جسورة. لكن العجوز تفادى جميع الضربات، ليباغته أخيراً بضربة مفاجئة، وليوقع السيف مرة ثانية من يد الفتى. أعاد أبو علي وابتسامة الرضى على شفتيه، السيف والترس إلى صاحبهما وصاح:

ـ ستكون محارباً فذاً، ياسليماني الطيب. إنما حسبك لتكون مثلي أن تخوض خمسين قتالاً ومعركة...

لوّح بيده صوب مينوتشهر، معبراً عن الغبطة الكبيرة التي حملها

له نجاحه، ثم التفت نحو المريدين الذين وقفوا في صفين متراصين:

ـ الآن ستظهرون لي ماحققتموه من تقدم في مضمار صقل إرادتكم. إن معلمكم عبد الملك، مسافر، وسأحل محله.

تسمّر أمامهم، محدجاً إياهم بنظرة باردة وقال آمراً:

ـ أوقفوا تنفسكم!

جال بنظره من وجه إلى آخر. وسرعان ماظهرت أولى علامات الاحتقان: انتفاخ أوردة الرقبة والأصداغ انتفاخاً غريباً، وجحوظ الأعين. وإذا بأحد الصبية يقع على قفاه. انحنى أبو علي فوقه وتفحصه: ولما رأى النفس يعود إليه، هز رأسه مسروراً. ثم هوى آخرون أيضاً. نظر أبو علي إلى الدعاة والقائد وقال بنبرة ساخرة:

ـ... مثل أجاص الخريف!...

وفي النهاية، لم يتبق سوى ثلاثة فتية واقفون: يوسف وسليمان وابن طاهر. اقترب الداعي منهم؛ ونظر متفحصاً أنوفهم وشفاههم.

ـ لاأثر لأي نفس... رائع! قال بصوت منخفض.

وإذا بيوسف يترنح، وركبتاه تنثنيان، ثم خرّ جسده كله فجأة، وفي اللحظة التالية، فتح عينيه وجال حوله بنظرات مخبولة. أما سليمان فقد انهار أرضاً كشجرة قطعت لتوها. بينما ظل ابن طاهر متماسكاً. تبادل أبو علي ومينوتشهر في صمت تعابير الاستحسان. وفي النهاية، ترنح الصبي المقدام بدوره.

كان أبو علي قد تهيأ للانتقال إلى التمرين التالي حينما جاء رسول القصر على جناح السرعة داعياً إياه للمثول حالاً لدى القائد الأعلى. على أن يكملوا الامتحانات بعد الظهر، في الثكنة.

أمر الداعي الكبير باعتلاء السروج وسبقهم متعجلاً نحو طريق المضيق.

بعد برهة قصيرة من مغادرة المريدين القصر في الصباح الباكر، لاحظ الحارس المتمركز في قمة برج الحراسة حمامة غريبة تحوم حول برج الحمام. فأخبر عنها رقيب بريد الحمام الزاجل الذي هرع إلى المنصة، وبيده قوس مشدود. لكن الطائر استكان، واستسلم لليد

التي أمسكت به. كان هنالك مغلف حريري ملفوف حول إحدى قائمتيه. أسرع مسؤول البريد إلى قصر القائد الأعلى وسلم الحمامة إلى أحد الحراس الشخصيين للحسن.

بسط الحسن المغلف وقرأ:

«إلى الحسن بن الصباح، سيد الإسماعيليين، السلام عليك! إن أمير همذان أرسلان طاش، وعلى رأس جيش ضخم، قد أقبل لمهاجمتنا. وقد استسلمت له الحصون في غرب رودبار. وبالكاد سنح لنا الوقت لنستعد وندفع عنا هجوم فرسانه، الذين تابعوا مسيرهم صوب آلموت. ويتجه اليوم جيش بأكمله نحونا في غرض صريح وهو محاصرة القلعة. إني في انتظار أوامرك السريعة. التوقيع: بوزروك أوميد».

ـ يبدو أن الحمامة أُطلقت قبل أن يصل رسولي إلى رودبار، قال الحسن. أو أن الأتراك احتجزوا الرسل في الطريق. ها قد بدأ الرقص إذن!

وابتسم، كان شعوره بالاطمئنان يبدو جلياً. وتنهد قائلاً:

ـ لو أن الفتية اليوم كانوا مكرسين...

ثم تناول من صندوق غمد حرير يشبه ذاك الذي لُفّ حول قائمة الحمامة، ووضع فيه رسالة وجهها إلى بوزروك أوميد، يأمره فيها بالمسير حالاً إلى آلموت. كان يستعد لأن يعهد بالمغلف إلى إحدى حمائم رودبار، حينما أحضر الحارس له مجدداً واحدة من تلك الرسل ذات الأرياش، والتي مازال سهم الحارس في عنقها. نشر الحسن الورقة المثبتة في قائمتها، والتي غطتها كتابة صغيرة الحروف:

«إلى الحسن بن الصباح، سيد الإسماعيليين، السلام عليك! إن الأمير غزال الشرق يسير نحونا بجيوش خوراسان وخوزستان كلها. وقد استسلمت الحصون الصغيرة، واضطر المؤمنون للجوء إلينا في زور غامبادان. العدو يحاصرنا. والحرّ يلهبنا والماء سينضب، والمؤن لاتكفينا. أمرت بالصمود، لكن ابنك الحسين أقنع قادتنا بتسليم القلعة إلى جيوش السلطان لقاء الخروج سالمين. أنتظر أوامرك الحاسمة. التوقيع: حسين القيني».

اكفهر وجه الحسن، وشنج غيظ جارف شفتيه؛ كان جسده يرتجف كله. أخذ يذرع الغرفة بخطاه، ثم صاح كالممسوس:

ـ هذا الابن المجرم! سألقي به في السجن! سأشنقه بيدي!...

عندما مثل الداعي الكبير لديه، ألقى إليه الرسالتين دون أن ينطق بكلمة واحدة. قرأهما أبو علي بعناية.

ـ لاأرى نجاة لهاتين القلعتين، كان ذلك كل تعليقه. لكنك تزعم أنك دبرت مكيدة ناجعة، كلي ثقة بك.

ـ رائع! أجاب الحسن. سأرسل إلى رودبار وإلى زور غامبادان رسلاً يحملون أوامري... آمر أن يُلقى بابني الخائن وجميع الساخطين في السجن، وليتركوا نهباً للجوع والعطش. وعلى الآخرين أن يصمدوا حتى آخر رجل فيهم.

دوّن تعليماته لتنقلها الحمائم إلى القلعتين. وحرص مع أبي علي أن يُثبِتا بأنفسهما في قائمتي الطائرين غمدي الحرير الصغيرين المحملين بالأوامر، ثم صعد الحسن إلى قمة برجه وأطلق الرسولين.

وعند عودته إلى أجنحته، قال لكبار الدعاة:

ـ ينبغي الآن أن يكرس المريدون. إنهم الصخرة التي أريد أن أشيد عليها حصن قوتنا. كيف كان أداؤهم في الامتحان؟

ـ إني مسرور منهم، أجاب أبو علي. إن مينوتشهر وعبد الملك صنعوا منهم جنوداً لم يُر نظيراً لهم...

ـ آه! لو أن بوزروك أوميد كان هنا فقط، دمدم الحسن في نفسه. ستشاهدون المفاجأة التي أعددتها لكم!...

ـ في الحقيقة، ليس هنالك متسع من الوقت أكبح فيه فضولي. قال أبو علي ضاحكاً.

استؤنفت الامتحانات بعد صلاة الظهر مباشرة. واجتمع المريدون والمعلمون في قاعة الطعام. وما أن عاد أبو علي، حتى جرى الانتقال إلى الاختبارات الشفهية. كان بمقدور المرء ملاحظة التغير الذي حدث منذ الصباح في حالة الداعي الكبير. فقد جلس على الأرائك التي شغلت

الحائط كله، وهو يحدق في الأرض بنظرات كئيبة، شارد الذهن عن إجابات المريدين، لقد كان واضحاً انشغال فكره بأمر آخر. أخذ أبو سراقة يطرح على المريدين أسئلة تتعلق بتاريخ الحركة الإسماعيلية. وأجاب أربعة من المريدين، وبدا أن الأمر يسير سيراً طبيعياً دون عائق يذكر، كما هو الحال في الصباح. لكن عندما جاء دور المريد الخامس، هب فجأة الداعي الكبير واقفاً وبدأ يطرح الأسئلة بنفسه.

ـ بئس الأمر! قال، إذ لم يحصل على الإجابات التي كان ينتظرها.

تمهل أبو سراقة قليلاً مع ابن طاهر، الذي أجاب بشكل صحيح على جميع الأسئلة.

ـ لنتابع، قال الداعي الكبير وقد نفد صبره، أرغب أيضاً بسماع أولئك الذين هم أقل تمكناً من صديقنا.

استطاع جعفر وعبيدة تجنب الفخاخ التي نصبت لهما. واستدار في النهاية أبو سراقة نحو سليمان، فأخذ أبو علي يتكركر بصوت خافت.

أطلق سليمان إجابات مختصرة وحاسمة، كما لو أنه معصوم تماماً عن الضلال. لكن تلك الإجابات غالباً ماكانت تنطوي على شيء من الخطأ، في حال لم يكن الغلط فيها واضحاً جلياً.

ـ إن سيفك ينبو نبواً في ما يخص الحقيقة، أيها الجسور، علق أبو علي وهو يهز رأسه. إن الفدائي ينبغي أن يتمتع بعقل لايعرف الزيغ أبداً.

ابتعد سليمان حائراً.

وجاء أخيراً دور يوسف. ورغم أن المريدين كانوا يخافون عليه، إلا أنهم كانوا يضحكون خلسة. وأعد أبو سراقة له السؤال الأسهل: ذكر قائمة الأئمة بدءاً من علي حتى اسماعيل. لكن يوسف كان من الاضطراب بحيث أن اسم الإمام الثالث ظل حبيس لسانه.

ـ قسماً بلحية الشهيد علي! صرخ الداعي الكبير. إني لأنفض يدي من جهل كهذا...

نظر أبو سراقة حانقاً إلى يوسف الذي خرّ في ركنه، وهو إلى الموت أقرب منه إلى الحياة.

وجاء دور الحكيم ليسألهم، لكنه استطاع أن يتخلص على نحو أفضل من المأزق. فقد عرف أن أبا علي لم يسمع قط بفلسفته ولابوجهات نظره حول طبيعة الإنسان، وماجرى بالتالي أن الداعي الكبير لم يتوانَ عن استحسان الإجابات كافة، على مافيها من شطط أحياناً. وفي منحنى آخر، كان المريدون يعرفون على نحو جيد جغرافيتهم، مما جعل أبو علي يهنئ القائد بابتسامة رضى صغيرة، ويمر مروراً سريعاً على هذه المادة. أما القواعد والحساب والعروض، فقد أُنجز أمرها أيضاً بسرعة. ولم يتوقف الداعي الكبير مجدداً إلا عند العقيدة. إذ أولى الأهمية الكبرى لهذا الجانب من التعليم. وطرح إبراهيم أسئلة واضحة بسيطة أجاب عليها غالبية المريدين بشكل مناسب. فتدخل حينئذ أبو علي قائلاً:

ـ لنرى الآن حال الذكاء الفطري لدى مرشحينا. يوسف، أنت البطل الكبير في رمي الحربة، قل لنا من أقرب إلى الله: النبي محمد أم رئيس الملائكة جبريل؟

وقف يوسف ولم يحر جواباً غير نظرات مضطربة. سأل أبو علي زملاء يوسف... فمال أحدهم مرجحاً النبي محمد، والآخر رئيس الملائكة، إلا أن أياً منهم، لم يستطع أن يقدم أية حجة قوية تبرهن ماأكده.

ضحك الداعي الكبير بخبث ليقول أخيراً:

ـ لدى صديقنا ابن طاهر القول الفصل.

وقف ابن طاهر وأجاب بصوت هادئ:

ـ لقد أرسل الله رئيس الملائكة جبريل بشخصه ليبلغ محمداً برسالته النبوية. فلو لم يقصد الله تمييز محمد بالذات عن الآخرين، لاكتفى بأن يعهد مباشرة بهذه الرسالة النبوية إلى ملاكه. وهو إذ لم يفعل، فلأنه اختص محمداً بدور فريد على وجه الخصوص: ولأجل ذلك فمرتبة النبي محمد تعلو حتماً مرتبة جبريل.

ـ هذا هو الجواب الصحيح! قال أبوعلي مستحسناً. والآن اشرح لنا هذا أيضاً:

- ماالصلة المشتركة بين النبي محمد وسيدنا؟

ابتسم ابن طاهر وأجاب بعد برهة تفكير:

- إن الرابطة بين النبي محمد وسيدنا هي نفسها التي تربط بين الابن البكر والابن الذي يأتي بعده.

- أصبت. لكن من هو اليوم صاحب السلطة الكبرى على المؤمنين؟

- سيدنا. لأنه هو الذي بيده مفتاح الجنة!

نهض أبو علي ونهض الجميع معه. تفرس في وجوه المريدين الواحد تلو الآخر، ثم خاطبهم بنبرة مفخمة:

- بإمكانكم الاستحمام، وارتداء ثياب الأبهة. ولتكونوا سعداء، فقد اقتربت اللحظة الحاسمة في حياتكم. عند صلاة العشاء، ستكرسون جميعاً فدائيين.

ثم حياهم بابتسامة خفيفة، وغادر القاعة بخطوات سريعة.

وصل مبعوث من الري مسرعاً، وبشّر الحسن بأن فرسان العون الذين عجل بإرسالهم ميتسوفر قد انطلقوا: ربما يصلون القصر هذه الليلة. وسرعان ما أخبر جاسوس الحسن باقتراب وصول الطلائع التركية، التي تتقدم بسرعة كبيرة، وقد تلوح للناظر من القصر قبل نهاية الليل، أو في الصباح الباكر، على وجه اليقين.

وفي الحال استدعى الحسن أبو علي ومينوتشهر. واستقبلهم في غرفة الانتظار مبلغاً إياهما بما استجد من أنباء. ثم بسط على الأرض خريطة، لينظر ثلاثتهم في أفضل الفرص المتاحة أمامهم لمقاومة جنود السلطان.

- لنرسل رسولاً بين يدي ميتسوفر، أمر الحسن. فالأفضل ألا يتقدموا بسرعة نحو القصر، إنما ينبغي أن يقودهم عبد الملك نحو الطريق القادمة من رودبار. حيث سيتربصون هناك بانتظار مرور الخيالة التركية. ثم سيتبعونها عن مسافة مناسبة. سنستقبل العدو أمام آلموت، وعندئذ سينقض الجميع على مؤخرة العدو. فنسحقه كما لو أنه بين حجري رحى.

أيد أبو علي والقادة الخطة، واختاروا مأموراً لينطلق على جواده مع بضعة فرسان إلى رجال ميتسوفر. أعطى مينوتشهر الأوامر اللازمة، بينما سأل الحسن الداعي الكبير عن أحوال المريدين.

- إن النبي محمداً ليس بداخل كل منهم، اعترف أبو علي ضاحكاً. إلا أنهم جميعاً مفعمون بالحماس وفي قلوبهم إيمان راسخ لايتزعزع.

- الحمد لله! هذا هو المهم، أيد الحسن كلام أبي علي وهو يفرك يديه.

إن شعورهما باقتراب أحداث حاسمة أوقعهما في نفاد صبر محموم.

- هيا، حان وقت تكريس المريدين، أعلن الحسن. هاك نص القسم الذي عليهم أن ينطقوا به. عليك أن تركز على أبهة هذه اللحظات، كلمهم بحمية وحماس عن بسالة الشهداء، واستثر نفوسهم الفتية، وأجج حميتهم وشد من عزائمهم. وتوعدهم بالعذاب المخيف، وأنذرهم بالهلاك الأبدي إن هم لم يذعنوا لنا بالكلية! آه، كم من السنوات انقضت وأنا أحلم بتربية مريدين كهؤلاء وفق آرائي، وبإعادة تشكيل طبيعتهم وبتغيير غاياتهم، لأتمكن من أن أبسط بسواعدهم سلطة نظامي! وأخيراً، أخيراً أفلحت في هذا الأمر!

- تعلم أني دائم الفخر بحكمتك، تدخل أبو علي. وإني على اقتناع أن تصرفك الحالي له ما يبرره. إلا أني لاأستطيع أن أمنع نفسي عن التفكير بأن الأمر سيكون أكثر حكمة إن أشرفت بنفسك على هذا التكريس. انظر إليهم إنهم يتشوقون لرؤيتك ولو مرة واحدة، فلتظهر أمامهم، ويتحرقون للشعور بأنك رجل حي، وليس قوة غير مرئية يتوجب عليهم إطاعتها. إن لحظة تنصيبهم، إن كنت معهم، ستكون ممجدة على نحو فريد.

- هذا صحيح، بيد أني لن أفعل شيئاً من هذا القبيل.

واستغرق الحسن في أفكاره وظلت نظراته مسمرة على الأرض طويلاً، ليقول أخيراً:

- إني أعرف ماذا أفعل. عندما تريد استخدام أناس، واستعمالهم

كوسائل وحسب، فمن الأفضل أن تبقى غريباً عن هواجسهم. إذ من المهم عند اتخاذ القرارات الهامة، أن يكون المرء حراً ومنعتقاً من إسار قلبه. عندما يصل بوزروك أوميد سأشرح لك كل شيء. إن الراية التي ستعهد بها إلى الفدائيين جاهزة. إذهب ونفذ ماأمرتك به. هذا التكريس في نظري أكثر أهمية من الانتصار على الأتراك.

كانت قاعة الاجتماعات الكبرى، في قصر القائد الأعلى، قد حُوّلت هذا المساء إلى قاعة صلاة. وكانت تلك المرة الأولى التي يُسمح فيها للمريدين بدخول هذا القسم من القلعة. وتعززت حراسة الخصيان حاملي المقامع في الليل. إذ تم تزويد الزنوج هذه المرة من رأسهم إلى أخمصهم بالشكّة، والخوذات والدروع استعداداً للقتال. اعتصر القلق قلب الفتية لما وجدوا أنفسهم في القاعة الخاوية على نحو مهيب، وقد فرشت كلها بالبياض. وهم أيضاً ارتدوا صدارات بيضاء؛ واعتمروا طرابيش بيضاء أيضاً، وأقدامهم عارية، حسب الأمر الذي أعطي إليهم. كما ارتدى الدعاة أيضاً اللباس الأبيض. وجعلوا المريدين في مجموعات وذكّروهم بصوت منخفض بالتوجيهات المتعلقة بالطريقة التي ينبغي عليهم أن يسلكوها أثناء الاحتفال. كان الفتية يرتجفون من شدة الانفعال؛ شاحبي الوجوه منهكين، حتى أن بعضهم شارف على الإغماء.

وأخيراً دوى صوت البوق داعياً إلى صلاة العشاء. دخل أبو علي برداء وطربوش من اللون نفسه، واجتاز القاعة كلها واتخذ مكانه أمام المريدين، واصطف القادة إلى جانبيه. وبدأ الاحتفال.

قام أبو علي في البداية بأداء صلاة العشاء، بنبرة رتيبة كان يفضلها في مناسبة كتلك. ثم التفت نحو المريدين محدثاً إياهم عن معنى التكريس الذي سيعيشون لحظاته هذا المساء، والفرح الذي استحقوه عن جدارة، والطاعة الواجبة عليهم لسيدنا ولممثليه. وقص عليهم سعادة الشهداء، وما لقدوتهم من أهمية في أن تصبح هدفهم السامي.

ـ إن أعظم لحظة في حياتكم قد اقتربت، قال لهم. أنتم مدعوون لتصبحوا فرقة الصفوة، فدائيين مستعدين للتضحية بأنفسكم في سبيل القضية المقدسة. إنكم اثنا عشر: الوحيدون بين مئات الألوف من المؤمنين الذين يتلقون هذا الشرف. لكن يوم الامتحان اقترب، وعليكم أن تبرهنوا والسلاح في أيديكم عن إيمانكم وإخلاصكم لسيدنا. العدو يمشي نحو آلموت. فهل يمكن أن يتردد واحد منكم في اللحظة الحاسمة؟ هل منكم من يريد أن يستحق بخيانته عذاب موت دنيء؟ أعلم أنه لايوجد بينكم أحد يريد ذلك. لقد تشفعت لأجلكم لدى سيدنا ورجوته أن يمنحكم التكريس جميعاً. ورأفة منه، قَبِلَ الإنصات إلي. ألا تريدون أن تظهروا أنكم أهل لطيبته وثقتي؟ هاأنا الآن باسمه أكرسكم جميعاً فدائيين! وسأقرأ نص القسم الذي سيمهر عهدكم: اذكروا أسماءكم ثم رددوا نص القسم بعدي. وحينما تؤدون القسم، سيحدث تغير كبير في نفوسكم. ولن تعودوا مريدين، إنما ستصبحون المدافعين الأشداء عن معلمنا. والآن فلتصغوا ولترددوا بعدي كل كلمة!

بسط يديه الواسعتين، ورفع بصره نحو السقف. لتخرج أخيراً كلماته بطيئة منتشية:

ـ أنا... أقسم بالله، وبمحمد نبيه، وبعلي وبجميع الشهداء، أن أتعهد أمام الجميع أن أنفذ دون تردد كل أمر يأمر به سيدي أو ممثله. كما أتعهد بالدفاع عن الراية البيضاء للحركة الإسماعيلية طيلة حياتي وحتى آخر نفس من أنفاسي. وبهذا العهد أتكرس فدائياً، ومامن أحد سوى سيدنا يحلني منه. أشهد أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فلتأت إلينا، أيها المهدي.

كان التأثر بادياً على المريدين من رهبة تلك اللحظات، ووجوههم كالشمع باهتة، وأعينهم تلمع بشيء من الحمى. وقد ارتسمت ابتسامة الغبطة على شفاههم، وكأن حلاوة تفوق الوصف دخلت قلوبهم. فهاهم قد نالوا مبتغاهم بعد جهد طويل دؤوب! وها هم يتلقون التكريس الذي طالما تاقوا إليه...

أشار أبو علي إلى إبراهيم ليناوله الراية. ثم بسطها الداعي الكبير فالتمعت فيها هذه الكلمات المطرزة بالذهب، والمقتبسة من الآية

الخامسة من السورة الثامنة والعشرين: «ونُرِيْدُ أَنْ نَمنَّ علَى الذيْنَ اسْتُضْعِفُوا في الأرْضِ وَنَجْعلَهُم أَئِمَّة ونَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ».

ـ ابن طاهر! اقترب! قال. أنت المجلّي الأول في الصفوة المختارة، أعهد بالراية إليك. وليكن هذا العلم الأبيض رمزاً لشرفك وإبائك. إنك إن تدع العدو يزدريه، فكأنك تدعه يزدري كرامتك وشرفك. لذا ستحافظ عليه أكثر مما تحافظ على بؤبؤ عينيك. ويجدر ألا يقع على الأرض مادام فدائي واحد على قيد الحياة. ولاينبغي أن يصل إليه إلا على جثثكم جميعاً. اختاروا من بين صفوفكم خمسة أشداء، وستحدد القرعة من الذي سيحمل اللواء بينهم.

تناول ابن طاهر اللواء بيديه كما لو أنه في حلم، ثم عاد ليقف في مقدمة الفدائيين. إن اللحظة التي تمثل ذروة حياته توارت الآن، وإحساس العذوبة الذي سرى فيه منذ قليل أخذ يتلاشى الآن ليحل محله ألم مبرح: لقد فقد على حين غرة شيئاً ما سامياً. وتيقن أن اللحظة التي عاشها منذ برهة، والتي كانت قصيرة على نحو يبعث على الأسى، لن تعود أبداً.

وصل مبعوثون إلى القصر وآخرون غادروه. وتم إبلاغ عبد الملك في الموعد المحدد؛ فتوجه مع ميتسوفر نحو الطريق الذي يُتوقع أن تصله الخيالة التركية. وكانت عيون عدة أرسلت إلى العدو وشكلت سلسلة متصلة، تتواصل حلقاتها سراً عن طريق إشارات متفق عليها. لقد كان نقل الأخبار يتم على أفضل وجه.

حينما عاد أبو علي من الاحتفال، صاح الحسن، وعلى وجهه إمارات الارتياح:

ـ ها قد انتهينا أخيراً!

ثم أمر الداعي الكبير بأن يجمع الجند اللازمين ليتخذوا مواقعهم في الوادي خلف المضيق، متربصين بطلائع السلطان.

ـ ماذا سنفعل بالفدائيين؟ سأل أبو علي.

ـ هذه المعركة ستكون ملائمة لهم، أجاب الحسن. ستأخذهم معك،

وليبق أبو سراقة على رأسهم. واحرص بشكل خاص على ألا يقتلوا أنفسهم! أريد أن أحتفظ بهم لمقاصد أسمى. لاتعرضهم لأخطار حقيقية، ولو أمرتك أن تكلفهم بمهمات صعبة! فليطلِقوا على سبيل المثال السهام الأولى، لكن الاشتباك مع العدو وجهاً لوجه سيقوم به الجنود القدامى. باختصار، لاترسلهم إلى خضم المعركة إلا إن بدا لك أن النصر قد أصبح محققاً، أو بالطبع في حالة الخطر المهلك. وإن سنحت الفرصة، فاعهد إليهم بمهمة انتزاع الراية من العدو. إني أتكل عليك، فأنت الركن الذي أبني عليه مستقبلنا الواحد.

ماكاد الحسن يأمر أبو علي بالانصراف حتى اتخذ طريق الحدائق الواقعة خلف القصر...

ـ خذني إلى مقصورة مريم، ثم أحضر إليها أباما، قال آمراً عدي. فاليوم، لم يعد الوقت يتسع للشقاق.

أقبلت مريم نحوه. فأخبرها أنه قد أرسل وراء أباما.

ـ منذ الليلة الماضية، وهذه المرأة تتصرف على نحو غريب، قالت الفتاة بشيء من الدعابة. يبدو لي أنك أمرتها بأوامر محددة...

ـ لم يعد هنالك وقت للتسلية، رد الحسن بحزم. فعلى كاهلنا من اليوم فصاعداً مسؤولية هائلة: نحن بحاجة إلى كل قوتنا إن أردنا أن ينجح مخططنا ونهلك عدونا.

أدخل عدي أباما، فلاحظت بنظرة غيورة تجهيز المقصورة.

ـ لقد هيأتما لنفسيكما عشاً صغيراً جميلاً، قالت مستهزئة. حمامتان حقيقيتان.

ـ لقد انطلق أبو علي مع جميع رجال القلعة ليتخذوا مواقعهم على مشارف أسوارنا؛ إنه يسير لملاقاة جنود السلطان الذين قدموا لمحاصرتنا بين لحظة وأخرى، استهل الحسن كلامه كما لو أنه لم يسمع على الإطلاق كلام أباما. ودعا المرأتين لتجلسا على الأرائك، قبل أن يجلس هو بدوره.

بدا أن الخبر أصاب السيدة العجوز بخوف عظيم. فأخذت تنقل نظراتها بين الحسن ومريم.

ـ وماذا سيحل بنا؟ سألت بصوت وجل.

ـ لن يصيبك مكروه إن نُفذت أوامري بدقة، قال الحسن منبهاً إياها. وإلا سنكون ضحايا مذبحة لم يسمع بها أحد من قبل.

ـ سأفعل كل ما تأمر به، ياسيد، قالت أباما وهي تسكب النبيذ في قدح.

ـ هذا ما أطلبه منك، ومن مريم أيضاً. استمعا جيداً، إن الشرط الأهم في نجاح مشروعي هو الآتي: عليكما أن تضفيا على هذه الجنان مظهراً غير مألوف. وبعبارة أخرى، أن تترك تلك الجنان انطباعاً لدى النفوس الساذجة والجاهلة بأنها الفردوس الحقيقي. بالطبع، مامن إشكال في الأوقات التي يسطع فيها ضوء النهار، إذ أننا سنستخدم حيلاً كثيرة ستوحي بالجو المحيط. لكن الإشكال يكمن في الليل. لذا علينا في المقام الأول أن نؤمن إضاءة ساطعة. وكل تفصيل في الجنان نريد شد الانتباه إليه، علينا أن نظهره من خلال ضوء ما، وماتبقى يجب أن يغرق في ظلمة مبهمة. أتذكرين يا أباما، تلك الليلة التي أعدها تكريماً لك في كابول أميرك الشرقي؟

ـ آه! ياسيدي! كيف لي أن أنساها! كنا حينئذ في ألق شبابنا...

ـ ليس المطلوب إلا إبراز بعض التفاصيل المنتقاة بعناية. أتذكرين مدى إعجابك بتلك المصابيح الملونة القادمة من الصين، والتي حولت ليل الجنائن إلى نهار خلاب؟ حينها كان كل شيء واضحاً ومع ذلك متغيراً بالكلية... كما لو أننا اكتشفنا فجأة عالماً آخر...

ـ أجل!... ووجوهنا بلون الذهب تارة، وتارة أخرى أرجوانية اللون أو خضراء أو زرقاء، أو مبرقشة على نحو شديد الغرابة! آه! ياللمشهد الأخاذ!... ووسط كل ذلك كان هوانا المحموم...

ـ مشهد باهر حقاً. لكن أود أن أعرف إن كنت تذكرين بدقة كيف تصنع مصابيح شبيهة؟

ـ أنتَ على صواب فالماضي يظل ماضياً، ولايستحق عناء

الحديث عنه. واليوم جاء دور الآخرين. سألتني إن كنت أتذكر تلك المصابيح؟ بالطبع أستطيع أن أصنع نماذج تشابهها، إن توافر لدي الورق والأصباغ.

ـ ستكون تلك المواد عندكِ. أتعرفين أيضاً كيفية تزيينها برسوم ملائمة؟

ـ لدينا فتاة ماهرة في هذا الفن.

ـ إنها فاطمة، قالت مريم، والتي كانت تصغي لهذا الحوار وعلى وجهها ابتسامة صامتة. بإمكان الجميع مساعدة أباما في هذا العمل.

ـ سيكون ذلك ضرورياً. إذ ينبغي أن يكون كل شيء جاهزاً في مساء الغد. وليحضر الخصيان الطعام والخمور. أرجو أن يكون في الأقبية من النبيذ مايكفي!

ـ بل هنالك ماهو فائض عن الحاجة.

ـ حسناً. سأزور غداً الحدائق بين صلاة الظهر وصلاة العصر. أريد أن أظهر أمام الفتيات لألهب حماستهن. ولأعطيهن بنفسي التوجيهات حول الطريقة التي ينبغي أن يتصرفن وفقها نحو الزائرين. لن أقبل بالمزاح. والتي تعترف بأنها ليست حورية وأن هذه الجنان ليست الفردوس الحقيقي ستعاقب بلا رحمة. أظن أن هذه التمثيلية لن تكون بالنسبة لهن صعبة الأداء كثيراً.

ـ كل واحدة منهن تتخيل نفسها أنها أميرة، تدخلت أباما. إذن...

ـ يجب مع ذلك أن نهيئهن ليمثلن دورهن خير تمثيل، قالت مريم مهمومة.

ـ إن الوعيد بالعذاب العظيم سيساعدهن في ذلك، صدقيني، قال الحسن مطمئناً إياها. وبديهي أن المقصورات الثلاث ستجهز برهافة للاستقبال. وعلى الشابات المهيآت على نحو متناسق، أن يرتدين الملابس الجديدة من رؤوسهن حتى أخمص أقدامهن. وسيلبسن جميعهن الحرير، والذهب والأحجار الثمينة. فبزينة كهذه لن يصعب عليهن تخيل أنفسهن أنهن حقاً نزيلات الفردوس. آمل من هذه الناحية أن تكون المدرسة قد أنجزت مهامها.

ـ لايقلقنك هذا الأمر، ياسيدي، سأهتم أنا ومريم بكل شيء.

ـ أنتما الحاذقتان في هذا الموضوع، قولا لي كيف يجب أن أبدو أمام تلك القردة ليكون لي عليهن أكبر قدر من التأثير؟

ـ ينبغي أن تظهر أمامهن كملك، أجابت مريم. فهكذا يتخيلنك ويرغبن أن تكون.

ـ عليك أن تصحب معك حرساً، أضافت أباما. يجب أن يحاط قدومك بأقصى آيات الأبهة.

ـ خلا حراسي ومأموريْ الاثنين، ينبغي ألا يعلم أحد بسر تلك الجنان. علي إذن أن أكتفي بهم. لكن كيف تتصور تلك الفراخ المسمّنة ملكاً؟

ـ خطاه جليلة، ومظهره متعجرف... هكذا يكون الملك، أجابت مريم مبتسمة. وهناك على الخصوص الرداء الأرجواني، وتاج من الذهب يعلو الرأس.

ـ أجل، على الحكيم دوماً أن يتنكر لتكون له الهيبة والسلطة على الشعب...

ـ هذه هي جِبلَّة الناس، تنهدت أباما.

ـ حسناً، هذا الصنف من الخرق والحلى لايفتقر إليه القصر. سنحصل في الوقت المناسب على كل ذلك.

أخذ الحسن في الضحك. ومال على أذن أباما قائلاً:

ـ هل الحمامات جاهزة... مع جميع اللوازم.

ـ كل شيء جاهز، ياسيدي.

ـ حسناً. في صباح الغد الباكر، ابدأن العمل بجد، وانتظراني مع الفتيات. طاب مساؤكما.

ثم صحبه عدي دون ضجة إلى باب الحدائق.

بعد أن دخل إلى أجنحته، أخذ يستعرض ثانية مآآل إليه. فمنذ عشرين سنة وهو يعد نفسه دون كلل ولاخور لهذه اللحظات. عشرون

سنة مديدة. لم يشبها تردد، ولاتراجع أمام شيء. كان قاسياً لايلين أمام نفسه، وكل هذا في سبيل غاية واحدة: أن يحقق أمنيته الخفية، وأن ينفخ الحياة في حلمه.

أي أسطورة هي الحياة! فالأحلام تملأ أيام الشباب، والبحث المحموم سمة سن النضج، واليوم، وفي هذه السن المتأخرة، بدأت الأحلام القديمة تتحول إلى حقيقة. فهاهو زعيمٌ لآلاف المؤمنين. لكن سلطته مازالت تفتقر إلى أمر واحد: أن يكون سبب ذعر الجبابرة والطغاة الأجانب، مهما علا شأنهم. والخطة التي هو على وشك تنفيذها لهذا الغرض، هي خطة قائمة على المعرفة الدقيقة للطبيعة الإنسانية وضعفها. خطة متوحشة ومجنونة، محسوبة، ومقدرة وموزونة.

وتساءل فجأة إن كان أهمل أمراً ثانوياً ما يمكن أن يقوض تنظيماته الحاذقة.

أحس بخوف غريب يرهقه. ماذا لو أنه أخطأ في تقدير أمر ما؟

حاول عبثاً أن يجد الطمأنينة في النوم. لكن شكاً مستمراً ظل يؤرقه. والحق يقال، أنه لم يفكر قط سابقاً بجدية في عواقب فشل محتمل. فقد أمعن التفكير في جميع الاحتمالات! وللمرة الأولى، أرعبته تلك الفكرة «هيا، ينبغي احتمال وطأة هذه الليلة أيضاً، قال مقنعاً نفسه، بعدئذ كل شيء سيسير على مايرام».

بدا له أن الهواء ينقصه. فنهض وصعد إلى قمة البرج، حيث كانت ترتفع فوق رأسه قبة هائلة مزدانة بالنجوم. وفي الأسفل كان ينبعث هدير السيل. وفي الأنحاء المحيطة، كانت الحدائق بأسلوب الحياة الغريب فيها، أول تجسيد لأحلامه الفريدة! وهناك، في الخارج، أمام القصر، حيث ينتظر جيشه وصول طلائع جيش السلطان، كان الجميع يثقون به ثقة لاحدود لها ويذعنون دون تحفظ لسلطته. فمن ذاك الذي يجرؤ منهم على أن تساوره الشكوك حول الوجهة التي يقودهم إليها؟

وخطر في باله أنه قد يستطيع التملص من كل شيء. فبإمكانه تخطي الحاجز ويختفي، ليخطفه شاه رود. وبالتالي فإن مسؤوليته ستقع عن كاهله، وسينجو بنفسه من الجميع. لكن ماذا سيحل بعدئذ

برجاله؟ سيعلن على الأغلب أبو علي أن القائد الأعلى قد صعد حياً إلى السماء، حاله حال (أمبيدوكل). وسيكرم كما لو أنه نبي أو ولي كبير. وإن عُثر على جثته. فماذا سيقال للناس حينئذ؟

كان يبدو كالمبهور بسحر الأعماق. تشبث بالجدار. وأدرك فجأة أنه يكابد أشد أنواع العذاب ليقاوم نداء الفراغ. وهذا القلق لم يهدأ إلا عندما عاد إلى غرفته. ليستغرق في النوم...

حلم أنه في بلاط أصفهان... وكل شيء كما كان قبل ثمانية عشر عاماً. واقفاً في قاعة انتظار واسعة. ومن حوله أصحاب المقامات والشخصيات الكبيرة. أما السلطان ملك شاه، فكان على إيوانه بين جالس ومستلق، يسمع مقالته، بارماً شاربيه الطويلين الخفيفين وهو يحتسي الخمر. ويقف إلى جانبه الوزير الأكبر ـ الزميل القديم للحسن ـ وعيناه بغمزاتهما تسايرانه. قرأ الحسن التقرير وقلب الصفحات. وفجأة لاحظ أن الورقات التي يقرؤها بيضاء. لم يستطع المتابعة، وتعثر لسانه. وأخذ يتلعثم بكلمات لالحمة بينها. حدق السلطان فيه بعينين قاسيتين باردتين. «كفى!» زعق، وهو يشير نحو الباب. خارت ركبتا الحسن، بينما كانت ضحكة الوزير الأكبر الشيطانية تزلزل القاعة.

انتفض من منامه، والجسد غارق في العرق. وأوصاله ترجف كلها.

ـ الحمد لله، همس وقد سكن روعه. لم يكن ذلك سوى حلم.

ثم، وقد هدأ مابه، استغرق في نوم عميق.

الفصل الثامن

كانت ليلة أضاءت سماءها النجوم، من تلك الليالي التي يشعر فيها المرء أنه يسمع خفقات قلب الكون. وامتزجت فيها النسمة الباردة والمثلجة القادمة من دومافند ومن قمم البورز الأخرى، بالحرارة التي ماتزال تنبعث من الأرض، المحترقة بشمس النهار.

سار المقاتلون على ظهور جيادهم في المضيق صفاً واحداً، يقودهم أبو علي. وتقدم كل مجموعة من خمسة فرسان حامل مشعل ليضيء الطريق. بينما كانت الفراشات تحوم حول المشاعل لتحترق فيها فيما بعد. وكادت أوامر المأمورين والعرفاء، وصيحات الجمالين، وصهيل الخيول، التي زادت من حدتها أصداء الوادي، تخفي هدير السيل.

أقام الفدائيون معسكرهم في أسفل المنحدر الذي يسد مدخل المضيق، في موقع مخفي ببراعة. نصبوا خيامهم، وأشعلوا النيران وجعلوا حارساً لهم. وعلى بعد حوالى مئتي خطوة منهم أقام المقاتلون الآخرون من فرسان، ورماة رماح وسهام ـ والذين احتموا بمتراس تغطيه الأدغال ـ معسكراً مرتجلاً. وشوهدوا هم أيضاً يشعلون ناراً منخفضة في إحدى الحفر، ليتدفأوا وليطهوا طعامهم، فقد شرعوا بشواء عجلٍ كاملٍ في تلك الحفرة. كانوا يتحادثون بصوت خافت ويضحكون مرحين، ورغم ذلك كانت نظراتهم المترقبة تتجه من حين لآخر صوب نقطة معينة في الأفق: فبشيء من التمعن في سماء أعلى

المضيق، يبدو جانب برج الحراسة، حيث يقف خيال المراقب الساهر جامداً كتمثال. أما أولئك الذين عينوا للقيام بجولات الحراسة فقد تدثروا بمعاطفهم لينالوا قسطاً من النوم.

شعر الفدائيون في تلك الساعة بتعب النهار يعاودهم فجأة، إثر تجربة الامتحانات العصيبة، وإثر توتر الاحتفال الذي كابدوه منذ قليل. وكما نصحهم أبو سراقة، التفوا باكراً بأغطيتهم وحاولوا الإخلاد إلى النوم. لقد حمل اليومان الأخيران لهما من المفاجآت ماجعل أمر انتظار المعركة أقل قلقاً لهم. استسلم بعضهم للنوم، وخرج بعضهم الآخر من تحت أغطيتهم ليتزاحموا حول النيران التي شارفت على الانطفاء.

ـ الحمد لله، لقد تركنا التعليم وراءنا! قال سليمان وهو يتنفس الصعداء. أن تترصد العدو في الليل أمر مختلف تماماً عن أن ترهق نفسك بالجلوس على عقبيك وأنت تجر قلمك على اللوح.

ـ المهم أن نعرف إن كان العدو يود حقاً المجيء، قال ابن وقاص قلقاً ـ وكان في المدرسة من أكثر المريدين هدوءاً وانعزالاً، لكن وبحلول الخطر، بدأت حمى الحرب تفور في نفسه.

ـ كم سيكون مقيتاً، قال يوسف. لو تذهب كل تلك الاستعدادات، وكل ذاك الهياج أدراج الرياح! ولايأتي الأتراك حتى لجسّ رؤوس سيوفنا!...

ـ وسيكون مسلياً أكثر أن تذبحك سيوفهم بعد كل تلك الجهود المضنية، وبعد ذاك العمل الذي جعلك تلهث تعباً، قال سليمان مازحاً.

ـ ماقدّر علينا مكتوب في كتاب الله، قال جعفر بلا اكتراث ـ لقد وقعت عليه القرعة ليكون حامل اللواء، فآثر الاستسلام لقدره، ربما ليتحاشى حدساً خفياً أحس به في صدره.

ـ ومع هذا سيكون من الحمق أن يكابد المرء تدريباً كالذي تحملناه، ثم يأتيك رجل متوحش ويقذف بك إلى العالم الآخر، قال عبيدة ساخراً.

ـ يموت الجبان ألف مرة، ولايموت الشجاع إلا مرة واحدة، قال جعفر في وقار مصطنع.

ـ أتحسبني رعديداً لأني لا أرغب بالموت في هذه الليلة بالذات؟ قال عبيدة مهتاجاً.

ـ كفوا عن الشجار، قال يوسف متدخلاً. أولى بكم أن تنظروا إلى ابن طاهر، الذي يسلي نفسه بعدّ النجوم. ربما كان يفكر أنه يراها المرة الأخيرة.

ـ ياللعجب! يوسفنا أصبح حكيماً، قال سليمان مستهزئاً. وعلى بعد خطوات من أصحابه، كان ابن طاهر راقداً تحت غطائه يتطلع إلى السماء. ويحدث نفسه متأملاً:

«يالغرابة الحياة التي أحياها، حياة تتأرجح بين حلم الطفولة وواقع مافتيء يحقق ذاك الحلم بطريقة تبدو بكاملها وكأنها غلطة». تخيل سنوات حداثته في منزل أبويه؛ وعاد إلى ذكرياته منصتاً لأحاديث رجال كانوا يتحلقون حول أبيه. ويتجادلون حول شرعية الخليفة، مستشهدين بالقرآن، هازئين من أتباع المذهب السائد في بغداد، وهم يقصون على بعضهم بعض خفيةً أسرار المهدي... الذي سيكون من سلالة علي وسيعود لينقذ الناس من الظلم والكذب. «آه! لو أنه يأتي في أثناء حياتي!» تنهد وقد تأجج فيه شوق خفي. تخيل نفسه خادماً له، كما كان عليّ حيال النبي محمد. كان ابن طاهر يقارن نفسه رغماً عنه بصهر محمد... وأكثر الأنصار تحمساً: علي الذي آمن منذ حداثته، وأهرق دمه لأجل القضية... ورغم ذلك أُقصي عن خلاّفة النبي محمد بعد موته، ليفرضه الشعب أخيراً... ثم ليراه بعد كل هذا مقتولاً بدناءة. كانت تلك بالضبط الأحوال التي ألهبت حماس ابن طاهر فعلي بالنسبة إليه كان القدوة، والمثال الذي عليه أن يقترب منه.

كم خفق قلبه حينما أرسله أبوه إلى آلموت ليكون في خدمة سيدنا! كان قد سمع عن تلك الشخصية، وأنه ولي، وكثيرون ينظرون إليه كنبي. وسرعان ماسمع صوتاً في داخله يحدثه: هذا الذي سيكون (المهدي) الله، وهذا الذي تنتظره، وتتحرق شوقاً لخدمته. لكن لم لايُظهر نفسه لأحد؟ لِمَ لم يكرسهم بنفسه فدائيين؟ لم اختار لهذه المهمة عجوزاً أثرم يشبه عجوزاً قصيرة القامة أكثرمما يشبه محارباً جديراً بهذا الإسم؟

حتى هذا اليوم، لم يخطر بباله قط أن يشك في وجود سيدنا في القصر. لكن وفي لحظة الإشراق تلك، أصابه الذعر من فكرة قد تكون واهمة: ربما لاوجود للحسن بن الصباح في آلموت، وربما اختفى سيدنا، تاركاً خلفه عرشاً خاوياً استولى عليه أبو علي، بعد أن تواطأ معه شيوخ ودعاة آخرون!... أبو علي، نبي؟ كلا، لايمكن ولاينبغي أن يكون لنبي هذا المظهر! لكن وربما لأجل هذا السبب بالذات، وخشية أن ينفر المؤمنون، اختلقوا سيدنا، ذاك الخفي الصامت. فمن ذاك الذي يستطيع الإقرار بأبي علي قائداً أعلى للإسماعيلية؟

على أي حال، هنالك سر كبير يحوم فوق القصر، ويشعر به؛ وهذه الليلة أرّقه الفضول أكثر من أي وقت مضى. هل سيتاح له يوماً أن يميط اللثام عن ذلك السر، لتنجلي الحقيقة أمام عينيه؟ هل سيرى في وقت ما سيدنا بلحمه ودمه؟

ترامى للسمع وطء حوافر خيول. فقبض على سلاحه في حركة عفوية، وهب واقفاً ينظر حوله. كان رفاقه نائمين، منكمشين تحت أغطيتهم. وإذا بأحد السعاة يصل، ويتحدث بصوت منخفض مع أبي علي. أطفأ الحرس ماتبقى من نار امتثالاً لإيعاز خاطف. مامن شك أن العدو اقترب.

ومع ذلك فإن احساساً غريباً بالسكينة كان يملؤه. نظر إلى لمعان النجوم المرهف، فشعر بضآلته. هو نفسه ليس أكثر من نقطة ضائعة في الكون. لكن هذا الإحساس أمتعه بعض الشيء.

ـ ربما سأنال يوماً الجنة، همس في نفسه. آه! لو أنالها حقاً!.

حلم بالصبايا اللواتي ينتظرنه هناك... بتلك الحوريات الحسان ذوات العيون السوداء والجسد الأبيض. استعرض في خياله النساء اللواتي عرفهن، أمه، أخواته، بعض قريباته. «لابد أن الحوريات يختلفن كثيراً، قال في نفسه. إنهن على أية حال جديرات بأن يهرق دمه لأجلهن في هذه الدنيا».

وتخيل نفسه يدخل الفردوس الشهير، من باب مسيج، عرشت عليه

أوراق اللبلاب. وهو يجيل بناظريه من حوله، باحثاً عن كل الأشياء التي وعد بها القرآن الصالحين. رفع غطاءه، أجل، إنه حقاً في الجنة... وفتاة رائعة الحسن تأتي لملاقاته. كان يتأرجح بين النوم واليقظة. إلا أن تلك الحال راقت له وخشي أن تنقطع الصلات الرقيقة معها، فظل على هذا المنوال إلى أن استغرق في النوم.

أطلق البوق نداءه الحربي المديد في الليل، وقُرعت الطبول وهب الجند للحال على أقدامهم. وأسرع الفدائيون يتمنطقون سيوفهم، ويضعون خوذات القتال على رؤوسهم، ممسكين بالرماح والتروس... اصطفوا، والنعاس لم يفارقهم بعد، وهم ينظرون خفية حولهم.

ـ جاء رسول معلناً أن جحافل السلطان اقتربت، همس ابن وقاص، وقد كان آخر من تولى الحراسة.

أقبل أبو سراقة مستعرضاً إياهم على عجل وأمرهم بتهيئة سهامهم وكناناتهم. ثم اختار لهم موقعاً على رأس الهضبة، بالقرب من مركز الحراسة. كانوا يترقبون وهم منبطحون على الأرض، حابسي الأنفس، إلا أن العدو لم يبد على عجلة من أمره. وبعد برهة، تناولوا من جرابهم تيناً مجففاً وتمراً وخبزاً مجففاً، وشرعوا يمضغون بهدوء تمضية للوقت.

استبقيت الخيول في أسفل الهضبة، واثنان من الجند يقومان بالاعتناء بها. ومن حين لآخر كان يشق الأفق صهيل قلق. وأسفر النهار أخيراً، وتمكن الفدائيون من رؤية التلة التي عسكر فيها غالبية الجند. وكان أبو علي قد جعل فرسانه خلف صف من الأدغال، وقد وقفوا إلى جانب دوابهم، والرمح أو السيف في اليد، مستعدين للركوب. أما الرماة فقد تم نشرهم على رأس الهضبة، وسهامهم على الأوتار مشدودة.

استعرض الداعي الكبير المفرزة ليستوثق من وجود كل فرد في [illegible]. وسار خلفه جندي ممسكاً بعنان فرسه. ليقتربا أخيراً من الفدائيين.

وماهي إلا برهة قصيرة حتى بدت للعيان بقعة بيضاء صغيرة في فضاء الوادي. ترك أبو علي مركز المراقبة حيث كان قد اتخذ فيه قبل قليل مكاناً له، وجرى بأقصى سرعة لينضم إلى أبي سراقة. وأشار مبهور النفس إلى البقعة أمامهما مباشرة.

ـ جهزوا سهامكم! أمر الداعي.

أخذت السحابة البيضاء تكبر بسرعة، وسرعان ما خرج منها فارس. وبدا للعيان وهو يلكز حصانه بغضب شديد. لمحه أبو علي عن بعد بطرف عينيه.

ـ لاترموا السهام! إنه من جماعتنا، صرخ.

وامتطى حصانه وانحدر بسرعة عن الهضبة، وأشار إلى بضعة فرسان بأن يأتوا إليه. نزع من يد أحدهم الراية وانطلق على جناح السرعة نحو الزائر، الذي، وقد باغتته تلك الحركة الغريبة، شد لجام فرسه. لكن ما أن لمح الراية البيضاء، حتى أطلق بإقدام فرسه نحو أبي علي، ليتعرف عليه ذاك الأخير قائلاً:

ـ بوزروك أوميد!

ـ أبو علي! ـ وأشار الفارس إلى شيء ما.

اتجهت الأنظار كلها نحو الأفق، كان خط أسود يتضح، متموجاً على وقع زحف سريع. وسرعان ما أصبح بالإمكان تبين هيئة الفرسان. كانت رايات الخليفة السوداء تخفق فوق الرؤوس.

ـ شدوا السهام! أمر أبو سراقة

حث أبو علي وبوزروك أوميد خطاهما ليلحقا بالرجال المنتشرين على الهضبة. كان الجميع في رعشة من حماسة الحرب، وقد استعدوا للانقضاض.

وأُعطي أمر جديد لرماة السهام:

ـ ليختر كل واحد رجلاً ويصوب عليه!

أضحت خيالة الأعداء على مدى قريب، وتقدم فارس منهم بفرسه، شاقاً الطريق. ومالبثت طليعة الفرسان أن انحرفت شرقاً، متهيئة لدخول المضيق.

ـ ارموا!

وتطايرت السهام نحو الأتراك. وتدحرجت بضعة خيول على الأرض، ساحبة معها فرسانها. وبدا أن زحف المهاجمين يتعثر. ثم تردد صياح قائدهم، المعروف من القنزعة التي يضعها على خوذته، آمراً إياهم:

ـ هيا إلى المضيق!

كان أبو علي ينتظر تلك اللحظة فأطلق إشارته. وأخذ ينحدر عن الهضبة على رأس فرسانه، قاطعاً وبحركة مباغتة الطريق إلى المضيق، الذي لم يتح للأتراك الوقت لبلوغه. وسرعان ما تلاحم المقاتلون: وتطايرت السهام، وتشابكت الحراب، والتمعت السيوف فوق الهامات، واختلطت الرايات البيضاء مع الرايات السوداء.

ومن قمة الهضبة، كان الفدائيون يراقبون المعركة، وقلوبهم تخفق بإثارة يتعذر وصفها.

ـ هيا! إلى الخيول! إلى القتال!... صاح سليمان، وقد همّ بالعدو نحو الجياد.

وتحتم على أبي سراقة أن يهرول نحوه ليمسك به.

ـ هل أصابك الجنون؟ ألم تسمع الأمر؟

أرغى سليمان وأزبد غضباً، وألقى القوس والكنانة على الأرض حانقاً، وانبطح على الأرض كما أُمر من قبل، وهو يبكي ويعض قبضته كالمسعور.

تجمع الأتراك من جديد بعد أن فرقت شملهم مفاجأة الصدمة الأولى، محاولين فتح ثغرة جديدة تفضي بهم إلى المضيق، واستولى الغضب عليهم وهم يحاولون اقتحام مدخله. كان واضحاً اقتناع قائدهم بأن القسم الأكبر من الجند الإسماعيليين، قد تجمعوا في الوادي، وأن حصون القصر لابد أنها خاوية، فرأى في ذلك فرصة سانحة ليحتل بلا قتال أفضل المواقع. لما شاهد الفدائيون سقوط أوائل الضحايا في صفوف جنود آلموت، استشاطوا غضباً: كان أمراً غير محتمل أن يروا هذا وهم مكتوفو الأيدي.

مافتيء أبو سراقة يراقب الأفق وأخيراً، أخيراً ارتسم فيه خط جديد قاتم! لم يلحظه الفدائيون في البداية. لكن قلب أبي سراقة أخذ يخفق فرحاً حينما رأى بيارق الشهيد علي البيضاء تخفق فوق رؤوس القادمين. لقد حان الوقت الآن لإرسال الصبية إلى القتال. جال ببصره باحثاً عن علم فيالق الأعداء ثم أشار إليه، وصاح بالفدائيين قائلاً:

ـ هيا، إلى الخيول، عليكم بعلمهم! ولتتقدموا جميعاً بقلب رجل واحد!

أخذ الفتية يطلقون صيحات الفرح، منحدرين بسرعة عن السفح ليمتطوا ظهور خيولهم بلمح البصر. أخذت تلوح نصال السيوف، بينما يرفع جعفر عالياً البيرق الأبيض. وانقضوا في وقت واحد على القسم الأكبر من جند الأتراك الذين صعقتهم المفاجأة، مجبرين إياهم على التراجع إلى السيل. وانتهز سليمان بلبلتهم فصرع أول أعدائه وهو يصرّ شفتيه. بيد أن جعفر الذي أراد متابعة انتصار الفدائيين، قاد رفاقه وراءه وأحدث ثغرة واسعة في قلب العدو. أخذ يوسف يصيح ويضرب بوحشية من حوله، مجبراً المحيطين به على التراجع. أما ابن طاهر فقد تتابعت ضرباته دون هوادة على ترس صغير مستدير يحتمي وراءه تتريّ مقوس الساقين. تخلى الأخير عن رمحه، الذي أضحى غير نافع، وجهد متشنجاً، في سحب سيفه الثقيل من غمده قبل فوات الأوان. لكن قبضة الرجل على الترس تراخت أخيراً، وأخذ يسعى للظفر بمنجى يلتجيء إليه. كما تمكن سليمان ومن معه من أن يطرحوا أرضاً بعض الأعداء. وأخذ العلم الأبيض يقترب أكثر فأكثر من العلم الأسود...

بعد حين أدرك القائد التركي مقصد المقاتلين الجدد.

ـ دافعوا عن اللواء! زعق بصوت سمعه رجاله وأعداؤه معاً.

ـ اهجموا على قائدهم! صاح ابن طاهر.

تحلق الأتراك حول علمهم وقائدهم. وبعد هنيهة، انقض عليهم عبد الملك ورجال ميتسوفر. وسرعان ما تشتت شمل الأتراك كعصف تذروه الريح.

لكن سليمان لم يغب عن عينيه حامل لواء العدو، وكذلك لم يضع ابن طاهر قائد الأعداء عن بصره.

ـ تراجعوا! صاح ذاك الأخير. أنقذوا العلم!

لكن ابن طاهر كان بالقرب منه، فتشابكت سيوفهما. ومالبث رجال ميتسوفر أن هجموا في هذه اللحظة تماماً. وحاول بضعة أتراك أن يوقفوا تقدمهم. وجرى نزال مرعب كاد أن يهلك فيه القائد وفرسه. استطاع ابن طاهر الإفلات بخفة من ذاك الاشتباك. وأخذ يبحث بعينيه عن حامل لواء العدو، ورآه وهو يعدو بفرسه محاذياً السيل، وسليمان يطارده. فانطلق يلاحقه، متلهفاً لمدّ يد العون لرفيقه. وتبعه بضعة فتية.

تعقب سليمان حامل اللواء الذي أخذ يحث دابته هائجاً، جاعلاً الحربة المسنونة إلى جنبه ليمنع مطارده من أن يطيح به. ولما أصبح سليمان محاذياً له تقريباً، قام التركي بارتدادة مفاجئة فتلقى الفتى المتهور الحربة المسددة بإحكام، ليسقط عن جواده بتلك الضربة غير المتوقعة. صاح ابن طاهر؛ وهو يلكز بحنق جنبي حصانه، وبلمح البصر أصبح بالقرب من حامل اللواء. شحب وجهه لما رأى سليمان مطروحاً على الأرض، وربما ميتاً. فعزم على أمر واحد: أن ينفذ المهمة الموكلة في نزع العلم من العدو. طارد حتى حافة السيل التركي الذي شعر فجأة بالحافة المنحدرة تنهار تحت حوافر حصانه، فتدحرج هو ومطيته معاً وسط الماء المندفع. تردد ابن طاهر جزءاً من الثانية. لكن ما لبث أن نزل مسرعاً بدوره الضفة المنحدرة وأقحم فرسه في التيار. فخطفتهما دوامة كادت أن تبتلعهما، لكنهما سرعان ماظهرا مجدداً إلى السطح، فأخذ يسبح نحو التركي الذي كان يمسك بالعلم خارج الماء. لاحقه ابن طاهر بجواده برهة من الوقت ثم عاجل رأسه بضربة عنيفة من سيفه. فتراخت القبضة عن العلم واختفى التركي، بعد أن جرفته المياه، ليخفق من ثم علم الخلفاء بين يدي ابن طاهر.

انطلقت صيحات النصر من الضفة تحيي ابن طاهر. لكن التيار

جرفه بسرعة نحو مهبط النهر، وبدأ فرسه بالاختناق تحته. حاول جاهداً توجيه دابته نحو الضفة، بينما كان رفاقه يتتبعون حافة النهر مسرعين، وقد حرصوا على ألا يغيب عن أعينهم، وهم يحثونه على الصمود. وأفلح أحدهم في القفز إلى الأسفل، وألقى بنفسه منبطحاً فوق بقعة بارزة ثم مدّ حربته عبر التيار. وحلّ الآخرون حبالهم المشدودة على قرابيس سروجهم، وألقوا بها نحو صديقهم الذي لم يتسن له الوقت إلا لالتقاط حبل واحد في الهواء ربط به دابته. وهكذا تمكن الفدائيون من سحب ابن طاهر وفرسه إلى خارج الماء.

ـ كيف حال سليمان؟ سأل ابن طاهر لما أفلح في ارتقاء الضفة ـ وهو لم يسترد وعيه تماماً. ووضع لواء الأعداء في يد ابن وقاص.

نظر الفدائيون إلى بعضهم بعضاً.

ـ كيف حاله؟

التفتوا إلى الوراء. كان سليمان قد وصل على مهل، بوجه متكدر؛ ساحباً جواده خلفه. ركض ابن طاهر لملاقاته:

ـ إليك وحدك يعود فضل انتزاع هذا العلم من العدو، صاح به.

فبدرت من سليمان حركة تنم عن انزعاج.

ـ وكيف ذلك! في المرة الوحيدة التي أُتيحت لي فيها فرصة إنجاز عمل عظيم، تصرفت كالأحمق. لابد أن القدر لايقف إلى جانبي.

وخارت ساقاه وأخذ يشتم. ساعده رفاقه على اعتلاء صهوة حصانه. وإذا بصوت البوق يدوي، فقد حان وقت العودة إلى المعسكر.

كان الانتصار على الأتراك حاسماً. وسقط قائد سرية الأعداء، وسقط معه مائة واثنا عشر رجلاً ـ يضاف إليهم ستة وثلاثون جريحاً من الأسرى. أما الآخرون فقد تفرق شملهم في الأنحاء. وعاد مطاردوهم زرافات، وأخبروا عن عدد قتلاهم. أما الإسماعيليون فقد قُتل في صفوفهم ستة وعشرون رجلاً، وسقط جرحى مايقارب هذا العدد.

أوعز أبو علي بحفر حفرة كبيرة أسفل الهضبة لتلقى فيها جثث الأعداء. ثم أمر بحز رأس قائد الأتراك وبرفعه على رمح قصير، ليعرض من ثم في مكان مكشوف فوق قمة برج الحراسة. انضم إليهم مينوتشهر على رأس رجاله الذين ظلوا في القصر، وأخذوا يستمعون بشيء من الأسى لرواية المنتصرين المفخمة وهم يقصّون مغامرات المعركة. وقام الحكيم ومساعدوه بتضميد الجراح على نحو مؤقت، وقاموا بحمل المصابين على محفات إلى القلعة. أدرك الطبيب أن عملاً شاقاً في انتظاره هذا المساء.

ولما تم الانتهاء من نقل الجرحى ودفن أموات الأعداء، أمر أبوعلي باستدعاء الجند. فجعل الجنود رفاقهم الموتى وغنائم المنهزمين على ظهور الجمال والبغال، وامتطوا أحصنتهم وعادوا أدراجهم إلى القصر وسط صخب عاصف.

كان الحسن، من فوق برجه، يراقب سير المعركة. فشاهد كيف تدخل الفدائيون في القتال. وكيف كانت لعبد الملك وفرسان ميتسوفر الكلمة الأخيرة في هذه المعركة. كان في غاية الرضى.

دوت ضربة صنج منبهة إياه إلى وصول أخبار أخرى قبل قليل مرسلة إليه. لم يكن لأحد الحق، ولاحتى لخصيانه، تحت طائلة الموت، بالصعود إلى أعلى البرج إن لم يتم استدعاؤه. عاد إلى غرفته. وفيها كان ينتظره بوزرواك أوميد.

ركض الحسن نحوه وضمه إلى صدره.

ـ ماأشد سروري! صاح.

كان بوزروك أوميد، على النقيض من أبي علي، ذا طول وقوة، ووجه تدل ملامحه على النبل تحيطه لحية سوداء جعدة كبيرة، ولاتبدو فيها إلا بضعة خيوط فضية. كانت عيناه متقدتين، ونظرته تنم عن الإرادة والحزم. شفتاه ممتلئتان، ودقيقتان، لكن الابتسامة التي تفلت منهما تحمل شيئاً من التصلب وحتى القسوة. ومثله مثل بقية القادة، كان الزائر الجديد يرتدي جلباباً عربياً أبيض ويعتمر عمامة بيضاء، تنسدل منها على كتفيه كوفية واسعة. لكن ملابسه فصّلت من قماش

مختار، وضبطت بالتمام على قدّه. وحتى بعد هذه الرحلة الطويلة والشاقة، بدا وكأنه قد فرغ لتوه من التزين في انتظار استقبال ما.

ـ كدت أقع تحت سيوف الأتراك، قال ضاحكاً. في الأمس، وبعد صلاة العصر، حملت حمامتك الزاجلة إلي أمرك، وكنت بالكاد قد فرغت من إعطاء كامل التوجيهات بخصوص فترة غيابي حينما وصل مبعوثك: لقد اجتاز شاه رود سباحة. وما حدث أن الأتراك تركوا تحت أسواري مفرزة ذات بأس وقوة، ورسولك، خوفاً من أن يعترضوا سبيله، اختار طريق المياه!

ثم قص عليه كيف اتخذ هو نفسه الطريق الأقصر ـ عبر الضفة الأخرى ـ وكيف استطاع أخيراً أن يتخطى الأتراك. واجتاز السيل بمعبر ومطاردوه يتعقبونه؛ حتى أصبحوا على مقربة منه، إلى حد أنه لم يعد يخشى إلا أمراً واحداً: ألا يسنح الوقت لرجال آلموت، حينما يشاهدونه مقبلاً، بإنزال الجسر... أو إذا ماهم تمكنوا من ذلك، أن يستغل الأتراك إنزاله ليندفعوا في إثره إلى القلعة.

فرك الحسن يديه فرحاً.

ـ كل شيء يسير على أفضل وجه، كان ذلك كل تعليقه. سترى ماهيأت لك مع أبي علي. وستنبهر عيناك.

في اللحظة نفسها دخل أبو علي الحجرة، واستقبله الحسن بابتسامة عريضة قبل أن يعانقه.

ـ حقاً، لم يخب ظني فيك! قال له.

وشرح له بالتفصيل تلاحق أحداث المعركة. وكيف أثار اهتمامه على وجه الخصوص تصرف الفدائيين.

ـ هكذا إذن حفيد طاهر، شاعرنا، انتزع العلم! رائع، رائع!...

ـ إن المدعو سليمان، الذي اندفع في إثر حامل اللواء، وقع عن فرسه، فتكفل ابن طاهر بإنجاز المهمة، قال أبوعلي موضحاً. حينما وقع التركي في السيل طارده شاعرنا فيه؛ لم تكن هناك وسيلة أخرى للاستيلاء على هذا العلم!

ثم ناوله قائمة بقتلى المعركة واصفاً له ببضع كلمات الغنائم.

ـ لنذهب إلى قاعة الإجتماع، اقترح الحسن. أود أن أهنئ بنفسي رجالنا على هذا النصر الميمون.

كان الحكيم قد اختار بضعة فدائيين ليقدموا المعونة لمساعديه. وأراد أن يعلمهم بالمثال الحي كيف تجدر أن تكون الخدمة والعناية بالجرحى. فقام الفتية بمساعدته على تجبير الأطراف المكسورة وتضميد الجراح. وفي بعض الحالات الخطرة، كان يتحتم كي الجِراح، حتى أن رائحة اللحم المحترق مالبثت أن انتشرت في أرجاء قاعة التمريض كلها. كان الجرحى يزعقون وصرخاتهم تُسمع في القلعة كلها. وأما أولئك الذين تحتم نشر طرف من أطرافهم فقد كانت الغشية تنتابهم من حين لآخر، ولايستعيدون وعيهم إلا ليصرخوا من غمهم الشديد.

ـ أمر فظيع! تمتم ابن طاهر في نفسه.

ـ ياللحظ الذي نلناه، نحن الفدائيين الأغرار، إذ خرجنا من المعركة بكلفة زهيدة جداً، قال يوسف.

ـ إن الحرب حقاً شيء مفزع، تنهد نعيم.

ـ إنها على أية حال ليست للزغاليل من أمثالك، قال سليمان ساخراً.

ـ دع نعيم وشأنه، قال يوسف بغيظ واضح. لقد كان طيلة الوقت جانبي. وعلى حد علمي، لم أكن في مؤخرة الصفوف!

ـ لقد جعلت صرخاتك الأتراك يسدون آذانهم بدل القتال، قال سليمان متهكماً. كم هو مدهش أن يلوذ صرصارنا بحمايتك.

لكن عبيدة ذكره قائلاً:

ـ ولم تفلح في الوصول إلى العلم التركي، رغم هياجك الشديد.

امتقع وجه سليمان. ودون أن ينطق بكلمة واحدة، سار في إثر الحكيم الذي اقترب من جريح آخر.

كان اليوناني طبيباً بارعاً. ولم يؤثر فيه بكاء وتأوهات الجرحى. وبين الفينة والأخرى كان يبث الشجاعة في مريض ما، وقد ميزت

ممارسته لمهنته الخفة والثقة، حاله حال محترف ماهر. وفي الوقت نفسه كان يشرح للفدائيين مبادئ الجراحة، متبلاً كلامه بنتف من فلسفته الشخصية.

وكان أحد الأتراك قد كسر ذراع العريف أبونا. فجلس الحكيم بالقرب من سريره، ونزع عنه ضمادته، وأخذ لوحاً خشبياً صغيراً ناوله إياه فدائي، وشرع يعمل في جَبر الكسر. وبينما كان الجريح يتأوه ألماً، كان اليوناني يشرح قائلاً:

ـ إن التوق للانسجام في الجسم البشري من القوة بحيث أن الأجزاء المنفصلة لأحد الأطراف المكسورة تسعى عفوياً للتجمع وينتهي بها الأمر إلى الالتصاق ثانية ببعضها. وهذا التوق إلى إعادة التشكل تلك موجود أيضاً في الأجزاء السيئة التجمع إذ تنتهي إلى الالتحام ثانية فيما بينها. ومهارة الطبيب الجيد تكمن بالضبط ـ وذلك بفضل معرفته لآلية الجسم البشري ـ في تجنب مثل تلك الأخطاء وفي إعادة توحيد الأجزاء المفككة مستهدياً بمؤشرات الطبيعة.

حينما فرغ الحكيم من معالجة الجرحى الإسماعيليين، كان الإنهاك قد نال منه، ولما رأى عدد الجرحى الأتراك الذين مازالوا في انتظاره، أرسل ابن طاهر ليسأل أبي علي عما ينبغي أن يفعل بهم. وتمنى في سريرته أن يقدم لهم عناية مختصرة، أو حتى أن يتخلص من ذوي الجراح البالغة بسم فعال.

انطلق ابن طاهر ليتحرى الأمر لدى أبي سراقة، الذي انطلق ليستشير الداعي الكبير.

لكن الأوامر كانت كالتالي: «يجب أن يتلقى الأتراك العناية كما لو أنهم أصدقاء لنا. فقد نكون في حاجة إليهم كرهائن».

أرغى الطبيب وأزبد، وانهمك مجدداً في العمل. لم يعد هنالك مجال، هذه المرة، لتقوية أولئك النائحين بكلمات مشجعة. وأيضاً لم يعد هنالك مجال لتعليم الفدائيين الشبان بالأمثلة. فاكتفى بأن عهد إليهم بمهمات يسيرة، وبرز من بينهم عبيدة الذي استرعى انتباهه مظهراً أعلى درجات المهارة.

في ساعة متأخرة من الليل، فرغ الطبيب من آخر ضمادة. وأعطى أوامره الضرورية لمساعديه وعاد لينضم إلى نظرائه.

كان القادة مجتمعين في تلك الساعة في قاعة الاجتماع، منهمكين في الطعام والشراب، وقد استرسلوا في تعليقات كثيرة حول الأحداث والحركات التي ميزت هذا اليوم المشهود. وخمنوا القرارات التي يمكن أن يتخذها القائد الأعلى مستقبلاً، والنتائج المحتملة للنصر. وكال الجميع المديح لعبد الملك لتنفيذه المهمة الموكلة إليه على نحو رائع. ولما وصل الحسن والدعاة الكبار أصبحت البهجة في أوجها. كان وجه سيدهم يشع سروراً، وابتسامة فرحة ترعش وجنتيه وهو يحيي كل فرد منهم.

ـ إنكم أنصار رائعون، قال بعد أن تحلقوا ثانية حول الأطباق والأباريق.

وهنأ على نحو خاص أبا علي الذي أدار المعركة كلها. ثم توجه نحو عبد الملك وأراد معرفة كيف رتب مع ميتسوفر مسألة الحريم. وأثنى على تدخله الفعال في المعركة وشكره على ذلك. كما شكر أيضاً أبا سراقة الذي قاد الفدائيين، والذي نفذ أوامره على وجه الدقة. ثم نظر خلسة إلى القائد مينوتشهر، وارتسمت على وجهه ابتسامة ماكرة.

لم يشارك مينوتشهر في الحديث. كان مغتاظاً لاضطراره إلى البقاء مكتوف الأيدي تاركاً للآخرين جني ثمار النصر. كانت نظراته كئيبة، يأكل قليلاً ويشرب كثيراً. وانتفض جسده الجبار حينما تلاقت نظراته مع نظرات الحسن العابثة.

ـ هنالك اثنان منكم ـ تابع الحسن كلامه بصوت يرتعش بمكر لم يستطع إخفاءه ـ تستحق اليوم تضحيتهما تقديرنا الجليل. إن الشرف الأكبر للجندي الحق يتجلى في مقاتلة العدو. وهو ليس الشرف الأكبر وحسب، وإنما أيضاً الفرح الأكبر. ومن يجد نفسه مرغماً على التخلي عن ذاك الشرف وذاك الفرح، ليطيع بواعث أكثر سمواً، فهو إنما يبرهن على أنه رجل كامل، ويستحق احتراماً خاصاً.

نظر إلى الوجوه المندهشة حوله. ثم تابع بصوت وقور:

ـ كنت أقول: هناك اثنان من بيننا، رغم روح البطولة فيهما، اضطرا للتخلي عن هذا الشرف والفرح. إنهما مينوتشهر وأنا. وأسباب تصرفنا واضحة. إني أشعر بسرور غامر إذ أبليتم بلاء متميزاً في المعركة. لكن مينوتشهر، سينال اليوم شرف تعييني له أميراً وآمراً أعلى لجميع حاميات قصور الإسماعيلية.

نهض واقترب من القائد الذي وقف بدوره، وقد احمر وجهه من المفاجأة والاضطراب.

ـ أتود المزاح، ياسيدنا، قال متلجلجاً.

ـ أبداً، ياعزيزي، أجاب الحسن وهو يعانقه. لقد تم توقيع الأمر وسيسلمك إياه أبو علي.

سرت همهمة استحسان في القاعة.

ـ علاوة على هذا، ستنال النصيب نفسه الذي سيناله الآخرون من الغنيمة ـ أضاف ـ فنحن سنسوي في الحال مسألة القسمة.

فأحصى أمامهم بسرعة الدواب والأسلحة التي غنموها، وكان مناسباً أن أضاف إليها مبلغاً كبيراً من النقود المتداولة وبعض الأشياء الثمينة.

ـ سينال مينوتشهر وكل قائد اشترك في المعركة فرساً وعتاداً حربياً يليق بمرتبته، قال آمراً. كما سينال كل منهم عشرقطع ذهبية. وبالمثل سينال كل رجل من رجال ميتسوفر عشر قطع ذهبية، إضافة إلى عتاد بالنسبة للمأمورين والعرفاء. وسنرسل إلى ميتسوفر نفسه عشرة جمال ومئتي قطعة ذهبية شكراً له على قدومه لمساعدتنا. وستعوض خسارة عائلات الجنود الصرعى بعطاء من عشر قطع ذهبية. وسنوزع ماتبقى على الجنود. ولن يتلقى الفدائيون شيئاً، فبالنسبة إليهم ماهي إلا حظوة ظفروا بها كونهم استطاعوا القتال اليوم.

لما اختار كل منهم الحصة التي يستحقها، تابع الحسن كلامه:

ـ لنضرب الحديد وهو حام. إن خبر هزيمة الطلائع التركية سينتشر في جميع أرجاء إيران انتشار الريح. وسيستثير شجاعة

المخلصين لنا وأصدقاءنا، وسيثبت قلوب المترددين. ومن اليوم ستكون لدى الكثيرين ممن يؤيدون سراً مشروعنا الشجاعة لتأييدنا جهاراً. أما أهلنا، المحاصرون في القلاع، فسيثير هذا الخبر هممهم. وسيرغم أعداءنا على أن يحسبوا لنا ألف حساب، وسيذوق بعض الخونة عذاب الخوف.

كان يقصد بكلماته تلك الوزير الأكبر، وهزّ القادة رؤوسهم علامة الفهم.

ـ والآن، وبعد النصر، نستطيع أن نتوقع تدفقاً كبيراً للمؤمنين الجدد، تابع كلامه. إن المنطقة كلها حول رودبار تتعاطف معنا، ولن يتردد الآباء في إرسال أبنائهم إلى قصورنا ليقاتلوا معنا في سبيل القضية الإسماعيلية. وأنت، أبوسراقة، ستستقبلهم وستمتحنهم، تماماً كما فعلت منذ قليل. والذين هم أصغر سناً وأقوى وأكثر موهبة سيصبحون فدائيين. والشرط الذي أضعه لهذا يبقى نفسه: ألا يكونوا متزوجين وألا يكونوا عاشوا حياة المجون. وبعبارة مختصرة، ألايكونوا عرفوا النساء ولامسراتهن. أما الآخرون، فإن كانوا قادرين على حمل السلاح، فسيتخذون مكانهم بين جنودنا. سنحسن من أنظمتنا القديمة وسنضع أنظمة جديدة. وسينال من كان في القصر قبل المعركة بعض المغانم. والذين أبلوا بلاء حسناً اليوم سينالون ترقية. وستحدد الرتبة والقطاع والحقوق والواجبات بدقة. وسنصدر قوانين أكثر صرامة. كل امرئ يجب أن يكون جندياً ومؤمناً في آن معاً. وسنستأصل من النفوس كل الأهواء الرجسة. وسيُمنح الجنود اليوم الرخصة الأولى والأخيرة لشرب الخمر. سأقبل بذلك هذه المرة، إكراماً لجنود ميتسوفر الذين هم في القصر هذا المساء. وليعلم الجميع أننا أصحاب القرار في الحلال والحرام. وهكذا سيعملون لأجلنا دون علم. أجل، ليكن كسب مؤيدين جدد أحد أكبر اهتماماتنا! سنبعث الفدائيين يجوبون البلاد، كأفواج النحل، ليتكلموا عنا ويشهدوا لنا. وسنعلم أيضاً السجناء عقيدتنا. فليحاطوا إذن بالرعاية. فجيش السلطان يقترب، وربما لن يمضي وقت طويل حتى يضربوا طوق الحصار علينا. لهذا مانا‌س يعرفون هذا الجيش ضروريون لنا [illegible] حاملين

إيماننا وحماستنا إلى قلب صفوفه. وهكذا نحفر شيئاً فشيئاً في قواعدهم، وماتبقى سيخرّ من تلقائه.

أمر الحسن عبد الملك بأن يجمع عدداً لابأس به من الرجال وينطلق معهم في الصباح الباكر، إلى قلعة رودبار، ليطرد منها طليعة الجيش التركي إن كانت ماتزال هناك، وبعدئذ يجوب كل المنطقة حتى قزوين والري، ليبيد ماتبقى من مفارز العدو. وأخيراً وعلى وجه الخصوص، ينبغي التفكير ببث عيون تستطلع أمر جيش السلطان.

وعلى هذا، استأذن الحسن القادة بالإنصراف، وأشار إلى الدعاة الكبار ليعودوا معه إلى أجنحته.

احتفل رجال آلموت ورجال ميتسوفر بانتصار اليوم بإطلاق الصيحات والضحكات الصاخبة. وبادروا في السطحين السفليين إلى إشعال النيران ليشووا فوقها عجولاً كاملة وخرافاً مسمنة، وقد شكت في أسياخ ووضعت للشواء. انتظر الرجال وقد عيل صبرهم نضج اللحم وهم جالسون أومقرفصون حول النار. وبدأت رائحة شهية تدغدغ أنوفهم. وليحاولوا تسكين تضوع شهيتهم، أخذوا يقطعون الخبز قطعاً صغيرة ويجعلونها تحت الأسياخ لتتشرب الدهن الذي كان يتساقط قطرة فقطرة. وانطلقوا يتحدثون بجلبة عن بطولات النهار، وكل يحاول أن يزايد على الآخر وأن يعلوه في الفضل، وتبجح كل منهم بأفعاله البطولية، صحيحة كانت أم متخيلة، غير متردد في المغالاة في عدد الأعداء الذين سقطوا صرعى بيديه. وهكذا انتهى بهم الأمر إلى السباب والشجار. وحينما كان يُعلن عن قرب نضج خروف أو عجل، كانوا ينقضون بسكينهم عليه. ملوحين بقبضاتهم وحتى بسلاحهم، ليأخذ كل منهم مايريد من لحم. وبذل العرفاء جهداً شاقاً حتى استطاعوا إعادتهم إلى صوابهم. وفي آخر المطاف تيقن كل منهم أن هنالك مايكفي من الشواء لجميع الناس وأن الأمر لايستحق أن يسلخوا جلود بعضهم بعضاً. ثم أُحضرت قراب ضخمة على ظهر حمار، وشُرع بملء الجرار والأكواز. وتلقت كل مجموعة من عشرة رجال جرة كبيرة. وقام العرفاء بصبّ السائل الثمين.

ـ من أباح لنا شرب الخمر؟ قالوا مندهشين.

ـ سيدنا، أجاب العرفاء. إنه زعيم الإسماعيليين والنبي الجديد.

ـ هل له الحق في أن يحلل ماهو محرم؟

ـ بالطبع له الحق. فالله أعطاه سلطة الأمر والنهي. كما سلمه أيضاً المفتاح الذي يفتح باب الجنة.

ومالبث الرجال الذين لم يعتادوا شرب الخمر، أن شعروا بتأثيرها. فأخذوا يهتفون لقائد الإسماعيليين الأعلى. واسترسلوا في النقاش والخلاف حول مايعرفونه عن عقيدته. أما الجنود الأجانب، والذين بدا واضحاً إصابتهم بالحيرة فقد أرهقوا رجال آلموت بالأسئلة، وحزم عدد كبير منهم أمرهم على الانتقال إلى خدمة الحسن حال انتهاء فترة خدمتهم في جماعة ميتسوفر.

لاحظ الفدائيون المجتمعون تحت سقف جناح المدرسة الضجيج الصاخب أسفل منهم. وهم أيضاً كانوا قد شووا خرافاً وشبعوا منها. واستأنفوا مناقشاتهم، مستعرضين ثانية أحداث النهار. وكان لديهم مايكفي من الشراب. كانوا يعلمون أنهم فرقة الصفوة، وكادوا ينظرون بعين الاحتقار إلى أولئك الجنود المرتزقة الذين كانوا يرقصون رقصاً متوحشاً حول النيران. وتحدث أولئك الذين ساعدوا الطبيب على تضميد الجراح عن تجربتهم المزعجة. لكن الاستيلاء على الراية بخاصة أذكى أحاديثهم وأرعش قلوبهم.

الفصل التاسع

بينما كان جيش آلموت يقاتل الطلائع التركية، كانت حدائق القصر الخلفية، مثل قرية نمل، تضج بالحيوية والنشاط.

ومنذ الصباح الباكر، اصطحب عدي أباما إلى الفتيات. ولما رأت العجوز أنهن مازلن نائمات استبد بها الحنق، فأمسكت بالمطرقة وأخذت تضرب الصنج بشدة. خرجت الجميلات النائمات، وقد انتُزعن بفظاظة من غفوتهن، وهن يركضن، وعلى وجوههن ملامح الخوف. فاستقبلهن وابل من الشتائم.

ـ أيتها القِردة الكسولات! سيأتي سيدنا بين لحظة وأخرى وأنتن تتمرغن في فراشكن كما لو أنكن في يوم راحة! سيقطع رؤوسنا جميعاً، أنتن وأنا معكن، إن هو فاجأكن على هذه الحال.

ارتدين ملابسهن على عجل. فالإعلان عن زيارة سيدهن للحدائق ملأهن رعباً. وحددت مريم لهن المهام الواجب إنجازها، فانكببن بهمة على القيام بها، بينما أباما تهوج وتموج بينهن كالممسوسة.

ـ لو أجرؤ على إخبارهن بما ينتظرهن!... همست همساً عالياً بحيث يسمعنها.

كان هذا التصرف منها كافياً لزيادة حدة البلبلة. فتوجب على مريم أن تركز كل جهودها لتحفظ النظام.

وكان الحسن قد أرسل إليهن الورق والأصباغ والشموع، وكل مايلزم لصنع المصابيح. وأوضحت أباما لفاطمة كيفية استخدامها.

ومن فورها تدربت فاطمة على ذلك، وسرعان ما أصبح القنديل الأول جاهزاً. فعتمت غرفتها ووضعت شمعة صغيرة مشتعلة في جوف المصباح.

صاحت الفتيات من شدة الفرح.

ـ يالحماقتهن! لاتضيعن وقتكن وأنتن تشخصن ببصركن كالبلهاوات، الأجدر بكن أن تعملن! قالت العجوز الشريرة متذمرة.

وفي الحال وزعت فاطمة المهام. فأخذت بعضهن تكز نماذجها على الرق، وأخريات يمزجن الألوان، ومجموعة تلون ورق المصابيح؛ وأخرى تقص وتجمع وتلصق الأجزاء المنفصلة. ثم وُضعت الفوانيس المهيأة على هذا النحو، لتجف في أشعة الشمس وأخذ عددها يتصاعد بسرعة. وطيلة الوقت، لم تكف الآنسات عن التحدث فيما بينهن عن مجيء سيدنا.

ـ أتخيل أن تكون زيارته كزيارة ملك، قالت جادا بصوت مرتفع حالمة. وسيأتي مرتدياً الذهب والأرجوان...

ـ كلا! سيأتي إلينا مثل نبي! قالت حليمة معترضة.

ـ هذا ماقاله لك، مازحتها جادا.

تحرقت حليمة لتقص ماعهد لها به عدي ومريم. لكنها استطاعت بعد جهد أن تملك زمام نفسها. لم تكن أباما بعيدة ولم يكن من المستحب تحمل أسئلتها...

ـ لقد كان محمداً نبياً وملكاً في آن، قالت فاطمة موفقة بينهما.

ـ أتتكلمن عن سيدنا؟ استعلمت أباما التي مرت في تلك اللحظة بالقرب منهن، وعلى وجهها ضحكة شنيعة. لتعلمن أن بعضكن ربما ستقطع رؤوسهن هذا المساء! أجل، هذا المساء ليس أكثر، وستستقبلن في هذا المكان زيارة أخرى... واحفظن جيداً ماأقول: من تفصح عن نفسها منكن أمام الزائرين أو أين هي سيُقطع رأسها على الفور. سنرى حينئذ من بينكن التي تملك مايكفي من الرزانة لكي لاتكشف بالثرثرة عن نفسها!

التفتت الصبايا مذعورات نحو مريم.

ـ أباما على حق، قالت لهن. لقد أمر سيدنا بأن تهيأ تلك الحدائق لتكون على نسق الفردوس الحقيقي. وعليكن من اليوم أن تتصرفن كما لو أنكن تسكن فعلاً هذا المكان العلوي. أنتن لم تعدن فتيات عاديات، وإنما حوريات! وعليكن تمثيل دوركن خير تمثيل. وإن أنتن بذلتن جهداً، فلن يكون الأمر صعباً عليكن. وسأضيف بدوري: إن التي ستفصح عن نفسها أمام الزائرين فسيكون الموت من نصيبها على الفور.

ـ إذن، سأحترس من أن أفتح فمي بكلمة! قالت سارة.

ـ لكن يجب عليك أن تجيبي على جميع الأسئلة التي تطرح عليك على نحو مناسب! قالت أباما محذرة إياها.

وانتحبت حليمة بصوت عال قائلة:

ـ أما أنا، فسأختبئ حتى لايراني أحد!

ـ حاولي فقط! صرخت أباما، وسأستمتع برؤيتك مسمرة على خشبة الصلب.

استولى الرعب على الفتيات. فطأطأن رؤوسهن وانهمكن في عملهن في صمت.

ـ هيا، هيا، قالت فاطمة بعد حين. ماسيحدث سيحدث... لقد عشت أنا في أجنحة الحريم، وأريد أن أقوم بهذا الدور. عرفت الرجال. وليس صعباً خداعهم، وبخاصة الفتية، الذين لاتتألق بصيرتهم. على كل حال إني على ثقة أن تمثيل دور الحوريات في هذه الجنان لن يكون صعباً جداً.

ـ لقد فهمت الآن! صاحت سليقة. أجل فهمت أخيراً لمَ أُجبرنا أن نحفظ عن ظهر قلب مقاطع من القرآن تتحدث عن الجنة وسكناها. مارأيكن في ذلك؟

ابتسمت مريم. فهي لم تفكر بعد في هذا التفصيل. حتماً لقد فكر الحسن في كل شيء! «ياله من حالم جهنمي رهيب!»

ـ أنت على حق ياسليقة، زايدت زينب. وماهو أكيد أكثر أن نراجع تلك الدروس السامية...

ـ هيا، يافتيات! لديكن خيال واسع! سخرت فاطمة منهن بلطف.

تصرفن كما لو أنكن في الفردوس، بكل بساطة، وماتبقى سيأتي من تلقائه.

ـ كلما كنتن على سجيتكن، كلما نجحتن في هذا الدور، أوجزت مريم القول برصانة. لاتغالين في شيء، تصرفن كما لو أن من الطبيعي أنكن حوريات. ولأجل هذا لاتتكلمن إلا لتجبن على الأسئلة التي تطرح عليكن.

شعرت حليمة بتلاشي مخاوفها. وبطبعها الفضولي، قالت بطيش:

ـ لكن لماذا يريد سيدنا أن نتظاهر بأننا في الجنة!

ـ لتتعلم القردة الصغار أمثالكن شحذ لسانها، قالت أباما زاجرة.

كان معاذ ومصطفى قد وصلا منذ قليل ومعهما قفاف مملوءة بطيور شهية ـ يغلب عليها السماني وطيور الحجل وطرائد الماء ـ وأسماك رائعة. قامت أباما بإفراغها وتحضير الطيور في المطبخ مع مساعديها.

لكن فضول حليمة لم يهدأ.

ـ من هم أولئك الزائرون الذين علينا أن نقول لهم أننا حوريات؟

أثار سؤالها الضحك.

ـ أولاً، ليس عليك أن تقولي لهم هذا، قالت مريم مصححة كلامها بمكر، لأن الأمر سيجري بسهولة. ثانياً سيأتي سيدنا لزيارتنا لإعطاء توجيهات محددة في هذا الشأن. ولكي لاتطرحي أسئلة كثيرة، سأقول لك رأيي.

ـ إنهم شبان ذوو وسامة... بكل بساطة.

أصبح وجه حليمة أحمر كالخشخاش المنثور. والجميع ينظرن إليها.

ـ وأنا لن ألعب هذا الدور!

ـ يجب عليك القيام به، قالت مريم بلهجة صارمة.

ركلت حليمة الأرض بقدمها من جديد.

ـ لاأريد!

ـ حليمة!

حينئذ ورّد الغضب وجنتي مريم!

ـ أتريدين إذن أن تعصي أمر سيدنا؟

سكتت حليمة وقرصت شفتيها. لكن وكما نتوقع، مالبث غضبها أن سكن.

ـ وماذا سيحصل بعدئذ؟ سألت أخيراً بعد أن رُوضت.

ابتسمت مريم

ـ سترين.

بدأت الفتيات تمازحنها:

ـ عليك أن تعانقيهم، قالت فاطمة.

ـ وتتصرفي معهم كما تعلمت عند أباما، أضافت سارة بخبث.

فهددتهن قائلة:

ـ سأرمي رؤوسكن بشيء، إن لم تدعوني وشأني.

هدأتهن مريم قائلة:

ـ الأفضل أن تعملن! فقد ضاع وقت كثير في الثرثرة!

كانت سارة في ركن تلصق وتخيط المصابيح. فما كان من حليمة إلا أن لاذت بالقرب منها. وبعد حين، تصالحت الفتاتان، لكن وفق أساس آخر، كما قالت حليمة. وكانت فاطمة قد صنعت لهما نردين من الخشب الصلب، وأخذت حليمة تلعب بهما بشغف. وأضحت سارة في هذه اللعبة صديقة حميمة لها. كانتا تلعبان بأشياء مختلفة: جوز، موز، برتقال، حلوى، قبلات؛ وكانتا تسألان النرد ليخبرهما عمن تحبان. وحينما تدعو هذه الصاحبة أو تلك حليمة لتأخذ قيلولة بالقرب منها، لم تكن حليمة لتنسى أن تستخير النرد، الذي كانت تحمله معها على الدوام، مدسوساً في نطاقها، لتعرف إن كان من المناسب قبول تلك الدعوة أو ردها.

وهكذا أخرجت المكعبين الخشبيين الصغيرين من مكمنهما ودعت سارة إلى اللعب ـ وكانتا قد حرصتا على إخفاء ورقة كبيرة خلف الستارة. واقترحت سارة أن يكون رهانها بضعة جوزات كانت تحملها.

فإن هي ربحت، فعلى حليمة أن تسمح لها بتقبيلها عدد تلك الجوزات. وماحدث بعدئذ أن سارة خسرت الجوز. وحسب الاتفاق كان عليها إن خسرت ثانية، أن تدع حليمة تشدّ أذنيها. وكان الربح من نصيب حليمة على الدوام.

ـ لي الحق في أن أشد أذنيك أربع مرات، أصرت حليمة بفرح ماكر.

أخذت سارة تراقبها عن كثب.

ـ لماذا تنظرين إلى النرد قبل أن تلقينه؟ أرادت أن تعرف.

ـ هكذا أفعل دائماً... هذا كل شيء.

اقترحت سارة أن تسألا النرد من التي ستكون من نصيب أجمل الشباب.

فرمت حليمة عدداً كبيراً.

ـ حليمة، أنت تغشين. لقد رأيتك تديرين النرد في يدك بحيث يخرج بعدد كبير... ثم تلقينه على مهل... العبي مثلي، وإلا سأتوقف عن اللعب.

جربت حليمة وخسرت.

ـ أرأيت؟ ابتسمت سارة. ها أنت تخسرين عندما لاتغشين.

ـ إن سار الأمر على هذا المنوال فلا أريد اللعب، قالت حليمة مستاءة، إنما سروري في الربح.

ـ كيف تفعلين هذا؟... وإن أنا غششت أيضاً؟

ـ لا! لاينبغي أن تفعلي هذا.

ـ إنه أمر مقيت، أنت لك الحق في الخداع وأنا، علي أن أكون بلهاءك؟

أقبلت مريم نحوهما.

ـ ماذا يوجد أيضاً بينكما؟

أسرعت سارة إلى إخفاء النرد بين ركبتيها.

ـ نحن نتناقش حول أفضل طريقة للصق هذه الفوانيس...

أبعدت مريم بقدمها ركبة سارة. فلاحظت النرد واستبد بها الغضب.

ـ هكذا إذن! بين لحظة وأخرى قد يصل سيدنا وأنتما تلعبان بالنرد مطمئنتين! تابعا اللعب، تابعا! هذا المساء، ستلعبان برأسيكما! وحدجت حليمة بنظرة صارمة.

ـ حليمة، هذا النرد لك. أنتِ لايمكن إصلاحك! لافائدة ترجى منكِ بتاتاً!

التقطت النرد وأخذته.

ـ نكتفي بهذا القدر، قالت وهي تبتعد.

اغرورقت عينا حليمة بالدمع، لكنها لم ترد إظهار ذلك، واستأنفت بابتسامة عنيدة النقاش المقطوع:

ـ قلت لك أن النرد لايهمني إن لم يكن الفوز من نصيبي. ثم هي غلطتك إذ حدث كل هذا. فأنت التي خاصمتني.

وشرعتا في العمل.

ـ اسمعي!... كم هذا أمر رائع! قالت سارة حالمة. إن اعتقد هؤلاء الزائرون فعلاً أننا حوريات، فسيصبحون من فورهم عشاقاً! أليس كذلك؟...

اقتنصت حليمة الفرصة وقالت:

ـ خسارة أن النرد لم يعد بين أيدينا، وإلا لكنا استطعنا أن نسأله في الحال من التي سيختارونها حبيبة، أنا أم أنت.

ـ لو فعلنا هذا لغششت من جديد. من حسن الحظ أن مريم استولت عليه... ومن جهة أخرى، أنا أعرف جيداً من التي سيختارونها من بيننا...

ـ أتحسبين أنك أنت الأثيرة! اعلمي أن ذلك لن يخطر حتى على بالهم.

ـ أتعرفين فقط كيف يقع رجل في الغرام، أيتها القردة الساذجة! ستختبئين في ركن ولن يلحظك أحد. هذا ما سينتظرك.

أحست حليمة بالدمع يغرق عينيها.

ـ سأخبرهم عنك، قالت مهددة إياها.

ـ حاولي فقط، وسيغرقون في الضحك!

ـ مهلاً! سأقول لهم أنك مغرمة بي... نعم، هذا ما سأخبرهم به إن لم تدعيني وشأني!

التمعت عينا سارة.

ـ أيمكنك فعل ذلك؟

نهضت حليمة واقفة.

ـ سأقول لهم الحقيقة وحسب...

ثم ارتسمت ابتسامة غريبة على وجهها، ومسحت دموعها وذهبت لتنضم إلى مجموعة أخرى.

بدا أن الفتيات تغلبن بسرعة على الخوف الذي جلبته لهن مهمتهن الحساسة. فاختلط الضحك المرح بصراخ الطيور المذبوحة وبصوت شحذ السكاكين.

ـ في المساء، عندما يضاء كل شيء، سنشعر حقاً أننا في الجنة، أقنعت سليقة نفسها. لم أعد خائفة. سنكون جميعاً محجوبات، وسنغني ونرقص مثل حوريات حقيقيات...

ـ أجل، سيكون ذلك سهلاً عليك، أنتِ الحسناء ذات الرقص البديع، تنهدت صفية.

ـ أنتن جميعاً جميلات، وجميعكن تعرفن الرقص!

ـ سيحدث على الأقل تغير في حياتنا الرتيبة، قالت فاطمة مبتهجة. وسننفع لشيء ما أخيراً. وإلا كم الخسارة كبيرة أن تذهب تلك الدراسة الواسعة والجهود الكبيرة عبثاً.

ـ هل سيقطع سيدنا رؤوسنا حقاً، إن نحن أفصحنا عن أنفسنا؟ سألت جادا بقلق.

ـ مامن شك في ذلك، قالت مريم محذرة إياهن. ماقاله سيفعله. وأنتن لاتكن طائشات. تريثن وفكرن قبل التكلم.

ـ لاأدري لماذا، لست خائفة على الإطلاق، قالت فاطمة المرحة.

ـ لكن لو أن واحدة منا رغم ذلك نسيت نفسها؟ قالت صفية في إصرار.

ـ على الأخرى حينئذ أن تستدرك الأمر في الحال، أوضحت فاطمة.

ـ وكيف تستدرك الأمر؟

ـ مثلاً تحيل الأمر إلى مزاح، أو تعطيه معنى آخر.

ـ أود أن أكون إلى جانبك، قالت جادا.

ـ وأنا أيضاً، قالت فتاة أخرى ـ وأسرعن جميعاً في التعبير عن الرغبة ذاتها.

كانت فاطمة تبتسم بكثير من الثقة.

ـ هيا ياصبايا، لاتكُنَّ خائفات، عندما يتوجب عمل شيء ما، ينبغي عمله. لدي احساس أن كل شيء سيسير على مايرام.

أصبحت كل الفوانيس جاهزة تقريباً.

ـ أترين كيف تسير الأمور حسناً عندما تردن ذلك، قالت مريم مجاملة إياهن. والآن اتبعنني، سأريكن شيئاً.

وقادتهن إلى غرفة ظلت حتى ذلك الحين موصدة بعناية. فتحتها. فلم تحر الصبايا شيئاً غير الحملقة مشدوهات. كان مخزناً كاملاً من الملابس، ضم أثواب حرير مطرزة بالذهب والفضة، ومعاطف محاطة بفرو الثعالب، أغطية رأس، وصنادل مطرزة تطريزاً أنيقاً. وكل ماتفخر بعرضه أسواق سمرقند وبخارى، وكابول وأصفهان، وبغداد والبصرة، تكدس في هذه الغرفة الصغيرة. وتيجان من الذهب والفضة مزخرفة بالألماس، وأطواق لؤلؤ، وأساور ومشابك ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة، حلي من الفيروز، وأقراط تزاحم الألماس فيها واللازورد... بدت الروائع تلك وكأنها لاتنتهي! وظلت الفتيات فاغرات الفم مندهشات.

- ولمن كل هذا؟ سألت حليمة.

- لسيدنا، قالت مريم.

- حقاً، إن سيدنا لغني!...

- بل أكثر غنى من السلطان والخليفة.

- وهذا كله تحت تصرفنا، أوضحت مريم. فلتختر كل واحدة لنفسها مايلائمها أكثر، ولها الحق أن تحمله إلى غرفتها.

وأمرت الصبايا بأن يقسن الأردية وأغطية الرأس الحريرية. وألقت على أكتافهن المعاطف المطرزة بالذهب والفضة، وألبست أصابعهن الخواتم، وجعلتهن يجربن الأساور، والمشابك، والأطواق، وعلقت في آذانهن القروط، وأعطتهن الصدارات، والصنادل. ووضعت تحت تصرف كل منهن مرآة معدنية صغيرة متقنة الصنع على نحو أخاذ، وكذلك صندوقاً مملوءاً بالعنبر والعطور. وجربت عليهن أخيراً التيجان والأوشحة، وعمامات صغيرة وقبعات ذات أشكال لاتعد ولاتحصى. لم تكن تحلم أي منهن بمثل هذا الترف... الذي بدا لهن أنه يليق بالأميرات وحدهن.

- فعلاً لن يصعب علينا تخيل أنفسنا حوريات! صاحت حليمة، وقد احمرت وجنتاها إثارة.

- ألم أقل لكنّ ذلك؟ قالت فاطمة مبتهجة. والأمر المزعج الوحيد أننا في النهاية لن يعود بوسعنا التصديق بأننا فتيات عاديات.

واتشحت حليمة بوشاح رقيق. ولبست طيلساناً تركته ينسدل على كتفيها، كما رأت مريم تفعل في الليلة التي عادت فيها من جناح سيدنا.

- ياالله! يالجمالها! صاحت سارة.

احمر وجه حليمة. لقد أرادت أن تكون أجمل فتاة بينهن، وسمحت لهذه الكلمات أن تفلت منها بسذاجة:

- لكن عندما يأتي الزائرون، لن نلبس جميعنا هكذا!

- لم مازلت تلجئين إلى التنافس؟ قالت مريم مازحة.

- سأخجل...

وتناولت كل منهن ثروتها وأخذتها إلى غرفتها. ودوى البوق أخيراً، وهرعت أباما من مطبخها.

- بسرعة، بسرعة! حاولن أن تكن جاهزات. لقد وصل سيدنا.

كان الحسن قد استدعى إليه كبار الدعاة ليجري معهم محادثة أدرك أنها ستكون حاسمة. أضاء بنفسه المصابيح وتأكد من أن السجاد يخفي جيداً النوافذ. وأحضر أحد الخصيان جرّة كبيرة من الخمر. تمدد الرجال على الأرائك وجرة الخمر تنتقل من يد إلى يد.

- لقد استدعيتك من رودبار، أيها الطيب بوزروك أوميد، استهل الحسن كلامه، وذلك لأدعك تطلع بنفسك على وصيتي، وكذلك الأمر بالنسبة لأبي علي. لقد رغبت كثيراً في أن يكون حسين القيني إلى جانبكم، لكن الأحداث سبقتني وخوزستان من البعد بحيث لم يتسن لي من الوقت مايكفي لأن أستدعيه. إن الأمر يتعلق بتحديد مبدأ الخلافة المتبع في نظامنا...

ابتسم أبو علي ابتسامة ناعمة وقال:

- تتكلم كما لو أنك في الغد ستغادر هذا العالم. يبدو عليك أنك متعجل جداً لإبلاغنا برغباتك! وماذا لو أن بوزروك أوميد وأنا أكَلَنا الدود قبلك؟

- لقد ذكرت حسين القيني، أضاف بوزروك أوميد، أنسيت ابنك الحسين؟ إنه مع ذلك وريثك الشرعي.

وثب الحسن واقفاً، كما لو أن ثعباناً لدغه، وأخذ يذرع الغرفة بخطواته زاعقاً:

- لاتذكرني بهذا العجل المتوحش! إن نظامي قائم على العقل، وليس على آراء مسبّقة حمقاء! ابني! ابني! أي ابن؟ أأرسل إلى الشيطان هذه الفكرة الرائعة التي في بالي، حينما أعهد بنظامي إلى ابن أحمق جاءني عن طريق مصادفة مضحكة؟ أفضّل في هذا الشأن، أن أحذو حذو الكنيسة الكاثوليكية، التي لاتنصب زعيماً لها إلا من هو أكثر كفاءة. إن الأنظمة التي ترتكز على روابط القربى والدم لاتلبث أن

تتقهقر خطواتها... على حين أن المؤسسة الرومانية لاتزال قائمة منذ ألف سنة! أبنائي؟ أخوتي؟ أنتم أبنائي وأخوتي كما يأمر العقل. وأفكاري لاترتكز إلا على العقل.

كان كبار الدعاة في وضع حرج.

ـ لو أني عرفت أن ملاحظتي ستغضبك إلى هذا الحد، لكنت سكت، كن على يقين من هذا، قال بوزروك أوميد. لكن كيف يخطر ببالي أن نموذجك، فيما يتعلق بالقربى والإرث هو... لنقل، شديد الخصوصية.

ابتسم الحسن. وشعر ببعض الخجل لانفعاله على ذاك النحو.

ـ أنا أيضاً، فكرت أولاً أن أضع آمالي في روابط القربى... كان ذلك لدى عودتي من مصر، أخذ يقص عليهم ليبرر تصرفه. لقد استدرجت ابني إلي، وقد كان وسيماً قوياً يسر مرآه الناظر. وقلت لنفسي: سترى فيه شبابك. أخذته إلى مدرستي، و... وكيف أوضح لكم خيبة أملي؟ أين ذاك التشوق لمعرفة الحقيقة، ذاك النداء للقمم الذي زعزع روحي عندما كنت في مثل عمره؟ لم أجد فيه حتى ظلاً لذلك. وكاستهلال للحديث، قلت له: «إن القرآن كتاب مقفل بسبعة أختام». وإذا بي أتلقى منه هذه الإجابة: «وأنا لاشأن لي بنزعها.» ـ «لكن أليس عندك رغبة بأن تحذر الأسرار التي لم تتكشف للعوام؟» ـ «لا ليس عندي أية رغبة في هذا.» لم أستطع أن أفهم هذه الوقاحة. ولكي أهز شعوره، قصصت عليه كفاح شبابي. «وماذا جنيت اليوم من كل ماسبق لتتعب على هذا النحو؟» تلك كانت نتيجة ماباح به أب إلى ابنه من أسرار. ولكي أصعقه، لكي أخرجه من هدوئه، قررت أن أعهد إليه بسرنا الأخير. «أتدري ماتعلمه عقيدتنا بوصفه ذروة المعرفة؟ صرخت: لا شيء صحيح، كل شيء مباح!» فما كان منه إلا أن أشار بيده قائلاً: «لقد اهتممت بتلك الأمور حينما كنت في الرابعة عشرة من عمري.» هكذا إذن، تلك المعرفة التي حاولت الوصول إليها طيلة حياتي، والتي دفعني مبدؤها الأخير لمواجهة كل الأخطار، وزيارة كل المدارس، ودراسة نتاج كل الفلاسفة، اكتسبها هو منذ أن كان في الرابعة عشرة! وتملكني الحنق: هكذا إذن، ولد ابني بحكمة فطرية!... ياللمهزلة! وهو الذي لم يدرك حتى أدنى غرض للعلم! لقد أغضبتني غباوته. فعهدت به إلى

حسين القيني ليخدم تحت إمرته كجندي بسيط. وأنتم تعلمون ماجرى بعد ذلك...

نظر الدعاة في أوجه بعضهم بعضاً. وأخذ بوزروك أوميد يفكر بابنه محمد الذي يحبه بحنان. ألم يفكر بإرساله إلى مدرسة الحسن ليجعل منه فدائياً؟ أصابته تلك الفكرة فجأة بالقشعريرة. وإذ بأبي علي يطرح السؤال الذي كان على شفتي بوزروك أوميد:

ـ أمر حيرني، يا ابن الصباح... سمعتك دوماً تقول إن نظامنا قائم على العقل. فماذا ترمي بالضبط من ذلك؟

جعل الحسن يديه خلف ظهره وشرع يخطو في الغرفة بخطى وئيدة. ثم استهل كلامه قائلاً:

ـ إن فكرة حكومتي، ليست جديدة تماماً. فقبل تسعين سنة، جرب في القاهرة الخليفة المشهور (الحاكم) القيام بتجربة مشابهة حينما أعلن نفسه إلهاً متجسداً. لكن هذا الامتياز التعسفي خلخل عقله بشكل جلي. فاضطرب تفكيره إلى حد أنه اعتقد هو نفسه بأصله الالهي. بيد أن دعاته أورثونا تقليداً قيماً. أقصد بذلك مبدأنا السامي الذي طبقه (الحاكم) وكان فيه هلاكه...

ـ ألا يبدو لك يا ابن الصباح، قال أبو علي مصّراً، أنه ومنذ أن اطلع خلق كثير على حكمتنا، فإن مبدأنا فقد بعض قيمته؟

ـ تلك الحكمة التي بحسبها لاشيء صحيح، وكل شيء مباح، هي سيف ذو حدين، إني أقر بذلك: ومثال ابني البائس يظهر هذا بوضوح. فمن لم تهيئه فطرته لها، لا يرى فيها إلا خليطاً مشوشاً من كلمات فارغة. لكن الرجل المهيأ لها يراها نجماً هادياً يرشده طيلة حياته. إن القرامطة والدروز المنحدرين أيضاً من (الحاكم) يعلمون أن الحكيم عليه اجتياز الدرجات التسع للمعرفة قبل الوصول إلى الهدف. لقد أجج دعاتهم حماس الأتباع، وهم يروون لهم القصص الرائعة عن سلالة علي وقدوم المهدي. واكتفى غالبية أولئك الأتباع بتلك الحكايات اليسيرة على الفهم. أما من هم أكثر تطلباً، فقد أرادوا معرفة المزيد، فبينوا لهم أن القرآن صورة معجزة، يحيطها معنى خفي على نحو سري. فإن برز منهم من لم يقنع بعد، فإن المعلم لا يتردد في أن يبين

له ضعف إيمانه بالقرآن وبالإسلام عموماً. ومن أراد أن يذهب أبعد من ذلك أيضاً، فلا بد من تلقينه أن جميع الأديان، بما فيها من حق وباطل، إنما هي على قدم المساواة. وهكذا إلى أن تبقى هنالك نخبة من المريدين مهيأة لتلقي المبدأ السامي، القائم على إنكار جميع العقائد والتقاليد. وبلوغ هذه الدرجة يتطلب من النصير أكبر قدر من الشجاعة وأكبر قدر من القوة. لأنه يتوجب عليه منذ ذلك الحين أن يشق طريقه في الحياة دون أرض صلبة يقف عليها، ودون عصا تهدي خطواته. ولا يصيبنكم الخوف: فهذا المبدأ غير قابل لأن يفقد تأثيره إذا ما شاع. فمن طبع الناس أن غالبيتهم لا تفقه أبداً الغاية الخفية التي تُكشف لها.

ـ لقد بدأت أفهم الأمر على نحو أفضل، قاطعه أبو علي. لكنك قلت لنا منذ قليل أنك أحضرتنا بخصوص الوصية والخلافة. فما الذي قادك إلى التفكير بأمور كهذه؟ وأنت مازلت قوياً وفي صحة جيدة.

ضحك الحسن. واستمر يذرع الغرفة بخطواته، وعيون الداعييْن الكبيرين لا تفارقانه.

ـ لا يدري أحد ما يخبئه الغد لكما. إن الوصية التي قررتها تتطلب من منفذها دراية واسعة مسبقة ببعض التفاصيل التي تحمل شيئاً من الخصوصية... ربما اخترتكما مع حسين القيني لتكونوا ورثتي، وأريد اليوم، وأنتما الاثنان على الأقل حاضران هنا، أن أكشف لكما عن خطتي: هذه الخطة التي يقوم عليها مستقبل نظامنا. وأعترف أني اقتبست بعض عناصر هذه الفكرة العزيزة على نفسي من (الحاكم) المنكود الحظ. وحتى من أنصار كنيسة روما! بيد أن هذه الخطة في جوهرها من ابتكاري الشخصي. اصغيا إلي.

وتمدد بالقرب منهما وابتسامة كابتسامة الأطفال مرتسمة على شفتيه: كانت ابتسامة شخص يعلم أن ما سيقوله سيبعث على الضحك، وحتى سيعتبر أمراً غريباً.

ـ أتتذكرون وعد النبي محمد بنعيم فردوس الآخرة لأولئك الذين يموتون والسيف في أيديهم في سبيل الاسلام؟ إن هؤلاء سينعمون بوطء عشب المروج والحقول، مستلقين على ضفاف الجداول

المتهامسة. يستنشقون أريج الأزهار المسكر وهي تتألق حولهم. ويأكلون طعاماً شهياً وفاكهة مما يتخيرون. وتخدمهم حور عين ذوات جمال آخاذ في مقصورات من البلور. ورغم السماحة التي يبدينها لهم، إلا أنهن يحتفظن بحياء وعذرية دائمة؛ كما ويقدمن لهم خمراً في قوارير من ذهب لا تُذهب العقول. وهكذا تتوالى أيامهم الخالدة في بذخ ونعيم مقيم!

تبادل الداعيان الكبيران، اللذان كانا يلاحظان ابن الصباح، نظرات الحيرة.

ـ نعرف جيداً كل ذلك، قال أبو علي مبتسماً. بإمكانك أن تصدقنا.

ـ ممتاز! تعلمون أيضاً أن أوائل المؤمنين، الذين حمستهم تلك الوعود، كانوا يقاتلون كالأسود، مستهدين بزعيمهم وبعقيدته. وينجزون بفرح كبير كل ما يأمرهم به. ويقال إن بعضهم مات والابتسامة على شفتيه، وهو يتأمل في خياله تلك الخيرات التي تنتظره في العالم الآخر. واحسرتاه بعد موت النبي محمد لِما أصاب هذا الأمل وهذا الإيمان بتلك الوعود الجميلة من وهن. لقد انطفأت حمية المؤمنين، حينما اختاروا التشبث بمبادئ مادية: فعصفور في اليد خير من عصفورين توعد بهما. وحتى اليوم لم يرجع أحد من العالم الآخر ليقول لنا إن كان هنالك حقاً ماوعد به النبي محمد. ولو أردنا أن نقارن أنفسنا بالنبي محمد، لو قابلنا فكرتنا مع فكرة الاسلام الأول، فسنرغم للتسليم بمدى غلبة النبي محمد في هذه المقارنة. لأن إيمان الأتباع الأوائل أتاح لهم فعلاً إنجاز المعجزات. والحقيقة أن نظاماً كالذي تخيلته، قائماً على العقل وحده، خالياً من تلك المعجزات، لايمكن أن يقوم على أرض الواقع. ولهذا فهدفي الأول أن أجمع، بالتربية، أنصاراً يتأجج فيهم مجدداً مثل ذلك الايمان.

ـ تستطيع أن تهنئ نفسك، ياابن الصباح، قال أبو علي مداهناً. فقد أثبت الفدائيون هذا الصباح أنك نجحت في مسعاك.

ـ هيا، هيا يا عزيزي، أتظن أني لا أعلم كم هؤلاء الفدائيون هم صورة باهتة مقارنة بمؤمني النبي محمد الأولين؟ لكني سأقول لك

شيئاً: عليّ رغم ذلك أن أعثر على الوسيلة التي تمكنني من الحصول على أكثر بكثير مما حصل عليه النبي محمد نفسه!

ـ إنك ترهقنا كفهد صيد يلاحق طريدته! قال بوزروك أوميد. ياللأسرار المخبأة خلف ابتسامتك!... وقمت بكل تلك المواربات لتستثير فضولنا. هيا! إلى ماذا ترمي على وجه الدقة؟

ـ إن مخططي مخطط هائل، استطرد الحسن. وأنا بحاجة إلى مؤمنين يتشوقون للموت تشوقاً لايهابون معه شيئاً. يجب أن يعشقوا الموت! أريد أن يسعوا إليه، أن يبحثوا عنه، أن يرجوه الرأفة بهم. كرجائهم عذراء قاسية قليلة السخاء.

ضج أبو علي وبوزروك أوميد بالضحك، مقتنعين بأن الحسن وبحسب عادته القديمة لابد أنه يسخر منهما... وأن من الأفضل إظهار عدم تصديقه.

لكن الحسن لم تهن عزيمته:

ـ اصغيا!. إن مؤسستنا يجب أن تكون من القوة بحيث تستطيع الوقوف في وجه كل عدو، وحتى إن لزم الأمر، في وجه العالم أجمع. يجب أن تصبح مجلساً أعلى لشؤون هذا العالم السفلي. لكن ولمساعدتنا على بلوغ ذاك الهدف، يجب أن يهيم مؤمنونا بالموت! وهكذا نمن عليهم منّاً خاصاً إذا أرسلناهم إلى هلاكهم. وهم بالطبع لن يختاروا بأنفسهم طريقة نهايتهم. وكل موت نسمح به ينبغي أن يجلب إلينا مكاسب محددة. هذا هو لبّ مخططي، وهو في الوقت نفسه الوصية التي أريد أن أبوح بها اليوم إليكما.

ورغم أنه كان يتكلم والابتسامة على وجهه، إلا أن صوته كان يشوبه حماس غريب. وسرعان ماساورت الداعيين الكبيرين الشكوك نحوه.

ـ إني أتساءل فيما إذا كان انتصارنا اليوم على الأتراك قد ملأك إثارة، باختصار، أتساءل إن كنت تمزح أو...

ولم يستطع إتمام كلماته.

ـ أو ماذا؟... تابع كلامك! قال الحسن هازئاً. يبدو أنك ظننت لتوك

ظن الريس اللمباني، حينما أقمت عنده في أصفهان. إني أقرأ ما في قلبيكما. أنتما تقولان لنفسيكما: قد أصبح مجنوناً! ومع ذلك، ياللمفاجأة التي حضرتها لكما!

ـ مهما يكن الأمر، أعلن أبو علي بلهجة متبرمة يلونها غضب مكبوت، ما دمنا سنبقى على شاكلتنا كما نحن اليوم، فاعلم أن لا أحد سيهيم حباً بالموت، وأقل من ذلك أيضاً لاأحد سيسعى إليه. إلا إن كنت قادراً على خلق رجل جديد ـ لايملك أن يكون عظيماً ولا مزوحاً ولا مجنوناً...

ـ وهذا بالضبط ما أريده! صاح الحسن جزلاً. لقد جبلت وشكلت الطين وأبدعت رجلاً جديداً حقاً!

استدار أبوعلي، مستاءً، نحو بوزروك أوميد.

ـ وستقول لنا بعد ذلك أن ابن الحاكم(*) كان مجنوناً!

غمز بوزروك أوميد الحسن بعينه. كان لايفتأ يصغي بانتباه إلى حديثهما، وبه حدس مبهم بأن لدى القائد الأعلى قصداً خفياً يسره.

ـ بدأتَ بالحديث عن الوصية، قال بوزروك أوميد للحسن، ثم تكلمت عن خيرات السماء التي وعد بها النبي محمد من يموت في سبيل رسالته، ثم تحدثت عن السلطة التي قد تمتد على العالم كله، والآن تريد أن تخلق رجلاً من الرأس إلى القدم يتوق إلى الموت! أود أن أدرك الصلة التي تجمع بين كل تلك الأشياء الجميلة...

ـ إن الصلة بين جميع هذه الأشياء بسيطة للغاية، قال الحسن ضاحكاً. فوصيتي لاتهدف إلا لأن تجعل منكما وريثين لمؤسسة شيدتها بنفسي. وستقوم قوة هذه المؤسسة على رجال من صنف جديد كل الجدة. يتميزون بشوقهم المحموم للموت، وبإخلاصهم الأعمى القائد الأعلى. ولن نجني تلك الفضائل النادرة منهم، إلا إذا أثرنا فيهم إيمانهم الكلي، وأشدد على كلمة إيمانهم! وعرّفناهم معرفة كاملة بالملذات التي تنتظرهم في الجنة بعد مماتهم!

(*) نلاحظ هنا مرة أخرى عدم الدقة التاريخية للكاتب، حيث يورد اسم الحاكم مرات عدة، ويبدله بابن الحاكم مرات أخرى.

- ياله من مشروع رائع! قال أبو علي منفعلاً. لقد سلمتَ منذ قليل بأن الايمان بالحياة الآخرة أصبح واهناً منذ موت النبي محمد، وها أنت تحلم بأن تؤسس على هذا الإيمان قوة جماعتنا! فلتدع الشيطان يفهمك، فأنا لاأفهمك أبداً!

انطلق الحسن في ضحكة غامرة. كان جلياً أن غضب مرؤوسه قد ملأه سروراً.

- هيا، يا أبا علي الطيب، أتجهل حقاً ما ينبغي فعله لتستثير إيمان أتباعنا بخيرات الفردوس، ولتحمس في الوقت نفسه الرغبة لديهم بالموت لينالوها في أسرع وقت ممكن!...

- افتح لهم باب الفردوس، طالما أنك فيه، وأرهم جماله! قال أبو علي غاضباً. ولتدعهم هناك حتى يستمتعوا تماماً!... ما دمت تعلم أن مفتاحه بيدك! وحينئذ أنا أيضاً سأموت طواعية...

- ها قد أوصلتكما حيث كنت أريد! قال الحسن مبتهجاً وهو ينهض واثباً. تعالا، ياطفلي، اتبعاني. سأريكما إياه فوراً: المفتاح الذي يفتح باب الجنة...

ووثب إلى وسط الغرفة كفتى في العشرين، وأزاح الستارة التي تخفي السلم المؤدي إلى قمة البرج.

- هيا! قال لهما، وتقدمهما إلى السطح.

تبادل الداعيان الكبيران النظرات خلف ظهره. لمس أبو علي جبهته برأس سبابته وقد تقطب جبينه حيرة. فأشار إليه بوزروك أوميد بأن يصبر قليلاً.

وصلا إلى السطح - وحتى ذاك اليوم، لم يسمح لأي منهما، باكتشاف ذلك المكان، الذي كان بالفعل مرصداً حقيقياً: فالأرض تمثل مِرقمة واسعة، رسمت عليها مدارات الأرض والكواكب حول الشمس، كما رُسم مدار القمر وكل تفاصيل فلك البروج. وعلى ألواح حساب صغيرة مغطاة بالأرقام، ومنحوتة أيضاً في الصخر، ظهرت هنا وهناك أشكال هندسية: دوائر، قطوع إهليلجية، قطوع مكافئة، وقطوع

زائدة. وفي كل الأنحاء رتبت أدوات قياس ورسم من جميع الأنواع والحجوم: اسطرلابات، فرجارات، أدوات كشوف مثلثاتية، وأدوات أخرى غامضة. وفي وسط السطح، كانت مزولة شمسية تشير بدقة إلى أجزاء الوقت. كما وُجد عنبر صغير لحفظ كل تلك الأجزاء الحساسة في أوقات الطقس الرديء. وفي مقابل ذاك العنبر، أقيمت دفيئة، ورفع سقفها الزجاجي في الوقت الراهن. ولم ينبت فيها شيء غير نوع من الأعشاب طويلة الساق، تشبه براعمها إلى حد الالتباس مكانس صغيرة مقلوبة. جال الدعاة بأبصارهم في هذا المكان بسرعة، لتتوقف نظراتهم على النقطة الأكثر ارتفاعاً في الحاجز، ففوق الطريق الدوار المحاذي للمنصة، وقف زنجي عملاق، وبين يديه مقمعة هائلة، يقوم بالحراسة، جامداً كالتمثال!

كانت الشمس قد أدفأت السطح، إلا أن ريحاً ناعمة طيبة قادمة من الجبال، بردت الجو وكأنها نسائم ثلوج بعيدة.

- يحسب المرء أنه في قمة جبل، قال بوزروك أوميد، وهو يستنشق هذا النسيم.

- وهل أقمت عشك على هذا الارتفاع لترى الجنة على نحو أفضل؟ قال أبو علي مازحاً. قد يكون هناك مفتاحك الشهير...

- أجل! من هذا المرصد أنظر إلى الجنة! أجاب الحسن بابتسامة غامضة. لكن المفتاح الذي يفتح باب الجنة موجود في هذه الدفيئة...

واقترب من البيت الزجاجي وأشار إلى النباتات المنثورة فيه.

تبعه الداعيان الكبيران، وهما يحدقان في وجوه بعضهما بعضاً، ويهزان رأسيهما.

- ياحسن، ياحسن! تذمر أبو علي بلطف، متى تعفينا من مزاحاتك؟ فنحن ثلاثتنا في سن وقور، وذوو مظهر رصين. صحيح أن هذا اليوم يوم ابتهاج، ومن جهتي فقد استحسنت على الدوام دعاباتك اللطيفة... لكن علي أن أقول، أنه ومنذ الصباح، لم تفوت علينا واحدة منها...

ارتسمت في عيني الحسن نظرة ثاقبة.

- هاهو المفتاح المؤدي إلى نعيم الجنة! نطق كلماته بهدوء.

- هذا العشب الرديء؟

ـ أجل. والمزاح ينتهي هناك!

وأشار بإصبعه إلى بعض الأرائك المهيأة في ظل مخبأ ودعاهما إلى الجلوس.

ـ إن العشب الذي أريتكما إياه، ما هو إلا القنب الهندي؛ ولتعلما أن نسغه يحوي مزايا فريدة. وسأصف لكما الآن طبيعة تلك المزايا. فمنذ عهد بعيد، في كابول، كنت ذات يوم مع أناس آخرين، ضيوفاً عند أمير ثري هندي المولد. استغرقت الوليمة التي أقامها طيلة الليل. ولما انفض المدعوون عند تباشير الصباح، استبقى الأمير بعضاً منا واصطحبنا إلى غرفة مخفية، وقد مدت بأكملها بالسجاد. كانت بضعة مصابيح خافتة تتلألأ هنا وهناك، بحيث كان المكان غارقاً في ما يشبه الظلمة. «لقد حضّرت على شرفكم، أعلن مضيفنا، لهواً خاصاً بعض الشيء... هل ستمتعكم زيارة مناطق ومدن لم يرها أحد منكم على الاطلاق؟ أقترح عليكم أن أصحبكم إليها. انظروا إني أملك سحراً أخاذاً، مخبوءاً في هذا الصندوق، لايدع شيئاً من أعاجيب الحكايا إلا وأظهره.» ثم فتح الصندوق الذهبي وقدم لنا حبوباً صغيرة حسبناها للوهلة الأولى ملبساً عادياً. «تفضلوا بتذوقها» قال لنا، فأطعناه دون تردد. وعندما وضعت واحدة من تلك الكرات في فمي، ظننت في البداية أنها نوع من الحلوى قدمها لنا الأمير على هذا الشكل دعابة منه. لكن لما ذاب غلاف السكر، فاجأني طعم مر المذاق. «المهم ألا يكون هنالك سم»، فكرت في البداية. لكن سرعان ما استولى علي مايشبه الدوار. وفي اللحظة التالية لاحظت شيئاً غريباً تماماً. فقد بدت أمامي ألوان السجاد الممدود على الجدران زاهية على نحو خارق. ومن حينها لم أعد أفكر في السم. وتركز كل انتباهي على هذا التلون غير المألوف للجدران. ثم انتبهت بعدئذ إلى أن أشكال السجاد نفسها بدأت تتحول على نحو غامض، وعلى الطنفسة المقابلة لي طُرّز شكل رجل ذي لحية سوداء يجلس وسط محظيات تحلقن حوله. ولاحظت فجأة أن الرجل اختفى، في حين نهضت المحظيات وشرعن في الرقص. عرفت أني أفكر تفكيراً أحمق: «لكن هذا مستحيل، فما هذه إلا مجرد لوحة» تفحصت بدقة تفاصيل المشهد المعروض أمامي: كانت المحظيات،

وفي تناقض غريب، ساكنات وراقصات في آن معاً، وبعد برهة، رأيت من المستحيل أن يتعلق الأمر بعناصر لوحة بسيطة. فالأجساد المعروضة أمام عيني تكشف عن حيوية عجيبة... فتورد بشرتها يماثل تماماً تورد البشرة الحية: فانصرفت تماماً عن الاعتقاد بوجود وهم ما!

وهكذا نسيت لا شعورياً وجود أصحابي، مستغرقاً بالكلية في الحادثة التي تجاوزت نطاق الحائط. وتلألأت الألوان، وتقدمت الشخصيات نحوي حتى توسطت الغرفة. وانهمكت الحسناوات في أداء حركات بهلوانية لا تعد ولا تحصى. أما أنا فقد بلغت آخر درجة من النشوة... وفجأة حدثت نفسي قائلاً: «ربما أكون أنا ذلك الساحر الذي يبعث كل هذه التغييرات» وعلى سبيل التجربة، أمرت ذهنياً تلك الكائنات الراقصة أمامي بتغيير وضعية حركاتها. وفي لمح البصر، نُفذ الأمر. وبذلك كنت سيد قوة لاتقهر! ألفيت نفسي أتقلد سلطة ملك، يحكم فضاءً بأشيائه المتحركة فيه، وقد استقل عن الزمن وعن قوانين الكون! ودهشت أني لم أكتشف قبلاً هذه السلطة التي لم أعهدها سابقاً في داخلي. «إذن بماذا أنا أدنى من الإله؟» قلت لنفسي، وذلك في غمرة اللذة التي أوصلتني إليها تلك القدرة العجيبة الأسطورية. وأخذت تتقلب تحت بصري مكعبات ذات نور قوي وألوان ساطعة، كانت صلبة ومطواعة على نحو غريب. وافتقرت إلى النَفَس لما رأيتها تحتشد في مدينة أكبر وأبهى من القاهرة، وأكثر جلالاً من بغداد، وأعظم من الاسكندرية. كانت منارات جليلة ترتقي السماء، وقباب من ذهب وفضة، وأخرى يغطيها الفخار الملون، تتوسع برؤوسها متجاوزة السقوف. واندفعت روحي مفعمة بالعظمة، والسعادة البالغة! «أجل أنت الآن حقاً إله! همست في نفسي، أجل، ها أنت أصبحت إلهاً! سيداً للكون!».

«ثم أخذت الصور تتلاشى أمامي. شعرت والحيرة تملؤني أني بلغت القمة، وعلي العودة من ثم إلى التفاهة اليومية، واستولى على روحي الخوف من فقدان تلك الملذات الكبيرة. بذلت أقصى جهدي لأحاول البقاء في هذا الارتفاع المهيب. لكن لم يكن في اليد حيلة، فأخذ

وهن غريب يخدّر أطرافي، وبدأت الألوان على الجدران تفقد ضوءها شيئاً فشيئاً، لتصبح ذات غبش أمام عيني؛ وفجأة فقدت الوعي... واستيقظت ودوار يلفني، وإحساس مقزز حاد يغمرني. لم أستطع التماسك لأستحضر ذكرى الصور التي رأيتها، والأحاسيس التي عشتها. هل ظللت طيلة ذلك الوقت مستيقظاً؟ هل كنت أحلم؟ لم أستطع الإجابة. كل ما توارد إلى خاطري آنذاك حمل بصمة حالة اليقظة. بيد لو أني لم أكن أحلم، فهل يمكن أن أرى أشياء لا وجود لها البتة؟ كان رأسي محطماً. وجاء خادم وقدم لي كوباً من حليب بارد. حينها فقط تذكرت أني لست وحدي في الغرفة. كان هناك زائرون آخرون نائمين حولي. ويتنفسون بصعوبة، وقد علا شحوب غريب وجوههم... أسرعت أرتب هندامي بعض الشيء، وغادرت المنزل خلسة...

كانت عيون الداعيين الكبيرين معلقة بشفتي الحسن طيلة روايته لقصته. ولما سكت، سأله أبو علي:

ـ وماذا فعلت لتعلم ما في تلك الكرات الصغيرة ذات الميزة الخارقة؟

ـ اسمعا بقية القصة، تابع الحسن حديثه. في مساء اليوم ذاته، اجتاحني قلق غريب. كنت غير قادر على الوقوف في مكاني، تساءلت ما الذي ينقصني، وفجأة وجدت نفسي، ودون إرادة مني تقريباً، في منزل أميرنا. استقبلني السيد بابتسامة، كما لو أنه كان في انتظاري. «هنا بقية المدعوين أيضاً، قال لي. في الحقيقة، إن من يتذوق تلك الأقراص المعجزة يتلهف ثانية وكل يوم للاستمتاع بالنعيم الذي عاشه لبرهة خلت. ولايعنّ على باله إلا أمر العودة إليه. ويصبح شيئاً فشيئاً عبداً لهذا المخدر، حتى أنه قد يفضل الموت على الحرمان منه. ولهذا أود أن أحذرك: فأنا لا أريد الامتناع عن إعطائك المزيد من هذه الحلوى الخطرة وحسب، بل وأمنع نفسي من البوح لك بسر تركيبتها.» وبعد بضعة أيام هدأ اضطرابي، لكن فضولي وثب في داخلي، وأقسمت أن أطّلع على هذا السر. وكان القدر إلى جانبي. إذ كانت هنالك امرأة تدعى أباما، اشتهرت بأنها أجمل محظيات كابول. وأعتقد أني حدثتكما عنها... وربما لم تنته مفاجأتكما في هذا الخصوص...

ارتسمت مجدداً على شفتي الحسن ابتسامته الغامضة. واستطرد قائلاً:

ـ كنت مقداماً وجسوراً، ولم أكن أسيطر طواعية على الهوى الذي كان يتأجج في قلبي. كان الأمير قد تزوج أباما، لكني أنا، ضيفه، أسرت قلبها. فكنا نلتقي ليلاً في حدائق سيدها، لنتذوق نعيم عناق محرم. كان لها سحر مدهش على عاشقها الأميري؛ فلما بحت لها بالفضول الذي يؤرقني لم يشق عليها أن تسلب منه سره بالحيلة. وهكذا علمت أن المادة التي تتكون منها تلك الأقراص الشهيرة اسمها الخشخاش أو الحشيش وتصنع من القنب الهندي الذي رأيتماه هنا، في هذه الدفيئة.

كانت الشمس قد مالت للغروب وانزووا ثلاثتهم في ركن ظليل. ولما فرغ الحسن من قصته، لزموا جميعاً الصمت، وعيونهم مسمرة على الأرض. كان أبوعلي متجهماً بينما كان بوزروك أوميد يتتبع ببصره خطّ الجبال. ليستأنف أخيراً الكلام قائلاً:

ـ لقد بدأت أستشف مقاصدك الدقيقة. فربما تريد بعصارة هذا النبات أن تلهب حماس المؤمنين، وتثير فيهم هوى معاودة الجرم مستعبداً بذلك إرادتهم.

ـ وتأمل أن تجني من ذلك نتائج فريدة؟ قال أبو علي متذمراً. وتود بحرمانهم من هذا الحشيش أو كما تريد أن تسميه، أن تؤثر على رغباتهم وتدفعهم إلى مواجهة الموت؟ اعذرني، فحساباتك تبدو لي خاطئة. وحتى لو أنهم لم يستطيعوا العيش دون هذا المخدر، فليس من المحتم أن يضحوا بأنفسهم بعدئذ حسب ما ترغب. قد يكون بمقدورك في عمرك هذا أن تتجنب محاولة كهذه. أتتخيل حقاً أنهم سيعتقدون بأن قرصاً يكفي لإيصالهم إلى الجنة! هيا إذن! لنحاول أن نكون منطقيين بعض الشيء... ولنتحدث بالأحرى عن الاجراءات الطارئة المناسب اتخاذها إزاء اقتراب جيش السلطان الجرار.

ـ إني أوافق على كل ماقلتهُ آنفاً، أجاب الحسن بلهجة تنم عن مكر. فأمام جيوش العدو التي تقترب لم يتبق لنا سوى مخرجين: إما أن نجهز على جناح السرعة قافلة ونحاول الهرب إلى أفريقيا، كما

نصحنا بذلك الحكيم ميتسوفر، أو أن نتأمل وقوع معجزة. وأنا، كما تعلمان، اخترت الطريق الثاني. لكن مازال أمامنا وقت لتغيير رأينا.

ـ أقسم بكل أيماني! قال أبو علي منفعلاً. أن الرجل المستقيم معك لا يدري كيف يقر قراره. أود لو أسمعك تتكلم مرة واحدة بوضوح!

ـ حسناً، سأحاول. لقد قلت لكما، إني في هذا المكان الذي نحن فيه، أملك المفتاح الذي يوصل إلى الجنة... لكن هذا ليس كل شيء. فمن هذا المكان ذاته، أستطيع أن ألاحظ أيضاً ما الذي يحدث هناك! إنكما لا تجهلان شيئاً عن أعمال وتحركات أولئك الذين يعيشون في هذا الجانب الممكن الوصول إليه من القصر... لكن هل سبق أن فكرتما بما يمكن أن يوجد في الجانب الآخر لهذا البرج؟ فلتتكرما إذن وترتقيا هذا الحاجز... ولتنظرا!

أسرع الداعيان الكبيران نحو فتحات الطريق الدوار وانحنيا فوق الحائط الهائل. ومن شدة ذهولهما لم يتفوها بكلمة. فتحت أقدامهما، وكما لو أنها مرسومة على خارطة كبيرة، امتدت جنائن رائعة مشجرة وسط المروج، وقد تناثرت الأزهار فيها؛ بينما أحاطت بتلك الجنائن شعبة من السيل كما لو أنها زردة واسعة. لقد كانت متاهة حقيقية من الغياض والسطوح، قسمتها جداول ماء مندفع، فحصرتها لتصبح أشبه بالجزر. وفي كل مكان انتشرت ممرات مفروشة بالحصى الأبيض، ومقصورات استراحة كما لو أنها قدّت من بلور، تتلألأ تحت الشمس، تحيط بها أشجار السرو الأسود، وانعكست صورتها على البرك المستديرة حيث تتدافع مياه الفوارات. وكانت تتحرك على طول الدروب، وفي الساحات، مجموعة من الكائنات الرشيقة، التي تكاد تطير من الخفة، وكأنها فراشات راقصة.

ـ معجزة، معجزة حقيقية، تمتم بوزروك أوميد بعد صمت طويل.

ـ إنها جنة لا يراها الشعراء ورواة الشرق حتى في أحلامهم... أضاف أبوعلي.

نهض الحسن واقترب منهما. وقد أضاء وجهه تعبير متألق من الرضى.

ـ لنفترض أنكما كنتما معي في كابول في منزل هذا الأمير، قال لهما. وابتلعتما أنتما أيضاً قرص الحشيش ذاك وأحسستما معي بكل عظمة النفس التي حدثتكما عنها... ثم فقدتما وعيكما. وحينما استيقظتما بعدئذ، لم تجدا نفسيكما في غرفة معتمة حيثما كنتما نائمين، بل في هذه الجنائن التي هي اليوم تحت أقدامكما، وسط فتيات ذوات حسن أخاذ يخدمنكما على النحو المرجو في الجنّة، فما الأفكار التي ستراودكما حينئذ؟

ـ لقد فكرت في كل شيء! قال أبو علي متعجباً. فتية وأغرار. لابد سأصدق أني في جنان الله!

ـ لكن متى وكيف استطعت أن تبدع كل هذا؟ قال بوزروك أوميد مندهشاً.

ـ إن ملوك الديلم، الذين بنوا آلموت، كانوا قد هيأوا أرض هذه الجنان المستقبلية وزرعوها. والزعماء الذين تتابعوا بعدئذ على القصر تركوا الأرض مهملة. فغزا العشب والأدغال البرية هذه الحدائق. حتى أن سلفي (مهدي) الطيب، ربما لم يدر أين المدخل إليها. لكني كنت قد سمعته يهمس بأمر ما حولها، ولما أصبح مشروعي «الفردوسي» ناضجاً في رأسي، شرعت أحضر للاستيلاء على القلعة. واتخذت بعدئذ بنفسي كل التدابير اللازمة، فوضعت مخططاً محدداً، ولما وصل خصياني من مصر، شرعنا في العمل. وهكذا استطعت أن أبدع هذه الجنة، قطعة إثر قطعة. وأنتما اليوم الوحيدان في القصر تعلمان بوجودها، إضافة إلي والخصيان.

ـ ألا تخشى أن يغدر بك خصيانك ذات يوم؟

سأل بوزروك أوميد قلقاً.

ـ يبدو أنكما لاتعرفانهم! أجاب الحسن. إنهم لايتحدثون عن حياتهم لأحد غيري. وآمرهم، القائد علي، يخلص لي إخلاصاً أعمى. وفضلاً عن ذلك فكل منهم يعرف أنه إن تكلم، فستكون عاقبته الموت فوراً. إني أثق بهم.

ـ ألم تفكر أن الضحايا الذين هيأت لهم هذه الجنة قد يفسدون حيلتك؟ اعترض أبو علي صاحب الذهن المرهف.

ـ لهذا السبب فأنا اخترت شباناً عديمي الخبرة. أياً منهم لايعرف الحب الذي تنثره المرأة. مامن أحد أكثر سذاجة من فتى لم يلمس امرأة قط؛ ووحدها المرأة تستطيع أن تجعل منه رجلاً كاملاً. فهي تنقل إليه الخبرة وينضج إلى جنبها. وحينما يفقد براءة جسده فإنه يفقد أيضاً براءة روحه. ولهذا فأي شيء يدفع بالشاب إلى ذلك الحدث المميت. ويصبح بالهوى الطاغي الذي أعمى بصيرته، مستعداً لتصديق أي شيء، شريطة أن يبلغ هدفه وحسب.

ـ ومن هم أولئك الشبان؟

أجابه الحسن بابتسامة.

ـ أهم الفدائيون؟

ـ أنت قلت ذلك.

عم صمت بارد المكان. واستمر الداعيان الكبيران في تأمل الحدائق تحت أقدامهما. والحسن يلاحظهما بشيء من الشفقة الساخرة.

ـ يبدو أنكما بلعتما لسانيكما؟ لقد سقط هذا الصباح، ستة وعشرون من رجالنا في قتالهم ضد طلائع السلطان. فإن نحن اشتبكنا مع جحافل جيشه الجرار، فسنهلك عن آخرنا. لهذا فأنا بحاجة إلى بضعة أبطال يرتجف أمامهم ملوك وأمراء هذا العالم. لقد استدعيتكما لأريكما كيف ستكون تربية رجال كهؤلاء الرجال. ستشاهدان هذا المساء معي تجربة حقيقية لتحويل الطبيعة الانسانية. أنت، أبو علي، الذي تعرف فدائيينا، سمي لي ثلاثة منهم يتميزون بقدراتهم وبأخلاقهم، على أن يمثل كل منهم نموذجاً محدداً: علينا أن نحدد أي نوع من الرجال يلائم على نحو خاص أهدافنا... وثلاث حدائق تنتظر أولئك الزائرين...

ألقى أبو علي نظرة على الحسن وقد شحب وجهه.

ـ ماذا تقصد يا ابن الصباح؟

ـ عين لي ثلاثة فدائيين تتباين أخلاق بعضهم عن بعض على نحو واضح.

حدق أبو علي فيه كالأبله، دون أن يستطيع النطق بكلمة واحدة.

ـ سأساعدك. من هو ذاك المتهور الذي أراد الهجوم على الأتراك دون انتظار الأوامر؟

ـ سليمان.

ـ ومن هو الأشد بأساً في الجماعة؟

ـ يوسف.

ـ حسناً، والثالث سيكون ابن طاهر. أشعر بفضول لأعرف كيف ستكون ردة فعله. فإن لم يتكهن هو بشيء، فلا أحد سيتكهن بشيء على الاطلاق!

كان عرق بارد يتصبب من جبين بوزروك أوميد. إذ فكر سابقاً بإرسال ابنه محمد إلى مدرسة الفدائيين ليبرهن للحسن على الثقة اللامحدودة التي يكنها له! واليوم لم يعد يرغب إلا بشيء واحد: أن يرى ابنه في أقصى مكان بعيد عن هنا. سيرسله إلى سوريا، إلى مصر، إلى أي مكان!... أما بالنسبة لأبي علي فإنه لم يدر ما السبيل الأفضل للتفكير بكل هذا.

راقبهما الحسن بابتسامة خفية.

ـ أفي حلقيكما عظمة؟ لاتنظرا إلى الأمور بمأساوية. سأقنعكما كما يجب، وسأظهر لكما صحة السلوك الواجب اتخاذه... حتى لتقدرا بعد ذلك على التأثير على كل الناس بمن فيهم أولئك المولعين بالفلسفة القديمة. هيا الآن لنلقي نظرة على خزانة ملابسي! سنتنكر ونزور فردوسنا كملوك حقيقيين.

سبقهما الحسن إلى غرفة صغيرة مجاورة لغرفته. وكان اثنان من الخصيان قد حضرا لهما أثواب التنكر. استبقى الحسن أحد الخدم وأرسل الآخر على وجه السرعة ليخبر ساكني الحدائق بوصول سيدنا.

بدّل الأصدقاء الثلاثة ملابسهم دون أن ينبسوا بكلمة، والخصي يساعدهم في ذلك. لبسوا صدارات مطرزة بالفضة تطريزاً كثيفاً، ثم دثر الحسن برداء أرجواني، بينما ارتدى الداعيان الكبيران ردائين زرقاوين ـ وأحاط بتلك الأردية فرو القاقُم، وبدا جلياً مدى نفاسته. وضع الحسن على رأسه تاجاً مرصعاً بالأحجار الكريمة. واعتمر كل

من الداعيين عمامة تعلوها صنوبرة مذهبة. انتعل الحسن صندلاً من الذهب، وصاحباه صندلين من الفضة. وتمنطقوا أخيراً بسيوف طويلة ذات مقابض مرهفة الصنع.

وعادا وهما في هذه الأبهة إلى غرفة قائدهما.

ـ أقسم بلحية الشهيد علي! صاح أبو علي حينما أصبحوا لوحدهم، أني أنا نفسي حسبتك ملكاً وأنت في هذا التنكر.

ـ سأجعلك أكثر سلطاناً من جميع الملوك، قال له الحسن.

ودعاهما إلى أخذ مكانهما في الحجيرة المتحركة التي دأب على النزول بها دون أن يراه أحد إلى أسفل البرج. وبضربة صنج، بدأت الغرفة الصغيرة تغور...أخذ أبو علي يحرك ذراعيه وكاد في اضطرابه أن يقلب رفيقه.

ـ اللعنة على هذا السحر! قال شاتماً، حينما أدرك أخيراً ما الذي يجري حوله. يبدو أنك تريد أن تصحبنا إلى جهنم أولاً!

ـ إن صديقنا الحسن يحب أن يحيط نفسه بأشياء على شاكلته: فريدة... قال بوزروك أوميد.

ـ هذا السحر ليس به شيء عجيب، أوضح الحسن. وإنما هو من ابتكار أرخميدس. ويقوم أساساً على نظام البكرات، ويشبه تماماً نظام آبارنا في الصحراء.

كان الحرس الخاص لسيدنا ينتظرون الرجال الثلاثة في البهو، مدرعين بدروع الحديد وعلى رؤوسهم الخوذ، ومدججين بالسلاح من رؤوسهم حتى أقدامهم: فعلاوة على السيوف التي تمنطقوا بها، حملوا المقامع على أكتافهم والحراب بأيديهم. وتقدم موكب حاملي الطبول والأبواق.

أعطي الأمر بإنزال الجسر، ثم ساروا بمحاذاة النهر صوب الحدائق. وتحتم أيضاً أن يثقوا بالخصيان الذين كانوا ينتظرون في الزوارق والذين قاموا بنقل الزائرين، واجتازوا بهم قطاع شلالين، إلى أن وصلوا سفح الحديقة الممتدة وسط الروضة.

الفصل العاشر

ركضت الفتيات إلى غرفهن ليتهيأن بسرعة لاستقبال الضيوف. غيرن ملابسهن، وتزين. ثم طلبت منهن مريم أن يتجمعن أمام الجناح الرئيس لمسكنهن، كن في حال من الهياج الشديد؛ حتى أن بعضهن لم تقو على الوقوف من الرجفة. قامت مريم بصفهن على شكل نصف دائرة واسعة وحاولت تهدئتهن. أما أباما الساخطة فقد كانت تجري في كل اتجاه، ممسكة رأسها بين يديها على نحو ينم عن اليأس. وهي تقول متحسرة:

ـ آه! يالمظهرهن! سيقتلنني. ماذا سأقول لسيدنا؟ إنه رجل صارم، ولاشيء يفوته.

توقفت أمام حليمة.

ـ أستحلفكن بجميع الأنبياء والشهداء! انظرن كيف تزينت هذه! ساق مغطاة حتى الكعب، وأخرى بالكاد إلى الركبة!

أخذت حليمة، التي نال منها الذعر، تصلح من شأن ملابسها. إلا أن جاراتها قهقهن رغماً عنهن وهن يتفرسن في أباما، التي كانت قد ربطت حزام سروالها ربطاً أخرق، فبدا نصف بطنها عارياً. اقتربت مريم منها وأشارت لبطنها هامسة:

ـ أعرف هذا، سيقتلنني!

ركضت أباما إلى الجناح وأصلحت أمرها هناك على عجل ... عادت مجدداً، بدت وكأنها الوقار بعينه.

رست القوارب ونزل الحسن مع حاشيته. اصطف الخصيان كل أربعة معاً، وأخذت الطبول تدق، والمزامير والأبواق تدوي.

ـ على التي يخاطبها سيدنا أن تقبل يده جاثية! قالت أباما الغاضبة.

ـ هل علينا أن نركع حينما يظهر؟ سألت فاطمة بقلق.

ـ لا، أجابت مريم. إنما اقتصرن على الانحناء الكبير إلى أن يأمركن برفع رؤوسكن.

ـ لامحالة، سيغمى علي، همست حليمة في أذن جادا.

لم تجب جادا. فقد كانت شاحبة، وشق عليها حتى ابتلاع ريقها.

أخذ الحسن يتفقد في طريقه الجنائن التي استضاف فيها صاحبيه.

ـ لم يحلم كسرى، ولا بهرام غور(*) بمشاهدة ما يضاهيها! قال بوزروك أوميد وقد علت الدهشة وجهه.

ـ ربما يجدر أن نضيف إليهما أنوشروان (**) أيضاً! قال أبو علي مزايداً.

ابتسم الحسن وقال:

ـ ماهذه إلا استعدادات، ولاتنسيا أن هذه الجنان ماهي إلا وسيلة لخوض التجربة التي سنقوم بها هذا المساء.

وصلوا وسط الحديقة. كانت فتيات في انتظارهم، وقد وقفن برصانة، في نصف دائرة، أمام جناحهن الصغير. تتقدمهن أباما ومريم؛ وبإشارة واحدة، انحنين جميعاً حتى الخصر.

ـ هذه العجوز التي ترونها هي أباما الشهيرة، قال الحسن لصاحبيه ضاحكاً.

(*) بهرام الخامس، ويلقب ببهرام غور (حمار الوحش): وهو حاكم من الأسرة المالكة الساسانية (امتد حكمه من عام 421 – 438)، اشتهر بحدة طبعه، وولعه بالبذخ والملذات.

(**) كسرى أنوشروان (531 – 579): واشتهر بأنه أكثر الملوك تألقاً في السلالة الساسانية.

ـ هكذا يخبو المجد في هذا العالم! تحسر أبو علي بصوت منخفض وبنبرة خالية من التهكم.

ـ كفاكن تحية! صاح الحسن وهو يرد بلطف على مبادرتهن.

اقتربت أباما ومريم منه وقبلتا يده.

حث الحسن صديقيه على تأمل الصبايا.

ـ هل يسركما مظهر الجنة هذه؟

ـ لو أني أُرسلت في شبابي لأكون بين حوريات كهؤلاء، فلن احتاج إلى حشيشك لأصدق أني في الجنة فعلاً، تمتم أبو علي.

ـ الحقيقة، أن كل واحدة أجمل من الأخرى، علق بوزروك أوميد برصانة.

توقف الموسيقيون عن العزف، وأشار الحسن إلى أنه يريد الكلام:

ـ ياصبايا جنائننا، استهل كلامه. لقد علمتكن رئيساتكن ما نريده منكن. أولاً: لتعلمن أن الرأفة لن تصيب أولئك اللواتي قد ينتهكن اوامرنا. لكننا سنكون متسامحين وكرماء إزاء اللواتي سينفذن تلك الأوامر بإخلاص. تغلب جيشنا هذا الصباح على جنود السلطان، الذين هاجمونا تحت راية الخليفة الغاصب. والقصر بأكمله يحتفل بهذا النصر. وقد جئناكن أنتن أيضاً بأسباب السرور. فالخمر وأشياء جميلة ستكون تحت تصرفكن. وقررنا أيضاً أن نرسل إليكن هذا المساء الفتية الثلاثة الأبطال الذين تميزوا على وجه الخصوص في معركة هذا الصباح. احتفين بهم كما لو أنهم أزواج لكنّ وعشاق! وأحطنهم حنانكن ولا تبخلن عليهم بنعومتكن! لقد مننا عليهم بهذه النعمة نزولاً ـند أمر الله. فقد جاءنا في إحدى الليالي رسول من الله واصطحبنا الى السماء السابعة، أمام العرش الرفيع. وأسرّ إلي الرب قائلاً: «يا ابن الصباح، نبينا وممثلنا! انظر جيداً إلى جنائننا. ثم ارجع إلى الأرض انشئ واحدة تحاكيها تماماً في أسفل قصرك. اجمع فيها الحسناوات امرهن، باسمي، أن يتصرفن فيها كما لو أنهن حوريات. ثم افتح باب ـانك للأبطال الذين يقاتلون ببسالة أكبر في سبيل قضيتنا العادلة.

وليثقوا أننا، جزاء لهم، قد استقبلناهم في مساكننا. والحقيقة، أن لأحد يسمح له، عدا النبي محمد وأنت، باجتياز حدود مملكتنا بجسده. بيد أن جنائنك، إن كانت صورة مطابقة لجنائننا، فإن زائريها، إن كانوا مؤمنين، لن يضرهم الأمر شيئاً؛ وسينعمون بتلك المسرات لاحقاً، في ظل سلطاننا، نعيماً لا يزول ولا يحول!» هكذا تكلم المولى ونحن نفذنا أوامره. ولهذا فنحن نطلب منكن أن تتصرفن تجاه أولئك الزائرين كما لو أنكن حوريات حقيقيات. وقد لا يتم جزاؤهم إلا إذا توافر هذا الشرط وحده. أما أولئك الأبطال الصادقون فهم: يوسف، وهو فتى شديد على العدو، رفيق بالصديق؛ وسليمان، وسيم كسهراد، شجاع كأسد؛ وابن طاهر، المثابر كفرهاد، والصلب كالبرونز - وهو فضلاً عن ذلك شاعر. وثلاثتهم انتزعوا من العدو رايته. فيوسف فتح الطريق، وسليمان انقض على العدو، وابن طاهر استولى على راية الحرب. إنهم يستحقون ألف مرة أن يتنعموا بنعيم الفردوس. وإذا ما أفصحتن عن أنفسكن، أو خاب أملهم فيكن، فرؤوسكن ستكون المسؤولة هذه الليلة بالذات. تلك هي مشيئتي التي لا تلين.

كانت الفتيات يرتجفن خوفاً. وما لبثت جادا التي انتابها الدوار، أن خرت على ركبتيها، شبه فاقدة الوعي. وبإشارة من الحسن نحوها، هرولت مريم لتحضر جرة ماء لإنعاشها. بعد ذلك انتحى الحسن بأباما ومريم جانباً، وقال مستعلماً:

- هل الجنائن الثلاث جاهزة؟ وكيف هي حال أولئك الفتيات؟

- إنهن في انتظار أوامرك، أجابت أباما.

- في كل جنينة، ينبغي أن تتسلم واحدة منهن القيادة وتشعر أنها المسؤولة عن نجاح المهمة. من هي الأكثر شجاعة والأكثر براعة؟

- إني أرشح فاطمة في المقام الأول، قالت مريم. فهي ماهر؛ وتتقن الفنون كلها.

- حسناً. ثم؟

- قد تكون سليقة. فهي المجلية الأولى في الرقص، ولا غبار عليها أيضاً فيما تبقى من الأمور.

- رائع. إنها مناسبة تماماً ليوسف؛ ولتستقبل فاطمة سليمان. وستكونين الثالثة، أنت، مريم...

وامتقع وجه مريم.

- أنت تمزح، يا ابن الصباح.

- ليس اليوم يوم مزاح. سيمضي الأمر كما أريد. إن ابن طاهر ثاقب النظر كالقط. ولو أني عهدت به إلى فتاة سواك، فقد يتنبه للخديعة.

- حسن!..

وبدت الدموع في عيني مريم... ولم يفت أباما ملاحظة تلك الدموع قبل أن تتوارى خلسة، وقد شفي غليلها فجأة، وامتلأت نفسها بمشاعر الرضى والاحتقار.

وعلق الحسن تعليقاً ساخراً قائلاً:

- من التي أخبرتني منذ عهد قريب أنه لم يعد ثمة ما يحمل لها الفرح في هذا العالم، وأن لعبة خطرة قد تطرد مللها الفظيع؟

- هكذا إذن أنت لم تحبني قط... قالت مريم متحسرة.

- وأكثر من ذلك، أني كنت بحاجة إليك! ولازلت بحاجة إليك. هيا!... كل هذا بسبب اقتراحي لك؟...

- ما يحزنني تلك اللعبة التي لعبتها علي.

- ومع ذلك، يا للفرصة الفريدة التي أقدمها لك هذا المساء! تابع الحسن كلامه بنفس النبرة الهازئة. ولن يعوزك بذل الكثير من ذكائك، والكثير من خبرتك، وسحرك لو أردت بلوغ ما يعتقد هذا الشاب بوجوده فعلاً في الجنة.

- إنك تهينني إهانة فظيعة..

- لم أكن أظن أنك تحسبين حساباً كبيراً لمشاعري. لكن ما تم إقراره سيمضي لا محالة. وأنا ألزمك بتنفيذ هذه المهمة. وإلا... اعلمي أني لن أضع استثناء لأجلك...

تلقت مريم كل تلك الكلمات مثل ضربة صاعقة. «علي أن أظل

قوية. أرغمت نفسها على هذا التفكير... وأن أخفي عنه خاصة نقاط ضعفي».

ـ إني مستعدة، قالت في نهاية الأمر.

ـ وأنا أشكرك.

توجه نحو الفتيات، وخاطبهن مباشرة قائلاً:

ـ سليقة! اختاري سبعة من صاحباتك. ستستقبلين يوسف معهن وأنت ستكونين المسؤولة عن نجاحهن.

ـ السمع والطاعة لك، سيدنا!

التفتت نحو رفيقاتها، ونادت بشجاعة:

ـ حنفية! أسما! حبيبة! فاطمة الصغيرة! رقية! زوفانا!... هيا..

ـ وهذه الصغيرة التي أغمي عليها، خذيها أيضاً، اقترح الحسن. فبها يكتمل العدد. ومن ثم كان على فاطمة أن تعين مجموعتها الصغيرة...

ـ زينب! خانم! توركان! شهيرة! سارة! ليلى! عائشة!

نظرت حليمة إلى فاطمة متوسلة، حينما رأتها معرضة عن اختيارها، ورجتها قائلة:

ـ خذيني أنا أيضاً!

ـ هذا يكفي، حزم الحسن الأمر.

لكنه لما رأى الفتيات يضحكن من خيبة أمل حليمة، قال وعلى وجهه ابتسامة مرحبة:

ـ حسناً، خذيها أيضاً.

إنها الآن مع فاطمة، وإلى جانبها سارة وزينب، فما الذي يمكن أن تخشاه؟

أسرعت وألقت بنفسها على ركبتي الحسن وأخذت تقبل يده.

ـ حسبك أن تكوني عاقلة، أيتها الضفدعة الصغيرة.

وربت بود على خدها وأرسلها مع الأخريات. فعادت إلى صفها

وقد أصابها الاحمرار والارتباك من فرط سعادتها. نظرت مريم إلى أولئك اللواتي بقين عندها... صفية، خديجة، سيت، جويرة، روقانا، وطيبة...

واستعادت السيطرة على نفسها أخيراً.

بيد أن الحسن استدعى إليه المسؤولات ليعهد إليهن بأوامره الأخيرة.

ـ سينقل الخصيان إلى هنا أبطالنا النائمين. أيقظوهم برقة، وبحذر شديد. وابدأن بتقديم الحليب والفاكهة لهم. وبإمكان كل واحدة منكن قبل أن تجيء إلى الزائرين أن تشرب كأس نبيذ ليمدها بالشجاعة. كأس واحدة ليس أكثر! ويمكنكن حينما يسكر الشبان أن تشربن، ولكن ليكن ذلك باعتدال! ثم أعددن لي تقريراً مفصلاً عن كل شيء... وأخيراً، احرصن جيداً على أن تصغين لإشارة الوداع. إذ سيدوي البوق ثلاث مرات. وفي تلك اللحظة عليكن أن تضعن في الكأس قرصاً تسلمه لكنّ أباما، وسينام فتياننا من تأثيره في الحال، ويجب أن يفرغوا الكأس فوراً! وما إن يغطوا في النوم، حتى يأتيهم الخصيان ويحملونهم.

ولما انتهى من كلامه، حدق مرة ثانية في وجوه الفتيات... ثم حنى رأسه انحناءة خفيفة كانت بمثابة وداع لهن. وفي القارب كان عدي وأباما في انتظاره. أعطاهما توجيهاته الأخيرة ودس في يد أباما لفافة صغيرة:

ـ سلمي هذه إلى المسؤولات الثلاث. ولا تظهري أبداً أمام الزائرين... لكن احرصي على ألا تبقى مريم وحدها مع بطلها الشاب...

ثم أشار لرجال حاشيته واتخذ طريقه عائداً وإياهم إلى القصر.

صرف الحسن صديقيه وصعد إلى قمة البرج الآخر للقصر، المقصور على خصيان حراسته. ودوى البوق معلناً وصوله. هرول القائد علي نحوه ليعلمه بأن كل شيء أصبح جاهزاً.

اصطف حوالى خمسين زنجياً عملاقاً على طول الممر، مدججين بأسلحتهم. قامات مشدودة مسمرة، وعيون لاتحيد عن النظر إلى

الأمام. رماهم الحسن بنظراته دون أن يتفوه بكلمة. في كل مرة يجد نفسه معهم، كان يراوده احساس بوجود خطر ما. بيد أن هذا الاحساس لم يكن ليزعجه، بل حمل إليه شيئاً من المتعة. كان يعلم أن ذراعاً واحدة من مئات الأذرع تلك لو انقضت بسلاحها عليه، فلن يبصر الشمس مجدداً. ومع ذلك فهذه الفكرة البسيطة لم تراود أحداً منهم! لماذا؟ ولماذا يطيعون أوامره تلك الطاعة العمياء؟ ألأن له سيطرة على الناس؟ «إنها قوة العقل! هذا ما كان يقوله لنفسه غالباً. وهي السلاح الوحيد القادر على كسب احترام هذه الحيوانات المخصية... التي لولا ذلك لما خشيت مخلوقاً في الكون».

لما فرغ من استعراض الرجال، انتحى بالقائد علي وأوعز إليه بالأوامر التالية:

ـ بعد صلاة العشاء الحق بي إلى الكهف مع عشرة من الرجال. سأحضر معي من برجي ثلاثة شباب نائمين. وأنتم ستضعونهم فوق محفات وتنقلونهم إلى الجنائن. وستجدون عدي هناك في انتظاركم. قولوا له أسماء أولئك الأبطال النائمين. وسيدلكم على الوجهة المقصودة. وأثناء الطريق، إن رأيتموهم يتقلبون في أسرتهم ويتأوهون، فلا ينتابكم القلق. لكن إن رفع أحدهم غطاءه وبدا أنه مستيقظ، فعلى من يرافق محفته أن يخنقه دون ضجة. والأمر نفسه في طريق العودة. وإن كان هنالك جثة، فسلمها إلي. هل فهمت كل شيء؟

ـ كل الفهم، ياسيدنا.

ـ حسناً، بعد صلاة العشاء!

حيا الحسن القائد بإشارة منه، ثم مرّ أمام الحرس المسمرين، عائداً إلى برجه سالكاً الطريق الخفي الأثير لديه.

كان أبو علي يسكن داخل القصر نفسه. وكان قد تخلى عن إحدى غرفه لبوزروك أوميد حينما جاء ذاك ليقيم في القصر. لدى عودتهما من الجنائن وحالما بدلا ثيابهما، ألفى الشريكان نفسيهما معاً مجدداً. مرت برهة صمت قصيرة كانا يراقبان بعضهما، كل منهما يحاول أن

يتكهن بما يدور في خلد الآخر، وأخيراً عزم أبو علي على سبر مافي صدر رفيقه:

ـ أود لو أعرف رأيك في كل ما يجري.

ـ لا ريب أن ابن الصباح رجل عظيم...

ـ أجل، رجل عظيم...

ـ لكن يبدو لي أحياناً... وما سنقوله هنا ينبغي أن يظل بيننا ـ أحسب أن بإمكاني الاعتماد عليك...

ـ أعدك بذلك.

ـ يبدو لي أحياناً أن عقله يقع فريسة هواجس غريبة... كما لو أن الأمور مشوشة في رأسه...

ـ هذا صحيح، قد تبدو أفكاره مجنونة... على الأقل تلك الأفكار الغريبة علينا، وحتى أنها تبدو مميتة، وتملؤني بالرعب أحياناً. لكن ما رأيك في مشروعه... في تلك الرسالة التي ينوي أن يعهد بها إلينا تحت اسم الإرث؟

ـ حسناً، إن أردت أن تعرف رأيي، فإن كل ما يجري يقسرني على التفكير قهراً بحكاية الملك نعمان الذي كلف سنّمار بأن يبني له القصر الشهير في الخورنق... وما كان جزاء المهندس المعمار، على ما يروى، إلا أن قذف به من فوق السور بناء على أوامر ولي نعمته. وذلك حالما أنجز عمله.

ـ في جميع الأحوال، هذا هو الأجر الذي سيناله الفدائيون لقاء إخلاصهم.

ـ وماذا ستفعل، أنت؟ أراد أن يعرف بوزروك أوميد بدوره.

ـ أنا؟

وغرق أبو علي لحظات طويلة في أفكاره. لقد أضحت حياته فارغة منذ أن فقد زوجتيه وولديه. حدث هذا منذ خمسة عشر عاماً، حينما اضطر إلى مغادرة قزوين على عجل إلى سوريا، ليلبي نداء عمله هناك كداعية. وترك في منزله امرأتيه: حبيبة، الأكبر سناً، والتي أنجبت له الولدين، وعائشة، الزوجة الأصغر، التي كان يحبها بحنان.

ولم يعد إلى بيته إلا بعد انقضاء ثلاث سنوات... ليعلم من فم حبيبة أن امرأته الجميلة عائشة قد استغلت غيابه لتستسلم لغزل متغندر ثري في الجوار. فما كان منه وقد أطارت الغيرة صوابه إلا أن قتل من فوره الرجل الغاوي، ومن ثم زوجته الخائنة. أما حبيبة، التي كشفت له عن المصيبة، فقد أرسلها في الحال مع ولديه، ليسكن غلواء غضبه، مع أول قافلة متجهة إلى البصرة... حيث أمر ببيعهم هناك عبيداً. وبعد حين من الزمن، وقد نال منه الندم، أخذ يفتش عنهم في جميع الأنحاء، لكنه لم يعثر عليهم أبداً. وفي ذاك الوقت دعاه الحسن للانضمام إلى مجموعته الصغيرة من المؤمنين. واليوم يشغل النضال من أجل الإسماعيلية كل حياته. ذلك كان قدره. وسمع أبو علي نفسه يجيب قائلاً: «ليس أمامي خيار. لقد بدأت المشوار وعلي اليوم إكماله».

حدق بوزروك أوميد في الأرض وقد بدا التجهم على وجهه، كانت روح الجندية متغلغلة فيه. ففي رودبار أمر بضرب عنق خمسة عشر رجلاً، لأنهم لم يحافظوا على وعدهم وأرادوا ترك صفوف الحركة الإسماعيلية. كان يرى أن كل خداع، وكل عنف، لا ضير فيهما، إن كانا يستهدفان العدو. لكن أن يلجأ إلى مثل ذلك الخداع تجاه أكثر مناصريه إخلاصاً!

ـ ماذا ينوي أن يفعل بالفدائيين بعد أن يغادروا هذه الجنان؟ سأل.

ـ لا أعلم. إن نجحت تجربته، فلا ريب أن هؤلاء «الحشاشين» سيصبحون بين يديه سلاحاً ترتعد منه فرائص العدو.

ـ وهل تظن أن تلك التجربة ستنجح؟

ـ هذا مكتوب في علم الغيب. إن فكرته تبدو لي فكرة مجنونة. لكن مخططه للاستيلاء على آلموت كان قد بدا لي أيضاً مجنوناً. ورغم ذلك نجح.

ـ إن أسلوب رؤيته للأمور غريب جداً علي...إنه ليشق علي في الواقع أن أتبعه.

ـ جنون العظماء يصنع الأعاجيب...

ـ اسمع...عندي ابن أثير على قلبي. أردت أنا أيضاً أن أجعل منه فدائياً في خدمة الحسن. لكن الحسن نفسه منعني من ذلك. وربما سأرسله اليوم إلى أقاصي المعمورة! وفي هذا المساء بالذات، سأرسل إليه رسولاً على جناح السرعة.

كان بوزروك أوميد يحب النساء والحياة. وامرأته الأولى، والدة الشاب محمد، لقيت حتفها في مخاض الولادة، فألمّ به حزن شديد لسنوات طوال. ثم عزم على اتخاذ امرأة جديدة، ثم أخرى، ثم ثالثة أيضاً، واليوم لديه حريم كامل في رودبار. ولم تستطع مشاعر الحنان لديهن جميعاً أن تخفف عنه حزن فقدانه لزوجته الأولى. كان من سلالة إسماعيل، ولذلك لم يتمكن من التقدم لخدمة السلطان. فسافر إلى مصر، ليقدمه الخليفة هناك إلى الحسن، الذي يدين له بكل شيء: الثروة، المكانة، السلطة. كان قائداً متميزاً، لكن عقله الحكيم أبى عليه أن يسلك طرقاً معوجة؛ كما أحب أيضاً أن يشعر بثبات سيره في نهج صائب، وأن يلقى السلوان في اختياراته.

ـ أرى، قال أخيراً، أن ليس في استطاعتنا فعل شيء آخر سوى اتباع الحسن. فإن وقع، وقعنا معه؛ وإن نجح، فالنجاح سيشفع لقساوة وسائله.

ـ ربما لا يوجد في الواقع خيار آخر أمامنا، قال صاحبه موافقاً. لكن في ما يتعلق بي، فإن المهمة ستكون أكثر سهولة: فقد أعجبت على الدوام بالحسن وأنا مستعد لاتباعه رغم كل شيء.

ما أن انتهت تلك المحادثة، حتى أسرع بوزروك أوميد إلى غرفته وكتب إلى ولده قائلاً: «ابني محمد، قرة عيني في حياتي! أستحلفك بألا تأتي إلى آلموت! اذهب إلى سوريا أو إن أردت إلى مصر. وهناك ابحث عن أصدقائي وقل لهم إني أنا الذي أرسلتك. فسيحتفون بك. اصغ إلى ما يقوله أب محب... ولن يجد قلبي الراحة حتى يتيقن من وصولك إلى هناك».

استدعى رسولاً وأرسله إلى الري إلى ميتسوفر.

ـ اسلك طريق الشرق، قال ناصحاً إياه، حذار أن تدركك طلائع السلطان. وسيخبرك ميتسوفر أين ستجد ابني محمد. فجدّ في البحث

عنه في الحال، وسلمه هذه الرسالة. وإذا أديت مهمتك على أكمل وجه، فإن جائزة قيمة في انتظارك حال عودتك إلى هنا.

ثم أعطاه مالاً للسفر، وتنفس الصعداء بعد قليل وهو يراه يغادر القصر.

في المساء ذاته، نزل الطبيب وأبو سراقة مؤقتاً في غرف حريمهما الفارغة. وكانا قد هيآ لنفسيهما قطعاً من شواء ضخم، وكذلك جرة خمر كبيرة، وأخذا يتبادلان الشرب منها على نحو مفرط، وهما يتأملان عبر أوراق الشجر المجاورة مظاهر الفوضى السائدة في الأسفل أمام القصر. كان الوقت مناسباً للتفلسف.

ـ يالها من حياة مضطربة، استهل اليوناني حديثه الطريف. ما كنت لأحلم يوماً، وأنا في بيزنطة، منذ سنين طويلة، أن أحتفل في أواخر عمري بنصر إسماعيلي في قلعة بعيدة شمال إيران! لقد ظننت حينها أن ولائم سدوم وعمورة الصاخبة ستدوم أبد العمر! لكن المرء قد يجازف بحياته لقاء حفنة من الذهب. وهكذا وضعت الأصفاد في يدي وألقي بي في السجن. وبدل أن يسدد أصدقائي ديْني، تواروا عن الأنظار، فانتهى أمري إلى سجن الأشغال الشاقة على ظهر قادس(*). ثم تم بيعي كرقيق، لكن وبعد حين من الزمن ألفيت نفسي طبيباً للخليفة في القاهرة. وكان ابن الصباح حينها يستمتع بضروب الهناء في البلاط، ومن حسن حظي أني قُدمت له كهدية. وأصدقك القول أنه وجد شيئاً غير عادي في شخصيتي، إذ كان يعاملني كأني رجل حر. أرأيت، ما من سبب يدعوني للومه... اللهم إلا إجباري على الانفصال اليوم عن حريمي!

ابتسم أبو سراقة وقال:

ـ عزاؤنا الوحيد أن نرى أصدقاءنا هنا ينالهم الحرمان أيضاً.

فرماه الطبيب بنظرة استفزاز:

(*) قادس: سفينة شراعية حربية.

ـ حقاً؟ وماذا تظن أنه يوجد هناك خلف القصر؟ هل يوجد مصلى أعد للحسن وداعيه الكبير؟

حملق فيه أبو سراقة وقال:

ـ أوتعتقد حقاً أن الحسن وضع حريمه السري هناك؟

ـ وإلا ماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟ لقد قيل لي أن القوافل حملت إلى القصر عدداً كبيراً من الحسناوات اللواتي انتقين على نحو دقيق. ومن منا شاهدهن؟

ـ أنا لا أصدق تلك الشائعات، أعرف جيداً أن تدابير اتخذت هناك. لكني لم أشك مطلقاً في غايتها المؤكدة: فنحن ندبر مخرجاً للأحوال الاضطرارية، كأن يطول أمد الحصار مثلاً.

ـ يا لك من رجل ساذج، إني أعرف الحسن. فهو فيلسوف، ورجل يدرك أن السعي وراء الملذات هو المعنى الأول والأخير للحياة. وفضلاً عن ذلك، فهو لاريب سيكون أحمق إن لم يستفد من الأمر حينما يكون كل شيء تحت تصرفه. هيا يا أبا سراقة! انظر ما من شيء في هذا العالم إلا ونستطيع معرفته عن طريق الحواس! فهي وحدها تدرك الحقيقة، ولذلك كنت أنظر إليه دائماً على أنه رجل حكيم إذ أشبع هواه. أجل! إن التعاسة الكبرى حينما لا نستطيع إدراك هذه الحكمة مهما أذكينا قرائحنا. وفي هذا الخصوص علي أن أثني على ابن الصباح. لقد استطاع أن ينهل من كل شيء. إن حسين القيني قد ابتز القوافل طيلة العام في خوزستان وخورسان... بيد أن الحسن وجد سبيلاً لإخضاعه طواعية لدفع ضريبة لصالح المؤمنين الذين يدعي مسؤوليته عنهم! إن عمله في الحقيقة عمل موفق!

ـ إنه سيد عظيم، قال أبو سراقة موافقاً ـ وقد خشي في سره أن تسمعه أذن خفية وهو يتكلم باحترام ناقص عن القائد الأعلى.

قهقه اليوناني جزلاً:

ـ بل أكثر عظمة وأكثر بأساً مما تظن! أتصدق، حينما كنا في مصر، تخاصم الحسن خصاماً عنيفاً مع بدر الجمالي، القائد المخيف حارس الخليفة الشخصي. ارتجف الجميع خوفاً على حياتهم. لكن

الحسن وكما لو أن الأمر لم يكن، ذهب إلى الخليفة وعرض عليه صفقة غبن حقيقية. كان يعلم في الواقع أنهم يخططون لوضعه في قارب في الليلة نفسها. فوعد الخليفة بأن يجمع له أنصاراً في إيران وأن يساعده على تقويض سلطة بغداد... فكان أن أُبعد بطريقة رائعة... مع ثلاثة جراب مثقلة بالذهب في جيبه! وهاهو اليوم، وقد عاد إلى البلاد، لا يفوت فرصة دون أن يسخر لخدمته الخليفة المنكود الحظ: فإن تأخرت قافلة مرتقبة في الوصول من مصر، فهو سيبعث على جناح السرعة إلى هناك رسولاً ليحذر بأنه قد أصبح مستعداً، من الآن فصاعداً، للعمل لمصلحته الخاصة. الأمر الذي دفع الخليفة إلى استنزاف شعبه الطيب من أجل الحسن وفرض عليه ضريبة جديدة، تدفعها رعية مصر بانتظام ليستطيع سيدنا أن يوفر لنفسه من أسباب البذخ في قصر آلموت ما الله أعلم به! ألست على صواب إذ أجعله في عداد الفلاسفة الثقاة؟ في حين أننا نحن الإثنان في حال من التقشف حيال نسائنا...

انضم إليهما أبو علي على السطح دون سابق علم، فبدت على الشريكين ملامح اضطراب كبير.

ـ السلام عليكما، يا صديقيّ، قال بلهجة ودودة القادم الجديد الذي ابتسم ابتسامة واسعة حينما رأى ارتباكهما. جئت إلى عندك ياأبا سراقة لتخطر بسرعة يوسف وسليمان وابن طاهر بأني في انتظارهم بين صلاة المغرب وصلاة العشاء في أجنحة القائد الأعلى. أجل، سيمثلون بين يدي سيدنا! ولذلك عليهم أن يهيؤوا أنفسهم لهذا كما ينبغي. والآن اسمحا لي أن أتمنى لكما أمسية هانئة.

دبت بلبلة كبيرة بين الفدائيين حينما علموا أن ثلاثة منهم قد ذهبوا في المساء ذاته إلى سيدنا. أخذ الجميع يطرح الأسئلة ويطلق التخمينات حول غرض هذه الدعوة.

ـ أراد أن يكافىء أولئك الذين أظهروا بسالة كبرى في المعركة، أوضح ابن وقاص.

ـ أية بسالة؟ قال عبيدة متمرداً بفظاظة. أنا لاأتكلم عن ابن طاهر، إنه فعلاً قد اقتلع العلم من الأتراك. لكن ما الدور الذي قام به سليمان،

الذي ترك نفسه يقع عن دابته، ويوسف الذي أخفى خوفه خلف زعيقه؟ ابن جعفر ذكرهم قائلاً:

ـ إن سليمان هو الذي بزّ الجميع في التغلب على العدو. وهو ويوسف مهدا الطريق أمام الآخرين.

ـ أجل، هذا صحيح، أيده نعيم. لقد كنت إلى جانبهما.

ـ أنت؟ قال عبيدة هازئاً. لقد اختبأت خلف يوسف خشية أن امحك التركي!

ـ يا لك من زنجي كريه! شتم الصبي الغاضب.

في تلك الأثناء كان المصطفون الثلاثة يستحمون ويتهيؤون لاستقبال المساء. كان ثلاثتهم في حال من الإثارة البالغة، حتى او صالهم كانت ترتجف ارتجافاً حقيقياً.

ـ كيف يجدر بنا أن نتصرف؟ سأل يوسف قلقاً وهو ينظر إلى فيقيه نظرة طفولية. لكن ابن طاهر طمأنه قائلاً:

ـ كما سيأمرنا الداعي الكبير هذا المساء.

ـ أقسم بسيدنا علي! صاح سليمان ـ أن الانتظار أصابني برجفان حمى تحرق وتجمّد في آن معاً. ما كنت لأحلم أبداً أن أنال شرف المثول بين يدي سيدنا بهذه السرعة. لا بد أننا أنجزنا هذا الصباح انتصاراً خارقاً...

ـ أنت على يقين إذن أننا استدعينا لأجل هذا؟ سأل يوسف في الحاح.

ـ هل يراودك شعور بوقوع خطأ ما؟ قال سليمان ساخراً. ربما دعينا أنا وابن طاهر للسبب الذي قلته آنفاً، أما أنت فدعيت لتلام على الضجة التي أثرتها بدل أن تطلق السهام...

ـ أنا لا أخاف من شيء. ولست أنا من أوقعه التركي عن مطيته! بعد صمت وجيز رد سليمان وقد لسعته كلمات يوسف:

ـ انتظر حتى تمثل بين يدي سيدنا. وسنرى حينئذ كيف تخلص نفسك من المأزق.

ـ أتحسب أن سيدنا هو أبو سراقة، قال يوسف هائجاً، وأنه سيسألني عن الأئمة السبعة! فتدخل ابن طاهر مصلحاً بينهما:

ـ احرصا فقط على ألا تظهرا حماقتكما المعتادة.

لبس الثلاثة صدارات بيضاء، وسراويل ضيقة من نفس اللون، ووضعوا على رؤوسهم طرابيش واسعة بيضاء أيضاً. وانضموا إلى رفاقهم وهم على هذه الحال من الملبس المتأنق.

لم يستطيعوا أن يأكلوا شيئاً في ذلك المساء، وبدوا غير مكترثين بنظرات الإعجاب الغيورة التي رمقهم بها أصحابهم.

ـ هل ستخبرنا، عند عودتكم، بما جرى وكيف هو سيدنا؟ سأل نعيم ابن طاهر بعد انتهاء الطعام.

ـ سأخبرك بكل ما تريد، أجاب ابن طاهر وقد بدا عليه نفاد الصبر رغم محاولته إخفاءه.

كان أبو علي في انتظارهم أمام باب القائد الأعلى. لاحظ القلق المحموم الواضح على وجوههم فحدث نفسه قائلاً: «لو أنهم يدرون إلى أين هم ذاهبون!».

ـ هيا! قال مشجعاً إياهم، حري بكم أن تظهروا بسيماء أكثر عسكرية! حينما تدخلون، انحنوا انحناء كبيراً وظلوا كذلك إلى أن يأذن لكم سيدنا برفع رؤوسكم. وعلى من يوجه إليه الكلام أن يقبل يده باحترام. ولتكن إجاباتكم مختصرة صحيحة. ولتذكروا أن سيدنا يعلم ما في القلوب!

صعدوا درج البرج وأوشك سليمان على الاصطدام بالزنجي الذي يحرس في الأعلى. فقفز قفزة إلى الوراء، وليخفي فزعه، تظاهر سليمان بالبحث عما تعثرت به قدماه.

ـ حتى أنا، قد يصيبني الخوف، لو كنت مكانه! همس يوسف في أذن ابن طاهر.

دخلوا غرفة الانتظار، بقلوب استولى عليها القلق.

رُفعت ستارة، وانطلق صوت قوي:

ـ ادخلوا!

سبقهم أبو علي وتبعه سليمان بخطى شجاعة. كان فكا يوسف يصطكان. وانتظر إلى أن اجتاز ابن طاهر المدخل... وحينئذ لم يعد أمامه مفر من اللحاق به.

إلى جانب بوزروك أوميد، الذي كانوا يعرفونه سابقاً، وقف رجل يرتدي برنساً رمادياً بسيطاً، وعلى رأسه عمامة بيضاء. لم يكن بالرجل الطويل، ولم يبد أنه مرعب أو صارم على نحو خاص. هذا هو إذن سيدنا، قائد الإسماعيليين الخفي عن الأنظار!

وقفوا إلى جانب بعضهم بعضاً ثابتين دون حراك وأحنوا رؤوسهم.

ـ حسناً، يا أصدقائي، حسناً، قال سيدنا داعياً إياهم لرفع هاماتهم ـ اقترب منهم وابتسم ابتسامة تعبر في آن عن مكر ورغبة في تشجيعهم. لقد حكي إلي عن بطولاتكم، وكان تصرفكم باسلاً أمام رجال السلطان. وإني استقدمتكم لأكافئكم على إخلاصكم.

ـ أنت ابن طاهر ـ واستدار نحو الصبي ـ لقد سررتني بأشعارك... وسررتني أكثر باستيلائك على ذاك العلم!

«سليمان، لقد تميزت من جهتك كمحارب لايخشى شيئاً، وسيماك توحي بأنك ضارب سيف ذائع الصيت! سنكون بحاجة إليك أيضاً.

«وأنت يا يوسفي الطيب، تابع حديثه بابتسامة رقيقة، أعلم أنك تريد الانقضاض على المارقين كأسد زائر! الأمر الذي تستحق عليه كل ثنائي!».

ومد يده لكل منهم، إنما على عجل، حتى أنهم بالكاد استطاعوا لثمها. كانت أعينهم تشع بالفخر. كيف استطاع معرفتهم تلك المعرفة الوثيقة دون أن يراهم على الإطلاق؟ هل هو أبو علي الذي وصفهم له على نحو دقيق؟ إذن لقد قاموا فعلاً بما هو على جانب كبير من الأهمية!

مكث الداعيان الكبيران برهة جانباً. ولم تكن تقاسيم وجوههما تشي بتعبير آخر غير الفضول المتحفز.

ـ عشية ذلك اليوم العظيم، تابع سيدنا، امتحنا معارفكم، وبعد

بضع ساعات، كانت بسالتكم على المحك. ويبقى اختبار الأمر الأهم في نظري والذي تركناه لهذا المساء... أريد أن أجسّ صلابة إيمانكم!

رفع ذقنه من جديد وجاء ليقف أمام يوسف.

ـ هل تصدق كل ما علمك إياه رؤوساؤك؟... أتعتقد به حقاً؟

ـ أجل أعتقد به، ياسيدنا.

كان الصوت متهيباً، لكنه يعبر عن اعتقاد صادق.

ـ وأنتما الاثنان، ابن طاهر وسليمان؟

ـ أجل نعتقد به، يا سيدنا.

ـ يوسف، أتؤمن إيماناً واثقاً، أن الشهيد علي هو الوارث الشرعي الوحيد للنبي محمد؟

ـ أؤمن بهذا إيماناً لا يتزعزع، يا سيدنا.

وانتاب يوسف شيء من الدهشة لدى سماعه سؤالاً كهذا.

ـ وأنت يا سليمان، أتؤمن أن ابنيه الحسن والحسين قد أبعدا ظلماً عن خلافته؟

ـ أؤمن بهذا، دون أدنى شك، يا سيدنا.

ـ وأنت، يا ابن طاهر، أتعتقد أن إسماعيل هو حقاً الإمام السابع والأخير؟

ـ أجل، أعتقد بهذا، يا سيدنا.

ـ وتؤمن أيضاً أن المهدي سيعود إلى الأرض بصفته النبي الأخير، حاملاً معه الحقيقة والعدالة؟

ـ أعتقد بهذا أيضاً، يا سيدنا.

ـ يوسف! أتؤمن أن إرادة الله خولتني ـ أنا قائدكم ـ سلطة ما؟

ـ أؤمن بهذا، يا سيدنا.

ـ سليمان! أتؤمن أن كل ما أقوم به، إنما أقوم به باسمه؟

ـ أؤمن بهذا، يا سيدنا.

اقترب الحسن من ابن طاهر وتفرس في وجهه.

ـ أتعتقد يا ابن طاهر، بالسلطة التي عهدت إلي والتي أُدخل بموجبها من أشاء الجنة؟

ـ أعتقد بهذا، يا سيدنا.

كان الحسن يصغي بانتباه. فصوت ابن طاهر يعبر عن يقين راسخ.

ـ والآن، يوسف! هل إيمانك من الصلابة بحيث أنك تشعر بالسرور إذا ما سمعتني أقول: اصعد قمة البرج والق نفسك في الخواء. لتصل الجنة بعد لحظات قصيرة؟

شحب وجه يوسف. وابتسم الحسن ابتسامة خفية. واستدار نحو الداعيين الكبيرين. لقد كانوا هم أيضاً يبتسمون.

بعد تردد قصير أجاب يوسف قائلاً:

ـ سأسر بذلك، يا سيدنا.

ـ رائع جداً! إذن، وفي هذه اللحظة بالذات، إني آمرك أن تصعد البرج وتلقي بنفسك نحو الأسفل!... يوسف، يا يوسفي الطيب!... إني اقرأ ما في قلبك. كم إيمانك ضعيف! وأنت ياسليمان، هل ستبتهج حقاً لو أنك كنت في مكانه؟

أجاب سليمان بصوت واثق:

ـ سأبتهج بذلك فعلاً، يا سيدنا.

ـ حقاً؟... لو أني أمرتك في هذه اللحظة الراهنة؟... هيا! إن وجهك شاحب، ولسانك عازم، لكن ثقتك تترنح. كم هو سهل الإيمان بأشياء لا تطلب منا تضحية. لكن عندما يتوجب أن نهب حياتنا برهاناً على إيماننا، فإننا نتردد...

ثم استدار نحو ابن طاهر.

ـ والآن، لننظر، لننظر إليك ثانية أيها الشاعر. أتعتقد اعتقاداً راسخاً أن مفتاح الجنة قد عهد إلينا؟

ـ أعتقد بهذا اعتقاداً جازماً، يا سيدنا، لك السلطة في أن تأخذ إلى الجنة من تعتقد أنه يستحقها.

ـ لكن ما تصورك لهذا المفتاح؟ فأنا حول هذا المفتاح أريد أن أستفسر منك!

استجمع ابن طاهر شجاعته.

ـ إني أبذل جهدي لأؤمن، لكني أعترف أني لا أعلم ما طبيعة هذا المفتاح.

ـ بموجز العبارة، أنتم لا تريدون الإيمان إلا بما يتعلق بعلي والأئمة... وكفى! صاح الحسن. في حين أننا بحاجة إلى مؤمنين يؤمنون بكل ماستعلمه مؤسساتنا!

بدا الصمت الذي أعقب كلامه غير محتمل للفدائيين. كانت ركبهم ترتجف، وعرق بارد يغطي جباههم.

تابع الحسن كلامه بصوت ثقيل النبرات:

ـ بعبارة أخرى، أتحسبونني رجلاً كاذباً؟

امتقع وجه الثلاثة.

ـ لا، يا سيدنا، فنحن نؤمن جميعاً بك!

ـ وإذا ما أكدت لكم بأني فعلاً أملك مفتاح الجنة!

ـ لكننا نصدقك، ياسيدنا!

ـ كلا! إني أرى ما في قلوبكم. أنتم تريدون التصديق، لكنكم لا تستطيعون. ولم هذا، يا ابن طاهر؟

ـ إنك تعرف كل شيء، وترى كل شيء، يا سيدنا. من الصعب الإيمان بشيء عصي على العقل بلوغه.. المشيئة تريد، لكن العقل يأبى...

ـ إنك صادق وهذا ما يعجبني. لكن ماذا سيكون جوابك لو أني أخذتك فعلاً إلى الجنة... واستطعت أن تلمسها بيديك، وتحيط بها بأم عينيك، بأذنيك، بشفتيك؟ أتؤمن بها أخيراً!

ـ وكيف يمكن للشك أن يراودني حينئذ، يا سيدنا؟

ـ هذا ما يبعث السرور في نفسي. لقد تميزتم في المعركة، لكني أعرف أين تختبئ نقطة ضعفكم... وأنا دعوتكم لأساعدكم على التغلب

عليها حتى تكونوا أقوياء راسخين في إيمانكم! ولذلك قررت أن أفتح لكم هذه الليلة بالذات بوابة الجنة...

ارتسمت إمارات دهشة تفوق الوصف في عيون الفتية، ممزوجة بشك مذعور: إنهم لا يستطيعون أن يصدقوا آذانهم!

ـ ما بالكم تنظرون إلي هكذا؟ أليس حري بكم أن تبتهجوا بما أود أن أكافئكم به؟

ـ قلت إن...

وتلعثم ابن طاهر وعجز عن متابعة الكلام.

ـ قلت إني سأفتح لكم باب الجنة وسأفعل ذلك! هل أنتم مستعدون؟

شعر ثلاثتهم بقوة خفية تحملهم على الجثو. لامست جبهتهم الأرض عند أقدام الحسن وظلوا على هذا النحو.

ألقى الحسن نظرة نحو أصدقائه. كانت وجوههم تعبر عن توتر عميق.

ـ انهضوا! أمر الفتية.

أطاعوا الأمر. ثم نزع الحسن مصباحاً من الثريا وتقدمهم إلى الغرفة الصغيرة حيث أُخفيت المنصة المتحركة. وفي تلك الغرفة وضعت أسرة ثلاث واطئة، وغطيت بالسجاد الذي انسدل عليها حتى الأرض.

ـ تمددوا فوق هذه الأسرة! قال آمراً.

أعطى الحسن أبا علي المصباح وناول بوزروك أوميد جرة خمر؛ أما هو فقد تناول علبة ذهبية وفتحها واقترب من الفدائيين الذين كانوا في أسرتهم ممتقعي الوجوه، في حال يرثى لها.

ـ إن الطريق إلى الجنة طويل وصعب. هاكم الغذاء والنبيذ ليمدكما بالقوة. خذوهما من يدي.

وقف الحسن أمام كل منهم ليضع بين شفتيه قرصاً صغيراً، تناوله من العلبة الذهبية. كان يوسف في اضطراب شديد، حتى أنه لم يستطع في البدء أن يرخي فكيه. أما سليمان وابن طاهر فقد بذلا أقصى

جهدهما لابتلاع القرص. كان طعمه لذيذاً وحلواً، لكن سرعان ما تبعته مرارة فظيعة. ولطرد هذا الطعم المنفر، أمرهم الحسن بشرب الخمر. وبعد ذلك، أخذ يراقبهما بانتباه شديد.

وبما أن الخمر ثقيل، ولم يعتادوا عليه فقد أدار رؤوسهم بعد قليل. ثم استولى عليهم سكر آخر: فأجسادهم المستلقية، استرخت شيئاً فشيئاً... أخذ يوسف يطلق حشرجة، وكأنه ثور مذبوح. ثم استسلم لخدر ساحر. أما رفيقاه فكانا في حال من النشوة والفضول الجامح. «هل كان ذلك سماً؟... فكر ابن طاهر برهة قصيرة؛ لكن سرعان ما انقضت عليه صور كثيرة غريبة لتطارده مطاردة مسعورة. فأخذ كالمسحور يحاول تتبعها بنظره.

راقب الحسن عيونهم المذعورة المحملقة.

ـ ماذا ترى، يا ابن طاهر؟

لكن الفتى لم يعد يسمع شيئاً. كان يتأمل محدقاً في الصور التي ترفل أمامه، وما لبث أن استسلم تماماً لسحرها...

أما سليمان فكان لايزال يقاوم تلك الأشباح التي تتفنن في تكذيب الحقيقة حوله: لاحظ القادة الثلاث وهم ينظرون إليه بوجوه متطاولة. ثم خطف نظره مشهد عجيب. كذلك هو في البداية خشي أن يكون الحسن قد قدم لهم نوعاً من السم. لكن ما لبث أن نسي بسرعة هذه الفكرة، وأنهكه صراعه مع نفسه. وأخذت الصور التي دبت فيها الحياة حوله تناديه بقوة لا تقاوم، فاستسلم إليها أخيراً وهو يتنهد تنهيدة ارتياح.

أما يوسف، وبعد أن انتفض للحظات متأوهاً، استسلم لنوم عميق. وتبعه سليمان وابن طاهر بعد قليل.

أشرف الحسن بنفسه على التغطية الكاملة لأجساد الصبية الثلاث بأغطية سوداء رقيقة؛ وأخيراً، وبإشارة منه، أخذت المنصة تهبط نحو اعماق البرج.

كان الحرس في انتظارهم في الأسفل، أعطى الحسن القائد علي بضعة أوامر سرية. ثم رفع الزنوج، كل اثنين معاً، المحفات واتجهوا

صوب الحدائق، وفضلاً عن ذلك، واكب كل واحد من الفتية النائمين حارس وضع خصيصاً لمراقبته.

لم ينبس الدعاة بكلمة واحدة وترقبوا صابرين إلى حين عودة الفتية. سألهم الحسن بصوت منخفض:

ـ هل تم كل شيء حسب الترتيب المتفق عليه؟

ـ كل شيء جرى بانتظام، يا سيدنا.

تنهد الحسن تنهيدة عميقة.

ـ لنصعد إلى فوق، قال أخيراً. ما أشبه ما جرى بواحدة من تلك المسرحيات المحزنة التي كان يمثلها اليونانيون في الماضي على مسارحهم. الحمد لله، اليوم انتهى الفصل الأول.

الفصل الحادي عشر

انتهت التحضيرات في الجنائن. وتوزعت الفتيات المهام حسب توجيهات القائد الأعلى.

صحب الخصيان فاطمة وسليقة ورفيقاتهما إلى الجنائن المخصصة لهن. وجدت فاطمة مملكتها في غياض تقع إلى ميسرة المساكن، وكان لسليقة السيادة على الغياض القائمة في الجانب الآخر. كان لكل منهما روضة حقيقية تفصلها عن جنائن الوسط شلالات الماء المتساقطة. وبدا من الواضح أن من ابتكر مخطط ذلك المكان الرحب، الذي يرسم شاه رود حدوده الهادرة، رمى إلى عزل الأصوات، بحيث لا يمكن أن تُسمع أبداً من حيز لآخر.

كان الخصيان قد نصبوا حول المقصورات، وبمساعدة الفتيات، شرائط الزينة وسط الأشجار والأيك، وعلقوا عليها المصابيح التي صنعت في الصباح. حملت تلك المصابيح أشكالاً متنوعة، رُسمت ولونت على نحو خيالي خلاق، وعند حلول الليل، وما أن أضاءتها مضيفات الجنائن حتى انبعثت حولهن فجأة أشكال وظلال جديدة، مفعمة بأنوار كأنها قادمة من عالم آخر، مبدعة مشهداً جديداً كل الجدة. انطلقت الفتيات يتجولن في هذا المكان، وهن يحدقن في بعضهن بعضاً مندهشات، وينظرن بإعجاب إلى خيالاتهن الصاخبة الألوان، والتي تتراقص حولها ظلال رقيقة. كان ذلك أشبه برؤية طيفية غير حقيقية لحلم ما. وما زاد من عمق التأثير أيضاً تلك الظلمة الحالكة التي أحاطت بمناطق الضوء والتي أخفت تماماً، بفضل تباين النور، كل ما

تبقى من الطبيعة المحيطة، فحجبت عن الأنظار الجبال، والقصر، وحتى النجوم.

ووسط المقصورات المفروشة بالزهور، تلألأت في الهواء آلاف اللالئ المتقزحة، والتي كانت تقذفها نافورة ماء هادرة. وحملت صحاف من ذهب وفضة كل أصناف المآكل لتنتظر الزائر فوق طاولات صغيرة منخفضة من الخشب المذهب: طيور مشوية، أسماك مقلية، حلوى مذوقة، وفاكهة متنوعة: تين وبطيخ أصفر، برتقال، تفاح ودراق، عناقيد ممتلئة الحبات... ووضعت على كل طاولة ست جرار خمر كبيرة، تحيط بها قصع من نبيذ العسل!

وحينما حان موعد صلاة العشاء، اصطحب عدي أباما في جولة أخيرة على الجنينة: لم يغب شيء عن عين السيدة العجوز اليقظة. وانتهزت جولتها لتوزع تعليماتها الأخيرة. ناولت كلاً من مريم، وفاطمة، وسليقة، القرصين المنومين المخصصين لضيوفهن، وأوضحت لهن قائلة: الجأن إلى القرص الثاني، إن لم يظهر مفعول القرص الأول سريعاً. وقبل أن تنسحب مغادرة، أوصتهن بقولها:

ـ لا تفسحن لهؤلاء الشبان فرصة طرح أسئلة كثيرة. اشغلنهم، واسكرنهم... ولا تنسين أن سيدنا عادل لكنه صارم!...

بعد ذلك غادرتهن، وانتهزت المسؤولات عن كل مجموعة فرصة ذهابها، وقد شعرن باقتراب الموعد، ليدعين رفيقاتهن لشرب كأس من خمر يمدهن بالشجاعة...

كانت مجموعة فاطمة، المجموعة الأكثر حيوية ونشاطاً: فلا تسمع إلا أصوات الضحكات والصيحات، الأمر الذي خفف من حمى الانتظار. في حين تكفلت الإضاءة الساحرة وحرارة الخمر بما تبقى. ثم إن شعورهن أنهن معاً بدد كل خوف، حتى أن خيالاتهن أشعلها فضول جريء. فها هي ليلى تقول حالمة:

ـ اسمه سليمان، وهو فتى وسيم، هكذا قال سيدنا!

ـ ألديك مقاصد نحوه؟ مازحتها سارة.

ـ أتقولين هذا لي...الأجدر بك أن تنظري إلى نفسك: فقد أسقمك تلهفك لرؤيته!

ـ ما قولكن لو تركنا حليمة تفتتح الحفلة؟ اقترحت خانم.

ـ هذا غير وارد أبداً! ثارت حليمة معترضة، وقد استبد بها النزق سريعاً.

ـ لا تخشي شيئاً، إني خططت لكل شيء: فكل منكن لها مهمتها.

فردت عائشة الماكرة:

ـ ومن التي سيهيم بها سليمان؟

ـ اعلمي أن حذاقتك لن تسعفك كثيراً. قالت سارة منبهة إياها.

ـ وهل بشرتك السوداء ستنجدك أكثر؟

ـ كفاكن خصاماً! تدخلت فاطمة، لا يهم أن يغرم بهذه أو بتلك. نحن في خدمة سيدنا وواجبنا الوحيد هذه الليلة أن ننفذ أوامره.

ـ أظن أنه سيغرم بزينب، قالت حليمة.

فردت سارة وقد استبد بها الغضب:

ـ ولم زينب بالتحديد؟

ـ لأن لها شعراً بلون الذهب وعينين زرقاوين جميلتين.

أخذت زينب تضحك.

ـ ترى هل سيحمل مظهره سمات الاعتزاز كحال سيدنا؟ سألت حليمة ثانية.

ـ انظرن إلى هذه القردة الصغيرة، قالت فاطمة متهكمة. هاهي اليوم تحلم بسيدنا!...

ـ لقد بدا لي رائعاً.

ـ هيا، حليمة، ليس موعد المساء هذا للأهواء... ثم إن سيدنا ليس لأجلنا. إني لا أنصحك بالكلام عنه كما فعلت.

ـ لكنه يحب مع ذلك مريم!

ـ أنت لست مريم، رمت سارة كلماتها بخبث.

ـ لا أود أن أسمع منك بعد الآن كلاماً من هذا القبيل، قالت فاطمة محذرة إياها.

ـ ماذا سيلبس؟

قهقهت سارة من سؤال عائشة البريئة.

ـ ماذا سيلبس؟ إنه سيأتي عارياً.

خبأت حليمة وجهها خلف ذراعيها الجميلتين.

ـ لن أنظر إليه!

ـ أتعلمن ما ينبغي فعله لتهدأ نفوسنا؟ أن نؤلف قصيدة عنه! أشارت بذلك شهيرة.

ـ فكرة رائعة! هاتي يافاطمة، البيت الأول!

ـ لكننا لم نره بعد!

ـ تخشى فاطمة أن يخيب ظنها، ردت سارة الفاسدة مستهزئة.

ـ سارة، لا تغيظينني أكثر، حسناً، أود أن أحاول. هيا... سليمان، صديقنا، وصلت إلى الجنة...

ـ شيء مضحك! صاحت زينب. إن سليمان بطل، قاتل منذ قليل الأتراك. من الأفضل أن تقولي: سليمان، أيها الثائر، وصلت إلى الجنة...

ـ أتجدين ذلك شاعرياً؟ قالت فاطمة غاضبة. أمر غريب ألا يكون لسانك قد سقط... اسمعي الآن: دخل سليمان، ذلك النسر الرمادي، إلى الجنة. وما أن أبصر حليمة حتى هام بها.

ـ كلا! لا أريد أن يذكر اسمي في هذه القصيدة! احتجت صديقتهن الخائفة.

ـ يا لك من طفلة غبية! حان أن تفهمي! ما تلك إلا محاولة لإثارة الضحك.

لم يظهر عدم الاكتراث على المجموعة الصغيرة المتحلقة حول سليقة. فبالكاد استطاعت جادا أن تتماسك واقفة، أما تلك التي سميت بفاطمة الصغيرة، فقد اختبأت مرتعشة في زاويتها. في حين كانت

أسما تلقي أسئلة حمقاء لا داعي لها. وكانت حنفية وزوفانا تتشاجران لعدم وجود شيء آخر تفعلانه. ولم تظهر إلا رقية وحبيبة بمظهر شبه لائق.

كانت سليقة تتحرق متلهفة؛ فالتكريم الذي نالته حينما كلفت بتوجيه الأعمال، أثارها بعض الشيء. فها هو يوسف البهي، والتي كانت تتخيله كما لو أنه فعلاً هناك، لا يرى أحداً سواها ويتجاهل الأخريات تماماً. أجل، ربما ستكون هي الفتاة المختارة وإنها تستحقه: ألم تنفرد، علاوة على الجمال، بتلك النباهة التي كانت تعوز صاحباتها بشكل يدعو إلى الأسى؟ وسرعان ما لين الخمر قلبها، فلم تعد تأبه بما يحيط بها؛ تناولت قيثارتها وأخذت تداعب أوتارها شاردة. أبصرت نفسها في خيالاتها فتاة محبوبة، مشتهاة، ساحرة، ظافرة... لقد أصبحت منذ تلك اللحظة ودون أدنى شك، عاشقة الفتى المجهول.

كان كل شيء حول مريم خاوياً قاتماً، رغم الجو الباذخ للمكان. وكانت الفتيات اللواتي ضمتهن إليها أكثر الفتيات خجلاً، وأقلهن اعتماداً على النفس. كن يحببن أن يجاورنها طلباً لدفئها وسلوانها. لكن مريم كانت بعيدة...

لم تكن تتوقع أبداً أن يصيبها الغم إلى هذا الحد، حين علمت بعدم حب الحسن لها. وربما لايكون هذا هو السبب الحقيقي لألمها. فما صدمها أكثر، احساسها بأن الحسن اعتبرها مجرد أداة، أو سلاح استخدمه لإصابة هدف ما لا علاقة له بالحب إطلاقاً. هكذا وبهدوء، ودون سابق تمهيد، ودون حياء، يتخلى عنها لآخر تُمضي الليل معه.

إنها تعرف الرجال: فزوجها موسى كان عجوزاً منفراً. لكن، ودون أن تفكر بذلك يوماً، كانت تعلم علم اليقين، أنه كان ليفضل الموت على أن يسمح لأحد بلمسها. ومحمد، عاشقها، خاطر بنفسه، وفقد حياته ليظفر بها ويحميها. وحتى حينما بيعت لاحقاً في البصرة، عرفت أن الذي اشتراها لن يتخلى عنها لرجل مجهول، فقد كانت أَمَة له. واحتفظت بهذه الثقة في داخلها حينما أصبحت تحت يد الحسن. إن القرار الذي بلّغها إياه الحسن منذ قليل، قد قلب ـ في الوقت الذي

أخزاها ـ رأساً على عقب تلك الثقة الخفية التي كانت تشعر بها في قرارة نفسها.

لو أن بمقدورها أن تجهش في النحيب لفعلت. لكن عينيها لم تعودا قادرتين على ذرف الدموع. هل كرهت الحسن؟ كانت مشاعرها من الاضطراب بحيث لم تستطع الإجابة على هذا السؤال. في البداية فكرت أن لا شيء أمامها تفعله أفضل من أن تلقي بنفسها في شاه رود. ثم قررت الانتقام لنفسها، لكن حتى هذه الرغبة تلاشت وحل محلها حزن لاحدود له. كانت كلما أمعنت في التفكير فيما سبق، كلما تبصرت أكثر في المنطق الكامن وراء تصرف الحسن. إن رؤيتها للأمور، المفعمة باحتقار كل ما هو في نظر الناس مقدس وغير قابل للمساس، وشكها في صحة كل معرفة، وحريتها المطلقة في التفكير والتصرف، ألم يسحرها، كل ذلك، سحراً أخاذاً ويملؤها بالإثارة؟ غير أن هذا لم يكن إلا مجرد كلمات، هذا ما كانت تقوله لنفسها غالباً. ولم يكن ضعفها ليجعلها تجرؤ على تحويل تلك الكلمات إلى أفعال، وبالتالي لم تفكر أن الحسن قادر على فعل ذلك.

واليوم، بدأت تستشف الوجه الآخر لهذا الرجل العصي على الفهم. شعرت أنها رغم كل شيء تحتفظ بحظوته. وحتى ربما كان يحبها على طريقته. وهي، ألا تحتفظ ببعض المسوغات التي تدعوها لاحترامه؟ إن الفكر والفكرة بالنسبة إليه، ليسا ألعوبتين لطيفتين فقط كما هو الحال بالنسبة لها. والمعرفة الفكرية ينبغي، بنظر الحسن أن تترجم حتماً إلى فعل: فكل اكتشاف عقلي، يعني التزامه به بشكل كامل. كم أكدت له مراراً أنها لم تعد قادرة على الحب الحقيقي، وأنها لم تعد تؤمن بشيء، وأنها عموماً، لا تعترف بصحة أي مبدأ. لقد عملت على أن تحرر فكرها منذ وقت طويل من جميع الأحكام المسبقة. وقرار الحسن الأخير، من وجهة نظر ما، أليس برهاناً على الثقة والتقدير اللذين يحملهما لها؟

لم تعد تبصر الوضوح في شيء. ومهما حاولت التفكير، وبذلت الجهد لتفهم الأمر، يظل ألم ما في أعماق قلبها، وإحساس مبرح بالذل. كلا! لم تكن بالنسبة للحسن إلا مجرد غرض، وكان لديه متسع من الوقت ليتلاعب بها على هواه ولمصلحته هو.

أفرغت الكأس تلو الآخر وانتابها السكر دون أن يبدو عليها. وشعرت بصفاء في ذهنها يزداد أكثر فأكثر. وفجأة، أدركت ما يعتلج في نفسها: إنها تنتظر أمراً ما... تنتظر شخصاً ما! شيء غريب، طيلة تلك الأيام الماضية، لم تفكر لحظة واحدة في ابن طاهر. كان الحسن يحدثها عنه على أنه فتى نشيط وذكي... وشاعر أيضاً. أحست بإحساس مبهم يجتاحها. كانت تشعر بجناح خفي يلمسها. وارتعشت: إذ راودها حدس بقرب حدوث أمر ما، قد يكون أمر القدر.

داعبت أناملها أوتار القيثارة، فانبعثت منها آهات حزينة.

ـ يالجمالها هذا المساء! همست صفية وهي تشير إليها بنظراتها.

ـ ما أن يلحظها ابن طاهر، حتى يهيم بها عشقاً! قالت خديجة بنبرة الإعجاب ذاتها.

ـ كم سيكون ذلك رائعاً! ردت صفية صاحبة القلب الساذج حالمة. سنهديهما أجمل أشعارنا!

ـ أتتلهفين حقاً لرؤيته عند أقدامها!

ـ آه، أجل!... ولا تتخيلي إلى أي حد!

صاحب الداعيان الكبيران الحسن صامتين إلى قمة البرج. وما أن وطأت أقدامهما السطح، حتى لفت نظرهما الوميض الغامض المنبعث من الجنان، مكدراً بريق النجوم. تبعا الحسن إلى أن وصلا حافة الحاجز؛ وانحنى ثلاثتهم لينظروا هناك.

كانت المقصورات الثلاث غارقة في شلال من نور. وجدرانها البلورية المضاءة من الداخل والخارج، تكشف على نحو مصغر، تفصيل كل ما يحدث فيها، وتصرفات جميع أولئك الذين يتحركون فيها...

ـ حقاً إنك سيد لانظير له، قال أبو علي وقد تملكته الدهشة. لا بد أنك آليت على نفسك أن تنقلنا من مفاجأة إلى أخرى!...

ـ أجل، إنه سحر تحول إلى حقيقة!... دمدم بوزروك أوميد، وقد زاد بعض الشيء من حال عدم التصديق. إن قوة قدراتك لتجبرنا على إدراكات كل سريرة نسرّها، ولو أن لدينا منها الكثير...

ـ تمهلا، ولا تتعجلا في مدحي، ابتسم الحسن بتواضع. فحتى هذه الساعة، لا يزال فتياننا نائمين. والستارة لم ترفع بعد. ولنصبر حتى نرى ما سيحدث، فالأحداث الآتية وحدها ستخبرنا كيف ينبغي أن نحكم على العمل المنجز حتى الآن.

وانطلق يبين لهما كيف نظمت الجنائن، وأشار إلى كل مقصورة من المقصورات الثلاث المعدة كل منها لاستقبال أحد الفدائيين الثلاثة.

ـ يخيب مسعاي كلما حاولت أن أفهم، قال أبو علي متعجباً، كيف خطر مشروع كهذا على بالك! أنا لا أستطيع أن أتصوره إلا ثمرة وسيط غير عادي: ربما يكون إلهاماً من شخص عبقري، لكن في جميع الأحوال ليس إلهاماً من الله!

ـ بالتأكيد، ليس ذلك من الله! أجاب الحسن ضاحكاً. لكنه على الأغلب إلهام من صديقنا الرائع والعزيز عمر الخيام...

وأخذ يقص على شريكيه الزيارة التي قام بها إلى نيسابور منذ عشرين عاماً. وكيف أوحى إليه الشاعر الظريف دون قصد منه فكرة تجربة هذا المساء.

كانت دهشة أبو علي كبيرة:

ـ أتقصد أنك طيلة ذلك الزمن، احتفظت في نفسك سراً بمشروع هذه المكيدة! وأنك لم تصبح بها مجنوناً؟

ـ أستحلفك بالشهيد علي! تعجب على نحو مماثل صاحبه، لو أن مشروعاً كهذا خطر في بالي، فلا أحسب أني سأصبر شهراً واحداً. وربما كرست كل طاقتي لتحقيقه في الحال، ولا يهدأ لي بال حتى أنجح أو أفشل.

ـ أما أنا، فقد عزمت على القيام بكل ما هو في قدرة البشر لئلا أخفق، قال الحسن. إن فكرة مثل تلك تكبر وتنمو في داخل الرجل مثلها مثل طفل في رحم أمه. تكون في البداية صغيرة جداً، وليس لها شكل ما، وتدأب على إيقاظ رغبة جامحة تدفع إلى المواظبة وعدم التراخي. وها هي اليوم تلك الفكرة أصبحت قوة عظيمة. إنها تؤثر وتستولي أكثر فأكثر على ذاك الذي يحملها، إلى حد أنه لا يرى شيئاً سواها، ولا

يفكر في أي أمر غير تجسيدها، ولاشغل له إلا إخراج هذا المخلوق المذهل إلى العالم. إن الرجل الذي يرعى في نفسه وهماً كهذا هو حقاً أشبه بمجنون. حتى أنه لا يسأل نفسه إن كان ما يريد صواباً أم ضلالاً، خيراً أم شراً. يتصرف كما لو أنه تحت تأثير أوامر نظام خفي. إنما يعلم فقط أنه وسيلة لخدمة شيء أقوى منه وحسب. وما همه إن كانت تلك القوة الدافعة آتية من السماء أو من جهنم!

ـ وخلال تلك السنوات العشرين، ألم تحاول قط أن تنفذ مشروعك؟ ألم تعهد بسره إلى أحد؟

كان ذلك الغموض قد أرهق أبا علي. فضحك الحسن من حيرته وقال:

ـ لو أني بحت بمشروعي لأحد، لك، أو لأي من أصدقائي، لحسبتموني مهرجاً أو مجنوناً. بيد أني ـ وفي بعض أحوال نفاد صبري ـ لا أنكر أني لم أحاول قط تحقيقه، تحقيقاً سابقاً لأوانه بالطبع. لأني تأكدت بعد حين أن العقبات التي وقفت في طريقي جنبتني كبوة لا يمكن النهوض منها. أردت في البداية أن أنفذ مشروعي بعد زمن قصير من تقديم عمر الخيام فكرته الأولى إلي. والحقيقة أنه نصحني بالتوجه، كما فعل هو نفسه، إلى الوزير الأكبر، لأطلب منه الوفاء بعهد شبابه في تقديم المساعدة لي. وبالفعل قدم لي نظام الملك مساعدة أكثر مما كنت أنتظر منه. فقد زكاني عند السلطان كصديق له، فما لبثت أبواب البلاط أن فتحت أمامي.

اعلما، أني كنت نديم ملوك أكثر تسلية من الوزير الأكبر! وسرعان ما كسبت ود السلطان، الذي بدأ يؤثرني على الآخرين. وكان ذلك بالطبع مكسباً نلته على طبق من فضة. وحسبت أني قد أستطيع الانتقال إلى العمل. فانتظرت فرصة الحصول على أمر من السلطان بإرسال مفرزة لشن حملة ما. لكني كنت لا أزال حينذاك من السذاجة بحيث لم ألق بالاً للغيرة القاتلة التي سببتها نجاحاتي في قلب زميلي السابق. ظننت أن التنافس معه أمر طبيعي، ولم أعبأ بالاهتمام بشعوره بالمهانة من هذا التنافس. وقد انكشف ذلك كله يوم أراد السلطان أن يقدم له بياناً بموارد ونفقات سلطنته الممتدة. فسأل نظام الملك كم

يلزمه من وقت ليجمع له المعطيات. «عامين على الأقل» كانت إجابة الوزير. «أتقول عامين!» صحت حينذاك. «أمهلني أربعين يوماً وسيكون عندك كشف بالغ الدقة، يغطي البلاد بأكملها. ويكفي لهذا أن تضع موظفيك تحت تصرفي». شحب وجه زميلي وغادر القاعة دون كلمة منه. رحب السلطان باقتراحي وشعرت بالسرور لتمكني من إظهار قدراتي. وجندت للقيام بتلك المهمة كل الرجال الثقات الذين كانوا تحت تصرفي عبر السلطنة، وبمساعدة من موظفيهم وموظفي السلطان، جمعت بالفعل في أربعين يوماً كل المعلومات المتعلقة بموارد ونفقات البلاد. وعندما حان الأجل المحدد، مثلت بين يدي السلطان وفي يدي أوراقي. بدأت في القراءة، لكنني ما كدت أقلب بضع صفحات، حتى أدركت مذعوراً أن أحدهم دس عن غدر كشوفاً مغلوطة. بدأت أتلعثم، حاولت أن أسد ثغرات النص بالرجوع إلى ذاكرتي. لكن السلطان لاحظ اضطرابي. فثارت ثائرته، وارتجفت شفتاه غضباً. آنذاك خرجت كلمات الوزير الأكبر لتقول: «لقد قدّر رجال حكماء أن تنفيذ هذا العمل يستلزم عامين على الأقل، فكيف يتبجح رجل مجنون غير كفء بقدرته على إنجازه في أربعين يوماً، اللهم إلا إذا جاء بلجلجات حائرة!» شعرت به يضحك خفية بخبث. عرفت أنه هو الذي قام بهذه الحيلة القبيحة. لكن المزاح لا يجوز مع السلطان. فكان علي أن أغادر البلاط مضطرباً، وأحث الخطى وصولاً إلى مصر. ومنذ ذلك الحين وأنا في نظر السلطان مهرجاً سفيهاً. ومن يومها والوزير الأكبر يخشى انتقامي ويفعل كل ما بوسعه لإزاحتي من الوجود. وعلى هذا النحو ذهبت أدراج الريح الفرصة المناسبة لتنفيذ مخططي. ولم أندم قط. لأني أخشى أن ما حصل، ما كان إلا ولادة مبكرة قبل الأوان.

ـ كثيراً ما سمعتك تتحدث بلهجة مختلفة عن الوزير الأكبر، فكر أبو علي بصوت مرتفع. لكن المسألة ترتدي شكلاً آخر حينما نرى التفاصيل التي كشفت لنا عنها منذ قليل. إني أستوضح عن تلك العداوة الشديدة التي يظهرها نظام الملك للحركة الإسماعيلية...

ـ فلتصغ إلى بقية القصة... في مصر، سنحت لي فرص مؤاتية

أكثر. فالخليفة المستنصر بالله أرسل لملاقاتي على الحدود قائد حرسه الشخصي، بدر الجمالي الشهير. واستُقبلت في القاهرة بأبهى مظاهر التكريم، كما لو أنني شهيد القضية الإسماعيلية. وسرعان ما انجلت الأمور أمامي. فقد تكون حول ابني الخليفة فريقان، وكان الرهان يدور حول خلافة العرش. فالابن الأكبر نزار، كان القانون إلى جانبه. وكان نحيلاً، قصير القامة، مثل الخليفة نفسه. وما لبث هو وأباه أن وقعا تحت تأثيري. لكني كنت قد قدرت تقديراً سيئاً تصميم بدر الجمالي، الذي دافع عن الابن الأصغر: المستعلي بالله ولما رأى بدر الجمالي أني بدأت أكسب نفوذاً أقوى منه، قام باعتقالي. وانتاب الخليفة الخوف. وتبين لي في الحال أن الأمر قد تجاوز المزاح. فتخليت عن كل مطامحي السامية التي حملتها لأجل مصر ولأجلي، وأبحرت على ظهر مركب فرنجي. وفي هذا المركب نسجتُ خيوط مصيري.

«كنا في عرض البحر حينما لاحظت أننا لا نبحر صوب سوريا، كما كان قد أعلن بدر الجمالي، وإنما نحو بلاد الغرب، وربما نحو شاطئ أفريقيا. فتساءلت في نفسي: ترى هل سينزلونني في ميناء ما قرب القيروان؟ إن فعلوا، فسيكون في ذلك هلاكي. وآنذاك هبت عاصفة من تلك العواصف المتكررة الحدوث في ذلك الجزء من البحر. هل قلت لكما إن الخليفة وقبل رحيلي، أمر سراً بإعطائي بضعة جراب مملوءة ذهباً؟ لقد قدمت واحداً منها إلى القبطان، ليعود على أعقابه، ووافق القبطان على أن يحطني على الشاطئ السوري، إذ رأى في العاصفة التي باغتته في الجهة المقابلة عذراً مناسباً. لقد سحره الذهب. واشتدت العاصفة اشتداداً عنيفاً، وأصاب المسافرون، ومن بينهم الفرنجة، القنوط. وأخذوا يبتهلون بصوت عال ويستغفرون الله. أما أنا، وقد سرني سير أموري على ما يرام، فقد جلست مطمئناً في زاوية صغيرة أزدرد بضعة تمور مجففة. أثارت رباطة جأشي الدهشة. لم يكن المسافرون قد أدركوا أننا غيرنا وجهة المركب. وكنت أجيب ببساطة على استفهامهم بأن الله أنبأني بأننا سنرسو في مكان ما على الشواطئ السورية، وأن مكروهاً لن يصيبنا في طريقنا. ذلك «الوحي» تحقق

أثناء الليل، وأخذ المسافرون ينظرون إليّ كنبي عظيم. أراد الجميع أن يصبحوا أتباعاً لعقيدتي. أصابني الذعر من هذا النجاح المباغت. لاحظت حينذاك قوة الإيمان وسهولة بعثه في النفوس. إذ تكفي معرفة أمر ما أكثر مما يعرفه الآخرون، وحينها من السهل فعل المعجزات. فهي الأرض الخصبة التي تنبت فيها زهرة الإيمان النبيلة. وفجأة توضح كل شيء أمام عيني. فلكي أنفذ مشروعي، ولأقلب العالم، لست بحاجة، مثلي مثل أرخميدس، إلا إلى ركيزة متواضعة. شرط أن تكون صلبة. فلا التكريم ولا النفوذ لدى سلاطين هذه الأرض أصبح يجدي نفعاً في نظري من يومها! لاشيء آخر سوى قصر محصن وبضعة وسائل تحوله حسب ما أرغب. وآنذاك ليحذر الوزير الأكبر وعظماء البلاد قاطبة على أنفسهم مني!

والتمع بريق تهديد غريب في عينيه. كان أمام أبي علي حيوان كاسر. حيوان يستطيع بين لحظة وأخرى أن يكشف عن طبيعته الخطرة.

ـ أنت اليوم تملك هذه الركيزة الصلبة، قال له أبو علي في نبرة مهدئة... لكنها كانت مع ذلك تشي بفهم سطحي.

ـ في الواقع، قال الحسن.

وابتعد عن الحاجز، وتمدد على الأرائك المفروشة على الأرض مباشرة، ودعا صديقيه ليحذوا حذوه. كان في انتظارهم قطع من الشواء البارد وبضعة جرار خمر فوق الصواني. وشرعوا في الأكل.

ـ أنا لا أتردد في خداع العدو. لكني لا أحب أن أخدع أصدقائي، قال فجأة بوزروك أوميد ـ وقد ظل طيلة ذلك الوقت صامتاً، يفكر في قرارة نفسه، ثم أفلتت تلك الكلمات منه على نحو خشن.

«حسب ما أفهمك، ياابن الصباح، تابع قوله، فإن قوة مؤسستنا ينبغي أن تقوم على عمى الفدائيين الذين هم أتباعنا الأكثر عزماً وإخلاصاً! ونحن الذين يتحتم علينا قذفهم في تلك الظلمات، وذلك عن قصد وتعمد بارد. إن حيلاً غير مسبوقة قد تتيح لنا الحصول على تلك النتيجة. بالتأكيد، إن مشاريعك عظيمة. لكن «الوسائل» التي تستخدمها لتنفيذها لا تتعلق بأي كان: فهؤلاء رجال أحياء، وهم أصدقاؤنا!

وكما لو أنه كان يتوقع هذا الاعتراض، أجاب الحسن بهدوء:

ـ لكن قوة كل مؤسسة ترتكز أساساً على عمى أتباعها! فالناس بحسب استعدادهم للمعرفة، يتبوؤون مرتبة في هذا العالم، والرجل الذي يريد أن يقودهم عليه أن يحسب حساب تنوع كفاءاتهم. فالكثرة من الناس في الماضي، كانت تطالب بأن يأتي الأنبياء بالمعجزات. فكان يتحتم على الأنبياء ذلك إن هم أرادوا المحافظة على تأثيرهم... كلما كان مستوى وعي جماعة ما منخفضاً، كلما كان الحماس الذي يحركها أشد وأعنف. ولهذا قسمت البشر إلى معسكرين متباينين. ففي الجانب الأول تقف حفنة من أولئك الذين يعرفون ما الذي يحدث، وفي الجانب الآخر هنالك حشد هائل من أولئك الذين لا يعرفون شيئاً. الأولون مهمتهم القيادة، والآخرون عليهم الانقياد. الأولون بمثابة الأهل، والآخرون هم الأطفال. الأولون يعرفون أن الحقيقة لا يمكن بلوغها، والآخرون يمدون أيديهم نحوها. فماذا يتبقى آنذاك أمام أولئك الأولين... غير أن يقدموا لهؤلاء الآخرين الأساطير والترهات، والكذب والدجل؟ فليكن. ومع ذلك فالشفقة وحدها هي التي تدفعهم لذلك. ولا أهمية للقصد، بما أن الخداع والمكر هما في جميع الأحوال لا غنى عنهما لمن يريد الأخذ بيد جموع الناس نحو هدف واضح أمام عينيه تعجز الجموع عن فهمه. ثم لم لا نقيم أيضاً من تلك الخديعة وذلك الدجل مؤسسة نخطط لها؟ أود أن أذكر لكما مثال الفيلسوف اليوناني أمبيدوكل، الذي كان مريدوه يبجلونه وهو على قيد الحياة كما لو أنه إله. ولما شعر بدنو أجله، صعد دون أن ينبس بكلمة لأحد، إلى قمة بركان وألقى بنفسه في الهوة الحارقة؛ كان في الواقع قد تنبأ لأتباعه المخلصين بأنه سيُنزع ذات يوم على نحو عجائبي من هذه الدنيا ويؤخذ حياً إلى العالم الآخر. لكنه وبالمصادفة فقد على سطح الفوهة خفه... الأمر الذي وشى به. فلو لم يُعثر على خفه الشهير، لآمن الناس على الأرجح بالإله أمبيدوكل، الذي رُفع حياً إلى موطن الآلهة. وهكذا إن تمعنا جيداً في ما تقدم، فواضح أن فيلسوفنا لم يرد الإقدام على تصرف كذاك بدافع مصلحة ما ـ فما هي المنفعة التي سيجنيها من أولئك التلاميذ، بعد موته، إن آمنوا بصعوده إلى السماء؟ إني من جهتي،

أتبين في تصرفه، دلالة على رهافة الإحساس: فهو لم يرد أن يفك السحر عن مؤمنين آمنوا إيماناً راسخاً بخلوده. كان يعلم أنهم يطلبون منه الأساطير، وهو لم يشأ أن يخيب آمالهم.

- إن أكذوبة كتلك في جوهرها لاضرر منها أبداً، سلّم بهذا بوزروك أوميد بعد لحظة تفكير. لكن الرهان الأخير في تلك الخديعة التي تدبرها للفدائيين هو حياتهم ومماتهم...

- اسمعا! قال الحسن مصراً، لقد وعدتكما بتبرير فلسفي مفصل لمشروعي. لنحاول أولاً أن نفهم ما يجري الآن في تلك الجنائن، تحت أقدامنا، ولنعمل على تحليل الحادثة إلى أجزائها. لدينا هناك ثلاثة شبان آمنوا بأننا فتحنا لهم بوابة الفردوس. فإن هم كانوا مقتنعين حقاً بهذا، فأي ضير سيصيبهم؟ هلا تأكدتم بأنفسكم بالذات ياأصدقائي! إنها سعادة بالغة لم يذقها بعد أي بشر فان. وهم سيتمتعون بهذا النعيم الفريد مطمئنين.

- لكن إلى أي حد سيكون ضلالهم، أبدى أبو علي ملاحظته ضاحكاً، فنحن الثلاثة في وضع يمكننا أكثر من أي كان من معرفة ذلك...

- وماذا تهم معرفتنا لذلك! قال الحسن غاضباً. أتعلم، أنت، ماذا سيحصل لك غداً؟ أأدري أنا، ماذا يخبئ لي القدر؟ هل يعرف بوزروك أوميد ساعة موته؟ ومع هذا فكله مدون منذ قرون وقرون في تكوين هذا الكون. لقد أكد بروتاغوراس أن الإنسان معيار كل الأشياء. فما يدركه «موجود» وما لا يدركه «لا وجود له». وأولئك الثلاثة الذين هم في الأسفل سيعرفون الجنة ويمتعون أرواحهم وأجسادهم وحواسهم بها. وبالتالي فالجنة بالنسبة لهم موجودة. أنت، يا بوزروك أوميد، ترتاع من الخديعة التي أجرّ إليها هؤلاء الفدائيين، وتنسى في الوقت نفسه، أننا نحن في كل يوم ضحايا وهم حواسنا. وقد اعترف ديموقريطس سابقاً بأننا وهبنا حواساً خداعة. وبالنسبة إليه لا وجود للون، لنعومة، لمرارة، لبرودة، أو لحرارة، إنما هنالك فقط ذرات وفضاء. وأمبيدوكل أيضاً كان قد تكهن بأن كل معارفنا لا تردنا إلا عن طريق حواسنا. وما لا يصل إلينا عن طريقها لا يمكن أن نفكر فيه،

هكذا بكل بساطة. فكم هي ضئيلة جداً مصداقية معارفنا، ما دامت حواسنا التي هي مصدر تلك المعارف كاذبة! انظرا إلى هؤلاء الخصيان في الجنائن هناك! لقد أوكلنا إليهم حراسة أجمل فتيات البلاد. وعندهم أعين كأعيننا، وآذان كآذاننا، وحواس كحواسنا، بيد أن بتر صغير في جسدهم كان كافياً لتغيير تصورهم للعالم. فماذا يعني لأحدهم عطر مسكر ولون نضر عند فتاة شابة؟ أو ملامسة نهدين عذراوين فتيين؟ لا شيء سوى إحساس مزعج بأن لديه كتلة من اللحم المكتنز دونما فائدة. انظرا، تلك هي نسبية حواسنا. فماذا يهم الأعمى إن أحاطته ألوان حديقة غنّاء؟ والأصم إن صدح حوله تغريد العندليب. وكذلك سحر عذراء لايثير مشاعر خصي. والأحمق بدوره يسخر من حِكَم العالم كلها!

لم يتمالك أبو علي وبوزروك أوميد نفسيهما عن الضحك. بيد أن كليهما اجتاحهما انطباع واحد: لقد كان الحسن يمسك بأيديهما، وهاهو اليوم يقودهما عبر درج شديد الانحدار نحو أعماق هوة مظلمة، لم يجرؤ بعد أحد قط على النظر إليها. وشعرا أنه قد درس حججه مطولاً.

استطرد الحسن قائلاً:

- انظرا، حينما يعترف المرء حقاً، كما فعلت أنا، بأن ليس بوسعه الوثوق بشيء مما يراه حوله، ومما يدركه، حينما يستشف وعيه أنه محاط من جميع الجهات بالشكوك والظلمات، وبأنه دوماً ضحية أوهام، حينذاك لا يعود يعتبر تلك الأوهام شراً، وإنما ضرورة في الحياة، ضرورة عليه عاجلاً أم آجلاً أن يتأقلم معها. إن الوهم، عنصر كل كائن حي، وعامل اللذة، وباعث من بين بواعث كثيرة وراء كل عمل وكل تقدم... تلك هي برأيي وجهة النظر الوحيدة الممكنة بالنسبة لأولئك الذين بلغوا مستوى عالياً من المعرفة. لقد رأى هيراقليطس في الكون كومة فوضوية ينظمها الزمن، الذي هو، برأيه، أشبه بطفل يلعب بحصى متعددة الألوان، يجمعها ويبعثرها على هواه. يا للمقارنة المرهفة! هذا الشغف البناء المبدع ألا يختلط بإرادة غير مفهومة تدير العوالم؟ تدعوهم للحياة ثم تفنيهم؟ لكن في حيز الزمان الموجودة فيه

تلك العوالم فريدة وكاملة، وتتقوض وفق قوانين خاصة بها. ونحن أيضاً، نعيش في عالم مشابه. نخضع للقوانين التي تحكمه. ونحن جزء منه ولا نستطيع الخروج منه. وبإمكاننا على الأرجح أن نؤكد أن الضلال والوهم في هذا العالم هما المحركان الأساسيان...

ـ رحمتك ياالله! صاح أبو علي. ألم تشيد أنت أيضاً، أيها الحسن، عالماً تنظمه قوانين ذات صبغة فريدة؟ لقد أنشأت عالمك المميز الغريب... وواقعاً مرعباً بما فيه الكفاية. إن آلموت ابتكارك يا ابن الصباح!

انتزعت ملاحظة أبي علي ابتسامة من فم الحسن. أما بوزروك أوميد فقد اكتفى بالنظر والإصغاء، كان يفكر بشكل مشوش. شعر أنه ينزلق شيئاً فشيئاً في مجال بدا له غريباً ومجهولاً تماماً.

ـ يحمل مزاحك، ياعزيزي أبو علي، جزءاً كبيراً من الحقيقة، قال الحسن وعلى وجهه إمارات التفكير. إن الخالق، ربما لرحمته بنا، أخفى علينا مستقبلنا ويوم مماتنا. وأنا لم أشأ أن أفعل شيئاً آخر. أين كتب أن حياتنا على هذه الأرض أفضل بكثير من وهم! إن وعينا وحده يفصل بين ما هو حقيقي وما هو مجرد حلم. فإن اقتنع فدائيونا عند استيقاظهم بأنهم ذهبوا إلى الجنة، فهم قد ذهبوا إليها فعلاً! إذ بين الجنة الحقيقية والمزيفة، لا يوجد أي اختلاف. فحيثما نعتقد بوجودنا في مكان ما، فنحن فيه حقاً. ألن يكون نعيمهم، وملذاتهم وسرورهم نفسه إن هم ذهبوا فعلاً إلى جنان الله؟ إن أبيقور علّم بحكمة أن الهدف الأوحد للحياة هو الهروب من المعاناة والآلام، وذلك بالسعي قدر المستطاع نحو اللذة والرفاهية الشخصية. مَن من البشر سيكون له نصيب أكبر من سعادة أولئك الفدائيين الذين جعلناهم في الجنان! في الحقيقة! إني لأعطي كل ما أملك لأكون مكانهم! آه! لو أني استطعت أن أقنع نفسي أنا أيضاً، ولو لمرة واحدة، بحقيقة الخيرات المتوافرة في هذه الجنينة... وأتمتع بها!

ـ يالها من مغالطة! قال أبو علي وقد سحرته كلمات الحسن. ضعني إذن فوق خشبة التعذيب وأقنعني، كما تكلمت آنفاً، بأني عليها

أكثر هناء من على هذه الوسائد الطرية... أستحلفكم بإسماعيل، وإني لأضحك من فرط السعادة!

انتقل هذه المرة ضحك أبي علي الصاخب إلى بوزروك أوميد الجافل نفسه.

ـ ربما حان الوقت لنلقي نظرة صوب أبطالنا، ذكّرهم الحسن.

وقفوا واتجهوا نحو الحاجز.

ـ لا زال كل شيء هادئاً، قال بوزروك أوميد. لنعد إذن إلى حديثنا. قلت لنا، يا ابن الصباح، أنك تحب أنت أيضاً، ولو لمرة واحدة، أن تشعر بوجودك في الجنة. بيد أن فدائييك، وحتى لو أنهم أحسوا بهذا الشعور، فما الذي سيحسون به على وجه الخصوص؟ سيتذوقون أطباقاً يمكنهم التلذذ بها في مكان آخر. وسيعاشرون فتيات يوجد مثلهن آلاف تحت الشمس...

ـ لا، أبداً! قاطعه الحسن. ليس سواء عند إنسان بسيط أن ينزل ضيفاً في قصر ملك أو في حريم عادي، حتى وإن قدّمت له هنا وهناك المآكل نفسها. وهو يفرق أيضاً بين أميرة وراعية بقر، وإن تشابهتا كأنهما توأمين. فملذاتنا لا تعتمد على إحساساتنا الجسدية وحسب. واللذة ليست أمراً بسيطاً... فهي نشاط يخضع لكثير من المؤثرات! إن الفتاة التي سيرى فيها حورية، تتجدد عذريتها على الدوام، ستقدم مسرات أخرى تختلف عن تلك التي تقدمها عبدة مشتراة.

ـ إنك لتضع إصبعك على أمر دقيق كدنا ننساه، أبدى فجأة أبو علي ملاحظته. لقد كتب في القرآن أن فتيات الفردوس لا يفقدن بكارتهن أبداً. هل فكرت في هذا؟ احذر من أن يضر سهو من هذا النوع بمخطط مدهش فعلاً...

قهقه الحسن.

ـ لا يوجد على الإطلاق، في الجنائن التي ترونها عند أقدامنا، فتيات أبكاراً... وكذلك لم أحضر أباما من عزلتها النائية عبثاً. أتحسبان أنها لم تكن تستحق شهرتها بوصفها العشيقة الأكثر تمرساً

من كابول إلى سمرقند؟ سأخبركما عن ذلك، بعد عشر من العشاق، كانت لا تزال نضرة كفتاة في السادسة عشرة من عمرها. إنها في الحقيقة تعرف سراً في الحب، ما أن يكشف عنه، حتى يبدو بمنتهى البساطة. لكن حينما لا يدري به أحدهم، فليس بالأمر الصعب أن يصدق أن بين ذراعيه عذراء بريئة مثل عذارى الجنة. إن سر تلك الأعجوبة خليط من مواد معدنية يحوي محلول منها خواص قابضة للأغشية والذي حينما يستخدم بنباهة، يساعد على إقناع الغرّ بأن التي بين يديه فتاة بكر، حتى وإن كان ذلك غير صحيح على الإطلاق.

ـ إن كنت قد فكرت أيضاً بهذا، فأنت إذن شيطان من لحم ودم قال أبو علي.

ـ انظرا! استيقظ أحد الفدائيين! نبههم بوزروك أوميد.

أخذ ثلاثتهم يحدقون في ظلام الليل، وقد حبسوا أنفاسهم. ومن خلال السقف الزجاجي لإحدى المقصورات، بدت الفتيات وهن يسارعن نحو الفتى اليافع، كان واضحاً أنه منهمك في رواية شيء ما لهن.

ـ سليمان... قال الحسن بصوت تقصّد خفضه، كما لو أنه يخشى أن يسمعه أحد في الأسفل. إنه أول إنسان فان، يفتح عينيه في الفردوس!

حينما حضر الخصيان إلى فاطمة وصاحباتها، حاملين جسد سليمان النائم، ساد في المقصورة صمت كصمت الأموات. ودون أن ينطقا بكلمة، رفع الحارسان الفتى من قدميه وكتفيه ووضعاه على سرير من الأرائك. ثم انسحبا بهدوء حاملين معهما المحفة فارغة.

تأملت الفتيات تلك الهيئة الممشوقة تحت الغطاء الأسود، وحبسن أنفاسهن. كانت تلك زينب التي همست في أذن فاطمة بأنه ربما حان وقت الكشف عن وجه ضيفهن النائم. اقتربت فاطمة على رؤوس أصابعها، وانحنت فوق الفتى ونزعت الغطاء برفق. فبدت وكأنها صُعقت من شدة الذهول. فحول هذه اللحظة التي طال انتظارها، نسجت ألف حكاية؛ ومع ذلك فقد فاجأها هذا الجمال الذي تراه عيناها:

وجنتا صبية متوردتان، شفتان بلون الأرجوان منفرجتان قليلاً، وممتلئتان كحبات الكرز، أسنان كاللؤلؤ، الذي تكلم عنه الشعراء... وأخيراً رمشان طويلان كثيفان، ألقيا على الخدين ظلاً ناعماً. أراح الفتى اليافع على جنبه ذراعه المثنية تحته. بينما أحاطت الأخرى برفق بالوسادة التي كانت قد دست تحت رأسه.

ـ أظن أنه يعجبك تماماً؟ سألت بخبث خانم.

ـ لن أحبه أبداً!

واقتربت الفتيات الأخريات بدورهن.

ـ انتبهن! ستلتهمنه بأعينكن!

قهقهت سارة.

فمازحتها زينب قائلة:

ـ لو كان هذا ممكناً، لما قصّرت.

ـ ياللفصاحة!

تناولت فاطمة القيثارة وداعبت بلطف أوتارها. ولما لم يستيقظ الفتى، تشجعت، وشرعت تدندن أغنية مبهمة. لكن ذلك لم يكن بذي أثر على النائم.

ـ ليس أمامنا إلا أن نتابع الثرثرة كما لو أننا بمفردنا، اقترحت في النهاية.

عادت المحادثة التي توقفت للحظات إلى مجراها. وأُطلقت مجدداً نكات وضحكات. وما هي إلا هنيهة قصيرة حتى بدأ الفتى يتحرك. أشارت زينب إليهن:

ـ انظرن! إنه يستيقظ.

وضعت فاطمة يديها أمام عينيه.

ـ لا، إنه يحلم وحسب، قالت سارة.

راقبت حليمة بشغف الوجه النائم.

ـ إني أعتمد عليك، نبهتها فاطمة، لاأريد نزوات!

تحرك سليمان لينهض، فتح عيناً وسرعان ما أغمضها. وعندما

قرر أخيراً أن ينظر حوله فعلاً، لم تبدر منه إلا نظرة بلهاء إلى وجوه الفتيات المليئة بالفضول والخجل. هز رأسه، وتمتم ببعض الكلمات المبهمة، ثم عاد ليغفو من جديد.

ـ لابد أنه يعتقد أنه في حلم، همست عائشة.

ـ ربما تكفي مداعبته مداعبة بسيطة، اقترحت زينب، ألا تريدين أن تحاولي؟

جلست فاطمة على الأرائك، بالقرب من الفتى. ترددت يدها للحظة، ثم وبرؤوس أصابعها داعبت وجهه.

كان سليمان يرتعش. التفت إلى الوراء ببطء ووضع يده على فخذ فاطمة. شعرت بيده تحرقها. كانت تلهث وجسدها كله يرتجف. استطاع سليمان أخيراً النهوض وبذل جهداً واضحاً ليفتح عينيه. التقت نظراته أولاً بهيئة فتاة، ولابد أنه لاحظ ارتعاشها. ودون أن ينطق بكلمة، وكأنه فتى مسيّر، أخذ يقبلها. ثم جذبها بعنف إليه. ولم تستطع المداعبات التي تبادلاها بعدئذ أن تبدد تماماً البلاهة التي ظل فيها غارقاً. وفي هذه الحالة من الفقدان الجزئي لوعيه مارس الحب معها.

ولم يتسنَ لفاطمة أن تفهم ما الذي حصل لها. وحينما استعاد الفتى رشده بعض الشيء، سمعت نفسها تسأله بصوت شارد:

ـ سليمان... أتحبني؟

تأملت الوجه المنحني فوقها. وغمغم سليمان:

ـ هيا... إني أعرف جيداً أن كل هذا مجرد حلم... ومع ذلك فأنت رائعة الجمال. يبدو أن لعنة ما تتفنن في إفساد أروع أحلامنا.

استجمعت فاطمة شجاعتها، مقاومة الافتتان العذب الذي شعرت باستسلامها له. وألقت نظرة على صاحباتها. أحست بجفلة حيائها. لكن كان عليها أن تتصرف؛ هذا ما أمرها به واجبها. عادت بمخيلتها إلى العذاب الفظيع الذي توعد به سيدهن إن أخفقن في مهمتهن. دفعت الفتى بلطف قائلة:

ـ ألا تستحي، يا سليمان؟ أتجدّف بألفاظك، وأنت في الفردوس؟

ـ في الفردوس؟...

أخذ يفرك عينيه ويجيل ببصره في كل الأنحاء مندهشاً.

ـ ماذا... لكن أين نحن؟

وبتردد، مدّ يديه. جسّ الوسادة، لمس وجلاً جلد فاطمة العاري برؤوس أنامله. كانت أمامهما نافورة ماء رقراقة. نهض كمن يسير في نومه، واقترب من البركة وبلل يده فيها.

ـ أيتها الجنة المقدسة... تمتم. أهذه حقيقة فعلاً... هل أنا حقاً في الجنة؟

لمح الفتيات الأخريات منذ لحظات، كن يراقبنه دون أن يجرؤن على الاعتراض. ترى ماذا سيحصل لو ملك زمام نفسه، ورفض هذا الوهم؟... إذن سينتهي الأمر بهن إلى قطع رؤوسهن! لكن هل سيكنّ قادرات على مسايرته في ضلاله حتى آخر الليل؟

كانت فاطمة أول من بادرت بالكلام:

ـ لقد قطعت طريقاً طويلاً. هل أنت عطشان؟

ـ أجل، إني عطش...

قدمت سارة إليه قصعة من حليب طازج. تناولها منها وأخذ يشرب بشراهة.

ـ أشعر وكأن الحياة ردت إلي! ـ قال وقد علت ابتسامة وجهه.

ـ تعال، سنحممك، دعته فاطمة.

ـ كما تريدين... لكن أود لو ينظرن إلى الجانب الآخر.

أطاعت الفتيات بوداعة؛ غير أن سارة وزينب ضحكتا ضحكة صغيرة مخنوقة.

ـ ما الذي يضحككما؟ سألهما بنبرة حذرة وقد انتهى من خلع ملابسه.

ـ إنك لم تألف بعد نمط الحياة هنا.

وغطس في الماء.

ـ كم هو رائع! قال وقد بدت عليه ملامح السرور فجأة.

ذهب ما به من دوار. لكن دهشته ظلت على حالها؛ ومع ذلك فقد

بدا له الآن وجود الفتيات أمراً عادياً. طلب منشفة، فأُحضرت له في الحال.

- أود رؤيتكن وأنتن تستحممن أيضاً.

أشارت فاطمة لهن إشارة خاطفة. فنزعن أوشحتهن ونزلن إلى الماء. أرادت حليمة الاختباء، لكن سارة وبيد قوية جذبتها إلى البركة.

أخذن يرششن الماء على بعضهن بعضاً مسرورات، وما لبثت الضحكات والصيحات أن ترددت في أنحاء المقصورة. أما سليمان، الملتف بردائه فقد تمدد على الأرائك متأملاً إياهن كما يحلو له.

- ما أبهج هذا المكان! قال، وعيناه تلمعان.

وفجأة، أحس بالوهن والجوع ونظر باشتهاء إلى المآكل اللذيذة المنتظرة فوق المناضد الصغيرة الموضوعة في زوايا المكان. كانت فاطمة قد ارتدت ملابسها على عجل. وقد فطنت إلى رغبة صاحبها، اقتربت منه وابتسمت له ابتسامة ملائكية.

- هل أنت جائع، يا سليمان!

- لا تتخيلين إلى أي حد!

وفي الحال بادرن جميعهن إلى خدمته، وتملكتهن الدهشة حينما رأينه منكباً على الأطباق كذئب يتضور جوعاً. ثم بدا وكأن قواه عادت إليه في لمح البصر!

- فليُصب له الخمر! همست فاطمة لصاحباتها.

شرب جرعات وافرة منه وهو يتفرس في أولئك الحسناوات اللواتي يخدمنه. كانت بشرتهن تلمع عبر أوشحتهن الشفافة المتطايرة حولهن ببريق ناعم. وعاوده دوار آخر.

- هذا كله لي؟... تمتم وظلٌ من الشك يساوره. وليقف على جلية الأمر، أمسك بعائشة وجذبها نحوه. فلم تتظاهر حتى بالدفاع عن نفسها. ثم انضمت إليهما ليلى من تلقاء ذاتها واقتربت منه.

- أثملوه... أفتنوه! همست فاطمة، وقد رأته يلاطفهن جميعاً. أحس سليمان بحرارة الخمر الناعمة تصعد إلى رأسه.

- أستحلفكم بالشهيد علي! صاح على حين غرة، كما لو أنه اكتشف سر خافية ما، إن سيدنا قال الحقيقة! وسلمني حقاً مفتاح الجنة...

من الآن، كل شيء تحت تصرفه، ويداه، وشفتاه، ستنهمك في العناق والقبلات قريباً.

بعد هنيهة قصيرة، رأينه يرفع رأسه قلقاً.

- ألست ميتاً، على الأقل؟

- لا تخشَ شيئاً، هدأته فاطمة. ستكون غداً مجدداً في آلموت في خدمة سيدنا.

- أتعرفن سيدنا!

- لا تنسَ أننا في الجنة!

- إذن، لا بد أنكن عرفتن الخبر: لقد قاتلنا المارقين منذ قليل، وذبحناهم!

- لا نجهل شيئاً من هذا. وأنت أول من هجم على الأتراك، وصديقك ابن طاهر انتزع العلم من العدو!

- الله أكبر!... ماذا سيكون جوابهما حينما أقص كل هذا على نعيم وعبيدة، سيسخران مني صراحة في وجهي...

- هل إيمانهم ضعيف إلى هذا الحد؟

- أستحلفكن بالنبي محمد! كيف يمكنني أنا نفسي أن أؤمن بهذا إن قصّا علي حكاية مشابهة! لكن أين ابن طاهر ويوسف؟

- إنهما في الجنة مثلك. حينما تعودون إلى الأرض، بإمكانكم مقارنة الانطباعات التي خلفتها هذه المغامرة في نفوسكم.

- بالله عليك، أحقٌ كل هذا! يالها من أشياء غريبة يخبئها القدر لمسلم شريف!

كان منتشياً مسروراً من الخمر، فأخذ يحدثهن عن آلموت، وعن رفاقه، والمعركة التي جرت ضد الأتراك... جلست الصبايا حوله، يستمعن إليه، ووجوههن مشرقة بالفرح. كان أول فتى في تلك

الجنائن، يكرمهن برجولته. زد على هذا، فهو فتى بهي. أحسسن بقلوبهن جميعاً منشغلة به.

كانت فاطمة قد نهضت منذ قليل، واتخذت مجلسها بعيداً بالقرب من قيثارتها، وأخذت تداعب برفق أوتارها وتغني بصوت هامس. ومن حين لآخر، تغازل اليافع الوسيم بنظرة تحمل كل ما في العالم من حب.

ـ إن فاطمة تعد لنا قصيدة. وشوشت خانم.

كانت حليمة تختبئ خلف خانم، وقد تشبثت يداها بكتفيها، ولم تجرؤ على مراقبة سليمان إلا من حين لآخر. لقد رأته يناسب هواها كثيراً: أسلوبه الجريء في الحديث، ضحكته المرحة الصافية، جسارته، كل ذلك سحرها، وأثارها خفية، وأحست بتولهها به أكثر مما ينبغي.

فاجأ الفتى، أثناء حديثه، ذلك الإعجاب الصريح في عيني حليمة. ومن مكمنها الذي اختبأت فيه، لم يلحظ من الصبية الجافلة إلا حدقتيها وأطراف أصابعها المتشبثة بكتفي خانم. ألم يلمسها منذ قليل فقط؟ إنه لا يتذكر ذلك. لقد عرفهن بأسمائهن: فاطمة، زينب، عائشة، ليلى...

ـ من هذه الصغيرة المختبئة خلف ظهرك؟ قال مخاطباً خانم.

ـ اسمها حليمة.

الأمر الذي أضحك الأخريات كثيراً، فارتبك سليمان بعض الشيء، واختفت العينان الواسعتان والأنامل الوردية خلف ظهر خانم المجاملة.

ـ اقتربي، حليمة، إني لم أرك بعد.

كان على خانم وشهيرة أن تأخذاها من يدها لترضى اخيراً بترك الملاذ الذي أوت إليه وسط الأرائك. بدت قدماها كأنهما تتعلقا بالسجادة بدل أن تتقدما.

ـ هل هذه العفريتة دائمة الخجل هكذا؟

ـ دائماً. وتخشى العظايا والثعابين أيضاً.

ـ لا داعي لخوفك مني. أنت لست من الأتراك ولا من المارقين على حد علمي؟ فهؤلاء وحدهم لهم الحق في خشيتي.

أشار إليها أنه يريد ضمها إليه، لكنها تهربت. وقد طأطأت رأسها معاندة. اندهش سليمان لتصرفها، فما كان من فاطمة إلا أن أشارت إشارة خفية إلى الصبية المتمردة، التي سرعان ما أحاطت بذراعيها بحيوية عنق الفتى وارتمت على صدره الواسع.

ـ إني لا أحتمل وجودهن حولنا، أسرّت إليه.

فالتفت نحو صاحباتها:

ـ هلا انضممتن إلى فاطمة وتركتمونا.

«يا لها من صبية رائعة! حدث نفسه، وملامح نهم تبدو عليه وهو يتفرس فيها. هل سبق وشاهد أحد مثل هذه الظرافة...»

أقبلت إليه بشيء من التوحش، مقربة وجهها المتّقد من شفتيه.

ـ يالله! ما أعذبك!... وشعر بها تستسلم لعناقه.

بعد وقت طويل، ولما عاد إليهما هدوؤهما، اقتربت سارة وقدمت الفتى كأساً من الخمر. وبينما كان يشربه، انهمكت زينب في ترتيب الوسائد. أخذ يفكر بصوت عال:

ـ لا أحسب أني ذقت يوماً مثل تلك العذوبة، والسحر الآسر...

إلا أن حليمة تكورت في الركن الطري من سريرهما. وغيّبت وجهها الصغير في عمق الوسائد، وما لبثت أن استسلمت للنوم بعد لحظات.

سعلت فاطمة سعالاً خفيفاً لتجلي صوتها:

ـ سأرتجل أغنية إكراماً لهذه الأمسية، قالت وعلى وجهها ابتسامة ساحرة ـ وقد لاحت غمازتان أسفل وجنتيها الفاتنتين بينما صدحت القيثارة بنغماتها الأولى. استمعوا...

سليمان، نسر أسود
وصل الجنــة
ولمح منذ لحظات
الحسناء فاطمة...
اقترب برقــة

ومثل بجعة ضمها
هي وحدها الجديرة
بسماء إلهية.
أصابت الغيرة ليلى:
إنه بهي كإله
وبدورها تزوجت
من سيد الأماكن...
رأى توركان ومن فوره
أُخذ بفمها العقيقي
وبجسدها هام.
حينذاك طار قلبه
نحو سارة الحلوة
التي قدمت ولاءها
إلى عطر الفجر الزكي.
أضنته العيون السوداء
وسئم البشرة السمراء.
نظر إلى زينب التي
أحاط ظل عينيها الزرقاوين...
لكن سرعان ما اتقدت ناره
لأجل حليمة الصبية
تلك الظريفة الناعمة
اللائقة بسلطان!
خانم وشهيرة
تمدان نحوه أيديهما
قبلة على شفاههما
وهاهو متحمس لهما!
المسكينة فاطمة

هناك تحبس دموعها
ترتجل شعراً دون حماس
لأجل العاشق الخائن.
رائع، مرح
يتقدم نحوها
يقبل شفتيها
قبلة متألقة.
آنئذ انصرفت الصبايا راقصات
في السماء، ضاحكات، مترنمات،
فوق جبل متمايل!
حقاً، الفردوس ليس فردوساً
بلا هذا الفارس الأبي
سلاماً يا سليمان!

ترددت الصيحات والضحكات الصاخبة احتفالاً بالشاعرة اللطيفة، سحب سليمان الشجاع إلى وسط الموكب الراقص المفعم بالحيوية، بينما ارتفعت الكؤوس عالياً لتُشرب في نخبه. وأفلت أخيراً من الراقصات ليهرول نحو أقدام فاطمة معانقاً إياها في حب شديد.

- أحببت كثيراً قصيدتك الرائعة. وأعتمد عليك لتدوني لي كلماتها اها. وعندما يراها نعيم وعبيدة، سيقفان فاغري الفم اندهاشاً.

- اعلم أن ما من أحد يستطيع اصطحاب شيء من الجنة، قالت له. عليك إلا أن تحفظ تلك الأبيات الرائعة عن ظهر قلب!

كانت الجلبة الصاخبة قد أيقظت حليمة. جالت حولها بنظرات هشة:

- ماذا يجري؟

- ألفت فاطمة قصيدة، أوضحت سارة لها. ولك فيها مكانة عة...

- إذن لا شك أنها قصيدة تافهة - وانزوت بين أرائكها.

ـ كيف يمكنك النوم بوجود ضيف كهذا بينكن! مازحها بلطف سليمان وقد أتى لينضم إليها.

هزها بحركة حانية، فأقبلت من جديد لتتكور في دفئه. وعادت، وأنفاس الفتى الناعمة تهدهدها، لتغفو مجدداً إغفاءة هانئة، ولم يلبث هو أيضاً أن استسلم للنوم.

ـ انظرن كم هما ظريفان!

ـ لندعهما نائمَين.

أشارت فاطمة إلى زينب بأن تأتي لتجلس بالقرب منها.

ـ عندي فكرة أخرى: سنؤلف شعراً حول هذين العاشقين الفتيين...

لاقت المبادرة استحساناً عظيماً، لا سيما من الكؤوس التي ملئت وشُربت بابتهاج كبير، الأمر الذي زاد من حدة عفرتة تلك الآنسات. ولما أُنجزت القصيدة، دعت فاطمة صاحباتها ليوقظن العاشقين... اللذين فتحا أعينهما معاً ليتبادلا نظرة ودودة وابتسامة عاشقة.

ـ آه! فقط لو يستطيع يوسف أن يراني!

كانت تلك شهادة أكيدة ببلوغه أوج السعادة. وانتهزت الصبايا ذلك ليصببن لضيفهن كأساً دهاقاً آخر من الرحيق الثمين. لكنه نحّى عنه الكأس ليشرب من الجرة نفسها.

ـ ما من سلطان عرف لحظات كهذه! صاح بعدئذ سليمان في كل اتجاه.

لكن الصبايا الفاتنات دعونه إلى متعة أخرى:

ـ اصغ! فاطمة وزينب حضرتا أغنية جديدة...

جلس على نحو مريح في جوف الوسائد الناعمة، وجذب حليمة إليه، وأصغى للمغنيتين...

طيبة القلب، حليمة
في فردوس الله
تمط شفتيها ممتعضة من

كلام الحب المعسول...
يجتاحها خوف عجيب
من العظايا والثعابين.
تحسبها بارعة
في التهام الصبايا
أرسلت نظراتها خلسة
نحو الخصيان السذج...
لكن الندم أصابها
إذ هم ليسوا رجالاً.
تكهن سليمان الحاذق
بعمق براءتها
وبكلامه العذب
سرق قلبها.
ولما ضم العاشق
بحركة رجولية
قامتها العذراء
أصابها الشحوب،
وبين ذراعيه
كاد أن يغشى عليها
أمن الخوف والرجفة
ـ أم من رغبة مخزية؟
ترتجف من سوء فعلها.
ومن خوفها
نسيت الألحان
التي تعلمتها.
مع ذلك عرفت
حبور تلك اللحظة

التـي لا يـمكن التشبث بها
والمـسـمـاة بـالـسـرور.

جعلت الضحكات التي استقبلت هذه المرة أيضاً ذلك النموذج الجريء من القوافي، وجه حليمة يتضرج احمراراً. هل كان ذلك من غضب أم من خجل؟ على أية حال، فإن سليمان من جهته قهقه من السرور، وكان ثملاً بحيث لم يقو على الوقوف.

ـ سألقي بهذه الوسائد على رؤوسكن، إن تابعتن على هذا المنوال، هددتهن الصبية الجافلة، ملوحة بقبضتها الصغيرة.

لكن صوت البوق الكئيب أخذ يدوي من بعيد... مرة، اثنتان، ثلاث... وسكتت الفتيات. توارت فاطمة، وقد اصفر وجهها فجأة، وذهبت لتحضّر بعيداً عن الأنظار القرص المخدر.

كان سليمان قد انتبه للصوت:

ـ ماذا يعني هذا النداء؟

نهض بصعوبة وتيقن أن ساقيه لاتحملانه فعلاً. همّ بالخروج لاستنشاق الهواء حينما سمع صوت فاطمة.

ـ أتريد كأساً آخر، ياسليمان؟

لم تتمكن الفتاة من إخفاء اضطرابها إخفاء تاماً، لكن ما لبثت صاحباتها أن سحبن الفتى نحو الأرائك.

ـ ماذا ستروي غداً لصديقيك نعيم وعبيدة، عن إقامتك هذه في الجنة؟ رددت إحداهن ثانية، معتقدة أنها بذلك ستبعد عنه ريبته.

ـ لنعيم وعبيدة؟ هذان التركيان لا يريدان إطلاقاً تصديقي! إنما حسبهما أن يتجرآ على تكذيبي، وسأعرف كيف أجعل قبضتي هذه التي ترونها تداعب أسفل وجوههم...

ولوح بقبضته القوية في كل الأنحاء. ناولته فاطمة الكأس التي حضرتها. أفرغها في جوفه شارداً.

وفي اللحظة ذاتها تقريباً، استولى عليه خدر غريب. أراد أن يفهم ما الذي حصل له؛ فاستجمع ما تبقى له من نذر يسير من قواه، لينطق قائلاً:

ـ ذكرى... اتركن لي شيئاً ما على سبيل الذكرى..

ـ لا ينبغي أن تأخذ معك شيئاً!

توقع ألا تلين فاطمة. فأخذت يده الخدرة تبحث محمومة عن معصم حليمة، التي دست إسوارة من الذهب في راحة يده. خبأها تحت صداره وغرق في الحال في نوم عميق.

لم ترد حليمة قط أن تخونه. كيف يمكنها أن تفعل ذلك؟ لقد ملك فؤادها. ومن جديد اجتاح المقصورة من حولها صمت مطبق. ودون أن تتفوه بكلمة. ذهبت وأحضرت الغطاء الأسود وغطت به الفتى النائم.

ولم يبق أمامهن إلا الانتظار...

... ليست الأشياء بحد ذاتها هي التي تجعلنا سعداء أو تعساء، فكر الحسن بصوت عال، في حين كان صديقاه يراقبانه، وقد تمددا على أرائكهما... إنما الفكرة التي نكونها عنها، وضروب اليقين الزائفة التي نعتقد بها. إن البخيل يخبئ كنزه في موضع يجهله الجميع: يتظاهر بالفقر علانية ويستمتع سراً بغنى يعرفه هو وحده. ثم يكتشف أحد جيرانه المخبأ ويأخذ الكنز... فهل ذلك سيمنع الشحيح من التمتع بغناه، ما دام لم يدر بالسرقة؟ ثم إن فاجأه الموت قبل أن يدري بمصيبته، فسيلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يشعر بالسعادة لامتلاكه العالم! والحال ذاته بالنسبة للرجل الذي لا يعلم أن صاحبته تخونه. فإن لم يكتشف ذلك، فسيتابع برفقتها تذوق اللحظات الساحرة. ولنفرض أن زوجته الغالية كانت الإخلاص بعينه، لكن شفتين كاذبتين تتمكنان من إقناعه بعكس ذلك... لا محالة آنئذ سيرزح تحت عذابات الجحيم. إذن لا الأشياء ولا الوقائع الحقيقية هي التي تفصل بين سعادتنا وتعاستنا، إنما هي التصورات التي يقدمها لنا وعينا المتأرجح وحسب. وكل يوم نتبين إلى أي حد تلك التصورات كاذبة وخادعة. إن سعادتنا لا ترتكز على شيء راسخ. وكم لنا من شكاوى لا مبرر لها غالباً! وأين الغرابة في ألا يكترث الحكيم بالسعادة أو بالشكوى... وأن يكون الأجلاف الحمقى وحدهم من يمكنهم التمتع بالسعادة!

- إن فلسفتك لا تروق لي تماماً، برطم أبو علي. صحيح أننا على الدوام ننخدع بالحياة، ونحن بإرادتنا ضحايا اعتقادات زائفة. لكن أعلينا أن نتخلى عن كل مسرة بحجة أن السرور يستند إلى افتراضات كاذبة؟ ثم إن المرء إن تصرف وفق حكمتك، فعليه أن يقضي عمره بين الشك والريبة.

- إذنْ لمَ تملكك الغيظ آنفاً، حينما أرسلت الفدائيين إلى الفردوس؟ أليسوا سعداء؟ ما الفرق بين سعادتهم والسعادة المفترض أنها حقيقية عند ذاك الذي يسره جهل المقدمات المنطقية الحقيقية للوجود؟ إني أعلم ما الذي يكدرك. يكدرك أننا ثلاثتنا نعلم ما لا يعلمه أولئك الفدائيون أنفسهم. ومع ذلك فنصيبهم من السعادة ليس بالنصيب القليل... وحتى أفضل من نصيبي أنا، على سبيل المثال. فكِّر أن سرورهم سينقلب إلى مرارة إن راودتهم الشكوك بأني أنا قد جررتهم طوعاً إلى هذه المغامرة التي لا سيطرة لهم عليها - لأن كل ما يحصل لهم، أرى نفسي أعلم عنه علماً أوسع منهم. وفكر أنهم سيشعرون بالمرارة أيضاً إن هم ارتابوا بأنهم مجرد ألعوبة، أو بيادق لاحول لها بين يديْ. أو أنهم وسائل تحركها إرادة فوقية، عقل فوقي يرتب خطة غامضة. من جهتي، يا صديقيْ، فإن ريبة كتلك، شكاً كذاك سيسمم كل يوم حياتي. عندما أشك بأنه يمكن أن يكون أحد ما أعلى منا، يحمل رؤية واضحة للكون وللموضع الذي نشغله، أحد ما يمكنه أن يعرف عنا ألف أمر يفوق مداركنا، وربما حتى ساعة موتنا، وبكلمة واحدة يعرف كل ما يتعذر على عقلنا بلوغه. أحد ما ربما لديه تجاهنا مقاصد خاصة، وربما يستخدمنا لغايات تجربة، ويخاطر بنا، وبمستقبلنا، وبحياتنا. في حين أننا، ونحن دمى متحركة بين يديه، نسلي أنفسنا هنا بضروب التسلية الحمقاء، متخيلين أننا ننسج بأيدينا خيوط مصيرنا. لم العقول الفوقية هي التي تبحث جاهدة عن سر الظواهر الطبيعية، لم الحكماء هم الذين يعكفون بشغف على العلم ويندفعون لاكتشاف الكون؟ ونعم ما قال أبيقراط بأن الحكيم سينال السعادة الكاملة إن لم يقلقه الخوف من الظواهر السماوية المجهولة ولغز الموت أيضاً. لكن معرفة ذلك لا تفيد في شيء: فهذا الخوف لا يمكن

إنكاره؛ إنما يمكن على الأغلب، وفي أفضل الحالات، أن نحاول تفسيره - أي نتجاوزه بطريقة ما - وذلك بالتكرس للعلم ولدراسة الطبيعة.

- كل هذا، كلام حاذق، علق أبو علي. بيد أني إن كنت فهمتك جيداً، أرى أن فلسفتك تتلخص في أمر مؤكد وهو أنك تتعذب خفية لعلمك أنك لست إلهاً!

بعثت تلك الفكرة اللامعة السرور في نفس الطبيب بوزروك اوميد... وأضحكت الحسن نفسه.

- لم يكن حدسك بعيداً عن الصواب، وافقه الحسن وهو يتكئ على الحاجز - وأشار بيده إلى زاوية في السماء مظلمة وقد تناثرت فيها آلاف الومضات المرتعشة. انظرا إلى هذه القبة السماوية اللامتناهية! من يستطيع أن يعد النجوم المبعثرة فيها؟ لقد أكد أرسطوطاليس أنها كانت شموساً. أيُ عقل بشري يمكنه فهم ذلك؟ ومع هذا فكل شيء في هذا الكون منظم حسب غاية وكما لو أن إرادة ما توجهه. وسيّان إن كانت تلك الإرادة إرادة الله أو عمل أعمى للطبيعة. وبالمقارنة مع هذا الكون الشاسع، فنحن كائنات مضحكة ومثيرة للشفقة. لقد كنت في العاشرة من عمري حينما تأكدت وللمرة الأولى من ضآلتي تجاه هذا العالم الرحب. ومن ذلك اليوم كم من عذاب لاقيته، وكم من أمور تغيرت! ولىّ إيماني الأعمى، واهتزت ثقتي بكل شيء، كما ولى انبهاري بالحب الأول. ولم تعد زهور الياسمين تبعث في أنفي ذلك العطر الليلي الذي اسكرني في الماضي، حتى أزهار التوليب لم تعد ألوانها مفعمة بالحياة. أمران فقط لم يتغيرا في نفسي: الدهشة أمام مساحة الكون الشاسعة، والخشية التي تثيرها الظواهر السماوية الغامضة.إن إحساسي بأن أرضنا ما هي إلا ذرة غبار في الفضاء، وأننا لسنا فيه سوى جرب صغير، أو تشكيلة تافهة من القمل، قد ملأني باليأس على الدوام.

وثب أبو علي على ساقيه المعوجتين وتظاهر برفع يديه حوله من الخوف، كما لو أنه يحمي نفسه من عدو خفي.

- أحمد الله أن جعلني متواضعاً وجنبني هموماً كتلك، صاح بنبرة

خالية تماماً من المزاح. لقد تخليت عنها عن طيب خاطر لأمثال المأمون وأبي معشر والبتاني.

ـ أتحسب أنه كان أمامي خيار آخر؟ أجاب الحسن بشيء من السخرية الضارية. أجل، لقد كنتَ عظيماً يا بروتاغوراس، حين قلت تلك الحكمة بأن الإنسان مقياس كل الأشياء! ماذا كان بوسعنا أن نتصرف في نهاية الأمر إلا أن نتلاءم مع هذه الحكمة ذات النتيجتين المتعاكستين؟ نرتب بما يناسب مخيلتنا، هذه الكرة الصغيرة من الطين والماء التي نعيش فوقها ونترك الأجزاء المجهولة من الكون للعقول الخالصة. هذا الكوكب الصغير الهزيل هو مجال نشاطنا، وهو المكان المناسب لعقلنا وإرادتنا. «الإنسان هو مقياس كل الأشياء!» لكن هاهي قملتنا تترفع فجأة إلى مرتبة خالق جدير بالاحترام! كان حرياً بهذا الإنسان القملة ألا يتجاوز حدوده. وأن يقصي الكون الرحب من مجال رؤيته مكتفياً بالأرض الصلبة التي نصب فوقها خيمته. أترىا، يا صديقي، عندما أدركت ذلك حقاً، اندفعت بكل قواي لأنظم ذاتي وما حولي. لقد بدا لي العالم مثل خارطة بيضاء هائلة. وفي الوسط، توجد بقعة صغيرة رمادية، هي كوكبنا. وداخل تلك البقعة الرمادية الصغيرة، نقطة سوداء متناهية الصغر، هي أنا، هي وعيي: الشيء الوحيد الذي أعرفه على وجه اليقين. تجاهلت البياض ـ إذ ينبغي أن يعرف المرء كيف يملك نفسه ـ لأركز كل انتباهي على البقعة الرمادية الصغيرة. كان لابد من اتخاذ التدابير، وتقييم القدرات، ومن ثم... من ثم نبسط في تلك البقعة سيطرتنا، نوجهها حسب تفكيرنا، وإرادتنا. لاشيء يبعث على الخوف لدى من يقيس نفسه بالخالق أكثر من أن يظل في الأسفل!

ـ الآن فقط فهمتك، يا ابن الصباح! صاح أبو علي بصوت لايخلو من المكر. تريد إذن أن تكون على الأرض كما الله في السماء!

ـ الحمد لله! ها قد سطع النور في رأسك، هنأه الحسن. كان ينبغي أن تفهم ذلك منذ فترة. وإلا ما كنت لأعلم من الذي سأوصي له بمملكتي.

ـ لكن قل لي، مازحه أبو علي، هذه الخارطة البيضاء المترامية،

إنك رغم ذلك تدخلت فيها فيما لايعنيك... وإلا أين كان يمكن أن تجد مكاناً لتقيم فيه جنتك؟

ـ أرأيت، الفارق بيننا، نحن الذين نبصر بوضوح، وبين الحشود الهائلة الهائمة في الظلام، هو التالي: نحن نملك زمام أنفسنا، على حين أن تلك الحشود لا تستطيع أو لا تريد أن تضبط نفسها. إنها تطلب منا أن نقودها لاقتحام مناطق مجهولة لايمكن معرفتها، وذلك لأنها لا تستطيع احتمال حالة الشك. وبما أننا قادرون على معرفة أن الحقيقة المؤكدة لاوجود لها، فها نحن مجبرون على اختلاق أكذوبة رائعة لأجلهم يمكن أن تبعث السلوان في نفوسهم.

ـ إن الأكذوبة التي صنعتها هناك في الأسفل، تُظهر الآن وجهها الحسن، نبهها بوزروك أوميد وهو يلقي نظرة عبر مرمى السهام. فها هو فتانا الشجاع الثاني استيقظ هو أيضاً، والصبايا اللطيفات يرقصن حوله.

ـ لنرى هذا، قال الحسن، ودعا أبا علي ليأتي إلى الحاجز ليتأكدا معاً من الأمر.

حينما رفعت سليقة الوشاح الأسود الذي كان يغطي القامة النائمة، حبسن جميعهن أنفاسهن. إذ قبل ثوان معدودة وضع الخصيان المحفة وسط المقصورة، وتملكتهن الدهشة لرؤية قدمين كبيرتين تجاوزتا الغطاء. ليظهر لهن بعدئذ جسد يوسف في بهائه المرعب.

ـ يا له من عملاق! إنه يستطيع أن يخبئ جادا تحت ذراعه! تمتمت زوفانا لتهدئ من روع نفسها.

ـ أتحسبين أن هيئتك أفضل حالاً؟ قالت لها رقية.

كانت سليقة جاثية بالقرب من الفتى وهي تنظر إليه بشيء من الانبهار.

ـ ماذا تحسبن أنه فاعل حالما يستيقظ؟ سألت تلك التي تدعى بفاطمة الصغيرة، وهي صبية خجولة جداً.

ـ سيلتهمك! ـ لم تكن حبيبة لتفوت فرصة للمزاح معها.

ـ كفي عن إخافتها، ألا ترين في أي حال هي!

اجتاح رقية بعدئذ ضحك غريب. أما يوسف فقد ظل في غفوته. ولم تبدر منه حتى تلك اللحظة إلا حركة واحدة: تقلب في فراشه لئلا يزعج منامه النور الذي تسلط على عينيه.

نهضت سليقة وأخذت تستشير صاحباتها:

ـ إنه يغط في نوم عميق. حتى أني اعتقدت أنه غائب عن الوعي. لكن ياله من فتى ساحر! ألا يستحق حفلة موسيقية، أو حتى رقصة رشيقة، ترحيباً به حال استيقاظه؟

أمسكت كل منهن بأداتها الموسيقية، وبدأن يغنين بصوت هامس أغنية رقيقة. أخذت سليقة ورقية، وبيديهما طبلتيهما، تخطوان بعض الخطوات الراقصة. أما جادا وفاطمة الصغيرة فكانتا تراقبانهما، وقد منعهما خوفهما من التجرؤ على تقليدهما.

ـ فلترغما نفسيكما على الغناء، على الأقل، قالت لهما سليقة غاضبة. ولا تكتفيا بفتح أفواهكما لتحاولا خداعي، فأنا لا أنخدع بذلك.

كانت أسما قد انتهزت تلك الغارة المباغتة لتعود إلى موضوع افتتانها:

ـ لا بد أن سهراب، ابن رستم المقدام، لم يكن يحمل ملامح أكثر اعتزازاً من هذه الملامح!

ـ هل أطمئن إلى أنك لا تودين مقارنة نفسك بالحسناء امرأة العزيز؟

همت سليقة بالضحك من تلك الكلمات، لكنها سببت لنفسها في الحال هذه الملاحظة اللاذعة:

ـ أتعتقد الآنسة التي تجرؤ على الضحك، أنها قادرة على الثبات في وجه المقارنة؟

لم تكن إجابة سليقة، التي كان الرقص سلاحها الأقوى، إلا أن أخذت تموج وركيها وتظهر مفاتنها على نحو لا يليق أبداً.

ـ إن الآنسة تمارس إغواءاتها، قالت الصبية أسما، في حين يغط بطلها في النوم.

ـ إنه أشبه بالمصري يوسف، لا يبالي بسليقة العزيز! قهقهت رقية.

أعجب التشبيه جادا التي اقترحت في الحال تأليف قصيدة حول هذا الموضوع.

وضعن أدوات عزفهن وأخذن جميعاً بقدح زناد إلهامهن. لكن سرعان ما نشب الخلاف بين الباحثات عن القوافي... وأوقظ يوسف من غفوته. اتكأ في البداية على مرفقه، وهو ينظر بهدوء حوله ثم انطلق في ضحك عاصف انتفضت من دويه الصبايا.

ـ الويل لنا! نحن الخائنات! لقد سمع كل شيء! وفي اضطرابها أخذت سليقة رأسها بين يديها وهي تستنطق بنظراتها يائسة صاحباتها.

غير أن يوسف، الذي كان يبذل جهداً كبيراً ليبقي عينيه مفتوحتين، لم يفارقه التعجب والدهشة من المشهد الذي قدمته له أولئك الحسناوات.

ـ الله أكبر! هذا ليس بحلم!

لما سمعته سليقة يتكلم على هذا النحو، استردت أنفاسها. اقتربت منه تتبختر تبختراً ناعماً في مشيتها وجلست إلى جانبه على الأرائك.

ـ الحقيقة، يا يوسف، أنك لا تحلم. لقد دخلت الجنة منذ برهة قصيرة، ونحن الحوريات المكلفات بخدمتك.

لمسها يوسف بحذر. ثم نهض، ودار حول البركة، وحدق بنظرات وجلة في الفتيات اللواتي كن يلاحقنه بعيونهن، وذلك دون أن ينطق بكلمة. ثم عاد أدراجه نحو سليقة.

ـ أستحلفكن بالشهداء جميعاً! صاح، كان سيدنا على حق... وأنا الذي لم أصدقه!

وانطرح على السرير. كان يشعر بالوهن، وفي فمه طعم مر.

ـ أين يمكن أن يكون سليمان وابن طاهر؟

ـ في الجنة، مثلك تماماً.

ـ إني عطشان.

- فليحضر له الحليب، أمرت سليقة.

وأفرغ منه قصعة كاملة في جوفه.

- أتشعر أنك في حال أفضل الآن أيها المسافر؟

- أجل.

- هل يمكن معرفة ما الذي أضحكك، حينما استيقظت؟

حاول يوسف أن يتذكر... فإذا بموجة ضحك جديدة تجتاحه.

- إنه أمر تافه!... قال بعد هنيهة قصيرة. لا شيء سوى أضغاث أحلام.

- أتستطيع أن تقصها علينا؟

- ستسخرن مني... اصغين إذن. أعطاني سيدنا نوعاً من الحلوى لأبتلعها وما إن فعلت حتى انتابني إحساس فجأة بأني أحلق عالياً. ومع ذلك وجدت نفسي، إن لم أكن مخطئاً، في هاتيك اللحظة ممدداً فوق ما يشبه السرير... أستحلفكن بالأنبياء السبعة! كيف جئت إلى هنا بعدئذ؟ ألم أكن أطير فعلاً؟

- بالطبع كنت تطير، يا يوسفي الطيب، لقد رأيناك بأم أعيننا تحلّق في عباب السماء إلى أن وصلت إلينا!

- رحمتك يا الله! أهذه هي الحقيقة إذن!... اسمعن ما حلمت به بعد ذلك - ما دام هذا كله مجرد حلم... لقد حلّقت فوق منطقة شاسعة، ووصلت فوق صحراء مترامية، وفجأة لاحظت فوقي ظل حدأة يتنقل على الرمل، وذلك في نفس الجهة التي كنت فيها. فقلت في نفسي: لا بد أن أحد الطيور الجارحة يتعقبني. نظرت أعلى مني، وإلى أسفل، والتفت يساراً ويميناً. لكن ما من أثر للطائر. حركت يدي اليسرى، ثم اليمنى. والظل فوقي يقوم بالحركات نفسها خافقاً بجناحيه. (وأخبركن أني رأيت مرات عديدة، حينما كنت طفلاً أرعى قطيع والدي، ظلالاً مشابهة تنساب على الرمال. وكانت الحيوانات يتملكها الرعب آنئذ وتلوذ بالفرار منها. إني أعرف جيداً تلك الأمور...) وفكرت، ألا يمكن أن أكون قد تحولت إلى نسر؟ وفجأة وجدت نفسي فوق مدينة ضخمة. لم أبصر مثيلاً لها من قبل. قصور شاهقة كالجبال،

جوامع ذات قباب مبرقشة، مآذن وبروج، كأنها رماح جيش مسننة. «ألست تطير فوق بغداد أو حتى القاهرة، يا يوسفي الطيب؟» قلت في نفسي. ثم أخذت أحلّق فوق سوق شاسع. وترامت إلي من الأسفل صيحات ونداءات، إلى أن واجهت أخيراً مئذنة عالية علواً لا يصدق، لها رأس دقيق مرهف كنصل السيف. وكان يقف في أعلى مطرح من ذلك البرج شخص تبينت أنه خليفة، كان يصيح كمن به مسّ ويقوم بإيماءات وإشارات لا عد لها. وبدا لي بعدئذ أنه يرد تحية أحد ما: كان ينحني احترام، وتنثني معه المنارة في الوقت نفسه. التفت لأرى من ذاك الذي يتلقى تحياته، لكني لم ألحظ أحداً. «آه يا يوسفي! قلت في نفسي، ها قد ارتقيت عالياً، حتى أن الخلفاء والمآذن ينحنون لك!» وفجأة عرفت في هذا الخليفة هيئة سيدنا! وانتابني ما يشبه القشعريرة. نظرت حولي، عساي أجد ملاذاً أهرب إليه. في تلك اللحظة، قفز سيدنا من المنارة بخفةٍ وأخذ يرقص رقصاً غريباً على ساق واحدة. وأحاط به عازفو الناي أشباه أولئك الذين يأتون إلينا من بلاد الهند ويسحرون الثعابين، وعلى صوت عزفهم، أخذ سيدنا يدور حول نفسه مثل المجنون. فماذا كان بودي أن أفعل آنئذ؟ إلا أن أضحك عالياً. وفي ذلك الوقت أبصرتكن حولي. يا لها من أمور عجيبة! لقد فاقت الحقيقة أوهام أحلامي!... كانت الصبايا يضحكن.

- حقاً يا له من حلم غريب! قالت سليقة. لكن أليس هذا هو الحلم نفسه الذي حملك على جناحيه الخفيين إلينا؟

وعلى الرغم من استغراق يوسف في أحلامه، إلا أنه لم تفته ملاحظة بعض المناضد حوله والتي ازدانت بالأطعمة على نحو مبهج. وشعر بجوع ينهشه. وداعبت أنفه رائحة شهية، وما لبثت عيناه أن برقتا توقاً إليه.

- أحسب أني حزرت رغبتك في الجلوس إلى المائدة... مازحته سليقة. إنما وحسب الأوامر، عليك أولاً أن تستحم، ولن تندم على ذلك: هذا الماء الذي تراه ممتع في اعتداله.

ركعت عند قدميه وشرعت تحل شراك نعله. واقتربت صبية أخرى أرادت أن تنزع عنه صداره لكنه أبى ذلك.

ـ لا تتمنع، يا يوسفي الطيب، احتجت سليقة بنعومة. أنت في الفردوس: وهنا كل شيء مباح، ولا شيء يمكن أن يخدش الحياء.

بعدئذ أخذته من يده وسحبته إلى حافة البركة. وهناك خلع مئزره وغطس في الماء. أما الصبية فقد طرحت عنها أوشحتها وبادرت للإنضمام إليه. ضحكت من الطربوش الذي أبقاه على رأسه، فنزعته عنه لتعهد به إلى صاحباتها، وأخذت تؤدي بشغف واجبها في تغسيله، مرفقة ذلك بحركات عفرتة كثيرة ورش ماء.

وما أن غادر البركة وجفف جسده، حتى قدمت إليه الفتيات أطباق الوليمة. فانكب عليها بهمة وأراد تذوقها جميعاً.

ـ الله أكبر! الآن تيقنت أني في الجنة! ثم قدمن إليه الخمر.

ـ ألم يحرمها علينا النبي محمد؟

ـ ألا تعرف قرآنك، ألا تعلم أن الله أباحها لأهل الجنة؟ لا تخف. إنها لا تضيع العقل.

ولما أصرت سليقة إصراراً كبيراً... ولما كان الظمأ يلهبه، فقد أفرغ الجرة الأولى بجرعة واحدة تقريباً، ليجثو بعدئذ على الأرائك، وقد استولت عليه نشوة لذيذة، وأحاطت سليقة التي مالت إليه، عنقه بذراعيها.

ـ آه! لو أن سليمان وابن طاهر يمكنهما رؤيتي!

أحس بنفسه كأنه إله، ولم يستطع أن يتمالك نفسه عن أن يقص عليهن مفاخره الجديدة التي قام بها ضد الأتراك. كانت رقية تحرص وهي في إصغائها الكامل على ألا ينقصه شيء، وأخذت تقدم له الشراب والطعام. ولما انقضت الأحاديث الخلابة، تناولت الآنسات آلاتهن الموسيقية وشرعن يغنين أغنية كن قد وضعنها خصيصاً له. أنصت يوسف، وجيع القلب، مسحوراً بما يرى...

جسد سليقة
رشيق كسهم
بين يدي الصياد
الذي يسدد نحو القلب!

أستحلفك بالله
وبما تصبو إليه
أنت يا من هزمت الأتراك
هل ستأسر قلبها؟
يوسف! إنها لك!
لكن لا تقسُ ولا تجفُ
مثل ذلك المصري.
انظر، إنها ليست مسبية قط:
ولنصرك أنت وحدك
تقدم عينيها السوداوين
الرائعتين وشفتيها المتقدتين.

تعلقت سليقة مجدداً بعنقه، وقربت وجهها منه لتقبل شفتيه بنعومة، ويداها تداعبانه في رقة. ولما استولى على الفتى دوار مثير، إذا بصاحبته تنهض واثبة، وتشير إلى الفتيات الأخريات اللواتي بادرن في الحال إلى أدواتهن الموسيقية، ثم اندفعت ترقص رقصاً مثيراً للفضول. أخذت تحرك على نحو خفيف وركيها، لتزيد من روعة حركتها أكثر فأكثر، في حين ظل باقي جسدها ساكناً تماماً. كان يوسف يتأملها بعينين ملتهبتين. وأسكرته حركات هذا الجسد المرن كأنها الخمر.

ـ الله أكبر! تمتم مبهوراً.

انبرت سليقة تهتز بحدة. بدا جسدها بأكمله كما لو أن شلالاً من الرعشة قد حل فيه. كان كل طرف من أطرافها، كما لو أنه ليس منها، يتحرك ويهتز على إيقاعه الخاص. ثم أخذت تدور بجنون حول نفسها، عشر مرات، عشرين... لتطير أخيراً مثل دوامة وتحط بين ذراعي يوسف. لكن في هذه المرة، هو الذي التهمها بقبلاته، وضمها إليه بقوة. ناسياً وجود الفتيات، حتى أنه لم يلحظ رقية، وهي تقترب على رؤوس أصابعها من العاشقين المتعانقين لتسدل عليهما غطاء...

استفاق الفتى السعيد من دواره العذب، ومع ذلك ظلت نظراته

مفعمة بالدهشة. وفي خدر الوسن الذي أعقب مسرته، خشي أن يستيقظ فجأة في آلموت ليتبين أن كل ألوان الأبهة تلك ما هي إلا أضغاث أحلام. لكن عينيه لا تخدعانه! فها هن الصبايا السبعة اللواتي أحطن بسليقة الظريفة هن فتيات حقيقيات فعلاً؛ وهذه الجنة التي يمرحن في أرجائها، ما من أسرار فيها. ألم يبدأ هو نفسه بالشعور بألفة حانية مع أولئك الحوريات؟ ولما استسلم إلى ملاطفاتهن، ألم تكن بهجته بسيطة وعفوية إلى حد كبير؟ كان يتأمل حركات أطرافهن الساحرة من خلال تلك الأوشحة الرقيقة المفترض أنها تغطيهن. التفت نحو سليقة، متأملاً صدرها المتاح بكبرياء، وما لبثت فورة رغبة أن استولت عليه... بيد أنه هو نفسه، في الحقيقة، ما زال في دهشة عميقة، وما تزال فكرة تلازمه: «من سيصدقني، وأسوار قلعتي تحيط بي، حينما أقص كل ما رأيته هنا؟...».

أخذت الفتيات وقد رأينه شارداً في أحلام يقظته يتوشوشن حوله دون أن ينتبه لذلك.

ـ دعينا الآن نتسلى معه قليلاً، همست رقية في أذن سليقة السعيدة.

ـ ما من داع لتدخلكن في عملي، زجرتها سليقة. أنا التي آمر، وحينما أكون بحاجة إليكن، سأقول لكن.

ـ انظرن إلى تلك المتعجرفة أتحسبين أن سيدنا لم يرسلنا إلى هنا إلا للفرجة؟ كان وجه رقية محمراً من الغضب.

ـ دعي سليقة تقرر بنفسها، قالت جادا قصراً للشر.

ـ اسكتي، أيتها الصرصارة الصغيرة. إنها تريده لها وحدها وحسب، هذا كل شيء...

ـ لكن ألا ترين أن عينيه لم تحطا إلا عليها!

ـ إنها لم تدعه ينظر حوله.

هذه المرة كانت سليقة التي أجابت بتعجرف:

ـ اسعدي لأنه لم يلمحك، وإلا لارتاب بوصوله فعلاً إلى الجنة!

كادت رقية أن تنفجر غيظاً. لكن يوسف الذي صحا من نومه، أخذ

ينظر إليهن. رشقتهن سليقة بنظرة حادة، فهرولن دون كلمة إلى الجرار والأطباق. وركعت هي عند قدمي الفتى ورمته بألطف ابتسامة لديها.

ـ هل ارتاح جيداً طفل قلبنا العزيز؟

وما كانت إجابته إلا أن دس ذراعه الثقيلة حول خصرها وجذبها إليه. وأبصر آنئذ، من فوق كتف الصبية الحلوة، جادا وفاطمة الصغيرة، اللتين كانتا تتأملانه بعين خجولة فضولية، وقد جلستا على ركبتيهما برزانة قرب الحائط في عش من الأرائك. وفكر في نفسه «هاتان الترغلتان ليستا قبيحتين أيضاً». لكن سليقة الداهية قالت:

ـ لم تنظر هكذا؟ يا عزيزي.

ـ...أعجب لرؤية كل هذه المصابيح المضاءة في الخارج، قال الشجاع يوسف متلعثماً. لم لا نتجول قليلاً في هذه الجنة؟

ـ كما ترغب، وسأصحبك فيها.

ـ فلتنضم إلينا إذن هاتان الصغيرتان...

وأشار إلى جادا وفاطمة الصغيرة.

ـ إذهب معهما إن كنت تفضل رفقتهما. سأنتظر هنا.

أخافته بعض الشيء قساوة الملامة التي حملتها تلك الكلمات.

ـ لم أفكر في أمر سيء، قال، إنما أشفقت فقط من أن نتركهما وحدهما في ركنهما، هذا كل ما في الأمر.

ـ اسكت. لقد فضحت نفسك. وها أنت الآن قد سئمتني!...

ـ أُشهد الأنبياء والشهداء أني لا أكذب!

ـ أنت في الفردوس وتجدف؟

فأجاب وقد شق عليه تبرئة نفسه:

ـ إن كنت ياسليقة لا تريدين أن تصدقينني، فأنت حرة في ذلك. لكن بما أنك تصرين على ذلك كثيراً، فسأتبعك، وهما ستفعلان ما تريدان.

وتلألأت ابتسامة نصر عبر الدموع التي ترقرقت في عيني الصبية الغيورة. التفتت نحو الصبيتين المنعزلتين وقالت لهما:

ـ بإمكانكما أن تتبعانا، حتى تكونا تحت تصرفنا إن بدرت حاجة

إليكما. ولما أصبحا في الخارج، رفع يوسف عينيه نحو الأنوار الغريبة التي أضاءت الجنينة.

ـ ما من أحد سيصدقني في آلموت، حينما سأقول ما رأته عيناي! قال وهو يهز رأسه.

ـ ألهذا الحد لا يثقون بك؟ يا يوسفي الطيب.

ـ لايقلقنك هذا. فمن سيشكك في كلامي سيرى رأسه مطاحاً به!

سارا متشابكي الأيدي في الدروب المعطرة بعبق الأزهار الليلي. وتبعتهما المجموعة الصغيرة من الفتيات الأخريات عن مسافة معقولة، وهن بين ترقب وتشوق.

ـ يا له من ليل ساحر! تنهدت جادا. ألسنا حقاً في الجنة؟

ـ تخيلي إذن مايحدث في نفس يوسف، وهو الذي يصدق حقاً بأنه فيها! قالت رقية.

ـ هل ستشعرين بالثقة مثله إن وجدت نفسك منقولة بنفس الطريقة، دون أن تفهمي ما الذي جرى لك، إلى قلب هذه الحدائق؟ سألتها أسما.

ـ لا أدري... لولم أكن عرفت العالم، ربما.

ـ إن سيدنا يملك في الحقيقة قوة غريبة. أتعتقدين حقاً أن الله هو الذي أمده بالعون ليهيء هذه الجنائن؟

ـ لو كنت مكانك، لما تجرأت على طرح مثل هذا النوع من الأسئلة، يا صغيرتي أسما. لا تنسي أبداً أنه سيد قادر على كل شيء، وربما ساحر، ومن الممكن أن يكون في هذه اللحظة بالذات، منصتاً لحديثنا.

ـ إنك تخيفينني، يا رقية ـ وتكورت الصبية الخائفة مختلجة بين ذراعي صديقتها.

بيد أن يوسف وعلى بعد خطوات منهن كان يسرّ إلى سليقة بفكرة تؤرقه:

ـ أراد سيدنا أن يفتح لي باب الجنة هذه الليلة. أتعتقدين أنه سيوافق على أن يأذن لي بهذا مرة أخرى؟

ارتعدت سليقة. ماذا ستجيبه؟

ـ لا أعلم. لكن ما أعلمه على وجه اليقين، أنك عندما ستغادر الدنيا دون رجعة إليها، ستكون سيدنا وسنكون في خدمتك على الدوام.

لم تخفف تلك الكلمات من قلقه. وضم الفتاة إليه بنزق فظ.

ـ أتتألم إلى هذا الحد من مفارقتنا؟

ـ ألمي مريع.

ـ هل ستفكر فيّ؟

ـ لن أنساك أبداً.

وتبادلا قبلة طويلة. وما لبثت برودة الليل أن أرجفتهما فقررا العودة أدراجهما. كان البرد قد أزال سكر يوسف. فعاد إلى الشرب بإفراط وقد شعر أن الخمر يمده بالشجاعة. وبينما كانت سليقة منشغلة في صب المشروب الأحمر، جذب جادا إليه وأخذ يقبلها.

ـ هل ستكونين أنت أيضاً لي، سألها، حينما أعود لأستقر عندكم على الدوام؟

وعوضاً عن الإجابة، أحاطت عنقه بيديها الصغيرتين. كان الخمر قد أمدها، هي أيضاً، بالشجاعة. لكن ها هي سليقة تعود إلى رفيقها، وقد التمعت شعلة غضب في عينيها. وفي الحال ابتعدت جادا وأخذ يوسف يضحك ضحكة مضطربة.

ـ كان ذلك دعابة وحسب... حاول أن يبرئ نفسه.

ـ لا فائدة من الكذب! لقد كشفتك في الوقت المناسب!

وقام بحركة كأنه يعانقها.

ـ دعني واذهب إلى حيث يدعوك قلبك!

وأدارت فجأة ظهرها له. لكنها لمحت في تلك اللحظة خلف الزجاج وجه أباما التي كانت تراقبها بعين شريرة. وتوارت سريعاً، لكن البرهة الخاطفة التي رأتها فيها، كانت كافية لترد سليقة إلى صوابها. استدارت من جديد لتكون بين ذراعي عاشقها.

ـ يوسف، يوسف! أنت تعلم أنك سيدنا... سيدنا جميعاً! إنما أردت المزاح معك وحسب.

أمسكت بيده وجذبته بلطف نحو صاحباتها:

ـ أنت ملك هنا، إخترْ كما يحلو لك.

حينئذ هرولن جميعهن نحوه واجتهدن في إسكاره بالخمر والمداعبات. كان قلب الفتى يطفح بفخر لا يقل عن المتعة التي أحسها. أجل، كان سيد أولئك الحسناوات الثماني وأميرهن، إنهن ملك يمينه جسداً وروحاً، كذلك هذه المقصورة الأسطورية، وجنان الأحلام تلك كلها له... وعاودته من حين لآخر تلك الفكرة المنكدة عن الوقت الذي سينقضي، وعن الوداع القريب... لكن جرة خمر جديدة ما لبثت أن بددت كل هم.

في نهاية المطاف، دوت الإشارة وهرعت سليقة لتعدّ شراب النسيان. كانت يدها ترتعش حينما أسقطت القرص المشؤوم في الكأس. ولما رأينها، تنهدت جادة تنهيدة مخنوقة وخبأت فاطمة عينيها خلف يديها. أفرغ الشجاع يوسف هذه الكأس مثل الكؤوس الأخرى، دون أن يرتاب في مقصد خفي. وصرعه المخدر على حين غرة. وغطته الفتيات وهن يرتجفن. وهبت نسمة باردة فوق رؤوسهن، وبدا لهن أن النور قد بدأ يخفت فجأة.

في أعلى البرج، كان أبو علي لا يزال يبوح بضروب حيرته... وأخيراً جزم مخاطباً الحسن:

ـ إني لا أتبين على أي حال النتائج التي تتأمل بلوغها بوساطة حشاشيك، هذا إن نجحت تجربتك هذا المساء. أتفكر حقاً أن تبني بهم قوة وسلطان مؤسستك؟

ـ دون أدنى شك. لقد درست عن كثب مختلف الأنظمة السياسية التي ضربها التاريخ لنا مثلاً. ووازنت بين حسناتها وسيئاتها. وكان على الدوام المكان والزمان العقبتين الأساسيتين في وجه ازدهار الإمبراطوريات. لقد جاب الإسكندر المقدوني بجيوشه نصف العالم وأخضعه. لكنه وحين يبلغ قمة مجده، فاجأه الموت. وبسط أباطرة روما سيطرتهم جيلاً إثر جيل. واحتلوا كل شبر من الأرض بحد السيف.

وحين لم يعوّقهم المكان، فإن الزمان هو الذي قص أجنحتهم. وكان لدى محمد وخلفائه الكثير من الوسائل. فبعثوا إلى العدو دعاة مهمتهم إخضاع النفوس. فأضحت المناوأة التي كان عليهم إخمادها ضعيفة إلى حد كبير، فسقطت البلاد بأيديهم مثل الثمر الناضج. لكن، وحيثما كانت النفوس قوية، عند المسيحيين مثلاً، فإن غاراتهم تكسرت. أما الكنيسة الكاثوليكية فقد دشنت في الحقيقة نظاماً أكثر رسوخاً. فتبوؤ السلطة لا يرتبط عندها بالأصل ولا بصلة القربى، كما هو الحال عند الخلفاء المسلمين لسوء الحظ، وإنما يعتمد فقط على الرقي الروحي للشخص المعني. والعقل الأكثر جرأة وحده يمكن أن يترقى حتى يصل القمة. ومن جهة أخرى، فإن الإيمان بقيم العقل يوحد جماعة أتباع الصليب في كيان بالغ المنعة(*). وهكذا تبدو تلك الكنيسة وقد خلصت نفسها من عبودية الزمان. لكنها تخضع للمكان دوماً. فالأرض التي لاتحمل نفوذاً لها، لاسلطة لها عليها. ويجب أن تأخذ بحسابها هذا الأمر، وأن تتباحث وتتحالف مع خصومها، وتبحث عن حلفاء أقوياء... أما أنا فقد تخيلت مؤسسة ستتمتع وحدها بقوة لا تحتاج فيها إلى أي حليف. فحتى يومنا هذا يتقاتل الحكام بجيوشهم. وبتلك الجيوش احتلوا أراض جديدة ورضخوا لخصوم أشداء. وفي سبيل كل شبر من الأرض، يسقط آلاف الجنود صرعى... حتى أن الحكام نادراً ما خافوا على رؤوسهم. ولهذا فإليهم بالضبط نرصد ضرباتنا! فعندما يُقطع الرأس، يتهاوى الجسد. والحاكم الذي يعلم أنه يخاطر برأسه يقدم تنازلات بسهولة أكبر. وعلى هذا، فالسيادة ستكون لذاك الذي يقبض على كل ملوك العالم مكبلين بسلاسل الخوف. إلا أن الخوف وليكون فعالاً ينبغي استخدام وسائل ناجعة. فالحكام في حصن حصين، وحياتهم في مأمن. وما من كائن يستطيع تهديدهم إلا الذي لا يهاب الموت وحسب بل ويسعى إليه في ظروف صعبة كتلك الظروف بالذات. إن تربية مثل تلك الكائنات، هي ما تصبو إليه تجربتنا هذا اليوم. نريد أن نصنع منهم خناجر حية، تخضع لنا بإشارة واحدة

(*) نحن في عام 1092 وبعد ثلاث سنوات، دعا البابا أوربانوس الثاني إلى إطلاق الحملة الصليبية الأولى.

وكذلك الزمان والمكان. خناجر تنشر الخوف والرجفة في كل مكان: ليس بين جموع الناس وحسب، وإنما بين الهامات المتوّجة والمعطرة. فليصعق خوف قاتل أولئك الجبارين الذين يريدون الوقوف في وجهنا...

أعقب صمت طويل تلك الكلمات. ولم يجرؤ الداعيان الكبيران على النظر إلى الحسن ولا إلى بعضهما بعضاً. وأخيراً كان بوزروك أوميد هو الذي قرر الكلام:

ـ كل ما قلته لنا آنفاً يا ابن الصباح، شديد الوضوح والبساطة، لكنه في الوقت نفسه غريب أشد الغرابة ومرعب حتى ليبدو لي أن خطتك لا يمكن أن تكون ثمرة عقل إنساني، أقصد عقل شكلته القوانين الواقعية لهذا العالم المألوف لدينا. إني بالأحرى أعزو تلك الخطة إلى أحد أولئك الحالمين الكئيبين الذين يستبدلون بأحلامهم الواقع.

ابتسم الحسن.

ـ أشعر أنك أنت أيضاً تحسبني مجنوناً، كما فعل أبو الفضل سابقاً. وهذا لأنك لم تستشف الواقع إلا عبر دروب ممهدة سلكتها. وعلى النقيض، كم ينبغي أن يبدو لنا أكثر واقعية ذاك الذي يأتي بخطة لم تجرب على الإطلاق قبلاً، ومع ذلك يحققها على أرض الواقع. وهكذا فالنبي محمد، ما دمنا نستشهد به، كان في بداياته، عرضة لسخرية جميع من حوله: ولم يجدوا فيه، حينما حكى لهم عن مقاصده، إلا حالماً شبه مجنون. بيد أن النجاح الأخير لمشروعه أظهر أن حساباته وحدها هي التي كانت واقعية... وليست اعتراضات المتشككين. أجل، وأنا أيضاً أنوي أن أخضع مخططي لامتحان الوقائع!

ـ قد لا يكون هنالك عيب في نتائجك إن تم التأكد من أن فدائييك سيحتملون بالفعل التبدل الذي حلمت به، قال أبو علي. لكن كيف ستجعلني أصدق أن حياً يمكن أن يتوق إلى الموت، معتقداً اعتقاداً صلباً كالحديد أن الجنة في انتظاره في العالم الآخر؟

ـ إن فرضيتي لا تقوم فقط على معرفة النفس البشرية، وإنما أيضاً على دراسة الآليات التي تحكم أجسادنا. لقد طويت أكثر من نصف العالم على حصان، أو بغل، أو على ظهر جمل، وسافرت أيضاً

مشياً على قدمي وركبت البحار؛ عرفت أعداداً لا تحصى من الناس، عاداتهم وأعرافهم. بإمكاني القول أني اكتسبت حتى هذا اليوم تجربة ضمت كل النشاطات التي يسر لها المرء. حتى أني أستطيع أن أؤكد أن الآلة البشرية بكل ما فيها من جسد وروح، هي أمامي مثل كتاب مفتوح. وعندما سيستيقظ الفدائيون في آلموت، سيبدؤون بالتحسر لأنهم ليسوا في الجنة. وسيهدؤون من لوعة حسراتهم حينما يقصون على رفاقهم ما شاهدوه. وفي أثناء ذلك يفعل سم الخشخاش فعله في أجسادهم ويبعث فيهم رغبة لا تقهر في معاودة تعاطيه مجدداً. وسترتبط هذه الرغبة ارتباطاً وثيقاً في عقولهم بتصور النعيم الذي سيتذوقونه في «فردوسي». ومن جديد سيبصرون في خيالهم الصبايا المحبوبات وستضنيهم الرغبة. وفي عروقهم سيتجدد نسغ الحب، موقظاً هوى يقارب الجنون فيهم. وهذه الحال تصبح شيئاً غير محتمل بالنسبة لهم. وستعدي قصصهم وأشباح خيالهم كل من يحيط بهم. كما سيعمي عقولهم هيجان دمهم. لا يفكرون، ولا يدركون، وإنما فقط يتحرقون من الرغبة. لذا سنخفف عنهم ما يعانون حينما يحين الوقت: سنعهد إليهم بمهمة ونعدهم بفتح بوابة الجنة لهم في الحال إن هم انجزوها وقدموا لها حياتهم. وهكذا سيسعون إلى الموت ويهلكون وابتسامة غبطة فوق شفاههم...

في تلك اللحظة، ظهر خصي على السطح وأقبل ليمثل بين يدي الحسن ويقول:

ـ سيدنا! إن أباما ترجوك المجيء على الفور إلى الجنائن الوسطى.

ـ حسناً.

وابتعد الحسن مسرعاً. وبعد قليل عاد. وأسرّ لهما بصوت مرتعش:

ـ يبدو أن شيئاً ما لايسير على ما يرام مع ابن طاهر. انتظراني هنا.

تدثر برداءه، وانطلق إلى المعبر الخفي الذي انتهى به إلى أسفل البرج.

الفصل الثاني عشر

استقبل صمت كصمت القبر الخصيان الذين جلبوا جسد ابن طاهر. و ضعوه دون أن يهمسوا بكلمة، وبالوقار ذاته، وكما لو أنهم أطياف أرواح مشؤومة قادمة من العالم الآخر، تواروا عائدين ثانية بالمحفة الفارغة.

لاذت صفية بخديجة، محدقة بنظرات مذعورة في الهيئة الساكنة التي كان الغطاء الأسود يشي بتفاصيلها. وجلست الفتيات الأخريات حول البركة وكأنهن تحجرن هن ايضاً. أما مريم فقد جثت فوق مايشبه المنصة، مستندة إلى قيثارها ومحدقة أمامها بعينين شاردتين. لقد استعرّ الآن ألمها. هذا هو إذن الحسن الذي يحرص عليها حرصاً تافهاً بحيث يرسل إليها عاشقاً! لقد أدركت نفسها: غشته دون علم منها، وأحبته أكثر. لكنها اليوم تكرهه، أجل، ينبغي أن تكرهه. وتكره في ذات الوقت هذا الفتى المجهول، هذا الكائن النائم، الساذج، الذي عهد إليها الاهتمام به هذا المساء. عليها بجمالها ومكرها أن تخدعه، حتى أن تجعله يصدق أنه في الجنة! كم تزدري نفسها!

اهتز الجسد تحت الغطاء. وحبست الفتيات أنفاسهن.

- روخانا، اكشفي عنه الغطاء!

كان صوت مريم ممتعضاً وجافاً.

أطاعت روخانا لكن حركاتها كانت مترددة. وإذا بقسمات وجه ابن طاهر تفاجئهن: خدود ناعمة بالكاد ظللها شعر خفيف، وملامح

هي أقرب إلى وجه صبي. وقد انزلق طربوشه الأبيض عن رأسه، كاشفاً عن شعر كثّ، قُص قصيراً. وأحاطت أهداب طويلة بجفونه، وبدت شفاهه نضرة وقد تغضنت تغضناً خفيفاً.

ـ هذا هو إذن ابن طاهر الشاعر! غمغمت خديجة.

ـ... لكنه هو الذي قلع من أيدي الأتراك رايتهم، أضافت سيت.

ـ إنه لفتى وسيم، قالت صفية.

أقبلت مريم بدورها تتأمل النائم. وارتسمت ابتسامة على وجهها: لم تكن على هذا النحو تتصور ضحيتها. هذا هو إذن البطل الشاعر! وجدت ذلك غريباً: «إنه فعلاً ما يزال صبياً»، فكرت في نفسها. إلا أنها شعرت بشيء من الارتياح. هل ستفلح رغم ذلك في إقناعه أنه في الجنة؟ هذا السؤال أرعش قلبها. والحق يقال، أن المهمة التي عهد بها الحسن إليها قد حيرتها كثيراً. لا ريب أن سيدهن يريد أن يظهر نفسه محاطاً بهالة من الغموض! ما من شك أن ليس فيه شيء من السحرة. وقد تكون مشاريعه حمقاء أو مفعمة بعظمة قاتمة. لكنه اليوم أدار الآلة. وهي فيها أحد الدواليب الهامة. أليس في ذلك علامة على الثقة؟ أليست تفاهتها هي التي حالت دون انخراطها في مشاريع هذا الرجل الفريد المولع على الدوام بالرهان الكبير؟ حري بها أن تفكر في ذلك جيداً، إذ ربما أعطاها الحسن فرصة لن تسنح مرة أخرى في الحياة. لكن هذه الفرصة هل يمكن أن تقدم لها شيئاً آخر سوى مغامرة تبعث على السخرية... وخطرة أيضاً؟

وبدا على صاحباتها أنهن هن أيضاً قد تحررن من عبء ثقيل. وحتى صفية الحيية، صاحت:

ـ ليس بأمر صعب اصطحاب هذا إلى جنان الله!

وانطلقت مريم تعزف على قيثارها.

ـ هيا! حان وقت الغناء والرقص! وانبسطت الأسارير في الحال. تناولن ناياتهن وطبلاتهن، وسقطت الأوشحة، كاشفة عن أجساد فتية بأطراف رشيقة. كم منظرهن رائع هكذا! فكرت مريم، ولانت أخيراً

لتبتسم لهن وقد أبصرتهن يحاولن تجربة حركات وتعابير إغواء عديدة، كما لو أن الضيف الغريب يراقبهن فعلاً.

ـ لن يستيقظ عما قريب، قالت سيت اللطيفة، خائبة، وقد طرحت عنها جانباً جلاجلها وطبلتها.

ـ انضحن عليه الماء! اقترحت روخانا.

ـ أمجنونة أنت! لامتها خديجة. أترين في هذا طريقة مناسبة لدخول الجنة! فنصحتهن مريم قائلة:

ـ تابعن بالأحرى الرقص والغناء. وسأحاول أن أساعده على أن يسترد وعيه.

ركعت بالقرب منه وأخذت تتفحص وجهه. كانت ملامحه بريئة وحتى أنها تحمل شيئاً من النبل. لمست لمساً خفيفاً كتفه وشعرت به يختلج. همهم ببعض الكلمات التي لم تستطع فهمها، وتأرجحت مشاعرها بين خوف وفضول. ماذا سيفعل عندما يكتشف هذا المكان المجهول؟

نادته باسمه بصوت هامس. فرفع رأسه حالاً وجلس على سريره وهو يفرك عينيه، وألقى حوله نظرة حائرة.

ـ ما هذا كله؟...

كان صوته خائفاً ومرتعشاً.

توقفت الصبايا عن الغناء والرقص، وبدا على ملامحهن مجدداً توتر شديد. وسرعان ما تمالكت مريم نفسها.

ـ أنت في الجنة، يا ابن طاهر.

أخذ يحملق في ما حوله، ثم تهاوى رأسه من جديد فوق الوسائد.

ـ إني أحلم، تمتم.

ـ هل سمعتن، همست خديجة مذعورة. إنه يأبى أن يصدق ذلك...

لكن ما فكرت به مريم كان على النقيض، فبداية كتلك هي بالأحرى مشجعة. لمست كتفه مرة أخرى ودعته مجدداً باسمه.

تعلقت نظرات الفتى بوجه مريم، وشفتاه ترتجفان، وعيناه غارقتان في دهشة أقرب ما تكون إلى دهشة الفزع. تأمل جسده،

تفحص بقسمات مرتابة الغرفة حوله. ثم مرر يديه على عينيه. كان وجهه شاحباً كالشمع. وقال متلعثماً:

ـ لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً. هذا ضرب من الجنون... أو خديعة ما!...

ـ ابن طاهر جاحد! أعلى هذا النحو ترد جميل ثقة سيدنا؟

وأحاطته مريم بابتسامة عتاب رقيقة. نهض وأخذ يتفحص على نحو مضطرب الأغراض المحيطة به. اقترب من الحائط ولمسه، مشى إلى البركة، وبلل إصبعه بالماء. ثم ألقى على الفتيات نظرة هلع وعاد نحو مريم.

ـ أنا لا أفهم، قال ورعشة في صوته. طلبنا سيدنا هذه الليلة ودعانا لتناول أنواع من الملبس ذات طعم متميز، فهي مرة وحلوة في آن معاً. بعد ذلك غفوت وحلمت أحلاماً كثيرة غريبة. وها أنا أستفيق في هذا المكان... ماذا يوجد هناك في الخارج؟

ـ إنها الجنان: أنت تعرفها، فأنت قرأت القرآن.

ـ أود زيارتها...

ـ سآخذك إليها. لكن ألا تريد أولاً الاستحمام وتناول شيء ما؟

ـ سنفعل ذلك لاحقاً. ينبغي أولاً أن أعرف أين أنا.

مشى نحو الباب وأزاح الستارة. أخذته مريم من يده، وسبقته في الممشى. ولما وصل إلى أعلى الدرج الذي يفضي إلى السطح، توقف ولم يستطع أن يحبس صيحة ندت عنه وهو يبصر الجنائن المضاءة أمامه:

ـ ياللمشهد العجيب! لا بد أننا بعيدون جداً عن آلموت!... لا أعلم أن هناك ما يشابه هذا في بلادنا. لا بد أني نمت وقتاً طويلاً، حتى وجدت نفسي وقد نقلت إلى أبعد مكان!

ـ ألا تخشى أن تكون كلماتك تلك تحمل الكفر يا ابن طاهر؟ ألا تريد التصديق بأنك في الجنة؟ إن مائة ألف فرسخ تفصلك عن عالمك. ومع ذلك وحينما ستستيقظ مجدداً في آلموت لن يكون قد انقضى سوى ليل واحد.

نظر إليها متمعناً. ومن جديد أخذ يتفحص كل جسده.

ـ إني أحلم إذن!... وقد لا تكون هذه المرة الأولى التي أعتقد فيها ، أنا أحلم بحقيقة وهم إلى هذه الدرجة... ولا زلت أذكر، وأنا أعيش ، منزل والدي، يوم فتحت جرة مملوءة بالقطع الذهبية. وفكرت آنئذ ، ائلاً في نفسي: لقد حلمت كثيراً باكتشاف كنز، لكن هذه المرة، لا ، جال للشك أبداً، هذه السعادة أصبحت حقيقة واقعة! هززت الجرة ، أسقطت ما فيها من قطع ذهبية وشرعت أعدها ضاحكاً من صميم ، ابي. «يا الله! هذا ليس بحلم!» صحت. وفي تلك اللحظة بالذات هببت ، نومي مستيقظاً. لم تكن مغامرتي إلا مجرد حلم... ويسهل عليك ، يل مدى خيبة أملي. ولذا من الأفضل ألا أستسلم كثيراً للأوهام. إن هذا الحلم هو بحق حلم مذهل، ذو وضوح وتميز عجيبين، لكنه على الأرجح من تأثير ملبس سيدنا. وأنا لا أرغب أن يخيب أملي كثيراً ، ينما أصحو من النوم.

ـ أتظن حقاً، يا ابن طاهر، أني لست إلا مجرد خيال في أحلامك؟ ، لك أن تصحو! انظر إلي، المسني!

أخذت يده وجعلتها تنزلق فوق أعطاف جسدها الفاتن.

ـ ألا تشعر أني كائن حي، مثلك؟

ثم أمسكت رأس الفتى بين يديها، ونظرت في أعماق عينيه ، ، تعش.

ـ من أنت؟ سأل بصوت مازال شكٌّ يخالطه.

ـ أنا مريم، حورية الجنة.

هز رأسه وقرر أخيراً أن ينزل الدرج. شرد لبرهة طويلة تحت المصابيح الملونة التي كانت تحوم حولها فراشات الليل والخفافيش. ، ، تشابكت على طول الممر نباتات غريبة... وأزهار وفاكهة لم ير ، ، لا لها.

ـ يا لها من أشياء ساحرة، تمتم. أجل، إنه فعلاً بلد أحلام...

كانت مريم تمشي إلى جانبه.

ـ ألم تؤب بعد إلى صوابك؟ حاول أن تفهم أنك لست على الأرض، ، انا في الجنة.

ثم إذا بموسيقا وأغان تصدح في الليل: بدا ذلك قادماً من المقصورة. توقف ابن طاهر وأصغى السمع. ثم قال:

ـ تبدو هذه الأصوات دنيوية تماماً، وأنت أيضاً، لك صفات لا تختلف عن صفات البشر. فكيف يمكنني أن أتخيل أننا في الفردوس!

ـ أحقاً تجهل القرآن إلى هذا الحد؟ يذكر الكتاب أن عجائب الجنة ستكون على صورة أنواع الجمال في الدنيا، وذلك لكي يشعر المؤمنون كما لو أنهم عادوا إلى مساكنهم؟ مم تندهش إذن، مادام إيمانك صحيحاً؟

ـ وكيف لا أندهش؟ وهل يستطيع كائن حي، إنسان من لحم وعظم أن يدخل الجنة!

ـ أتدعي أن النبي محمد قد يكون كاذباً؟

ـ أعوذ بالله من أفكار كتلك!

ـ ألم يأتِ هو نفسه إلى هذا المكان بعد إقامته على الأرض؟ ألم يمثل بجسده أمام الله؟ ألم يقل إنه في يوم الحساب سيلتقي اللحم والعظم معاً؟ كيف تود تناول الأطباق والخمور المقدمة لك هنا والتمتع بالحوريات إن لم تكن شفاهك شفاهاً حقيقية، وجسدك جسداً حقيقياً؟

ـ لا ينبغي لهذا الثواب أن يكون من نصيبنا إلا بعد الموت.

ـ أتظن أن الله سيأخذك إلى الجنة بسهولة أكبر حينما تفارق الحياة.

ـ لا. ولكن ذلك ما هو مكتوب.

ـ ومكتوب أيضاً أن الله أعطى سيدنا المفتاح الذي يمكن أن يفتح بوابة هذه الجنان لمن يريد. أتشكك بذلك؟

ـ إني فتى أحمق! لن أفتأ أقنع نفسي بأني أعيش حلماً جميلاً. لكن كل ذلك، ومحادثتي معك، مظهرك، الجو، كل شيء ينبض بالحياة إلى حد أني أشعر بأني مستعد للاستسلام للوهم... وحتى للاستسلام للأمل: شرط ألا يكون هذا الوهم شيئاً آخر!

فكرت مريم في نفسها: «يا لها من لعبة معقدة».

ـ أتكتفي بالأمل... هذا يعني أنك لم تكن مؤمناً. يا ابن طاهر! إن مكابرتك لتذهلني. انظر إلي ثانية جيداً!

كانا يقفان تحت مصباح رسم عليه رأس نمر، بشدق مفتوح، وعينان تلمعان. كان ابن طاهر يتأمل تارة الزينة المبرقشة، وتارة أخرى وجه الصبية. وفجأة أحس بعبق جسدها المعطر. وإذا بفكرة جديدة ومجنونة تجتاحه. لا بد أن أحداً يسخر منه.

ـ هذه لعبة شيطانية!

ولمعت عيناه ببريق ينم عن تصميم متوحش.

ـ أين هو سيفي؟

وأمسك بكتفي مريم بغضب شديد.

ـ اعترفي، يا امرأة، بأن هذا كله إن هو إلا خديعة شائنة.

وترامى لسمعه، على بعد خطوتين منه، صرير حصى الممر، وإذا بشكل قاتم ينقض عليه ساحباً إياه بعنف إلى الأرض. وأبصر فوقه، وقد ألجمه الخوف، عينين خضراوين شرستين.

ـ أهريمان!

وأمسكت مريم الفهد وأطلقت الفتى المسكين.

ـ أتصدقني الآن؟ لقد كدت أن تفقد حياتك.

لبد الحيوان المروض عند قدمي الصبية. ونهض ابن طاهر. إن موقفاً كهذا حري أن يوقظه إن كان في حلم. أيعني هذا أن مغامرته حقيقية؟ لكن أين هو على وجه الدقة؟ نظر إلى صاحبته التي انحنت على الوحش الغريب ذي القوائم الطويلة. واستسلم الحيوان بظهره الجسيم لملاطفتها وأخذ يموء بود عميق.

ـ لا مكان للعنف بين أصحاب الجنة، يا ابن طاهر! ضحكت ضحكة عذبة، لامست شغاف قلب الفتى. ثم ماذا يهم إن كان ضحية وهم! وماذا يهم إن كان يحلم حلماً عليه أن يصحو منه يوماً ما! فما يعيشه الآن أمر عادي، أمر معجز ورائع: وهل يهم كثيراً أن يكون حقيقياً؟ إن مشاعره حقيقية، وهذا بالنسبة إليه الأمر الجوهري. قد جانبه الصواب حول حقيقة الأشياء. لكن حقيقة مشاعره وأفكاره لن [illegible]ه عنها.

نظر حوله. إلى الأفق البعيد، إلى أبعد ظل في ظلام الليل، بدت له كتلة قاتمة شاهقة نحو السماء، كأنها أحد الحصون الهائلة.

كانت تلك آلموت.

وضع يديه أمام عينيه ليحجب عنهما النور وأخذت نظراته تحاول شق الظلمة.

- ما هو إذن هذا الشكل الأسود المنتصب هناك كأنه جدار في السماء؟

- إنه سور الأعراف، الذي يفصل بين الجنة والنار.

- أمر معجز لم أسمع به! تمتم. يبدو لي أني أرى ظلاً يتحرك في الأعلى.

- لا بد أنه ظل أحد أولئك الأبطال الذين سقطوا وهم يقاتلون في سبيل الدين الحق، لكن حظهم العاثر أنهم ذهبوا إلى المعركة دون رضى أبويهم. والآن، هم ينظرون إلى جناننا راغبين. ولا يستطيعون أن يأتوا إلينا لأنهم عصوا الوصية الرابعة لله. وكذلك الجحيم ليس من نصيبهم، لأنهم ماتوا شهداء. ولهذا أُتيح لهم تأمل ما يجري على جانبي هذه الحدود التي لا يمكن تجاوزها. نحن مبتهجون، وهم يعرفون ذلك.

- أين هو إذن عرش الله، أين أمارة رحمته الواسعة، أين هم الأنبياء والشهداء؟

- لا تتخيل الجنة على صورة أحد أقاليم الدنيا، يا ابن طاهر. فأبعادها تفوق كل حد. إنها تبدأ هناك، عند سفح الأعراف، وتمتد بعدئذ عبر مناطق لا متناهية، وصولاً إلى الطوق الأخير، الأكثر ارتفاعاً. والنبي محمد وسيدنا وحدهما من بين الأحياء جميعاً من بوسعهما الوصول إليه. أما أنتم أيها المصطفون البسطاء، فإن الجزء الابتدائي هو الذي منح لكم.

- أين يوسف وسليمان؟

- هما أيضاً عند سفح الأعراف. لكن جنانهما بعيدة عن هنا.

وغداً، في آلموت، سيكون لديكم الوقت لتقصوا على بعضكم بعضاً مغامراتكم وتتبادلوا الآراء.

- نعم، هذا إن أمهلني تلهفي.

ابتسمت مريم.

- إن كان الفضول يعذبك، فما عليك إلا أن تسألني.

- أخبريني إذن من أين حصلت على معرفتك تلك؟

- كل حورية خلقت على نحو خاص، ولغايات محددة. والله وهبني العلم والمقدرة على طمأنة المؤمن المستقيم الذي يعذبه هوى الحقيقة.

- أنا أحلم، أنا أحلم... همهم ابن طاهر. بيد أن ما من حقيقة أكثر وضوحاً من هذا الحلم. كل ما أراه، وكل ما قصته علي هذه الرؤية الرائعة يتوافق توافقاً تاماً. خلافاً لما يحدث في الأحلام العادية، التي ليست في الغالب إلا إبهاماً وخليطاً متنافراً. لكن ماذا لو أن هذا كله ما هو إلا ثمرة حذق فائق من سيدنا!...

كانت مريم تسمع ما يفكر به الفتى.

- إنك يا ابن طاهر لعصي عن الإصلاح، أتظن حقاً أن عقلك البائس يستطيع أن يحيط بكل أسرار الكون؟ آه! كم من أشياء تظل محجوبة عن عينيك! لكن لندع هذا الجدال جانباً. فقد حان وقت العودة إلى حوريات يتشوقن لرؤية ضيفهن الغالي...

أطلقت أهريمان وأبعدته نحو الأدغال. ثم أمسكت بيد ابن طاهر وشدته راكضة حتى وصلا إلى المقصورة.

وعند أسفل الدرج، سمعت صفيراً ناعماً من مكان غير بعيد. لا بد أنها أباما، كانت تصغي وتريد الآن أن تكلمها. صحبت ابن طاهر إلى القاعة الرحبة المزججة ودفعته برفق نحو الصبايا.

- إليكن هذا الفتى! قالت، وتوارت بعدئذ على عجل.

كانت أباما في انتظارها عند نهاية الممر.

- يبدو أنك ترغبين بالمخاطرة برأسك! أهكذا تنفذين أوامر سيدنا! بدلاً من أن تسكريه وتفقديه صوابه، تبيحين لنفسك الانجرار إلى

الكلام معه عن الله، وعن الجنة وأشياء أخرى أعرفها، بينما هو في أتم قواه!

- لي عقل في رأسي وأستطيع وحدي أن أقدر ما يجب فعله.

- أهكذا إذن؟ أتحسبين أن بإمكانك فتنة رجل بخداعك إياه على هذا النحو؟ ألم تتعلمي شيئاً مني؟ وما نفع شفاهك الوردية إذن، وذراعيك البيضاوين الرائعتين؟

- الأجدر أن تبتعدي يا أباما. فقد يراك ويضيع بالتالي تصديقه الهش بأنه في جنتنا.

لكن أباما ودت لو تنهشها بنظراتها.

- يالك من عاهرة! فلتجازفي بحياتك إن كان هذا يلائمك. وواجبي أنا أن أعرض الأمر على سيدنا. انتظري وحسب!

واختفت في ظلال الأدغال، وعادت مريم مسرعة لتنضم إلى الأخريات داخل المقصورة.

كانت الفتيات وقد انتهزن غيابها هي وابن طاهر، قد تذوقن نذراً يسيراً من عصير الجرار. ورقصن وغنين وسررن سروراً عظيماً. ثم ما لبثن أن جذبن ابن طاهر إلى دائرتهن ودعونه إلى شرب الخمر وتناول الأطباق الشهية المحضرة على شرفه.

ولما عادت مريم، التزمن الصمت جميعاً؛ فقد لاحظن الامتعاض الواضح على وجهها وخشين أن يكنّ هن السبب. فبادرت إلى طمأنتهن قائلة:

- ينبغي أولاً أن يرتاح ضيفنا من تعبه الدنيوي. كن في خدمته وساعدنه على الاستحمام.

لكن ابن طاهر رفض رفضاً قاطعاً.

- لن أستحم بوجود هؤلاء النسوة.

- أنت سيدنا وسنفعل ما تأمرنا به.

دعت مريم الفتيات إلى اللحاق بها إلى خارج القاعة. ولما اطمأن ابن طاهر إلى أن ما من أحد يمكن أن يراه، قفز من سريره، وأمسك

بالوسائد، متفحصاً إياها ومنقباً تحتها. ثم اقترب من المنضدة الصغيرة المملوءة بالمآكل، تلمس قطعة من الفاكهة،ثم أتبعها بأخرى. كان هنالك فاكهة كثيرة لم يرها طيلة حياته. وأخذ يعتصر ذاكرته بحثاً عن أوصافها. ثم اقترب من السجاد الذي كان يغطي الجدران ونظر وراءه. لكنه لم يعثر على شيء يمكن أن ينبئه بالمكان الذي هو فيه. فاستولى عليه خوف مبهم. ماذا لو أنه فعلاً في الجنة؟ كل ما يحيط به يفوح منه عبق الغموض والمجهول. لا، إن وادياً بهذه الخصوبة، وجناناً مليئة بتلك الأزهار الغريبة، وثماراً لا تنضجها إلا المناخات النائية... حتماً كل هذا لا يمكن أن يظهر في منطقة جبلية قاحلة كتلك التي تحيط بآلموت. هل هذه الليلة نفسها التي استدعي فيها ليمثل بين يدي القائد الأعلى؟ وإن كان كذلك، فليس أمامه إلا احتمالان: إما أن يكون هذا الحلم الخادع الذي يراه بعينيه نتيجة الأثر العجيب للقرص الذي قدمه له سيدنا، أو أن تعاليم الإسماعيلية تعاليم صحيحة، وسيدنا يتمتع فعلاً بسلطة إرسال من يشاء إلى الجنة!

وفي حال من الحيرة والاضطراب البالغين، خلع عنه صداره وغطس في البركة.

كان الماء ممتعاً ودافئاً. تمدد على ظهره واستسلم لكسل عذب. لم يشأ مغادرة البركة، رغم أنه كان واثقاً من عودة الفتيات بين اللحظة والأخرى. وسرعان ما انزاحت ستارة المدخل وأحاط وجه إحدى الشابات المضيفات بالنافذة. ولما رأت أن ابن طاهر لم يجفل، بل ابتسم لها، قررت الدخول، وتبعتها سريعاً صاحباتها الصغيرات.

وفي سرور قالت روخانا:

- أخيراً أدرك ابن طاهر أنه هنا هو السيد!.

- عندما تريد الخروج من حمامك، ما عليك سوى أن تقول ذلك. ونحن سنحضر إليك مئزرك.

أخذن يتبارين في ملاطفته. لكن لما انضمت إليهن مريم، أحس مجدداً بانقباض صدره. طلب منشفة وملابس.

وناولته روخانا عوضاً عن صداره، ثوباً بهياً مقصباً. ولما

ارتداه وشد عليه النطاق التفت نحو المرآة. هكذا كان شكل الأمراء في اللوحات القديمة. وابتسم. لقد حدث تبدل مثير في نفسه.

جلس على ركبتيه فوق الأرائك وتهيأ لتناول طعام المأدبة، التي استهلت بصخب مرح. كانت الصبايا يخدمنه بالتناوب. وشربت مريم نخبه. واستسلمت رغماً عنها لحبور تلك اللحظات ذلك الحبور المؤنس والغريب. وفي حين أرهفت بصيرتها الكؤوس التي شربتها قبل وصول ابن طاهر، إلا أن الخمرة التي تشربها الآن أيقظت فيها إحساساً سعيداً باللامبالاة، وأحست برغبة في الحديث والضحك.

ـ أنت شاعر يا ابن طاهر، قالت وهي تبتسم ابتسامة ساحرة. لا تنكر هذا، نحن نعلم ذلك. نود سماع شيء من تأليفك. فاحمر وجهه احمراراً شديداً وقال:

ـ من أخبركن بذلك؟ إني لست بشاعر... وليس لدي شيء أقدمه لكنّ.

ـ أتريد إخفاء ذلك؟ أليس هذا تواضعاً في غير محله؟ فلتعلم أننا في انتظار رغبتك.

ـ في الحقيقة، هذا أمر لا يستحق عناء الحديث عنه. فأنا لم أدرس إلا بضعة تمارين مدرسية.

ـ أتخاف منا؟ إنما نحن مستمعات نحسن الإصغاء ونجامل في الحديث.

ـ أتتغنى أشعارك بالحب؟ أرادت خديجة أن تعرف.

ـ كيف يمكنك طرح سؤال كهذا، يا خديجة! قالت مريم. إن ابن طاهر في خدمة نبي جديد وهو فتى مقاتل في سبيل الدين الحق.

ـ إن مريم على حق، قال. وكيف يتغنى المرء بما يجهل؟

ابتسمت الفتيات. فما كان ليكدرهن اعتراف عاشق بقلة خبرته.

نظر ابن طاهر إلى مريم. وشعر بتخوف ممتع. تذكر المساء السابق للمعركة وكيف كان مستلقياً في العراء عند سفوح أسوار آلموت متأملاً السماء. كان يشعر بتوق غامض لأمر ما مجهول. وأحس بنفسه تذوب حناناً وهو يتذكر الأصدقاء الذين أحبهم، وبخاصة سليمان الذي

كان بالنسبة إليه مثال الجمال الإنساني. ألم يوقظ فيه حلم اليقظة ذاك المفعم بالترقب هاجساً مبهماً بقرب وقوع لقاء آخر، ربما يكون لقاء وجه آخر، يفوق بجماله كل ما عرفه؟ كل مرة غرقت فيها نظراته بعيني مريم، أحس أنها هي ولا أحد سواها تجسد هذا الحدس الرائع. كل ما فيها يدل على أنه ليس من هذا العالم: جبينها الشاحب، والبارز بلطف، أنفها المستقيم، شفتاها الحمراوان المكتنزتان واللتان يتيه الناظر في رسمهما، عيناها الواسعتان اللتان تذكران بالغزال الشارد، لكنهما تلمعان بنظرة ثاقبة تبعث على قلق كبير... أجل، إن صورتها لهي التجسيد الخالص للفكرة التي حملها دوماً في صدره. ترى ما الخاصة السحرية لقرص سيدنا حتى استطاع هكذا أن يهب الحياة لخيال يقذفه فجأة خارجاً على شكل كائن اسطوري إلى هذا الحد؟ لكن سواء أكان في حلم، أم في جنة أو نار، فهو يشعر بسعادة لا حدود لها ويجهل فيها كل شيء.

ـ نحن في انتظار الشاعر ابن طاهر...

ـ حسناً، سأحاول أن أستحضر بعض الأبيات...

تحلقت الفتيات وجلسن على نحو مريح، كما لو أنهن يتهيأن لتذوق عرض فريد.

تمددت مريم قربه، والتصقت به، وأحس بضغط ناعم لنهدها على بشرته. وأصابه دوار من اللذة الغريبة، والمؤلمة بعض الشيء، التي أحس بها. أغضى طرفه، وبصوت ضعيف متردد، أخذ ينشد شعره حول آلموت... لكن سرعان ما استولى على قلبه حماس محموم. حقاً لقد بدت كلمات قصيدته باهتة وفارغة، لكن صوته وهبها فجأة معنى جديداً، ربما هو صدى الإحساس الذي كان يفور في نفسه.

فبعد أن ذكر آلموت، أنشد القصيدة التي ألفها عن علي وسيدنا. وما لبثت الفتيات أن أدركن أي إحساس خفي يشي به صوته. وشعرت مريم أنه يتكلم عنها، ومن أجلها! واستسلمت دون مقاومة لشعور فرح أنها محبوبة، وكأنها لم تكن كذلك في أي وقت مضى. وتاهت ابتسامة غامضة على شفتيها. أصغت، كما لو أنها غارقة في سريرتها: إن الكلمات التي ينطقها ابن طاهر تصلها من مكان بعيد جداً.

ولم تتمالك نفسها إلا حينما تحدث عن سيدنا وأسرّت: لو أنه يعرف!...

ـ كل هذا شيء تافه! صاح ابن طاهر حينما فرغ من تلاوة شعره. وما تلك إلا كلمات بائسة فارغة من المعنى. أرأيتن كم أنا فعلاً مخيب للآمال. فلنشرب من هذه الخمرة اللذيذة...

أخذن يواسينه بألطف المجاملات.

ـ لا، لا، أعرف جيداً أن ليس هناك ثمة شعر. إن الشعر الحقيقي يحمل قوة تعبير مختلفة.

نظر إلى مريم. ابتسمت له، لكن هذه الإبتسامة ظلت عصية على فهمه على نحو غريب. حينئذ شعر بإلهام مفاجئ لما ينبغي أن يكون عليه الشعر. أجل، ينبغي أن يكون الشعر مشابهاً لتلك الإبتسامة! وما كان يعجبه سابقاً ويحبه ما هو إلا بديل عما اكتشفه هذا المساء. وأدرك بقلق محموم، أنه يحب للمرة الأولى، حباً لا حدود له، ومن أعماق كيانه.

وفجأة تذكر أنهما ليسا وحدهما. وأزعجه وجود الفتيات الأخريات. آه! لو أنه يكون الآن مع مريم بمفردهما، كحالهما منذ قليل، إذن لما تكلما إلا عن الهام من الأمور! ولأخذها من يدها ولنظر في أعماق عينيها، وكلمها عن نفسه، وعن مشاعره، وحبه. فماذا يهمه الآن إدراك الكنه الحقيقي لتلك الجنائن! وسيان عنده أن تكون تلك الجنائن ثمرة حلم أو أن تكون واقعاً صرفاً. المهم أن يحافظ على شعور حقيقي حي يعيشه مع هذه الصورة الملائكية. ألم يقل النبي محمد إن الحياة الدنيا ما هي إلا انعكاس باهت للحياة الآخرة؟ بيد أن ما يثيره الآن، وما ولد لديه مثل ذاك الشعور، لا يمكن أن يكون انعكاساً باهتاً لحقيقة بعيدة المنال، وسامية بحيث لا تكون هي الحقيقة بعينها. كما أن الصورة التي يراها بعينيه والتي تنطوي على كثير من الأبهة هي نفسها قريبة جداً من الكمال!

ترى هل ما زال جسده ممدداً في تلك الغرفة المظلمة، في قمة برج سيدنا؟ وهل يمكن أن يكون جزء صغير فقط من ذاته قد انفصل عن روحه، وشهد هذا الكمال؟ لكن ماذا يهمه في كل هذا! فجمال مريم حقيقي والمشاعر التي تنبض فيه حقيقية أيضاً.

أمسك بيدها، تلك اليد الناعمة، الوردية، والمصاغة على نحو مدهش، وضغط بها على جبينه.

ـ يا له من جبين ملتهب يا ابن طاهر!

ـ إني أتحرق! همس.

كان ينظر إليها بعينين متوقدتين. وأضاف ثانية:

ـ إني أشتعل!

«يا له من عشق!» فكرت مريم في نفسها. وقد أصاب التأثر قلبها. «وهل سأكتوي أنا أيضاً بمثل هذه النار؟». أخذ يقبل يدها بهيام وجنون. تناول يدها الأخرى وجعل الاثنتين على شفاهه المحمومة. رفع رأسه ليستعلم تعابير وجهها، واندهش إذ رأى عينيها شاردتين.

«هكذا كان يحبني محمد، لما خطفني من موسى، حدثت نفسها. لكنه كان أكثر نضجاً، وأكثر توحشاً. وشنج الأسى حلقها. «لمَ أروع الأشياء تأتي متأخرة دوماً!»

كانت صاحباتها في غيظ واضح لرؤيتهن ابن طاهر لا يكترث بهن إلا قليلاً. أضحى حديثهن همساً، ولم يخفين الضيق الذي غمرهن لرؤية متحابين غارقين في لهوهما.

همس ابن طاهر أخيراً في أذن مريم:

ـ أود أن نترك بمفردنا.

ذهبت إلى الفتيات وطلبت منهن الإنكفاء في غرفتهن: وبإمكانهن هناك أن يلهون كما يحلو لهن.

أطعنها، وإن كان الحنق قد ملأ العديدات منهن.

ـ تريدين أن تحصلي على كل شيء! اعترضت روخانا بصوت منخفض. وماذا سيقول سيدنا حينما يعلم أن قلبك مشغول برجل آخر؟

اكتفت مريم بابتسامة ماكرة.

لكن طيبة كانت الفتاة الوحيدة التي واجهت الأمر الصعب بهدوء قائلة:

ـ أيتها الفتيات، فلنأخذ النبيذ معنا! سنمرح وحدنا، ما دمنا لا نستطيع فعل شيء آخر.

شعرت مريم أنها قوية، إذ لم تحقد عليهن بعد أن أظهرن لها امتعاضهن. نظرت إلى كل منهن نظرة ود، وقبلت صفية بحنان.

ـ سنؤلف قصيدة حول الطريقة التي هوى فيها قلبك! هددتها سيت. وعندما سنعود، سنغنيها لنسحر بها أذن ضيفك...

ـ فليكن! انظمن الشعر وغنين كما يحلو لكن.

ثم صرفتهن وعادت إلى ابن طاهر. ولتبعد الارتباك الذي ألفت فيه صاحبها ـ والذي قد يجتاحها هي أيضاً ـ ملأت كأسين ورفعت أحدهما لتشرب نخب الفتى. شرب كلاهما وهما ينظران في عيني بعضهما.

ـ كنت تريد أن تقول لي شيئاً يا ابن طاهر.

ـ إن الكلمات جد هزيلة لتعبر عما يختلج في نفسي. أشعر أني أبصرت النور. وكم من أشياء تعلمتُ في وقت قصير جداً! أتعرفين قصة فرهاد والأميرة شيرين؟ ما إن لمحتك، حتى أحسست بأني التقيتك سابقاً. وها أنا اليوم أعثر عليك أخيراً. أنت تماماً مثلما تخيلت شيرين دائماً. ولكن بفارق واحد وهو أن الصورة التي أمامي الآن هي في غاية الجلاء والوضوح... وبالتالي فهي الصورة الأكمل. لا تبتسمي يامريم. وأقسم بالذي لا إله إلا هو، أني أفهم اليوم شقاء فرهاد. وهو يرى كل يوم جمالاً أخاذاً، لكنه بعيد عنه بعداً أبدياً! أليس في ذلك عذاب لا يطاق؟ ولما أصاب الجنون فرهاد، لم يعد أمامه إلا أن يقدّ من الصخر تلك الصورة التي ما برحت على الدوام ماثلة أمام عينيه. بحق الله! كم كان أليماً عذابه! فلا شيء أكثر فظاعة من شعوره يوماً إثر يوم بفقدانه سعادته الماضية... وبتيقنه أنها لن تعود أبداً.

كانت مريم وقد أغضت طرفها، جالسة على إحدى ركبتيها، ومرفقها يستند برقة إلى الأرائك، وجسدها يلمع بألق ناعم عبر أوشحتها، بدت بسكونها كأنها تمثال نُحت من رخام ثمين. أما التفافات وجهها الناعمة، ويداها، وساقاها، فقد بدت جميعها متناغمة تناغماً موسيقياً. أخذ يتأملها مبهوراً، كما لو أنه أمام معبود. لفرط ما

أثار كمالها الاضطراب في روحه. وتنهد صدرها بآهات عميقة، من ذاك الحنان الذي أبداه لها. وفجأة لاحظ دموعاً تنهمر على يديها.

ارتاعت مريم.

ـ حاول أن تقول لي ما الذي يدور في نفسك يا ابن طاهر.

ـ إنك فائقة الجمال. وأنا لا أحتمل حسنك. إني ضعيف جداً.

ـ آه! يا لك من شاب جفاه الصواب!

ـ أجل، لقد تاه صوابي، وإني لمجنون. وفي هذه اللحظة لايعنيني سيدنا ولا الشهيد علي أكثر مما يعنيني امبراطور الصين.

ـ إنك لمجنون فعلاً! هذا كلام يدنس الحرمات. إنك في الجنة! لاتنسَ هذا.

ـ سيان عندي أن أكون في الجنة أو في النار!... المهم فقط أن أكون معك، يا شيرين، يا إلهتي!...

ابتسمت.

ـ لقد تشوش عقلك. أنا لست بشيرين، وإنما أنا مريم، مجرد حورية من حوريات الجنة.

ـ أنت شيرين. شيرين! وأنا فرهاد اللعين، الذي سيجن من الألم إن حرم منك.

...يا لها من حكمة شيطانية أن يرسل إليها هي بالتحديد، هذا الشاب المتأجج العاطفة! حقاً إن ابن الصباح لإبليس لعين.

وأخيراً بتت في أمرها. أخذت بين يديها رقبة الفتى، وأدنت وجهها إلى وجهه وتاهت في أعماق عينيه. أحست به يرتجف، كأن جسده من الوهن بحيث لم يعد قادراً على احتمال فورة العشق التي تعصف به. وضعت شفتيها على شفتيه. واستسلم، حتى دون عناق؛ وأدركت أنه سقط مغشياً عليه بين ذراعيها.

كانت الفتيات قد اجتمعن في الغرفة. وقد وضعن الأرائك على الأرض وجلسن عليها بارتياح. وأخذن يشربن أقداح خمر دارت بينهن كما لم يفعلن قط. كان نشاطهن في أوجه: غنين، تشاجرن، تصالحن وتبادلن القبل مجتمعات.

ووجدتهن أباما على هذه الحال. رفعت الستارة في البداية بحذر، ولما تأكدت أنها لن تجازف بافتضاح أمرها أمام الضيف، فاجأت الصبايا ودخلت الغرفة.

ـ أين ضيفكن؟ أين مريم؟

كانت ترتجف غضباً وسخطاً.

ـ ظلا وحدهما في المقصورة.

ـ أهكذا تنفذن أوامر سيدنا! ستقطع رؤوسكن! ربما تلك البنت الساقطة تهم الآن بإفشاء سرنا للشاب، بينما أنتن تصهلن كما لو كنتن أفراساً هائجة!

شرعت بعضهن في النحيب.

ـ أمرتنا مريم أن ندعهما وحدهما.

ـ اذهبن حالاً وأحضرنها! اشغلن بسرعة العاشق وحاولن أن تعلمن منه الأسرار التي ربما باحت بها هذه العاهرة إليه. ولتوافيني واحدة منكن بما سيحدث. سأنتظركن خلف أيكة الورد الأبيض، إلى اليسار من البركة...

ولما دخلن الغرفة المزججة، كان في انتظارهن مشهد غريب. كان ابن طاهر ممدداً دون حراك على الأرائك، شاحب الوجه كالميت؛ وابتسامة غبطة على شفتيه. وقد انحنت مريم فوقه تحملق بشغف في وجهه. التفتت ولمحت رفيقتها. ومن هيئتها المذعورة، أدركت مريم أن أمراً ما قد حدث. نهضت ومشت إليها.

ـ أهي أباما؟ كان ذلك كل سؤالها.

ولما أجابتها الفتاة الأخرى بإيماءة من رأسها، رفعت كتفيها في لا مبالاة.

ـ هل ألفتن قصيدتكن؟

ـ إنها جاهزة.

أفاق ابن طاهر، فرك عينيه ونظر بهدوء حوله.

ـ إن أذنتَ، سنغنيها لك، قالت الفتاة الرسولة.

ـ قصيدة؟ بكل سرور ـ وأبهج العرض ذاك الفتى كثيراً.

وانضمت العازفات الأخريات إلى رفيقاتهن. تناولن القيثار والجلاجل، وعلى حين غرة وبشجاعة، شرعن يغنين...

فـي أحـد الأيـــام
فـي فـــردوس الله
كانت حورية شابـــة
اســـمهـا مـريـم.
كانـت عاشـقـــة
وشعـرهـا الفاحـم
الذي تثيره وجنتـاهـا
هو المحيـط الفاتـن
عيــون ســوداء
شـفـــاه مكتـنزة
أطـراف هـيـفاء
وهيئـة مـتبـخترة.
كانت مثل المـلكـة
اختـــارهـــا الله
لتسود الحـسـناوات.
والعـقـل والـجمال
جعـلاهـا بـلا نظير.
عـرفـت أســرار
السمــــاء والأرض.
تشرفت بكل العـلوم
ولم تـفتهـا الـحكمة.
في الأمس هي ملكة رزينة
ما هـــذا الاحـمـرار
الذي يـغطـي الـيـوم

وجهها بحرارة ناعمة؟
نحن الذين نقتفي أثر العيد
نعرف قلبها الولهان:
إن شجاعاً قرر
أن يسحر حياتها
هذه هي ملكتنا
مغرمة الجسد والروح
تتأهب لإخفاء جذوة حبها
عن البطل الذي يستهويها...

أما أباما التي سلمت أمرها لعدي، فقد عادت عن طريق القناة إلى المخبأ السري حيث كان ينتظرها الحسن.

- لم دعيتني؟ سألها الحسن متبرماً.

- لا تغضب منّي يا سيدي. كل شيء سار على أفضل وجه، إلا في هذه الجنينة. إن مريم لا تعرف، أو لا تريد أن تعرف كيف يروض غِر.

وقصت عليه ما شاهدت وما سمعت.

- يبدو لي أن مريم اختارت الأسلوب الصحيح، قال. ألم تفهمي أن ابن طاهر لا ينبغي أن يعامل بنفس طريقة الآخرين؟ ألأجل هذا طلبت حضوري؟

- اختارت الأسلوب الصحيح! أتقول هذا لي، لكن لتعلم مع ذلك، أن ما من رجل استطاع مقاومتي! ألست أنا بالنسبة إليك مجرد مشعوذة، ومريم فنانة؟

أخفى الحسن ابتسامته.

- ما الذي يدفعك للخصام؟ إن مريم لها وجهة نظر حول هذه الأمور تختلف عن تلك التي تحملينها، هذا كل شيء.

- وجهة نظر مختلفة؟ بحق السماء! ومن أين تعلمتها؟ أمن عجوزها اليهودي؟ أم من متوحش الصحراء؟

- وماذا لو أنها تعلمتها مني أنا؟

- إنك تريد إهانتي... لكن فلتعلم أن لدي هاجس بأنها تخونك. لقد شغفت به حباً!

ولم تلاحظ، في العتمة، الاحمرار الذي علا فجأة وجه العجوز. بيد أنها شعرت أنها أصابته في الصميم.

- إنهما يتحابان ويتناجيان كزوجي حمام. تعلم أنه شاعر. وبذا لن يعوزه التأثير على قلب امرأة. ومن اليوم سيخفق قلبها له. لقد صرفت الفتيات الأخريات لتظل وحدها مع صاحبها. ستحذره، صدقني، وفي جميع الأحوال، ستحاول أن تثير شكوكه.

وترامى للسمع وقع خطوات. كان عدي قد جاء بروخانا. التي أصابها الخوف لما رأت الحسن.

- لا تخشي شيئاً، قال لها. ماذا يفعل الاثنان؟

- يبدو أن ابن طاهر فتى متيم.

- ومريم؟

نظرت روخانا إلى الأرض.

- لا أعلم.

- أريد أن أكلم مريم، قال الحسن.

نظرت إلى أباما نظرة تحير.

- ما الذي يحملك على التردد؟ قال مندهشاً.

- كيف سأنقل إليها رسالتك؟ وماذا لو تبعها ابن طاهر؟

- يجب أن تحضر. لا بد أنها ستجد حجة ما.

أحنت رأسها باحترام وخرجت مسرعة.

ولما عادت إلى المقصورة، سألتها مريم بصوت هامس:

- أرأيت أباما؟

- أجل. وسيدنا على ضفة القناة. إنه ينتظرك. تذرعي بشيء اذهبي إليه.

عادت مريم إلى حيث كانت بالقرب من ابن طاهر.

ـ أتحبني حقاً؟

ـ ألديك شك في ذلك؟

ـ إذن برهن على حبك بتأليف قصيدة لأجلي.

ـ كيف أستطيع أنا البائس، أن أكتب شيئاً يليق بك؟ قال مرتاعاً. أترضى مريم أن يصيبني الخزي!

ـ إن كنت تحبني فافعل ما قلته لك.

ـ لكن كيف أستطيع... وأنت هنا؟

ـ لا تخف، لن أربكك. سأنطلق إلى الجنان لأقطف لك أزهاراً؛ وفي هذه الأثناء، ما عليك إلا أن تدون ما يمليه عليك قلبك...

والتفتت نحو الصبايا.

ـ وأنتن، ابقين بالقرب منه واسررنه بموسيقاكن.

ولما انكفأت خارجة، وشوشت في أذن روخانا:

ـ لا ينبغي أن يغادرالقاعة! أجبنه إلى كل ما يريد.

تدثرت ببرنسها، وركضت عبر الحدائق.

لمحت الحسن بالقرب من الزوارق. أمسك يدها بخشونة.

ـ أيصدق على الأقل أنه في الجنة؟

ـ إنه متيم، وبالتالي فهو يحسب نفسه في الجنة.

ـ هذا ليس بجواب. إني أجدك قد تبدلت تماماً، ثم قال لها بفظاظة... اعلمي أن لن تكون هناك رحمة إن لم يصدق!

ـ إني أعدك أنه سيصدق الأمر. إنما مُرْ أباما ألا تطوف مثل الأشباح وألا تفسد علي عملي.

ـ الأفضل أن تحتفظي برباطة جأشك. احرصي على ألا يفلت زمام الأمور من يدك.

هل سمعتْ جيداً؟ هل تأثر قلب الحسن. هل ما زال يكنّ شيئاً لها؟

ـ لا تخشى شيئاً يا ابن الصباح. إني أمسك بثبات الزمام في يدي.

ـ هذا ما أتوقعه منك... بم تذرعت قبل ذهابك؟

ـ كلفته بواجب يقوم به: أمرته بتأليف قصيدة.

أمسك بذراعها وسحبها نحو الدرب المحاذي للضفة.

ـ أتظنين أن الهوى ملك قلبه؟

ـ لا شك في هذا.

ـ وأنت؟

ـ أيهمك هذا؟

ـ ربما. وإلا لما طرحت عليك هذا السؤال.

ـ إن ابن طاهر فتى موهوب. لكن ما زال أمامه الكثير من الدروب التي عليه قطعها ليصبح رجلاً.

ـ عودي إليه الآن وخدِّريه بأسرع ما يمكن.

ولم تعد تستطيع أن تتمالك نفسها: أخذت تضحك في صمت.

قبلها على جبينها وعاد أدراجه إلى أباما.

ـ هل تبدو الغيرة على السيد؟ لمحّت أباما بمكر.

ـ ربما... لكن أقل بكثير، على أية حال، من واحدة تدعى أباما...

ثم لوح لها مودعاً وأمر عدي أن يسلك طريق القصر. كان الحسن يفكر طيلة طريق النهر: «حالما أعود إلى البرج، سأعطي إشارة لينفخ في البوق. كفى رقصاً هذا المساء!».

كان يشعر بثقل في صدره. وعادت إلى ذاكرته صورة صديقه العزيز عمر الخيام... الذي كان مستلقياً على الوسائد يحتسي الخمر، والحسناء في خدمته، يؤلف الأشعار ويهزأ من العالم بكل ما فيه. كان يتأمل ويتباهى بامتلاكه ناصية المعرفة... وكل ذلك في سلام والطمأنينة. وفي هذه اللحظة حسده الحسن وأسر في نفسه: «هو الذي اختار من بيننا نحن الثلاثة النصيب الأفضل».

أبصرت الصبايا مريم تعود بوجه باسم، وفي الحال شعرن بالارتياح. كانت ذراعاها محملتين بالزهور التي أمطرتها على ابن طاهر المنكب على صحيفته.

ـ هل أفلحت في وضع قصيدة رائعة لنا؟

ـ لقد حاولت على الأقل.

ـ لقد قرأ علينا شيئاً منها، قالت سيت. ولا شك أنها ستدير رأسك.

ـ إني لأتحرق تشوقاً.

جلست على ركبتيها بالقرب منه، وقد أخفت القرص في ضمة قبضتها.التصقت به، ونظرت إليه بكبرياء. أخذ يقرأ...

عجبي، يا من صرت فرهاداً،
أأقع في الحب
كفراشة في النار؟
من علمني لوعة
ناره القاتلة؟
ومن يومها أضحت المحبة فاترة.
تلك التي نذرتها
للنبي محمد، ولعلي، ولسيدي،
الذين كانوا حتى ذلك الحين
غوالي على قلبي!
يا لله! يا من تعرف أعماق النفوس
ويا من أبدعت جمال مريم،
الأبهى حسناً من شيرين،
يا من ترى كل شيء، وتعرف كل
شيء، وتدرك كل شيء،
ماذا أفعل؟
تملك الحب كياني
ولم أعد أرى أو أسمع
أو أحس بشيء سواها.
آه! يا مريم الغالية،
يا روح روحي!

أرشدني يا الله، في هذا الامتحان،
إلى دواء للقلب الفارغ.
ترى هل سأطرد أنا أيضاً
مثل أبينا آدم من الجنة؟
هل أردت أن تريني الثواب
الذي ينتظرني في نهاية المعركة؟
وماذا علي أن أفعل،
حينما أعود إلى الأرض،
لأنال فضلك؟
في الأمس، يا مريم، كنت أعمى
وقلبي يجهل محط رغباته
وعقلي تائه في أفكاره.
واليوم انجلى كل شيء أمامي
عثر قلبي على السلام، وانطلق عقلي
إنها سعادة لا حدود لها، سمت بكياني
حينما أردت مريم أن أغرق في عينيك!

والتمعت الدموع في عيني مريم، وأسرعت تعانقه لتخفيها. كان الحزن يعتصر قلبها. «ياله من شاب مسكين، قالت في نفسها، مخلص وطيب إلى أبعد الحدود... إنه في وهم شبابه. وليس في قلبه مكان لكذب وخيانة. وأنا التي عليها أن تجعل منه ضحية للحسن!».

ـ ما بالك يا مريم؟

ـ إنك فتى يافع بالغ الطيبة.

ابتسم ورأت وجهه يحمر اضطراباً. ثم طلب أن يشرب، أفرغ القدح واستغرب إحساسه بالوهن الشديد. ثم أصابه الدوار. وبدا أمام عينيه منظر غريب. وعلى حين غرة أمسك برأسه بين يديه ووقع على ظهره.

ـ لم أعد أرى شيئاً! بحق الله، لقد أصبحت أعمى! أين أنت يامريم؟ إني أغوص. أغرق في الفراغ...

استولى الخوف على الفتيات. وعانقته مريم.

ـ إنّي هنا، يا ابن طاهر. بالقرب منك.

ـ أشعر بك يا مريم، قال وعلى وجهه ابتسامة منهكة. آه! يا الله! كل شيء يتغير بسرعة! ما كان ذلك إلا حلم... لكني هذه المرة أحلّق إلى الوراء...إصغي إلي هذا الحلم الغريب الذي حلمته لتوي: وصلت إلى مدينة القاهرة المقدسة... أتسمعين يا مريم! دخلت قصر الخليفة. والعتمة تلفني. آه! والآن الظلام ذاته يحيط بي... وحين التفتُ إلى الوراء، نحو الباب، كان الوقت لايزال ضحى؛ لكن حين نظرت إلى العرش، كنت كالأعمى. سمعت صوت الخليفة: وكان ذاك صوت سيدنا! نظرت نحوه: من المستحيل أن ألمح شيئاً. والتفتُ نحو الباب: كانت القاعة مضاءة بجلال. رحمتك يا الله! يا له من وهن! لم أعد أشعر بك يامريم! اجعلي لي علامة، المسيني... لا، عضيني! هنا، أسفل القلب، بقوة، بقوة، حتى أشعر بك، حتى أعلم أنك لا تزالين هنا!...

أزاحت رداءه وعضت الجلد المكشوف، أسفل القلب تماماً. كان حزنها يفوق الوصف.

ـ الآن أشعر بك من جديد، يا مريم. آه! يا له من بلد! انظري إلى هذه المدينة أسفل مني! انظري هذه القبة المذهبة، تلك السقوف الخضراء والحمراء! أترين هذا البرج اللازوردي، والأعلام الكثيرة التي تخفق حوله، وتلك الرايات الملونة وهي تصطفق في الهواء! إن الأبنية والقصور تتقاطر في سرعة هائلة!... أمسكن بي! أتوسل إليكن أن تمسكن بي!...

ألقى برأسه مجدداً إلى الوراء وأفلتت منه حشرجة ألم.

كانت الصبايا قد بلغ التأثر منهن مبلغاً كبيراً.

ـ سيحل البؤس علينا، قالت سيت وإمارات الكآبة بادية عليها.

ـ الأجدر بنا أن نلقي بأنفسنا حالاً في أعماق السيل، قالت مريم.

أما ابن طاهر فقد غاب تماماً عن الوعي.

ـ ألبسنه صداره!

أطعن أمرها. كانت مريم مستلقية على إحدى الأرائك تحملق في السقف،وعيناها جافتان.

لما ألفى أبو علي وبوزروك أوميد نفسيهما وحيدين في قمة البرج، كانا يتبادلان نظرات الحيرة. ظلا وقتاً طويلاً متكئين، يتفحصان الليل من فوق الحاجز، دون أن يهمسا بكلمة.

ـ ما رأيك في كل ما يجري؟ أطلق بوزروك أوميد أخيراً تلك الكلمات.

ـ نحن في مصيدة ليس من السهل التخلص منها.

ـ وأنا أقول: والذي لا إله غيره، إن ابن الصباح لمجنون!

ـ في جميع الأحوال، إنه رفيق خطر.

ـ أتظن أن علينا البقاء مكتوفي الأيدي ننظر إليه باطمئنان وهو ينجز مشروعه؟ أتعلم ماذا يفعل النمر حينما يقع في فخ ذئب؟

ضحك أبو علي بينما تابع الآخر كلامه:

ـ سيجعل فيه خرقاً بأسنانه.

ـ وماذا بعد؟

ـ... وينتهي به الأمر إلى الإفلات منه.

ـ ألا تخشى أن يبعثنا يوماً إلى إحدى جناته؟

ـ إن كانت الأجواء فيها ممتعة، فلن نقاوم أبداً.

ـ وإن كانت الأجواء رديئة، فلن نقاوم أيضاً.

ـ اسمع، يا أبو علي ـ قال تلك الكلمات وقد قرب شفتيه من أذن صاحبه... ما زال هنالك متّسع من الوقت هذا المساء. لا أحد سوانا نحن الثلاثة في قمة هذا البرج...

ـ ماذا تقصد بكلامك؟

ـ أأستطيع أن أثق بك؟

ـ إن الغراب لا يقتلع عين غراب آخر. وإنما قد يقتلع عين نسر.

ـ نتربص عودته عند المدخل. وأصرعه أنا من الخلف بضربة من قبضة سيفي، دون أي ضجة، ثم نلقي به في شاه رود من أعلى هذا الحاجز.

ـ والمؤمنون؟

ـ سنوهمهم بأنه لم يرجع من الحدائق.

ـ لكن الخصيان سيعرفون أنه عاد إليهم. ولن نفلت منهم أحياء.

ـ حينما يذاع الأمر، سنكون حينئذ في مكان بعيد.

ـ كل مؤمن سيجازف بحياته في سبيل الانتقام له. إن خيوط المصيدة محكمة تماماً...

ـ ما من عمل إلا ويحمل في طياته مخاطر.

ـ لكن المجازفة ستكون أقل حينما ننتظر خلافته.

ـ لكن الحسن رجل مجنون!

ـ ليس من الجنون بحيث لا يستطيع أن يقرأ أفكارنا.

ـ هل أنت خائف؟

ـ وأنت ألست بخائف أيضاً؟

ـ ولهذا بالضبط أود أن ينتهي هذا الأمر تماماً.

ـ إني واثق بأن أفكارنا تخطر الآن على باله. من الآن فصاعداً سنلتزم صمت المقابر. فالخصيان سلاح رهيب...

ـ وسيكون الفدائيون سلاحاً أشد فتكاً أيضاً.

ـ لهذا فلنسكت. فهم لن يكونوا سيفاً بين يديه وحده، وإنما بين أيدينا أيضاً.

ـ قد تكون على حق، فالحسن سيد مخيف، ومن المؤكد أن وقت التفكير بالتراجع قد فات. لقد كُشف لنا عن سره، وكل تقهقر الآن يعني الموت.

ـ لا مناص إذن من أن نحذو حذوه.

ـ اسكت! لقد عاد... إحم! إحم!... في الحقيقة، ينبغي أن أعترف بأن تجربته هذا المساء هي إحدى التجارب الأكثر أصالة...

ـ بل إني لأقول أكثر من هذا!... إنها تجربة زاخرة بأسمى الوعود!...

ألقى الحسن، لاهثاً، عليهما نظرة سريعة وأخذ يضحك.

ـ آمل ألا يكون الملل قد أصابكما. لقد كان لديكما ثمة أشياء كثيرة تتحدثان حولها وأظن أنكما لم تضيعا وقتكما.

ـ لقد قلقنا حول سير الأمور في الأسفل. لم طلبت أباما حضورك؟

ـ إنها غيرة النساء! لقد تصادمت النظريات القديمة والجديدة حول الحب هذه الليلة. فكان ينبغي البت في المسألة الشائكة حول معرفة كيف يستسلم الرجال بسهولة أكبر للإغراء.

قهقه الداعيان الكبيران. لقد مرت بسلام اللحظات العصيبة.

ـ يبدو لي أنك تفضل النظريات الجديدة على القديمة، مازحه أبو علي.

ـ وهل لنا يد في ذلك؟ إن العالم يتطور باستمرار: وعلينا أن نتخلى عن القديم لمصلحة الجديد.

ـ وابن طاهر، ألم توقعه النظرية الجديدة في شباكها؟

ـ انظروا إلى أبي علي هذا! سيكون صياد نفوس كبير!.

ـ أقسم بالنبي محمد، أنك تتظاهر بكونك عاشقاً فريداً. الأمر ليس قميصاً ممزقاً، إن تعلقت بامرأة فسأفضل قتلها على أن أدعها لرجل اخر.

ـ لقد أُثبت هذا من قبل، يا أبو علي الطيب. ولهذا ليس عندك اليوم نظريات قديمة أو جديدة تقدمها. لكن فيما يتعلق بحالتي، فلا ينبغي أن تنسى أني فيلسوف وأني أثمّن قبل كل شيء ما أستطيع لمسه. وليلة واحدة لا تكفي لإحداث تغيير كبير.

ـ هذه وجهة نظر، قال أبو علي. لكني أعتقد أنك لا تتمسك بهذا المبدأ إلا في شؤون الحب. ألم يقل شخص ما هذا الصباح أنه أراد أن يرسي مؤسسته على دعائم العقل الخالص؟

ـ إنك تلاحقني ملاحقة الكلب للطريدة، قال الحسن ضاحكاً.

أوتعتقد حقاً أن هذين النقيضين لا يمكن التوفيق بينهما؟ وإلا كيف يتماشى الجسد والعقل جنباً إلى جنب؟

ـ إن كان هناك أولياء في جهنم، فقد تكون واحداً منهم فيها.

ـ بحق الشهداء جميعاً! لقد جهرت أميرتي في يوم ليس ببعيد بالرأي ذاته!

ـ هذا توافق سار إذن.

غمز أبو علي بوزروك أوميد بطرف عينه. بيد أن الحسن كان قد أشعل مصباحاً ولوح به مشيراً لنافخ البوق المتمركز في الجنائن.

ـ كفى مباهج فردوسية هذا المساء! والآن ستتبلور النتائج.

وتلقى الرد الوارد من الجنائن، فأطفأ المشعل ووضعه جانباً.

ـ أجل، أجل، في الأسفل هناك أصحاب النصيب الأفضل، تابع كما لو أنه يخاطب نفسه. ومن ورائهم شخص يفكر ويقرر بدلاً عنهم. لكن من ذاك الذي سيرفع عنا إحساسنا بمسؤوليتنا؟ وشعورنا بانفطار قلبنا؟ من سيطرد عنا ليالينا المؤرقة، التي تبدو فيها كل لحظة تقربنا من الصباح أشبه بضربة مطرقة على صدرنا؟ من سيخلصنا من قلق الموت، ونعرف أن الفناء الكبير عاقبته؟ ما زالت اليوم قبة السماء تنعكس بنجومها في عيوننا؛ ما زلنا نشعر وما زلنا نفكر. لكن متى ستأتي اللحظة الحاسمة، التي ستمدنا ببلسم يخفف الألم الذي يسببه شعورنا بولوج ليل الفناء الأبدي؟ أجل، في الأسفل هناك أصحاب النصيب الأفضل. لقد خلقنا لهم فردوساً، وعلمناهم أن ملذات خالدة تنتظرهم هناك بعد الموت. أتعرفان كائنات تستحق الحسد أكثر منهم؟

ـ هل سمعت يا بوزروك أوميد؟ قد يكون الحسن على حق...

ـ هل بدأتما تفهمان إذن؟ نحن نعلم أننا لسنا أسياداً إلا على نقطة متناهية الصغر من تلك الحقيقة المشهودة، وأننا عبيد الكتلة اللامتناهية من المجهول. أستطيع أن نقارن أنفسنا بحشرة أبصرت يوماً السماء فوقها، فقالت في نفسها «سأتسلق هذا الجذع. يبدو أنه من العلو بحيث يوصلني إلى هدفي!» بدأت التسلق في الصباح إلى أن حل المساء. ولما بلغت نهاية الجذع، أدركت أن جهدها كان بلا طائل.

فالأرض على بعد خطوات أسفل منها؛ والسماء المرصعة بالنجوم فوقها ما تزال بعيدة المنال. والفارق الوحيد أنها لم تعد تبصر أي طريق يقودها إلى الأعلى. لقد خسرت إيمانها: فقد أدركت أن ما من شيء يقارن بامتداد الكون الشاسع. كما وحرمت على الدوام من الهناء والأمل.

وأشار إلى الداعيين.

ـ هيا! علينا استقبال طليعة المؤمنين القادمين من فردوس الأرض.

لاحظت الفتيات اللواتي أحطن بفاطمة، عبر الزجاج، الخصيان وهم يقتربون حاملين المحفات.

ـ يبدو أنهم ثلاثة حفارين، عقبت سارة متأملة.

ـ فاطمة! اكشفي عن سليمان الغطاء، لنراه مرة أخرى، توسلت إليها زينب.

رفعت الغطاء عن وجه النائم. كان راقداً في هدوء، ويتنفس تنفساً غير محسوس، وعلى وجهه مسحة طفولية. حملقت الصبايا فيه. عضت زينب أناملها والتهمته بنظرة كسيرة. وأسرعت فاطمة تغطيه ثانية.

دخل الخصيان وسجّوا الفتى على المحفة دون أن ينبسوا بكلمة. وانطلقوا من جديد، في هدوء تام أيضاً. ولم يكد الغطاء يسدل عليه مجدداً حتى أجهشت الفتيات في النحيب. أما حليمة التي كظمت صرخة ألم، فقد انهارت على الأرض كما لو أن ساقيها قطعتا.

انشغل الزنوج بمهمتهم حول يوسف، لكن في هذه المرة، كانت جادا وفاطمة الصغيرة وحدهما اللتان بكتا. أما سليقة، الصامتة، فقد لاحقت بعينيها وصولهم ورحيلهم. فكبرياؤها منعها من الاستسلام لعواطفها.

ـ هنا أيضاً ينتهي مجدك، قالت حنفية لما أصبحن مجدداً وحدهن. لقد ظفرت بزوج لليلة واحدة، لكنك فقدته للأبد. أما نحن فشكوانا أقل، إذ لم يكن لنا نصيب فيه على الإطلاق.

حاولت سليقة أن ترد عليها بإجابة وقحة. إلا أن ألمها كان يحز قلبها. عضت شفتيها ودفنت رأسها بين الوسائد.

- أليس عندك قلب يا حنفية، قالت أسما غاضبة.

- لم أقصد بكلامي الإساءة.

اقتربت من سليقة، ومسحت على شعرها. وحذت البقية حذوها، وانهمكت كل منهن على طريقتها في مؤاساة الفتاة التعيسة... والتي لم يجفف دمعها غير رقاد استسلمت له بعد برهة طويلة.

لما ذهب الخصيان بجسد ابن طاهر النائم، دعت مريم الفتيات لينسحبن إلى غرفة نومهن. كان عددهن قليلاً ذاك المساء. أما اللواتي كن مع فاطمة وسليقة فقد بقين في مقصورتهن.

خلدت مريم للنوم وحدها. لو أن حليمة بذلاقة لسانها الطفولية كانت معها هذه الليلة لقدمت لها عوناً كبيراً. كيف يمكنها أن تحتمل هذا الليل المشؤوم؟ ما الذي حصل لصاحباتها الأخريات؟ لم تستطع أن تمنع نفسها عن التفكير بهن وهي قلقة. لكن ينبغي الانتظار حتى الصباح!.. الانتظار! - نعم كان ذلك نصيبهن جميعاً - وعليهن مقاومة الأفكار السوداء التي تحاصرهن... والتي ربما يبددها نور الفجر.

التفت الحسن نحو الخصيان الذين وضعوا للتو في الغرفة المظلمة حملهم الحي.

- هل سار كل شيء على ما يرام؟

- كل شيء على ما يرام. يا سيدنا.

دعا رفيقيه ليتخذا مكانهما بجواره في المنصة المتحركة حيث وضعت المحفات فيها. ثم انتظروا سواعد الخدم السود الخفية لترفعهم إلى قمة البرج.

ولما أصبحوا في الأعلى، كشف الحسن الغطاء عن أجساد النائمين.

- يبدو عليهم الإرهاق، همس بوزروك أوميد بملاحظته تلك.

ابتسم الحسن.

- سينامون إلى الضحى. حيث يحين وقت استيقاظهم، وسنعرف حينئذ إلى أي مدى حالفنا النجاح.

أزاح الستارة المسدلة على باب الحجرة الضيقة، ليفسح المجال للهواء بالدخول إلى الفتية. ووضع بالقرب من الباب حارساً، ثم صرف صديقيه مخاطباً إياهما في وجيز العبارة:

- لقد انتهى منذ قليل الفصل الثاني من المسرحية الحزينة، سنلتقي هنا في الغد. طاب مساؤكما.

وفي الجنائن، في الأسفل، كان الخصيان منهمكين في إطفاء وإنزال المصابيح الهشة. بعضها خمد نوره، والبعض الآخر ما تزال فيه شعلة تتراقص. وعاد الليل ليهيمن حولهم على الحدائق. وتابعت فراشات الليل طوافها المذعور، بينما كانت الخفافيش تطارد فلول الحشرات. وترامى للسمع، من أحد الأدغال، نعيب بومة... تبعته في الحال زمخرة كأنها زمخرة فهد. وانطفأ المصباح الأخير. كانت ليلة صيف رائعة، مسكونة بالأسرار. تلألأت فيها نجوم السماء بألف نور غامض، بعيد، عصي المنال.

دوّم مصطفى جذوة النار ليؤجج لهيبها، وتبعه الخصيان الستة نحو الزورق وهم يستضيئون بتوهج ذاك النور القوي.

- لنلقي في طريقنا نظرة خاطفة على الصبايا، اقترح أسعد، معلم الرقص. لابد أن تلك الحفلة الساهرة كانت امتحاناً قاسياً لهن.

عادوا إلى المقصورة حيث كانت فاطمة وصاحباتها قد غفون قبل برهة قصيرة. أبعد أسعد الستارة التي تحجب الباب؛ وتقدمهم مصطفى إلى الغرفة التي أضاءها بجذوته المشرعة. كانت الصبايا غارقات في فوضى جميلة وسط الأرائك، بعضهن كن عاريات تماماً، والبعض الآخر شبه مغطيات بهدب ثوب أو غطاء؛ وغالبيتهن لم يكلفن أنفسهن حتى بنزع حليهن. وبدت انحناءات أذرعهن وسيقانهن الشهية أمام الناظر

مثيرة للاعجاب وهي مسترخية بدعة فوق الحرير المقصب. بينما كانت صدورهن ترتفع وتهبط بتناسق هادئ.

ـ لقد عض ذاك عضاً قوياً، عقب أسعد بخبث، مثنياً على حرارة سليمان المندفع. كن راقدات كما لو أنهن بقايا ساحة معركة!

أهاج المشهد مصطفى الذي كاد أن يسقط مشعله من يده. وغادر على عجل القاعة عاجزاً عن احتمال المزيد من ذاك المشهد. ركض كالمجنون إلى النهر، صائحاً في سكون الليل:

ـ الرجل حيوان مفترس... ياالله! ما الذي فعلوه بنا!...

الفصل الثالث عشر

في صبيحة الغد، وبحسب الاتفاق، حضر الداعيان الكبيران إلى الحسن.

ـ لقد ألقيت منذ برهة نظرة خاطفة على نائمينا، قال لهم مستقبلاً إياهما. أظن حان وقت إيقاظهم.

تبعاه إلى غرفته. أزاح الستائر المسدلة على النوافذ وأغرق ضوء قوي الغرفة. بعدئذ دخل ثلاثتهم الغرفة الضيقة عن طريق الممر السري: كان الفتيان ممددين فوق محفاتهم نائمين بسلام. اقتربوا وأخذ الحسن يتفحص بشغف وجوههم.

ـ إن حكمت عليهم بحسب المظهر الخارجي، فما من تغيير باد عليهم. ويبقى معرفة التحول الذي حصل في داخلهم، وما الذي أصاب نفوسهم... وهذا ما سنعرفه بعد لحظات.

هزّ كتف يوسف.

ـ أتسمعني، يا يوسفي الطيب! أأضحى النهار وأنت ما زلت نائماً؟

فتح يوسف عينين مذعورتين، نهض متكئاً على مرفقه ونفض رأسه، كانت الحيرة بادية عليه. حدق في القائدين وعلى وجهه إمارات الخبل والضياع، وانقضت لحظات طويلة قبل أن يستعيد أنفاسه. كان وجهه ينضح بدهشة لا توصف.

ـ ما فعلت الليلة، حتى استيقظت في مثل هذه الساعة! قال الحسن مشجعاً إياه بابتسامة دهاء.

ـ كنت في الجنة، برحمة منك، يا سيدنا، أجاب يوسف وهو يرفع عينيه متوجساً.

ـ لا بد أنه كان حلماً ممتعاً، يا بني.

ـ لا، لا، لقد ذهبت فعلاً إلى الجنة...

ـ قل هذا الكلام لأحد غيري، تعلم أن رفاقك سيهزؤون منك إن قصصت عليهم مثل هذه الأكذوبة.

ـ ليس لدي مزيد من التفسير، يا سيدنا، لقد كنت فعلاً في الجنة!

ـ أنت مقتنع إذن بأني سلمتك المفتاح الذي فتح بوابة جنان السماء!

ـ ودون أي ظل من الشك، يا سيدنا.

كانت ضجة المحادثة قد أيقظت سليمان. جلس على سريره، وحاجباه المقطبان يكشفان عن تحير شديد، أخذ ينقل نظراته بين الحسن ويوسف. وفجأة، تذكر كل شيء، وأخذ يجس باضطراب محموم سائر جسده. وتعرفت أصابعه على سوار حليمة المخبأ تحت صداره، واكتنفه الذهول.

ـ يا للعجب، هاهو سليماننا يستيقظ! ماذا فعل في ليلته هو أيضاً، حتى نام إلى هذه الساعة!

ـ ذهبت إلى الفردوس، بفضل منك يا سيدنا...

ـ هيا، هيا، أتأمل أن نصدق اعتباطاً حلمك؟

ـ لو تجرأ أحد على الشك فيما قلتُ... أقصد أن لدي الدليل على أني ذهبت حقاً إلى الفردوس...

ـ ألديك الدليل على ذلك؟ فلترني إياه!

أدرك سليمان بعد فوات الأوان أنه تكلم بما لا ينبغي. وشرع يحاول تبرئة نفسه.

ـ لا أدري كيف بقي هذا السوار في يدي. شعرت بالوهن، وبحثت عن شيء أتمسك به من حولي، وفجأة أحسست بهذا السوار في راحة يدي. ولا أتذكر شيئاً بعد ذلك.

ـ أرني إياه.

سلم سليمان غنيمته على مضض. أمعن القائد النظر فيه متفحصاً، وأعطاه بعدئذ إلى الداعي الكبير.

ـ في الواقع هذا شيء لا يصدق، قال. يبدو أن هذا فعلاً سوار جنة حقيقي.

فتدخل يوسف في الحديث قائلاً:

ـ إن سليقة لديها آخر مماثل له، لكنها منعتني من أن أجلبه معي إلى هذا العالم.

ـ سليمان، سليمان، قال الحسن وهو يهز رأسه. أجد الأمر غريباً بعض الشيء في أن تستطيع الاستحواذ على هذه الحلية. ألم تقترف سرقة في الفردوس؟

شعر الفتى بالخوف يدب فيه.

ـ إن نعيم وعبيدة لا يصدقاني في شيء!... ولذا احتفظت بهذا السوار... لأريهما إياه.

ـ هل تُعرف بين رفاقك على أنك كاذب كبير؟

ـ أنا أيضاً قد لا أصدقهم إن هم قصوا علي ما سأقصه عليهم!

ـ حسناً. في الوقت الحالي، سأحتفظ أنا بالسوار، وعندما أرسلك مجدداً إلى الجنة، سأعطيك إياه لتذهب به. لكن انتبه إلى ما ستقوله هناك لتبرئ نفسك!...

أما ابن طاهر، الذي استيقظ منذ لحظات قصيرة وتأثير الخدر لايزال واضحاً عليه، فقد تتبع المحادثة وأمارات المفاجأة بادية عليه. وعادت ذكريات ليلته ببطء إليه. وضع يده على صدره وكظم رعشة خاطفة: كانت لا تزال أسفل القلب تماماً آثار أسنان مريم تؤلمه. التفت الحسن نحوه.

ـ أسمعني صاحباك أشياء لا تصدق. لقد تركتهما مساء الأمس، مثلك، في هذه الغرفة الصغيرة. والآن يريدان إيهامي أنهما لم يمضيا الليل في هذا المكان، وإنما سافرا مباشرة إلى العالم الآخر. أنت يا من تحتفظ دوماً برباطة جأشك وتحسن التفكير، اعفيني من أمر صديقهما. وإلا فقد يتملكني الخوف من مجاورة هذا المكان الذي تستطيع فيه أشباح الليل في كل حين أن تمسك بأيديكم وتصحبكم إلى مكان لا يعلمه إلا الله!

ـ أعلم أنك تمزح يا سيدنا. أنت تعلم جيداً من دبر رحلتنا الليلية... وتريد اليوم أن تضعنا موضع اختبار.

ـ أأنت أيضاً، يا ابن طاهر، تجزم بأنك لم تمضِ الليل في هذا المكان الذي نحن فيه؟ وبعبارة أخرى، أنك لا تتحدث عن تخيلات تؤكد حدوثها... وإنما تقصد أن بيدي حقيقة مفتاح الجنة؟

ـ عفوك ياسيدنا. ما من شك سيتسلل إلى قلبي بعد الآن أبداً.

ـ حسناً. لكني أحب أن أعرف، يا أصدقائي، ما الذي يمكن أن تقولوه لرفاقكم حينما يسألونكم عن المكان الذي قضيتم فيه الليل؟

ـ سنقول الحقيقة: كنا في الجنة بفضل سيدنا. وهذا كل شيء.

ـ فليكن... إن كان يستطيع إيمانكم أن يظل راسخاً لا يتزعزع. لعلي من اليوم فصاعداً أحتاج إلى إيمانكم: وليكن هذا الإيمان من ذاك النوع الذي يقال عنه إنه يحرك الجبال من موضعها! اذهبوا الآن لتلحقوا بصفوفكم.

نادى الحارس وأمره بأخذهم إلى أسفل البرج.

وبعد أن بقي وحده برفقة الداعيين الكبيرين، استطاع أن يعبر عن ارتياحه أخيراً.

ـ كل شيء جرى حسبما توقعت له.

هرول أبو علي نحوه، ويداه ممدودتان.

ـ أحلف بحياتي، صاح. أنك عثرت على مبدأ أرخميدس. وتعانق الاثنان.

ـ إلى آخر لحظة، كان الشك يساورني في تحقيق النجاح، اعترف بوزروك أوميد. والآن أظن أنك حقاً نجحت في تغيير الطبيعة البشرية. لقد اصطنعت سلاحاً رهيباً من هؤلاء الحشاشين!

ـ انتهى الفصل الثالث... تنهد الحسن. ويمكن أن يعنون على هذا النحو: الاستيقاظ... أو العودة من جنان الوهم...

كانت دعوة رفاقهم الثلاثة للمثول بين يدي القائد الأعلى، وفوق هذا غيابهم حتى ساعة متأخرة من الليل، قد أضرمت لدى الفدائيين نار الظنون والنقاش. لم يغمض لهم جفن، مجتمعين في مهجعهم، تائهين

في تخيلات مجنونة، بانتظار عودة المصطفين السعداء، متحرقين لسماع قصصهم.

ـ أخيراً سنعرف شيئاً ما عن سيدنا! استبق عبيدة الأمر مهنئاً نفسه.

ـ لم استدعاهم برأيكم؟ سأل نعيم قلقاً.

ـ لم؟ ربما ليوبخهم على استيلائهم على راية الأتراك...

ـ لم أوجه السؤال إليك: إني أبحث عن رأي عقل سديد.

ـ أرجو ألا تعتقد أنه سيأخذهم إلى الجنة؟ قال عبد الله مستهزئاً، من الواضح أنه دعاهم ليكافئهم... وعلى الأغلب لكي يدعوهم إلى وليمة تضم القادة. فرد جعفر وهو يفكر:

ـ ربما تكون على حق.

ـ لكن لم استغرقوا كل هذا الوقت للعودة. قال عبيدة مندهشاً. ليس بمستبعد أن يكون قد عهد إليهم بمهمة مشرفة... وربما هم غادروا القصر الآن.

ـ ما جدوى نقاش لا طائل منه؟ حسم عبد الرحمن الجدال. ما داموا لم يعودوا ولم يقصوا علينا هم أنفسهم إلى أين ذهبوا وما شاهدوا، فليس بوسعنا التكهن بشيء. ولذا من الأفضل أن ننام... فلا شيء يضاهي عندي هناء راحة نحن بأمس الحاجة إليها...

استيقظوا في صباح الغد الباكر، وظهر أمامهم فجأة الغائبون الثلاثة. اندفع الجميع لملاقاتهم، وأحاطوا بهم وهم يمطرونهم بوابل من الأسئلة. فاقترح عليهم سليمان:

ـ لنذهب أولاً إلى المهجع. وهناك نستطيع الكلام. إني جائع وأطرافي مسحوقة كما لو أنها دقت بهاون. أشعر وكأن قدماي لم تعودا تحملاني.

ما أن عادوا إلى عنبر نومهم، حتى ارتمى الأصدقاء الثلاثة على أسرّتهم. وأُحضر لهم الحليب والخبز. واستعلم سليمان:

ـ من سيتكلم أولاً؟

- أنت ابدأ، أجابه يوسف. فقد نفد صبري، وقد لا أستطيع الاستمرار إلى نهاية الحديث... ثم إني إن رأيت أحداً يتجرأ على تكذيبي، فسيصيبني الحنق... وسيكون ذلك أمراً آخر أيضاً.

كان الجميع متحلقين حول الأسرة الثلاثة.

- أتؤمنون بالمعجزات؟ استهل سليمان كلامه.

نظر الفدائيون في أوجه بعضهم بعضاً.

- أجل نؤمن بمعجزات الأزمان البائدة. قال نعيم. فالنبي محمد نهانا عن الاعتقاد فيما سواها.

- اسمعوا ماذا يقول هذا بلسان الأفعى الذي في فمه! ماذا يعلمنا إذن سيدنا؟

- إني أجهل ما قاله بخصوص المعجزات.

لقد جعلت لهجة سليمان نعيم حذراً.

- ألم تتعلم أن الله سلم سيدنا المفتاح الذي يفتح بوابة الفردوس؟

وتسمر الجميع وسط صمت مطبق. جال سليمان بنظره من وجه لآخر ظافراً. وبعد أن تلذذ برؤية فضولهم، نطق بهذه الكلمات:

- أيها الفدائيون، في الليلة الماضية، منّ علينا سيدنا بفتح هذا الباب

تبادلوا النظرات دون كلمة، ثم إذا بعبيدة يضحك ضحكاً صاخباً، وسرعان ما قلده الآخرون جميعاً. لكن مسافري الليل الثلاثة وحدهم ظلوا على ناصية الجد.

- لقد تمالؤوا على خداعنا، قال عبد الرحمن متهكماً.

- إن سليمان وكعادته القديمة يسخر منا، أضاف نعيم.

أما ابن وقاص فقد برطم بازدراء:

- دعوهم وشأنهم. لقد سكروا، أجل، وهجعوا بعد شربهم الخمر في أحد الإسطبلات. هذا ظاهر على وجوههم. لا شك أنهم يأملون بتناسي عارهم باللجوء إلى مثل هذا المزاح الظريف...

- عرفت أن هذا سيحدث، قال سليمان حانقاً. قل لهم أنت يا ابن طاهر إنهم سيصدقونك.

- كفى مزاحاً، قال عبيدة بغضب. أريد أنا أن أعلم إن كنتم رأيتم سيدنا.

تكلم ابن طاهر حينئذ قائلاً:

- اسمعوا، يا أصدقائي... أعترف أن من الصعوبة بمكان الكلام عن أشياء بعيدة عن التصديق مثل التي عشناها تلك الليلة. أنا أتفهم تماماً سخريتكم منا. إلا أن كل ما قاله سليمان منذ قليل لهو عين الحقيقة. لذا فأنا أرجوكم أن تصبروا وتسمعوا. دعوه يتابع حديثه...

كانت أمارات الجد مرتسمة على وجهه ولم يكن في نبرة صوته شيء يوحي بالدعابة. لكن رغم كل شيء، أليس هذا كله مجرد تمثيلية هزلية أُخرجت بذكاء؟

- قد أتهم أبي نفسه بالكذب، إن خطر بباله أن يروي لي شيئاً شنيعاً كهذا، قال جعفر. بيد أني أستغرب أنك أنت يا ابن طاهر تتهاون في السخرية منا بتهريج كهذا. لكن ليقص علينا سليمان قصته... فسنسمع على الأقل الأكذوبة الحلوة التي هيأتموها لنا.

رفع سليمان مجدداً رأسه، وتصفح بنظراته من حوله وأخذ يروي لهم بالتفصيل ومنذ البداية: كيف ارتقوا بعناء درج البرج... لقاءهم بالعملاق المسلح الذي يقوم بالحراسة... وأبو علي حينما قادهم ليمثلوا بين يدي سيدنا... لم يكن يسهو عن تفصيل ما، حتى يقاطعه يوسف. وهكذا استمع الفتية للمحادثة الغريبة بأدق تفاصيلها والتي أجراها الأصدقاء الثلاثة مع القائد الأعلى. وأصغوا إلى تتمة القصة بفضول بدا جلياً عليهم أكثر فأكثر، وكانت مداخلات يوسف تؤكد على نحو عفوي صحة هذه القصة التي لا يمكن تصديقها. ولما وصل سليمان في حديثه إلى اللحظة التي أمر فيها سيدنا الفتية بدخول الغرفة الضيقة ذات الأسرة الثلاثة، حتى حبس المستمعون أنفاسهم، وتسمرت عيونهم على شفاه الراوي.

كان ابن طاهر يصغي هو أيضاً بانتباه كبير. وبحركة عفوية، وضع يده على صدره مجدداً، وشعر بالأثر الذي خلفته أسنان مريم. كيف يمكنه أن ينظر بعين التفاهة إلى ذكرى مغامرته الليلية، التي تؤكدها هذه الشهادة الأكيدة، التي جعلت قلبه يخفق بجنون؟ وانبعث

في نفسه إيمان جديد كل الجدة: إيمان يتعالى بكبرياء عن الأخذ بدلائل التجربة والعقل.

قص عليهم سليمان بعدئذ كيف وزع عليهم سيدنا تلك الأقراص العجيبة التي منحتهم الشعور بالتحليق فوق بلاد مجهولة. وروى عليهم ما الذي حلم به قبل أن يفقد وعيه تماماً... ثم تحدث عن استيقاظه في الجنة. كانت أعين الفدائيين تلمع، والانفعال صبغ وجوههم، كانوا مهتاجين من شدة التلهف. وتابع الفتى قصته: ما شاهد حينما فتح عينيه. وصفه الدقيق لأعاجيب المقصورة البللورية. وأخيراً حديثه عن الصبايا...

ـ قد لا يكون ذلك كله غير حلم حلمت به... زلق عبيدة بتلك الملاحظة عبر شفتين متغضنتين.

ومن النظرات التي ما فتيء الفدائيون يتبادلونها، بدا إلى أي حد كانت تعذبهم الصور المتزاحمة في رؤوسهم. أما نعيم الصغير، فقد قرفص بالقرب من وسادة ابن طاهر، ساقاه منثنيتان تحته باضطراب محموم، ووجهه أشبه بوجه صبي شاحب روعته حكاية أشباح.

وتابع سليمان:

ـ كل ما رأيته في تلك الغرفة، كان بلا ريب حقيقياً كوجودكم هنا حولي. من المستحيل تخيل مشهد بمثل تلك الأبهة: كل شيء، في ذلك المكان، كان من الذهب والفضة. والأسرة مغطاة بسجاد أنعم من طحلب الغابات... والأرائك الطرية تُشعر المرء أنه يذوب فيها... مآكل لها طعم سماوي معروضة بوفرة لا نظير لها... وخمرة لذيذة تجلب الصفاء ولاتضيع العقل. باختصار، هناك كل ما جرى وصفه في القرآن. والحوريات يا أطفالي! بشرة كبياض الحليب ونعومة المخمل، وعيون واسعة نقية صافية، ويا للنهود...! الله! يفور دمي من تلك الذكرى وحدها...

ولم يستثنِ تفصيلاً من تفاصيل خبراته الغرامية.

ـ آه! لو كان بمقدوري أن أكون هناك! صاح عبيدة، وقد عجز عن احتواء صرخة قلبه تلك.

ـ لو أنك لمست واحدة منهن، لكنت انتزعت أحشاءك بيدي. وومضت عينا سليمان بوميض الجنون.

تراجع عبيدة إلى الوراء. كان يعرف صديقه: الأفضل ألا يمزح معه. لكنه لم يسبق له أن رآه على تلك الحال قط: لا بد أن تغيراً غامضاً، أشبه بتهديد، قد حدث في داخله تلك الليلة.

ـ تلك الحوريات لي أنا! أتفهمون؟ إنهن لي اليوم... وعلى الدوام! ولن أتخلى عن واحدة منهن، ولو دفعت حياتي ثمناً لهن. آه! يا غزالاتي الصغيرات!... يا منبع فرحي، ويا نبع سعادة لن تتخيلوها يوماً... لا أحد منكم له حق اشتهاء واحدة منهن. لقد أعدهن الله لي!... وأتحرق تلهفاً إذ أفكر أنهن سيكن ذات يوم من ممتلكاتي... وإلى الأبد...

لا شك أن سليمان أصبح رجلاً آخر. كان الجميع ينظرون إليه بدهشة مشوبة بالحذر، وحتى بظل خوف.

قد يكون يوسف وحده الذي لم يلاحظ الهياج الكئيب الذي استولى على صاحبه؛ أو ربما كان ذاك الهياج الذي رآه طبيعياً، كان يشعر به بتحير هو أيضاً، إذ أن التحول ذاته قد حدث فيه. ومع ذلك، ولدى سماعه إسهاب سليمان في سرد بطولاته الغرامية، طفح به الكيل قائلاً:

ـ ربما تريد أن توهمنا أنك في تلك الليلة وحدها جعلت من أولئك الحوريات زوجات لك!

ـ ولم أكذب؟ ألم تفعل أنت كذلك مثلي؟

ـ إن سليمان، وحتى في الأمور الجدية، لا يملك أن يمنع نفسه من المبالغة، ضحك يوسف مستهزئاً، دون أن يعبأ بإثارة غضبه:

ـ أمسك لسانك! أنا لا أقول أكثر مما يقوله القرآن!

ودوت عاصفة من الضحك وعض سليمان شفتيه.

ـ إن زوجاتي على أية حال لم يترددن في تأليف أشعار تشيد بمآثري. وربما ستؤكدون أن للحوريات هن أيضاً لسان كاذب...

ـ فلتنشدها علينا إذن!

حاول أن يستجمع ذاكرته؛ لكن لسانه ما لبث أن تلعثم. قهقه

يوسف وهو يصفع صفعات قوية ركبتيه، وسرعان ما قلده الآخرون في ضحكه الصاخب. وثب سليمان آنئذ مثل سهم من فوق سرير ابن طاهر وأطار قبضته لتصيب كامل وجه يوسف الذي وضع يده عفوياً على المكان الذي تلقى الضربة. حملق فيه، ثم نهض ببطء، والدم قد صعد إلى وجنتيه.

ـ ماذا! أأسكت عن هذه الفرس التي تضربني وسط وجهي؟

وبسرعة البرق، دفع يوسف سليمان حاشراً إياه في الحائط المقابل، حيث قعقعت السيوف المعلقة عليه. استل سليمان واحداً منها وحدج خصمه بعينين محتقنتين.

ـ الآن، يا ابن الكلب! قتال حتى الموت.

امتقع وجه يوسف، وخمد غضبه في الحال. لكن وقبل أن تبدر من سليمان أية حركة، ألقى ابن طاهر بنفسه عليه وأمسك بذراعه. سارع جعفر وابن وقاص والآخرون لمساعدته وجردوا الفتى المسعور من سلاحه...

ـ أجننت؟ تلك الليلة في الجنة بفضل من سيدنا... واليوم مذبحة بين الأصدقاء!... وأنت أيضاً يا يوسف، ما الذي أصابك؟... لم قاطعت روايته؟ دعه يكملها على هواه، فنحن لم نخلق جميعنا من طينة واحدة وكل امرئ يوجه دفته كما يشاء.

ـ إن ابن طاهر على صواب، أيده جعفر، لندع سليمان ينهِ حديثه، وبعدئذ سيأتي دور يوسف ثم دور ابن طاهر.

ترجى الجميع سليمان أن يتابع قصته. كتّف يوسف بعناد ذراعيه محملقاً في السقف. رمقه سليمان بنظرة هازئة، ثم أكمل رواية حكايته.

من الغرابة بمكان، أن أياً من الفدائيين لم تعد الشكوك تساوره حول ذهاب ثلاثتهم إلى الفردوس. كانوا يلقون أسئلة لا تحصى حول تفاصيل المكان، وماهي إلا برهة قصيرة حتى أحاطوا بكل شيء عن تنظيم تلك الجنان السماوية... والصبايا اللواتي يسكنها. كان الجميع يحلم بالحوريات الحسان، وانتقى كل قلب من ضروب الجمال ما وصف له بكثير من المحاباة.

ـ وهل استيقظت أنت في الغرفة الضيقة نفسها التي نمت فيها مساء أول أمس؟

كان نعيم ماهراً في طرح الأسئلة البسيطة.

ـ أجل. وكل شيء كان كما في المساء السابق. باستثناء أني كنت أشعر تحت صداري بالسوار الذي عهدت به حليمة إلي.

ـ ولم أخذه سيدنا منك؟

ـ ربما خشي أن أضيعه. لكنه وعدني بإعادته إلي في المرة القادمة التي سيرسلني فيها إلى السماء.

ـ ومتى ستذهب إلى هناك؟

ـ لا أدري، لكن أسأل الله أن يكون ذلك قريباً.

وجاء دور يوسف ليقص مغامرته.

لقد أطلع الفدائيون الآن على بداية ونهاية المغامرة. فكان عليه أن يقتصر على رواية إقامته في المقصورة العجيبة. وشغفوا بما قصه عن الأغاني والرقص خاصة. وتأججت عواطفه حينما تحدث عن لطف سليقة... جمالها، وحركات رقصها الخليعة، وأطال في سرد محاسنها. كان ذلك شهادة بيّنة بأن قلبه أضحى أسيراً. وأسف لبادرة الرغبة التي أظهرها في لمحة خاطفة نحو جادا، ولم يتردد في المبالغة بعض الشيء، حتى دون أن يتأكد من الاخلاص الذي أبداه لخليلة قلبه الوحيدة.

ـ إنها وحدها زوجتي، قال جازماً. والأخريات ما هن إلا تابعات خصصن لخدمتي، ورغم أنهن يتميزن جميعاً بدماثة بالغة. لكن ما من واحدة منهن تضاهيها جمالاً.

كان سليمان الراوي الأفضل. فقصة يوسف لم تستهوِ السامعين إلا قليلاً. ولم يتوصل إلى حبس أنفاس الفدائيين إلا مرة واحدة: وذلك حينما ذكر نزهته في الجنان ذات الأنوار الغامضة. الأمر الذي لم يشهده سليمان... الذي حَزِن لاستسلامه لسحر عجائب المقصورة بحيث لم يخطر على باله أن يلقي نظرة خاطفة على الخارج.

كانت رواية ابن طاهر أقصر الروايات. حكى كيف استقبلته مريم.

ورافقته في الجنان وأرته سور الأعراف، الذي كان يهيم على قمته ظل رجل: إنه بطل من الأبطال، سقط في الماضي في سبيل الإسلام، لكنه خالف مشيئة أبويه... وأسر لهم ابن طاهر ببساطة أن مريم أكثر تبصراً من الداعي ابراهيم. وروى لهم عن الشك الذي راوده لبرهة قصيرة، وكيف أن ما يشبه القط الكبير ويسمى بأهريمان قد أوقعه أرضاً. لقد كان ذاك الحيوان والأعراف وظل الأبطال الغابرين... أموراً أثارت فعلاً فضول الفدائيين؛ لكن من المؤكد أن ابن طاهر لم يكن ثرثاراً في ذلك الصباح.

ـ دعونا نرتاح، قال ابن طاهر أخيراً. وعما قريب، ستسأمون من سماعنا، وستعرفون مثلما نعرف.

فالتفت الفدائيون بأبصارهم نحو يوسف وسليمان اللذين كانا أقل شحاً في السرد... وما هي إلا هنيهة قصيرة، حتى أصبح أبطالنا الثلاث في عيون رفاقهم مثل ملوك فارس الذين ما كانوا ليترددوا في مقارنة أنفسهم بالآلهة.

لم يغمض لأباما جفن طيلة الليل. وقد بعثت الظلمة من جديد أشباح ماضيها، وأيامها العظيمة، وليالي صباها الرائعة. تذكرت كل شيء بدقة مرعبة. وقاست عذابات الجحيم. لم تستطع احتمال أنها شغلت يوماً المرتبة الأولى، وعليها الآن أن تواجه مشهد انحطاطها الذي لا ينتهي. لتتربع أخريات على عرش الحب.

نهضت مع أول خيوط الشمس وهي تذهّب قمم البورز. كانت سيماء الذهول بادية عليها، بشرتها كالحة، وشعرها أشعث، تأملت حزينة الأفق عبر الأغصان المتشابكة التي امتدت فوق مدخل بيتها الصغير. وأمامها هناك، كانت تشمخ آلموت، التي أوصدت في وجهها للأبد طريق العودة إلى العالم. لكن ماذا يمكن أن تفعل في ذاك العالم، وهي اليوم عجوز ذابلة؟ الحمد لله، أن الحسن أنقذها من الشقاء ونشلها من النسيان! فلديها هنا مملكتها. لا شك أن لملكها طعم مرّ، فهو ما فتئ يذكرها بأيامها الخوالي. لكن عظمة مرّة لإبليس خير من تحلل بطيء فوق إحدى المزابل.

كانت في لياليها المسكونة بالحسرات تسأل نفسها عن الدور الذي لعبه الحسن في حياتها. فمنذ سنوات طويلة ماضية، كان هنالك شاب عاشق تراوده الأحلام والنبوءات. واستطاع الزمن ورجال أكثر تميزاً أن يطمسوه تقريباً من ذاكرتها. وربما كان من الممكن أن تنسى حتى اسمه، لولا تدخله المستمر في اضطرابات الزمان وفي النزاعات الدينية الكثيرة. ومنذ عامين تقريباً، وهي آنئذ تلامس حضيض البؤس، إذا بمجهول يجيء إليها على حين غرة برسالة منه. قال لها فيها إنه اليوم سيد قلعة شهيرة وأنه يتمنى أن تأتي إلى هناك فهو بحاجة إليها. ولما لم يكن لديها ما تخسره؛ فقد بتت بأمرها على الفور. وتسللت إلى قلبها رغماً عنها آمال غامضة مبهمة. إنها الآن ترى الحسن في قمة مجده. فيما مضى كانت شريكة له، واليوم انقلبت الأدوار. هل أحبته؟ لاتدري. لقد أدركت بعد سنوات طويلة كم يحزّ في نفس امرأة أن تعيش في جوار رجل أحبها في السابق حباً مضطرماً واليوم لا يعبأ بها إلا قليلاً، حتى أنه لا يحاول أن يواري عنها ولعه بأخرى.

خرجت من بيتها، وآلاف العصافير تزقزق في الأدغال. وفوق العشب وعلى الأوراق يلمع الندى، ويرصع تويجات الأزهار. كانت صبيحة صيفية رائعة، الأمر الذي أذكى عذابها. نفضت عن نفسها أفكارها الحزينة، وغسلت وجهها من دلو ماء، ومشطت دون اعتناء خصلات شعرها الحرون، واستبد بها الغضب لما رأت أنها لا تستطيع أن تمحو على نحو أفضل آثار ليلتها السيئة. ثم اتجهت صوب جناح قريب حيث كان الخصيان نائمين. سمعت غطيطهم العالي عبر الباب المنفرج. فكان هذا النوم القرير، اللامبالي، الشرر الذي أشعل غيظها. صاحت فيهم أن النهار أضحى، وأن الوقت حان ليبدؤوا العمل.

ـ ياللساحرة الملعونة!

قال مصطفى حانقاً؛ وضحك عدي.

ـ مومس عجوز جُلبت من بين النفايات.

فتحت الباب الضخم مهتاجة، وإذا بخف يطير في الهواء، ويمس رأسها. تراجعت في وثبة إلى الوراء.

ـ انتظروا، أيها الكلاب! سيمزق سيدنا السياط على ظهوركم...

ورج ضحك مدوٍّ المنزل.

ـ إلى زوارقكم، أيتها الحيوانات! لا تنسوا أن عليكم إعادة البنات إلى منازلهن... وبسرعة من فضلكم، حتى لا يفاجئهن سيدنا وهن على تلك الحال.

نهضوا وهم يتثاءبون، لبسوا على عجل وكيفما كان صداراتهم الملونة وخرجوا على مهل.. وتعمدوا ألا تقع عيونهم على العجوز الحقيرة ـ ومع ذلك، لا تعلم هي ولا هم، من أين جاءت تلك الكراهية المتبادلة ـ اتجهوا نحو ضفة القناة حيث أصلحوا قليلاً من شأنهم، ثم صعدوا جميعاً الزوارق التي سرعان ما أصبحت وسط التيار. كانت أباما قد اتخذت مكانها بالقرب من عدي، وحاول الآخرون ما بوسعهم رشها بالماء.

ـ انتظروا قليلاً، أيها الأوغاد! إن من يضحك آخراً يضحك كثيراً! والله أعلم لم أراد أن تنزع عنكم رجولتكم... حذارِ ألا أقص لك ما بقي لديك فتصبح صبية.

أدار عدي بطريقة خطرة القارب وسر رفاقه سروراً عظيماً لرؤيتهم العجوز تتشبث بحافة الزورق مخافة أن تقع في الماء. وبلغوا أخيراً الجزيرة التي تنام فيها فاطمة ومجموعتها الصغيرة. قفزت أباما إلى اليابسة وسارت في الدرب المؤدي إلى المقصورة. كانت الطبيعة آنئذ قد استيقظت تماماً والشمس تداعب أعالي المنحدرات.

نظرت عبر زجاج القاعة. كانت الفتيات، مسترخيات دون حياء، وسط فوضى عمت الوسائد، وهن في نوم عميق. وثبت أباما تستشيط غضباً إلى المدخل، وأمسكت مطرقة الصنج وضربت القرص المعدني مسعورة. وفي الحال هبت الفتيات المذعورات واقفات.

ـ أيتها العاهرات! تزنين طيلة الليل وتنمن حتى ساعة متأخرة من النهار. بسرعة إلى القارب ومن ثم إلى المنزل!... حتى لا يفاجئكن سيدنا وأنتن على هذه الحال!

تدثرن بأرديتهن وهرولن نحو القناة. كن يغالبن النعاس ودوار

يلف رؤوسهن من المعزوفة الصاخبة التي كانت بمثابة بوق الإيقاظ. الوجوه شاحبة، والشعور هائجة، وهن يتزاحمن داخل الزوارق. وأقبلت مريم لملاقاتهن على ضفة الجزيرة المجاورة. كان لديها متسع من الوقت لتتزين وتضع أحمرالشفاه، لكن بدا واضحاً أنها أمضت ليلة رديئة. وتلاقت نظراتها مع نظرات أباما، وبدا لها أنها اكتشفت في تلك النظرات وللمرة الأولى تواطؤاً خفياً.

رافقت المرأة العجوز الخصيان في زيارتهم للمقصورات المجاورة، حيث انتزعت النائمات، هناك أيضاً، على عجل من أسرتهن. وقالت أباما لما أبصرت مريم تنتظرها على حافة النهر:

ـ ألم تنامي؟

ـ لا. وأنت؟

ـ وأنا كذلك.

ـ لا مراء، أن حياتنا غريبة جداً...

كانت تريد القول أنها حياة مرعبة. لكن أباما فهمت.

انهمكت سليقة وصاحباتها فيما بينهن في إصلاح ما أفسده الليل. وأسرعن في العودة، وعند موعد صلاة العصر كان كل شيء قد عاد إلى نظامه المعهود. وعاودت الحياة مسارها.

فاجأهن الحسن بقدومه أثناء فترة العصر. كان يريد أن يستعلم منهن بالذات كيف سارت أمور الليلة. أجبن على أسئلته بصوت مرتعش. وعلى حين غرة أخرج من جيب صداره سواراً ذهبياً، أراه لهن وسأل:

ـ من منكن كانت تضع هذه الحلية؟

تعرفت حليمة في الحال على سوارها، وكادت أن يغمى عليها من الذعر. لم تكن قادرة على النطق بأية كلمة. ومع ذلك فالفتيات الأخريات لم تكن حالهن أفضل منها. نقلت مريم نظراتها من وجه إلى آخر؛ وما إن حطت عيناها على حليمة، حتى فهمت كل شيء. نظرت إلى الحسن في استرحام صامت واطمأنت بعض الشيء لما لمحت بريق مكر يتراقص على شفتيه.

ـ إذن، هذا السوار لا يخص أحداً منكن! وهذا يعني أن الفدائي قد كذب علي...

حدج حليمة بنظرة ثاقبة. فتدحرجت دموع كبيرة على وجنتي الصبية وأخذ فكها يرتعش. تخيلت رأسها على النُطع وأحست ببرودة النصل المشرّع فوق عنقها.

ـ هذا تصرف سيء، يا عزيزتي حليمة. أتعلمين ما ينبغي علي أن أفعل برأسك الأحمق؟ وسأفعل ما ينبغي دون شفقة إن اكتشف الفتى سرنا بسبب غلطتك. سأهب لك حياتك هذه المرة، لكن في المرة المقبلة، لن يفلت رأسك من الفأس.

وأعاد السوار إلى داخل صداره.

أشارت مريم إلى حليمة، فارتمت على قدمي الحسن مسرورة. تمنت أن تشكره، لكن الكلمات انحبست في فيها. فاكتفت بتقبيل يده. ثم صرفهن الحسن قائلاً لهن:

ـ أرغب أن تبذلن جهداً أكبر في المستقبل. لقد اكتسبتن في تلك الليلة خبرة ستستخدمنها أيضاً للغايات نفسها. كن مستعدات ليل نهار!

حياهن وأشار إلى مريم لتتبعه.

ـ انتظريني هذا المساء. لدي أشياء عديدة أريد أن أقولها لك.

ـ كما تشاء، أجابت ـ كانت تلك المرة الأولى التي لا يحمل موعد معه أي فرح إلى قلبها.

حينما أقبل المساء، تحلقت الفتيات حول البركة، وتناول الحديث أحداث الليلة الماضية، ومقارنة مزايا مختلف الحدائق... كانت حليمة تجلس على انفراد مصغية دون أن تتلفظ بكلمة. وللمرة الأولى، شعرت برغبة حقيقية في أن تكون وحدها. كان في قلبها سر كبير تخفيه، ولا أحد يعلمه. ولم تجازف في البوح به لأحد كائناً من يكون. لقد أحبت سليمان، أحبته بجنون. وسؤال واحد كان يعذب روحها، لكنها لم تجرؤ على طرحه. وبعد حين من الوقت، توجهت إلى فاطمة:

ـ هنالك أمر لم أفهمه. هل الزوار هم أنفسهم سيأتون في المرة القادمة؟

نظرت إليها فاطمة وفهمت كل شيء في الحال. واعتصرت الشفقة قلبها، فكان أن أجابتها قائلة:

ـ هذا أمر لا يعرفه أحد، يا طفلتي الغالية.

نظرت حليمة إليها نظرة حائرة. وخطر ببالها فجأة أن فاطمة حزرت ما يدور في نفسها. هل يمكن ألا ترى سليمان ثانية؟ وأقضت شكوك مضجعها طيلة الليل ولم يغمض لها جفن. أليس العبء الذي عليها أن تحمله ثقيلاً بالنسبة إليها؟ لكن ومن وجهة أخرى، ألم يحن الوقت لكي تتجاوز طفولتها؟...

في نفس النهار، انتشر الخبر في جميع أرجاء القلعة: لقد فتح الحسن باب الجنة لثلاثة فدائيين، ليقضوا ليلة واحدة. وتمنى أبو سراقة أن يستفهم حول هذا الموضوع المعنيين أنفسهم. ووجدهم نائمين. لكن رفاقهم نقلوا إليه ما كانوا قد سمعوه من أفواههم. كان جبين الرجل الطيب يتصبب عرقاً، وذهب في الحال إلى أبي علي وأبلغه بما قصه الفدائيون على كل من يريد السماع. ابتسم الرجل الآخر ابتسامة متفهمة، ولم ينطق إلا بهذه الملاحظة:

ـ إن قالوا ذلك، فهذا يعني أنهم يؤمنون به. وإن كانوا يؤمنون به، فهذا يعني أنه صحيح. فما حاجتهم إلى تزوير الحقيقة؟

وافقه أبو سراقة وإمارات الذعر على وجهه وانطلق إلى الطبيب لينقل إليه الخبر وليسمع منه الرأي.

ـ يبدو لي أن الحسن قد اختلق هذه الخ يعة ليسيطر علينا، قال له، لكن كيف استطاع أن يدفع كل أولئك الشبان، الذين هم على جانب كبير من الإخلاص وحب الحقيقة، إلى الكذب على هذا النحو الشنيع؟

ـ أخشى أن يكون وراء هذه المسألة شيء ما أكثر خطورة، نبهه اليوناني، أتتذكر محادثتنا بخصوص حريم المناطق الخلفية للقصر؟ ربما يكون قد هيأه لأولئك الفتية؟...

ـ لكن لمَ لم يطلعنا نحن أيضاً على السر؟ فحري به أن يعرف أننا كلما قل اطلاعنا على الأمور، كلما ازدادت ظنوننا.

ـ أتريد نصيحة قيمة أيها الداعي المبجّل؟ دع كل التخمينات هنا، وانس ما سمعت. وإلا فأنا لا أعلم إن كنت ستظل حياً. فالأمر ليس مزاحاً مع القائد، وليس هو كذلك بالتأكيد مع هؤلاء الفتية المتحمسين.

لقد شاهدت أشياء كثيرة. لكن لدى ابن الصباح سر لا يفهمه عقلي ولا خبرتي.

وبنفس مضطربة عاد أبو سراقة إلى واجباته: فالمغامرة الليلية الغريبة للفدائيين الثلاثة استولت على عقله بعناد الهاجس.

لكن الداعي ابراهيم استقبل الخبر على نحو مختلف. في البداية اندهش مثل الآخرين، ثم توضحت الأشياء في ذهنه وكان رأيه هو الآتي:

«إن سيدنا يعرف ما يفعل، ونحن في خدمته. وهو إن لم يطلعنا على ما حدث، فهذا بالتأكيد لأسباب وجيهة».

بيد أن الثكنات كانت الأمكنة التي جرى فيها تداول المسألة بأعلى درجة من الحماس. فقد أصغى العرفاء والجند المكلّفون بخدمة مائدة الفدائيين إلى حديثهم، ورووا خبر تلك الأعجوبة التي لا سابق لها ـ وما يبعث على الدهشة أن غالبية الذين سمعوا تلك الحكاية من فم الفتية أنفسهم، كانوا مقتنعين بأن زيارة الثلاثة إلى الجنان الشهيرة ما هي إلا معجزة لا أكثر ولا أقل... وسرعان ما شاركهم الجنود أجمعين في وجهة النظر تلك.

ـ لا بد أن سيدنا نبي عظيم، حتى أعطاه الله سلطة كتلك! سرى هذا التهامس كتعقيب وحيد على النبأ.

ـ وماذا لو أن الفدائيين لفقوا كل هذا؟ كان أحياناً يسأل متشكك هنا أو هناك قلقاً.

ـ ذاك مستبعد، يجيب جازماً في كل مرة أحد الذين أصغوا لحديث الأبطال عن تلك المغامرة التي لا تصدق. لقد بهر سحر حكاية الفتية الثلاثة الجميع.

ثم يضيف رجل آخر:

ـ على أية حال، هذا أفضل برهان على أن الحركة الإسماعيلية تمثل وحدها الدين الصحيح. وليس غير المارق من يستطيع ـ رغم كل تلك المعجزات ـ أن يظل يشكك في رسالة سيدنا!

ومن المؤكد أن تتخذ بقية الآراء المنحى ذاته...

ـ من اليوم فصاعداً، لن يستثني سيفي واحداً من المهرطقين. ومن لا يقر علانية بأن سيدنا نبي عظيم، سأشطره إلى نصفين!

ـ أجل، ستكون مواجهة أولئك الكلاب الهراطقة مبعث فرح لنا! يجب أن يهلكوا جميعاً بحد سيوفنا.

أما الأمير مينوتشهر فقد لفت نظره أصداء إحدى تلك المحادثات. أصغى لبرهة صامتاً. ثم طلب سماع القصة من بدايتها إلى نهايتها. كان الجنود يراقبونه في فضول. لكن لم تتحرك أصغر عضلة في وجهه. ولما أدرك أنهم في انتظار تعليق منه، اكتفى بالقول:

ـ إن كان الفدائيون يؤكدون أنهم ذهبوا إلى الفردوس بفضل القائد الأعلى وهو لا يكذب في هذا، فمن واجبنا أن نصدق الأمر وأن نتصرف كما يقتضي.

لكن مينوتشهر عاد إلى مسكنه مهموم البال. لقد دهش هو أيضاً لعدم إطلاع القائد له على سر خطته. وما أقلقه أكثر، ذلك الحماس المتوحش الذي أبصره في جنده. كان واثقاً أن وراء هذا الأمر خديعة ما، وإن كان غير قادر على تحديد طبيعة ذلك الخداع بالضبط. لكنه شعر بأن جنوده الأعزاء المحنكين لا ينتظرون إلا إشارة واحدة ليتحولوا إلى فرقة متعصبة مستعدة لكل أشكال العنف، وقد لا يظل هو نفسه قائدها الحقيقي، وإنما تلك السلطة الخفية التي ستتلقى أوامرها منها مباشرة والمتمثلة بالقائد الديني بالذات. ماذا بقي أمامه أن يفعل غير أن يتكيف بدوره مع هذا التيار الذي لا يقاوم؟ لقد سماه الحسن أميراً وهذا التميز يحمل صبغة دينية، وصبغة عسكرية لا تقل عنها. وما زال من الأفضل أن يتحلى بالصبر في انتظار ما ستسفر عنه الأمور من تلقائها. لكن، ومهما يكن الأمر، ألم يكن هو أحد الدواليب الصغيرة في هذه المكيدة التي دبرها الحسن؟ ترى هل كان بوسعه منذ تلك الأيام الماضية أن يفلت من الدور الذي أعد له في الخفاء.

لم يتوقف الفدائيون طيلة النهار والمساء وحتى ساعات متقدمة

من الليل عن الخوض في تعليقات ليس لها آخر، حول مغامرة رفاقهم الثلاثة. تفحصوا بدقة كل شاردة وواردة في قصتهم ولم يتوانوا عن إثارة سحابة أسئلة واعتراضات عند كل عبارة.

ـ هل كان أهريمان هو اسم الحيوان الذي قفز عليك؟ سأل نعيم ابن طاهر. من الواضح أنه يتعلق بإحدى تلك الأرواح المروضة التي طردها النبي من دومافند، والتي كان عليها كجزاء منذ ذلك اليوم أن تخدم حورياتك.

ـ هذا وارد جداً. لكن ما يحزنني أني لم أنجح في معرفة أمور أكثر عنه. إذ كان هنالك الكثير من الأشياء العجيبة التي تستحق المشاهدة، والوقت مرّ وانقضى...

في تلك الليلة استعصى النوم على الجميع. كان الطقس حاراً وخانقاً. أخذوا يتقلبون ويتململون في أسرتهم، وأفكارهم غارقة في تلك الصور الفردوسية التي كانت تتراءى أمامهم بألوان نابضة بالحياة: فتيات شبه عاريات يغنين ويرقصن أمامهم... شعروا بالأنفاس الدافئة لأولئك الحسناوات تداعب بشرتهم...أجل، إنهن هناك مستلقيات قربهم فوق الأرائك الناعمة، في متناول رغباتهم الظمئة! ومن مهجع لآخر كانت تصدر أصوات ذلك التلهف الفظيع: تنهدات، صرير أسنان، تأوهات مخنوقة..

بعد منتصف الليل بقليل بدا القمر وسط النافذة المفتوحة أسفل سرير ابن طاهر... ألقى نظرة سريعة إلى شماله ويمينه. كان سليمان ويوسف نائمين قريري الأعين. كل شيء بالنسبة لهما على ما يرام، حدث نفسه. أما هو فكان يخالجه قلق غريب. وظنون طاغية تعذبه: فهو يستطيع أن يعتبر مغامرته تلك ضرباً من الأحلام... لكن هل يمكنه أن يشك في حقيقة مريم التي أحبها من أعماق روحه؟

عند تباشير الصباح اتخذ ابن طاهر قراراً، نهض وانسل حذراً نحو سرير نعيم وسأله بصوت هامس.

ـ أنائم أنت يا نعيم؟

ـ لا، لم أستطع النوم. ماذا تريد؟

رفع نعيم رأسه ونظر إلى ابن طاهر مرتاباً.

ـ أتستطيع أن تلزم الصمت؟

ساور شيء من الخوف نعيم. فطمأنه ابن طاهر:

ـ لا تخش شيئاً. فلن يصيبك مكروه. أود فقط أن أسرّ إليك بأمر.

ـ لن أبوح بكلمة منه، تستطيع أن تعتمد علي.

ـ هل تعدني بذلك، وتحلف بالاسم المقدس لعلي؟

ـ أحلف باسم علي المقدس! يا ابن طاهر.

ـ حسناً. تعال معي إلى قرب النافذة.

وفي نور الصباح الوليد، كشف ابن طاهر عن الأثر الذي خلفته عضة مريم على جلده.

ـ أترى هذا؟

ـ أجل. يبدو أن أحداً قد عضك.

ـ انظر عن قرب أكثر!

ـ يا الله! يا له من فم صغير!

ـ إنها عضة أسنانها، يا نعيم.

ـ أتقصد مريم؟

وسرت قشعريرة باردة في جسد الفتى الخائف.

ـ أجل، إنها الذكرى التي تركتها مريم لي. وعما قريب ستختفي هذه العلامة. خذ قطعة من الشمعة وذوبها. ستساعدني على أن أطبع تلك العلامة.

ـ بكل سرور، يا عوني.

وسرعان ما أصبح الشمع جاهزاً. وهيأ نعيم منه رقعة صغيرة ولما أصبحت لدنة بما يكفي، ضغطها على صدر ابن طاهر. ثم رفعها ببطء. وهكذا نُقِشَ الأثر الخفيف لأسنان مريم على سطح ذلك الختم المرتجل.

ـ يا الله! تنهد ابن طاهر ـ وقد استخف به الفرح. من الآن سيكون

هذا أغلى كنوزي. سأحافظ عليه كما لو أني أحافظ على أثر من آثار النبي!

وعانق نعيم.

ـ أشكرك يا صديقي. فأنت الوحيد الذي يشاطرني معرفة هذا السر. إني أعتمد على صدق وعدك.

ـ يا لسعادتك، تنهد نعيم. وأنا أيضاً، أود أن أحب هكذا...

ـ ربما من الأفضل ألا تختبر شعوراً كهذا. فالحب جحيم ونعيم في آن معاً...

ومع هذه الكلمات افترقا. وعادا إلى سريريهما.

ـ إنك حقاً سيد مريع، عقبت مريم لما أقبل الحسن لرؤيتها ليلاً. لك الحق في أن تحكم علينا جميعاً بالموت أو الحياة. ماذا ستفعل بضيوف الأمس؟

نظر إليها الحسن متأملاً.

ـ لا أعرف. إن الظروف هي التي ستقرر.

لاحظ وجنتيها الغائرتين.

ـ يبدو أن الليلة الفائتة كانت امتحاناً عسيراً لك، قال في تهكم خفي.

ـ زودتني بالكثير لأفكر فيه، يا ابن الصباح.

ـ حينما تبدأ امرأة في التفكير، فإنها تصبح خطرة.

ـ قد أرغب اليوم في أن أكون تلك المرأة.

ـ وماذا ستفعلين حينئذ؟

ـ سأصيح في الفدائيين ليأخذوا حذرهم منك.

ـ الأفضل إذن أن يكون برجي حائل بينك وبينهم.

ـ ربما لا يكون ذلك هو الأفضل. لكن هذا هو الواقع. إني امرأة بلا قوة.

ـ يا للنساء، يا للنساء! إنكن لا تفترن عن الكلام، لكن حينما يتعلق الأمر بالأفعال، تأخذن بالرجفان. لقد شعرت لبرهة من الوقت أنك قريبة جداً مني. كنت سعيداً بذلك. والآن، أنا وحيد من جديد.

ـ ليس لي في الأمر يد. إن أفعالك ترعبني.

سكت كلاهما طويلاً. ثم تكلمت:

ـ ماذا ستفعل بالفتيات اللواتي سيشعرن بآثار لهو الليلة الماضية؟

ـ إن أباما تعرف مواد ونباتات ستعالج المشكلة. وإن لم ينجح ذلك، فسندع الطبيعة تأخذ مجراها. وسيأتي جيل جديد في الوقت المناسب.

ـ أطفال مساكين سيحرمون من آبائهم.

ـ يا عزيزتي مريم، لن يكونوا وحدهم. لكني أشعر بأن لديك سؤالاً اخر تتمنين طرحه علي، قال وهو يبتسم.

ـ لا أريدك أن تأخذ أفكاري على محمل سيء.

ـ تكلمي وحسب.

ـ كيف حال ابن طاهر؟ ـ وحين أطلقت تلك الكلمات، أحست بالدم يصعد إلى وجهها.

ـ هل أنت متعلقة به إلى هذا الحد؟ أعتقد أنه سيدقق في حاله ـ وسيتغلب بطريقة ما ـ على ألمه العاطفي.

ـ إنك رجل فظ.

ـ فظ؟ لم يبدر مني شيء سوى نطقي بكلمات بدت لي أقرب إلى الصواب.

ـ أترغب بتنفيذ رغبة لي؟

نظر الحسن إليها. لم يقل شيئاً لكنه أشار إليها أن تتكلم.

ـ أرجوك، أشفق عليه لأجلي.

ـ الشفقة؟ ماذا تقصدين بذلك؟ إني لا أعرف قساوة ولا شفقة. إنما لدي خطة أنفذها.

ـ أفهم ذلك. لكن أود أن تأخذ بالحسبان رجائي حينما ستتخذ بشأن ابن طاهر قراراً يتعلق بخطتك.

ـ إنك بذلك تطلبين مني الكثير. إذن ما جدوى تلك السنوات العشرين التي أمضيتها في التحضير؟

ـ اسمع. لقد أطعتك وسأطيعك على الدوام. عدني بذلك الوعد.

ـ لا أستطيع أن أعدك بشيء. فهذا يفوق قدرتي.

ـ وماذا ستفعل إن هو حزر الحقيقة بنفسه؟

نظر إليها نظرة ارتياب.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لا تخش شيئاً. لم أكشف له عن شيء، رغم أنه من الأجدر أن أفعل ذلك.

ـ إن حزر الحقيقة بنفسه؟ أقصد إن استشف مشروعي؟ أظن أنه سيفهمني. وقد يكون في هذه الحالة ابن لفكري. ما لم... ما لم يعتبرني رجلاً مخادعاً. إذ قد يصيح في الناس أجمعين بأني رجل دجال... أجل، هذا هو الاحتمال الراجح: كيف يمكنه أن يفهم في عمره ما قضيت أنا حياة كاملة في إدراكه؟

ـ وإن فهم رغم ذلك؟

ـ إنك تلقين الكثير من الأسئلة. نحن الاثنان مرهقان. وقد تأخر الوقت.

نهض. ووجهه كالح.

والتمعت دموع في مقلتي مريم.

ـ إنه ما يزال صبياً!

توجه دون كلمة منه نحو الضفة حيث كان عدي في انتظاره بالقرب من القارب.

الفصل الرابع عشر

لم تلبث نتائج هزيمة الطلائع التركية أمام آلموت أن ترددت أصداؤها. فمن كل الجهات وصلت إلى القلعة تقارير حول تطور الحدث. وفي غداة المعركة، انطلق عبد الملك على رأس عشرين فارساً نحو قلعة رودبار. وكمنوا مساء على بعد مسافة مناسبة من الأسوار. وأخبر الجواسيس المبثوثون وراء خطوط العدو أن المحاصِرين شرذمة لا تتعدى المائة تركي. كان النهار قد أوشك على البزوغ حينما أمر الداعي بالهجوم. وكسرب من الكواسر، اكتسح رجاله المنحدر، ومن الغارة الأولى، هلك حوالى نصف الجنود المناوئين. أما من تبقى منهم فقد تمزقوا في الأنحاء.

بعد ذلك أرسل عبد الملك عيونه ليستطلعوا جيش السلطان، في حين انطلق هو على جناح السرعة مع مفرزته باتجاه قزوين، ثم الري. ومن هناك عاد إلى آلموت، مصطحباً معه حوالى ثلاثين أسيراً أسرهم أثناء المسير. وبالكاد استغرقت الحملة بمجملها أربعة أيام.

كانت كل منطقة رودبار في حال من الغليان. وعلى الدوام، وفي الخفاء، كان الشعب يبجل علي ويمقت السلطان مقدار مقته لخليفة بغداد، وقد احتفل بالنصر الإسماعيلي كما لو أنه نصر شخصي له. ومع الأيام الأولى التي أعقبت المعركة، ظهر مؤمنون جدد أمام أبواب الموت، متلهفين لخدمة القائد الأعلى. وكان أمام أبي سراقة مهمة صعبة. إذ وجه الأصغر سناً والأكثر بأساً إلى مدرسة الفدائيين. وشكل سينوتشهر مع الآخرين وحدات جديدة. وتمت ترقية الكثير من الجنود

القدماء الذين تميزوا في المعركة إلى عرفاء. أما العرفاء القدامى ومساعدو الرؤساء فتم تعيينهم في مراكز مشرفة؛ وبعد أقل من عشرة أيام على النصر أُلحقت ثلاث وحدات، كل منها تتكون من مائة رجل، بجيش المؤمنين الصغير.

ـ علينا أن نصلح النظام بأكمله وأن نضع قوانين جديدة، أسرّ الحسن إلى الداعي الكبير أبي علي، هذا إن أردنا أن نجعل من هؤلاء الجنود الأغرار جيشاً متحداً لا يعرف إلا عقيدة واحدة وقائداً واحداً. لقد كان النبي محمد على حق في تحريمه الخمر على المؤمنين. وسنكون حمقى إن لم نحذو حذوه في ذلك، فكلما كانت هنالك حشود ضخمة، كلما احتجنا إلى وحدات صلبة، قوامها أفراد متميزون وحازمون. ولن نتوصل إلى تنظيم قوات كتلك إلا إن كانت أوامرنا واضحة وصارمة إلى أبعد الحدود. كما علينا أن نحرص على أن ينفذوا تلك الأوامر تنفيذاً أعمى.

وهكذا، وفي اليوم الذي أقسمت فيه اليمين الوحدات الملحقة حديثاً، وذلك بدلاً عن الاحتفال المدوي المنتظر. قرأ أبو علي أمام الجند المجتمعين قائمة كاملة بالتوجيهات والقوانين الجديدة.

«سيعاقب بالموت كل من يثور ضد مرؤوسيه؛ أو لا ينفذ الأمر الصادر إليه، ما خلا حال الضرورة القاهرة؛ أو إن قتل أثناء مشاجرة أو عن عمد نصيراً للدين الإسماعيلي؛ أو تكلم عن القائد الأعلى بعبارات غير لائقة أونقد قراراته؛ أو شرب الخمر أو أي شراب مسكر آخر؛ أو إن هو انغمس في فجور...

«وسيكون العذاب الجسدي والنفسي المبرح في انتظار من يستسلم للملاهي الدنيوية، أو يعزف أو يستمع إلى الموسيقا طلباً للمتعة وحسب؛ وكذلك من يرقص أو يشارك الآخرين في الرقص؛ أو يقرأ كتباً مفسدة أو يستمع إلى قراءات من تلك الكتب...»».

وأُحدثت رتب جديدة. فبين رتبتي الدعاة وكبار الدعاة، حلّت رتبة دعاة الأقاليم. وكل مؤمن قادر على حمل السلاح كان يعتبر تلقائياً جندياً. وأُنشئت مدرسة خاصة للرفاق الذين سيدربونهم. كما أُعد

برنامج دراسات جديد يخضع له كل الجند. وتحتم على الرجال، علاوة على العلوم العسكرية، أن يدرسوا العقيدة والتاريخ الإسماعيليين.

أما الفدائيون فقد عهدت إليهم بمهمات خاصة تتناسب مع قدرات كل منهم. فقد أصبح جعفر رسولاً دائماً مكلفاً بالعلاقات بين آلموت والري، حيث كان يسيطر ميتسوفر. وعلّم نعيم العقيدة لمجموعات الجند الجديدة؛ بينما درّس ابن طاهر التاريخ والجغرافيا. أما يوسف وسليمان فقد كانا يدربان الفدائيين التلامذة على فنون القتال. كانا كل صباح يصطحبونهم إلى خارج القلعة، نحو تلك الهضبة التي كان يقودهما إليها مينوتشهر في الماضي. وترأس عبيدة الماكر مفرزة من الجواسيس، في مهمة تهدف إلى مراقبة تحركات جنود السلطان؛ وما لبث عبد الرحمن وابن وقاص وعبد الله وخلف، الذين كانوا مساعدين له، أن عرفوا أصغر درب بين قزوين والري وآلموت. ولم يطل بهم الأمر حتى اكتشفوا مقاصد الأمير أرسلان طاش، الذي كان قد قسم قواته ليحاصر في أسرع وقت قزوين والري، وليعزل بذلك آلموت عن بقية العالم تماماً فموقع القلعة في سفح البورز لم يتح أية إمكانية للهرب عبر الجبل.

كانت دهشة الأسرى الأتراك الذين أصيبوا بجراح خطرة، عظيمة وهم يرون أنفسهم يتلقون المعاملة الحسنة. فبرئت جراحهم بسرعة على يدي الطبيب الماهر ومساعديه. كانوا في النهار يأوون إلى مهجعهم؛ وفي المساء يسمح لهم بالتنزه في الفناء في الهواء الطلق، إلى جانب الثكنات. وكان الجراحون والجنود الذين يحضرون لهم الطعام والشراب يكلمونهم بود تعاظم مع الأيام... وهكذا أطلعوهم على المغامرة التي لا تصدق عن الفدائيين الثلاثة الذين أُرسلوا لليلة واحدة إلى الجنة، وعن المقدرة التي لا سابق لها، والتي عهد بها الله إلى سيدنا. لكن ما أدهش هؤلاء الغرباء بخاصة، كان ذلك الإيمان الواثق بالنصر الذي آمن به الإسماعيليون أياً كانوا. وحينما يُسألون عن أسباب يقينهم ذاك، كانت إجابتهم واحدة دوماً: إن سيدنا نبي عظيم، ولن تلبث بلاد الإسلام كافة أن تنضوي تحت رايته.

ومن حين لآخر، كان يقوم بزيارة الأسرى هذا الداعي أو ذاك، وأحياناً أبو علي شخصياً. فيستوضح منهم عن جيش السلطان، وتدريب الجنود، وعن معتقداتهم الدينية. ثم بعدئذ يعرض لهم العقيدة الإسماعيلية، التي يرغب القائد بفضلها في إنشاء عهد من العدالة والسلام في أرجاء المعمورة. لقد استطاعوا بهذه الطريقة، وبالرحمة والمعاملة الحسنة أيضاً، أن يزعزعوا اليقين الراسخ للسجناء، مهيئين إياهم على نحو غير محسوس للانضمام إلى الدين الجديد الذي سيربطهم دائماً.

أما بعض أولئك الصعاليك المساكين الذين كان يتحتم بتر ذراع أو ساق لهم أو الذين أصيبوا بعاهة خطرة، فقد أمر الحسن بإطلاق سراحهم. راغباً في أن يقص هؤلاء الناس ما شاهدوه وما لمسوه من الحركة الإسماعيلية، إلى جنود السلطان، الذين ستوهن مثل تلك الأحاديث روح القتال عندهم. وهكذا جهزت لأجلهم محفات رفعت على ظهور الجمال، وواكبها خفر مسلح حتى قزوين، حيث استعادوا حريتهم بكل مظاهر الأبهة.

نام سليمان ويوسف المنهكين، في الليلة التي أعقبت زيارتهما للحدائق، نوماً هادئاً تقريباً. لكن في اليوم التالي، وعند حلول المساء، شعرا بقلق غريب يجتاحهما. ثمة شيء ينقصهما ويثير لديهما غضباً فريداً من نوعه. انطلقا، والنوم قد جفاهما، كل في اتجاه، ليقوما بجولة باتجاه الأسوار، وما لبثا أن التقيا عندها.

ـ أنا عطشان، قال يوسف بعد لحظات.

ـ هناك ما يكفي من ماء في شاه رود.

ـ إنه أقل من أن يرويني... بإمكانك أن تشربه كله إن شئت.

ـ هل يعني هذا أنك تعودت على شرب الخمر؟

وأخذ سليمان يضحك مستهزئاً. فنظر إليه يوسف بوجه كئيب وقال:

ـ لقد دوى البوق معلناً وقت النوم.

ـ لمَ تقول هذا لي؟ اذهب ونم أنت إن أردت.

جلسا عند السور وأصغيا لبرهة قصيرة دون أن يتلفظا بكلمة، إلى هدير السيل.

ـ كأني أشعر بك تحاول البوح لي بأمر ما، قال أخيراً سليمان بنبرة تحمل فضولاً ساخراً.

فرد يوسف موارباً:

ـ ألا ينقصك شيء؟

ـ تكلم بصراحة. ما الذي يعذبك؟

ـ أشعر بالجمر يسري في أحشائي. وصدغاي يرتعشان بقوة. وعطش لايحتمل يمضّني.

ـ لمَ إذن لا ترغب في شرب الماء؟

ـ إني أشرب منه، أشرب، لكن يبدو لي وكأني أبتلع الهواء. فهو لا يرويني.

ـ أعرف. إنها تلك الأقراص الملعونة. آه! لو أننا نستطيع أن نأخذ منها ثانية، ولو قرصاً واحداً... فسيعاودنا الهدوء في الحال.

ـ أتظن أن سيدنا سيرسلنا عما قريب إلى تلك الجنة؟

ـ وما أدراني بذلك؟ إني ما إن أتذكر تلك الليلة، حتى تنتابني الحمى، وأشعر وكأني على وشك الذوبان.

مر حارس بالقرب منهما، حاملاً مشعلاً. فقرفصا خلف الحاجز.

ـ لنذهب من هنا. لا ينبغي أن يفاجئنا أحد هنا، قال سليمان.

وعادا أدراجهما خلسة إلى المهجع. كان رفاقهما قد ناموا. غير أن ابن طاهر كان لا يزال جالساً على سريره، وظهره مستند إلى الحائط. بدا وكأنه يترصد شيئاً ما، ولم يستطع أن يحبس رعشة ندّت عنه، لما سمع خطواتهما.

ـ ألم تنم بعد؟ سأله سليمان.

ـ لا، لم أنم أكثر منكما.

خلع يوسف وسليمان ثيابهما وتمددا فوق سريريهما. كان جو المهجع حاراً خانقاً، والعطش يؤرقهما أكثر من أي وقت مضى.

- يا له من سحر ملعون! تنهد سليمان متقلباً في فراشه.

- هل هي الذكريات التي تمنع عنك النوم؟ سأله ابن طاهر.

- أتعرف ما أريده الآن؟... أن أشرب الخمر!..

- لا بد أنكما قررتما ألا تناما طيلة الليل! قال يوسف مهتاجاً.

- وهل تحسب نفسك نائماً؟ رد عليه سليمان، ساخراً حانقاً.

في صباح الغد، كانت أطراف الثلاثة ثقيلة كالرصاص...

وفي ذلك النهار أوكل أبو سراقة إليهم مهماتهم الجديدة. وبعد بضع ساعات انتقلوا ليستقروا في الطبقة الدنيا لأحد البرجين السفليين. وخلفهم أفراد جدد في المهجع القديم. استقر فدائيان أو ثلاثة في الغرفة، ليس أكثر. فشارك يوسف عبيدة وابن وقاص غرفتهما؛ أما ابن طاهر فأقام مع جعفر، واستقر سليمان مع نعيم.

كان ابن طاهر في كل صباح يقوم بمهمته في التعليم، ولا شيء يضنيه أكثر من حزنه العميق. كان ينظر إلى المريدين الجدد - ألم يكن هو، في الأمس القريب، واحداً منهم؟ - كان يتألم وقد أيقن أن زمن التدريب السعيد ولّى وراءه بعيداً. لن يعيش ثانية براءة هؤلاء الفتية. لقد انتصب اليوم جدار منيع بينه وبينهم. كان يسمع بابتسامة كسيرة ثرثرتهم اللامبالية، ويقول في نفسه: «لو أنهم يدرون!».

ما لبثت ليالي الأرق أن فتكت بوجهه البهي، فأصبحت ملامحه شاحبة منهكة، وعيناه الغائرتان تحدقان على نحو غريب، بنظرات زاوية البريق شاردة.

- إنه ابن طاهر، أحد الذين ذهبوا إلى الجنة! تهامس الجنود عند مروره.

في الأمس القريب كان تلميذاً وضيعاً، لا شأن له، واليوم أصبح بطل القضية الإسماعيلية، واسمه يرعش القلوب الفتية. فكر حزيناً كم تمنى في الماضي أن يرى اسمه مشهوراً بين الجميع! واليوم لم يعد هذا الأمر عنده بذي بال. وحتى نظرات الاعجاب تلك كانت تبعث فيه الملل

أحياناً. أحب الهرب بعيداً عن الناس، لينكفئ في عزلته، ويظل وحيداً مع أفكاره، مع مريم...

أجل، إن مريم هي السر الكبير الذي يفصله عن جميع هؤلاء القادمين الجدد وحتى عن رفاقه القدامى. ولم تكن لتفارق أحلامه، حينما كان يختلس لحظات نوم قليلة! كان يشعر أنها إلى جانبه على الدوام، ولذلك أزعجته كل صحبة. وفي بعض الأحيان، حينما يكون بمفرده، كان يغلق عينيه: فيبصر نفسه في المقصورة الساحرة... ومريم تنثني عليه، وبالحدة الكبيرة التي كان يراها بها، استطاع أن يتبين كل ملامح شخصها، إلى حد أنه شعر فجأة بعذاب مريع: آه! لو أنه يستطيع أن يلمسها وحسب!... في الحقيقة، لم يكن ألمه أقل من ألم فرهاد البائس بعد أن أبعده كسرى عن محبوبته شيرين... ولقد خشي لمرات عدة أن يصيبه الجنون...

كان سليمان ويوسف يأملان أن يجدا سلواهما في المجد على الأقل. كانا ينطلقان على أحصنتهما عند بزوغ النهار، على رأس مفرزتهما، ونظرات الإعجاب تلاحقهما وهما يغادران القصر. لكن ذلك الهياج الذي كان يعذب لياليهما، أثّر من ثم على تلامذتهما. فكان يوسف يزأر مثل الأسد حينما لا تسير الأمور كما يشتهي. بيد أن التلامذة سرعان ما توقعوا أن تكون نوبات الحنق الباردة لسليمان أكثر خطورة بكثير. فلم يكن ليترك سانحة إلا وينتقد بلا رحمة أخطاءهم بينما كان أثر ضحكته عليهم لا يقل عن أثر ضرب السياط. لم يبخل يوسف أبداً في الشروح: كان يحب سماعهم وهم يسألونه، ويطيب له تزويدهم من ثم بكل الإيضاحات اللازمة. كان يكفيه أن يظهروا له الخوف والاحترام حينما يقتربون منه. أما طرح سؤال على سليمان، فكان يعني في الغالب التعرض لصفعة لا ينساها المريد لفترة طويلة.

هذه كانت حالهم أثناء النهار. لكن وما أن يقترب المساء، حتى يستولي عليهم القلق والخوف. كانوا يدركون أنه حُكم عليهم بليل لن يغمض لهم فيه جفن.

ذات يوم، انتحى سليمان بيوسف وابن طاهر جانباً وقال:

ـ هذا يفوق احتمالي. أريد الذهاب إلى سيدنا.

ـ هل جننت؟ قال يوسف مرتاعاً.

ـ لن يفيدك ذلك في شيء، حاول ابن طاهر أن يرد إليه صوابه. عليك أن تحتمل كما نحتمل نحن الاثنان.

فضج سليمان قائلاً:

ـ ومع هذا، فأنا لست خشباً! سأذهب إليه وأقول له كل شيء. فليعهد إلي بمهمة تتيح لي العودة إلى الجنة، وإلا سأقتل نفسي.

كانت عيناه البيضاوان تتحركان وهما تبرقان كعيني وحش مفترس وفكاه يتشنجان بشدة؛ كان كل ما فيه يدل على زيغ العقل والهياج المحبط.

في صبيحة الغد، توسل إلى أبي سراقة أن يدخله إلى أبي علي.

ـ ماذا تريد منه؟

ـ يجب أن أكلمه.

ـ بخصوص ماذا؟ ألديك شكوى تريد تقديمها؟

ـ لا. إنما سأرجوه أن يكلفني بمهمة.

ـ ستكلف بها في الوقت المناسب. دون أن تطلبها.

ـ لكن يجب أن أكلم أبا علي!...

لاحظ أبو سراقة شرالجنون الذي كان يتطاير آنئذ من نظراته. «فليشربوا هم أنفسهم الخمر الذي اعتصروه». حدث نفسه.

ـ حسناً. بما أنك تتوسل بإلحاح شديد، فسأناشد الداعي الكبير لأجلك.

أحس أبو علي بانزعاج لما علم أن سليمان يريد مكالمته.

ـ انتظر برهة، أمر أبو علي أبا سراقة ـ ثم أسرع ليشاور الحسن.

ـ أنصحك باستقباله، قال ذاك الأخير. ثم تعال وأخبرني بما يحصل. لا ريب أننا سنقف على أشياء هامة.

دعا أبو علي سليمان إلى قاعة الاجتماعات الكبرى. وهناك كان الاثنان وحدهما دون رقيب.

ـ ماذا في صدرك، ما الذي حملك على طلب هذه المقابلة؟

أغضى سليمان الطرف.

ـ أردت أن أرجوك، أيها الداعي الكبير المحترم، بأن تأخذني إلى سيدنا.

صمت أبو علي مشدوهاً، ثم قال:

ـ ما الذي يدور في خلدك! سيدنا يعمل من الصباح حتى المساء في سبيل رخائنا. وتريد أنت أن تسرق منه وقته؟ أنا ممثله. وكل ما ترغب في قوله، قله لي، دون أن تنتظر مزيداً من الوقت.

ـ هذا صعب... فوحده من بيده الدواء الشافي لي.

ـ تكلم وحسب. وسأنقل إليه بأمانة كلماتك.

ـ لم يعد بمقدوري التحمل... أريد مهمة تفتح لي من جديد بوابة الجنة.

انتفض أبو علي. وقد فاجأته نظرة سليمان: كانت نظرة تتقد بلهب متوحش.

ـ أمجنون أنت ياسليمان. هل تعلم أن طلبك هذا هو أشبه بعصيان! وأن العصيان عندنا عاقبته الموت...

ـ الأفضل لي أن أموت على أن أستمر في معاناتي. غمغم سليمان بتلك الكلمات بصوت يكاد لا يسمع، لكن أبا علي فهم.

ـ اذهب الآن. سأفكر في أمرك. وربما يأتيك الخلاص بأسرع مما تظن...

ولما رجع أبو علي، نظر إليه الحسن نظرة استفهام.

ـ يريد أن تعهد إليه بمهمة تعيده فيها إلى الفردوس. يقول إنه لم يعد قادراً على احتمال المزيد.

ابتسم الحسن.

ـ لقد صحت توقعاتي. إن الحشيش والحدائق قاما بفعلهما. وما عادت ساعة الامتحان الأخير ببعيدة.

استمرت المعاناة على المنوال ذاته، وما لبث سليمان أن فقد صوابه منها. ففي إحدى ليالي الأرق نهض بهدوء وجلس أسفل سرير نعيم الصغير، الذي استيقظ مذعوراً، وقد أصابه الذهول حينما لمح شكلاً قاتماً عند قدميه، واستولى عليه الخوف لما تعرف إلى خيال سليمان.

ـ ماذا يجري؟

لم يجب سليمان. حدق فيه جامداً. كانت قسمات وجهه الشاحب والغائر بقعة مضيئة في العتمة. وتبين نعيم ملامحه شيئاً فشيئاً.

ـ ماذا تريد؟ قال فجأة مذعوراً.

وبحركة سريعة، انتزع سليمان غطاءه.

ـ أرني صدرك.

كان متحجراً من الذهول. وفجأة أصبح سليمان بين ذراعيه، يعانقه بهياج.

ـ آه! حليمة، حليمة! قال متأوهاً.

ـ النجدة!

ومزقت صرخة نعيم سكون الليل. وإذا بأصداء خطوات حارس تتردد في الممر. وما هي إلا لحظات حتى ثاب سليمان إلى رشده.

ـ سأخنقك إن وشيت بي. كنت تحلم... ـ وعاد مسرعاً إلى سريره.

ـ أأنت الذي صرخت، يا نعيم؟ قال الحارس وهو يدخل الغرفة.

ـ أجل. لقد حلمت حلماً مرعباً...

أخذ الجندي يهدئه؛ لكن نعيم سرعان ما دفع الغطاء عنه ونهض.

ـ لماذا تريد أن ترحل؟ أراد سليمان أن يعرف ـ ونظراته تخترق نعيم.

ـ أنا خائف منك.

ـ أحمق! عد إلى سريرك حالاً ونم. أنا أيضاً أريد أن أنام...

في صباح الغد، رجا نعيم أبا سراقة أن ينقله إلى غرفة أخرى. فهو لم يعد يريد النوم في غرفة سليمان.

ـ ولم؟

هز نعيم كتفيه. كان وجهه مصفراً، كما لو أن الخوف لوّنه.

لم يسأل أبو سراقة سؤالاً آخر. وإنما حدث نفسه قائلاً: «الأفضل ألا أشغل بالي بالأمر». ثم أجابه إلى طلبه وأمر عبد الرحمن أن يقيم في غرفة سليمان.

كان الفدائيون الآخرون يتبارون بحماس في تنفيذ المهمات الموكلة إليهم. فأُرسل عبيدة إلى رودبار، حاملاً رسالة موجهة إلى بوزروك أوميد، الذي كان قد حل محل ابن طاهر إسماعيل كآمر عسكري للقلعة ـ وكان الحسن قد عين منذ وقت قريب ابن طاهر اسماعيل في رتبة داعي الإقليم. ورجع عبيدة من المهمة التي أوكل إليها بأنباء دقيقة حول تحركات الأمير أرسلان طاش، الذي خيم جنده في العراء أمام قزوين والري. أما ابن وقاص فقد أمّن الصلة بين قزوين وقوات أمير الري؛ وكان إسماعيليو الأرياف يحيطونه علماً بما يتيسر لديهم من معلومات عن موقع كل مفرزة عدوة تحط رحالها في المنطقة. كان كل شيء يشير إلى أن الأمير لم يكن على عجلة من أمره في الوصول إلى أسوار آلموت. وكان برفقة ذلك الفارسي الوسيم حريم كامل. ولم يتوان عن دعوة شخصيات المنطقة الهامة إلى ولائم لا حصر لها... في حين أنه لم يستسلم دون تحفظ للجلوس إلى موائدهم. كان يشرب برفقة رؤساء جيشه، ويمضي ما تبقى من وقته في التسلية مع المغنيات والراقصات. أما مساعدو الرؤساء وحتى الجنود فقد كانوا ينظمون غارات لهو تجتاح القرى المحيطة. فينهبون كل ما طاب لهم، ويسببون لأنفسهم كره أهل المنطقة، الذين كانوا يلعنونهم ويلعنون معهم السلطان والوزير الأكبر اللذيْن أرسلاهم.

وروى عبيدة في طلعة لاحقة أخباراً تحمل سروراً أكبر. فالأسرى المحررون قصوا على رفاقهم القدامى، جنود الأمير، الحياة العجيبة للإسماعيليين في قصر آلموت، ومزايا قائدهم ذي الحول والطول القادر على إرسال مؤمنيه إلى الفردوس! كان الجنود الذين أتخمتهم البطالة منذ وقت طويل، يصغون إلى تلك الأحاديث الشيقة مبتهجين حتى ساعة متأخرة من الليل؛ ومع احتدام المناقشات أخذ الكثير منهم

يدافع جهراً عن هذه العقيدة التي استطاعت أن تخاطبهم. ومنذ ذلك اليوم، والفضول وحده هو الذي يشدهم نحو آلموت، التي يسيطر عليها ذاك الذي يسميه كل الناس بالقائد... أو بشيخ الجبل. وهكذا وفي زمن قصير، استطاع الجواسيس الإسماعيليون أن يتنقلوا بين صفوف الأمير كما لو أنهم في أرضهم. منظمين تجمعات غريبة، تناقش فيها أمور السياسة والدين معاً، وتطرح كلمة العقيدة الفاصلة: «الشيخ» بكل حماس. وحتى الجند الذين كانوا لا يصدقون أولئك الجواسيس أو يهزؤون منهم، فإنهم تركوهم وشأنهم يدخلون ويخرجون دون التعرض لهم. فماذا تستطيع أن تفعل قلعة متواضعة يدافع عنها خمس مائة متحمس في وجه جيش قوامه ثلاثون ألف رجل بعثه سيد السلطنة لمواجهتهم؟ باختصار، لقد أشارت الأخبار التي نقلتها «عيون» الحسن بوضوح إلى أن العدو لا تدفعه حمية مقدسة في مهمته، وأن جهداً يسيراً يكفي لتمزيق أوصاله.

بعد أن اطلع الحسن على كل تلك الأشياء الرائعة التي رواها له أبو علي، استخلص منها نتائجه المعتادة فقال:

ـ سيكون تقويض جيش العدو نتيجة أمرين متقاربين تقارباً دقيقاً: هزيمة الفرسان الأتراك ونجاح تجربتنا في الجنة. لقد أرغمت الهزيمة الأمير على التزود بأكبر مؤونة وبالتالي على زحف أكثر صعوبة، واليوم اضطر زحفه أن يساير بطء قوافل التموين. لكن في حين يتضاءل تأثير الهزيمة يوماً إثر يوم ـ وهي لا بد أن تركن من تلقائها في زاوية النسيان ـ فإن خبر المعجزة سينتشر بين الجند سراً أو جهاراً. نعم، إن أكاذيب كتلك هي الأفضل حتماً لإثارة خيال الشعب...

بعد زيارة الفدائيين فإن الحياة في الحدائق أصابها هي أيضاً بعض التغيرات. فالفتيات اللواتي تذوقن في الماضي متع الحريم أخذن يسترجعن ذكرياتهن الأثيرة: فبعضهن ما فتئن يقارن أحلام الماضي الحلوة بتلك الصور الجديدة، أما اللواتي أحبطتهن زيارة الفتية، فكن يتباهين على الدوام بتجاربهن السابقة. ومن تبقى منهن عظمن من شأن

ليلة الحب الأولى التي أُتيحت لهن فجأة منذ وقت قصير. كل ذلك أدى إلى خصام وألوان عتاب، وبلغ الحنق أوجه، لا سيما، أن أولئك الآنسات لم يعد أمامهن شيء يفعلنه سوى الغزل، والخياطة والتفرغ لأعمال منزلية هينة، فلا غرو أن امتدت المحادثات طيلة النهار. واستولى الفضول على بعضهن لمعرفة إن كان زوار ذاك المساء سيدعون للعودة أم لا. واعترفت أخريات بعدم اهتمامهن بذلك الجدال؛ أو تمنين حدوث تغير ما، إذ أنهن لم ينلن انتباهاً مرضياً من عشاق الليلة الأولى. فأملن ألا يستخف بهن في المرة القادمة. ورأت غالبيتهن بعد طول نقاش أن الحسن قد يبعث إليهن بعشاق جدد. وحتى سليقة التي بكت يوسف في الأيام الأولى بكاءً مراً، تعودت بمرور الوقت على تلك الفكرة. لكن حليمة وحدها التي لم تستطع ولم ترد أن تفهم أنها لن ترى سليمان ثانية.

وبعثت حالتها قلقاً قوياً في نفس مريم. فقد هزل وجهها بعد بضعة أيام؛ وأحاطت دوائر حالكة بعينيها المحمرتين من البكاء والسهاد. حاولت مريم أن تخفف عنها قدر استطاعتها، لكنها هي نفسها لم تكن خالية البال. كانت ترتجف باستمرار حينما تفكر بمصير ابن طاهر المسكين. توقعت أن يدعوها الحسن إلى محادثة جديدة، لكن وكأنه عن عمد، لم يعد يبالي بحضورها. كانت حين تمعن التفكير في ابن طاهر وحليمة، تشعر بنوع من الاهتمام الأمومي وكأنها مسؤولة بالذات عن مصيرهما.

بعد شهر من إحراز النصر على طلائع السلطان، واكبت مفرزة من رجال ميتسوفر إلى أسوار آلموت، حامل بريد أوفده إلى الحسن، الوزير الأكبر الجديد تاج الملك، والذي كان منذ عهد قريب وزيراً للسلطانة. استقبل الحسن المبعوث في الحال، الذي نقل اليه أن خبر هزيمة الأمير قد بلغ السلطان وهو بالقرب من نهاوند(*) أثناء طريقه إلى بغداد. وأن هذا الخبر المزعج أعقبه بقليل وصول الوزير

(*) نهاوند: مدينة في غرب إيران.

الأكبر نظام الملك الذي خُلع منذ فترة وجيزة، والذي حاول أن يهدئ من غضب السلطان، الذي أراد معاقبة أرسلان طاش، وإخطاره بالمثول بين يديه ليبرر تصرفه. واستطاع نظام الملك إقناع السلطان بأن تلك البادرة تفتقر إلى الحنكة السياسية... وأن كل الأخطاء في تلك القضية تقع على كاهل الوزير الحالي، الحليف السري للإسماعيليين والذي تؤيده السلطانة. ولا ريب أن الوزير السابق نظام الملك قد بدا مقنعاً في تلك الحادثة، إذ أن السلطان سرعان ما أعاده إلى منصبه كوزير أكبر، الأمر الذي رفضت قبوله السلطانة وأصرت على أن يتقلد تاج الملك ذاك المنصب. بيد أن نظام الملك كان آنئذ يقوم بحشد قواته حول مدينة نهاوند بهدف إعلان الزحف نحو أصفهان لخلع خصمه بالقوة، وليعيد في الوقت نفسه للسلطان نفوذه... ونفوذه الشخصي هو أيضاً. وفضلاً عن ذلك كان قد أمهل الأمير أرسلان طاش شهراً ليستولي على آلموت، آمراً إياه بأن يدك القلعة دكاً، وإن لم يفعل فسيجد نفسه تلقائياً متهماً بالخيانة العظمى. وأُرسلت تعليمات مماثلة إلى المدعو كيزيل ساريك(*). الذي كان يعسكر دون جدوى عند أسوار قلعة زور غامباذان، في خوزستان...

تلك كانت الأخبار التي تعجلت السلطانة ووزيرها في تسليمها إلى صديقهما القديم الحسن: وبحلفهما اليمين أكدا على صحة ماسبق... وناشداه أن يقدم لهما المساعدة والمساندة في هذه المحنة.

رد الحسن على حامل البريد قائلاً:

ـ في البداية انقل تحياتي إلى سيديك. ثم قل لهما أني في غاية الدهشة، لأنهما ومنذ عهد قريب، أخلفا بوعدهما. واليوم، وقد تعسر أمرهما، يلتفتان من جديد نحوي. ورغم أنهما نكثا بعهدهما، فأنا سأقدم لهما المساعدة مرة أخرى. لكن ليحذرا في المستقبل ألا يخدعاني من جديد. وسيكون الانتقام المقبل من أعدائهم وأعدائي عبرة لهما.

(*) وتعني بالتركية: ذو اللفة الحمراء.

وعلى هذا، صرف الحسن المبعوث وأمر أن يعد له استقبال يليق به، وأن يُحمّل بهدايا مناسبة.

ـ إن اللحظة الحاسمة قد حانت، أسرّ بعدئذ إلى الداعي الكبير.

وبدا هادئاً للغاية: هدوءَ أولئك الذين يفرغون لتوهم من اتخاذ قرار، ويعلمون أنه قرار حاسم.

ـ هكذا إذن، من جديد تقع مقاليد السلطة بين يدي نظام الملك، قال. أي أنه سيكون لنا عدواً لا يرحم، وسيقوم بكل شيء ليمحقنا ويبيدنا. ولذلك علينا أن نتصرف دون إضاعة مزيد من الوقت.

وبنظرة قلقة سأله الداعي الكبير:

ـ ماذا تنوي أن تفعل بالضبط؟

ـ أريد أن أُهلك عدوي اللدود للأبد.

كان ابن طاهر يكرس الشطر الأكبر من أيامه للشعر: فبالشعر وحده كان قادراً على التعبير عن قلقه، ليتجاوزه ويتجاوز تطلعاته، ويصل إلى الحالة التي يشعر معها بتمزق روحه. كان يدون أبياته على قطع ورق صغيرة يخفيها بعناية في منأى عن المتطفلين. كان يكتب باهتمام كبير كلمات شعره، ويجد في نهجه ذاك تصريفاً للغم الذي يعذب قلبه. وكان عذره أمام الناس أنه يحضر لواجباته، وبذلك استطاع أن ينكب بكليته على فنه، أو يستسلم للوحدة أو لأحلام اليقظة. ومن عنائه الخفي، ولدت هذه القصيدة:

كانت روحي في الماضي مفعمة
بتعاليم النبي محمد.
سيدنا، علي، وأنت يا إسماعيل،
بشير ذاك الذي سيأتي
كنتم كل شيء بالنسبة لي!
واليوم يا مريم لا أرى إلا صورتك
تملأ قلبي وتضني روحي.

إن أنا حرمت من ابتسامتك،
وصوتك المترعين بالأسرار،
ومن أنفاس شفتيك،
ومفاتن جسدك،
فالحياة موت لي....
يداك اللتان تسران الناظر
عقلك الذي يعرف كل شيء،
وحكمتك التي لا تمتلكها أي امرأة،
وبحر عينيك اللامتناهي،
مرآة كياني كله والكون...
وما يهمني الآن من إيماني السابق!
فمريم هي إيماني، حياتي وإلهي الأوحد،
وهي فردوسي الوحيد!
المهيمنة دون منازع على فؤادي،
وأعماق عقلي وقرارة روحي
صورتك الحاضرة أبداً
تثير فيّ شكاً غريباً:
تراك تشبهيني حقاً؟
ومشاعرك ورغباتك
هل هي فعلاً مشاعر
ورغبات كائن دنيوي؟
وأثر فمك على قلبي
هل هو برهان على ذلك؟
هل يمكن أن تكوني مجرد رؤية
لا لحم لها ولا عظم،
وإنما ثمرة سحر أبدعه فن سيدنا؟
كيف أتحرر من ذلك الوهم المؤلم؟

ربما لا أكون أكثر من عاشق هباء
عشق هبوب فاسد!
هل سيدنا خداع؟
يا للظنون الدنسة!
من أنت إذن، أيها السيد القوي،
هل أنت الذي أوقعتني في هذا الفخ؟
هل أنت ولي أم نبي أم إله؟
وهَل عليّ، وقد أطار الألم فؤادي،
أن أنحت من الصخر القاسي
تمثال السعادة المفقودة؟
أم علي بالأحرى أن أفتت قلبي؟
على ذلك الصخر؟
من خولك تلك السلطة، يا سيدنا،
لتفتح أبواب السماء لأحياء من الأرض؟
وهل فتحتها أيضاً لأجلك أنت؟
أتعرف مريم؟ يا له من شك مضني!
يا لها من غيرة مجنونة!
أتعرف تلك التمائم السحرية
التي استخدمها السحرة الذين حبسهم
النبي في منحدرات دومافند الملتهبة؟
هل مريم، نور حياتي، السراب العذب،
ما هي إلا أثر مذيب
أتت به ألاعيبك الشيطانية؟
كلا! كلا! إن الحب يئن في قلب الجحيم!
ووحده عقل خرب،
قد ينكر هذه المعجزة!
التي هي أعذب المعجزات... يا للدوار،

لـمَ أغـلـقــت السمــاء،
وتركتها للحظة واحدة منفرجــة؟
إنك سيد قاس وطيب، يجمع ويفرق،
إن كان المـوت ثمــن مريــم،
فلتأمرني، ومن أعلى هذه القمم،
سألقي بنفسي في أعماق الهاوية.
وستراني مبتسماً وستعرف أني أحبها.
هل علــي أن أطعــن القــلــب
لأبلــغ السـعــادة الأبـديــة
التي تنـتـظـرني عنـدهــا؟
هل علي عبر النار أن ألحق بدواس؟(*).
فلتأمرني! هي كلمة منك، وسينتهي
رعب هــذا العــذاب إلى الأبــد!
إني مثل آدم المـطرود من الجـنة!
رد إلي مريم قبل أن ينفطـر قلـبي
مــن شـدة هذا الألم المضني!

ذات مساء دعاه سيدنا ليمتحنه:

ـ هل إيمانك اليوم راسخ؟

ـ إنه كذلك، يا سيدنا.

ـ هل اقتنعت أني أستطيع أن أفتح باب الفردوس وقتما أشاء؟ أتؤمن بذلك حقاً؟

ـ أؤمن بذلك، يا سيدنا.

كانا بمفردهما في الغرفة. أخذ الحسن يتفرس في وجهه باهتمام. يا للتغير الذي أصابه منذ ذلك المساء الذي أرسله فيه إلى الحدائق! لقد أصبح هزيلاً، ذابل الوجنتين، غائر العينين على نحو

(*) دواس: آلهة خيرة مقرها في السماء.

مريع، ووهج محموم يلمع فيهما. اطمأن الحسن إلى الأمر: أجل، إن الآلة تعمل بفاعلية مدهشة.

ـ أتريد أن تفوز بالملذات الخالدة؟

ارتعش ابن طاهر. واستنار وجهه، وتطلع إلى الحسن في نظرة رجاء.

ـ يا... سيدنا!

أشاح الحسن نظراته عنه. شعر فجأة بانقباض قلبه. لأجل هذا حرم على نفسه دائماً أن يختلط بهؤلاء الفدائيين عن كثب...

ـ إني لم أفتح لك أبواب الجنة عبثاً. أردت أن يكون إيمانك راسخاً وأردت أن تعلم علم اليقين ما سينتظرك عندما تنفذ المهمة التي ستُعهد إليك... أتعرف من هو الغزالي؟

ـ ما من شك أنك تقصد، يا سيدنا، ذلك السفسطائي...

ـ أجل. ذاك الذي شن في كتابه (تهافت الفلاسفة) هجوماً شنيعاً على عقيدتنا. لقد عينه الوزير الأكبر منذ عام وأكثر، أستاذاً في المدرسة النظامية ببغداد. إن مهمتك أن تتظاهر بأنك واحد من مريديه. خذ كتابه هذا. إنه قليل الصفحات. وبذهنك المتوقد، تستطيع أن تقرأه وتدرسه في ليلة واحدة. وتعال إلي في صباح الغد. لقد أصبحت الآن في خدمتي الشخصية. ولا أريد كلمة في هذا الشأن لأي كان. أتفهمني؟

ـ أفهمك، يا سيدنا.

صرفه الحسن وتابعه بنظراته وهو يغادر الغرفة بحماس لم يحاول إخفاءه: مامن شك أن السعادة تغمره اليوم.

وعلى الدرج، التقى الفتى بأبي علي وبوزّروك أوميد، اللذين كانا يلهثان وقد لون الغضب وجهيهما، ووراءهما رجل يسحبانه: كانت هيئته تدل على أنه قطع درباً طويلاً شاقاً؛ فقد كان معفراً من رأسه حتى أخمصه، وقد خط العرق أخاديد طويلة على وجهه الوسخ، وبالكاد يستطيع أن يلتقط أنفاسه. التصق ابن طاهر بالحائط ليفسح المجال للثلاثة بالمرور. شيء ما أنبأه أن أياماً عسيرة، وأخرى عظيمة، تدق أبواب آلموت...

أزاح الحارس الستارة وأدخل الزائرين.

ـ رسول من خوزستان، أعلن أبو علي وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة... زور غامباداان...

ـ ماذا حدث؟

حاول الحسن جاهداً أن يسيطر على نفسه. لقد أدرك على الفور من سيمائهم أن هناك خطباً ما.

ألقى الرسول بنفسه على قدميه.

ـ يا سيدي! لقد مات حسين القيني مقتولاً!

اصفر وجه الحسن اصفرار الميت.

ـ ومن المجرم؟

ـ اغفر لي، يا سيدنا!... إنه حسين، ابنك.

ارتجف الحسن كأن صاعقة أصابته. أخذ يلوح بذراعيه كما لو أنه يريد أن يمسك عدواً خفياً. ثم زلت قدمه ودار دورة حول نفسه قبل أن يهوي، مثل شجرة اجتثت من جذعها.

الفصل الخامس عشر

ابن القائد الأعلى اغتال داعي خوزستان! كانت آلموت كلها تتكلم في الغد عن هذا. لا أحد يعرف بالضبط كيف انتشر الخبر. فالرسول لم يبح بالأمر إلا إلى الداعيين الكبيرين، وهذان الأخيران قاداه فوراً إلى سيدنا. من يدري ربما آنئذ التقطته أذن أحد المأمورين، وربما تلفظ به دون قصد منهما الداعيان الكبيران أثناء مسيرهما. على أية حال، فإن جميع ساكني القلعة أصبحوا على دراية بالأمر: فلم يعد وارداً إخفاء القضية عن جموع المؤمنين.

كان على ابن طاهر الانتظار طويلاً قبل أن يصبح بمقدور الحسن استقباله. أراد القائد الأعلى معرفة كل تفاصيل الاغتيال: فأمر المبعوث بأن يروي بنفسه تفاصيل ما جرى.

ـ ما جرى، يا سيدنا، أخذ يروي الرجل... عندما وصلت الحمامة الزاجلة حاملة رسالتك إلى زور غامباداان، كان كيزيل ساريك يحاصرنا لأسبوع خلا. وقد احتل كل القلاع الأقل أهمية التي كانت تقاوم في الأرجاء المحيطة، أما القوات التي كان باستطاعته نشرها حولنا فقد بدا أن عددها يقارب العشرين ألف رجل. وعرض علينا الخروج لقاء سلامة أرواحنا، لكن الداعي الكبير رفض. أما ابنك حسين فقد أيد تسليم الحصن للعدو، مما أوقع القيني في ارتباك عظيم. ولهذا رجاك أن تأمره بنفسك بالقرار الذي عليه اتخاذه... وكان ردك السريع بأن أمرته بإلقاء ابنك في السجن. لقد حرص القيني على أن يبلغ ابنك قرارك بنفسه واقترح عليه أن يسلم نفسه بإرادته. لكن حسين وقد استشاط

غضباً رفض الاصغاء لتبريراته. وسمعه الرجال الذين كانوا هناك يصيح: «أيها الكلب! ضحيت بي لأجل أبي!» ثم جرد سيفه وضربه به.

ـ وماذا فعلتم به؟

ـ إنه مقيد في غياهب زنزانته. وقد تولى الشيخ عبد الملك بن عطاش أمر قيادة القلعة.

ـ وما هو الوضع الحالي هناك؟

ـ صعب يا سيدي. فهناك القليل من الماء والطعام، وبعد فترة قصيرة سيفتقدهما المؤمنون الذين لجؤوا إلى داخل أسوارنا: وعددهم ينوف على الثلاثة آلاف مؤمن! ما من شك في أن شعب خوزستان يؤيدنا، لكن ذاك الشيطان كيزيل ساريك، رجل قاس وكل أهالي الإقليم يرتجفون خوفاً منه. ولذلك لا يمكن الاعتماد أبداً على مساعدتهم.

شكره الحسن. بعد أن هدأت نفسه، واسترد هيبته.

ـ ماذا تفكر أن تفعل بابنك؟ استعلم بوزروك أوميد.

ـ سنحاكمه وفق قوانيننا.

صرف وزراءه وطلب استدعاء ابن طاهر.

ـ ما رأيك بالغزالي؟

ـ لقد انشغلت بكتابه طيلة الليل تقريباً، يا سيدنا.

ـ حسناً. هل علمت ما حصل منذ فترة وجيزة في خوزستان؟

كانت التغضنات الجديدة التي خدّدت وجه الحسن قد استرعت انتباه ابن طاهر.

ـ نعم علمت بذلك يا سيدنا.

ـ وماذا أنت فاعل إن كنت مكاني؟

نظر الفتى إليه بصفاء وقال:

ـ سأفعل ما يأمر به القانون.

ـ أنت على حق... أتعلم من هو إبليس؟

ـ إبليس روح شريرة أغوت الإنسان الأول...

ـ إبليس أكثر من هذا. إبليس هو الذي كفر بربه، هو عدو الله اللدود.

وافقه ابن طاهر بإيماءة من رأسه.

ـ كل مرتد وكل عدو للعقيدة الصحيحة إنما هو إبليس. فالعقيدة الصحيحة، وحدها، هي عقيدة الله.

ـ... وهي ما يجهر بها مؤمنو إسماعيل!

ـ نِعم ما قلت. والآن، هل سمعت ما يقال عن شخص كفر بعقيدتنا وأصبح بعدئذ عدوها اللدود؟

نظر الفتى في عيني الحسن، محاولاً التكهن بالرجل الذي يقصده.

ـ ربما تفكر في الوزير الأكبر؟

ـ بالضبط. وهو قاتل جدك! في بادئ الأمر، جهر بعقيدتنا الدينية. إنه إبليسنا، شيطاننا. وأنت هل مستعد لتصبح سيد ملائكتنا، وتثأر لجدك؟ فلتجهز سيفك!

ضمّ ابن طاهر قبضتيه. وشمخ بكامل قامته ليشبه أكثر من أي وقت مضى شجرة سرو فتية.

ـ سيفي جاهز، يا سيدنا.

ـ أتعرف الطريق من الري إلى بغداد؟

ـ أعرفه، إني من ساوا، التي تقع على هذا الطريق.

ـ إذن، اصغ. ستذهب أولاً إلى الري، ومن هناك، وعبر ساوا وهمذان، تصل إلى نهاوند. لكن تجنب منزل أهلك! فطيلة مسيرك، عليك ألا تفكر إلا بشيء واحد: كيف تصيب هدفك. راقب وتحرَّ في كل مكان مقاصد الوزير الأكبر. لقد وصلتني أخبار عن تجهيزه جيشاً عرمرماً في نهاوند ضدنا وضد خصمه في أصفهان، تاج الملك. هل تفهمني جيداً؟ إن الغزالي صديقه. ومن الآن فصاعداً سيكون اسمك عثمان، مريد عالم الدين المشهور، وقد جئت حاملاً للوزير الأكبر طلباً من معلمه. ولذا خذ معك الكتاب الذي أعطيتك إياه. لقد أمرت أن يجهز لك هنا اللباس الأسود لطلاب السنّة وصرة فيها نقود للسفر، وفيها أيضاً رسالة موجهة للرجل الذي عليك أن تقتله. وهذا الختم الذي تراه عليها سيفتح لك الأبواب المؤدية إليه.

تناول ابن طاهر الثوب الأسود من يديه وتفحصه بفرح مشوب بالقلق. ثم جعل الصرة تحت نطاقه والرسالة داخل صداره.

ـ لقد تعلمت من الحكيم الحركات المتوقع أن يقوم بها من يمثل بين يدي الوزير الأكبر. عندما ستغادر آلموت، احرص على أن تخفي ملابسك في كيس. وعليك أن تبدل ثيابك ما أن تصبح بعيداً عن أنظار القلعة، واحرص على أن تتخلص من كل شيء يمكن أن يكشف عنك. إني أعرف نظام الملك. حينما يعلم أن الغزالي أرسلك، سيستقبلك بخالص الود. والآن، اسمع جيداً! في إحدى ثنيات هذا المغلف المختوم يوجد نصل مخبأ مرهف الحد قاطع: إنه خنجر صغير. وهذه هي الحركة التي عليك القيام بها لتدس في يدك هذا السلاح الخفي. إنها حركة حذرة، لن تثير انتباه أحد... وستقوم بها في اللحظة التي ستناول المغلف إلى المرسل إليه: انظر! هكذا. وحينما ينشغل الوزير في فضّ الأختام. ما عليك إلا أن تمد ذراعك... وتغمد رأس نصلك في عنقه، في هذه المنطقة تماماً.إن رأيت قطرة دم واحدة فقط تقطر من جلده، فهذه علامة على أنك نجحت. ولكن حاذر ألا تجرح نفسك قبل ذلك، لأن رأس السلاح غمس بسم زعاف. فإن أنت سببت لنفسك سهواً أبسط خدش، فستجد نفسك في الحال عاجزاً عن تنفيذ مهمتك... والجنة التي تتوق إليها كثيراً ستفقدها إلى الأبد.

أصغى ابن طاهر شاحب الوجه، لكن عينيه كانتا تلمعان.

ـ و... ماذا علي أن أفعل بعدئذ؟

ألقى الحسن عليه نظرة سريعة قاسية.

ـ بعدئذ... بعدئذ، فلتتضرع إلى الله. ومفتاح جنتك سيُفتح لك. ولن يعد بمقدور أحد أن يحرمك دخولها. الأرائك الناعمة ممدودة هناك لأجلك. ومريم تنتظرك، تحيط بها وصيفاتها، اللواتي هن تابعات لك. إن أنت قُتلت، فستطير مباشرة لتصبح بين ذراعيها. هل فهمتني؟

ـ فهمتك، يا سيدنا.

أحنى رأسه احتراماً وقبل بسرعة يد الحسن الذي حبس رعشة، لكن ابن طاهر كان مستغرقاً في ذاته إلى حد أنه لم يلاحظ الاضطراب

الذي استولى فجأة على العجوز. ذاك الذي استدار واتجه نحو الرف الجداري حيث وضع الصندوق الذهبي الذي عرفه ابن طاهر سابقاً. فتحه وتناول منه بضعة أقراص وأغلق عليها في كيس ناعم من القماش.

ـ خذ منها كل مساء: فهي ستحملك إلى عتبة الجنة نفسها. لكن احرص على أن تحتفظ بقرص واحد للحظة الحاسمة: عليك ابتلاعه تماماً في اللحظة التي ستظهر فيها أمام الوزير. لذا لا تدع هذه الأقراص تتبعثر: فهي المفتاح الذي سيفتح لك البوابة التي تعرفها.

وضع يديه على كتفي ابن طاهر.

ـ والآن، انطلق، يا بني.

انصرف الفتى، مضطرباً، شاحباً، كان فخوراً ومتأثراً إلى أبعد الحدود. شيعه الحسن بنظراته إلى أن توارى خلف الستارة. ثم وضع يده على صدره. كان يشعر بالاختناق. فرأى أن يصعد إلى السطح، حيث الهواء البارد الذي سينعشه.

تنفس بعمق. «لم تحن ساعة موتي بعد، قال في نفسه. ومع ذلك فقد يكون من الأفضل أن أموت الآن. يكفي أن يتخذ بحزم قرار إلقاء نفسه من فوق هذا الحاجز. لكن الله وحده يعلم أين سأستيقظ بعد ذلك؟...».

كان خبر اغتيال القيني قد أصابه في تلك الليلة بحالة تشبه الموت على نحو غريب. ووجد الداعيين الكبيرين مشقة كبرى في جعله يستعيد وعيه. وأول ما تبادر إلى ذهنه، حينما استيقظ، الاعتقاد بأنه مات وأنه الآن في العالم الآخر. واستولى عليه رعب شديد. «إذن هنالك شيء ما بعد الموت...» هذا ما حدث به نفسه في الحال. وأرعبه ما مضى من حياته. أدرك أنه عاش دائماً كما لو أن الموت لا يعقبه سوى الرجوع إلى الفناء الكبير. لكن إذا بصوت صديقيه يرده إلى الواقع. واطمأن في الحال. الحمد لله، إنها لحظات ضعف قد ولت.

كان قد صرف الداعيين الكبيرين. وفكر: هكذا إذن، حسين القيني، ذراعه اليمين، مات مقتولاً بيد ابنه! إن القانون سيأخذ مجراه

حتماً... لا بد أن ابن طاهر قد انطلق. وكان قد كتب بضع كلمات في رسالة خبأها بعناية. ثم جهز نصلاً مرهف الحد، دقيقاً مثل مخرز أو عقرب مزولة، وغمسه في سم، ثم جففه. بعدئذ فقط ألقى بنفسه على السرير، ونام كالأموات.

عقّب الدعاة والقادة الآخرون بشغف على مسألة الاغتيال التي حدثت في خوزستان. ماذا سيفعل الحسن؟ هل سيلتزم فعلاً بتنفيذ القانون؟ هل سيوقع إدانة ابنه؟

ـ سيجد ابن الصباح مشقة كبرى في البت بالأمر، تنبأ بذلك عبد الملك. لقد كان حسين القيني أفضل مساعد له. لكن المجرم ابنه...

ـ إن القانون فوق كل شيء، ذكرهم إبراهيم.

ـ قل هذا الكلام لغيرنا. إن الذئاب لا تأكل بعضها بعضاً، أبدى اليوناني ملاحظته تلك متهكماً ـ فرمقه ابراهيم ببضع نظرات كالحة.

ـ ليس الأمر جريمة عادية.

ـ أعرف، أيها الداعي ابراهيم. لكن يصعب علي تصور أب يسوق ابنه إلى الإعدام.

ـ إن حسين عضو في الجماعة الدينية الإسماعيلية.

فقال أبو سراقة حينئذ:

ـ هذا صحيح. لقد سقط في أحابيل قانون وضعه بنفسه.

ـ من السهل عليكم الحديث عن ذلك، قال مينوتشهر مستاء. الأحرى أن تتصوروا اللحظة التي عليه فيها إصدار مثل ذلك الحكم ضد ابنه...

فهمهم اليوناني:

ـ أسهل بكثير أن يصدر الحكم ضد أبناء الآخرين.

ـ وأكثر سهولة أيضاً على الآخرين أن يحكموا، أضاف أبو سراقة.

ـ لا أود أبداً أن أكون في مكان القائد، قال عبد الملك في إصرار.

كان القيني بالنسبة إليه أكثر من ابن. فله يدين بشطر نجاحه بل وأكثر...

ـ إن الأب غير مسؤول عن أفعال ابنه، قال آنئذ إبراهيم وقد سلم بالأمر.

ـ لكنه لو أدان ابنه لقيل: يا له من أب فظ! كانت لديه سلطة تغيير القانون ولم يستخدمها.

كان ذلك رأي أبي سراقة. وعلق اليوناني على قوله:

ـ ولن يلبث الغرباء أن يهزؤوا من الحسن. لكأني أسمعهم من مكاني هذا يقولون: «أحمق، ألم يجد طريقة واحدة ليتجنب القانون الذي سنه بنفسه....».

ـ لكن المؤمنين قد يثورون إن لم يطبق القانون بصرامته الكاملة. أليست ميزة كل قانون في تجاهل الحالات الخاصة لصالح المصلحة العامة؟

ـ فعلاً، إن سيدنا في مأزق صعب، كانت تلك النتيجة التي انتهى إليها اليوناني. فهو قد فقد في الوقت الأشد حرجاً أفضل فرسانه. ومن اليوم فصاعداً، من سيجبي له ضرائب خوزستان؟ ومن سيلاحق ويبتز أموال قوافل المارقين؟ أجل، ربما ليس أمامه حل أفضل من أن يطبق القانون بكل صرامته...

عاد يوسف وسليمان من جولتهما الصباحية مع المريدين. كانت الشمس تضرب بلا رحمة بلاط الفناء؛ وتعجلا عائدين إلى فيء غرفتهما الرطب. تمددا على سريريهما، عاجزين عن مقاومة الوهن الذي قضى على ما بقي من إرادتهما، أخذا يمضيان الوقت في ازدراد الفواكه المجففة، وهما يتبادلان أحاديث مبهمة. لقد أصابهما هواهما الظمآن بعجز غريب. كان رأساهما ثقيلين؛ وأعينهما غائرة تحدق في الفراغ وقد أحاطت بها دوائر زرقاء.

وفجأة، إذا بنعيم الصغير يدخل الغرفة.

ـ لقد عاد ابن طاهر من عند سيدنا. إنه الآن في الطريق.

بديا وكأن الذهول صعقهما.

ـ من قال لك هذا؟

- رأيته يغادر البرج. حتى أنه لم يلحظني. أعتقد أنه فقد صوابه: فالزيغ يبدو على قسمات وجهه، وهو يبتسم بلا سبب. وسمعته يأمر جندياً بأن يحضر له فرساً.

- لقد اتخذ سبيله نحو الجنة!

وقفز سليمان من سريره.

- تعال يوسف، لنذهب إليه!

كان ابن طاهر في ذلك الوقت منشغلاً بصرته. لقد توجب عليه أن يسحق رقعة الشمع الرقيقة التي انطبعت عليها آثار أسنان مريم. بعدئذ خبأ قصائده في لفافة عهد بها إلى جعفر حينما انضم إليه لاحقاً.

- احفظ هذه إلى حين عودتي. وإن لم أعد بعد شهر، فسلمها إلى سيدنا.

وعده جعفر بذلك. وفي اللحظة التالية، دخل سليمان ويوسف على عجل الغرفة. ووراءهما نعيم الذي ظل صامتاً بالقرب من الباب.

- هل ذهبت إلى سيدنا؟

كان سليمان يمسك بكتفي ابن طاهر وينظر إليه بعينين متسائلتين.

- وكيف عرفت ذلك؟

- نعيم أخبرني.

- إذن ربما تعرف ما هي مهمتي أيضاً؟

تخلص ابن طاهر من قبضة سليمان والتقط الكيس الذي يحوي الأشياء التي سلمها إليه الحسن. تطلع يوسف وسليمان إليه بعيون مفعمة بحزن عميق.

أشار جعفر إلى نعيم، وغادر كلاهما الغرفة.

- هذا صعب علي، لكن يجب أن ألتزم الصمت، قال ابن طاهر لرفيقيه حينما أصبحوا بمفردهم.

- قل لنا على الأقل إن كنا سنعود إلى الجنة قريباً...

كان صوت سليمان يحمل التوسل ويبعث على الشفقة.

- اصبرا. ونفذا ما يأمركما به سيدنا. واعلما أنه يفكر بكما كثيراً.

وودعهما ابن طاهر.

- نحن فدائيون، أضاف ابن طاهر، وهذا يعني أننا نضحي بأنفسنا. لكننا نتمتع بميزة خاصة بنا وهي رؤية الثواب الذي ينتظرنا. إن الموت لا يخيفنا.

كان يود لو يعانقهما مرة أخرى، لكنه أمسك عن إظهار بادرة الحنان تلك. واكتفى بإشارة وداع سريعة وركض نحو الجواد الذي أحضرَ له.

ما أن اعتلى صهوته، حتى أمر بإنزال الجسر، وهمس بكلمة السر إلى الحارس وانطلق موفور الهمة. وبعد هنيهة، أخذ يعدو على طول المضيق. ولما وصل إلى منتصفه، التفت للمرة الأخيرة. فقبل بضعة أشهر، في هذا المكان بالذات، اكتشف أبراج القلعة الضخمة التي تهيمن على كل تلك المناطق الموحشة. تلك هي آلموت، عش النسر: أرض المعجزات التي تخطّ مصائر الناس. ترى هل سيراها ثانية؟ واستولى عليه حزن فريد. لقد حزّ هذا الفراق في قلبه كثيراً إلى حد أن الدموع كادت تلمع في عينيه.

بدل ملابسه في مكان منزو، ودس في كيسه كل ما لا يرغب في حمله، ثم أخفى الكيس في حفرة ردمها بعدئذ ببعض الأحجار.

شدّ على جسده لباسه الديني الجديد. والآن، ليس له الحق في أن يكون ابن طاهر السابق. أليس هو طالب نظامية بغداد، المريد المفضل لدى الغزالي... سروال أسود، سترة سوداء، وعمامة سوداء أيضاً. أخفى في أكمامه الواسعة الكتاب والرسالة التي تحوي النصل المميت، تحقق من أربطة قربة الماء الواسعة ومن جراب الطعام المعلقين إلى السرج، واندفع نحو طريق الجنوب.

امتطى جواده طيلة النهار وشطراً من الليل، ولم يتوقف إلا حينما لاح القمر في السماء. نصب خيمته وسط الصخور. وفي صباح الغد لاحظ من قمة الهضبة معسكراً كبيراً يمتد في أرض الوادي. تلك كانت طلائع جيش السلطان. تجنب مواقعها وبلغ الري بحلول المساء.

وفي الخان الذي قرر أن يمضي فيه ليلته، علم أن أرسلان طاش

يفكر في مهاجمة آلموت: فكل الجيش يتجه الآن نحو الجبال؛ لقد كانت تلك إرادة السلطان، الذي يتوق لمحو عار هزيمة فرسانه الأخيرة. لكن ابن طاهر لم يستطع الحصول على أي أخبار تتعلق بخطط الوزير الأكبر.

وحان أخيراً وقت النوم. وبيد مرتعشة، حل رباط كيسه الصغير وسحب منه أحد الأقراص التي أعطاه إياها الحسن. ابتلعه وانتظر بوادر تأثيره.

بعد لحظات قليلة، شعر بتلك القوة الغامضة التي رفعته في السابق إلى ارتفاعات مشابهة أثناء رحلته الليلية السابقة، لكنه لم يشعر بذاك الخوف الذي أفقده شيئاً من طاقته. أخذ يفكر بمريم، ومشاهد جديدة تتالت تحت أنظاره المفتونة. وقصور عملاقة حادة الزوايا، بأبراجها العالية المدببة، تنشر أمامه بياضها الباهر. لتأخذ في الذوبان بعدئذ كما لو أن يداً خفية قوضت بنيانها. كانت مدناً كاملة، بقبابها الملونة تنشر بهاءها عند قدميه. شعر أنه يسيطر على تلك المناطق المجهولة مثل ملك قادر، لا يقف في وجه رغباته شيء. وأخيراً بلغت الرؤى أوجها في حدة تركته تعباً لاهثاً، ثم غلبه النعاس. وفي الغد، نهض في وقت متأخر وأطرافه منهكة. آه! لمَ استيقاظه هذا يختلف كثيراً عن ذاك الذي عرفه في المرة الأولى، في مقصورة البلور!

لكن عليه ألا يضيع الوقت. «إلى الأمام!» تمتم ليبث الشجاعة في نفسه، وعاد إلى المسير. تجنب المرور بمسقط رأسه فقد كان يخشى الذكريات. كانت حرارة الشمس تلسع في عناد، وأحس بثقل في رأسه. وليتغلب على بلادة تفكيره، أرغم نفسه على التركيز على هدف رحلته. وغير ذلك، استولت عليه رغبة واحدة: أن يبلغ أحد الخانات، ليتمدد، ويبتلع قرصاً جديداً... ويستسلم لقوة المخدر الغريبة.

عند مشارف همذان، انضم إلى مفرزة من الفرسان المسلحين.

ـ من أين أتيت، أيها الفارسي؟ سأله معاون القائد.

ـ من أصفهان. لقد أُرسلت على جناح السرعة من بغداد، حاملاً

رسالة موجهة إلى الوزير الأكبر. لكن ما أن وصلت إلى أصفهان، حتى علمت أن الوزير المبجل كان قد سلك هذا الطريق الذي نحن فيه ليلاقي السلطان.

ـ أتريد لقاء معالي نظام الملك؟

وأظهر له معاون القائد على الفور احتراماً أكبر.

ـ أحمل رسالة أود تسليمها له. لقد علمت مؤخراً أن رجالاً آخرين قد تسلموا مقاليد الحكم في أصفهان...

ـ تعال معنا! فمعاليه في نهاوند التي أُقيم فيها معسكر حربي. وهناك كل فرقنا مجتمعة... للزحف مباشرة إلى أصفهان، حسب ما يقال.

ـ إذن كدت أن أسلك الطريق الخطأ! لقد علمت مصادفة، وأنا في الخان، عن رحيل معاليه المستعجل. هل نشب خلاف بخصوص بعض المارقين؟

ـ أتقصد الإسماعيليين؟ هؤلاء ليسوا بخطرين. والأميرين أرسلان طاش وكيزيل ساريك سينتقمان منهم. لا، إن القضية التي جئنا لأجلها إلى هنا أكثر أهمية بكثير.

ـ أقر بجهلي التام عنها.

ـ هنالك تهامس يدور حول صراع مرير نشب بخصوص خلافة العرش. فنظام الملك يريد أن يُعينَّ باركياروق الابن البكر للسلطان وريثاً؛ أما السلطانة فإنها تضغط على جلالته ليمنح العرش لابنها محمود (*). إن الجيش والشعب يؤيدان باركياروق. لقد رأيته ذات يوم: رجل كامل الصفات؛ وجندي من رأسه إلى أخمصه. لا أحد يمكن أن يعلم ماذا سيكون محمود، فهو بالكاد قد غادر مهده.

وقبل أن يصلوا همذان، كان ابن طاهر قد أحاط علماً بكل اللغط الذي يشيع بين العامة وفي صفوف الجيش حول دسائس البلاط. وعلم في المدينة أن السلطان قد غادر نهاوند منذ برهة وجيزة متجهاً نحو

(*) ورد في النص الفرنسي اسم محمد، وهذا خطأ تاريخي.

بغداد. أمضى ابن طاهر ليلة ثانية في الخان، تاركاً صديقه معاون القائد في معسكره. وفي الصباح، استبدل فرسه بمطية نشطة وتابع سيره صوب نهاوند.

تدفقت من كل أصقاع البلاد، فرق الجيوش نحو المخيم، الذي نصبت فيه آلاف عدة من الخيام على السهوب التي أحرقتها أشعة الشمس. كانت الخيول والبغال والجمال ترعى العشب الجاف، حرة تقريباً، ومن وقت لآخر، كان يجمعها حراس على أحصنتهم، منطلقين وراءها، في عدو صاخب، وخلفهم آلاف الثيران، والماعز والخراف، التي كانت تتبع الجيش في زحفه، في حين كان رعاة يقودونها للمرعى في زوايا الجبل حيث لا تزال هناك باقات من العشب الأخضر. ولم يخل درب من الدروب إلا وخطته مفارز الجنود المرسلة على عجل من قرية إلى أخرى لمصادرة الكلأ والمؤن التي تلزم الجيش عادة.

وفي وسط المعسكر، كانت تشاهد مساحة واسعة خالية: ففي ذلك المكان أقيمت، قبل بضعة أيام، خيام سكن السلطان، ولا تزال الأرض المداسة، وكذلك آثار نيران عظيمة، تشهد على مرور الحرس السلطاني. وظلت خيمة واحدة منصوبة في تلك المنطقة: خيمة خضراء هائلة، ذات مظهر فخم، جعلها الوزير الأكبر مركز قيادته.

منذ أن اختلف نظام الملك قبل بضعة أشهر، مع سيده، والتقدم في السن قد ظهر عليه بوضوح. ورغم أن عمره زاد على السبعين عاماً، إلا أنه استطاع أن يحافظ حتى ذلك الحين على نشاط مدهش، وكانت [illegible] لا تزال تثير إعجاب حاشيته. لقد مضى عليه [illegible] من ثلاثين [illegible] وهو يمسك بمقاليد الدولة وقد جعل منه السلطان [illegible] ذلك قط. وعند لحظات موته، أوصى ولده [illegible] [illegible] أتابك» أي «أبا الأمراء». وكان نظام قد وطد السلم على الحدود، وشق الطرق، وشيد المدن، والمساجد والمدارس، ونظم الضرائب، وأعلى من

شأن الأمن والرخاء في البلاد إلى درجة لم تبلغها يوماً. وهكذا نعم طويلاً بثقة العاهل اللامحدودة... إلى أن دخل في نزاع مع السلطانة الشابة حول موضوع خلافة العرش. وكان حساد وخصوم من كل الأجناس، وفي مناسبات كثيرة في الماضي، يسودون صورته في عين السلطان، لكن الأخير لم يكن ليلتفت إليهم: ولم يؤاخذ وزيره على الثروة التي اكتسبها أثناء خدمته؛ ومضى إلى حد أنه سمح لنظام بأن يضع أبناءه الاثنا عشر في أفضل مراكز إدارة البلاد. لكن الخاتون توركان الجميلة، وبمثابرة منها، استطاعت أخيراً أن تثبت لزوجها السلطان أن العديد من الخطوات التي اتخذها وزيره المفضل تكشف عن استبداد صرف. وأن ذاك يعامل سيده السلطان معاملة تلميذ من السوقة، وبأنه بمختصر العبارة تعسف في استعمال سلطته. وجاءت بادرة مشؤومة من الوزير مؤيد الدولة، الابن البكر لنظام في وقتها لتؤكد أقوال السلطانة. فقد أوصاه السلطان بأن يتخذ في خدمته رجلاً اسمه عادل، لكن الوزير أصر على رفض تلك التوصية اللبقة، مدعياً أن ذلك الطامع ليس بكفؤ للقيام بالمهام الموكلة إليه. فصاح السلطان: «أليس لي شأن على الاطلاق في بلادي؟» وقام بعزل الوزير المزهو بنفسه على الفور وجعل مكانه المدعو عادل. لقد أصاب ذاك التصرف الوزير الأكبر في الصميم. فنطق ببضع كلمات عن نكران الجميل لدى العاهل، وما لبثت أقواله أن وصلت مسامع السلطان الذي استبد به الغضب من جديد، إلى حد أنه هدد نظام بتجريده من مقبض الريشة، والدواة والقلنسوة وجميعها شارات مقام الوزير.

ـ سأرد للسلطان عن طيب خاطر، مقبض الريشة والقلنسوة، قال الوزير بمرارة. لكن السلام ورخاء البلاد هما صنعتي. ويوم طاف البحر، شرفني جلالته بثقته. أما الآن والأمواج هادئة، والسماء صافية، فهو يلقي أذناً صاغية لأولئك النمامين. وربما لا يطول به الوقت حتى يدرك الرابطة الوثيقة بين أمن عرشه وإمساكي بالقلنسوة ومقبض الريشة بين يدي...

ويبدو أن ذلك الكلام زاد أكثر من استياء السلطان. وأخيراً، ولما اعترف الوزير من تلقاء نفسه بأنه قد كلمه منذ عهد قريب بكلام باطل

عن مقدرات الحسن، فإن السلطان شعر بإهانة كبريائه، إلى حد أنه، وفي بادرة غضب منه، قام فعلاً بعزل الوزير الأكبر.

واليوم وقد تصالح الاثنان أمام الخطر المحدق بالبلاد، فإن مشاعر نظام الملك أخذت تهدأ شيئاً فشيئاً. ليجعل نصب عينيه هدفين: الإطاحة بمنافسه تاج الملك، وإهلاك عدوه اللدود الحسن، الذي هو حليف تاج الملك أيضاً. فإن نجح، فسيصبح في وقت وجيز سيداً بلا منازع لسياسة السلطنة.

كانت الخطوات الأولى التي اتخذها في ذلك المنحى خطوات شجاعة. فقد استطاع أن يستغل على أفضل وجه هزيمة الفرسان الأتراك أمام آلموت، فتلك المناوشة البسيطة للطليعة التركية قوضت في لمح البصر الثقة الجديدة التي أولاها السلطان لتاج الملك. ومن جهة أخرى لم ينس السلطان الجهود التي بذلتها السلطانة ووزيرها لكي لا يحيق خطر جدي بالإسماعيليين. لقد استطاع نظام الملك إقناعه بأنه لا بد من اتخاذ إجراء حاسم ضد المرتدين إن كان يريد الاحتفاظ بهيبته على رعاياه. وهكذا أعاد العاهل لوزيره سلطته المطلقة، وكلفه شخصياً بالتخلص نهائياً من رجال آلموت. لقد وصلت إلى مسامع الوزير الحكايا التي تروى عن المعجزات المزعوم حدوثها هناك، وكذلك قصص متحمسي الحسن الذين كانوا يؤكدون أينما حلوا أن الحسن كشف لهم عن الجنة. ورغم أن الوزير الأكبر نظر إلى تلك الأخبار على أنها محض سخافات، إلا أنه لم يستهن بقدرة تأثيرها المحتمل على العامة. كان يعلم جيداً أن العامة لا تؤمن بالخرافات وحسب، وإنما تستمتع بالتأكيد بسماعها أحاديث عن صناع المعجزات وتستقبلها بكل سرور.

لقد أصبح المعسكر الحربي في نهاوند أشبه بعاصمة مؤقتة للسلطنة. وأقبل الناس من كل الأرجاء ليعرضوا على نظام ظلاماتهم والتماساتهم. فما إن عين تاج الملك في مكانه، حتى قام بعزل عدد كبير من موظفيه، وسارع إلى أن يحل محلهم رجالاً من طرفه. ويمكن تصور استقبال كل أولئك المستخدمين الذين زالت حظوتهم لنبأ عودة حاميهم القديم: لقد تعجلوا لزيارته، أو أوفدوا إلى المكان رجال

ثقتهم، متلهفين لاسترجاع ذكرى طيبة عن وزير رافقوه في السراء والضراء ـ ألم يفقدوا مناصبهم لمجرد إخلاصهم له؟ لقد استقبلهم نظام الملك ووعدهم خيراً. وفي الوقت نفسه، عمل على إعداد جيش جرار، فهو أفضل طريقة لإجبار خصمه، الذي تحميه السلطانة، على التنحي عن الحكم.

ذات صباح، أعلن رئيس التشريفات أن فتى يدعى عثمان، وهو مريد الغزالي، يطلب المثول بين يدي الوزير الشهير، وأن معلمه قد أرسله من بغداد، حاملاً رسالة عليه أن يسلمها إليه بيده.

كان الوزير الأكبر شبه مستلق على سرير أرائك، منهمكاً في التلذذ بفطوره: زبيب، مربى لبّ الجوز، وأصناف أخرى من حلوى خفيفة. وكلها موضوعة فوق طبق مذهب، كان الوزير يتناول منه من حين لآخر بيد شاردة. وقد صب من إبريق نحاس كأساً من شراب العسل، وأخذ يحتسيه على مهل. كان قد صرف عنه كل أشكال الالتماسات والزوار، ووزيراه، الجالسان على يمين سريره وشماله، كانا مرهقين بالتدوينات.

ـ ماذا؟ أتقول مريد الغزالي؟ فليدخل! فليدخل!...

كان واضحاً أن الدخول إلى حضرة الوزير الأكبر أسهل بكثير من بلوغ حضرة قائد الإسماعيليين الأعلى. هذا ما حدث ابن طاهر به نفسه في تلك اللحظة. كان قد التقى بأحد الحراس عند المعسكر، فصحبه إلى قائد الموقع، الذي تناول الرسالة المختومة بختم المدرسة النظامية في بغداد، والموجهة إلى الوزير الأكبر. وسمح لابن طاهر بمتابعة طريقه نحو خيمة نظام الخضراء، وبكل طيب نفس دلّه الجند عليها. كان ابن طاهر هادئاً ومسيطراً على نفسه على نحو غير عادي، وكل انتباهه مركز حول نقطة واحدة: وهي الأمر الذي كلفه به قائده والذي عليه تنفيذه. ولما وصل إلى الخيمة، ابتلع القرص المدّخر؛ ثم دخل غرفة الانتظار.

استوقفه أحد الحراس. فأوضح بصوت صاف هدف زيارته. لم يكن يشعر بعد بتأثير المخدر. بيد أن صور مريم عادت إليه، وارتسمت

على وجهه ابتسامة طفولية. فطيلة أيامه الماضية لم يفكر فيها. وإذا بيقين يفرض نفسه عليه فجأة: إنها تنتظره هناك وهي ثواب عمله! عليه إذن أن يبذل قصارى جهده ليكون على مستوى المهمة التي أوكلت إليه...

دعاه الحارس إلى غرفة أخرى، فدخلها بخطى جسورة. لقد كانت بالفعل خيمة الوزير قصراً حقيقياً! ووجد نفسه أمام مركز حراسة كامل، ولاحت تحت رتب أحد القادة الموضوعة على كتفيه، رمزاً لمهامه، مقمعة من الذهب الخالص. كان الرجل يرتدي زياً باذخاً: قميصاً مزركشاً بالذهب والفضة، سروالاً عريضاً أحمر، عمامة ملونة تعلوها ريش طيور طويلة. كان ذاك رئيس تشريفات الوزير، تفحص الزائر بملامح صارمة وسأله عما يريد.

انحنى ابن طاهر انحناءة كبيرة. ونطق بعناية اسم الرجل الذي أرسله، وأبرز الرسالة والختم الذي عليها. أشار سيد التشريفات إلى أحد الجنود الذي قام بتفتيش الزائر. ولم يعثر معه إلا على كتاب الغزالي وصرة فيها بعض النقود.

ـ إنها العادة المتبعة، قال رئيس التشريفات على سبيل الاعتذار.

ثم أزاح الستارة ودخل إلى الوزير ليعلن عن الزائر.

في اللحظات التالية، شعر ابن طاهر بتوتر شديد يستولي عليه. لقد بدأ مفعول الحشيش. وسمع حوله أصواتاً سرعان ما أنصت إليها مندهشاً. ومبلبلاً. بدا له فجأة أنه قد عرف فيها صوت مريم. «يا الله! سيدنا على حق، همس في نفسه. وهذه ضوضاء الفردوس!...»

دعاه رئيس التشريفات مرتين قبل أن يقرر ابن طاهر اتباعه عبر الباب الذي رفع جندي ستارته. لمح فوق الأرائك عجوزاً قصيراً جالساً، ينبئ محياه عن جلال عطوف. بدا لابن طاهر أن الرجل المجهول يخاطبه؛ لكن صوته وصل إليه كما لو أنه قادم من مكان بعيد جداً. انحنى انحناءة كبيرة.ولما استوى واقفاً، تراءى له فجأة أن هيئة القاعة قد تحولت. فصاح في نفسه «مقصورة الفردوس!». لكن إذا بصوت خفيض يخاطبه:

ـ هدئ من روعك، يا بني. هل الغزالي هو الذي أرسلك؟

وأبصر ثانية أمامه وجه الوزير الأكبر يبتسم له بلطف، محاولاً مساعدته على تجاوز اضطراب يمكن تفهمه، ويفسر بوضوح سلوكه الغريب.

وإذا ببارقة صحو تسري فيه. فيحدث نفسه: «هذه الرؤيا ما هي إلا من تأثير المادة السحرية التي ابتلعتها للتو». وساعدته بارقة التفكير تلك على استدراك الأمر.

ـ أجل، أيها المبجل، إن معلمي الغزالي قد بعثني بهذه الرسالة.

توجه بالمغلف نحو العجوز، وأثناء تقدمه، دس في يده الخنجر المرهف الحد: كانت الحركة رشيقة بقدر ماهي حذرة؛ ولم ينتبه أحد من الحاضرين إليها.

فض الوزير ختم الظرف وبسط الرسالة:

ـ كيف حال صديقنا العالم في بغداد؟ سأل.

انحنى ابن طاهر للأمام كما لو أنه يريد إجابته وبحركة سريعة، أغمد النصل في حلق الوزير تحت الذقن تماماً. كانت المفاجأة كبيرة، حتى أن الوزير لم يشعر بأي ألم فوراً. وإنما حملق مندهشاً؛ ثم اتجهت نظراته إلى العبارة الوحيدة التي تتضمنها الرسالة، وفهم كل شيء. وحينئذ فقط طلب المساعدة.

لم يتحرك ابن طاهر، لقد شُلت حركاته فجأة وكذلك أفكاره، كانت القاعة قد تغير شكلها أمام عينيه المتوهمتين. لهج باسم مريم، متلهفاً للقائها في الحال... واستولت عليه رغبة واحدة: أن يتمدد ويستسلم لتأثير الحشيش الممتع الذي يتوهج في نفسه. وإذ برجال يصرعونه أرضاً، وآخرون يدخلون الغرفة لمساندتهم... وبلا تفكير شرع ابن طاهر يدافع عن نفسه: قبضته تحاول الضرب، وأسنانه تريد العض. وشعر أنه يتهاوى تحت وابل من الضربات... نزعت عنه ثيابه... وتذكر فجأة أن هدفه هو بالضبط الموت حينما تنتهي مهمته. وفي الحال سرى فيه هدوء كبير: إنه ينتظر الضربة القاضية التي ستخلصه، وحملقت نظراته بعناد في وجه مريم البهي وقد لاحت له، عبر غلالة من دم.

وترامى لمسمعه صوت الوزير الضعيف:

ـ لا تقتلوه! اقبضوا عليه حياً!...

توقف العنف والضربات. شعر بالوثاق يشد على ذراعيه وساقيه، لكن الدم الذي أغرق وجهه منعه من الرؤيا. وجذبته للوقوف مجدداً أذرع ضخمة، ثم دوى صوت مرعب:

ـ من أنت، أيها القاتل؟

ـ أنا الأضحية المقدمة لسيدنا!

كانوا منهمكين في غسل وتضميد جرح الوزير؛ وانطلق أحدهم يجري لاحضار طبيب. كان الجريح قد سمع إجابة الفتى...

ـ آه! الأحمق! قال وهو يئن. لقد استمع إلى ذلك المجرم...

كان قائد الحرس قد التقط الرسالة، وبعد أن ألقى عليها نظرة خاطفة، ناولها لرئيس التشريفات دون كلمة منه. قرأها سيد التشريفات وانتفض أمام مرأى من الجميع. كانت تحوي هذه الكلمات: «إلى أن أراك من جديد... في جهنم! ابن الصباح».

في أثناء ذلك وصل طبيب الوزير الخاص وشرع في تفحص الجرح.

ـ هل هو خطير؟ سأل الوزير بصوت أرجفه القلق. أشعر أن أمري يزداد سوءاً.

ـ أخشى أن يكون السلاح مسموماً، همس الطبيب في أذن قائد الحرس.

ـ إن سيد آلموت هو الذي سلح القاتل، أخبره القائد بصوت مسموع.

وعلى الفور، تناقلت الألسن النبأ: لقد أرسل زعيم الإسماعيليين أتباعه لاغتيال الوزير الأكبر!

ـ ماذا! شيخ الجبل؟... ذاك الحسن الذي هزّأه في الماضي الوزير الأكبر في أصفهان؟..

ـ تماماً! وها قد جاء انتقامه اليوم...

حملت جسارة ابن الصباح شيئاً من الإبهام الذي سمّر الجميع رعباً.

ـ وهذا الصبي الذي يغامر بنفسه وسط معسكر غريب ليقوم بجريمته... ألا يدري شيئاً عن الموت الذي ينتظره!

ـ هذا ما يؤدي إليه التعصب.

ـ التعصب؟ إنه الجنون المطبق، أجل!

أما الرجال الأكبر سناً، فلم يستطيعوا أن يفهموا دوافع جرأة كتلك. ووصل الأمر ببعضهم وقد أربكتهم الدهشة، إلى الإعجاب سراً بعمل القاتل الذي لا سابقة له.

ـ هاهو ذا فتى لا يهاب الموت!

ـ أو يهزأ منه. .

ـ أو ربما يرغب فيه!...

أخذت الطبول والأبواق تدوي. وأدلى أحدهم ببيان قصير أمام الجنود الذين هرعوا وأسلحتهم في أيديهم: إن الوزير الأكبر قد جرح جرحاً خطيراً؛ وزعيم الإسماعيليين، شيخ الجبل، هو الذي أرسل القاتل لاغتياله...

استُقبل النبأ بصياح غاضب وبقرقعة سلاح عظيمة. لو أن أمراً حينئذ أعطي لهم بمهاجمة الإسماعيليين، فما من شك في أن جميع أولئك الجنود سيندفعون إلى المعركة في حماس لا نظير له.

رغم أن الطبيب نجح في إيقاف النزف، إلا أن الجريح كان في حالة من الوهن الشديد. لقد انتفخت أوردته. وشعر وكأن مطرقة تضرب رأسه ضرباً.

ـ من المؤكد أن السلاح مسموم، قال الوزير أخيراً بصوت مرتجف، وتطلع إلى الطبيب بنظرات طفل بائس. أما من غوث ينجيني؟

تهرب الطبيب من الاجابة...

ـ دعوني أتشاور مع زملائي...

كان زملاؤه قد استُدعوا على عجل، وهم في الردهة ينتظرون. ودار اجتماع سري خاطف. رأت الأغلبية أنه ينبغي كي الجرح أولاً. فعادوا ليصطفوا قرب سرير الجريح، الذي كان خائر القوى على نحو مخيف.

ـ سيكون من الأفضل كي الجرح، أعلن طبيب الوزير.

ـ اقشعر الوزير. وقد غطى عرق بارد جبهته.

ـ أظن أن هذا سيسبب ألماً مبرحاً أليس كذلك؟ ـ كان صوته مسحوقاً من الخوف.

ـ ما من حل آخر، أجاب الطبيب بخشونة.

ـ فليرحمني الله!

شرع الأطباء في عملهم وأخذوا يحضرون أدواتهم الفظيعة. أحضر خادم كانوناً من الفحم المتوهج. وصدرت أصوات قرقعة الحديد الجافة. كان الوزير يتأمل تلك التحضيرات دون وهم. بدأ يشعر بسريان السم السريع: وأدرك أنه ميت لا محالة.

ـ لا جدوى من الكي، قال لهم بصوت منهك، اهدؤوا. ودعوني أمُت.

تبادل الأطباء النظرات، وقد بدا الارتياح عليهم. كانوا يعلمون أن لا طائل من أية محاولة.

ـ هل فكر أحد بإخبار السلطان؟

ـ لقد انطلق أحد الرسل، وسيلتقي بجلالته عما قريب.

ـ أيها الكاتب، اكتب، أمر الوزير بصوت ضعيف. وأملى قائلاً:

«أيها الملك والسلطان الأكبر! لقد كرست الشطر الأكبر من حياتي لأقطع دابر الظلم عن مملكتك. ودعمتني إرادتك في عملي ذاك. واليوم سأرحل إلى الملك العلي القدير، آمر الحكام أنفسهم، لأعرض عليه أعمالي في هذه الدنيا. لقد قدمت له الدليل على إخلاصي لك، ذلك الاخلاص الذي لم يخب قط طيلة العمر الذي قضيته في خدمتك. وها أنا في الثالثة والسبعين، أسقط تحت ضربات يد مجرمة. أرجوك، ألا تنسى

اسم ذاك الذي سلّح تلك اليد. فما دام المجرم يسيطر سالماً على آلموت، فلن تكون أنت ولا سلطنتك في أمان. اغفر لي إن أسأت إليك يوماً، كما إني أسامحك أيضاً. ولا تنسَ أبنائي المخلصين لجلالتك جسداً وروحاً».

استنفد ذاك الخطاب قواه، كان يتنفس بجهد: وضع الطبيب على جبينه كمادة باردة. وما لبث أن أملى أيضاً وداعاً سريعاً لأبنائه، ثم سأل:

ـ من هو القاتل؟

ـ إنه يعذب، أجاب الكاتب. يريدون أن يبوح بكل ما يعرف.

ـ أحضروه لي!

دُفع ابن طاهر نحو الجريح مدمى الجسد، ممزق الملابس، يقف بمشقة على ساقيه.

نظر الوزير إلى وجه الفتى المجهول وارتعد. «لكنه ما زال طفلاً!» حدث نفسه.

ـ لماذا أردت قتلي؟

حاول ابن طاهر أن ينتصب وتمكن من القول بصوت واهن:

ـ كان ذلك أمر سيدنا.

ـ لكن ألا تعلم أن الموت ينتظرك بعد ذلك؟

ـ أعرف.

ـ أولم تخف؟

ـ إن موت الفدائي أثناء تأدية واجبه يعني له السعادة.

ـ يا للحماقة! تأوه الوزير.

ثم ألمّت به رعشة غضب.

ـ لقد استسلمت للضلال! حتى أنك لا تعلم ماذا فعلت. أو تعرف المبدأ الأول للحركة الإسماعيلية؟

ـ أعرف: نفذ أوامر قائدك.

ـ أحمق! متحمس مجنون! ألا تعلم أني أنا أيضاً أعرف عقيدة سيدك؟

ـ أعرف. أنت مارق. خائن.

ابتسم نظام ابتسامة تسامح لا تخلو من كبرياء.

ـ اصغ إلي أيها الشاب. إن المبدأ الأول للحركة الإسماعيلية هو: «لا شيء صحيحاً، وكل شيء مباح!...».

ـ هذا كذب! ـ قال ابن طاهر وهو يرتجف غضباً. أنت تجهل من هو سيدنا... سيدنا أتقى الرجال وأشدهم بأساً! فلتعلم أن الله خوله سلطة فتح بوابة الفردوس لمؤمنيه!...

حبس الوزير أنفاسه. واتكأ بمشقة على مرفقه وأمعن النظر في عيني ابن طاهر: لا، من الواضح أن هذا الصبي لا يكذب. هز رأسه وملامح ذهول على وجهه. كان يعرف الأكاذيب التي تدور حول آلموت. وحول أولئك الشبان الذين يتحدثون عن قضائهم ليلة في الجنة. وبدأ يفهم...

ـ أتؤكد إذن أنك ذهبت إلى الجنة؟...

ـ لقد رأيتها بأم عيني! ولمست بأصابعي هذه عجائبها!

ـ وأنت دون شك مقتنع بأنك ستعود إليها ثانية بعد موتك؟

ـ أجل، إن الموت سيعيدني إليها!

وارتمى الوزير ثانية على أرائكه.

ـ الله، الله! لجلج بصوت غائر. يالها من خطيئة! لأجل هذا إذن كان يحتاج إلى ذلك العدد الكبير من الإماء الحسناوات!... لقد اشتراهن من كل الأسواق!...

أصغى ابن طاهر السمع. وقد وتّر الانتباه عضلات وجهه.

ـ ألم يساورك شك في أنك ضُللت عن عمد؟ أراد الوزير أن يعرف. ألم تتساءل يوماً إن كانت تلك الجنة من صنع الحسن نفسه؟ من المؤكد أنك ذهبت إليها حتى دون أن تغادر آلموت!

ـ إن آلموت لا يمكن أن تحوي مثل تلك الجنائن. إن الجنان التي وصلت إليها تطابق وصف القرآن تماماً.

وإذا بأحد الحاضرين، وهو قائد عجوزله دراية بكل قلاع إيران، يدلي بدلوه في الحديث:

ـ قد يكون المقصود تلك الحدائق الخفية الشهيرة التي هيأها ملوك الديلم الأقدمون لمتعتهم، خلف القلعة. كثيراً ما سمعت أحاديث عنها.

جحظت عينا ابن طاهر. كانتا تعبران عن خوف طفولي.

ـ لقد اختلقت لتوك هذه الأسطورة لتبث الاضطراب في نفسي!

احمر وجه القائد:

ـ أخرس لسانك، أيها المجرم! من يخدم مثلي في شمال البلاد يستطيع أن يؤكد وجود تلك الجنائن خلف آلموت: هي معروفة بأنها جنائن ملوك الديلم!

بدأ كل شيء يتراقص أمام عيني ابن طاهر. وها هو يجرب حجته الأخيرة.

ـ لقد رأيت في تلك الجنائن فهداً مروضاً وديعاً كأنه حمل، ويتبع سيداته كالكلب تماماً.

شرع الحاضرون في ضحك مرير:

ـ لدى أمراء وعظماء هذه الدنيا فهود مروضة في حدائقهم قدر ما يشاؤون! حتى أن الصيادين يستخدمونها عوضاً عن الكلاب...

ـ والحوريات ذات العيون السود اللاتي قمن بخدمتي؟

ـ حوريات ذات عيون سود؟ ضحك الوزير الأكبر وهو يتوجع. لسن سوى جاريات هُيئن لإمتاع الحسن... لقد اشتراهن من كل أسواق إيران. وموظفيي لديهم معلومات دقيقة عن كل تلك المشتريات...

كان ابن طاهر يشعر بالغشاوة تتساقط عن عينيه. وفجأة، أصبح كل شيء أمامه واضحاً. إن مريم ـ جارية الحسن وعشيقته... وهو، ابن طاهر، الضحية المسكينة لمؤامرتهما، وخداعهما... شعر برأسه يكاد ينفجر.

وخارت ركبتاه. جثا على الأرض وشرع ينتحب.

ـ اغفر لي يا الله!

كان الوزير الأكبر قد فقد وعيه، بعد أن نال منه الجهد. وندت عنه حشرجة مؤلمة كادت أن تمزق حلقه. ركع الكاتب إلى جانبه وهمس:

ـ إنه يحتضر ـ وترقرقت الدموع في عينيه.

تحلق الأطباء حول الجريح، واستطاعوا إنعاشه بقليل من الماء البارد وبكثير من العطور.

ـ يا لها من جريمة... تمتم وهو يستعيد وعيه.

ولمح ابن طاهر جاثياً أمامه.

ـ هل توضَح لك الأمر الآن؟

أومأ الفتى بالإيجاب. ولم يستطع النطق بكلمة واحدة. لقد تهاوى صرح حياته كله.

ـ سأموت بسبب ضلالك، تابع الجريح القول.

ـ يا الله! يا الله! ماذا اقترفت يداي!

ـ هل أنت نادم؟

ـ إني نادم، أيها المبجل.

ـ إنك شاب ذو إرادة حازمة، هل ستكون لديك الشجاعة لتكفر عن جريمتك؟

ـ إن كان بالإمكان ذلك!

ـ هذا ممكن. ارجع إلى آلموت وأنقذ إيران من براثن ذاك التنين الإسماعيلي!

لم يستطع ابن طاهر أن يصدق أذنيه. نظر إلى أولئك الحاضرين بابتسامة طفولية باهتة خالطت دموعه. لكن الوجوه التي رآها كانت عابسة ومبغضة.

ـ هل أنت خائف؟

ـ لا، لست بخائف. لكني لا أعلم ماذا ستفعلون بي.

ـ سنرسلك إلى آلموت.

أبدت حاشية نظام استياءها برصانة. فالمجرم يجب أن يعذب! ولا ينبغي أبداً تركه يفلت...

أشار الوزير المنهك بيده.

ـ إني أعرف الرجال، قال. إن كان هنالك أحد قادر على الانتقام من الحسن، فسيكون هذا الشاب.

ـ ومع ذلك لا نستطيع أن نطلق سراح قاتلك! ماذا سيقول جلالته؟

ـ لا تهتموا بذلك فأنا لا زلت حياً ومسؤولاً. أيها الكاتب، اكتب!

وأملى إليه بأمر. نظر الحاضرون في أعين بعضهم بعضاً وهم يهزون رؤوسهم.

ـ هذا الشاب الذي طعنني هو أكثر مني ضحية سفاح آلموت. ومع انتقامه لنفسه، سينتقم لي. فلترافقه مفرزة من الرجال على طول الطريق إلى القلعة. وعند عودته إليها، سيُنجز ما يراه واجباً عليه.

ـ سأغمد خنجري في أحشائه!

ونهض ابن طاهر. وعيناه تلمعان بالكراهية.

ـ أقسم أني لن أتوقف حتى أتم انتقامي، أو أموت دونه.

ـ هل سمعتموه؟ هذا جيد... والآن اهتموا به: اغسلوه وضمِّدوا جراحه. واعطوه ملابس لائقة. آه! كم أشعر بالتعب...

أغمض عينيه. كان دمه يحرقه مثل جمر. وبدأ يرتجف.

ـ اقتربت النهاية، همس الطبيب.

ثم أشار بيده. فغادر الجميع القاعة، وتركوه وحيداً بالقرب من المحتضر.

قاد الحرس ابن طاهر إلى خيمة نائية. ساعدوه على الاغتسال، وضمدوا جروحه، وأحضروا له ملابس نظيفة. ثم ربطوه إلى أحد الأعمدة.

الحياة... يا لها من أمر فظيع! إن الرجل الذي ينظر إليه أتباعه على أنه ولي، يكون في الحقيقة شر الدجالين. يلعب فَرِحاً بحياة الناس مثل طفل يلعب بحصاه. يستغل ثقتهم. يرضى مطمئناً أن ينظر إليه على

أنه نبي، وأنه مبعوث من الله... هل هذا ممكن؟ كلما كان ابن طاهر يمعن التفكير في ذلك، كلما ازداد اقتناعه بالعودة إلى آلموت! ليتأكد أنه لم يخطىء أبداً! وإن كان الأمر كذلك، فسيغمد بسرور عظيم نصلاً مسموماً في جسد الحسن. لقد حكم عليه بالموت على كل حال. فلتقع مشيئة الله...

أمضى الوزير الليل في حمى شديدة شبه فاقد للوعي. كان يستيقظ من حين لآخر، وهلوسات مرعبة تعذبه. كان يتأوه ويسأل الله العون. وعند تباشير الصباح، خارت قواه. وغاب عن الوعي تماماً. وعند الظهر، توقف قلبه عن الخفقان.

ـ نشرت الرسل هذا النبأ في كل الأصقاع: « إن نظام الملك، منظم العباد والبلاد، جلال الدولة والدين، عزة البلاد والإيمان، الوزير الأكبر للسلطان ألب أرسلان شاه وابنه ملك، عظيم رجال الدولة الذي لم تعرف إيران نظيراً له، قد مات ضحية سيد آلموت».

الفصل السادس عشر

بعد يوم من مغادرة ابن طاهر آلموت، كان أحد الجواسيس يهرول مسرعاً إلى القصر، حاملاً هذا الخبر: إن جيوش الأمير أرسلان طاش انطلقت في حملة جديدة وهي تستعر غضباً. قرعت الطبول ودوى النفير. واتخذ على عجل كل فرد موقعه الذي عين له. وأعطيت الأوامر لجنود الحراسة على طول المضيق بأن يظلوا في موقعهم إلى أن تبدو في الأفق طلائع خيالة الأعداء. وحينئذ عليهم أن ينسحبوا في نظام تام، بعد أن يتركوا وراءهم، على طول درب المضيق بعض الأفخاخ المستورة بعناية.

كان يصل بوابة آلموت من حين لآخر، مخبرون جدد، ينقلون بفيض من التفاصيل تحركات الجيش التركي. وعند فجر اليوم التالي، دعا الحسن الداعيين الكبيرين إلى اللحاق به في قمة البرج، وأخذ ثلاثتهم يتفحصون الأفق الممتد.

ـ تقول إنك تأهبت على الوجه الأكمل؟ قال أبو علي قلقاً ـ ونظر إلى الحسن نظرة دابة تترصد فريستها.

ـ أجل، كل شيء يجري حسب ما توقعت له. وكل حدث، هيأت له تدبيراً!

ـ أتراك أرسلت ابن طاهر إلى نهاوند؟ ـ أطلق بوزروك أوميد عبارته المرتجلة، ثم شعر بالخوف من جرأته.

قطب الحسن جبينه وتابع بهدوء تفحص الأفق، كما لو أنه لم يسمع السؤال.

ـ كل الإجراءات التي اتخذتها، قال بعد هنيهة، كانت في سبيل نصر قضيتنا المشتركة.

تبادل الداعيان الكبيران نظرة خاطفة. كانا يتوقعان نوع الرد الذي يستطيع الحسن أن يهيئه، لكن خوفهما لم يتضاءل. ومهما حدث، فإن النصر قد يعتمد على كثير من المفاجآت الصغيرة... لا بد أن لدى هذا الرجل ميزة فريدة، وغير عادية، حتى يكون واثقاً على الدوام إلى هذه الدرجة من حساباته.

ـ لنفترض، حاول بوزروك أوميد مجدداً، أن جيش الأمير ظل يحاصر القصر حتى الشتاء.

ـ أرجو ألا يكون قد خطر ببالك أننا سنموت عطشاً؟ قال الحسن ضاحكاً. إن الحصن آمن وهناك ما يكفي من الأقوات لعام كامل.

ـ إن هذا الجيش قد يستبدل بآخر، وذاك الآخر يستبدل بثالث. ما الذي سيحصل حينذاك؟

ـ حقاً إني لا أدري يا عزيزي. وإنما أبذل جهدي لأهتم على المدى القصير وحسب... أو على المدى البعيد، البعيد جداً...

ـ إنه لخطر مخيف ألا يكون هناك مخرج من أي جهة.

ـ وماذا عن جهة الجبال ياعزيزي!... لمَ لا أرسلكما أنتما الاثنان لتجدا خلاصكما في قعر الجبال؟...

ابتسم الحسن بصمت من مزحته. ثم وكما لو أنه أراد التخفيف عنهما:

ـ أرى أن هذا الحصار سيكون قصيراً جداً.

وفي تلك الحظة أشار بوزروك أوميد إلى العلم المرفوع فوق قمة برج الحراسة والذي يشير إلى مدخل المضيق: كانت يد خفية تحركه ببطء، ثم أخفته عن الأنظار.

ـ إن الحارس يترك موقعه، قال حابساً أنفاسه. العدو يقترب.

بعد قليل، إذا بزوبعة غبار في الأفق تدل على اقتراب فرسان. ثم شوهدت الأعلام السوداء تتموج في الهواء، وانقضت أول مفرزة خيالة على الهضبة التي يطل عليها برج الحراسة. وما هي إلا لحظات قليلة، حتى خفقت راية سوداء قوية عند مدخل المضيق.

وتتالى وصول جحافل الجيوش. وسرعان ما امتلأ الوادي أسفل المضيق بالخيام، حتى أن بعضها تعلق بجرف الجبل. وعند حلول المساء ظهرت للعيان الأبراج المتنقلة وآلات الحصار: كان عددها يقرب المائة. والقادة الثلاثة يراقبون تلك الاستعدادات من أعلى برجهم.

ـ يبدو أن لا نية لديهم في المزاح، قال أبو علي.

ـ إن نصراً حقيقياً يستلزم عدواً خطيراً، أجاب الحسن.

ـ من المؤكد أن استعداداتهم ستنتهي بعد يومين أو ثلاثة، نبههما بوزروك أوميد. وبعد ذلك ستحين ساعة الهجوم.

ـ لن يهاجموننا عبر المضيق، تكهن بذلك أبو علي. إن الممر شديد الضيق بحيث سيكون يسيراً علينا ذبحهم الواحد تلو الآخر حتى قبل أن يصلوا إلى أسفل الأسوار. لا، على الأرجح أنهم سيحاولون اتخاذ موقع لهم على القمم المجاورة بحيث يكونون في مستوى ارتفاع أسوارنا. وهنا أيضاً لن يكون الخطر محدقاً إن عرفنا كيف نظل محترسين.

ـ لا بد لهم من قائد جيش محنك، قال الحسن مزايداً، إن هم أرادوا الاستيلاء على القلعة بأسلوب آخر غير التجويع. وحسب معرفتي، فإن مثل تلك الاستراتيجية لا وجود لها في إيران ولا في البلاد الأخرى.

ـ إن حليفهم الأقوى هو الوقت، كان ذلك تعليق بوزروك أوميد الأخير.

ـ والجنة هي حليفنا الأقوى، عاجله الحسن بذلك الرد ضاحكاً.

كان القصر طيلة ذلك اليوم يهتاج هياج خلية نحل. امتلأ البرج الداخلي والأسوار المجاورة بالجنود. وأخذت الآلات الرابضة تضرب باتجاه مراكز الأتراك المتقدمة أحجاراً ثقيلة وكرات خشب هائلة. بينما عُلقت فوق المواقد الحجرية قدور أعدت لإذابة الرصاص والقطران، أو لتسخين الزيت، وتم التحقق من انتظام عمل جهاز صب المادة الحارقة

على العدو. كان المأمورون وخوذات القتال على رؤوسهم يهرعون من معسكر لآخر يتفحصون الاستعدادات، التي كان يشرف عليها عن بعد مينوتشهر بحراسة مساعدين على أحصنتهما. كان الرجال يشعرون بالخطر المحيق بالموقع وهو يحكم قبضته عليهم؛ بيد أن ما من أحد منهم خالجه قلق إزاء تحركات العدو. ووحدهم القادة الثلاثة فوق أعلى الأبراج، كانوا يجتهدون في دراسة منطقة العمليات كلها.

وفي مدرسة الفدائيين، كان المريدون الجدد ينتظرون صدور الأوامر بوجوه شاحبة. كانوا مندهشين لانتهاء التدريب على هذا النحو المفاجيء. وتم اختيار سليمان ويوسف لقيادة فرقتهما، ولم يمل الاثنان من ذكر مآثرهما القريبة العهد ضد الفرسان الأتراك. كان حماسهما الذي انتقلت عدواه للآخرين قد ساعد على رفع معنويات الفرقة المدربة جيداً، وهكذا نسي الفتية المستمعون خوفهم وهم يحلمون بالمجد الذي ينتظرهم: كانوا يعرفون أنهم فرقة مختارة ويتصرفون حسب المقتضى. أثناء فترة بعد الظهر، وضعا الفرقة لحراسة البرج الذي يضم أبراج الحمام، متسلحة بالسهام والحراب القصيرة. بينما تمركزت مفرزة من ستة جنود بالقرب منهم لتهيئة قدور القطران والزيت.

بعد صلاة العصر، وكانا قد طلبا إحضار طعامهما إلى موقعهما. أخذ سليمان ويوسف ينتظران جالسين في مكان منزو على الحاجز، وقد حلا رباط خوذتيهما ـ فالحرارة كوتهما بنارها ـ ورغم ذلك كان العرق يقطر ببطء من جبينيهما. إن الذي لم يشاهدهما منذ يوم وصولهما، قبل ستة أشهر، ليشق عليه اليوم التعرف إليهما: وجنتان غائرتان سفعتهما الشمس، قسمات متصلبة، شبه قاسية. وقاما بمراجعة الاجراءات المتخذة، والتي لم تظهر فيها ثغرة تثير قلقاً.

ـ لقد تُركنا محبوسين مثل فئران في جحر، قال سليمان متضجراً. كانت المرة الأولى مختلفة تماماً: أضرب العدو ضربات موجعة بالسيف على رأسه... هذا ما كان يطيب لي!

ـ لننتظر، هدأه يوسف، ربما لدى سيدنا قصد خفي. فهناك حوالى ثلاثين ألف مارق، وهذا ليس بالعدد الضئيل.

ـ إن العدد لا أهمية له. فلتعط لي الأوامر الآن وسأنقض عليهم من فوري! هل علينا تحمل هذه البطالة الجهنمية إلى ما لا نهاية!

ـ إني أفكر مثلك أنا أيضاً، أود أن ألقن أولئك الكلاب الهراطقة درساً...

ـ أتعلم ما الذي دار في رأسي طيلة النهار؟ لكن لاتقوله لأحد. أريد أن أقترح على سيدنا أن يدخلني إلى معسكر الأعداء لأقتل هذا الكلب أرسلان طاش.

ـ لن يسمح لك. لقد أقسمنا اليمين وعلينا انتظار أوامره.

ـ آه، يا لهذا الانتظار المزعج! لقد قلت لك، لن يطول الأمر حتى أصبح مجنوناً. أشعر أحياناً بإحساس غريب في رأسي. ومنذ يومين، وكان ذلك بين صلاة المغرب والعشاء، شعرت فجأة بحنق يستولي علي. ولا أدري كيف وجدت نفسي فوق السور، وخنجري في يدي. وكان أسفل مني ثلاثة تلامذة جدد يتنزهون وهم يثرثرون. وتركتهم يقتربون. واضطربت فجأة واستولت علي رغبة جامحة: تخيلت بأني أغمد سكيني في بطونهم. ولما أصبحوا تحت مخبئي تماماً، انقضضت عليهم. أخذوا يولولون مثل النساء. رفعت خنجري، وفي اللحظة ذاتها عاد إلي صوابي. كنت منهكاً إلى حد أني بالكاد استطعت الوقوف على قدمي. استجمعت ما تبقى لي من قوة لأبتسم وأغمغم: « هيه، لقد كنتم أبطالاً تافهين، أردت امتحان شجاعتكم، لكني أرى أنكم لستم متأهبين» وبعد ذلك لجأت إلى خطبة قصيرة على شاكلة خطب عبد الملك: على الإسماعيلي، ولا سيما الفدائي أن يظل على أهبة الاستعداد دوماً... من العار على فرد من المصطفين أن يستسلم لمفاجأة أي أمر مهما كان... وهكذا تخلصت من الورطة. لكني ومن ذلك اليوم، أعيش في هاجس بأني سأصبح مجنوناً ومسعوراً إن لم يقدم إلينا سيدنا سبيل الخلاص.

كان يوسف يرتجف:

ـ هذا هو تأثير أقراص سيدنا تلك! لقد استخدمها ليفتح لنا الباب في الأعلى... لكننا الآن، ومع نفاد صبرنا تمزقنا تلك الفكرة المسيطرة على عقولنا: العودة إلى الجنة!

- ومن الذي يذوق طعم الجنة، ولا يريد العودة إليها؟ يا الله، ياالله! لم هذا الامتحان الطويل؟

مر يومان على ذلك المنوال من الاستعدادات المحمومة والصمت الكئيب. كان الانتظار بالنسبة لرجال القلعة عذاباً حقيقياً. وما فتيء الحسن والداعيان الكبيران من فوق برجهم يتفحصون الأرجاء المحيطة. كانوا يشعرون بأن ثمة أمراً تعد له العدة، لكن سفوح المضيق، الشديدة الانحدار على نحو مفزع، حالت دون رؤية ما يجري فوق القمم القريبة إليهم. فكلف الحسن عبيدة، وذلك عن طريق أبي علي، بأن يبعث بعض الرجال للاستطلاع فوق قمم الجبال. وقد أصبح بالامكان، من أعلى البرج، وبعد أن أزال العدو العقبات المتروكة في المضيق، رؤية رجال الأمير المنهمكين في دراسة الأماكن.

تلقى خَلَف وابن وقاص الأمر بالنزول عند بزوغ النهار إلى أسفل السور، ومن هناك كان عليهما اجتياز السيل، ثم تسلق الجرف المنتصب في الجهة الأخرى للمضيق. كان كل رجال آلموت يلاحقون بنظراتهم تقدمهما المثير للدوار، وحتى المحنكون أنفسهم، الذين خبروا جروفاً أخرى، حبسوا أنفاسهم. كان ابن وقاص، يتسلق أولاً. ولما وصل إلى نتوء آمن بعض الشيء، ألقى حبلاً ليتمسك به خلف. تابع كلاهما ببطء صعودهما. كانت الشمس قد أصبحت في كبد السماء حين بلغا القمة، حيث تعلقا ببعض الجذوع المنفلقة. وفجأة لبدا واستعد الرماة لحمايتهما. ولما تفحصا بعناية المناطق المحيطة، رمى المتسلقان الرشيقا الحركة كالقرود بأنفسهما فوق جذع بارز وعلقا عليه حبلهما بعقد متينة، ثم أنزلقا إلى أعماق الهاوية. عبرا السيل دون عائق، ولم يكن على رفاقهما سوى رفعهما إلى أعلى السور. لم يحو الخبر الذي أتيا به سوى بضع كلمات: لقد اتخذ العدو موقعه على قمة الجروف وهو منهمك في نصب المنجنيقات وقاذفات اللهب.

وانتشر الخبر بسرعة البرق في الموقع كله. وما هي سوى لحظات قليلة، حتى طارت أول كرة فوق السيل لتتحطم عند أسفل السور. وتبعتها كرات كثيرة أخرى، وكان صوت اصطدام تلك

المقذوفات يغطي على هدير شاه رود نفسه. شعر الرجال المتمركزون في أعلى الأسوار بالأرض ترتجف تحت أقدامهم وأداروا وجوهاً خطف لونها الانتظار نحو عدو لم يقرر بعد الظهور للعيان.

بعد قليل، انهار فوق السيل جانب كامل من الجرف المقابل، بعد أن صدعته الكرات الثقيلة، محدثاً دوياً هائلاً، حاملاً معه كل ما عليه. وسرعان ما انهارت صخور ضخمة أخرى. حملت المياه الصخور المتساقطة أولاً في اتجاه بعيد، لكن الصخور التي رست في منطقة ليس الانحدار فيها شديداً ظلت وسط التيار، وما لبث أن شكلت ما يشبه سداً طبيعياً أخذت تتكسر عليه المياه المزبدة. بعد ذلك أخذت تتحرك أطياف صغيرة فوق أقرب القمم: كانت تلك فرق عدة من الحراقين المنهمكين في سحب آلات ضخمة. أعطى مينوتشهر أمراً وانطلق رشق السهام في اتجاهها. لكنها كانت من البعد بحيث لم يخالج أفرادها أي قلق. وجاء رد العدو كرة ملتهبة انفجرت قرب السور؛ وأنذرت تلك بتتالي كرات كثيرة أخرى. وبعد حين انهمرت أول رشقة سهام على المحاصَرين.

هرع مينوتشهر نحو جندي جريح:

- أحمق! لا تعرضوا أنفسكم! انحنوا!

كان مينوتشهر ينفخ بصوت عال من السخط والغضب، بينما كان الجنود، الممتقعو الوجوه، يتفرسون في بعضهم بعضاً وابتسامات ضيق على شفاههم، بدا قلقهم واضحاً إذ شعروا بمدى عجزهم أمام عدو جيد التسلح.

- هيا! ما هذا إلا ذرور في العيون، قال محمراً من الغضب. إن مناورة صغيرة لحراقة لا تمثل أدنى خطر...

لكن ذاك الركام من الحجارة والنار أثّر على معنويات الجنود. كان الرجال يعرفون أن جميع مخارج القصر مسدودة؛ وفضل كل واحد منهم بالتأكيد، مقاتلة العدو على أرض مكشوفة.

- لو أذن لي سيدنا، لتسلقت هذا الجرف، في مقدمة الفدائيين لأنقض سريعاً على كل أولئك الذين هم في الأعلى، قال عبد الملك حانقاً.

شد يوسف وسليمان هما أيضاً قبضاتهما. كانا أول من دعا إلى ذبح العدو. لكن سيدنا كان يتنزه علانية فوق قمة برجه، يتباحث بهدوء أعصاب مع الداعيين الكبيرين اللذين لا بد أنهما كانا يناقشانه في مشاريعه الصائبة، الأمر الذي أثار أكثر من أي وقت مضى تبرم سليمان.

بعد أن تفحص أبو علي الوضع فوق الأسوار، عاد إلى الحسن وقال:

ـ إن الجنود يساورهم شيء من القلق، قال وابتسامة متكلفة على وجهه.

ـ إن أرسلان طاش لم يأت إلى هنا إلا لأجل ذلك، قال الحسن. إنه يريد أن يؤثر علينا، لنخضع ونخاف. لكنه إن كان يريد استغلال هذه الحالة النفسية، فلا بد من العمل سريعاً. فبعد يومين أو ثلاثة، سيعتاد الجنود كثيراً على هذه الضوضاء إلى حد أنهم سيتسلون بقذف أنشوطات نحو تلك الكرات اللعينة ليروا إن كان بالامكان التقاط بعضها في الهواء!

ـ أتعتقد أنهم قريباً سيجازفون بوضع سلالمهم تحت أسوارنا؟

ـ لا، لا،... أظن بالأحرى أنهم سيحاولون البوح لنا بما تخبئه صدورهم...

عند صلاة العصر، توقف القصف فجأة كما بدأ. وحمل الصمت الذي أعقبه شيئاً من الكآبة. وتوقع كل فرد في القصر أن يكون صخب الساعات الأخيرة نذير حدث هام، سرعان ما انكشف كنهه. وكان رجال البرج الثلاثة أول من استرعت انتباههم بادرة غريبة: إذ أقبل ثلاثة فرسان يعدون بخيولهم على درب المضيق. وما أن أصبحوا على مقربة من الجسر المتحرك، حتى ركنوا دوابهم في الأسفل وأخذوا يطلقون إشارة الهدنة.

ـ من المحتمل جداً أن يكون في الأمر خديعة ما، همس أحد القادة في أذن مينوتشهر.

لكن آمر القلعة طمأنه قائلاً:

ـ لن ننزل الجسر ما لم يأمر القائد الأعلى.

ووصل الأمر سريعاً. وقرقعت سنابك الخيول، وأُنزل جسر المضيق، ودخل مبعوثو جيش العدو القصر. كانوا شاحبي الوجوه لكن وقورين. استقبلهم مينوتشهر بكياسة مرهفة. وفي هذه الأثناء عاد جميع الجنود المنهمكين بأعمالهم في الفناء إلى ثكناتهم بأمر عاجل من الحسن: ألا يبقى على مرمى البصر في هذا المكان إلا الحراس القائمون على حراسة الأسوار. واتخذ الفدائيون ومريدو المدرسة مواقعهم في الساحة الأولى، ووقفت فرقة رماة السهام قبالتهم تماماً. واصطف الفرسان فوقهم في الفناء الأوسط، في نظام تام. اصطحب مينوتشهر، ترافقه هيئة القادة، الزائرين إلى وسط رجاله. ثم تسمر كل رجال الموقع في حالة تأهب كامل، منتظرين الأوامر.

ـ لقد حاولوا أن يؤثروا علينا، قال الحسن الذي كان يراقب المشهد من أعلى. وحان دوري لأؤثرعليهم... وأعتقد أنهم سيذكرون ذلك إلى يوم القيامة...

ومن جديد لون صوته ووجهه ذاك الحماس الكئيب الذي أرعب الداعيين الكبيرين كثيراً. أبصرا على شفتيه الابتسامة الغامضة نفسها التي لاحظاها على وجهه في ذلك المساء المشهور الذي أرسل فيه الفدائيين إلى الحدائق.

ـ أتفكر في قتلهم وعرض رؤوسهم على قمة هذا البرج؟ سأل أبو علي.

ـ سأكون بالغ الغباء إن فعلت شيئاً كهذا. إن جيش الأمير سيستشيط غضباً بحيث سيفقد أي أثر لهذا الرعب الذي نوحي به إليهم. في حين أن هذا الشعور بالضبط هو الذي علينا بثه فيهم إن أردنا إحراز النصر النهائي.

لقد رُتبت الفرق في نظام عرض، والمبعوثون في الانتظار، قال بوزروك أوميد وهو يلقي نظرة سريعة من أعلى الحاجز.

ـ فلينتظروا. هم أرادوا كسر شوكتنا بالرمي علينا، ونحن سنلوي عزيمتهم بالانتظار...

كان زعيم رسل الأمير أرسلان طاش، وهو قائد الفرسان أبي

جعفر، قد دعي ليأخذ مكانه ما بين الفدائيين ورماة السهام. اتكأ اتكاء خفيفاً على مقبض سيفه، وهو يراقب تراصّ صف الجنود بلا اكتراث وباستخفاف مصطنع. ووقف الرجلان اللذان يحرسانه إلى جانبه مسمرين، أيديهم مشنجة على مقابض أسلحتهم وعيونهم تلقي في كل اتجاه نظرات شرسة. كان ثلاثتهم يكبحون بصعوبة بالغة نفاد صبرهم المتفاقم... وكذلك خوفهم من المصير الذي ينتظرهم.

وعلى بعد عدة خطوات منهم، كان مينوتشهر قد عرض هيئة قائديه. تفرس في وجوه المبعوثين في غطرسة، وهو يتبادل من حين لآخر كلمة ما بصوت منخفض مع مساعديه، وما انفك يلقي خلسة نظرات باتجاه القصر. لكن لم تبدُ أية إشارة من تلك الجهة، كما لو أن الحسن قد نسي تماماً أن رجاله ورسل العدو الثلاثة هم هناك في الأسفل بانتظار إرادته الطيبة. كانت الشمس ترشق بلا رحمة أشعتها، لكن أياً من الجنود الحاضرين، سواء الواقفين وأسلحتهم بأيديهم أو الراكبين فوق خيولهم، لم يظهروا أدنى هياج أعصاب. اكتفوا بالتحديق دون اكتراث بالرسل الغرباء، الذين بدأوا يظهرون أمارات القلق. وأخيراً التفت قائدهم المدعو أبو جعفر نحو مينوتشهر، وقد أقلقه هذا الترقب الطويل، وسأله بلطف تشوبه السخرية:

ـ هل العادة هنا أن يترك الرسل ينتظرون تحت الشمس وسط الفناء؟

ـ نحن هنا لا نعرف إلا عادة واحدة: تنفيذ أوامر قائدنا.

ـ في هذه الحالة، أرى نفسي مضطراً لأن أبلغ سيدي أرسلان طاش المبجل، بأن هذا الانتظار هو جزء من جواب سيدك.

ـ كما تشاء.

وانزوى كل منهما في صمته مجدداً. ألقى أبو جعفر نظرات حانقة على السماء الملتهبة، ماسحاً بظهر يده الواسعة العرق الذي بلل وجهه. وبدأ قلقه يتحول إلى كرب. لماذا وُضع وسط كل هؤلاء الرجال المسلحين؟ أي مصير رصده لهم القائد الأعلى في أعقاب هذا الانتظار الطويل؟ كان خياله يسرح... والخوف يتسلل بهدوء إلى نفسه.

قرر القادة أخيراً مغادرة القصر محاطين بحرس الحسن الشخصيين، وقد ارتدوا لباس الأعياد، وخفق دثار واسع أبيض فوق أكتافهم. كانت تلك المرة الأولى التي يظهر فيها الحسن أمام أتباعه المخلصين ـ وذلك منذ أن استولى على آلموت ـ ولم يجهل أتباعه دلالة تلك البادرة. وهو نفسه لم يستطع أن يمنع نفسه من الشعور بتخوف منها.

دوى البوق معلناً وصول سيد القلعة. واشرأبت الأنظار جميعها نحو السطح الأعلى: ظهر ثلاثة رجال، في لباس ناصع البياض، يحيط بهم زنوج نصف عراة يحملون مقامع هائلة. وحبس الجنود أنفاسهم: كان أحد الثلاثة مجهولاً لديهم. وتكهنوا بالحقيقة: لا يمكن أن يكون ذاك إلا سيدنا. وجحظت عيون يوسف وسليمان.

ـ سيدنا! همسا في آذان رفاقهما.

وتناقلت الألسن النبأ:

ـ وأخيراً ظهر سيدنا للعيان!... لا بد أن أموراً عظيمة توشك على الحدوث...

وانتقل فراغ صبر الجنود إلى دوابهم، التي أظهرت بوادر هياج. ولاحت على المبعوثين الثلاثة أنفسهم سيماء التوتر: فما أن ظهر القادة الثلاثة بزيهم الغريب، حتى رفع الرسل رؤوسهم عفوياً وقد بدا الشحوب عليهم.

تقدم الحسن، متبوعاً بحرسه، إلى أقصى طرف من الفناء الأعلى وأطل على الجميع. وساد صمت غريب. لم يعد يُسمع إلا هدير شاه رود المكتوم، فهو المواكبة الصوتية الخالدة في حياة آلموت. رفع القادم الجديد يده في إشارة منه لرغبته في الكلام. وبصوت واضح النبرات، قال مخاطباً أبا جعفر:

ـ من أنت، أيها الغريب؟ لماذا جئت إلى آلموت؟

ـ سيدي! أنا القائد أبو جعفر، ابن أبي بكر، وأنا هنا بأمر من سيدي معالي الأمير أرسلان طاش. إن جلالته، شرف البلاد وضياؤها، السلطان القادر ملك شاه، أرسلني لأبلغك بنيته باستعادة قلعة آلموت،

التي استوليت عليها دون وجه حق. وجلالته يعتبرك أحد رعيته؛ ويمهلك ثلاثة أيام لتسلم القلعة إلى القائد العام معالي الأمير أرسلان طاش. وإن سيدي يضمن لك الخروج سالماً، أنت وجنودك. لكن إن لم تطع أمره، فاعلم أن معاليه سيعتبرك عدواً للبلاد: وسيلاحقك بلا شفقة ولا رحمة حتى يدمرك تدميراً تاماً. كما أن الوزير الأكبر شخصياً، معالي نظام الملك، يزحف إلى آلموت على رأس جيش جرار، عاقد العزم، على ألا يصب بعفو أحداً من الإسماعيليين. هذا ما كلفني به سيدي لأنقله لك.

تلفظ بتلك الكلمات الأخيرة، المشحونة بالتهديد، بصوت خفتت نبرة الثقة فيه قليلاً. أجاب الحسن بابتسامة هازئة، وقال متلاعباً بالألفاظ المفخمة ذاتها:

ـ أبا جعفر، ابن أبي بكر! أخبر سيدك، معالي الوزير أرسلان طاش، الآتي: إن آلموت جهزت كما ينبغي لتصمد في وجه هجومه. ومع أننا لا نعده قطعاً واحداً من أعدائنا، لكن ربما عليه التنبه لضرورة التفكير أكثر من مرة في أمره ذاك: لقد مكث طويلاً يقرقع بأسلحته في هذه الأنحاء، ومن الممكن أن يصيبه ما أصاب قائد طلائعه... وسيكون أمراً مؤسفاً أن ينتهي رأسه إلى العرض على رأس رمح قصير فوق هذا البرج.

صعد الدم إلى وجه أبي جعفر. وتقدم خطوة إلى الأمام واضعاً يده على سيفه.

ـ أتجرؤ على شتم سيدي؟ أنت أيها الغاصب! مرتزق مصر المأجور! أتعلم أننا ثلاثون ألفاً نحيط بقصرك!

صلصل الإسماعيليون الذين أسخطتهم تلك الاجابة بأسلحتهم. بيد أن الحسن كان يحتفظ بهدوء كامل.

ـ هل دأب السلطان على إهانة القادة الغرباء؟ سأل الحسن بصوت رقيق.

ـ لا، نحن فقط اعتدنا على الرد بالمثل لمن يقوم بشتمنا.

ـ لقد أشرت لتوك إلى هؤلاء الثلاثين ألف رجل المسلحين عند

أبوابنا. وإني لأسألك: هل هؤلاء أقبلوا لاصطياد الجراد؟... أم أن لديهم رغبة عارمة في الإنصات لنبي جديد؟

ـ إن كان الإسماعيليون جراداً، فقد جاؤوا لصيد الجراد! وإن كان في هذه الأنحاء نبي جديد، فأنا لم أسمع به.

ـ ألم تسمع مطلقاً عن رجل اسمه الحسن بن الصباح، سيد الأرض والسماء؟ وهو الذي أعطاه الله سلطة فتح بوابة الجنة للأحياء؟

ـ سمعت الكلام عن رجل يسمى بالحسن بن الصباح مشهور بأنه زعيم طائفة من الهراطقة. وإن لم يخدعني حدسي، فأنا الآن أمامه. لكن أن يكون هذا الحسن بن الصباح سيد الأرض والسماء، فهذا أمر جديد علي، كذلك أجهل أن الله قد قلد أحداً ما سلطة شبيهة.

بحث الحسن بعينيه عن سليمان ويوسف وأشار إليهما. فغادرا صفوفهما واتخذا مكانهما عند أسفل الدرج المؤدي إلى السطح الأعلى. خاطبهما بصوت سمعه الجميع:

ـ أتقسمان بجميع الأنبياء والشهداء أنكما نلتما نعمة قضاء ليلة في الجنة، وأنكما تجدان نفسيكما اليوم سالمي الجسد والعقل وفي أحسن أحوالكما؟

ـ نقسم على ذلك، يا سيدنا!

ـ اقسما.

وارتفع صوتهما بالقسم عالياً بنبرات واضحة. أراد أبو جعفر أن يضحك، لكن صوت الفتيين كان يحمل من الحزم الراسخ والاقتناع الصادق ماجعل القشعريرة تسري في جسده. وألقى نظرة على مرافقيه: كانت سيماهما تعبر بجلاء عن غبطتهما لكونهما ليسا مكانه في تلك اللحظات. لا ريب أنه ترك نفسه ينجر في حوار فاشل. استأنف حديثه، لكن بنبرات تشي بتضاؤل ثقته:

ـ لم آت إلى هنا، سيدي، لأتناقش معك حول أمور العقيدة. إني أحمل إليك أمر معالي سيدي الأمير أرسلان طاش، وأنا في انتظار ردك.

ـ لمَ تتهرب يا صديقي؟ هل الأمر عندك سيان إن قاتلت في سبيل الحق أو الباطل؟

ـ حسبي أن أكون في خدمة جلالته.

ـ هكذا تكلم أيضاً الذين قاتلوا في سبيل خدمة شتى الملوك ضد النبي محمد. ولذلك سعوا إلى حتفهم.

كانت عينا أبي جعفر مسمرتين على الأرض. وقد صمت عن الكلام. التفت الحسن نحو يوسف وسليمان. كان الشابان يقفان دون حراك، كما لو أنهما كبلا إلى أسفل الدرج، وهما يحدقان أمامهما بعيون تلتهب بحماس غريب. نزل بضع درجات نحوهما، وضع يده داخل صداره وتناول منه سواراً.

ـ أتعرف هذا السوار يا سليمان؟

شحب وجه سليمان كالأموات، وظهر زبد خفيف على زاويتي شفتيه المتغضنتين. وبصوت أرعشته غبطة مجنونة، تمتم:

ـ أعرفه، يا سيدي.

ـ هيا! إني آذن لك بأن تعيده إلى تلك التي ينبغي أن يرجع إليها.

ارتجفت ركبتا سليمان. وضع الحسن يده من جديد داخل صداره، وناول الفتى هذه المرة قرصاً:

ـ ابتلع هذا.

ثم استدار نحو يوسف:

ـ هل ستكون مسروراً يا يوسف، إن دعوتك للحاق بسليمان؟

والتمعت عينا يوسف بفرح منتش. وأعطاه الحسن هو أيضاً قرصاً.

راقب رسل الأمير المشهد بإحساس يخالجه الضيق. وما كدرهم على الخصوص عيون هذين الشابين، كان بريقها خافتاً، وكأنها شاردة: من يراهما يظن أنهما يداعبان رؤيا تقودهما إلى عالم ما وراء القبور. رؤيا لا يطالها العامة من الناس.

ـ ماذا يعني كل هذا، سيدي؟

ـ سترى. وإني لأقول لك: افتح عينيك جيداً. فما سيحدث أمامك لم يحدث بعد في تاريخ البشر.

ثم نهض واقفاً في أبهة، وقال بصوت عميق:

ـ يوسف، إن سليقة تنتظرك في الجنة! أتبصر هذا البرج! اصعد إليه والق بنفسك في الفضاء... وحالما ستلامس الأرض، ستلاقيك صديقة قلبك بين ذراعيها!

كان وجه يوسف يشع بالسعادة. ومنذ اللحظة التي ابتلع فيها القرص شعر بسلام داخلي يغمره لم يعرفه منذ وقت طويل. سلام عجيب مدهش، مفرح. أصبح كل شيء أمامه كما كان في اليوم الذي وصل فيه، مع رفاقه، إلى الجنائن العلوية. ماكاد الحسن يفرغ من نطق أمره حتى دار يوسف على كعبيه واندفع نحو برج الحمام. ووسط صمت كصمت القبور، التفت الحسن نحو سليمان.

ـ أتحمل معك خنجراً، يا سليمان؟

ـ هاهو، سيدنا.

لم يتمالك المبعوثون الثلاثة أنفسهم عن وضع أيديهم على سيوفهم، لكن الحسن، هز رأسه مطمئناً إياهم بابتسامة. ثم خاطب سليمان قائلاً:

ـ خذ السوار واغرز في الحال هذا النصل في صدرك: فقد حان الوقت لترد هذه الحلية إلى تلك التي تنتظرك!...

أمسك سليمان بالسوار بفرح متوحش. وضمه إلى صدره. ثم وقد رفع خنجره عالياً، طعن فؤاده بكل ما لديه من قوة. ندت عنه تنهيدة خلاص، وتهاوى على آخر درجات السلم، وقد ارتسمت على وجهه ملامح هناء مبهم.

كان الرسل الثلاثة وجميع من رأى المشهد أشبه بتماثيل جمدها الرعب.

أشار الحسن شاحب الوجه، وقد أضاءت ملامحه ابتسامة منهكة، إلى الجثة مخاطباً الرسل:

ـ اقتربوا وانظروا.

بعد تردد قصير أطاعوا. كان الخنجر مغروزاً حتى قبضته في

جسد الشاب وقد لطخت بقعة واسعة من الدم ثيابه البيضاء. حتى في حال الموت، لاحت صورة السعادة ذاتها على وجهه.

وضع أبو جعفر يده على عينيه.

ـ آه! رحمتك يا الله! قال متألماً.

أومأ الحسن بيده إلى أحد الحراس ليغطي الجسد.

ثم استدار نحو البرج وأشار نحوه بحركة واسعة.

ـ انظروا هناك!

كان يوسف مبهور النفس يتسلق الدرجات الأخيرة. وقلبه بين ضلوعه يخفق بقوة. حدق فيه الحرس القائمون على حراسة المنصة الضيقة جامدين، مسمرين في أماكنهم من الذهول. لقد اكتشفت عيناه آنئذ مشهداً خارقاً: أفق رحب من القصور والأبراج والقباب يبسط بهاءه عند قدميه. أنا نسر! قال في نفسه. أجل، ها قد أصبحت من جديد أمير الطيور... وبسط ذراعيه مثل طائر ينشر أجنحته، وقفز في الفضاء. وتحطم جسده في ضجة مكتومة على بعد خطوات من الحضور المشدوهين. واهتاجت الخيول، وبشق الأنفس استطاع فرسانها السيطرة عليها.

ـ تكلفوا عناء تأمل جسد هذا الرجل، قال الحسن مخاطباً المبعوثين.

ـ يكفينا ما شاهدناه، قال أبو جعفر بصوت فارقته الطمأنينة.

ـ حسن جداً! بلغ سيدك عما شاهدته كجواب مني له. لكن قل له أيضاً: صحيح أن عدد جيشك ثلاثون ألف رجل. لكنه يفتقر إلى جنديين مثل هذين. أما بالنسبة إلى وعيد الوزير الأكبر... فأوضح له أني أعرف سراً بالغ الأهمية حول شخص الوزير الرفيع، لكن من المبكر إفشاءه: فلينتظر بين ستة إلى عشرة أيام... وسيعرف هو أيضاً.

وأشار آمراً بإحضار أحصنة حاملي الرسالة الثلاثة. وانحنى أبو جعفر ومساعدوه انحناءة كبيرة وأشار لهم بالانصراف. نقل الجنود الجثتين. وفي اللحظة التالية، اتخذ طريقه نحو برجه من جديد، يتبعه حرسه.

وعاد كل فرد إلى عمله بقلب يعتصره حماس غامض. ولم يجد أي ممن حضروا المشهد الكلمات القادرة على التعبير عن غرابة ما حدث. ولم تنحل عقد ألسنتهم إلا بعد لأي...

ـ لا غفران اليوم لأي شك. فسيدنا حقاً هو السيد الذي يتحكم مدى الحياة بأتباعه المخلصين! ليس الأمر إذن ضرباً من الأساطير: إنه فعلاً يتمتع بسلطة إرسال من يشاء إلى الفردوس!...

ـ وإن أمرك أن تطعن نفسك بالخنجر؟

ـ سأطعن نفسي.

كانت العيون متقدة حماساً ورعباً؛ والكل يتحرق أكثر من أي وقت مضى ليتميز أمام عيني سيدنا، وأمام أعين جميع الإسماعيليين والناس جميعاً...

ـ أرأيت كيف اصفرت وجوه الرسل؟ وكيف بدأ أبو جعفر يتراجع فجأة؟

ـ ما من حاكم يستطيع مجابهة سيدنا.

ـ أسمعتموه وهو يسمي نفسه بالنبي الجديد؟

ـ ألم تعرف ذلك من قبل؟

ـ كيف يؤكد الناس إذن أنه ما زال في خدمة خليفة مصر!

ـ بل الأجدر أن يكون العكس هو الصحيح...

ارتقى الفدائيون السور دون أن يتبادلوا كلمة واحدة. أخذوا يتفرسون في وجوه بعضهم بعضاً والحيرة بادية عليهم. وقطع عبيدة هذه المرة أيضاً حبال الصمت.

ـ لقد هلك سليمان ويوسف من أجلنا... لن نراهما ثانية في هذه الدنيا.

وترقرقت الدموع في عيني نعيم الصغير.

ـ هل أنت واثق من ذلك؟...

ـ ألم تشاهد الخصيان وهم ينقلون جثتيهما؟

ـ أوبهذه الطريقة فازا بالجنة؟

ابتسم عبيدة ابتسامة حذرة وقال:

ـ بدا أنهما واثقان.

ـ وأنت؟ سأل ابن وقاص.

ـ سيدنا يؤكد ذلك. وبالتالي، فالشك حرام علي.

ـ قد يكون الشك جريمة، قال جعفر الفتى الأكثر رصانة.

وبنبرة حزينة قال ابن وقاص:

ـ فجأة، كل شيء يبدو أمامي فارغاً، بعد أن غادرونا. لقد تركنا ابن طاهر أولاً، والآن هذان..

ـ ماذا حلّ بابن طاهر؟ من المؤكد أنه في الجنة...

ـ الله وسيدنا وحدهما يعلمان ذلك، أجاب ابن وقاص.

ـ كم ستكون السعادة بالغة إن رأيته ثانية... قال الصبي حالماً.

ـ أخشى أنه اضطر لاتباع الطريق نفسه الذي سلكه رفيقاه في سفرهما، قال عبيدة عبارته الغامضة تلك.

لم يجد القائد أبو جعفر ما يكفي من كلمات ليصف دهشته أمام سيده الأمير أرسلان طاش:

ـ ألا تجد معاليك أن الأغرب كان مسارعة هذين الشابين إلى تنفيذ أمر قائدهما الرهيب؟ ستقول لي أنه لم يكن أمامهما خيار أفضل إزاء طاغية فظ القلب... غير أنك لا تستطيع تخيل انشداهنا، ورعبنا أمام مشهد الفرح المجنون والمتوحش الذي ارتسم على وجهيهما في اللحظة التي اندفعا فيها نحو الموت. لو أن معاليك رأيت وميض الغبطة في أعماق عيونهم حينما نطقا كلمة: «فردوس»! لم يخالط قلبيهما أدنى شك. لقد بدا يقينهما بعودتهما بعد قليل إلى المكان السماوي الذي أعلنا أنهما زاراه راسخاً رسوخ صخر آلموت. وبوسع مساعدي أن يؤكدا لك أني لم أبالغ قط.

كان الأمير أرسلان طاش غارقاً في أفكاره، يذرع أرض خيمته جيئة وذهاباً. كان رجلاً جميل الهيئة، يدل مظهره المتأنق على حبه للملذات وتذوقه مباهج الحياة. بدا القلق على وجهه. فإجابة الحسن

جعلته يتوقع أسوأ الأمور. أخذ يتفرس في عيني كل واحد من مبعوثيه ناقلاً نظراته بينهم.

ـ هل أنتم واثقون من أنكم لم تكونوا ضحية وهم؟

ـ نحن واثقون من ذلك! قال أبو جعفر مصرّاً. إن المدعو سليمان قد طعن نفسه على بعد خمس أو ست خطوات منا، وكل آلموت شاهدت رفيقه يوسف وهو يلقي بنفسه في الهواء من أعلى الحاجز.

هز أرسلان طاش رأسه.

ـ لا أستطيع تصديق ذلك... لقد سمعت عن الأعمال الباهرة المزعومة لسحرة الهند المشهورين... تلك الحبال التي تقف من ذاتها في الهواء وعليها يلهو أولئك الناس راقصين... وتلك الحبال نفسها، وبأمر يعطى خفية، تجر وهي تسقط، من على ارتفاع شاهق، بهلواناً متهوراً يخاطر بنفسه على رؤوسها... وفي تلك اللحظة نفسها، يقلب الساحر سلة فوق المسكين الذي انسحق حقويه، ويهمهم بدعاء ما وإذا بالراقص المحتضر يقف مبتسماً، نشيطاً مثلك ومثلي... أجل، أعرف كل هذه الأشياء وأعرف أيضاً أنها تتعلق بفن الإيهام الخداع.

ـ لكن ما حصل لا علاقة له بهذا النوع من السحر، صدقني! قاطعه القائد. لقد انغمد النصل فعلاً حتى المقبض في صدر المدعو سليمان. وتخضبت ملابسه بدم حقيقي!

كان الأمير يفكر. فكل هذا بعيد عن التصديق تماماً.

ـ مهما يكن الأمر، قال بعد حين، فأنا آمركم بالتزام الصمت المطبق حول كل ما شاهدتموه وما سمعتموه هناك! فقد تتمرد الجند وترفض الطاعة إن علمت أي نوع من الأعداء نجابه. إن الوزير الأكبر يزحف الآن وسيكون صارماً معنا إن لم ننفذ أوامره.

لكن المساعدين تبادلا نظرة مذعورة. فهما أثناء الطريق قصا على بعض أصدقائهما الاستقبال الغريب الذي رتب لهما في آلموت. لكن الأمير، المنشغل البال، تابع ذرع أرض خيمته كالمسعور ولم ينتبه إلى [illegible]

[illegible]

الوزير الأكبر، معلومات لن يبوحها لي إلا بعد انقضاء ستة إلى عشرة أيام؟

ـ لقد نقلت إلى معاليك كل ما قاله لي، أجاب جعفر. لا ريب أنه أراد أن يبث الرعب في نفسي. ماذا يعلم عن الوزير الأكبر ما لا أعلمه أنا؟ هل هو في الطريق نحو أصفهان؟ هل كان يريد أن يبرر سلوكه أمام الرجال المحاصَرين في آلموت؟... ماذا إذن؟

أوقفه الأمير بحركة من يده تدل على نفاد صبره وقال:

ـ لمَ ينبغي أن يتحتم علي أنا نيل الشرف المريب في إخضاع أولئك الهراطقة؟ أليس ذاك الرجل بخصم شريف؟ إنه يلبد في قلاعه، متجنباً القتال في أرض مكشوفة، ساحراً أخيلة جهال بأشياء غريبة ليحولهم في الوقت نفسه إلى مجانين خطرين. كيف الوصول إلى هذا العدو الذي يسعى جاهداً للبقاء عصياً علينا؟

ثم وبعد لحظة صمت:

ـ حسناً. بوسعكم الانصراف. لقد أخذت معلومات كافية من تقريركم. والآن، صمت مطبق حول كل ذلك!

انحنى الرسل باحترام وانصرفوا.

بقي الأمير بمفرده، وهوى مستلقياً على الأرائك، صب لنفسه كأس خمر وشربه بجرعة واحدة، واستعاد وجهه لونه. صفق بيديه، وإذا بجاريتين، شابتين وجميلتين، تزيحان الستارة وتتبادران إليه. جلستا بحنان عن شماله ويمينه، ومنحتاه أرق ملاطفتهما. وسرعان ما أصبحت آلموت وسيدها الفظ في طي النسيان.

حيال الجو الغامض الذي نقله المبعوثون، أصاب فرق الجنود الهياج وهي تعقّب على ما كشفت عنه زيارتهم لآلموت. لقد انتشر الخبر في أرجاء المعسكر كله بسرعة إعصار. وما أن خرج أبو جعفر من خيمة الأمير مع شريكيه، حتى انهال عليه أصحابه بالأسئلة. وضع إصبعه على فمه وباح لهما بصوت هامس أن الأمير قد أمره أمراً صارماً بأن يلزم صمت القبور. وسرعان ماظهرت النتيجة الأولى لتلك

البادرة الغامضة: فقد اجتمع القادة في الحال في خيمة منعزلة، ووضعوا حارساً أمامها، وشرعوا يعلقون بشغف على ذاك القليل الذي ترامى إليهم على لسان المبعوثَين المتهورين. بيد أن باقي الجنود هم أيضاً أطلقوا العنان لأفكارهم:

ـ من الممكن أن يكون سيد آلموت نبياً حقيقياً. جمع اليوم آلاف الرجال يقاتلون في صفوفه.

ـ الإسماعيليون هم أتباع علي. ألم يكن آباؤنا أتباعاً له أيضاً؟ لم إذن نذهب لنشطر بسيوفنا أولئك الذين ظلوا مخلصين لعقيدة آبائهم... وآبائنا؟

ـ إن النبي بذاته لم تكن لديه سلطة شبيهة بتلك التي لدى سيد آلموت.

ـ حسب ما يقال، فإن الشابين اللذين وهبا نفسيهما للموت على مرآى من الناس كانا قد زارا الجنة... أود فعلاً أن أصدق ذلك: وإلا كيف استطاعا تجرع كأس الموت بذاك الحماس العظيم؟

ـ لم أسمع شيئاً مماثلاً لذلك في حياتي. هل هنالك معنى للقتال ضد نبي قادر؟

ـ وهل الإسماعيليون أتراك أم صينيون حتى يشن السلطان عليهم الحرب؟ إنهم إيرانيون مثلنا... وهم مسلمون...

ـ إن الوزير الأكبر يود استعادة حظوته لدى السلطان، وأرسلنا نحن لنقاتل آلموت حتى يعلو شأنه ولا يُستغنى عنه. نحن نعرف تلك القصص. ثم إننا لسنا أولاد اليوم...

ـ لحسن الحظ، أن أميرنا رجل ذو بصيرة، وما من شيء يؤثر فيه. وحينما يشتد البرد، سنعود إلى مشتى الجنود باتجاه الجنوب قليلاً. هذا كل شيء.

ـ من الحماقة أن نقاتل عدواً لا يكرهه أحد!

رافق الداعيان الكبيران الحسن إلى أجنحته دون أن ينبسا بكلمة. كان قائدهما خائر القوى على نحو جلي. نزع عنه بحركة منهكة الرداء

الأبيض المنسدل على كتفيه وهوى بنفسه فوق الأرائك. كان الاثنان ينتظران. وأخيراً قطع الحسن حبل الصمت.

ـ أتدريان من أود رؤيته الآن بجانبي؟... عمر الخيام!...

ـ ولم هو بالتحديد؟

كانت نبرة أبو علي جافة، وشبه متوعدة.

ـ لا أعرف لماذا بالضبط. أود الكلام معه، هذا كل ما في الأمر.

ـ أتشعر بوخز الضمير؟

ألقى بوزروك أوميد نظرة مخيفة عليه وهو ينطق بتلك الكلمات.

وقف الحسن رغماً عنه. وتفرس بنظرات متشككة في وجهي النبيلين، لكنه لم ينطق بأي جواب.

ـ أتعلم أنه في الليلة التي ذهبتَ فيها إلى تلك الجنائن لتلاقي الفتية الثلاثة، لقد اقترحت على أبي علي آنئذ أن أضرب رأسك وألقي بك من أعلى هذا البرج إلى شاه رود!

وفي حركة عفوية، أمسك الحسن بمقبض سيفه.

ـ لقد راودتني ظنون حول ذاك المقصد النبيل. وهل بوسعي أن أعرف لم لم تنفذا مشروعكما؟

هز بوزروك أوميد كتفيه، وحدجه أبو علي بنظرات خائرة. وتابع:

ـ حسناً، إن كنت تريد المعرفة، فإني منذ برهة قصيرة أسفت لعدم فعلي ذلك.

ـ أرأيت، لأجل هذا تمنيت منذ لحظات وجود عمر الخيام إلى جانبي. لكن لا تحسب أني خائف. إنما أرغب في الحديث عن الأمر لأحد ما وحسب.

ـ تكلم. نحن نصغي إليك.

ـ إذن دعوني أطرح عليكما سؤالاً: هل الفرح الذي تبعثه ألعاب مبرقشة في نفس طفل هو فرح حقيقي؟

ـ لم هذه المواربات مجدداً يا ابن الصباح؟ قال بوزروك أوميد [illegible] بصراحة ما تريد قوله

ـ لقد قلتما لي أنكما ستصغيان إلي ـ وعادت نبرة الحسن من جديد حازمة قاطعة. لا أنوي أن أبرر أمامكما تصرفي. أود فقط أن أوضحه لكما. واضح أن الفرح الكبير الذي يشعر به طفل تُقدم له لعبة جذابة هو بمقدار السرور الذي يحسه إنسان بالغ يعد نقوده أو يلاطف امرأة. ويُعتبر الفرح من وجهة نظر إنسان يشعر به فرحاً صادقاً وحقيقياً. وكل امرئ يكون سعيداً حسب طريقته. وبناء على ذلك، فإن من يعني له الموت السعادة سيصيب من السرور في اندفاعه للموت المقدار نفسه الذي سيصيبه آخر في كنزه للمال أو في إغوائه شابة فاتنة. ثم إننا نعرف أخيراً أن الحسرات بعد الموت لا تجدي نفعاً.

ـ إن كلباً حياً أفضل من ملك ميت، تمتم أبو علي.

ـ سواء أكنت كلباً أم ملكاً، فلا بد أن تموت. ومن ثم فالأفضل أن تكون ملكاً!

ـ ما أسهل الكلام لديك، أنت الذي ادعيت سلطة التحكم بالحياة والموت، أطلق بوزروك أوميد كلماته تلك. أما بالنسبة إلي، فأنا أحب أكثر أن أكون آخر الكلاب على أن أموت كما مات فدائيوك.

ـ أنت لم تفهمني، أجاب الحسن. من يكلمك عن الموت على هذا النحو؟ إن ما بين وجهة نظرهم ووجهة نظرك بون شاسع. فما كان بالنسبة إليهم ذروة السعادة يعني لك الرعب المطبق. لكن أتعلم أن ما هو قمة الهناء لك قد لا يكون بالنسبة لآخر، على الأقل من وجهة نظر أخرى، إلا أشد الشرور هولاً؟ ما من أحد بيننا يستطيع أن يتفحص سلوكه من وجهات النظر جميعها في آن واحد. وهذا بالتأكيد لا يقدر عليه إلا الله الذي يرى الجميع. وبالتالي، فليسعد كل امرئ بحسب طريقته الخاصة!

ـ لكنك وعن عمد قد ضللت أولئك الصبية! من أين جاءك الحق بأن تتصرف هكذا مع فتيان أخلصوا لك بلا قيد ولا شرط!

ـ إني أملك هذا الحق من اليقين التالي: صحة المبدأ الأعلى للإسماعيليين!

ـ أو تتكلم في الوقت نفسه عن الله الذي يرى الجميع؟

في هذه اللحظة وقف الحسن. وبدا وكأن عظمته قد ازدادت فجأة.

ـ أجل، تكلمت عن إله يرى الجميع. لا يهوه، ولا إله المسيحيين، ولا غيرهم استطاعوا خلق هذا العالم الذي نعيش فيه. هذا العالم الذي لا يتوقف شيء فيه على شيء، حيث الشمس تشرق بعطف واحد على الحمل والنمر، وعلى الذبابة والفيل، والعقرب والفراشة، والثعبان والحمامة، والأرنب والأسد، والزهرة والسنديانة، والملك والشحاذ، وحيث المرض يصيب الصالح والطالح، القوي والضعيف، الذكي والغبي. وحيث السعادة والشقاء نثرتا فيه بلا تبصر في كل الأنحاء، والموت هو النهاية الواحدة التي تنتظر كل حي... أليس كذلك! وكما ترياني، أنا رسول هذا الإله الذي يرى الجميع... رسوله هو وحده!

كان الداعيان الكبيران يرتعشان. أهذه هي أغوار هذا الرجل الغريب، أهذا هو «جنونه»، هل هذا هو اليقين الراسخ الذي أوصله إلى الوضع الذي هو فيه اليوم؟ إنه في خبيئة نفسه يظن أنه نبي! أوليست فلسفته ما هي إلا سراب، أعد لإغواء عقول المتشككين... و، وربما، لإغواء عقله هو ذاته؟ أليس هو في قرارة نفسه، بإيمانه ذاك، وبإنحراف عقله، أكثر شبهاً بالفدائيين من شَبَهِهِ بقادة الحركة الإسماعيلية العاديين؟

ـ أنت تؤمن إذن بإله ما! قال بوزروك أوميد مندهشاً بلهجة شبه مذعورة.

ـ لقد قلت لك منذ قليل.

وانشقت بينهما هوة ما! انحنيا للحسن ثم انصرفا.

ـ نفذا مهامكما! ستكونان خليفتي.

وابتسم لهما ابتسامة وداع، مثل أب يبتسم لأبنائه.

ولما أصبحا في الممر، صاح أبو علي:

ـ ياله من موضوع يليق بشاعرنا الفردوسي!

الفصل السابع عشر

ـ انتهى الفصل الرابع... تمتم الحسن ما إن أصبح بمفرده.

وفي المساء ذاته طلب استدعاء عبيدة وجعفر وعبد الرحمن. نقل أبو سراقة الأمر إلى الفتية. وفي الحال أصابت فرقة الفدائيين حالة من الغليان. ولما علم عبيدة بما ينتظره، اصطبغ وجهه الأسود بلون الرماد. جال بعينيه حوله متطلعاً بنظرات دابة مطاردة.

وعبد الرحمن أيضاً كان خائفاً.

ـ لِمَ يستدعينا هذا اليوم بالتحديد؟

فقال ابن وقاص:

ـ ما من شك أنه يفكر بإرسالكم بدوركم إلى الجنة، فلم يعد بين يديه اليوم سليمان أو يوسف أو ابن طاهر.

ـ هل سيحتم علينا القفز من أعلى أحد الأبراج أو طعن أنفسنا بخنجر؟

ـ اسأل سيدنا عن ذلك.

ولم يستسلم للخبر ببرود غير جعفر إذ قال:

ـ الله بيده حياتنا وموتنا. وسيدنا هو ممثله على هذه الأرض.

استقبلهم أبو علي عند مدخل القصر وقادهم إلى البرج.

لكن أبا سراقة وما أن نقل الأمر إلى الشبان، حتى انطلق قلقاً يبحث عن مينوتشهر. وعندما عثر عليه فوق السور وهو يتفحص قدور القطران، دعاه ليتحدث معه على انفراد وأبلغه بمخاوفه:

ـ ما رأيك أيها الأمير، بموت الفدائيين؟

ـ إن سيدنا سيد مطلق السلطة.

ـ أريد أن أعرف رأيك أنت بذلك! أتوافق على طريقة تصرفه؟

ـ لا أفكر في ذلك، يا عزيزي. وأنصحك أن تحذو حذوي.

ـ أبمثل تلك الأساليب سنتغلب على جيش السلطان!

ـ سيدنا وحده يعلم. كل ما أعلمه أنا، أننا لا نستطيع الصمود طويلاً بجنودنا وحدهم في وجه ذلك الجيش.

ـ إني ومن الآن يقشعر بدني مما تقول.

ـ لست أنت فقط، فالأمير أرسلان طاش، إن لم نذكر أحداً غيره، يتصبب هو أيضاً عرقاً بارداً في هذه الساعة.

ـ إذاً، أو تظن أن سيدنا أصاب هدفه؟

ـ شيء ما ينبئني أن بوسعنا أن نوليه ثقتنا دون تردد. إن ما شاهدناه هذا الصباح في آلموت لم يشاهده أحد على مرّ التاريخ...

غادره أبو سراقة متعجباً وانطلق ليستطلع رأي الطبيب. تطلع اليوناني أولاً حوله ليطمئن إلى عدم وجود أحد على مقربة منه ثم همس في أذن محدثه:

ـ أيها الداعي المحترم! منذ قليل، لعنتُ ذاك اليوم الذي هربت فيه من سجني البيزنطي. لأن ما رأيناه بأم أعيننا هذا الصباح في القصر يفوق مخيلة أي كاتب مسرح يوناني مهما بلغ إبداعه. فرعب المشهد الذي أعده لنا قائدنا الأعلى قد هيء بدقة متناهية قد تثير حسد ملك الجحيم نفسه. إني أتسمر رعباً حينما يخطر ببالي أني أنا أيضاً ذات يوم قد أتذوق ملذات جنته الواقعة وراء أسوار آلموت.

امتقع وجه أبو سراقة.

ـ أتظن أنه سيرسلنا نحن أيضاً إلى تلك الجنان الشهيرة المهيأة خلف القصر؟

ـ وكيف لي أن أعرف ذلك، يا كشاش الذباب! مهما يكن، فالعلم بأن باب جنته مفتوح ليل نهار لا يطمئن أحداً من أمثالنا، الذين تشرفوا بسكنى هذه القلعة.

ـ هذا أمر مرعب، مرعب! همهم أبو سراقة وهو يمسح بكمه العرق البارد الذي تلألأ فوق جبهته. من حسن الحظ أن أطفالنا عند ميتسوفر...

ـ أجل، هذا صحيح، تظاهر اليوناني بموافقته.

ولما ابتعد أبو سراقة لم ير الابتسامة المرّة التي أتبع بها الطبيب كلماته الأخيرة.

كان كل شيء جاهزاً في الجنائن لاستقبال الزوار الجدد. وحين علمت الفتيات أن ذلك الاستقبال سيتم في المساء نفسه، شع جو من الابتهاج عليهن جميعاً. أجل، إنهن يعرفن الآن الأمر الذي هيئن له، فالحب هو مهنتهن وذلك لا يثير كدراً في نفوسهن.

لكن خوفاً ساورهن بخصوص حليمة. فقد كانت تضمر إجلالاً لذكرى سليمان، وتعتبره سيدها، وتناجيه خفية، هو بالذات، مستشيرة إياه حول التصرف الذي عليها اتباعه حيال كل أمر، وحيال جميع الأمور الصغيرة في حياتها. كانت تشعر بوجوده إلى جانبها وتنطلق في حوارات طويلة هامسة؛ إلى درجة أن الفتيات الأخريات كن يفاجئنها في نوبات ضحك متواصل، كما لو أنها حقاً في حديث غزلي مع إنسان من لحم ودم. في البداية، حاولن جاهدات ردها إلى صوابها، وأسمعنها أن سليمان قد لا يعود ثانية، لكنهن ومع إصرارها على حمل تنبيههن محمل المزاح، سرعان ما تركنها لأوهامها. وهكذا لما علمت أن فتياناً سينضمون إليهن في المساء، رأينها ترتجف مثل ورقة شجر، وفي لمح البصر امتقع لونها وأغمي عليها بين أيديهن.

ـ يا الله! صاحت مريم. ماذا نفعل بها؟

فاقترحت سليقة قائلة:

ـ لقد أذن لك سيدنا بألا تستقبلي الفتية الذين سيأتون هذا المساء. حاولي أن تنالي الإذن نفسه لأجلها.

ـ ستحسب أننا تعمدنا إبعادها عن سليمان، أدلت فاطمة برأيها. وأخشى حينذاك أن تقدم على عمل ما تؤذي فيه نفسها.

- كيف استطاعت أن تقنع نفسها بأن سليمان لا بد أن يعود إليها ذات يوم حتماً؟ قالت رقية مندهشة.

- إنها تحبه، قال لها إنه سيعود وهذا يكفي لمنحها الأمل. إنه بالنسبة إليها أعظم شأناً من سيدنا! بتلك الكلمات أنهت فاطمة حديثها.

لكن الصبية عادت إلى وعيها بهدوء. نظرت إلى صاحباتها في دهشة، وتذكرت في لمحة خاطفة النبأ الذي بلغهن منذ برهة قصيرة، واحمر وجهها. نهضت وهرولت لتستعد في غرفتها.

- سأقول لها كل شيء. بتت مريم أمرها.

فنبهتها سليقة قائلة:

- لن تصدقك. إني أعرفها. إنها عنيدة وستفضل الظن بأننا نريد صرفها عن سليمان.

- لكنها إن شاهدت آخر في مكانه، فسينفجر قلبها!

فقالت سارة:

- ستعتاد على ذلك كما تعودنا نحن.

- إن حليمة لا تشبهك، افهمي ذلك جيداً. لا! أفضل أن أكلم بشأنها سيدنا.

- اسمعي يا مريم، قالت فاطمة في إلحاح. لنحاول أولاً أن نردها إلى الصواب. وإن لم يكن أمامنا سوى فرصة ضئيلة للنجاح.

وذهبوا إليها في غرفتها. وجدنها جالسة أمام المرآة، منشغلة في زينتها، وابتسامة على شفتيها. ولما لمحت صاحباتها، قطبت حاجبيها، وبدا عليها الهياج واضحاً لإزعاجهن إياها وهي في غمرة أفكارها الحلوة.

كان قلب مريم منقبضاً. فهمست في أذن فاطمة:

- كلميها أنت.

فتصدت فاطمة بشجاعة لذاك الأمر الشائك قائلة:

- ها أنت فرحة بقرب وصول زائرينا...

- دعوني. أريد متسعاً من الوقت لأهيء نفسي.

فجازفت مريم قائلة:

- اسمعي يا حليمة، تعلمين جيداً أنه لا يسمح لأي من زوارنا بالانضمام إلينا غير مرة واحدة في هذه الجنائن. حاولي أن تألفي هذا الأمر...

دخل أهريمان الغرفة وأخذ يشم الصبية الجميلة.

- هيا، اطردهن، أهريمان. لقد أصبحن شريرات كثيراً.

فتشبثت فاطمة بلطف بكلامها:

- إن مريم لاتبغي المزاح معك.

- انصرفن!

- إنك عنيدة! قالت سارة حانقة.

وغادرن الغرفة. كانت فاطمة وسليقة حزينتين:

- إنها لا تريد أن تعقل... ترفض كل ما يقال لها... وإن كان من فم مريم!

بعد هنيهة قصيرة جاءت أباما ونقلت إليهن أمراً من سيدنا: على كل منهن اتخاذ اسم جديد في هذا المساء أو يتبادلن أسماءهن فيما بينهن. إن سيدنا يؤكد كثيراً على هذا الأمر؛ وليحرصن على ألا يبدر منهن أي عمل أخرق. قامت مريم وفاطمة بتوزيع الأسماء التي يتحتم على كل صبية حفظ اسم منها...

- حليمة، لا تنسي: هذا المساء، لم يعد اسمك حليمة وإنما صفية...

ارتسمت ابتسامة على وجه الصبية الحزينة: « أتعتقدن حقاً أن هذه الحيلة البائسة تكفي لئلا يتعرف علي؟...».

فنبهتها مريم:

- لقد لمحت ابتسامتك. والأمر لا يمكن أن يكون جدياً أكثر من ذلك... ولتعلمي أيضاً أنكن لن تكن في حدائق الزيارة الماضية نفسها.

حينئذ فقط استسلمت حليمة للقلق.

- ماذا تقصدين بذلك؟

- تعلمين جيداً ماذا يعني هذا... قالت لها فاطمة.

حدقت حليمة في وجهها، والدموع في عينيها.

ـ لكن لماذا أصبحتن شريرات كثيراً نحوي!

ثم هربت إلى وسط الحديقة حيث لحقت بها سارة بعد قليل، وقد عزمت على اللجوء إلى حجة أخيرة معها:

ـ ألا تعلمين أن كلاً من فاطمة وسليقة تنتظر طفلاً؟ لقد سمعتهما يسران بهذا إلى مريم. وإياك أن تقولي لأحد ما قلته لك.

ـ ولماذا هما فقط!

ـ عجباً، عجباً! أتعنين أنك في نفس حاليهما أيضاً؟

مدت حليمة لسانها لها وابتعدت.

قبل حلول المساء، استدعى الحسن مريم إلى إحدى الجنائن. صارحته بهمومها بخصوص حليمة الطرية العود، والتي تصر على انتظار سليمان...

نظر الحسن إليها نظرة سوداء.

ـ عليكن أن تسكبن لها أيضاً الخمر الصافي في الوقت المناسب، لتساعدنها على النسيان! إن لم تسر كل الأمور سيراً حسناً هذا المساء، فستتحملن أنتن المسؤولية.

ـ فلتجنبها خيبة الأمل تلك... إني أنا التي أطلب منك.

ـ هي اليوم، وغداً فتاة أخرى... منذ عشرين عاماً وأنا أعد خطتي، ولم تهن عزيمتي. وتريدين أن أرضخ اليوم لنزوة من النزوات!

ـ اسمح على الأقل أن أتخذ دورها، ألحت مريم وهي تحدق فيه بنظرات فارقتها الرقة.

لكن الحسن كان متصلباً.

ـ لا، لا أسمح بذلك مطلقاً. عليكن تحمل نتائج أفعالكن... هذا المساء، وفي الوقت المحدد، ستعودين معي إلى الحديقة. سننتظر معاً نهاية اللقاء. أتفهمين؟

صرت مريم أسنانها غاضبة وذهبت دون أن تودعه.

حال عودتها إلى الصبايا، اتجهت نحو حليمة.

ـ هل فهمت أن سليمان لن يأتي هذا المساء؟ احذري أن تقومي بأية حماقة. وإلا ستخسرين حياتك.

اكتفت حليمة بضرب الأرض بقدميها بعناد، مقتنعة أكثر من أي وقت بأنها ضحية مظلومة، وأخذت تكرر دون كلل العبارة ذاتها: « لم هن شريرات جداً معي هذا المساء!»

لم ينس عبيدة شيئاً مما كان قد قصه الفدائيون الثلاثة عن زيارتهم للجنة. فعلاوة على تشككه الفطري، كان يسأل نفسه ماذا عليه أن يفعل لو أنه كان مكانهم. فأمور كثيرة لم تنسجم مع بعضها في روايتهم، الأمر الذي سرعان ما أيقظ ريبته.

عندما مثل عشية مع رفاقه أمام القائد الأعلى لم يكن فضوله أقل من خوفه. ومع ذلك استطاع أن يسيطر على نفسه بشكل مدهش. أجاب بوضوح وجلاء على أسئلة الحسن. ولم يكن الداعيان الكبيران حاضرين هذه المرة. فضلاً عن ذلك فالحسن لم يكن بحاجة إليهما. فتجربته الأولى، وهي الأصعب، أصبحت الآن خلفه، وهو من اليوم فصاعداً يسيطر على عمل هذه الآلية التي كان قد وضعها بصبر موضع العمل.

أما بالنسبة لجعفر وعبد الرحمن فقد كانا فريسة رعب مقدس: فها هما قد أُذن لهما بدخول الأجنحة التي تحكم الإسماعيليين!... وها هو أمامهما!... من المؤكد أنه لن يعذبهما أكثر. كانا يتحرقان للإجابة على أسئلته، وتنفيذ أوامره. وحين علما أنه سيفتح لهما هما أيضاً بوابة الفردوس، أضاءت ابتسامة نظراتهما. لكن عبيدة وقد شعر باصفرار وجهه، صمم على ألا يُظهر اضطرابه، كان عازماً على التنبه لكل شيء.

قادهما الحسن إلى المنصة السرية وأشار إلى الأسرة الصغيرة التي هُيأت لهم. قدم إليهم الخمر وناول كل منهم قرصاً، وسارع كل من جعفر وعبد الرحمن إلى ابتلاعه؛ لكن عبيدة وبفطنة دس الملبس الغامض في إحدى زوايا شفتيه الغليظتين ولفظها بعدئذ خلسة قبل أن يجعلها في جيب صداره. ومن تحت أجفانه شبه المغمضة، لاحظ

حركات رفيقيه اللذين ما لبثا أن تلويا وتأوها، وقرر أن يقلدهما في كل شيء.

كان عبد الرحمن أول من غفا. قاوم جعفر لبعض الوقت، ثم استدار ببطء على جنبه، واستسلم بدوره للنوم.

اعتصر الغم قلب عبيدة. وبالكاد تجرأ على اختلاس نظرة من بين أهدابه. كان الحسن لا يزال واقفاً دون حراك، رافعاً ستارة المدخل، ليتسنى لضوء الغرفة المجاورة بالدخول إلى غرفتهم الحقيرة. كان واضحاً أنه في انتظار نوم الثلاثة. ماذا سيفعل بعد ذلك؟ أرسل عبيدة حشرجة عالية، وتململ في فراشه، وقلد التنفس المنتظم للنائم. وفي اللحظة التالية غرق في السواد: لقد ألقى الحسن فوقهم غطاء. ودوت ضربة صنج وإذا بالغرفة كلها تترنح على نحو غريب؛ شعر عبيدة بها تغور في هاوية ما. كاد أن يصرخ من الرعب، تشبث بحافة السرير وانتظر مستسلماً نهاية هذه الرحلة الغريبة نحو الأعماق: كان عقله يفكر بسرعة عظيمة؛ وكل حواسه متنبهة. وفجأة شعر بالمنصة تستقر ساكنة فوق أرض صلبة. واجتاح الغرفة هواء كهف بارد. لمح وميض مشعل وسمع صوت الحسن وهو يسأل:

ـ هل كل شيء على مايرام؟

ـ أجل يا سيدنا.

ـ تصرفوا بالضبط كما في المرة الماضية.

أمسكت قبضات المحفة ورفعتها. شعر عبيدة بأنهم يجتازون جسراً قصيراً، ثم أودعت المحفة الممددة قعر زورق؛ وسمع صوت مجذافين. انقضى زمن لا بأس به قبل أن يرسو الزورق الصغير في جهة ما. ومجدداً رفعت المحفة ونقلت إلى مكان أبعد. وشعر أخيراً أنهم يدخلون إحدى الغرف. سمع أصوات فتيات... وبعض أنغام الموسيقى... وأمسكت معاصم قوية بكتفيه وقدميه ووضعته فوق ما يشبه السرير. ثم أخذت تبتعد خطوات أولئك الذين اصطحبوه. «ها قد أدخلت إلى جنة سيدنا! قال في نفسه وهو يحبس أنفاسه. هذا المكان الذي كان يوسف وسليمان يتلهفان إلى العودة إليه بحيث لم يترددا في التضحية بحياتهما!...».

شعر بفزع لا حد له يطوقه. «يا له من دجل! قال في نفسه، ثم إن عبد الرحمن وجعفر لم تساورهما الشكوك في شيء!» ماذا سيحدث لهما؟ إنه لا يستطيع مع ذلك أن يكشف نفسه! وهو، ماذا سيفعل إن أمره سيدنا، كما أمر سليمان، بأن يقتل نفسه بالخنجر؟ وإن عصى الأمر، فهو سيعرض نفسه لميتة أكثر شناعة أيضاً. وتنهد تنهيدة من أعماقه «يا له من هول، هول تعجز اللغة عن تسميته!».

اقتربت خطوات رشيقة من سريره. عليه الآن أن يتظاهر بالاستيقاظ في الجنة... وأن يتصنع اكتشاف عالم آخر... ورفع عنه الغطاء أحد ما. فتح عينيه للمحة خاطفة. كانت كافية لرسم الصورة المثيرة: كانت أوجه الصبايا اللواتي أحطن به هي الجمال بعينه؛ تحلقن حوله وراقبنه وملامحهن تحمل الفضول والخجل في آن واحد. استسلم لاجتياح رغبة كسحت في ثوان كل غم. أراد أن يبادر إلى أقدامهن، ويشبع معهن الهوى الذي سيطر عليه... لكنه لم يجسر على ذلك. كيف وصف سليمان استيقاظه؟... لا، عليه أن يمثل دور النائم لفترة أطول. لكن أذنه ظلت ترصد أدنى حركة، كما لو أنه في مرصد يترقب فيه إشارة غير عادية...

نبُهت حليمة عبثاً بأن سليمان ليس بوسعه أن يكون بين الزائرين. لقد آمن قلبها الصغير الوادع، إيماناً جازماً بمجيئه. وكما حدث في المرة الأولى، قادت فاطمة جماعتها الصغيرة، وكانت سارة هناك أيضاً؛ لكن زينب وفتيات أخريات خُصصن لخدمة زائر آخر. وتغيرت المقصورة أيضاً: إذ ألفت الفتيات أنفسهن في الحديقة الوسطى ـ التي كانت مريم قد احتفلت فيها في تلك الليلة الأولى.

عندما أنزل الخصيان المحفة التي بدت عليها معالم الشاب النائم، ارتعشت حليمة واختبأت خلف ظهر سارة، متأملة وخائفة من اللحظة التي ستكشف فيها فاطمة عن وجه ضيفهن. ولما بدا وجه عبيدة القاتم بدلاً عن وجه سليمان النير، تمزقت الغشاوة التي في نفسها. وانهار عالم ساحر بأكمله. حدقت بعينيها، وابتلعت صرخة وعضت قبضتها حتى سال منها الدم. لقد أدركت لتوها أن سليمان قد غاب للأبد. وحينذاك اندفعت كسهم نحو الباب. لم تعد تبالي بما سيجري: فبوسع

الأخريات الآن أن يسخرن منها بحجة أنها لم تصدقهن... وقبل أن تلتقط صاحباتها أنفاسهن، أصبحت في نهاية الممر. وما هي إلا لحظة واحدة، حتى اندفعت إلى الدرب الذي يفضي إلى صخرة العظايا...

ـ رقية! سارة! بسرعة، الحقا بها! قالت فاطمة بصوت مخنوق.

هرولت الصبيتان مسرعتان نحو الحدائق، ولم تلاحظا حتى أهريمان الذي انضم إليهما. وركضتا مباشرة نحو الحافة المشرفة على السيل.

لمحتا حليمة فوق قمة الصخرة. ورأتاها في اللحظة التي فتحت فيها ذراعيها ووثبت وثبة واحدة إلى الهاوية. وانطلقت صرخة طويلة يائسة لتواكب سقوطها.

كان وقوعها وسط التيار، في الماء العميق، واندفع أهريمان الذي نزل الجرف بسرعة البرق في إثرها. غطس باتجاهها ونجح في إحكام فكيه على كبة شعرها العائم، لكن التيار سحبهما بعيداً. حاولت وقد تملكها خوف بالغ، التشبث بعنق الحيوان. لكن الاثنين، بعد برهة قصيرة، كانا يتحطمان أمام الصخور الناتئة خارج الماء عند سفح القلعة. وبذل أهريمان الذي كانت عيناه تخترقان الظلمة، كل ما فيه من قوة، لبلوغ الضفة القريبة. بيد أن الأوان كان قد فات: فمخالبه انزلقت على الصخر الأملس، وحاول للمرة الأخيرة أن يقاوم التيار، لكن قواه انهارت وسحبت دوامة الاثنين نحو الأعماق...

كانت سارة ورقية من البعد بحيث لم تتمكنا من رؤية نهاية هذا المشهد، لكنهما تكهنتا بكل الرعب الذي فيه. عادتا باكيتين، وفي انتظارهما كانت زوفانا عند باب المقصورة.

ـ لقد اختفت، خطفها التيار... ألقت بنفسها في الماء!...

ولم تستطع الفتاتان قول المزيد من الكلمات.

ـ بالله عليكما! لا تقولا كلمة عما رأيتما... لقد استيقظ الفتى منذ قليل وإني أرى عليه سيماء غريبة. يبدو أنه يرفض أن يحسبنا [illegible]

[illegible]

وفي رباطة جأش هادئة، كان عبيدة غارقاً وسط الأرائك، يعانق تارة فاطمة وتارة أخرى جويرة، ويبتسم لهما ابتسامات تبوح بشيء من السخرية. حاولتا دون فائدة إثماله؛ لكنه بالكاد بلل شفتيه بأكواب الخمر. وبعد هنيهة قصيرة من الملاطفات، أخذ عبيدة يذكر أمامهما حياة آلموت، وتعبير ماكر يتراقص على شفتيه. وعندما ذكر اسمي سليمان ويوسف، استطاع أن يفاجئ الفتاتين وهما تتبادلان النظرات. وبظل فرح شرير حدثهما كيف اتخذ الفتيّان وفي نفس الصباح طريقهما إلى الجنة. وعرف أنه أصاب هدفه بدقة، حينما رأى الشحوب يعلو وجهيهما: أجل، لم تستطيعا إخفاء مشاعرهما. شعر بارتياح عميق، أفسده قليلاً إحساسه بالغيرة من أن أحداً سبقه إلى حب هؤلاء الفتيات الحسناوات.

في هذه اللحظة، لمح سارة وتجرأ «هذه إذن سارة السوداء التي تكلم عنها سليمان... رغم أنها قد غيرت اسمها على ما يبدو». وحدثه دم أسلافه: لا بد أنهن الرقيق الموعود لعظماء هذا العالم!... مد ذراعه، أمسك بمعصمها وجذبها نحوه بعنف وقد توسع منخريه. ونزع عنها وشاحها الوردي وضمها بين ذراعيه بقوة كادت عظامها تقضقض منها. كان يتأوه مثل قط ينزو. وأخيراً أوقعها وألقى بنفسه عليها بتوحش... ونسيت سارة قدر حليمة المسكينة...

منذ ذلك الحين أصبح من السهل إثماله. فتناول وقد جرد من قوته وإرادته، كل ما قدم إليه. وما لبث التعب أن جندله، فاستسلم للنوم. كانت فاطمة تتلهف إلى تلك اللحظة:

ـ رقية! اركضي بسرعة إلى مريم! وأخبريها بكل شيء! حليمة قفزت إلى السيل وعبيدة لا يصدق أكذوبتنا!

كان قارب يرسو إلى جانب القناة، في عهدة معاذ. فقفزت رقية إليه.

ـ خذني إلى مريم. فوراً!

ـ مريم عند سيدنا.

ـ هذا أفضل!

وفي أثناء الطريق، التقيا بمصطفى الذي كان يعود بأباما من حديقة أخرى.

ـ حليمة أغرقت نفسها في السيل!

ـ ماذا تقولين؟

أعادت رقية ما قالت. وارتجفت العجوز والخصيّان من الرعب.

ـ أريني المكان! ربما لا يزال بوسعنا إنقاذها.

ـ فات الأوان. لقد خطفها التيار منذ وقت طويل.

ـ يا الله! يا الله! لم كل هذا!...

أفلت مصطفى المجذافين وأخفى وجهه بين يديه.

في ظل مقصورة صغيرة تقع في منأى عن العيون، كان الحسن ومريم صامتين.

ـ ألم تعلمي بعد، أسر إليها فجأة، أن داعيي الكبيرين أرادا التخلص مني بإلقائي من أعلى البرج إلى أعماق شاه رود، وذلك في المساء نفسه الذي فتحت فيه بوابة الجنان لفدائيي!

ـ ولمَ أرادا ذلك؟ قالت مريم مندهشة.

ـ لأنهما لم يريدا أن يفهما أنه يتحتم على الرجل تجاه نفسه إنجاز العمل الذي التزم به.

ـ إنك بالأحرى تريد أن تقول إن تصرفك قد أرعبهما، أجل! وماذا فعلت بهما؟

ـ ماذا فعلت؟ إنهما يتنزهان في القصر بحرية كما هو شأنهما في الماضي. نحن جميعاً تضنينا الرغبات الشريرة. حتى إني لم أحقد عليهما. ماذا بوسعهما أن يفعلا غير ذلك ضدي؟ إن خلاصنا يتوقف على السير الحسن لآلتي. المهم أن تنجح في إهلاك عدونا اللدود وحسب!...

وقهقه على نحو غير محسوس.

ـ... أقصد بكلامي بالطبع منافسي السابق، عدو قلبي: إنه الوحيد الذي يريد من أعماقه موتي...

ـ أعرف من الذي تقصد بكلامك، تمتمت مريم شاردة.

وساد مجدداً صمت طويل. كان يدرك أن ضميرها يؤنبها. لكنه تجنب التطرق إلى ذلك الموضوع الشائك. وهي أيضاً لم تجرؤ على أن تبدأ الحديث. بيد أنها عزمت على الكلام أخيراً:

ـ قل لي ماذا فعلت بأولئك الفتية الثلاثة الذين كانوا أول المدعوين إلى فردوسك؟

ـ إن يوسف وسليمان أسهما إسهاماً كبيراً هذا الصباح في إضعاف عزائم السلطان الذي يحاصرنا.

حدقت مريم فيه وهي تحاول أن تقرأ ما في قلبه.

ـ هل قتلتهم؟

ـ لقد التزموا بالموت من تلقاء أنفسهم، وماتوا وهم في أوج سعادتهم، صدقيني.

ـ إنك حيوان مفترس... أريد أن تقص علي كل شيء!

ولم يتمنع الحسن. فأصغت إليه، يتقاسمها سحر ورعب.

ـ أولم تشعر بشيء، وأنت تضحي بهذين الفتيين اللذين أخلصا لك حتى الموت!

شعرت بضيقه، وتأهبه للدفاع عن نفسه.

ـ أنت لا تريدين أن تفهمي. علي أن أنهي ما بدأت. لكن أعترف أني عندما أطلقت ذلك الأمر، كنت أنا نفسي مذعوراً. وقد همس صوت مبهم في أذني: إن كان أحد فوقنا، فلن يسمح بذلك. ولا بد أن تنكسف الشمس، أو تنخسف الأرض، أو تنهار القلعة وتدفنك مع جيشك تحت الردم... أقول لك، كنت أرتجف في أعماقي كما يرتجف طفل أمام مرأى الأشباح. كنت أنتظر ولو إشارة صغيرة على الأقل. إني أقول الحقيقة. لو أن شيئاً ما تحرك وحسب، لو أن سحابة في تلك اللحظة حجبت فجأة الشمس أو لو أن ريحاً هبت على حين غرة، لعدلت عن الأمر الذي عزمت عليه. وحتى بعد أن انتهى كل شيء، ترقبت ضربة قدر. لكن ضياء الشمس ظل يغمرني ويغمر آلموت والأجساد الممددة عند قدمي. فراودتني آنذاك هذه الفكرة: إما أنه لا توجد سلطة فوقي،

أو أن هذه السلطة لا تعبأ مطلقاً بما يجري في هذه الدنيا. أو أنها تنظر إلى تصرفاتي السيئة بعين الرضى. عرفت آنذاك أني اعتقدت على الدوام سراً بإله ما. لكن هذا الإله يختلف تمام الاختلاف عن الإله الذي آمنت به في صباي. فهو مثل العالم، يتحرك في تناقضات لا تحصى، وهو على صورته في اتساعه، وتوازنه، وتعداده. المطلق في المتناهي. عدم هائل في فنجان. تنين مرعب مكشر. وأدركت أن هذا الإله قد عبدته بغموض طيلة حياتي.

بدت عيناه تحملقان في الفراغ، كما لو أنهما مفتونتان برؤيا خارقة.

«هذا الرجل ليس طاغية وحسب، إنه مجنون»، فكرت مريم في نفسها.

ـ هل تستطيع أن تخبرني أين هو ابن طاهر؟

أغضى الحسن عينيه.

ـ لا بد أنك أرسلته إلى عدو قلبك. أليس كذلك؟

حدق فيها بنظرات تحاول أن تخترقها. وذكرها قائلاً:

ـ ألم تؤكدي ذات يوم بأنك ما عدت تؤمنين بشيء في هذه الدنيا، وأنك لا تخافين من شيء؟ ماذا أصاب قوتك، إذ توجب عليك اليوم الانتقال إلى الأفعال التي علي وحدي تحمل وزرها؟ أنت شجاعة فيما يخص الأمور التافهة، لكن عليك أحياناً أن تكوني شجاعة في الأمور العظيمة أيضاً.

في هذا الوقت، رسا معاذ عند الضفة، ركضت رقية نحو مريم، وهي ترتجف؛ كانت تنوح لاهثة، ودون حتى أن تنظر للحسن قالت:

ـ ألقت حليمة بنفسها في السيل!

وضعت مريم يدها على صدرها. والتفتت نحو الحسن، ونظراتها تقول له بوضوح: هذا هو عملك!

رأته يرتعش. أراد أن يسمع التفاصيل.

ـ أتقولين إنها هربت حينما رأت أنهم أحضروا عبيدة بدلاً من سليمان؟ وتقولين أن عبيدة لم يصدق قصتنا عن الجنة؟

نظر إلى مريم. دفنت رأسها بين يديها وانفجرت في نحيب متشنج طويل. ولما رآها على هذه الحال، استأنف كلامه فوراً:

ـ احرصن على الأقل على أن تسير بقية الأمور سيراً حسناً!

اتجه نحو الضفة حيث كان عدي ينتظره في القارب.

ـ إلى القصر، وبسرعة! أمره الحسن.

ـ اخنقوا سراً ذاك الذي وضعتموه في الحديقة الوسطى، خاطب الحسن الخصيان الذين استدعاهم على عجل. وانتظروا أن يكون بمفرده. ثم فتشوا ثيابه وأحضروا لي كل ما تجدوه معه. وليدفن بعد ذلك مع اللذين ماتا هذا الصباح، وذلك في الطرف الآخر من الحدائق، عند سفح الجبل تماماً. أما بالنسبة إلى الزائرين الآخرين في هذه الليلة، أحضروهما إلي إلى فوق حينما تنتهي زيارتهما.

كان وجهه يحمل تعبيراً كئيباً بارداً. أمر بأن يُرفع دون أن ينطق بكلمة، إلى قمة البرج. صعد درج السطح الأعلى وصوب الحدائق أعطى الإشارة المتفق عليها: حان الوقت للمصطفين ليغادروا جنتهم التي تنعموا فيها لليلة واحدة. شعر بالإرتياح لأن أبا علي وبوزروك أوميد ليسا معه. ماذا عليه أن يقول لهما؟ يتوجب عليه الآن أن يبرر أفعاله وأن يوضحها أمام الناس، وأن يخط للمؤمنين، وبعبارات بسيطة بليغة، جوهر ما يعرف، كما عليه أن يوضح آخر الأسرار لخلفائه. مازالت هناك مهمة شاقة أمامه. فالحياة قصيرة وقد أصبح الآن عجوزاً.

عاد أدراجه إلى غرفته، وقد نال منه الإنهاك الشديد، وهوى فوق سريره، لكن النوم جافاه. بحلول الغد، سيكون خوفه قد ولى... لكن وجه سليمان الآن يحتل ذاكرته بأبعاد تبعث على الهلوسة: كانت السعادة بادية على ملامحه؛ ومع ذلك، وفي اللحظة الأخيرة، انطفأت الحياة في داخله! يا لها من تجربة رهيبة! أرعبته تلك الفكرة وجعلت العرق يتصبب على جبينه. وتراءى له بعدئذ ابن طاهر وهو يعدو بفرسه صوب نهاوند وحماس فكرة واحدة يدفعه. هناك يوجد عدوه

اللدود: « مبدؤه النقيض». إنه الوزير الأكبر نظام الملك، العقل النير الصافي، الذي شيد عمله على قيم يطيب للبشر أن يعتبروها قيماً سامية. ومع ذلك فإن الكذب يستوطن روحه: إنه ينحني أمام الشعب ومعتقداته ويرغم نفسه على إسكات أوجه اليقين المريرة التي ترسخت في قرارة نفسه. لقد نال تقدير جموع الناس وبلغ قمة السلطة. وكل ذلك من شدة طيبة وكرم... والتنازلات اليسيرة أمام رغبات العوام. هل مازال هنالك مكان في العالم لشخص ما يضاهيه؟ من المؤكد أن نظام الملك قد سبقه في كل مكان. لقد انقضت أكثر من عشر سنوات على تقدمه على الحسن عدوه القديم، الذي لم يكن أمامه مخرج في النهاية إلا أن يتخذ طريقاً آخر: طريقاً مناقضاً! إن هو ابتسم، فأنا إذن مكتئب. إن هومتساهل، فأنا متشدد. وسأرغم نفسي على أن أكون فظاً إن كان هو ليناً. بيد أن الحسن كان يعرف أن الوزير بوسعه أيضاً أن يكون قاسياً لا يرحم. وعاودته حينذاك تلك الفكرة: «إن أنا سحقته، فسأصبح سيد إيران الأوحد».

ـ لو أن هذه الليلة تنقضي! تنهد الحسن.

تدثر بردائه وعاد إلى السطح. أحب أن يتأمل الجنائن من مكانه العالي. كان الخصيان قد فرغوا لتوهم من نزع المصابيح الأخيرة. اتجهت نظراته نحو الجبل. كانت أنوار تلمع عند أسفل المنحدر. «إن الأموات يدفنون»... حدث نفسه وهو يكابد قشعريرة. وانقضت عليه فكرة ملأته رعباً: سيعود هو أيضاً ذات يوم إلى العدم! «نحن لا نعلم شيئاً علم اليقين. إن النجوم فوق رؤوسنا صامتات. نتضاءل أمام فرضيات ونستسلم لأوهام. إنه مخيف ذاك الإله الذي يسيرنا!».

عند عودته إلى أجنحته، ذهب ليلقي نظرة على الغرفة الصغيرة التي تؤدي إلى المعبر السري. كان جعفر وعبد الرحمن نائمين نوماً عميقاً. كشف عنهما الغطاء. وأضاء نور الغرفة المجاورة بإبهام وجهيهما التعبين. تأملهما طويلاً. ثم تمتم:

ـ حقاً، إن الإنسان أكثر المخلوقات غرابة. يريد أن يحلق كنسر، لكنه لا يملك أجنحة. يريد قوة الأسد، لكن لا براثن لديه. ياللنقص الذي

خلقته فيه يا رب! ولتعاقبه وهبته أيضاً العقل والقدرة على إدراك بؤسه...

اضطجع ثانية وبذل جهده لينام، لكن الإغفاءة لم تزره إلا عند تباشير الصباح.

ـ إن ابن الصباح نبي حقيقي. يؤمن رغم كل شيء بإله ما، أسر أبو علي بذلك لبوزروك أوميد في تلك الليلة. كان ينظر إليه نظرة صافية، شبه طفولية، ثم وبنبرة الإسرار ذاتها قال:

ـ أرأيت، أنا لم أخطئ في شأنه. ومهما تكن أحاديثه ملحدة، فأنا على قناعة دائمة بأنه وحده الذي بوسعه أن يتولى قيادة الإسماعيليين. فهو الذي يتحلى بالشجاعة الكبيرة اللازمة لذلك. الحمد لله! أن لدينا نبي!

ـ نبي قادر، أجل! همهم بوزروك أوميد.

ـ لم يكن محمداً أقل قدرة. لقد آمن آلاف الرجال به. واليوم، إنهم ينتظرون المهدي...

ـ وهل تقول لي أنك تنتظره أنت أيضاً؟

ابتسم أبو علي ابتسامة ماكرة...

ـ إن الجموع لا تنتظر أحداً ما سدى. والتاريخ شاهد على ذلك. سواء أكان طيباً أم مرعباً، فسيأتي، تظهره رغبة آلاف مؤلفة من القلوب. وهنا سر البشر الكبير: فلا أحد يعلم من أين ولا متى سيأتي... لكن ذاك المنتظر لا بد أن يصل.

ـ يبدو أن نوعاً من الجنون بدأ يعشش أيضاً في عقلك. أأنت تؤمن! ومع ذلك تعلم أن البشر لا يرون إلا الخداع.

ـ إن كان هو يؤمن، فلم لا أؤمن أنا!

ـ ربما تكون تلك رغبتكما العميقة أنتما الاثنان!

ـ إن الدعاة لا يثقون بنا، لأننا قائدين لهم. إنه وحده وبفضل فدائييه يملك مفتاح كل شيء. ولذلك علينا أن نعود إليه.

ـ إن تغيرك المفاجئ قد أصابني بضيق فظيع. لكن الأرجح أنك

على حق. علينا ألا ننتظر شيئاً من الآخرين. لا أحد معنا. وبالتالي فإن مكاننا بالقرب من القائد...

في تلك الساعة نفسها من الليل، اجتمعت الصبايا حول البركة، يبكين حليمة بلوعة. كانت فاطمة هي التي قصت عليهن ما جرى. ومن يراهن يحسب أنه أمام سرب حمام أفزعه ظل حدأة. لم تكن دموعهن كافية لتعبر عما اعتراهن من حزن على فقد صاحبتهن. لقد جعلهن النبأ الرهيب هذه الليلة، وأكثر من أي وقت مضى، يشعرن إلى أي حد هن عائلة واحدة. وانطلقت كل واحدة منهن في حسراتها...

ـ كانت حليمة أفضل واحدة فينا...

ـ ستصبح الجنائن خاوية بدونها...

ـ سيلقي الضجر بظله الثقيل عليها...

ـ كيف بوسعنا الحياة من دونها؟...

كانت مريم تجلس جانباً. وتصغي لما يقلنه وقد بلغ التأثر لديها أضعافاً. شعرت بعجزها المطلق واكتشفت أنه لم يعد هنالك ثمة ما يشدها إلى الحياة. فما جدوى الاستمرار في المعاناة إذاً؟

لما بدأ النهار في البزوغ، أرسلت الفتيات للنوم. وانطلقت تلتمس نصلاً مرهف الحد. ثم ذهبت إلى غرفة الحمام المجاورة لغرفتها والتي أصبحت الآن خاوية. خلعت عنها ملابسها، وأجرت الماء ثم استلقت في المغطس. أتت بحركة بسيطة، وأخذ الدم يسيل من معصمها. وشعرت أنها الآن في حال جيدة. ازداد اصطباغ الماء بالحمرة. أخذت حياتها تنسل منها خلسة، مخلفة تعباً كبيراً. «النوم!...» كانت تلك الأمنية التي لم تعد تتمنى غيرها. وأغمضت عينيها واستسلمت لفتورة الماء.

في صباح الغد، وقد جاءت فاطمة تبحث عنها، عثرت عليها شاحبة عارية، وقد غرقت في ماء أحمر. أطلقت صرخة عالية تردد صداها في كل أرجاء المنزل. وفقدت وعيها بعد قليل.

كانت الشمس قد أصبحت وسط السماء عندما اكتشف أحد جنود

جيش السلطان، وهو يقوم بمراقبة الأحصنة والبغال التي ترد ماء النهر، جسد صبية عار تماماً بين الأغصان. خلصها وسحبها إلى الضفة.

ـ يا للجمال!

وعلى بعد خطوات تمددت جثة حيوان ضخم وتبين أنه فهد. وسحبه الجندي أيضاً نحو الضفة. بينما كانت الأحصنة التي اشتمت الرائحة الحيوانية، تصهل صهيلاً صاخباً.

وما أن أُخطر قائد الخدمة، حتى احتشد الجنود، في فضول لرؤية اللقية الغريبة عن كثب.

ـ فهد وفتاة يضمهما عناق الموت... شؤم! قال جندي عجوز.

وأمر القائد بدفن الجسدين أحدهما إلى جانب الآخر.

الفصل الثامن عشر

في الأيام التالية، استمر حراقو السلطان في قصف القلعة بانتظام. لكن الإسماعيليين ما لبثوا أن اعتادوا على ضجيج الأحجار التي تضرب أسوارهم. وكان الجنود الذين يقومون بالحراسة في أعلى الأسوار يراقبون الرمي بعيون خبيرة، معقبين على كل ضربة، ساخرين من أولئك الذين يخطئون هدفهم، وهاتفين عالياً لأولئك الذين يصيبونه. وكانوا يلهون بتبادل الإشارات مع العدو؛ وبوجيز العبارة: لم يعد أحد يشعر بأدنى خوف.

أصبح ابن وقاص ومنذ اختفاء عبيدة قائداً للجواسيس. ورأى أن الوقت قد حان للاستفادة من العلاقات الطيبة التي توطدت عن بعد بين المعسكرين، ليحاول إقامة اتصال مباشر مع جنود الأمير. وهكذا كلف أحد رجاله بمرافقة أسير حتى المراكز المتقدمة للجنود المهاجمين. وحدث الأمر الذي توقعه: إذ أخذ الأسير يحدث زملاءه عن المعاملة الحسنة التي تلقاها من الإسماعيليين. بعد ذلك انطلق صوت من جانب المحاصَرين سائلاً رجال الأمير إن كانوا يقبلون التفاوض على حدة مع رجال آلموت: فهنالك ما يكفي من أموال في القلعة لإرضاء الجميع!

وتلا ذلك تهريب ليلي للمؤن، حيث أصاب الغنم كلا الطرفين. وشعر ابن وقاص بالابتهاج من ذلك، إذ تلقى عبر تلك القناة معلومات قيمة. لقد علم في المقام الأول أن عدد جيش الأمير لا يصل إلى ثلاثين ألف رجل وإنما بالكاد يقارب نصف ذلك العدد. كما بلغه خبر آخر مثير للاهتمام: فقد بدأ المحاصِرون الذين موّنوا تمويناً سيئاً يفتقرون إلى

القوت وأخذ الجنود المستاؤون يدعون علانية إلى الرحيل. وقد راودت الأمير أرسلان طاش فكرة إرسال حوالى خمسة آلاف رجل إلى الري أو إلى قزوين، لكن ما بلغه عن عزيمة الإسماعيليين المرعبة جعله يؤجل ذلك القرار: فهو إن سحب قواته، سيخاطر بأن يحل به ما حلّ بطلائعه الخيالة، قبل بضعة أسابيع!

ما أن انقضى أسبوع حتى مثل رسول لاهث عند باب الأمير، وقد كلف بنقل الخبر الرهيب: إن الوزير الأكبر قد طعنه متعصب إسماعيلي وسط جيشه. وقع الخبر على مسامع أرسلان طاش وقوع الصاعقة. وبادرت إلى مخيلته على الفور صورة مجرم متنكر يسعى للانتقام منه... لقد جاء دوره الآن ليشعر بعرق بارد يتصبب على جبينه.

ـ فليمثل أمامي أبو جعفر! أمر في الحال.

ومثل القائد بين يديه دون تأخير.

ـ هل سمعت؟ قال الأمير بنبرة قلقة.

ـ سمعتُ، أيها الموقّر. لقد اغتيل نظام الملك.

ـ وماذا قال سيد آلموت؟

ـ قال أن لديه معلومات حول الوزير لن تصل مسامع معاليك إلا بعد فترة تراوح بين ستة وعشرة أيام... ويرجوك أن تتذكره آنئذ وتتذكر كلماته.

ـ يا الله! يا الله! لقد عرف كل شيء! إنه هو، بلا ريب، الذي بعث القاتل إلى نهاوند! وماذا يقصد بهذه الكلمات: أن أتذكره؟

ـ إنه كلام لا يحمل الخير لك، إني أخشاه.

مسح الأمير عينيه بيده، ثم هرول نحو الباب مثل أيّل في نباحه الأول.

ـ قائد الحرس! أسرع! ضاعف عدد جندك، ولتكن أسلحة الجميع مشرعة. وإياك أن تدع أحداً يجتاز هذا النطاق، ما عدا قادتي الذين أستدعيهم أنا بنفسي.

ثم توجه نحو أبي جعفر:

ـ اجمع ضاربي الطبول! ينبغي أن تتجند كل الفرق في الحال. وسيقطع فوراً رأس أي شخص يجري أدنى اتصال مع آلموت.

وقبل أن يتسنى لأبي جعفر تنفيذ الأمر، هرول قائد إلى داخل الخيمة وقال:

ـ خيانة! إن الرجال الذين يشرفون على الآلات قد سرقوا الخيول والبغال وفروا باتجاه الجنوب. وقد ردّ المأمورون الذين أرادوا منعهم رداً عنيفاً؛ وشوهدوا منذ قليل موثقين بالقيود.

أمسك أرسلان طاش رأسه بين يديه.

ـ أيها الكلب! ابن الكلب! أنت بالتأكيد كنت بين الذين سمحوا بذلك؟

أغضى القائد طرفه، كاظماً غيظه.

ـ إنهم جائعون. ولا يريدون أن يقاتلوا نبياً عظيماً كذاك «الشيخ» الذي يحكم هذه الجبال.

ـ إذن أشر علي بالنصيحة!... ماذا علي أن أفعل؟

أجاب أبو جعفر بجفاء:

ـ إن الوزير الأكبر، ألد أعداء الإسماعيليين قد مات. واحتل تاج الملك مكانه. فالوقت مناسب لسيد آلموت...

ـ ماذا تقصد بتلك الكلمات؟

ـ إن الرجال الذين يعرفون تشغيل آلات الحصار قد فروا. فأي سبب لدينا للبقاء حول هذه القلعة؟

بدا الارتياح واضحاً على أرسلان طاش. ورأى رغم ذلك أنه مضطر للصياح:

ـ أتنصحني بفرار ذليل؟

ـ لا، أيها المبجل. إن الوضع ببساطة قد انقلب رأساً على عقب منذ موت الوزير الأكبر. وعلينا انتظار أوامر السلطان والوزير الجديد.

ـ هذا أمر آخر...

وجمعت هيئة القادة. وأوصت غالبيتهم بالانسحاب. فالجنود لايؤيدون الحرب ضد الإسماعيليين.

ـ حسناً، قال أخيراً الأمير الحذر. فلتفكك خيام المعسكر وليتهيأ الجيش للرحيل في هدوء تام.

في صباح اليوم التالي، سطعت أشعة الشمس على سهل فارغ. والأرض المداسة وآثار نيران ضخمة كانتا وحدهما الشاهدتين على أن جيشاً جراراً قد خيم عشية في هذه المنطقة.

كان ابن وقاص قد علم لتوه من وسطائه بخبر موت الوزير الأكبر.

«لقد قتل أحد الإسماعيليين نظام الملك وسط معسكره! وجيش السلطان يتقهقر أمام آلموت على نحو يثير الرثاء!» وانتشر الخبر في جميع أرجاء القلعة انتشار النار في الهشيم. كان ابن وقاص قد نقل النبأ أولاً إلى أبي علي، الذي ذهب في الحال إلى بوزروك أوميد.

ـ لقد نفذ ابن طاهر الأمر! وقتل نظام الملك!

وانطلقا لإعلام الحسن. كان القائد الأعلى ومنذ أن علم بموت مريم المأساوي، قد انكفأ على نفسه منعزلاً أكثر من أي وقت مضى. لقد عملت الآلة كما أراد، لكنها سحقت بكلاباتها كل أولئك الذين لم يُعَدُّوا ليكونوا وقوداً لها. وجرّت الضحية الأولى الثانية، التي بدورها سحبت الثالثة. شعر أنه لم يعد يضبط تلك الآلة تماماً، وأنها استقلت عن إرادة سيدها استقلالاً غريباً، فأهلكت أيضاً أولئك الأعزاء على قلبه... أولئك الذين كان بحاجة إليهم في قرارة نفسه. إنه ومنذ الآن وحيد، يشيع رعباً مبهماً حتى في أقرب المقربين إليه. كان انتحار مريم بالنسبة إليه، ارتداد آخر كائن حي كان يستطيع بحضوره أن يكشف عن نفسه على حقيقتها. لو كان بمقدوره أن يأتي بعمر الخيام إلى جانبه! ترى كيف كان الشاعر سيحكم على أفعاله؟ بالتأكيد لن يؤيدها، لكنه سيتفهمها. وهذا أكثر أهمية من ذاك.

عندما دخل الداعيان الكبيران إلى غرفته، عرف في الحال من ملامحهما الجدية أنهما سينقلان إليه خبراً هاماً.

ـ إن جيش الأمير قد اندحر عن آخره. وفدائيك قتل الوزير الأكبر!

نهض الحسن. إن ذاك الأكثر شهرة بين أصدقاء ثلاثة ربطهم قسم الشباب الشهير قد مات. الطريق الآن مفتوح أمامه.

ـ وأخيراً! تمتم. إن موت هذا الرجل بالنسبة لي بداية السعادة...

ثم وبعد صمت قصير:

ـ هل هناك أخبار عن المنفّذ؟

هز بوزروك أوميد كتفيه.

ـ لا نعرف شيئاً. وهل هنالك غير احتمال واحد؟

تطلع الحسن في أعينهما، محاولاً قراءة أفكارهما. كان وجه أبي علي يفصح عن الإخلاص والثقة. وبدا على وجه بوزروك أوميد الرضا، وما يشبه الإعجاب.

وتنهد الحسن قائلاً:

ـ بلغوا الفدائيين أن عليهم من اليوم فصاعداً، تكريم ابن طاهر باعتباره أعظم شهدائنا. وليذكروا اسمه في دعواتهم إلى جانب اسمي سليمان ويوسف. ذاك ما آمر به. اليوم ستمضي مسيرتنا ولا رادّ لها. وستتحرر جميع قلاعنا المحاصرة. لينطلق رسول في الحال إلى زور غامبادان. يجب الانتقام لحسين القيني. وما أن يرفع كيزيل ساريك الحصار عن القلعة، حتى تأتي قافلة بابني إلى هنا.

ثم صرفهما الحسن وصعد قمة البرج، حيث كان بوسعه مراقبة رحيل جنود الأمير.

في صباح الغد، انطلق رسله مسرعين نحو جميع القلاع الإسماعيلية. وتم تكليف ابن وقاص بالاتصال برجال رودبار.

عند هبوط الظلام، هرع أبو علي لاهثاً محذراً القائد الأعلى.

ـ حدث أمر غير مفهوم، صاح عند الباب. لقد عاد ابن طاهر إلى القصر...

كانت الليلة التي أعقبت اغتيال الوزير الأكبر أشد ليالي ابن طاهر هولاً. كان جسده مسحوقاً وكذلك قلبه. وقد قيدت قدماه ومعصماه إلى وتد الخيمة الأكبر. ظل ساعات وساعات ممدداً دون حراك على الأرض، وأفكار يائسة تجيش في نفسه. تخيل أنه يسمع ضحكات

عجوز آلموت الهازئة. كيف أصاب العمى بصيرته هكذا، إلى حد أنه لم يتكهن بالخديعة منذ بدايتها؟ الله، الله! إنما أيضاً كيف كان بوسعه التفكير بأن زعيماً دينياً يؤمن أتباعه بأنه خادم للحقيقة قد يكون دجالاً على هذا النحو؟ وقادراً على احتيالات دبرت بكل برود!... ثم إن مريم، صاحبة ذلك الجمال الملائكي، لم تكن إلا متواطئة معه!... إنها أكثر فساداً منه لأنها استُخدمت لخدمة مآرب مشينة شعوراً مرهفاً كالحب. آه! ياللاحتقار الكبير الذي يحمله نحوها اليوم!

بدا الليل طويلاً لا نهاية له. وأبقته مرارة قسوة الألم والكرب مستيقظاً. هل كانت مريم عشيقة ذاك العجوز الفظيع؟ هل ضحكا معاً من سذاجته الصبيانية؟ وهو الذي قدم لها أروع قصائده! وبينما كان يحلم بها، ويتشوق لرؤيتها، ويضنيه عشقها، كان عجوز سافل يعبث بجسدها الساحر، يشبع رغبته، يستمتع بمفاتنها، ويرسل إلى الموت الفتيان الذين يؤمنون به، ويبجلونه، ويحبونه. الله! الله! يا للحقيقة المرعبة! لكن كيف كان كل ذلك ممكناً؟ ألم يكن هنالك أحد فوقنا ليعاقب جرائم كتلك! ويكبح جماح سلوك متوحش إلى هذا الحد!

مريم ـ عاهرة! لم يستطع تحمل تلك الفكرة. وجمالها وذكاؤها، ونعومتها لم تكن إلا فخاخاً منصوبة لحمقى مثله! ليس له الحق في أن يبقى على قيد الحياة وسط عار كهذا. لذا عليه العودة إلى آلموت للانتقام من العجوز. لقد كُلف بالقتل وقد نفذ هذا الأمر، وبالتالي فإن الحسن يستحق الموت بدوره.

آه! ومع ذلك!... أليست مريم مخبأة في ثنية من ثنايا روحه بوصفها المخلوق الأعذب والأروع... ياله من لهيب أوقدته في قلبه! لقد أيقظت في كيانه ألف قوة مجهولة. الآن وقد (عرف)، فهو يرغب بها دائماً... آه! لو يضمها إليه مرة واحدة فقط... في عناق أخير!

أُخبر في الغد، أن الوزير الأكبر قد مات. وأن قرار إرساله إلى آلموت لم يُتخذ بعد: إنهم في انتظار ما سيقرره السلطان... وكان رسل المعسكر قد لحقوا بالسلطان وهو في منتصف الطريق إلى بغداد. وفي الحال انكفأ عائداً. ووصل نهاوند بعد يومين.

كان جسد الوزير الأكبر معروضاً فوق منصة، تحت قبة السماء

الزرقاءِ، مطيباً، مدهوناً، في بداية تحنيطه، وقد ألبس الأرجوان وعلت رأسه عمامة أخاذة، وسط عرض باذخ من الأعلام والتيجان والزخارف. وأُركنت القلنسوة السوداء والمحبرة والقلم، شارات مقامه، عند قدميه. كان وجهه بلون الشمع، تحيط به لحية بيضاء جميلة، تدل على النبل، والسكينة والوقار. وهرع من كل أصقاع البلاد، أبناء المرحوم العديدون، وقد امتطوا أسرع خيولهم. جثوا أمام أبيهم الميت، قبلوا طويلاً أصابعه الباردة المتصلبة، بينما كانت معزوفة من الدموع والآهات تهز الجو المحيط بالمنصة الجنائزية.

عندما لمح السلطان جسد وزيره أخذ ينتحب مثل طفل. لقد خدم المرحوم وطنه طيلة ثلاثين سنة! «أبا الأمراء ـ الأتابك!» كم يستحق هذا اللقب! واليوم حزن حزناً مريراً على تصرفه القاسي حياله في السنة الماضية. كيف تساهل مع امرأة تعاطت شؤون الحكم؟ لقد فعل حسناً في حبسها مع حريمه مثل الأخريات. وعرف من قادة المعسكر تفاصيل الاغتيال. ذاك إذن هو وجه الحسن الحقيقي! كم كان يسيراً على القاتل أن يستهدفه هو بدلاً عن وزيره! وسرت قشعريرة رعب فيه. لا، لا يمكن أن يتسامح مع مثل تلك الجرائم وإلا لتعددت أمام الناس. يجب أن يكنس الحسن من الوجود! ومعه جميع الإسماعيليين. وستمحى قلاعهم جميعها!

أمر السلطان أبناء الوزير بأن ينقلوا جثمان أبيهم إلى أصفهان وأن يدفنوه هناك في احتفال مهيب. أما فيما يتعلق بالقاتل، فقد اجتمعت الآراء على أنه من الأنسب تنفيذ إرادة المحتضر الأخيرة. «سيكون مصيره الهلاك على أية حال في آلموت»، ذلك ما بت به السلطان وهو يأمر بإحضار ابن طاهر إليه.

كان موثق القيود، متورم الجسد، دامي الجروح. ودُفع بقسوة إلى الخيمة الملكية. واندهش العاهل لرؤية ذلك الوجه. فقد علمته سنوات سلطانه أن يحكم بسرعة على الرجال. وهذا الإسماعيلي لاتبدو عليه ملامح مجرم.

ـ كيف كان بوسعك اقتراف جريمة كتلك؟

باح ابن طاهر بكل ما في صدره. كانت كلماته صريحة لا تصنّع

فيها. بيد أن ما قصه سمر من الرعب أشد المستمعين صلابة. كان العاهل يعرف جيداً تاريخ الأزمان البائدة: إنه لم يسمع على الإطلاق بمشروع شيطاني كذاك.

ـ هل تدرك الآن الدور الذي أوكل إليك؟ سأل السلطان الشاب عندما فرغ من رواية قصته. لقد كنت سلاحاً بين يدي ذلك العجوز الحقير!

ـ إني أتحرق فقط لأمحو جريمتي ولأخلص الناس من مِسخ آلموت.

ـ إني أثق بك؛ وسأدعك تذهب من جديد. سيصحبك ثلاثون رجلاً إلى القلعة. واحذر ألا تستسلم بسرعة. اكظم غيظك إلى أن تقف أمام ذاك الذي عليك قتله. إنك شاب ذو عزيمة وذكاء، ولا ينبغي أن تفشل في هدفك.

بعد أن اتخذ السلطان التدابير التي عزم عليها، سلك مجدداً طريق بغداد.

انطلق ابن طاهر وخفره في رحلتهم صوب آلموت وهم يجدون السير. بيد أن خبر موت الوزير الأكبر كان قد سبقهم بيوم واحد. والتقوا في الطريق بين الري وقزوين، بزمرة من الجنود الذين فارقوا جيش الأمير. وعلموا منهم الأثر الذي خلفه موت نظام على الجنود: لقد رُفع الحصار عن آلموت! ربما سيتعرضون الآن لخطر الوقوع بين يدي مفرزة إسماعيلية.

لكن ابن طاهر خلصهم من الورطة قائلاً:

ـ إني أعرف طريقاً سرياً من الجانب الآخر لشاه رود. إنه الطريق الأكثر أمناً.

وأرشدهم إلى منطقة استطاعوا عندها أن يعبروا مجرى الماء بوساطة مخاضة. وعلى الطرف الآخر، كان هنالك درب متعرج وسط الأدغال، محصور بين السيل والمنحدر الهاوي. تابعوا تقدمهم نحو آلموت. وفجأة أشار رجل الاستطلاع في المقدمة إلى اقتراب فارس يسير بسرعة في الإتجاه المعاكس لهم. فاختبؤوا في جوف الأحراج وأعدوا كميناً.

ما أن لحظ ابن طاهر المسافر الغريب، حتى عرف أنه ابن وقاص. واستولى عليه غم مبهم. «من المؤكد أن سيدنا أرسله إلى رودبار» ولام نفسه على بادرة ضعف أحس بها: « إنه في النهاية، ليس مذنباً... أليس هو ضحية احتيال العجوز كما كنت أنا نفسي؟» ومن ثم، وفي قرارته، اعترف أنه لا يزال يتعلق بعالم آلموت على نحو غريب...

وفي لمح البرق، أحاط الجنود المهاجمون بابن وقاص. كانت الفسحة ضيقة بحيث لم يستطع استخدام رمحه. فرمى به أرضاً، وشهر سيفه مجابهاً إياهم وانطلقت منه صيحة عالية:

ـ فلتأت، أيها المهدي!

تراجع إلى الوراء أولئك الذين كانوا في متناول ضرباته، وقد فاجأتهم جسارته. وشعر ابن طاهر بشحوب وجهه، وقد ارتد قليلاً، وكأن حركاته قد شلت. تذكر أول معركة لهم عند سفح القلعة... مشهد العلم المنتزع من العدو... وسليمان يضرب الأرض برجليه حنقاً حينما منعه أبو سراقة من شهر سيفه... لقد رأى عظمة الحركة الإسماعيلية الوليدة، وهاهو اليوم بأسها يقاوم جيشاً يضم الآلاف. أطرق برأسه فوق عنق دابته وبكى بصمت.

بيد أن ابن وقاص كافح مثل بطل وأفلح تقريباً في شق طريق له. كان سيفه يضرب بقوة وحزم تروس وخوذات الذين أحاطوا به من كل جانب. وأخيراً، قفز أحد الجنود على الأرض، والتقط رمح الفدائي وأغمده في بطن مطيته، التي وقفت على قائمتيها الخلفيتين وهوت بكل ثقلها، ساحبة فارسها تحتها. أفلت ابن وقاص بسرعة منها، لكنه لم يستطع تجنب ضربة مقمعة أوقعته أرضاً. شد وثاقه بإحكام. لم يكن جرحه بالغ الخطورة؛ واسترد وعيه أثناء الاعتناء بجرحه، ولما فتح عينيه أبصر ابن طاهر. لقد كان في العشية يذكر اسمه في دعائه للأبرار... وخنقه خوف غامض وقد راودته فكرة غريبة: « هكذا إذن، أنا ميت أيضاً...» لكن قائد المفرزة الغريبة اقترب منه، وأخذ رفيقه السابق يهز كتفيه ليخرجه من غفلته:

ـ استيقظ، يا ابن وقاص. ألم تعرفني؟

وطلب إحضار ماء للجريح. الذي شربه بشراهة.

ـ ابن طاهر!... ألست ميتاً؟ ماذا تفعل وسط هؤلاء الرجال؟

قال ذلك وهو يشير إلى القائد الغريب.

ـ إني عائد إلى آلموت لأقتل ذاك الكذاب، الدجال الأكبر على مرّ الزمان. إن الحسن بن الصباح ليس نبياً، لكنه محتال سافل. والفردوس الذي فتح لنا أبوابه ما هو إلا محيط اختلقه. والحدائق التي كنا فيها موجودة في آلموت، ومخفية وراء القصر: ماهي إلا روضة أعدها فيما مضى ملوك الديلم!

كشر ابن وقاص عن ابتسامة احتقار.

ـ خائن!

احمر وجه ابن طاهر. إن الجريح لا يريد سماع شيء، ويصر مكابراً على إيمانه المجرد من العقل.

ـ لا أؤمن إلا بالقسم الذي ربطنا بسيدنا!

ـ ذلك القسم لم يمنعه من خداعنا! فلا يمكن إذن أن يربطنا.

ـ باسم كلمات القسم هزمنا جيش السلطان. وهاهم أعداء الحركة الإسماعيلية يرتجفون اليوم أمامنا!

ـ أنا صاحب الفضل الوحيد في تلك النتيجة. لا تنسى أني أنا الذي قتلت الوزير الأكبر.

ـ أعرف هذا. ولذلك سماك القائد الأعلى شهيداً. واليوم تريد أن تقتله بدوره!...

ـ لو أني عرفت في وقت مبكر ما أعرفه اليوم، لما قتلت سواه.

ـ تقتله؟ بناء على أمره وعلى مرأى منا، طعن سليمان نفسه بالخنجر وألقى يوسف بنفسه من أعلى البرج. لقد قرأت ما كان ينبئ به وجهاهما، حتى في الممات لم يرتابا في النعيم الذي ينتظرهما هناك في الأعلى!

ـ آه! يا له من قاتل لا قلب له! فلنسرع، فلنسرع! كلما عجلت في غمد سكيني في أحشائه، كلما تخلص الناس سريعاً من هذا الكابوس...

وانطلقوا في مسيرهم مجدداً. ولما أصبحت الفرقة الصغيرة على

بعد نصف فرسخ من آلموت، توقفت والتفت قائدها إلى ابن طاهر وقال:

ـ عليك الآن متابعة السير بمفردك إلى القلعة. سنحتفظ بالأسير رهينة. أتمنى أن تنجح في انتقامك. ولينعم الله عليك بعدئذ بميتة هانئة!

اجتاز ابن طاهر السيل على حصانه. وعثر بعد خطوتين، على المكان الذي كان قد أخفى فيه ملابسه بعد مغادرته القصر. بدل زيه واتجه نحو المضيق. وتابعه رفاقه بنظراتهم طويلاً؛ ثم أمرهم قائدهم بامتطاء خيولهم: ليتخذوا الطريق المؤدي إلى الري.

تعرف حارس برج المراقبة الذي يطل على مدخل المضيق إلى الفدائي، وتركه يمر. ولم يجد ابن طاهر مشقة كذلك في الاستجابة لطلبه بإنزال الجسر المتحرك: واستقبله الجنود الذين كانوا في الفناء بعيون محدقة كما لو أنه شبح عائد. خاطب فوراً قائد الخدمة:

ـ يجب أن أكلم سيدنا، في الحال! إني أحمل من مخيم السلطان خبراً هاماً!

هرع القائد ليبلغ أبا علي بالحدث؛ وبادر أبو علي إلى إخبار الحسن بذلك. كان ابن طاهر في أثناء ذلك ينتظر عابساً عازماً. لقد كانت رغبته في الانتقام من الدجال أقوى من خوفه. ولم يستطع أن يمنع نفسه من جس سيفه القصير الذي يحمله تحت صداره؛ كما كان قد خبأ أيضاً خنجراً تحت نطاقه العريض، وأخفى في كمه النصل المسموم الذي وخز به الوزير الأكبر.

ظل الحسن صامتاً حين علم بعودة ابن طاهر. وحملق في أبي علي بنظرات مبهمة، كما لو أنه نسي وجوده أمامه. كان يستعرض في عقله كل الاحتمالات التي يمكن أن تفسر تلك المعجزة التي لا سابقة لها. اضطربت أفكاره كلها، وساوره شك عفوي بوجود فخ ما.

ـ هيا. فليأت إلي ابن طاهر. قل للحارس بأن يدعه يدخل.

بعد ذلك أمر خمسة من حراسه بالصعود والاختباء خلف ستارة

ردهته، وأوعز إليهم باحتجاز الرجل الذي سيدخل، وتجريده من سلاحه وشد وثاقه.

ثم انتظر.

عندما علم ابن طاهر بأن القائد الأعلى دعاه للمجيء إليه دون انتظار، استجمع قواه وقال في نفسه: «يجب أن أصيب هدفي!... وليكن الله في عوني!» واستحضر في ذهنه تمارين قتال علمهم إياها عبد الملك: إذ عليه أن يتوقع فخاً منصوباً في طريقه. المهم أن يصل إلى غرفة الحسن!

كان شاحباً لكنه عاقد العزم بشراسة، وصل أسفل برج القصر، وقد شمر قليلاً عن كم صداره، ويده جاهزة للإمساك بالخنجر. ولم تحمل خطواته إلا تردداً بسيطاً عندما مرّ بالقرب من الحراس السود. كانوا يقومون بالحراسة عند كل منفذ وعند نهاية كل ممر. سيطر على نفسه لئلا يعود. ثم كان ذلك الدرج الطويل، الذي ارتقاه كما لو أنه في حلم. بينما الحارس المتمركز في أعلى الدرجات، ومقمعة على كتفه، لم يعره أدنى انتباه. لقد حان وقت العمل: لم يشعر بأدنى ضعف. واجتاز الممر بجرأة. وعند الردهة كان يقف حارس آخر. رفع الستارة وأشار له بالدخول.

سرت قشعريرة باردة في فقرات ظهره. «بسرعة! بسرعة! ردد في نفسه ليبث فيها الشجاعة. لأنتهي في أقصى سرعة!...» دخل بحذر لكن بعزم، ضاغطاً على شفتيه. وفي هذه اللحظة بالذات انهالت فوقه قبضات هائلة. ومن خلفه حاول أحدهم أن يشل حركة معصميه لكنه أفلت منه في حركة قوية وتمكن من سحب سيفه. إلا أن ضربة على عنقه أوقعته أرضاً. وشعر بعدئذ وكأن جماعة من العمالقة تسحقه بوزنها. وحين عاد إلى رشده، أبصر قدميه ويديه في الأغلال.

ـ كم أنا أحمق! صرخ في نوبة حنق بالغة اليأس.

وخرج الحسن من غرفته.

ـ لقد نفذنا أمرك سيدنا.

ـ حسناً. ضعوه في الممر وانتظروا.

تأمل ابن طاهر وهو ممدد عند قدميه، مشدود الوثاق، وابتسم له ابتسامة محيرة.

ـ مجرم! جلاد الأبرياء! ألم تكتفِ بالدم الذي يلطخ يديك!

فقال الحسن كما لو أنه لم يسمع شيئاً:

ـ هل نفذت الأمر؟ سأل ببساطة.

ـ ولم تهتم بذلك، أيها الدجال؟ أنت تعلم أكثر من أي شخص آخر إلى أي حد كنت أتخبط في الضلال...

ـ حسناً. كيف نجحت في العودة؟

ضحك ابن طاهر ضحكة ألم.

ـ وهل هذا يقلقك؟ إني هنا، وحسبك هذا... لأغمد خنجري في أحشائك.

ـ ذلك لن يكون سهلاً، يا بطلي.

ـ صحيح. فللمرة الثانية، أتصرف مثل أحمق.

ـ ولم؟ طالما أنك فدائي فأنت مكرس للموت. لقد أعلناك شهيداً. وها أنت تعود لتغير خططنا. لا جدال أنه قد آن الأوان لإرسالك إلى الجنة التي وعد بها الشجعان.

ـ هكذا إذن! لقد صدقت أكاذيبك: فتحت لنا حدائق ملوك الديلم... تلك كانت جنتك! وفي سبيل ذلك السراب الجميل ذبحتُ رجلاً كان شرف زمانه!... والذي من طيبته فتح عيني على الحقيقة وهو يحتضر... يا له من عمل فظيع!

ـ اهدأ يا ابن طاهر. أغلب البشر يعيشون في ضلال يشبه ضلالك.

ـ وكيف لهم أن يتصرفوا على نحو آخر! إذا كان أولئك الذين يثقون بهم يتفننون في استغلال ثقتهم! أجل، كنت أول من صدقك. لو أني واجهتك بدلاً من أن أتخيل أن رجلاً مثلك، تعتبره نصف بلاد الإسلام نبياً، يمكن أن يكون خداعاً، ودجالاً! لقد أغويت عن عمد أنصارك المخلصين! واستغللت إيمانهم لتحقق مآربك المجرمة!

ـ هل لديك رغبة أخرى تريد التعبير عنها؟

ـ أن تحل عليك اللعنة!

ابتسم الحسن.

ـ تلك كلمات لا ترعبني على الإطلاق.

شعر ابن طاهر بقواه تخونه. وأرغم نفسه على التحلي ببعض الهدوء:

ـ ستقتلني، أعرف... لكن قبل ذلك، أود أن أطرح عليك سؤالاً.

ـ إني منصت.

ـ كيف كان بوسعك تخيل مخطط بمثل هذه الدناءة... ونحن وسيلة ذلك!... نحن الذين كُرسنا لك جسداً وروحاً؟

ـ أتريد أن تسمع التوضيح الصحيح؟

ـ لا أرغب بسماع شيء سواه.

ـ إذن اصغ... ولتكن تلك فرصتك الأخيرة... لقد كنت أقص دائماً على أتباعي أني أنحدر من أصل عربي. وعمل خصومي على إثبات العكس. وصادف أنهم كانوا على حق. لكن لماذا تصرفت هكذا؟ لأنكم أنتم، الإيرانيون، أصبتم بالعار أصلكم. فالرجل الذي هو آخر المتسولين، إن كان آتياً من بلاد عاش فيها النبي محمد، ستنظرون إليه على أنه أجلّ الرجال. أنسيتم أنكم من سلالة رستم وسهراب، ومينوتشهر وفريدان وأنكم ورثة ملوك فارس القديمة، ورثة خسرو، وفرهاد، وأمراء الفرس! لقد نسيتم أن لغتكم لغة الفردوسي، والأنصاري ولغة كثير من الشعراء الآخرين. خضعتم لدين العرب ولهيمنتهم الروحية. واليوم تتذللون أمام الأتراك، سارقي الخيول القادمين من السهوب! تساهلتم منذ أكثر من نصف قرن في أن يكون كلاب السلاجقة حكامكم. أنتم، يا أبناء زرادشت! في أيام شبابي، أقسمت قسماً جليلاً مع صديقين آخرين: أحدهما أصبح ذاك الوزير الذي قتلته، والآخر كان الشاعر عمر الخيام. لقد تعاهدنا على الاطاحة بهؤلاء الغاصبين: قررنا أن نرتقي أعلى مناصب المجتمع وأن يساعد أحدنا الآخر في هذا الطريق، إلى أن نمتلك النفوذ اللازم لتحقيق مخططنا. بحثت عن أداة بين أتباع علي الذين هم خصوم بغداد وبالتالي هم خصوم السلاجقة. وما فعله الوزير كان هو النقيض إذ

دخل في خدمة أولئك السلاجقة. في البداية حسبت أن تصرفه طريقة ملتوية قد اختارها ليبر بعهدنا. لكن عندما طلبت منه التفسير، اندهش لرؤيتي متمسكاً بـ «تصرفات صبيانية». وكان قد أدخلني إلى البلاط، لكنه سرعان ما تبين أني لا زلت مخلصاً لتصميمنا القديم. ولما تيقن أن نفوذي آخذ في الازدياد، أراد القضاء علي بدسائسه، واضطررت إلى أن أتخذ طريق المنفى. لقد جعل ثمن رأسي عشرة آلاف قطعة ذهبية! وهكذا انتهى حلم شبابنا... لقد كان الوزير يجلس بالقرب من باب رزق حانياً ظهره بخسة للغرباء. أما عمر الخيام فقد أحب الخمر، وأحب النساء، وبكى حريته الضائعة ساخراً من الناس أجمعين. وظللت أنا على رأيي. لكن تلك التجربة، وتجارب أخرى كثيرة، نبهتني وفتحت عيني. تعلمت أن الناس غير مبالين وكسالى ولا يستحقون عناء التضحية لأجلهم. لقد ناديتهم ودعوتهم بلا جدوى. أتحسب أن السواد الأعظم من الناس يعبأ بالحقيقة؟ لا، على الإطلاق! إنه يريد دعته وأكاذيب يغذي بها خياله. أم تحسب أنه يهتم بالعدالة؟ إنه يسخر منها شرط أن تُشبع مصالحه الشخصية، لم أرغب في أن أتعلل بالوهم أكثر. وبما أن البشر هكذا، فلنستغل مواطن ضعفهم لبلوغ هدفنا السامي، الذي يخدم أيضاً مصلحتهم... لكنهم غير قادرين على الإدراك! في الحقيقة، لقد طرقت باب البلاهة والسذاجة البشرية. راهنت على النزوع للشهوة والرغبات الأنانية للناس. وانفتحت الأبواب على مصاريعها أمامي. أصبحت نبياً شعبياً... وهو نفسه الذي أردت الانضمام تحت لوائه. واليوم، تهرع الحشود إلي. لقد أحرقت جميع سفني: ولذلك علي التقدم إلى الأمام، دائماً إلى الأمام، إلى أن تتقوض السلطنة السلجوقية... لا ريب أنك تجد صعوبة في فهمي؟...

كان ابن طاهر يصغي إليه محملقاً بعينين غير مصدقتين. كان لا يتوقع أبداً أن يرى الحسن يبرر تصرفاته، على الأقل ألّا يبررها على هذا النحو! لم يكن الحسن قد انتهى بعد...

ـ... ولا تحدثني عن الشجاعة المزعومة لأصدقائك الفدائيين! فقد عشت سني عمري الستين أخاطر برأسي على الدوام. وصدقني أني لو عرفت أن موتي يمكن أن يخلص عرش إيران المجيد من الطغاة الغرباء

لألقيت بنفسي إليه دون انتظار أي فردوس جزاء لي. لكني رفضت أيضاً أن أخدع نفسي: فأنا أعلم أنه إن أطيح بأحد الطغاة، فسيحل آخر محله. في الواقع، لم يكن موتي في ذلك الوقت ليفيد أحداً. فكان علي أن أتخذ منحى آخر وذلك بأن أعثر على عزائم قادرة على التضحيات الجسام... لأجني أنا نفسي ثمار إخلاصها. كان علي اختيار أذرع قادرة على تسديد الضربات بدلاً عني إلى الهامات الرفيعة المقام. لكن ما من أحد أراد ذلك طوعاً. وما من أحد كان يعي واجبه أو فيه من الإباء ما يكفي للتضحية بحياته في سبيل غايات سامية. حينئذ لجأت إلى طريقة أخرى. تلك الطريقة... أنت تعرفها: إنها الجنة المصطنعة التي اختلقتها في الجانب الآخر من تلك الصخور، مجدداً حدائق ملوك الديلم، كما أسميتها أنت منذ قليل. أين يبدأ الوهم في الحياة، وأين تنتهي الحقيقة؟ إنه أمر يصعب قوله. لازلت صغيراً لتفهم ذلك. لكن لو كنت في عمري! لأدركت أن جنة كل إنسان ليست سوى سراب رغبة خاصة. والمباهج التي يشعر بها في تلك الجنة هي بالنسبة إليه مباهج حقيقية، لا يرغب بأكثر منها. ولو أنك لم تدرك حيلتي، لكنت مت سعيداً، تحمل اليقين ذاته الذي مات وهو يحمله سليمان ويوسف.

هز ابن طاهر رأسه مذهولاً:

ـ إذا صدقتك، فهذا يعني أن المعرفة ستكون للإنسان هدية مرعبة...

ـ أتعرف ما هو جدار الأعراف؟

ـ إن لك أسباباً وجيهة لتعلم أني أعرفه، يا سيدنا. إنه الجدار الذي يفصل الجنة عن النار.

ـ حسناً. قيل إن هذا الحائط أعد لاستقبال أولئك الذين ماتوا في سبيل قضية عظيمة، ولكن ضد إرادة الوالدين. إنهم لا يستطيعون دخول الجنة، وهم لا يستحقون جهنم. نصيبهم أن يتأملوا من فوق كلا الجانبين. ذلك ليعلموا! أجل، إن الأعراف هي تشبيه لموقف جميع أولئك الذين تفتحت أعينهم ولديهم الشجاعة ليطبقوا سلوكهم على ما يعرفون! انظر! عندما آمنتَ، كنتَ في السماء! والآن وأنت تدرك، وأنت تشك، ها أنت في الجحيم! وعلى سور الأعراف، لا مكان للفرح ولا لخيبة الأمل.

الأعراف هي المكان الذي يتساوى فيه الخير مع الشر. والطريق المؤدي إليها طويل ووعر. وقلائل هم الذين أتيح لهم استشفافه. وأقل منهم الذين، وقد استشفوه، تجرؤوا على المتابعة حتى نهاية الطريق. لأن الذين يجدون أنفسهم فوق هم وحيدون، منفصلون إلى الأبد عن نظرائهم. وليبقوا على ذلك الارتفاع، عليهم أن يقسّوا قلوبهم... أتفهمني الآن؟

تنهد ابن طاهر وقال:

ـ هذا كله فظيع.

ـ ما الذي يبدو لك شديد الفظاعة؟

ـ أن تكون المعرفة هكذا... وأن تأتي متأخرة جداً. إذا صدقتك، أستطيع الآن فقط أن أبدأ حياتي...

غمره الحسن بنظرة متوقدة. واستنار وجهه. ومع ذلك فإن ريبة خفيفة أرعشت صوته حينما جازف بهذا السؤال:

ـ وماذا ستفعل اعتباراً من هذه اللحظة إن كان عليك أن «تبدأ» حياتك؟

ـ سأحاول أولاً أن «أعرف»... وسأبدأ بقراءة ما استطاعت عقول الماضي العظيمة أن تعرفه قبلي. أريد أن أدرس جميع العلوم، وأن أتعمق في أسرار الكون والطبيعة. سأزور المدارس الشهيرة، وسأنقب في المكتبات...

ابتسم الحسن.

ـ والحب؟ أنسيته؟

تجهم وجه ابن طاهر.

ـ سأتجنب هذا الشر. فالمرأة لا ذمة لها.

ـ عجباً، عجباً! ومن أين أتتك هذه المعرفة العميقة؟

ـ إنك تعرف كما أعرف من أين أتتني.

ـ أتقصد مريم؟ اعلم أنها التمست الرحمة لك طويلاً. لكم جميعاً! واليوم قضت نحبها. لقد قطعت شرايينها: فولت حياتها ودمها معاً...

أخذ ابن طاهر يرتعش: وفجأة اعتصر الحزن قلبه مجدداً... أجل، إنه لا زال يحبها!

ـ ذاك الذي يريد تسوّر الأعراف عليه أن يكون حراً أيضاً عند الحب.

ـ بوسعي أن أفهم... حتى هذا!

ـ ما رأيك فيّ الآن؟

ابتسم ابن طاهر.

ـ أصبحت أكثر قرباً إلي... قرباً مفزعاً.

ـ أتفهم الآن ماذا يعني الطواف في أرجاء العالم خلال أربعين سنة وفي القلب مشروع عظيم؟ وهل تفهم أيضاً ماذا يعني البحث خلال عشرين سنة عن إمكانية تحقيق حلم كبير؟ حلم ومشروع كهذين هما مثل أمر صادر عن قائد خفي. إن الناس الذين يحيطون بك يشبهون آنذاك جيشاً عدواً يحاصر قلعة. ويجب الخروج حياً من أسوارها إن أريد تفخيم هذا الأمر وسط الجنود الأعداء. يجب أن يكون المرء شجاعاً، لكن عليه أن ينقذ رأسه أيضاً. عليه أن يكون جسوراً لكن حذراً في نفس الوقت... أتتبين ذلك بوضوح؟

ـ لكنني أرى أنك تود فتح أعين الذين يصغون إليك...

ـ ألا زلت تعتقد أني مجرم بغيض؟

ـ تعلم جيداً أن هذه الكلمة لم يعد لها معنى الآن.

ـ هل ستكون لديك الشجاعة للصعود إلى الأعراف؟

ـ لقد استطعتَ أن ترسخ فيّ هذا الهوى حتى وأنا عاجز عن فعل أي شيء...

مشى الحسن نحوه وقطع وثاقه.

ـ انهض. إنك حر.

حملق ابن طاهر وتلعثم قائلاً:

ـ ماذا تقصد؟ أنا لا أفهم.

ـ أنت حر!

ـ كيف، حر؟ أنا؟ أنسيت أني جئت لقتلك؟

ـ إن ابن طاهر قد مات. واليوم بوسعك أن تحمل من جديد اسمك الحقيقي: عوني. لقد بدأت تسلق الأعراف. والذئاب لا تأكل بعضها.

أخذ ابن طاهر ينتحب. وارتمى على قدميه.

ـ اغفر لي! اغفر لي!...

ـ ارحل بعيداً عن هنا، يا بني. تعلم وتحرَّ المعرفة. ولا تتراجع أمام شيء. ارفض كل حكم مسبق. ولا تنظر لشيء على أنه رفيع رفعة عظيمة ولا على أنه منحط انحطاطاً ذميماً. انهمك بكليتك في كل شيء. كن شجاعاً. وعندما ترى أن العالم لم يعد بمقدوره أن يقدم لك شيئاً جديداً، ارجع آنذاك. ربما أكون ميتاً. لكن المخلصين لي باقون. ستكون موضع ترحيب، سأحرص على ذلك. وفي تلك الساعة من حياتك ستكون فوق سور الأعراف...

أخذ ابن طاهر يقبل يده باهتياج. أنهضه الحسن ونظر طويلاً في أعماق عينيه. ثم عانقه وقبله مخفياً دموعه.

ـ بني... قال متلعثماً. إن قلبي العجوز قد جعل فرحه فيك. سأعطيك مالاً. وسأحرص على أن تأخذ كل ما ترغب...

كان ابن طاهر قد أسقط في يده.

ـ هل بإمكاني أن أتأمل حدائقك ثانية؟

ـ تعال معي إلى أعلى هذا البرج.

صعدا إلى السطح. كانت روعة البستان الرحب منبسطة تحت أقدامهما. تنهد ابن طاهر. لقد زالت العقبة الأخيرة من أعماقه. وضع رأسه على الحاجز وشرع ينتحب دون تحفظ...

عاد الاثنان إلى حيث كانا، وأعطى الحسن أوامره اللازمة. جمع الفتى حوائجه ـ ولم ينس أشعاره: فهذه الذكريات غالية عليه أكثر من نفسه ـ غادر القصر مسلحاً، ومزوداً بالمال ومعه حمار حُمل بمتاع هائل. كانت الشمس تغمره بأشعتها. وعيناه تنظران إلى كل ما يحيط به نظرات دهشة. كأن العالم اتخذ ألواناً جديدة! شعر أنه يراه للمرة الأولى. أسئلة كثيرة تنتظر الإجابة. لقد مات ابن طاهر الفدائي. وها هو عوني الفيلسوف ينطلق في طريق طويل...

عاد الحسن أدراجه إلى أجنحته وقلبه مفعم بشعور كان مجهولاً إليه حتى تلك اللحظة. وبعد برهة قصيرة، هرول إليه الداعيان الكبيران مبهوري الأنفاس.

- ماذا يعني ذلك! أتعلم أن ابن طاهر قد غادر القصر؟ لقد رآه الجميع ينطلق في اطمئنان تام...

- أنتما مخطئان. وأعينكما خدعتكما. لقد مات ابن طاهر شهيد الحركة الإسماعيلية. بالتأكيد كان ذاك شخصاً آخر. شخصياً، أنا لا أعرف شيئاً... نعم، لقد فهمت، دعوني أسر إليكما بأنه قد جرى لي اليوم أمر يبعث على السرور، وينبغي أن أخبركما: لقد أصبح لدي ابن.

حدق الداعيان الكبيران في بعضهما وهما يهزان رأسيهما.

كان كل تعليق آنئذ لا طائل منه.

عادت المفرزة التركية التي رافقت ابن طاهر إلى آلموت، صوب نهاوند ومعها أسير في أوانه، إنه تعيس الحظ ابن وقاص. كان الجنود طيلة الطريق يعيرون انتباههم لهذر الناس الذين يلقونهم. كانوا يترقبون بين لحظة وأخرى سماع الخبر الصاعق: أن زعيم الحركة الإسماعيلية قد اغتيل بدوره! لكن جهودهم ذهبت سدى.

في نهاوند، لم يجد فخر الملك، الابن الأكبر للوزير الراحل، شيئاً يفعله أفضل من أن يأمر بقطع رأس المسكين ابن وقاص في احتفال عظيم، وأشير إليه على أنه قاتل الوزير الألمع. لقد كان ذلك انتقاماً لأبيه بجهد قليل... وتحويلاً سهلاً لأعين الناس عن الهروب المحيّر للقاتل الحقيقي.

وفي الوقت نفسه، كان المسافر ابن طاهر قد غادر أرض إيران القديمة متجهاً إلى الهند: كان عليه من اليوم شق طريقه.

الفصل التاسع عشر

على جناح السرعة بث حاملو البريد خبر اغتيال الوزير الأكبر، فانتشر النبأ من مقاطعة لأخرى، ناشراً بذور القلق عبر السلطنة السلجوقية المترامية الأطراف. كما وأثار ذلك النبأ تبعات لا حصر لها، واضطراب هزّ أرجاء بلاد الإسلام كلها.

أما قلعة زور غامباذان، نواة المقاومة الإسماعيلية في خوزستان، والتي أنهك الجوع والعطش مدافعيها فأصبحوا على وشك الاستسلام، فقد غادرها محاصروها في ليلة واحدة كما حصل في آلموت. إن الوزير الأكبر، عدو الحركة الإسماعيلية اللدود قد مات. وخليفته ومنافسه تاج الملك، معروف بصداقته للحسن. وهكذا رأت فرق كيزيل ساريك أنه من غير المجدي الاستمرار في ضرب الحصار: فتفرقت بمبادرة ذاتية منها حتى قبل أن يتلقى قائدها الأمر من السلطان أو من الوزير الجديد. وبعد بضعة أيام، علت الدهشة وجه مبعوث الحسن الذي جاء حاملاً إلى الشيخ ابن عطاش، خليفة حسين القيني، الأمر بتسليم قاتل الداعي الكبير، وذلك لتمكنه من دخول القلعة بحرية تامة. وفي اليوم التالي، أحضرت قافلة تضم أعداداً كبيرة من المسلحين حسين إلى آلموت.

كان خبر اغتيال الوزير الأكبر قد وصل أيضاً إلى مسامع الابن الأكبر للسلطان، الشاب باركياروق الذي كان يقاتل آنذاك المتمردين على الحدود الهندية. فسلم أخيه سنجر قيادة قسم من الجيش، وزحف هو إلى أصفهان مع ما تبقى من جنده، ليدافع عن حقوقه في الخلافة

وليتدارك المخططات المحتملة لزوجة أبيه الخاتون توركان، ووزيرها تاج الملك.

لكن ذاك الأخير لم يضيع هو أيضاً وقته. فعمل على أن ينادي بمحمود الطفل الصغير ابن الرابعة من العمر وريثاً للعرش. فالمناوئ الأساسي لهذا المخطط قد مات، والسلطان المتردد لم يعد لديه من يؤثر على إرادته ضد مطالب زوجته الطموح. فضلاً عن ذلك، فإنه لم يكن ليبالي كثيراً بتلك الخلافات. كان السلطان آنئذ في بغداد، حيث أقيمت على شرفه العروض ذات الأبهة والفخامة. وعلاوة على مظاهر الولاء التي قدمها له الخليفة، فقد تلقى الولاء من أعداد لا تحصى من الملوك والأمراء والشخصيات الكبرى، وأصحاب الإقطاعيات في جميع مقاطعات سلطنته. كان في قمة مجده وسلطانه. وموت ذاك الذي كان ناصحه المخلص لسنوات مديدة، لم يصب بالأسى طويلاً مشاعر عظمته. ولم يرغب بأكثر مما لديه. حقاً لقد كان في قمة سعادته...

ما لبث خبر تبعثر جيوش السلطان أمام آلموت وزور غامبادان الذي طار في البلاد أن أثار انتباه تاج الملك، فتبصر أخيراً لخطر حليف الأمس، الحسن، واليوم بعد أن خلف نظام الملك بوصفه حاكماً للسلطنة، شعر فعلاً بمسؤوليته عن أمن وسلام رعيته. وجاء في أوانه الأمر الصارم الذي أوعز به السلطان بشن هجوم لا يرحم ضد الإسماعيليين. فما كان من تاج الملك إلا أن خلع الأميرين أرسلان طاش وكيزيل ساريك وعين مكانهما قائدين تركيين شابين وحازمين، وكلفهما بجمع وإعادة تنظيم فرق الجنود المبعثرة وبشن هجوم جديد ضد آلموت وزور غامبادان.

ـ لقد كانت الأسابيع الأخيرة متقلبة الأحداث فعلاً، أوجز الحسن كلامه ذاك مخاطباً الداعيين الكبيرين. نحن بحاجة إلى شيء من الراحة لنهيء أنفسنا للمعارك القادمة. وعلينا أيضاً أن نسد الثغرات التي انكشفت في تنظيمنا. فلنحاول بالتالي أن نعقد صلحاً مشرفاً مع السلطان.

وتم اختيار حالفا لنقل الشروط المكتوبة التي اتخذت لتسلم

للسلطان في مقر إقامته في بغداد. وفيها اقترح الحسن على السلطان ما يلي: أن يرد للإسماعيليين الحصون والقلاع التي استولى عليها هؤلاء قبل الحملة التي شنها ضدهم الوزير الأكبر. وعلى السلطان أن يدفع تعويضاً عن الحصون المقوضة. وبالمقابل، فإن الحسن يتعهد بعدم استيلائه على حصون جديدة. وهو مستعد في الوقت عينه لحماية جميع حدود شمال البلاد من غارات البرابرة. لكن على السلطان أن يدفع نفقة الجيش الذي سيضعه الحسن عن طيب خاطر تحت تصرف السلطان، خمسين ألف قطعة ذهبية كل عام... ولم يتمالك الحسن نفسه عن الابتسام، حينما وضع ختمه على الرسالة. شعر أن عرضه يشكل تحدياً حقيقياً. كان به فضول لمعرفة كيف سيستقبل السلطان عرضه ذاك. لأن ما يطلبه من سلطان إيران ذي الحول والصول ما هو في الحقيقة إلا ضريبة سنوية!

على الرغم من صفة حالفا كرسول مأذون له، إلا أن حراس السلطان استوقفوه عند وصوله إلى همذان وقادوه إلى بغداد يجرجر الحديد في قدميه. وسلم قائد الحرس الخاص الرسالة إلى سيده السلطان في غمرة مظاهر تبجيل. مزق العاهل الختم وقرأ متلهفاً. امتقع وجهه. وارتجفت شفتاه.

ـ أتجرؤ، في مقامي هذا، أن تسلمني هذاالنسيج من البذاءات، صرخ في أذني القائد المسكين.

ارتمى قائد الحرس وجبينه على الأرض يستجدي العفو.

ـ اقرأ إذن! جلجل السلطان.

صرف رجال البلاط كلهم وأطلق العنان لغضبه. اقتلع ستائر النوافذ وسجاد الجدران، وحطم كل ما يمكن تحطيمه، ثم هوى فوق أرائكه، منهكاً وقد غصت أنفاسه.

ـ أحضروا لي المجرم! أمر بصوت أجش. وجيء بحالفا، مقيداً، وإلى الموت أقرب منه إلى الحياة.

ـ من أنت؟

كان صوت الأسير لايعدو كونه تمتمة.

- أتقول فدائي؟ أي قاتل محترف!

قفز السلطان على مخاطبه المثقل بالآلام وقد تحول غضبه إلى حنق مجنون. وأخيراً استل سيفه وأخذ يضرب الرسول المنكود الحظ إلى أن لفظ أنفاسه.

وفجأة انتهت نوبة غضبه تلك كما بدأت. وفاق إلى رشده لما شاهد الجثة عند قدميه. سأل بهدوء كاتبه وقائد الحرس بما ينصحانه للرد على التحدي الوقح الذي جاء به الحسن.

- أرى أن يعزز جلالته كل الحملات العسكرية ضد الإسماعيليين.

-لكن يجب أيضاً الرد على فظاظته، قال الكاتب. اسمح لي أن أكتب رداً باسم جلالتك.

واستقر بهم الرأي على إرسال مبعوث إلى آلموت. وفي الرسالة التي حملها، نعت الوزير الحسن بالقاتل، وبخائن البلاد، ومرتزق خليفة القاهرة. وأمره بأن يجلو فوراً عن جميع القلاع التي احتلها بغير حق. وإلا فلن يبقى فيها حجر على حجر، وسيقضى على الإسماعيليين المداهَمين في تلك الحصون حتى آخر رجل فيهم وكذلك نسائهم وأطفالهم. أما الحسن فسيحل به عذاب فظيع. كان ذلك الرد الذي أعده جلالته لابن الصباح.

ووقع الاختيار على قائد شاب يدعى خلف، من غزنة، ليكون رسولاً. قفز خلف على حصانه، وبعد ستة أيام من العدو السريع وصل إلى بوابة آلموت.

احتجزه مينوتشهر في برجه وحُملت الرسالة إلى أبي علي، فسلمها بدوره للحسن. الذي قرأها ثم وبهدوء ناولها للداعي الكبير. . ثم طلب استدعاء بوزروك أوميد ولخص الوضع كما يلي:

- إن السلطان المنتشي بعظمته، يغلق عينيه عن الخطر المتربص به. لا يريد أن يعرفنا، وفي هذا خسارة له.

أمر بأن يحضر الرسول إليه مقيداً.

رفض خلف في البداية أن يذعن لتكبيله، فصاح قائلاً:

- هذه جريمة! إني رسول جلالته، سلطان السلطنة وشاه إيران! إن أنتم أوثقتموني فقد أهنتم شخصه. لكن كلماته لم تجد نفعاً. ومثل مقيداً أمام القائد الأعلى.

- إني أحتج بقوة على هذه المعاملة، انطلق يقول عندما وصل إلى الردهة حيث كان القادة في انتظاره.

- أين رسولي؟ سأل ببرود الحسن.

- أولاً... حاول خلف أن يتابع كلامه - لكن سرعان ما فارقه سخطه.

- أين رسولي؟

كان الحسن يحدق بنظرات ثاقبة في عين القائد. وصوته قاس آمر. وعلى نحو عفوي حول خلف نظراته عنه. وصمت.

- هل أصبحت أخرسَ؟ انتظر قليلاً... سأريك بعد قليل طريقة تطلق اللسان من عقدته.

وأمر الخصي بأن يأتي بالجلاد وأعوانه، وبأدوات التعذيب أيضاً. ثم التفت نحو الداعيين الكبيرين وتابع حديثه معهما بكل ألفة.

حاول خلف متردداً أن يستأنف كلامه:

- جئت باسم جلالته. ولم أفعل شيئاً سوى تنفيذ أمره...

لم يعبأ الحسن بكلماته. وحتى لم ينظر إليه. وصل الجلاد، يرافقه مساعداه. كان ثلاثتهم عمالقة حقيقيين. وشرعوا في الحال في تهيئة خشبة التعذيب، وفي إيقاد الجمر الذي ملأ موقداً حجرياً صغيراً. وقرقعت في صندوق، أدوات حديدية على نحو منفر؛ وهم يضعوها في زاوية الغرفة. والتمع العرق فوق جبين الرسول الذي ابتلع ريقه بصعوبة وقال بصوت مرتعش:

- كيف بوسعي أن أعرف ما الذي حصل لمبعوثك؟ إني تلقيت أمراً وها أنذا أنفذه.

لكن الحسن لم يعره أي انتباه. وانتهى الجلاد من تحضيراته.

- كل شيء جاهز، يا سيدنا.

- ابدأ بحرقه قليلاً.

تناول الجلاد من الصندوق مسلة حديد ووضعها على النار حتى احمر لونها.

ـ سأقول كل ما أعرف! زعق خلف.

وهذه المرة أيضاً، لم يكترث الحسن. وسرعان ما حميت المسلة حتى ابيضت. سحبها الجلاد من النار واقترب من الأسير. ولما لمح رأسها المتوهج. أوشك على الإختناق:

ـ سيدي! الرحمة! الرحمة!... إن السلطان نفسه الذي قتل رسولك، بضربات سيفه.

التفت الحسن إليه وأشار إلى الجلاد بأن يتريث.

ـ هل عادت إليك نعمة الكلام أخيراً؟ هكذا إذن، أتقول أن السلطان قتل رسولي بيده؟ هذا شنيع، شنيع...

وأخذ يفكر في أفضل وسيلة يفزع فيها السلطان. وبينما كان يتفرس في وجه الرسول، لمعت خطة في رأسه. فأمر الخصي:

ـ اذهب وأحضر الطبيب!.

ارتجف خلف. لقد حدس بأن هذا الأمر الجديد لا يحمل له الخير. وفي هذه الأثناء أشار الحسن إلى الداعيين الكبيرين بأن يتبعاه إلى غرفته.

ـ لا نستطيع أن نتحلى بجميل الصبر ستة أشهر أخرى. قال لهم، علينا أن نبيد عدونا الآن إن أردنا ألا يتغلب علينا. الأولى بنا ألا نتعلل بالوهم. فالسلطان سيحشد جيوشه جميعها للقضاء علينا.

لكن الحسن تجاهل الإفصاح عما ينوي عمله في الوقت الراهن. وجاء الخصي ليبلغه بوصول الحكيم.

ـ فليدخل، قال الحسن.

دخل اليوناني الغرفة وأحنى رأسه انحناءة كبيرة.

ـ هل لاحظت أسيرنا؟ سأل الحسن.

ـ أجل. إنه ينتظر في ردهتك.

ـ ارجع إليه. أود أن تتفحص بالتفصيل سحنته.

أطاع اليوناني ورجع بعد عدة دقائق. فسأله الحسن:

ـ هل ترى بين فدائيينا واحداً يشبهه؟

نظر الطبيب إليه محملقاً.

ـ لا أفهم ما ترمي إليه. يا سيدنا. إن وجهه يشبه تقريباً وجه المرحوم عبيدة.

قطب الحسن حاجبيه نافد الصبر، وقال:

ـ أو أن... قامته قريبة من قامة حالف الذي أرسلته لا أدري إلى أين منذ أسبوعين... أليس كذلك؟ أو ربما يشبه عفان؟ لا، إني لا أعلم تماماً... وساقاه مثل ساقي جعفر المعوجتين... هل فكرت في هذا؟

تصبب العرق فجأة من جبين اليوناني، مما أضحك الحسن.

ـ أنت طبيب وحلاق ماهر. هل بإمكانك أن... أن تحول جعفر إلى ما يشبه هذا الرجل؟

أشرق وجه الحكيم.

ـ أعرف هذا الفن. إنه فن شهير في بلادنا.

ـ أرأيت، أرأيت، لقد تفاهمنا.

ـ اعتقدت في البداية أنك تمزح ياسيدنا... إن الرجل الذي ينتظر خارجاً له لحية قصيرة جعدة، وأنف معقوف ووجه يحمل ندباً. كما لو أن كل ذلك شكّل لينقل إلى وجه شخص آخر. لكن عليك أن تجعل النموذج باستمرار تحت عيني أثناء عملي.

ـ حسناً. وهل بوسعك أن تؤكد لي أن التشابه سيكون مدهشاً؟

ـ لن يكون شبههما أقل من تشابه بيضتين... أتح لي وقتاً فقط لأحضر ما سأكون بحاجته.

ـ فليكن. عجل وهيء أغراضك.

استأذن الطبيب في الانصراف، وطلب الحسن استدعاء جعفر. وحين مثل أمامه، قال له:

ـ لقد أفردت لك مهمة عظيمة. وما أن تنفذها، حتى ينقش الإسماعيليون اسمك عالياً في النجوم. وستفتح الجنة أبوابها لك.

تذكر جعفر ابن طاهر. لقد كُرم شهيداً، مع أنه رآه بأم عينه يعود إلى آلموت والسعادة تشع منه، وسلمه بيده هو اللفافة التي كان قد

ائتمنه عليها قبل رحيله إلى نهاوند. إن وراء ذاك الظهور والاختفاء سر يفوق إدراكه.

ـ السمع والطاعة لك سيدنا!

واستنار وجه جعفر فخراً...

كان خلف طيلة ذلك الوقت يتساءل في نفسه عن المصير الذي ينتظره، وقد ساورته شكوك أيضاً علاوة على خوفه. وعلى بعد خطوات منه كان الجلاد يظهر عضلات ذراعيه المفتولة ويبتسم له ابتسامات هازئة. بينما كان مساعداه يضرمان النار بانتظام، ويلقيان من حين لآخر نظرات توعد صوب أدواتهما، ويتحققان باستمرار من عمل خشبة التعذيب. وأخيراً دخل الطبيب مجدداً القاعة، حاملاً معدات لا تبعث على الاطمئنان أبداً.

وفي الغرفة المجاورة أعطى الحسن جعفر توجيهاته المفصلة:

ـ ستبدأ بمراقبة الأسير الموجود في الردهة. عليك أن تحفظ بالضبط كل حركة من حركاته، كذلك طريقة كلامه وتعبيره. وعليك أن تحفر في ذاكرتك كل ما ستسمعه منه أثناء الاستجواب الذي ستحضره. احرص على ألا يفوتك شيء! باختصار، عليك بعد كل ذلك أن تكون قادراً على تقليده تقليداً ممتازاً بحيث تُقنع كل من يقترب منك بأنه يتحدث فعلاً معه. أريده تقمصاً حقيقياً!

وانضما إلى الأسير في الردهة. أشار الحسن إلى الجلاد بأن يستعد. ثم سأل الأسير:

ـ ما اسمك ومن أين جئت؟

حاول خلف أن يتمالك نفسه.

ـ إني مبعوث جلالته...

صاح الحسن:

ـ أيها الجلاد، حضر ادواتك!... أما أنت، فأنا أنذرك بأن عليك الإجابة على جميع أسئلتي بدقة. اعلم بداية أني أريد الاحتفاظ بك مدة طويلة في آلموت. وإن اتضح أن إحدى تأكيداتك زائفة، فسآمر بإنزال عقوبة الفسخ بك هناك في الأسفل، في الساحة. والآن أنت تعلم ماذا تخفي. تكلم!

ـ اسمي خلف ابن عمر. وعائلتي من غزنة، فيها ولدت وأمضيت شبابي.

ـ احفظ، يا جعفر... ما عمرك ومنذ متى وأنت في جيش السلطان؟

ـ عمري سبعة وعشرون عاماً. وأنا في الجيش منذ أن كنت في السادسة عشرة من عمري.

ـ وكيف انخرطت فيه؟

ـ إن عمي عثمان بن الحسين، الذي هو قائد الحرس، كان قد أوصى بي عند جلالته.

ـ اسرد لنا أحوال خدمتك!

ـ خدمت أولاً في بلاط أصفهان. ومن ثم رافقت جلالته عبر البلاد بصفتي رسولاً.

وسمى المدن التي اجتازها، والتي أقام فيها بعضاً من الوقت. كما ذكر الطرق التي سلكها. وعلموا من الاستجواب أيضاً أن لديه امرأتان وكل منهما أنجبت له ولداً. كان الحسن يطلب باستمرار المزيد من التفاصيل. سأله أيضاً عن رؤسائه، وعن عاداتهم، ووظائفهم؛ ثم عن رفاقه، وعن ساعات خدمتهم، وأعمالهم. ووصف الرجل علاقاته الاجتماعية مع هذا الرجل أو ذاك، متحدثاً بالتفصيل عن مقابلاته المختلفة مع السلطان ـ لاسيما الأخيرة منها ـ وتناول بالوصف أخيراً هيئة قصور الإقامة في أصفهان وبغداد، وتنظيمها، والاحتياطات الواجب مراعاتها للوصول إلى أجنحة السلطان، وكذلك أمور لا تحصى عن آداب اللياقة... كان على جعفر في مدة قصيرة أن يثبت في مخيلته بيئة وجوده الجديد هناك. كما كان عليه أن يتأقلم معها في أفكاره، بحيث يشعر بالراحة والحرية في تصرفاته.

وفي نهاية المطاف، طلب الحسن من الأسير أن يذكر جميع محطات سفره إلى آلموت، وكذلك اسم وموقع أصغر خان لتبديل الخيول. ثم أمر الجلاد بأن يحل وثاق الرجل ليتمكن من خلع ملابسه.

استولى الرعب على خلف:

ـ ماذا يعني ذلك يا سيدي؟

ـ هيا، بسرعة! وبدون تردد! لا تجبرني على استخدام طرق أخرى. وضع جانباً عمامتك أيضاً!

ـ لا، ليس هذا! لا تخزني هكذا! تأوه الأسير.

وبإشارة من الحسن، قبض الجلاد على عنق الأسير بيد قاسية. وأحضر مساعده المسلة المحماة حتى البياض وقربها الجلاد من صدر الأسير العاري. وأخذ الجلد ينكمش ويشيط حتى قبل أن يلمسه الحديد.

أطلق خلف صراخاً متوحشاً.

ـ افعلوا بي ما تشاؤون. لكن لا تحرقوني!

وجرد تماماً من ملابسه وأوثقت يداه من جديد خلف ظهره.

كان جعفر ينظر إلى كل ذلك دون أي قلق. لقد تعلم في آلموت ضبط عواطفه. ثم إن المهمة التي أوكلت إليه أثارت خفية كبرياءه.

ـ جاء دورك الآن لترينا فنك، قال الحسن مخاطباً الطبيب... أيها الأسير! قل لنا أين أصابتك هذه الجراح؟

تكلم خلف وهو يرتعد ثانية من الخوف، عن عراك جرى مع أحد خصيان السلطان. وفي أثناء ذلك كان اليوناني قد هيأ نصلاً دقيقاً مرهفاً، ومسلة طويلة، ومحاليل ومراهم شتى، ثم دعا جعفر إلى خلع ملابسه حتى الخصر. وبحركة رجل خبير، شمر عن ساعديه، وأوكل إلى أحد مساعدي الجلاد بمراقبة صندوق حوى أدوات بالغة الغرابة، وشرع بعدئذ في العمل. دهن أولاً بأحد المراهم منطقة محددة من جلد الفتى، ورسم عليها شكل الجرح وندوباً. ثم أمر المساعد الآخر بأن يحمي في النار النصل والمسلة. وأخذ يتتبع بهما الرسم وهو يحزّ ويوخز الجلد بخفة.

عض جعفر على شفتيه؛ وغاض لون وجهه من وطأة الألم، وفي كل مرة تلاقت نظرات الفتى مع نظرات الحسن، كان الفتى يبتسم له معتذراً بأن كل ذلك الألم ليس بذي شأن على الإطلاق.

وبدأ خلف شيئاً فشيئاً يفهم مقصد سيد القصر. واضطرب فؤاده: لأن هذا التحويل إن نجح، فستكون أمام الشاب الإسماعيلي كل الفرص

مهيأة للوصول إلى السلطان. وما اغتيال الوزير الأكبر إلا شاهد على ما سيحدث بعد ذلك. «ستنزل المصيبة على رأسي، أنا الذي سأيسر جريمة كتلك!» قال في نفسه الرسول المخلص. وهمس صوت في داخله «فلتردع خوفك! ولتقم بواجبك تجاه سيدك السلطان!»

كانت ساقاه طليقتين. وترقب اللحظة التي يلامس فيها الطبيب بنصله خد جعفر، وحينئذ قفز عليه ووجه إليه ركلة قوية في بطنه. ومن أثر تلك الهجمة، شق اليوناني بنصله نصف وجه جعفر. وغطى الدم وجه الفتى بلمح البصر. وفي الاضطراب الذي أعقب ذلك الحادث، ترنح الخبير ووقع أرضاً؛ وفقد الأسير توازنه، فاصطدم فمه بعنف بمرفق الطبيب، فما كان من السجين إلا أن عضه بأسنان قوية، فدوت من الضحية صرخة ألم طويلة. عمل أبو علي، وجعفر والجلادون مابوسعهم ليتدخلوا. لكن المسعور ظل قابضاً بأسنانه على الطبيب إلى أن خطر ببال أحد مساعدي الجلاد بأن يغرز المسلة المحمرة في ظهره. وأتبع ذلك صراخ جديد. وسقط المبعوث الشجاع أرضاً، وهو يحاول دون جدوى تلمس المنطقة المجروحة.

ـ إلى التعذيب! أوجز الحسن بفظاظة كلامه.

قاوم خلف مقاومة شرسة بكل ما لديه من قوة، لكن القضبان الحديدية سرعان ما قهرته. وفي لحظات قصيرة تم شده إلى خشبة التعذيب. تمالك اليوناني نفسه وهو يئن؛ وغسل جرحه ومسحه بالمراهم وضمده. بيد أن جعفر، المتضرج بالدم، كان يترقب بهدوء أن يعاود الطبيب تغيير شكله.

ـ لقد أفسد الوغد ما صنعت! تحسر الرجل الحاذق وهو يتفحص عن قرب خسارته. ماذا سأفعل بهذا الجرح الكبير وسط الوجه؟ فأشار إليه الحسن قائلاً:

ـ ابدأ بغسل هذا الجرح. وسنرى بعدئذ الأنسب فعله.

ثم خاطب الجلاد:

ـ باشر عملك. وعندما سيفقد وعيه، سنستفيد منه مجدداً.

بدأت الآلة بفصم أطراف الأسير. قضقضت مفاصله. وأطلق صرخات مرعبة.

شحب وجه الحكيم. لا ريب أنه جراح متمرس، لكنه لم يسمع قط إلى يومه هذا صرخات متوحشة على هذا النحو البهيمي.

أسرع يغسل جرح جعفر. نظر الحسن إليه وهو يعمل وقفزت إلى ذهنه فكرة:

ـ جعفر! ما عليك إلا أن تقول أن الذي جرحك هو زعيم الإسماعيليين نفسه... جرحك أنت، رسول جلالته، فرسالة السلطان أغضبته كثيراً! فضربك بسيفه. أتفهمني؟

ـ فهمت، سيدنا.

ـ هيا، أيها الطبيب، أنهي عملك!

كان خلف في البداية يطلق أشكالاً من الزمجرة المتقطعة. ثم تحولت إلى صراخ مستمر لم يتوقف إلا بعد وقت طويل. أوقف عندئذ الجلاد تشغيل مكنة الجحيم. لقد فقد الأسير وعيه.

ـ حسناً، قال الحسن ببساطة. أنهوا عملكم بدوننا.

غادر الغرفة وانطلق برفقة الداعيين الكبيرين إلى قمة البرج، في هذه الأثناء، تمكن الحكيم اليوناني بيده الماهرة من تحويل جعفر إلى خلف، رسول جلالته. وبعد بضع ساعات، اصطحب الفدائي المتحول والذي ارتدى ملابس الأسير، إلى القائد الأعلى. اقشعر الحسن رغماً عنه: لقد كان الشبه صاعقاً في كل شيء: شكل اللحية والشاربين، وندبة الوجه، والأنف المعقوف... وحتى تلك الشامة، بالقرب من الأذن! والفارق الجديد في ذلك الوجه المنسوخ بدقة لم يكن إلا ذلك الجرح الدامي الذي شطب كل وجنته.

ـ من أنت... ؟

ـ أنا خلف، ابن عمر، وعائلتي من غزنة...

ـ حسناً. أتذكر كل ما تبقى أيضاً؟

ـ لم أنس شيئاً، يا سيدنا.

ـ الآن. اسمع جيداً. اطلب أن يسرج حصان لك وانطلق في هذا اليوم إلى بغداد سالكاً الطريق الذي اتبعه ذاك الرسول حين قدم إلينا. واحمل إلى جلالته رد زعيم آلموت الشفهي. أنت تعرف الخانات

ومحطات الخيول. لا تكن أعمى العينين ولا أصم الأذنين: حاول أن تستطلع في الطريق إن كان السلطان لسبب ما لم يمض في طريقه. واحرص بأي ثمن أن تنطلق في سبيلك حتى تصل إليه. لا تتراجع أبداً! وادعي أنك لا تستطيع البوح بجوابي إلا إلى السلطان نفسه: تمسك بحزم بهذه المقولة. وتناول في معرض كلامك الاستقبال السيء الذي لقيته في آلموت. أفهمت؟... خذ، هذه بعض الأقراص. أتعرف استخدامها؟ احملها لأجل السفر: خذ واحدة كل ليلة، ولكن احرص على الاحتفاظ بواحدة منها للحظات وقوفك أمام السلطان. وإليك أيضاً هذا السم. احتفظ به بعناية في حرز، فأصغر خدش يسببه نصل غمس به سيؤدي إلى الموت! عندما تقف أمام السلطان، فأنت تعرف ما عليك فعله لتنال الجنة... وتنال مجداً خالداً من الإسماعيليين في هذه الدنيا. هل كل شيء واضح لديك؟

ـ أجل، سيدنا.

كان وجه جعفر يتقد حماسة:

ـ هل إيمانك راسخ؟

ـ أجل، سيدنا.

ـ وعزمك؟

ـ مكين لا يلين.

ـ إني أثق بك، وأعلم أنك لن تخيب أملي. إليك هذه الصرة الصغيرة. ولترافقك بركتي في مسيرك. ولتخط مجداً عظيماً يكون فخراً للإسماعيليين جميعاً!

ثم أذن له بالانصراف.

وما هي إلا ساعات، حتى انطلق خنجر حي آخر من آلموت.

كان الحسن يتجول في الحدائق هائماً. وكان الوجوم يخيم على ساكني هذا المكان الساحر منذ أن فارقت مريم وحليمة الحياة بصورة محزنة. ولم يقتصر أثر ذاك الوجوم على الفتيات، وإنما شاطرهن فيه أيضاً الخصيان، وحتى أباما نفسها.

دُفنت مريم تحت مرجة صغيرة وسط دغل من أشجار السرو. وزرعت الفتيات فوق قبرها أزهار التوليب والنرجس، والبنفسج وزهرات الربيع. وحفرت فاطمة على قطعة صخر هيئة فتاة منتحبة. لكنها لم تجرؤ على كتابة شيء عليها. وإلى جانب القبر، جعلن فوق أكمة زينتها أشجار الورد غزالاً من حجر، صنعته فاطمة أيضاً. كان هذان النصبان البسيطان تخليداً لذكرى حليمة الصغيرة: وكن يزرن هذا المكان كل صباح ويبكين صديقتيهن الراحلتين.

تحتم على فاطمة أن تقوم بمهمة مريم. لكن لم تكن لها صلة مع الحسن إلا عن طريق أباما، الأمر الذي قطع دابر كل خصام بينهما. وفضلاً عن ذلك، فقد أصبحت أباما تعيش حياة منعزلة تماماً. كن يشاهدنها في بعض الأحيان تتجول وهي تلوح بذراعيها وتتكلم بصوت عال، منهمكة في مخاطبة كائن خفي عن الأنظار. وقد تبادر هذه أو تلك في الابتسام لها. لكن ما أن يصبحن وجهاً لوجه أمام تلك السيدة الشرسة، حتى يعاودهن في الحال خوفهن القديم منها. ولم تأت مهارتها في تجنب تبعات العلاقات الغرامية لزوارهن الليليين بأي أعجوبة. فقد أحست سليقة وليلى وسارة بتحرك حياة جديدة في أحشائهن. فعشن في انتظار متلهف فرح. لكن جويرة وصفية كانتا أكثرهن حماساً، فقد تحرقتا لرؤية عدد نزلاء الحدائق يزداد.

وأرسل إليهن الحسن صاحبتين جديدتين لتحلا مكان الفقيدتين. ومع أنهما كانتا هادئتين ومتواضعتين، إلا أنهما جلبتا معهما شيئاً من التغيير في تلك الرتابة المستمرة...

ـ هاهي أيام الخريف، وعما قريب سيأتي الشتاء بقسوته، حدث الحسن نفسه وهو يتنزه بصحبة أباما في زاوية مقفرة من الروضة. علينا الاستفادة مما تبقى من أمسيات رائعة. أود أن أرسل إلى الحدائق بعض الشبان الجدد. فالأمطار تقترب، ومعها الثلوج والبرد. ووداعاً حينذاك لملذات الفردوس!

سألته أباما:

ـ ماذا على الفتيات أن يفعلن اليوم؟

ـ عندكن ما يكفي من صوف الخراف والجمال، ومن الحرير

أيضاً. فليغزلن، وليقمن بأشغال الإبرة والخياطة. ولينهمكن في الفنون التي تعجبهن. فالموت بحاجة إلى كل شيء!

ـ وماذا سنفعل بالمدرسة؟

ـ هل بوسعك تعليمهن أمراً آخر؟

ـ أبداً، ما عدا فن الحب، ذلك الفن الذي لم يتمكن أصلاً من تعلمه.

وضحك الحسن ضحكة عميقة، لم يضحك مثلها منذ أمد بعيد.

ـ حسناً، هذا يكفي الآن. أرأيتِ، لقد وصلتُ إلى النقطة التي وصلت أنت لها. ليس عندي أحد أنقل إليه علمي.

ـ لديك ابن.

ـ أجل. وأنتظر أن يجلب إلي بين يوم وآخر إلى هذا القصر. أظن أن رأسه سيطير من بين كتفيه.

ألقت عليه أباما نظرة استنكار.

ـ أهي دعابة أخرى من دعاباتك؟

ـ ولم المزاح؟ هذا النذل الذي قتل ألمع حليف لي، أيستحق شيئاً آخر؟...

ـ لكنه ابنك!

ـ ابني! وماذا يعني هذا؟ ربما ـ وأقول ربما لأنك تعرفين حذري ـ يكون ثمرة جسدي، لكنه ليس أبداً ثمرة روحي!... ولنقل، حتى نتكلم باعتدال، بأن لدي شخصاً سيؤول إليه إرثي... لكن هذا الشخص بعيد عن هنا في هذه الساعة: إنه يهيم على وجهه عبر العالم، لا أعرف أين... لا أظن أن اسمه مجهول عندك. إنه ابن طاهر.

ـ ماذا تقول؟ ابن طاهر! ألم يمت؟ أليس هو الذي قتل الوزير؟

ـ أجل، قتله. ورغم ذلك فقد نجا من الموت... قص عليها حديثه الأخير مع الفتى. فأصيبت العجوز بدهشة عميقة.

ـ وأنت أيها الحسن! أتركته يذهب؟

ـ أجل. أنا بالذات.

ـ ماذا، هذا مستحيل!

ـ لو أنك تعرفين حقاً قلبي، لفهمتني. لقد أصبح واحداً منا. إنه ابني، وأخي الذي يصغرني. كل مساء أرافق مسيرته بأفكاري. وأستعيد من خلاله شبابي. إني أتتبعه بعقلي، وأرى عينيه وهما تتفتحان على المعرفة، أراه وهو يكوّن طباعه وقناعته حول الناس. آه! كم أشعر أني بداخله وبقوة عظيمة.

هزت أباما رأسها. لقد اكتشفت شخصاً جديداً تماماً بالنسبة لها.

وحدثت نفسها وهي تغادره:

«لا بد أنه يشعر بالوحدة، حتى يتعلق بشخص ما هكذا! لكن أليس هو في أعماقه مثل جميع الآباء: يخفي طيبته تحت قناع عادي من الرعب؟...».

في صبيحة اليوم التالي، جلبت قافلة من مقاطعة زور غامبادان إلى آلموت الابن العاقّ، المدعو حسين مقيداً. وهرول رجال الثكنة كلهم إلى الفناء ليروا بأم أعينهم قاتل داعي خوزستان الكبير.

كانت أغلال هائلة تكبل حركة حسين، وهو يحملق في الأرض عند قدميه عابساً. كان أطول قليلاً من أبيه، ويحمل شبهاً كبيراً له، لكن تعابير التوحش القريب من الشراسة، أفسدت ذلك الشبه. ومن حين لآخر كان يرمي نظرات الشذر على الذين يحيطون به، ولا بد لذاك الذي تصيبه نظراته أن يقشعر بدنه، إذ ينتابه إحساس مباغت بأنه أمام حيوان ضار قد أصبح مسعوراً عندما وقع في الأسر.

استقبله مينوتشهر مثل سجين عادي.

ـ خذني فوراً إلى أبي!

تظاهر الجندي القديم بعدم سماعه.

ـ أبونا! خذ معك ستة رجال. وألقوا هذا الرجل في غياهب زنزانة!

استشاط حسين غضباً.

ـ ألم تسمع أذناك ما قلته منذ قليل؟

أدار مينوتشهر ظهره له. وسُمع صرير أسنان الحسين، الذي

حاول، رغم أغلاله، أن يركله بكل قوة استطاعها. استدار القائد بحدة وصفعه صفعة قوية. وصرخ الفتى صرخة دابة...

ـ اعلم أني لو كنت حراً، لاقتلعت متلذذاً أحشاءك، كلب وابن كلب!

أمسك به أبونا ورجاله وجروه إلى أعمق قبو في برج الحراسة، حيث توجد الزنزانات الأكثر رعباً في آلموت. ترنح السجين حينما دُفع بفظاظة إلى إحدى تلك الخلوات، ووقع ليتمرغ وجهه في الوحل.

ـ انتظروا قليلاً! ما أن أصبح حراً، حتى أسلخ جلودكم مثل كلاب جرباء! لكن الباب الثقيل الذي أوصد خلفه خنق صرخته.

كان قد مر عليه شهران وهو مقيدٌ في الأغلال. بدا مثل قط متوحش وقع في مصيدة، متأهب للعض: كان يمقت الناس جميعاً. ولم يكن يغالي في مشاعره حينما صاح بأنه حالما يتحرر، سيخنق أول رجل يقع بين يديه. لم يندم على قتله حسين القيني. ولم يساوره خوف كذلك حول مصيره أو حياته. طيلة طفولته، كان مصدر رعب للمحيطين به: لم يقبل أي سلطة، ودفعه الغضب إلى أسوأ مظاهر العنف. كان الحسن قد تخلى عنه فترة طويلة، بعد أن رزق به من امرأته الأولى التي ربته كيفما كان عند أهلها، في فيروزكه حاول الجد أن يروض المتمرد الصغير بضربات عصاه، حارماً إياه من كل طعام تقريباً. لكن الفتى المسعور لم تتحسن سيرته ورفض الانصياع لأي شخص يعارض إشباع أهوائه. وهكذا كان الجد المتطلب أول ضحايا الكراهية المقيتة التي محضها الصبي لأقربائه، فما أن ألفى الفتى نفسه في سن يستطيع فيه أن يرد الضربات، حتى استمال جده إلى كمين ولم يتردد في تحطيم رأسه. ومن يومها عاش الفتى حياة متوحشة تماماً، مسبباً الهلع لأقاربه ورافضاً العمل في الحقول. وحينما التحق بالفرق العسكرية، فضّل الانضمام إلى فرقة الجنود والخيول.

وحين علم أن أباه عاد من مصر واستقر حديثاً في شمال البلاد، قرر أن يذهب لملاقاته. لم يكن يعرفه أبداً: وإنما يعرف فقط أنه رجل كثير الأسفار، يعيش هنا وهناك حياة حسب أنها مفعمة بالمغامرات. وداعبت خياله سريعاً فكرة اتباع هذا الرجل المجهول في تجواله. لكن أوهامه سرعان ما تبددت. فما كان ينتظره منه أبوه هو بالضبط ما

كان يشمئز منه ويحتقره أشد احتقار: الدراسة، الطاعة، العمل. وما لبث أن كره أباه، وإن كان قد حاول في البداية أن يزيف مشاعره نحوه، لكنها سرعان ما ظهرت دون قناع. ذات يوم، وقد شق عليه أن يحبس تلك المشاعر أكثر ألقى في وجه أبيه كل ضغينته:

ـ فليدرس الحمقى، وليتذلل خدامك عند قدميك! أما أنا، فلا أريد أن أكون واحداً من أحد هذين الفريقين.

ـ حسناً جداً! كان ذلك جواب الحسن ـ وبعدئذ أمر بأن يربط ابنه إلى عمود، وأن ينال ضرب العصي أمام جميع عسكر الثكنة. فيما بعد، رُتب الأمر بحيث يجند بالقوة في جيش حسين القيني، بصفته جندياً بسيطاً. ظن الحسن أنه أفلح في سحق عناده، لكن المراهق استغل إقامته في زور غامباذان ليشهر أكثر من أي وقت مضى عصيانه. وانتهى الأمر بالداعي الكبير، آمر القلعة، والألم يحز في نفسه، إلى طلب التدخل من الأب، واستاء الداعي كثيراً، لأن الحسن أمر بأن يوثق الفتى المتغطرس بالأغلال، وعاقب الفتى الداعي الكبير إذ قتله بيديه.

لم يعبأ حسين في الوقت الحاضر كثيراً بالعذاب الذي ينتظره، فقد قدر تقديراً سيئاً فداحة جريمته في نظر الإسماعيليين. فحسب رأيه، كانت رغبة الداعي المعتد بنفسه بأن يرفع يده عليه، هو ابن القائد الأعلى، كافية لتبرير فعله. ألا يهبه أصله امتيازات؟ لا ريب أنه كان سيتصرف على النحو نفسه، لو أن الشيخ ابن عطاش تجرأ على أن يسلك مسلك سلفه. وهاهو يجد نفسه موثق القيد في مسكن أبيه!

أخذ أبو علي على عاتقه إخبار الحسن بوصول ابنه إلى قلعته.

ـ حسناً. سأكلمه. فليحضر إلي.

وذهب أبونا ورجاله ليأتوا بالسجين.

ـ بسرعة! انهض! عليك أن تمثل أمام سيدنا!

وضحك حسين ضحكة هازئة شريرة.

ـ وأخيراً! الحمد لله! لن يطول الأمر حتى أجعل السياط تأكل من ظهوركم!

عند مدخل القصر، سلمه أبونا لأيدي الحراس. عند تلك اللحظة

شعر حسين بأول خوف. لا جرم أن الحياة في آلموت قد تغيرت. أحس بسيطرة نظام بارد في كل مكان، نظام حديدي. والخصيان العمالقة الذين كانوا يقومون بالحراسة حول أبيه، لم تبعث ملامحهم الاطمئنان أبداً... أما بالنسبة لذاك الحارس الأسود الذي كان يقف في الحراسة في أعلى البرج فإن الفتى شعر بوطأة نظراته الثقيلة على رقبته. كل ذلك لم يكن ليبشر بالخير. من كان يتخيل أن أباه يمكن أن يلجأ إلى مثل تلك الغيلان لتقوم على خدمته!

وأدخل إلى غرفة القائد الأعلى. وقف جامداً على بعد خطوة واحدة من الباب. بيد أن الحسن لم يتنازل حتى في رفع رأسه. كان يجلس فوق أرائك، مستغرقاً في قراءة رزمة من الأوراق. وبعد انقضاء لحظات طويلة، تفرس في وجه ابنه، وهو ما زال في صمته، ثم نهض. وبحركة منه انصرف الحراس، وأقبل يرمق الابن العاصي من رأسه حتى أخمصه. وانفجر الأخير صارخاً:

ـ بوسعك أن تبدأ بنزع هذه الأغلال! منذ متى أصبح مقبولاً أن يمثل ابن مقيداً أمام أبيه!

ـ إن كان ذلك الأمر لم يحدث قط، فهو سيحدث اليوم.

ـ أنت إذاً تخاف مني!

ـ إن الكلاب المسعورة تربط جيداً قبل قتلها.

ـ نِعم الأب، حقاً!

ـ أنت على صواب. لأني أحتمل برباطة جأش خطيئة ارتكبتها عندما أتيت بك إلى هذه الدنيا.

ـ ألا تفكر في إطلاقي من قيودي؟

ـ أشعر أن الأمر لن يطول بك حتى تدرك ما الذي ينتظرك. اعلم أني سأكون أول من يحترم القوانين التي وضعتها.

ـ لا أخشى أبداً تهديداتك.

ـ أحمق! وتحمل غطرسة عجل!

ـ اشتمني. فهذا لن يؤثر بي.

ـ أيتها السماء! ما زلت لا تدرك الجريمة التي اقترفتها!

ـ أعرف على أية حال ما قد توجب علي فعله: ليس لأحد الحق بوضع الأغلال في يدي.

ـ ياللعجب! قتلت أفضل حليف لي، أوثق صديق... لأنه أراد تنفيذ أمري!

ـ وهل صديق يساوي عندك أكثر من ابن؟

ـ أمر مؤسف، لكن هذه هي الحقيقة.

ـ بوسع إيران كلها أن تفخر بأب فريد مثلك! ماذا ستفعل بي؟

ـ ما العذاب الذي رصدته لقاتل قائد؟

ـ لم أدرس قوانينك.

ـ لا أهمية لذلك. سأخبرك بنفسي. حسب القانون، فإن العقوبة أن تقطع أولاً اليد اليمنى، ومن ثم يقطع الرأس بحضور جموع المؤمنين.

نظر إليه حسين محملقاً.

ـ طبعاً، لا تقصد أن تقول أن هذا هو العذاب الذي ينتظرني، أليس كذلك؟

ـ أتظن أنني وضعت هذه القوانين مازحاً؟

ـ في الحقيقة، من ذاك الذي لن يصاب بالرعب من أب مثلك!

ـ أنت تعرفني معرفة سيئة.

ـ إني أعترف بسرور بذلك.

ـ ووقح أيضاً.

ـ كما تشاء! فالثمرة لا تسقط أبداً بعيداً عن شجرتها.

ـ ليس عندي وقت أضيعه مع كلمات تهكمك. غداً ستمثل أمام المحكمة: وسيحكم عليك الدعاة. تعلم ما الذي ينتظرك. إنها المرة الأخيرة التي نتحدث فيها أنا وأنت. ماذا علي أن أقول لأمك؟

ـ اشكرها لاختيارها لي هذا الأب المثالي. لا بد أن أي دابة تعامل صغيرها على نحو أفضل...

ـ ذلك لأنها دابة. أما نحن البشر فعلينا احتمال عبء آخر: عبء العقل. وواجبنا بالتالي أن نضع قوانين صارمة وعادلة قدر الإمكان. ألديك شيء آخر تريد إطلاعي عليه؟

ـ ماذا علي أن أقول لك فضلاً عما قلت؟ أتظن أني اقتنعت بأنك

مستعد للتخلص من ابنك الوحيد؛ من وريثك الوحيد؟ من سيكون خليفتك إذن؟

ضحك الحسن ضحكة مدوية.

ـ أنت، حسين، وريثي؟ أنت تدير يوماً هذه المؤسسة المشيدة على هيمنة العقل، العقل المحض؟ أنت الذي لا تفقه شيئاً ولا تعرف شيئاً، إلا إن كان الأمر، اللهم، يتعلق بلجم حمار! أين شوهد نسر يتخلى لعجل عن مملكة الفضاء؟ هنا تكمن علة ضلالك: لقد حسبت أنك تستطيع فعل ما يحلو لك!

أراد حسين لو يمزق أباه بنظراته.

ـ إن الكلب ينجب الكلب والعجل من الثور! الولد سر أبيه...

ـ إن كان ذلك صحيحاً، فأنت إذن لست ابني!

ـ هل تريد أن تلوث شرف أمي؟

ـ أبداً. أردت فقط أن أثبت لك أن تأكيدك إن كان صحيحاً بالنسبة لكلب وعجل، فهو ليس كذلك بالنسبة للإنسان. وإلا فإن الممالك التي شيدها الآباء بذكائهم وشجاعتهم ما كانت لتتلاشى بجريرة أبنائهم العاجزين والحمقى.

ـ صحيح. لكن لا يوجد على وجه الأرض سلطان ولا شاه يوصي بمملكته لغريب ولديه ابن.

ـ حول هذا الموضوع، أيضاً، سأبتدع... إذن أليس لديك شيء تريد سؤالي عنه؟ أو شيء أقوله لأمك؟

ـ أبداً، عدا ما قلته لك آنفاً.

نادى العجوز حراسه.

ـ أعيدوا السجين إلى الزنزانة.

ارتجف فك الفتى.

ـ حاول فقط أن تقاضيني أمام محكمة خدامك! سأخزيك أمام الناس.

استدعيت المحكمة العليا للانعقاد صباح اليوم التالي. وترأس الجلسة أبو علي.

ـ ارجعوا إلى القوانين ثم احكموا بصرامة بحسبها. هذا هو أمر الحسن.

حين اتخذ الجميع أماكنهم، أدخل الحرس حسين.

وجه أبو علي إليه الاتهام باقتراف جريمتين. كانت الأولى التمرد ضد رئيس، والثانية قتله. والعملان يستحقان الموت.

ـ أتعترف بجرمك، يا ابن الحسن؟

ـ لا أعترف بأي جرم. أعترف فقط بالأفعال التي تتهمني بها.

ـ إن التمرد وحده في وجه رئيس يستحق عقوبة الموت!

صرخ حسين:

ـ لاتنسَ أني ابن القائد الأعلى!

ـ لا يعرف القانون استثناء. لم تكن أمام القيني إلّا جندياً بسيطاً. ونحن نوجه إليك الاتهام على هذا الأساس.

ـ لا يهمني من الذي يلقيني في الأصفاد!

ـ كما ترى، أنت فيها الآن. أليس عندك أي عذر تتعلل به؟

ـ وأي عذر تنتظر مني؟ إن القيني وشى بي غدراً إلى أبي ليتمكن من التخلص مني. لم يكن بوسعي التساهل مع معاملة كتلك! أنا لست رجلاً من العوام. أنسيت أني ابن القائد الأعلى، قائد الإسماعيليين!

ـ... وأنت تمردت عليه. إن القائد الأعلى قد أمر شخصياً بأن ترسف في الأغلال لتعاقب. ثم إنك قتلت رجلاً لم يفعل شيئاً سوى أن نفذ أوامره. أتقر أن الأمور جرت على هذا المنوال؟

ـ نعم لقد جرت تماماً كما تقول.

ـ ممتاز. عبد الملك! اقرأ ما ينص عليه القانون في جريمة عصيان رئيس أو قتله!

نهض عبد الملك ووقف منتصب القامة. فتح مجلداً ثقيلاً وقد دلت علامة فيه إلى إحدى صفحاته، ولمسه بجبهته باحترام. ثم شرع يقرأ بصوت عال رنان:

«أي شخص من المؤمنين الإسماعيليين، يعصى رئيسه أو يتمرد

على الأمر الذي أمره به، أو يغفل عن تنفيذه بحال من الأحوال، إلا إن منعته قوة قاهرة، سيعاقب بالموت ويقطع رأسه. وأي مؤمن من المؤمنين الإسماعيليين يقترف جريمة مهاجمة رئيسه أو قتله سيعاقب بالموت. لكن تقطع يده اليمنى أولاً قبل أن يقطع رأسه».

أغلق عبد الملك الكتاب، وانحنى باحترام أمام المحكمة وجلس ثانية، تاركاً الكلام لأبي علي.

ـ أيها الدعاة الموقرون! لقد سمعتم ما ينص عليه القانون فيما يتعلق بجريمة عصيان رئيس وجريمة قتله. سأسألكم الآن عن رأيكم الصريح بخصوص المدعى عليه إن كان مذنباً بهاتين الجريمتين.

استدار نحو بوزروك أوميد، سماه باسمه ودعاه للإجابة.

ـ مذنب ـ خرجت كلمته دون تردد.

ـ والأمير مينوتشهر؟

ـ مذنب.

ـ الداعي ابراهيم؟

ـ مذنب.

ـ الداعي عبد الملك؟

ـ مذنب.

ـ الداعي أبو سراقة؟

ـ مذنب.

واتخذ الحكم بالإجماع.

عند كل اسم، كان حسين يكظم ارتعاشاً. وحتى آخر لحظة كان يأمل في سريرته أن يعترض أحد ما على الحكم، وأن يرتفع صوت ما ليذكر أنه على حق، وأنه لم يتصرف إلا دفاعاً عن شرف مكانته. وحين تم نطق الحكم الأخير، صرخ في وجوههم:

ـ كلاب مجرمة!

ورغم أنه كان مقيداً، فقد حاول أن يلقي بنفسه عليهم. وبالكاد تسنى للحارس منعه. وبمشقة تمت السيطرة عليه. كان يرمي الجميع بنظرات مجنونة، يُقرأ فيها الحنق واليأس.

نهض أبو علي بجلال.

ـ أيها الدعاة الموقرون! لقد أجمعتم على أن المدعى عليه مذنب بالجريمتين اللتين اقترفهما. حُكم على حسين، ابن الحسن حفيد الصباح، بأن تنزل به عقوبة الموت: ستقطع أولاً يده اليمنى، كما ينص القانون، ثم سيقطع رأسه. وسينفذ الحكم عندما يوقع عليه القائد الأعلى. هل لدى أحد من اعضاء هذه المحكمة المحترمين شيئ يريد إضافته؟

نهض بوزروك أوميد وطلب الكلام.

ـ أيها الدعاة الموقرون! لقد سمعتم الحكم الذي صدر للتو ضد حسين، ابن الحسن، والذي ينص على أنه مذنب بقتل داعي خوزستان الكبير. إن الجرم يؤيده الدليل والمجرم نفسه اعترف بفعله. والعذاب الذي حكم عليه هو بالتالي مشروع وعادل كل العدل. بيد أني أحب أن أذكر هيئة المحكمة العليا بأن جريمة حسين هي الأولى من نوعها التي تعرض على هذه الهيئة منذ أن شدد القائد الأعلى على صرامة القوانين. ولهذا أقترح تقديم التماس عفو إلى سيدنا، إن وافق المتهم على ذلك.

وأُيِّد الاقتراح بهمهمة استحسان.

التفت أبو علي إلى حسين.

ـ أيها المحكوم عليه! أتريد طلب العفو من القائد الأعلى؟

رد حسين وقد اشتعل غضباً:

ـ أبداً! لن أتوسل إلى أب يسلم ابنه للجلاد!

ـ حسين، اهدأ.

حاول بوزروك أوميد إقناعه، لكن الأخير قاطعه قائلاً:

ـ إنك تضيع وقتك.

ـ تغلب على عنادك! هذا العفو هو فرصتك الأخيرة، قال له أبو علي بخشونة، وقد فقد صبره فجأة.

ـ ليس عندي إلا طلب واحد أقدمه: أن تقولوا له على لساني إنه أسوأ من على الأرض!

حينئذ ترك إبراهيم العنان لغضبه، فقال وقد احمر وجهه:

ـ أخرس لسانك، أيها المجرم!

ـ ربما أمامك أنت يا من يفوح النتن من فمك!

اقترب بوزروك أوميد وعبد الملك من السجين. ورجاه الداعي الكبير قائلاً:

ـ استدرك الأمر، يابن الحسن، ما عليك إلا أن تقول كلمة واحدة. وأتكفل بعدئذ ببذل جهدي لاقناع أبيك.

ـ ما من عيب يلحق بمحكوم عند طلبه للعفو، ألح عليه عبد الملك. إنها إشارة منه على إحساسه بفداحة خطئه والتزامه بالتكفير عنه.

ـ افعلا ما تريدان، قال حسين وقد قبل في نهاية الأمر.

انصرف أبو علي وبوزروك أوميد وعبد الملك ليخبروا الحسن بقرار المحكمة.

أصغى الحسن بهدوء. ولما قدم بوزروك أوميد التماس العفو، رفضه الحسن ببرود.

ـ أنا من وضع القوانين، وأريد أن أكون أول من يخضع لها.

ـ إنها المرة الأولى التي يدان فيها إسماعيلي بهذه الجريمة.

ـ ولهذا بالضبط يجب أن تكون هذه المرة مثلاً يحتذى.

ـ إن للرحمة أحياناً أثراً أقوى من عدالة صارمة.

ـ ربما في حالة أخرى. وليس في هذه. إن منحت العفو لحسين فإن المؤمنين سيقولون: «انظروا! القوانين تطبق علينا. وليس على ابنه». وسيعرفون أن الذئاب لا تأكل بعضها بعضاً... لا أريد شيئاً من ذلك!

ـ لكن إن أمرت بتنفيذ الحكم، فسيصرخون برعب: « يا له من أب بلا قلب!»

قطب الحسن جبينه.

ـ وضعت القوانين للإسماعيليين جميعاً دون استثناء. أنا القائد الأعلى وأنا أنفذ القانون. ولهذا سأوقع عليه العقوبة.

تناول القرار الذي سلمه إياه عبد الملك، قرأه بعناية، ثم بلل ريشته بالحبر ووقع بيد ثابتة. وقال:

ـ خذ يا أبا علي! ستُعلن حكم المحكمة. وفي صباح الغد الباكر، قبل شروق الشمس، ينفذ الجلاد واجبه. هل كل شيء واضح؟

ـ أجل، يا ابن الصباح.

أما بوزروك أوميد الذي ظل طيلة ذلك الوقت واقفاً على انفراد، دون أن ينبس بحرف، فقد أشار إلى أنه يود الكلام.

ـ ربما يكون بالإمكان تخفيف العقوبة على اعتبار أن وجه الاتهام الأول قابل للنقاش...

ـ لقد وقعتُ الحكم. أشكر جهودك.

لما أصبح الحسن وحده، أخذ يفكر متحاملاً على نفسه: « إن ابني حجر عثرة في طريق عملي. هل أنا حيوان مفترس لأهلكه؟ إن البناء الذي يرتفع لا بد أن يكتمل. وإن أقام قلبك عراقيل في وجهه، فلتخرسه. لأن كل ما هو عظيم ينبغي أن يتجاوز نطاق البشر».

الفصل العشرون

في صباح اليوم التالي، وقبل شروق الشمس، دقت الطبول داعية لاجتماع الجند. وتناقلت الألسن النبأ: سيضرب عنق ابن القائد الأعلى جزاء قتله داعي خوزستان الكبير.

دخل أبو علي بصحبة مينوتشهر وإبراهيم إلى زنزانة السجين. وارتعش صوته بعض الشيء حينما أخبر حسين بأن القائد الأعلى قد رفض التماسه للعفو.

ـ تشجع، يا ابن الحسن. يجب أن تأخذ العدالة مجراها!

حدق حسين في الرجلين بعيني بهيمة مذعورة. ثم ألقى بنفسه عليهما، لكن قدميه تعرقلتا بالأصفاد فوقع أرضاً.

ـ كلاب ملعونة! كلاب ملعونة! قال وهو يئن.

أمسكوا به. كان يتخبط بكل ما لديه من قوة. واضطر الحرس إلى جره خارج الزنزانة.

كان الجنود الذين نظموا في هيئة استعراض، قد شغلوا الساحتين السفليتين. وبرز في وسط الفناء الأسفل نُطع ثقيل. ظهر الجلاد يرافقه مساعداه ظهوراً ملفتاً للنظر. كان عارياً حتى الخصر، وهو يحمل بخيلاء البلطة متظاهراً بأنه لا يعير الحضور انتباهاً. ودب الهمس بين الصفوف:

ـ هاهم يحضرونه!...

كان حسين يسب ويهيج بين حراسه مثل وحش وقع في فخ مميت. أما الرجال الذين أحاطوا به، وقد بدا جلياً خور قواهم، فقد اقتصروا على أرجحته لحمله على المسير.

عندما لمح المحكوم عليه الجلاد وبلطته، انتابته رجفة وانكمش فمه، وعجز عن نطق المزيد من الشتائم. لقد أدرك أخيراً ما الذي ينتظره.

ـ ابن سيدنا... ابن القائد الأعلى... كان الرجال في الصفوف يتهامسون.

وامتطى أبو علي، وبوزروك أوميد ومينوتشهر خيولهم. ودوى البوق. تقدم أبو علي بدابته بضع خطوات. بسط ورقة وقرأ بصوت واضح حكم الموت. ثم دعا الجلاد أن يقوم بواجبه.

وساد هدوء شبه تام، لا يحفه سوى هدير السيل.

وفجأة خرجت صرخة من صدر حسين:

ـ أيها الرجال! ألم تسمعوا! أب يسلم ابنه إلى الجلاد!

وانتشرت همهمة بين الصفوف. التفت عبد الرحمن الذي كان يقف في مقدمة فرقة الفدائيين الصغيرة لتتلاقى نظراته مع نظرات نعيم: كان وجه الصبي شاحباً بلون الشمع.

أمسك مساعدا الجلاد بالسجين وأطلقا يده اليمنى. كان حسين مازال يقاوم بقوة اليائس. حاول غريزياً أن يبتعد عن النطع. لكن العملاقين سحباه إليه بقوة، وأركعاه ووضعا يده على خشبة العدالة. ثبت الجلاد بفظاظة معصم حسين ورفع بلطته. شق النصل الهواء وسمع الجميع صوت العظم المحطم. أطلق حسين صرخة حيوانية. ولطخ الدم وجه المساعدين اللذين رفعا المعذب وقد فقد وعيه ووضعا رأسه فوق النطع. وبضربة واحدة من بلطة الجلاد انفصم الرأس عن الجسد. ناول المساعدان الجلاد رداء، فألقاه فوق الجسد المدمى.

التفت الجلاد نحو أبي علي وأطلق بخشونة العبارة المعهودة:

ـ نفذ الجلاد واجبه!

فأجاب الداعي الكبير:

ـ لقد تمت العدالة.

وتقدم بدابته نحو الجنود المجتمعين.

ـ أيها الإسماعيليون! لقد شهدتم منذ قليل العدالة الصارمة التي تحكم آلموت. إن سيدنا، قائدنا الأعلى، ليس عنده استثناء. والقانون

يعاقب بصرامة كل من يقترف جريمة. ولن يحميه من العذاب الذي يستحقه رتبة ولا أصل شريف. ولهذا أدعوكم إلى احترام القانون ومراعاة تعليماته بدقة. لا إله إلا الله، محمد رسول الله!... يا مهدي!...

أوعز بأمر، فانصرف الرجال إلى أعمالهم. وخرجت وشوشات مسموعة هنا وهناك...

ـ فعلاً! لا تزال هنالك عدالة فوق الأرض!...

ـ... أتعرفون قائداً آخر، ملكاً آخر، مستعداً للتضحية بابنه تنفيذاً للقانون؟

وانتشر خبر التعذيب الذي أنزله القائد الأعلى بابنه انتشار البرق من أقصى السلطنة إلى أدناها. وأحاطت «الشيخ» هالة جديدة في أذهان الناس بعد الذي حدث، حيث زاحم الاحترام الرعب أكثر من أي وقت مضى.

كان جعفر، الذي تحول باسم خلف إلى رسول السلطان، قد خبر الكثير من المغامرات في طريقه إلى بغداد. فبعد قزوين مباشرة، انضم إلى جيش عظيم يسير على مهل في فوضى عارمة، وقد اختلط المشاة فيه بالفرسان: كانوا فلول جيش كيزيل ساريك، الذي تبعثر بسرعة بعد انتهاء الحملة التي أطلقت بلا جدوى ضد قلاع خوزستان. وابتعد الجنود المنهوكو القوى بهدوء حين علموا أن المبعوث ما هو إلا قائد في حرس السلطان.

وفي كل خان، كانت الجهود تبذل لوضع أفضل الخيول تحت تصرف المبعوث السلطاني. كان جعفر قد أمضى ليلته الأولى في العراء. لكن ما أن بلغ الطريق الرئيسية، حتى استعد لاستراحة في خان قوافل مريح. ولما وصل إلى منتصف الطريق تقريباً من بغداد، دُعي ليمضي الليل في غرفة يشاطره فيها مجموعة من القادة الذين قدموا من الخدمة بأمر من كيزيل ساريك. فعرف حينئذ أن الحصار قد رفع عن زور غامبادان وأن موت الوزير الأكبر قد ثبط همم جنود السلطان. وسرعان ما انهمرت التعليقات...

ـ كل مناطق الشمال أصبحت بأيدي الشيعة، الذين يعتبرون

الإسماعيليين أخوة لهم. واليوم وقد مات نظام الملك، ما فائدة قتال سيد الجبل؟...

أسرّ إليهم جعفر بأنه رسول السلطان وأنه عاد مباشرة من آلموت. فساد حوله صمت قسري. وتوسلوا إليه بعد قليل قائلين:

ـ لا تشي بنا. كل الجند تفكر مثلنا. لكن عندما تعطى الأوامر، سنكون من جديد متأهبين للقتال. كدأبنا...

وهدأ جعفر مخاوفهم. لقد أثار فضولهم. واندهش هو نفسه من ذاته. هل كان التغير الخارجي هو الذي أثر عليه هكذا، أم الخوف من افتضاح أمره هو الذي دفعه للانغماس كلية في دوره؟ قصّ عليهم فظاعات كثيرة حول آلموت، وعرف أن قصصه قد وقف لها شعر مستمعيه رعباً. وهو نفسه رأى فيما بعد أحلاماً غير مطمئنة؛ لكن وفي الغد، وقد نهض باكراً، بدرت منه حركة عفوية نحو سيفه لما لمح كل تلك الأسلحة التركية معلقة على الحائط. واستغرق الأمر بضع لحظات ليهدأ روعه، وتذكر المكان الذي هو فيه ليضع نصب عينيه مجدداً المهمة التي أوكلت إليه. أدى صلاة الصبح بسرعة، وابتلع قصعة من اللبن الرائب وتناول قطعة من خبز الشوفان. ثم ما هي إلا لحظات حتى أصبح فوق جواده.

وعلى مسافة غير بعيدة، شاهد مفرزة مسرعة قادمة نحوه وهي في أحسن نظام. استوقفه القائد وأمره بأن يفصح عن هويته. أخبره جعفر بأنه مبعوث السلطان، وقد أقفل عائداً من آلموت.

ـ حسن جداً، لدي مهمة إعادة شيء من النظام إلى الجنود الذين تفرقوا على نحو معيب أسفل أسوار القلعة. لقد أعطى جلالته الأمر بالزحف مجدداً نحو الإسماعيليين.

«هل يعلم سيدنا بالخطر الذي يتهدد آلموت ثانية؟» هذا ما حدث به جعفر نفسه متخوفاً. لكن لا ينبغي أبداً التوقف عند تلك الاعتبارات. لا شيء له أهمية الآن سوى تنفيذ مهمته.

ظهر له بعد ذلك طريق الجيوش أشبه بمعسكر حربي لا آخر له، حيث كانت فيالق الجنود تتبع بعضها بعضاً في نظام منضم. ولكي لا يتم توقيفه باستمرار، أخذ يصيح في القادة من مسافة بعيدة بأنه مكلف بمهمة، فتُرك يمر. وعلى جانبي الطريق الممهدة، كانت الخيول

والجمال والبغال وبهائم ذات قرون تعد بالآلاف، وقد شكلت قطعاناً هائلة، تقوم باقتلاع ما تبقى على الجبل من بقع خضراء.

اضطر إلى تجنب نهاوند، التي احتلها جيش ضخم، لكن طريقه نحو بغداد كان ممهداً بلا عقبات أمامه. واستطاع مجدداً تذوق ليال ممتعة في نزل فخم، لم يجد مشقة في العثور على غرفة له بمفرده. وفي إحدى المحطات ابتلع قرصه الأول. وأثارت التجربة اضطراباً عميقاً لديه. ونازعته طيلة الطريق المتبقي أمامه، مشاعر متناقضة على نحو غريب: فتارة يكتنفه قلق مبهم، وتارة أخرى تستولي على بصره هلوسات غير معقولة تسحره برونقها. كان يتخيل نفسه أحياناً هائماً في مدينة هائلة تعج بحشود صاخبة. لتتحول بعدئذ إلى حدائق تسكنها حوريات ذوات عيون سود. واختلط عنده الليل والنهار. وسرعان ما أصبح المخدر الذي تحويه الأقراص العجيبة بالنسبة إليه مصدر كل متعة، وكل هوى. وبعد بضعة أيام كان عليه أن يبذل جهداً فظيعاً ليحتفظ بالقرص الأخير: ذاك الذي سيكون بحاجة ماسة إليه عندما تحين ساعة الصفر!

كان يعدو كما لو أنه في حلم حين وجد نفسه عند أبواب مدينة ضخمة. وسد عليه الطريق حراس مدججون بالسلاح من رؤوسهم إلى أخامصهم. لكنه وقد انغمس في الرؤى المجردة، بالكاد تمكن من إبطاء مسيره حينما سددت عليه سبع حراب. وفي تلك اللحظة تلاشى الوهم. لقد مرت عشرة أيام منذ أن غادر آلموت. وها قد وصل أبواب بغداد! وثاب إلى رشده سريعاً:

ـ أنا رسول جلالته، قال بخشونة.

تفحص قائد الموقع أوراقه.

ـ حسناً، بوسعك المرور.

وما أن تجاوز الأسوار، حتى امتزج الواقع بأحلامه. فعلى طول الطريق الذي تقدم فيه، كانت تتوالى أمامه قصور من مرمر. وفي مكان أكثر بعداً، امتدت مساجد بقبابها الذهبية أو الفيروزية، وقد انتصبت عالياً في السماء مآذن ذات أشكال مختلفة، واضطر في الأسواق

الزاخرة بالناس كأنها محشر بشر، إلى اتخاذ انعطافات لا حصر لها. وسرعان ما وجد نفسه ضائعاً تماماً، ولم تقدم له الإرشادات التي أخذها من صنوه في آلموت حول أوصاف المدينة إلا عوناً هزيلاً. وليمد نفسه بالشجاعة، قسر نفسه على التعلل بهذه الفكرة: «هيا ياجعفر! إن مدناً أجمل بألف مرة ستفتح لك أبوابها حالما تنجز مهمتك!».

أبصر دورية من أربعة جنود. فتوجه إلى ذاك الذي بدا له أنه قائدهم:

ـ أرني الطريق الأقصر للوصول إلى قصر جلالته.

نظر الرجل إليه نظرات دهشة، لكن جعفر لم يدع له مجالاً للتحير إذ قال:

ـ لم تحملق بي هكذا؟ الأجدر بك أن تحدد لي الطريق!

ـ إننا عائدون إلى القصر. اتبعنا.

وأمسك أحد الرجال بعنان فرسه. وانطلقوا متجاوزين عدداً كبيراً من ثكنات الجنود؛ ثم أفضت الجنائن إلى حديقة مترامية الأطراف.

ـ هذا هو مسكن جلالته.

كان صرحاً ضخماً أبيضَ تتلألأ عليه أشعة الشمس. فعرفه فوراً: لقد وصفه له خلف بتفاصيل دقيقة. وتركه مرافقوه ليعودوا إلى معسكراتهم القائمة عند أطراف الحدائق. وتابع جعفر السير حتى وصل إلى المدخل الرحب، حيث لفظ كلمة السر التي تعلمها سابقاً.

واندهش حارس الخدمة:

ـ لقد تغيرت كلمة السر.

ـ هذا أمر لا يدهشني، فأنا رسول جلالته. وقد غادرت القصر منذ أيام عديدة. لقد جئت من آلموت! وعندي رسالة ينبغي أن أسلمها على عجل.

وتم إخطار العريف الذي وجد أمامه فارساً بسحنة غريبة... كان وجهه محموماً، هزيلاً من التعب، معفراً بالتراب، وقد التهمت ندبة قبيحة نصف وجنته.

ـ يجب مراجعة قائد الخدمة.

شعر جعفر بوهن مفاجئ يستولي عليه. أحس كأن أعصابه قد سحقتها رحى طاحون. لمح القائد الذي كان يتقدم نحوه. هل عليه أن يتظاهر بمعرفته؟ وكاد هلع أن يعصف به لولا أن صاح الآخر:

ـ عجباً! ألست صديقنا خلف بن عمر؟

ـ ومن تريد أن يكون غيره؟ بسرعة، اركض وأعلن عن وصولي لقائد حرس جلالته. يجب أن أمثل بين يديه في الحال.

ـ ترجل عن هذه الدابة الخدوم واتبعني، قال القائد متحيراً.

سارا صامتين. أبصر جعفر صاحبه يتفرس فيه خفية. لكن نظراته لم تكن تحمل شيئاً من التهديد: يبدو أنه لم يجد مشقة كبيرة في التعرف عليه بوصفه خلفاً من غزنة، لاريب أنه تغير على نحو مقبول، ومن الواضح أنه منهوك القوى...

وأدخل على عجل إلى الأمير المسؤول عن الحراسة.

ـ وتلك المهمة؟... كيف خرجت من ورطتها؟ سأل الأمير.

ـ باتباع تعليماتك بدقة متناهية، لكن الأمر لم يكن يسيراً أبداً. لقد كان الاستقبال مرعباً: حاولوا التأثير علي ليعلموا شيئاً عن مقاصد جلالته. أعتقد أني تدبرت أمري جيداً. إني أحمل أخباراً هامة إلى السلطان.

ـ هل لديك رسالة؟

ـ لا، إنها رسالة شفوية وحسب.

ـ قلها.

ـ مستحيل، لقد وجهها زعيمهم لجلالته، ولجلالته وحده.

ـ هل نسيت العرف السائد في البلاط؟

ـ لا، أيها الأمير. لكن الضربة التي أصابني بها القائد المارق لا تزال تكوي وجهي، وعظامي لاتزال تئن من الألم. لا ينبغي ان أضيع المزيد من الوقت. إني أحمل أخباراً رهيبة.

ـ أي رجل هو ذاك الحسن بن الصباح؟

ـ جلاد حقيقي. لقد حان الأوان لإزاحته عن وجه الأرض واستئصال أوباشه.

ـ سيتم ذلك قريباً... انتظر هنا. سأرى إن كان جلالته يستطيع لقاءك.

واستغل جعفر بقاءه وحيداً ليبتلع القرص الأخير المتبقي معه. وعلى الفور ظهر تأثيره: اشتد أوار شجاعته، بينما أخذت الأشياء من حوله تلك الهيئة الغريبة التي أضحت إليه شبه مألوفة. وقاوم مدّ الصور التي شعر بتطويقها له، مركزاً على فكرة واحدة: الحركة التي عليه القيام بها الآن.

في ذلك اليوم ـ الثامن عشر من تشرين الثاني عام ألف واثنين وتسعين ميلادي ـ وقبل الظهر، وقد عاد السلطان ملكشاه من زيارة قصيرة إلى الحريم حيث تسكن أخته زوجة الخليفة الوحيدة. وكان قد أفلح منذ قليل، مستعيناً بالإقناع والضغط، في حمل صهره زوج أخته أمير المؤمنين على أن يسمي جعفر الصغير وريثاً لعرش بلاد الإسلام ـ وهو الطفل الذي أنجبته أخت السلطان منذ فترة وجيزة ـ مبعداً بذلك عن الخلافة ابنه البكر المستجير. كان ذلك الأمر الحلقة الأخيرة من شقاق طويل بين الرجلين: إذ توجب على السلطان ولوقت محدد، أن يبعد صهره الغالي، الذي كان يحكم باسم المقتدر، وذلك بعد تراجعه المكدّر من البصرة. ثم حصل الخليفة على مهلة نهائية ـ عشرة أيام ـ ليقول إن كان يقبل أو يرفض شروط سلطانه شقيق زوجته.

وهكذا علم السلطان بعد انتهاء تلك الزيارة لأخته، أن الخليفة قد خضع أخيراً لمطالبه ـ مبدئياً على الأقل. كان يجلس فوق عرش حقيقي من الأرائك، وشرع يفرك يديه فرحاً. كان في ربيع العمر: رجل ثاقب الفكر، قوي البنية. أحب الثراء والبذخ والعلوم والفنون. وكل ما هو جديد وعجيب أدخل السرور إلى قلبه. وأخذ يفكر: « ماذا بوسعي أن أرغب أكثر؟ لقد امتدت حدود سلطنتي امتداداً لم تصل إليه يوماً. وقد خضع الملوك والأمراء لي. وبفضلي تنبثق المدن من الصحراء، وتبيض الشمس الطرقات التي شققتها. وتعيش الشعوب تحت سلطتي في رخاء وتجلّني. واليوم أخضعت أمير المؤمنين. سيتولى قريباً فرد من عائلتي منصب خليفة النبي محمد. لقد بلغت كل الأهداف التي حددتها لنفسي. وها أنا أخيراً في ذروة سلطاني».

أعلن الكاتب عن مجيء قائد الحرس. دخل الأمير، وأدى التحية الرسمية المعهودة، ثم قال:

ـ جلالة السلطان! لقد عاد خلف بن عمر من آلموت. وهو مجروح الوجه. لقد أمر زعيم الإسماعيليين بتعذيبه لينتزع منه معلومات عن مقاصدك، وهو يحمل إليك رسالة شفوية، راجياً جلالتك وكله خضوع لك، أن تستقبله.

امتقع وجه السلطان.

ـ كيف! أتجرأ وعذب مبعوثي! آه! هذا الدنيء الفظ المجرد من القلب! لكن الأولى أن تحضروا إلي خلف. ليخبرني بنفسه عما جرى له.

انصرف الأمير وأُدخل جعفر.

ارتمى الفدائي عند قدمي السلطان ووجهه على الأرض.

ـ انهض، يا ابن عمر!

أبصر السلطان وجه جعفر ولم يتمالك نفسه من الغضب:

ـ كم أسيئت معاملتك، يا خلف! تكلم، تكلم. كيف استقبلك المجرم الذي يسيطر على تلك الجبال؟ ماذا عهد إليك لتخبرني به؟

كان جعفر يصارع الدوار الذي عتّم بصره. وببشاعة، تغيرت حوله الأشياء التي تبدل شكلها بتأثير الحشيش. وتعلق بكل طاقته بالفكرة التي تلخص مستقبله: «حان وقت تنفيذ أمر سيدنا... والحوريات في انتظاري!...» وتذكر حديث خلف، والكلمات التي من المناسب نطقها في حضرة السلطان، فقال متلعثماً:

ـ جلالة السلطان! سعد وضياء البلاد! اعلم بداية أني قد بلغت آلموت بعد طول عناء. وأن ذاك الرجل ضربني...

وتحسس بيده الخنجر المدسوس في كمه، زلقه إلى راحة يده، وأمسك بعزم قبضته، واستجمع كل ما فيه من شجاعة، لينقض على السلطان.

تراجع الأخير عفوياً. وبحركة من ذراعه أبعد الخنجر الذي خدش أذنه. شهر جعفر ثانية سلاحه. لكن الأمير كان قد استل سيفه، وأطيح برأس الفتى على الفور.

أطلق الكاتب صرخة.

ـ هدوء! أمر الأمير.

وساعد السلطان، الذي كان شاحباً على نحو مخيف وأطرافه ترتعش، على التمدد فوق الأرائك.

وقال الأمير بعد ذلك بصوت توخى أن يكون مطمئناً:

ـ هذا الرجل فقد صوابه. وانحنى فوق الجثة ومسح نصله بملابسها.

ـ لقد فقد صوابه، ردد السلطان بلا تفكير. كل شيء يأتي من آلموت مآله إما الجنون أو الجريمة...

هرع العديد من الحراس وأصحاب الرتب إلى القاعة بعد أن نبهتهم صرخة الكاتب. أحس السلطان بالعرق يتصبب فوق جبينه. مسحه بطية كمه... ولاحظ أن قماش ردائه قد لوثه الدم.

ـ ماذا يعني هذا؟

وظهر رعب مجنون في عينيه. وأسرع الكاتب إليه.

ـ جلالته ينزف! جلالته جريح!

التقط الأمير حينذاك الخنجر الصغير الملقى على الأرض. واصفر وجهه. فقد تذكر تفاصيل اغتيال الوزير الأكبر. واخترقت قشعريرة باردة نخاع عظمه. تفحص الجثة الممددة عند قدميه. كان الدم قد أذاب الطلاء الذي يغطي الوجه. نزع الأمير اللحية والشاربين. وظل كلاهما في يده. ثم تمتم:

ـ ذاك ليس بخلف!

نظر إليه السلطان وفهم. وغرق وجهه في رعب يفوق الوصف. فكر في وزيره المقتول. وعرف آنئذ أنه ميت لا محالة، هو أيضاً.

وتحلق الجميع حول الجثة. واستدعي طبيب السلطان، الذي همس الأمير في أذنه:

ـ أخشى أن يكون قد جرح بنصل مسموم. تصرف بسرعة!

فحص الطبيب الجريح.

ـ الجرح ليس كبيراً، قال بنبرة مهدئة. مع ذلك، وعلى سبيل الاحتياط، سيكون من الأفضل كيه.

فقال السلطان بصوت شنجه الخوف:

ـ أتخشى إذن أن يكون الجرح قاتلاً؟

ـ لنأمل أن يسير كل شيء على أفضل وجه، أجاب الطبيب.

واستدعى معاونه الذي أحضر إليه الأدوات اللازمة. وأعد كل شيء على عجل.

أدرك الأمير خطورة الأمر، فأصدر أوامره المناسبة:

ـ لايغادرن أحد القصر. وصمت مطبق حول كل ما جرى! سأتولى الأمر الآن وأريد أن أُطاع.

حمل الحراس الجثة خارج القاعة وهرع خدم السلطان ليزيلوا بقع الدم.

ألقى الجريح نظرة على المسلة الفولاذية المحماة على النار وسأل قلقاً:

ـ هل سيكون ذلك مؤلماً؟

ـ فليشرب جلالته أولاً بضعة أكواب من الخمر. فذلك سيخفف من الوجع. وهرول الخدم إلى الأكواز والأكواب. وما أن شعر السلطان ببوادر السكر، حتى قرّب الطبيب من الجرح الإبرة المحماة حتى البياض. فأطلق السلطان صرخة ألم.

ـ فلتصبر جلالتك.

ـ سآمر بقطع رأسك إن تابعت تعذيبي هكذا.

ـ فلتفعل جلالتك ما يعجبها. لكن الجرح يجب أن يكوى.

وعض السلطان على شفتيه، واستطاع الطبيب إتمام مهمته.

ـ لقد آلم ذلك ألماً شديداً، أنت تعرف، قال المريض متأوهاً حينما انتهى كل شيء ـ كان شاحباً مثل الشمع.

نقل الخدم السلطان إلى محفة، وحملوه إلى غرفته. ثم جرّعه الطبيب بعض المنشطات، وأسدل الستائر، وما هي إلا برهة قصيرة حتى غفا الجريح.

انصرفت حاشية السلطان إلى الردهة. ومن حين لآخر كان الطبيب يتفحص مريضه، كان الجميع ينتظر عودته بقلب واجف. «لا يبدو الأمر خطيراً». قال في مرات عدة. لكنه وفي إحدى زياراته أطال المكوث عند المريض وعاد ممتقع الوجه.

ـ أصابت جلالته حمى قوية. وهو يهذي من لهيبها. أخشى أن يكون السم...

ـ الله! يا لها من جريمة شنيعة!... تمتم الأمير.

ورافق الطبيب ليقفا قرب سرير الجريح. وشعاع باهت من النور يضيء الغرفة.

ـ أنقذوني! أنقذوني! توسل إليهما السلطان في لحظات صحو قصيرة. أشعر بالنار في عروقي...

وعاوده الهذيان مجدداً. وأسرع للتحلق حوله أولئك الذين كانوا ينتظرون في الردهة. وفجأة شرع المحتضر في الغناء. ركع الجميع ولا مسوا بجباههم الأرض.

ـ يا لها من نهاية فظيعة!

وبعد برهة قصيرة، رأوا الجريح يرفع رأسه. نظر حوله وعلامات الزيغ على وجهه وهمّ بالوقوف.

منعه الطبيب وأشار إلى الآخرين بمغادرة الغرفة.

جمعهم الأمير في الردهة:

ـ عندما سيعود إلى وعيه، ينبغي أن نطلب إليه أن يفصح لنا عن مشيئته الأكيدة فيما يتعلق بخلافة العرش. فمحمود الصغير لا يتجاوز الرابعة من العمر. وليس بوسعه في هذا العمر على أية حال، أن يتقلد أمر السلطنة.

ـ فلنتريث قليلاً، اقترح ذلك عجوز مداهن.

فقال الكاتب حانقاً:

ـ وهل ذلك إلا لتستغل السلطانة تريثنا، وتفرض علينا سلطة تاج الملك؟

لكن أحد النبلاء الحاضرين اعترض قائلاً:

ـ لا ينبغي علينا أن نظهر للمريض أننا نتحسب للأسوأ.

فرد عليه الأمير بجفاء:

ـ إن مصير إيران في خطر.

ـ ربما ينبغي إخطار شقيقة جلالته...

ـ لن ندع أحداً يدخل إلى هنا! قال الأمير غاضباً. لا ينبغي أن يعلم أحد أن السلطان قد سقط بضربة خنجر الإسماعيليين. وإن حصل الأسوأ، فسنعلن أنه مات بحمى خبيثة. ستنتشر الإشاعات بأن جلالته قد مات مثل وزيره، ضحية سفاح آلموت، سيكون علينا في البداية أن نتحمل عبء هاتين الفاجعتين... سيصيب العامة هلع شديد، بحيث لن يرضى أحد بأن يحمل سلاحاً في وجه أولئك الهراطقة.

سهروا بجانب المحتضر حتى الفجر. وما فتئت الحمى تشتد، فكان واضحاً أن أوان التطرق لمسألة الخلافة قد انقضى. ولم يسترد السلطان وعيه ثانية. وفي الصباح الباكر، دخل في النزع الأخير. وحين أذن مؤذن صلاة الظهر، كان الطبيب قد تحقق من توقف القلب عن الخفقان. كان الجميع يبكي: لقد فقدت إيران السلطان الذي كان وحده قادراً على حكمها.

بغداد الصاخبة، بغداد الموارة بأناسها، في الأمس فقط كانت جزلة بأفراحها، واليوم أصبحت فجأة صامتة، غارقة في أحزانها. ما كاد نبأ موت السلطان يصل أرباض المدينة حتى تحول الخلاف على العرش إلى حرب أهلية. وهرع الرسل يعلنون في كل الأنحاء الخبر الحزين. وأرسل الأمير قائد الحرس الكبير، رجاله إلى كل من باركياروق، الذي كان في حملته العسكرية عند الحدود الهندية، وابن الوزير الأكبر المقتول. وأوفد أنصار محمود رسلهم إلى أرملة السلطان وإلى تاج الملك، سيدا أصفهان. أما الأمراء الخاضعون في سوريا وفي ثغور أخرى من السلطنة، والذين تجمعوا منذ آونة قصيرة في بغداد حول السلطان، فقد انصرفوا إلى بلادهم على عجل لانتهاز تلك الفرصة غير المنتظرة ليتخلصوا من وصاية أسياد إيران السلاجقة. وابتهج الخليفة، الذي كان قد أعلن الحداد لستة أشهر تكريماً للمتوفى، في قرارة نفسه من هذا التغير السار للأمور. فبوسعه أخيراً أن يختار وريثاً حسب إرادته: فعينّ من جديد ابنه البكر... وهرول الرسل والجواسيس وآخرون من مروجي الشائعات المختلفة، والذين هم في خدمة عظماء الدنيا لينقلوا الخبر إلى أسيادهم في أنحاء المعمورة. وفي بغداد، كانت دسائس لا تحصى، تحاك في البلاط منذ يوم موت السلطان. وبدا أن الطامعين في العرش قد انبجسوا من تحت الأرض

مدججين بأسلحتهم، وقد وقفت إلى جانب كل منهم شرذمة من الأتباع المتحمسين. كان لكل واحد من أخوة وأبناء السلطان المتوفى أنصاره. ولجأ الجميع إلى المكائد لصالح مرشحيهم ومارسوا الضغط على الخليفة المسكين ليكون في صفهم. وكما يحدث في حالات مماثلة، ونتيجة للأحلاف والمساومات المعتادة، انتهى الأمر إلى تجابه معسكرين: معسكر باركياروق ومعسكر محمود. وكان السلطان قبل موته قد مال إلى جانب محمود، جاعلاً الغنم بيد السلطانة وشريكها المتواطئ معها تاج الملك. وكل أولئك الأمراء والشخصيات الرفيعة، وكبار الموظفين ورجال الدين، والذين وقفت في وجه مطامحهم الجامحة السلطة الحازمة للوزير الأكبر المقتول، قرروا تأييد محمود الذي مازال بعد قاصراً. وسرعان ما نجحوا في حمل الخليفة إلى تأييد معسكرهم. أوشك الصراع أن يتحول إلى قتال دموي. ولم يكن أمام أنصار باركياروق حياة سهلة في بغداد؛ فالخيار الذي أتيح لهم يتلخص في أحد الأمرين: إما الاختباء أو الهروب. أما بالنسبة لأنصار محمود فقد أضناهم نفاد الصبر، وهم ينتظرون أخبار أصفهان حيث كانت السلطانة وتاج الملك يستجمعان قواتهما: كان عليهما قبل كل شيء الظفر بظهور الخليفة الضعيف أمام الناس ليعلن اسم مرشحهما سلطاناً؛ وهو أمر سيكون بالتأكيد ضربة لن ينهض بعدها الفريق المناوئ.

تلقت الجيوش المعسكرة حول نهاوند وهمذان والتي كانت قد استدعيت لقتال الإسماعيليين نبأ موت السلطان وأيضاً الأمر بالتخلي مؤقتاً عن قتال الهراطقة، وبالزحف نحو أصفهان. لكن وفي منتصف الطريق إلى تلك المدينة، انضم إلى تلك الجيوش رسل أرملة السلطان الذين استطاعوا استمالتها بأحاديث مقنعة: ستغدق على القادة العطايا السخية، ومن المناسب أيضاً أن يتلقى الجند راتبين إن هم أظهروا تأييدهم للصغير محمود. في حين تابع رسل آخرون مسيرتهم إلى بغداد لإقناع الخليفة ـ بعد أن بذلوا وعداً له بمغانم عظيمة ـ بأن يتوج محموداً وأن يأمر بالخطبة له على المنابر في أنحاء إيران كلها.

كان الأوان قد فات أمام باركياروق الذي وصل أصفهان على

رأس فريق من جنده. لم يكن يعلم بعد أن أباه قتل بعد فترة وجيزة من مقتل الوزير الأكبر. وجد المدينة في هرج ومرج. وجنود يركضون في كل مكان هاتفين لمحمود الصغير وذلك على مرأى من أتباعه ورغم أنوفهم. وأدرك أنه وصل متأخراً بضعة أيام. حاول تحريض الناس ضد أرملة السلطان ووزيرها. لكن وفي ذلك الوقت، وصل خبر جديد من بغداد: لقد عزم الخليفة أخيراً على تسمية محمود سلطاناً! أسرع باركياروق في تجميع ما بقي من جنوده واتخذ طريقه صوب ساوة، حيث قدم له الأمير تكشتين، وهو صديق طفولته الباكرة، ملاذاً مناسباً.

كان عليه الآن أن يحمس ثانية أنصاره وأن يبحث بهمة عن تحالف يضم جميع أولئك الذين لديهم سبب ما للتذمر من السلطان الجديد. وانضم إليه خمسة من أبناء نظام الملك وبادر إلى تعيين أحدهم وزيراً. وهكذا وبعد مدة قصيرة نجح في تجميع جيش ضخم؛ كان جلياً أنه لم يقرّ بهزيمته.

كانت السلطانة ووزيرها قد حسبا حساب كل شيء في تلك القضية، التي لعبت فيها البلبلة العامة دورها في صالحهما. ولم ينسيا إلّا شيئاً واحداً: حليف الأمس، الحسن. كان الأمير تكشتين وميتسوفر جارين متوادين. وبوساطة من ذاك الأخير، أراد باركياروق الاتصال مع زعيم آلموت.

الفصل الحادي والعشرون

بينما كانت سلطنة السلاجقة تتقوض، وهي التي كانت حتى أمسها القريب تمد سلطانها على نصف أرجاء العالم، وبينما أبناء وأخوة، وأعمام وأبناء أخوة السلطان المقتول يتنازعون الإرث، إلى حد أن لا أحد في إيران كلها، أصبح يعلم من الحاكم وأي بلاد يحكم، كانت المؤسسة الإسماعيلية تترسخ وتوطد حصونها مثل الصخرة الشامخة التي شيدت فوقها آلموت.

حمل خبر موت السلطان ملكشاه لأنصار الحسن فرح عيد حقيقي. وأصبحت في أمان جميع الأراضي التي تشرف عليها قلاع الري ورودبار وقزوين، وكل الجبال حتى فيروزكه ودامغان، وصولاً إلى كرد كاهي، وذلك مروراً بزور غامبادان ومنطقتها: واستطاع المبعوثون الإسماعيليون وحتى مفارز كاملة، أن يتقدموا بسلام في تلك الأنحاء، متنقلين من قلعة إلى أخرى دون أن يتعرض لهم أحد. وهكذا شهدت آلموت تدفق موجة جديدة من المؤمنين الذين يبحثون عند أسفل جدرانها عن الرخاء وعن حرية ممارسة العقيدة أيضاً. وما لبثت القلعة أن ضاقت بكل أولئك الناس، ولم يعد أبو سراقة يستبقي حوله إلا أشدهم بأساً، طالباً من الآخرين الرجوع إلى بلادهم محملين بهدايا القائد الأعلى ليؤسسوا فيها جماعات مؤمنة قوية، ترتبط بالقسم مع سيد آلموت، وتنضوي تحت جناحه. وأطل قرن جديد، وسرعان ما أصبح بمقدور منطقة شمال إيران كلها، وعلى غرار مصر الفاطمية، أن تنادي باسم علي عالياً، وتنشر عقيدة أتباعها.

كانت خدمة الاستخبارات التي أقامها الحسن تعمل على أفضل وجه. فكان يطّلع على ما يستجد من تطورات تحرزها كل فئة من الفئات المتخاصمة على العرش. وهكذا عرف قبل غيره بتنصيب السلطان محمود، وبخيبة أمل باركياروق أمام أصفهان. كان ابتهاجه عظيماً، حينما تأكد لديه أن دعائم السلطنة السلجوقية، التي قوضتها جهوده، ستنهار الواحدة تلو الأخرى، وأن حلم شبابه البعيد أوشك أن يصبح حقيقة.

أحب الحسن أن يحدث نفسه:

«كل هذا أشبه بحكاية من الحكايات. لو أني لم أكن أنا نفسي مثير تلك الاضطرابات، لرفضت أن أصدق تلك الحكاية. لا جرم أن بعض الرغبات لديها قوة فريدة! وتعمل كما لو أنها مادة من المواد، كأنها مطرقة من فولاذ حقيقي!».

شعر آنذاك بفراغ غريب. كما لو أن العالم حوله قد صمت فجأة. شيء ما عظيم ومرعب، ومع ذلك يحمل جمالاً حقيقياً، كان على وشك أن يفارقه، ليبحث لنفسه، بعيداً عنه، عن مكان له تحت الشمس. كان الحنين إلى أيام القلق، المفعمة بالأحداث، التي ولت اليوم، يعذبه أحياناً. لقد حان الوقت بالنسبة إليه ليرى من جديد بنيانه، وليحصي جنوده، وليؤمن لهم طريق البقاء من بعده.

عند بداية الشتاء، وصل إلى القصر أبو الفضل اللمباني، قادماً من الري. ومثلما حدث منذ ستة أشهر مضت، جاء يحمل رسالة هامة: لقد استقبل تكشتين أمير ساوة، باركياروق، ووضع كل قواته تحت تصرفه؛ ويريد أن يبايعه سلطاناً على الري، عاصمة إيران القديمة، وهو يطلب لأجل تلك الغاية مساعدة ودعم ميتسوفر، الذي نصحه بأن يتفاهم أولاً مع الحسن ويتأكد من موافقته. ولأجل ذلك اتخذ أبو الفضل طريقه مجدداً إلى آلموت. وقد قرر باركياروق أن يزحف إلى أصفهان بكامل جيشه ما أن تتم مبايعته سلطاناً، وذلك ليخلع محمود عن العرش.

كان لا بد من عقد اجتماع للتشاور: فدعا الحسن الداعيين الكبيرين ومينوتشهر للانضمام إليه هو وأبو الفضل في أجنحته.

ـ إن اللحظات التالية حاسمة، أسر إليهم حينما اجتمعوا جميعاً حوله، لقد اعترف الخليفة وجميع قادة الجيش وجنودهم بمحمود. علينا ألا ننخدع. فإن تغلب حزب السلطانة، فسنكون نحن الإسماعيليون، أول من يتلقى ضربات تاج الملك. لأنه وصل إلى السلطة بمساعدتنا ومثله مثل كل طاغية جديد، سيسعى للتخلص من فرسانه. لقد برهن لنا من قبل على أنه رجل من هذا الطراز. ولا ريب أن باركياروق سيبذل جهده هو أيضاً للتخلص منا حالما يصبح في غنى عنا. وهذا ما علينا تجنبه. فليكن شعارنا: لاينبغي بعد اليوم لأي عاهل في إيران أن يتسنم سنام سلطة مطلقة! أعتقد أن بوسعنا مؤقتاً مساعدة باركياروق في الإطاحة بمحمود. وليبايعه تكشتين سلطاناً على الري. وعندما سيزحف إلى أصفهان، سنحمي مؤخرة جيشه. لكن المثل يقول: اضرب الحديد وهو حام. فعلى باركياروق أولاً أن يوقع لنا تعهداً بألا يهاجم حصوننا إن هو نجح، وألا يضطهد أتباعنا. ولكي نشعره فعلاً بقوتنا، سنبدأ بمطالبته، لقاء دعمنا، بضريبة سنوية. حان الوقت ليفهم ملوك وحكام هذا العالم أن حياتهم أصبحت بين أيدينا.

لم يبد أي قائد أدنى اعتراض، كما لم ينبس أحد بأدنى تعليق. ثم كتبوا رسالة إلى باركياروق تعرض شروطهم. بعد ذلك، تجاذب الجميع أطراف الحديث بكل سرور مبتهجين. وتناقلت الأيدي إبريق الخمر. وفجأة التفت الحسن نحو الريس اللمباني وسأله وهو يبتسم ابتسامة رقيقة:

ـ ما هو بالضبط ذاك الدواء الشافي من الجنون الذي أردت تقديمه لي؟ إني ما زلت في انتظاره.

حك أبو الفضل خلف أذنه قائلاً:

ـ تعلم، يا ابن الصباح، أني أصبحت عجوزاً وأن ما من شيء في العالم يثير دهشتي اليوم. لقد تيقنت أن ما بدا لي أمراً حكيماً منذ سبع سنين ما هو إلا حماقة، وأن الجنون الصريح أضحى تعقلاً رفيعاً. لم

أعد أفقه من تلك الأمور شيئاً. ولذلك قررت ألا أبدي رأياً حول شؤون هذه الدنيا. لقد انتهت مدة خدمتي.

صمت الحسن برهة قصيرة، ثم قهقه فرحاً.

ـ أتتذكر ما حلمت به، يا ريسي الطيب؟ هل ترى اليوم كم هو هش ذلك الصرح الذي ظننتَه في الماضي شُيد ليبقى خالداً؟ كانت تكفيني حفنة من الرجال أعتمد عليها اعتماداً أعمى لأقطع سنديانة السلاجقة! إني أسألك: هل هنالك ملك أو قائد، نبي أو حكيم، نظام أو مؤسسة تثير مخاوف آلموت؟

ـ لا أرى شيئاً من هذا يا ابن الصباح. فخناجرك الحية تستطيع بلوغ أي شخص يُظهر لك أدنى مقاومة. فمن ذاك الذي، وفي أحوال كهذه، ما زال يريد أن يناصبك العداء؟

ـ ما زال هنالك بعضهم، يا عزيزي. لكن سيأتي حين من الزمن يرتجف فيه أمام قوتنا الملك الذي يعيش في الطرف الآخر من العالم. وعند ذاك سنجبي الضرائب من جميع السلاطنة والملوك، ومن جميع عظماء هذه الأرض حتى لو كانوا يسكنون الطرف الآخر من البحار.

بدت على أبي الفضل ملامح الحيرة وهو يهز رأسه:

ـ أنا أصدقك، لأن ليس بوسعي فعل شيء آخر سوى تصديقك. لكني لم أفهم بعد كيف يمكن أن يضحي هذا العدد الكبير من الشباب بحياتهم مع كل ذلك الفرح، نزولاً عند أمرك؟

ـ ذلك لأنهم يعرفون أن الموت يحمل إليهم ملذات النعيم الخالدة.

ـ وطبعاً، لن تطلب مني أن أصدق تلك الحكاية، أليس كذلك؟

وغمزه الحسن بمكر قائلاً:

ـ أتود أن تتأكد بنفسك من صحتها؟

تظاهر أبو الفضل بإخفاء وجهه ـ لكن هلعه لم يكن مصطنعاً إلا قليلاً...

ـ فليحمني الله من فضول كهذا! فأنت قادر على كل شيء. تخيل

أنك أفلحت بإقناعي بحقيقة جنتك... ستراني حينئذ ألقي بنفسي من هنا وخنجر في يدي على أحد السلاطين أو الوزراء، مع كبر سني وشيب لحيتي!

ومع هذه الدعابة التي استقبلها الجميع بضحك مجلجل، انفض الاجتماع.

في صباح الغد، غادر أبو الفضل آلموت، وجيوبه مثقلة بالعطايا، وقد جلس جلسة مريحة فوق ظهر أحد الجمال.

لما تنقضي سبعة أيام حتى وصل مبعوث إلى الحسن حاملاً رسالة من باركياروق، يعلم فيها سيد آلموت أنه قد قبل شروطه. ومالبثت النتائج أن ظهرت: فقد بايع تكشتين باركياروق سلطاناً على الري، واتفق كلاهما على الزحف إلى أصفهان في أول فرصة سانحة. وأراد تاج الملك أن يسبقهما فقاد جنوده نحو ساوة. والتقى الجيشان في باركجير، بين همذان والخرب. ووقع تاج الملك المنهزم أسيراً وما لبث باركياروق أن أمر بقطع رأسه. ومن ذلك الحين أصبح طريق أصفهان ممهداً أمامه. فوصل حصون المدينة في مستهل العام الجديد. وهرع الحسن، وهو الابن الثاني للوزير الأكبر المقتول، قادماً من خراسان مع جنوده. لينضم إلى باركياروق. وفي الحال اتخذه السلطان الجديد وزيراً له. ازداد عدد أولئك الذين تركوا معسكر أرملة المتوفى ملكشاه، لكنها وبعقل رزين، تفاهمت مع باركياروق وطلبت منه الصلح. وتحتم على باركياروق أيضاً أن يجابه عمه إسماعيل بن ياقوتي، حاكم أزربيجان، الذي باع بالمال ولاءه للخاتون توركان: فأسره، ثم أطار رأسه عن عنقه. لكنه ما كاد ينهي هذه القضية، حتى تمرد عليه الأخ غير الشقيق لابن ياقوتي: ططش «تتش» حاكم دمشق، الذي استولى على انطاكية متواطئاً مع آقسنقر، حاكم حلب؛ كما استولى على الموصل، وانتهى به الأمر إلى أن طالب الخليفة المذعور بأن ينادي به سلطاناً.

واشتعلت الفتنة فجأة في جميع ثغور السلطنة. وأخذ الملوك والأمراء التابعون في الإعلان الواحد تلو الآخر عن استقلاله. وما لبث الحكام أنفسهم أن زعزعوا وصاية السلطة المركزية. وبوجيز العبارة:

انطلق كل حاكم يحارب جاره، بينما كان الخليفة المسكين يعلن هذا تارة سلطاناً، وذاك تارة أخرى سلطاناً. وهكذا اتفُق أن دعي على منابر بغداد، وفي شهر واحد، لثلاثة أو أربعة حكام مختلفين.

لقد آن الأوان للحسن بأن يتخذ الإجراءات التي كان لابد له من اتخاذها.

استدعى إلى آلموت قادة جميع قلاعه ودعا من جميع الأنحاء أصدقاءه وأنصار عقيدته.

كان ذلك في أحد أيام الشتاء. لم يكن الثلج قد تساقط بعد، لكن القمم المحيطة غطاها رداء أبيض سميك. وكانت ريح قارسة، قاطعة مثل نصل، قد هبطت من الجبال، وما أن تجاوزت الشمس قممها، حتى غمر الجو دفء مفاجئ.

كان الليل في اسوداده الحالك، عندما شرعت الطبول تدق. وفي لحظات قليلة تأهب الجميع، وقد ارتدوا جميعاً: جنوداً، فدائيين، قادة، مؤمنين بسطاء، لباس الأبهة. وشاع نبأ تناقلته الألسن بأن هذا النهار سيحمل أهمية تفوق أهمية أي نهار آخر في تاريخ آلموت: إذ ستتخذ فيه قرارات حاسمة، سيظل صداها يدوي عبر الزمان.

بعد صلاة الصبح، اجتمع القادة والضيوف البارزون في قاعة الشورى، حيث غطت الأرائك الأرض كلها.

دخل الحسن، يتبعه الداعيان الكبيران، وقد انسدل رداؤه الطويل الناصع البياض إلى الكعبين، وعمامة بديعة بلون الثلج أحاطت جبهته. وقف الجميع وأحنوا رؤوسهم باحترام عميق. انطلق يرحب بكل رجل منهم، وملامحه تشع بشاشة. وحين أصبح أمام ميتسوفر، سأله:

ـ كيف حال ابنتي؟ هل هما مثابرتان وتكسبان قوتهما؟

أفاض ميتسوفر في الثناء عليهما.

ـ حسناً، قال الحسن. فلتكونا نافعتين. وإن تقدم لخطبتهما رجلان مناسبان، فأنا لا أرى ضيراً في التخلي عنهما لهما.

وعد ميتسوفر بأنه سيبذل أفضل جهوده.

وحين لمح الحسن الريس أبا الفضل، لم يستطع أن يمنع نفسه عن الترحيب به، مبطناً كلامه بعض المزاح:

ـ إني مسرور لرؤيتك مرات عديدة في هذه الأيام. ربما لديك رغبة في البقاء معي في آلموت! بوسعي أن أعهد إليك بالإشراف على حدائقي... فيها بعض الحوريات اللواتي لن يدعنك غير مبال...

ـ أشكر اقتراحك، اعتذر الريس السابق. لكن الأيام لن تطول بي كثيراً حتى أقرع بوابة الفردوس الحقيقي...

راقت الإجابة للحسن، ودعا الجميع إلى الجلوس.

ـ أيها الأصدقاء وقادة الحركة الإسماعيلية! لقد دعوتكم لنحدد معاً اليوم، وبوضوح تام، جوهر وأهداف مؤسستنا. كل ما التزمنا به بعد تملكنا هذا القصر قد وفقنا إليه. وهذا دليل على أننا وضعنا أسساً مكينة. لقد جعلنا قوتنا موضع اختبار وأظهرناها في القتال. وعلى الرغم من وحدة وحزم مراسيمنا، فإن بعض الأمور قد ظلت مبهمة، وبخاصة تلك المتعلقة بعلاقتنا مع بقية العالم. وهذا أمر مفهوم، لأن النجاح النهائي لمشروع ما هو محصلة خطة أولى، ومحصلة جميع العوامل المتوقعة وغير المتوقعة التي تتدخل في تحقيقه. عندما سلبنا من السلطان المتوفى هذا القصر الحصين، استندنا علانية على دعم خليفة مصر الذي منحنا سلطة مطلقة لإنجاز هذا العمل. لقد كان ذلك أمراً ضرورياً، لأن نفوذنا آنئذ كان بالغ الضعف، ولنقل حتى أنه لم يكن موجوداً... ومنذ ذلك الحين، تغيرت الظروف تغيراً جذرياً. فأعداؤنا الألداء ماتوا. والسلطنة السلجوقية القوية في طور التفكك. ومصر بعيدة. ونحن، بالمقابل، تطورنا تطوراً كبيراً حتى أصبحنا قوة ذات بأس من حديد. لقد أنشأنا ودربنا مؤمنين لم تعرف لهم نظيراً أية قوة اخرى. حماسهم أسطوري. وعزمهم لا يتخطاه أحد. وإخلاصهم لايضاهى. ماذا تعني مدينة القاهرة بالنسبة لهم؟ لا شيء. ماذا تعني آلموت؟ كل شيء... أيها الرجال! إني عجوز، ولا تزال أشياء كثيرة تنتظر الإنجاز. أود قبل أن أغادركم أن أرى عقيدتنا موضحة في أدق تفاصيلها، وتلك التفاصيل نفسها قد خططتها بيدي لأجل أولئك الذين

سيأتون من بعدنا. يجب أن تتوافق مبادئنا بدقة بالغة مع الرتب الثمانية في بنياننا الهرمي. اعلموا أن هذه هي المرة الأخيرة التي أظهر فيها أمام المؤمنين: أريد الإعتزال، من الغد، في برجي، ولن أخرج منه. وحتى ذلك الوقت، يسعدني سماع اقتراحاتكم...

وبحث عن عيني أبي علي، الذي استأنف الكلام في الحال:

ـ أيها القادة والأصدقاء اللامعون، أود أولاً أن أدعوكم إلى اتخاذ بادرة: يبدو لي أن الوقت قد حان لقطع روابطنا مع القاهرة؛ أجل، علينا أن نعلن بجرأة استقلالنا التام! وإذ نفعل ذلك فإننا نظهر للعالم أجمع أننا نعرف مدى قوتنا؛ وسنكسب، خصوصاً، تعاطف أولئك الذين منعتهم تبعيتنا للغريب من الإنضمام إلينا، وهم إيرانيون طيبون.

استقبل زعيم الإسماعيليين ذلك الاقتراح بحماس. إلا أن ميتسوفر نظر إلى أبي الفضل نظرة خوف ثم قال:

ـ بالله عليك! هل فكرت بم سيفكر به الأتباع العديدون الذين يعتقدون أن خليفة مصر هو حقاً من ذرية علي وفاطمة؟ كل أولئك سيرحلون عن آلموت!

ـ لا تخش شيئاً ما ميتسوفر، قال بوزروك أوميد مخففاً عنه. فهؤلاء الأتباع لا يحملون لنا أي نفع. في حين أن أولئك الذين ترتكز عليهم قوتنا لا يعترفون إلا برمز واحد: آلموت!

ـ إن قوة مؤسستنا لا تكمن في عدد أتباعها، أكد الحسن، وإنما في نوعيتهم. وكذلك لا ترتكز تلك القوة على اتساع ملكنا، وإنما على أمان قلاعنا المنيعة. في كل مكان من تلك الأمكنة المحصنة، نحن أسياد مطلقون. وهذا ما يجب أن يكون أنّى كانت لنا الغلبة. ولن نظهر إلى الوجود حقاً حتى ننفصل عن القاهرة: فالطفل إن أراد أن يكبر، ينبغي أن يقطع الحبل السُري ويبتعد عن أمه.

رضخ ميتسوفر إلى تلك الحجج، واقترح حينذاك أبو علي أن يقلد بجلال الحسن المهام التي ستوكل إليه من اليوم: مؤسساً وقائداً أعلى لدولة سيكون مقرها، كما في السابق، آلموت. واعتُمد الاقتراح بالإجماع. وحُرر ميثاق رسمي أُعلن فيه عن الاستقلال التام للدولة

الإسماعيلية، وذلك برعاية زعيمها الحسن بن الصباح. ووقع جميع الحاضرين عليه.

نهض الحسن وشكرهم على ثقتهم؛ ثم عين أبا علي وبوزروك أوميد ممثلين له وخلفين: عهد إلى الأول الإدارة الداخلية للدولة، وللثاني إدارة الشؤون الدبلوماسية. وكان لا يزال لديه بضع كلمات يود قولها...

ـ لقد تحددت الآن الصلة التي تربطنا ببقية العالم. بقي علينا ان نفكر في نمو وتطور قوتنا. لأن مؤسسة تريد البقاء قوية صلبة، لا ينبغي لها أن تتوقف عن النمو. يجب أن تظل على الدوام في حركة وتحول، وذلك لتحافظ على رشاقة جسد جيد التدريب. لقد وصفت حال أفضل قلاع مناطقنا. إن عدداً منها لا تتمنى شيئاً أكثر من الانضمام إلينا، وستكون لقضيتنا نقاط ارتكاز صلبة. تعرفون جميعاً قلعة «لامسير». ذات الموقع الخلاب، إن حامية صغيرة أبعد ما تكون عن الحماسة المتقدة، تدافع عنها الآن. وسيكون يسيراً على بوزروك أوميد وقد اتخذ الاستعدادات الضرورية أن يستولي عليها: إني أعتمد عليه في إدارة الأمر بهمة... عبد الملك! أنت شاب وشجاع، يكفيك بضعة رؤوس ملتهبة تختارها بذكاء للاستيلاء على قصر «شاهديتس»، الواقع بالقرب من أصفهان، والذي أمر السلطان ببنائه قبل موته، كما لو أنه هيأه خصيصاً لنا. وهكذا سيكون بوسعنا الاشراف عن كثب على حكام إيران... وتركت لك، يا أبا علي، المهمة الأصعب، والأكثر نفوذاً. أنت رأس حربتي. تعرف سوريا؛ أعلم أنك زرت في الماضي قلعة مصياف، إنها آلموت الثانية، كما تقول، وهي مشهورة بمناعتها: ستستولي عليها إذن، واصحب معك العدد الذي يلزمك من الجنود والفدائيين. إن الاضطراب الذي يسود في هذه الآونة ذلك البلد سيتيح لك بلوغ أسوارها دون عائق. وأنا أثق بك حول ما سيحدث بعد ذلك: ستسقط مصياف. وستقيم فيها مدرسة فدائيين على غرار مدرسة آلموت. وستتخذ التدابير التي ترى من الأنسب اتخاذها، ولتحرص فقط على أن تطلعني على قراراتك... وأخيراً، أنت يا ابن عطاش، إني أعينك داعياً كبيراً. ستعود إلى خوزستان لتستمر في حكم قلعة زور غامباذان، لكني أعتمد عليك أيضاً لتحصن، في شمال البلاد، مدينة كرد كاهي،

ولتستولي، في الوقت ذاته، على جميع القلاع المجاورة. إن كنت بحاجة لفدائي للقيام بمهمة خاصة، فسأرسله لك... أنتم يا من تحكمون موقعاً ما، ستنالون، من اليوم، مرتبة دعاة حكام المناطق، وسيتبع كل منكم مباشرة الداعي الكبير الذي يكون مقره هو الأقرب إلى ثكناته... إنكم تعرفون جميعكم إطار التسلسل الهرمي عندنا. وستتلقون في قلاعكم مختلف الأنظمة التي توضح سير العمل فيها، ما أن تحدد تلك الأنظمة... هيا انضموا الآن إلى الجنود. وأنت، أبا علي، أوضح تلك الاستعدادات للجنود وأعلن لهم عن قدومي. فسيروني، هذا اليوم، للمرة الأخيرة.

هلل جيش المؤمنين الذي جمعه أبو علي لجميع تلك القرارات: واستقبل إعلان استقلال آلموت بفرح كبير. كما استقبل الإعلان عن القيام بحملات قريبة وفتوحات جديدة بمشاعر عارمة من الابتهاج العسكري: شعر الجميع أن أسوار آلموت من اليوم قد ضاقت بهم.

ظهر أخيراً القائد الأعلى فوق السطح المرتفع. وساد صمت الأموات. صاح بصوت بلغ آخر صفوف الجنود:

- أيها المؤمنون الإسماعيليون! إن الداعي الكبير قد أبلغكم لتوه بالإجراءات التي اعتمدها اليوم مجلس قادتنا. حقاً، لقد أصبحنا أقوياء. لكن قوتنا ترتكز بالكلية عليكم، أي على خضوعكم لقضيتنا. أنتم تنفذون أوامر رؤسائكم المباشرين، وهم بالتالي ينفذون أوامر رؤوسائهم. وأنا، أرضخ لأمر الخالق الذي أرسلني. ونحن ننفذ على نحو مباشر أو غير مباشر، أوامره. عودوا الآن إلى واجباتكم اليومية. ولا تنتظروا بعد الآن المهدي... لأن المهدي قد جاء!

وحتى قبل أن تهدأ الحماسة التي أثارتها كلماته الأخيرة، كان قد توارى عن أنظارهم. وشوهد بعد ذلك للحظات قصيرة في قاعة الاجتماعات، حيث ودع كبار شخصيات القضية. ثم انسحب إلى أجنحته برفقة الداعيين الكبيرين.

- كان ذاك هو الفصل الخامس والأخير من مسرحيتنا، قال لهما في ذلك المساء وهو يبتسم ابتسامة فيها مسحة حزن. لم يعد هنالك

أحد يعلونا، ما عدا الله وسماءه الغامضة. وعن كليهما، لا نعرف شيئاً تقريباً، ولن نعرف عنهما أكثر: وهكذا أُغلق للأبد الكتاب الكبير لأسئلة لا جواب لها... أود من الآن فصاعداً أن أقنع بهذا العالم كما هو. إن تفاهته توحي إلي بالتزام مسلك وحيد: اختلاق أكاذيب، مثيرة قدر الإمكان، سنخصصها لمخلصينا الصبية... وننتظر في هذا الملاذ انجلاء أسرار اللغز العظيم. مسموح لعجوز يعرف العالم أن يخاطب الناس بالأساطير والحكم. كم من عمل مازال أمامي! وعلي لأجل المؤمنين البسطاء أن أتخيل ألف حكاية وحكاية عارضاً تكوّن العالم، متطرقاً للجنة والنار، والأنبياء، والنبي محمد، وعلي، والمهدي... وفي مرتبة تلي العوام تماماً، سيكون للمقاتلين المؤمنين الحق في فهم لماذا وكيف تحكمنا الأنظمة والمحرمات: وسأهيء لأجلهم شرعاً وكتاب عقيدة مزيناً. أما الفدائيون، فستتاح لهم معرفة سرية: سأعلمهم أن القرآن كتاب ملغَز ينبغي تأويله بمساعدة مفتاح ما. لكن سنعلم الدعاة، الذين هم أعلى مرتبة من الفدائيين، وإن اتضح لنا أنهم جديرون ببلوغ الرتبة القصوى، فسنكشف لهم عن المبدأ الرهيب الذي يحكم نظامنا كله: لا شيء صحيح، وكل شيء مباح!... أما نحن، الذين نمسك بأيدينا بأبناء هذه المكنات، فسنحتفظ لأنفسنا بأفكارنا الأخيرة.

- يا لها من خسارة أن ترغب بحجبها عن الناس! تأسف بوزروك أوميد. وذلك في الوقت الذي بلغت فيه الدرجة الأعلى...

- إن الرجل انذي أنجز مهمة كبرى لا تبدأ حياته إلا عند مماته. وبخاصة الولي، لقد قمت بما توجب علي القيام به، واليوم حان الوقت لأفكر قليلاً بنفسي. سأموت في سبيل البشر لأحيا من جديد في أعمالي. لا أعرف طريقة أخرى للبقاء تعمل من ذاتها. أظن أنكما تفكران مثلما أفكر... وتابع قوله قائلاً:

«لكن إن سألتماني عن مغزى هذا العمل وما الجدوى منه، فلن أستطيع إجابتكما. نحن نكبر لأن بداخلنا قوة تدفعنا للنماء، للارتقاء. مثل البذار التي تنبت في التراب وتخرج من الأرض وتزهر وتعطي الثمر. فجأة وجدنا أنفسنا هناك، وفجأة سنموت...».

لنذهب الآن لإلقاء نظرة أخيرة على حدائقنا!... وسبقهما إلى

المنصة المتحركة وتم إنزالهم إلى أسفل البرج. وحرك أحد الحراس الجسر الملقى فوق السيل، ثم أخذهم عدي بالزورق إلى الحديقة التي تشغل وسط الروضة. كانت الأشجار عارية، ومساكب الأزهار مقفرة. ولم يكن هنالك ثمة خضرة أو أزهار. لكن أيكة سوداء من السرو صمدت وحدها في وجه الشتاء.

فأبدى أبو علي ملاحظة:

ـ إن أرسلت أحداً اليوم إلى هذه الحدائق، فسيشق عليه التصديق بأنه وصل الفردوس.

أجاب الحسن:

ـ لقد كُوّن العالم من ألوان، ومن حرارة وضوء. ذاك هو غذاء حواسنا. وشعاع ترسله الشمس إلى الطبيعة، فيتبدل كل شيء أمام أعيننا! وهذا التغير سيؤدي أيضاً إلى تغير في مشاعرنا، وأفكارنا، ومزاجنا. هنا تكمن الأعجوبة التي لا تنتهي في تجديدها للحياة كلها ـ هذا كل شيء.

وأقبلت أباما لملاقاتهم. سألها الحسن مستخبراً:

ـ كيف تعيش فتياتنا؟

ـ إنهن يتكلمن كثيراً، ويعملن كثيراً، ويضحكن ويبكين كثيراً. لكنهن يفكرن قليلاً.

ـ هذا أفضل، وإلا لأدركن أنهن يسكن في سجن. لا أهمية لذلك. لقد تعودت النساء على الحريم، وعلى السجن. ويمكن بسهولة حبسهن جميعاً طيلة حياتهن بين أربعة جدران. إن كنّ لا يشعرن بأنهن سجينات، فهن حينئذ غير سجينات. وهنالك آخرون، يعتبرون كوكبنا بأكمله سجناً، يرون الفضاء اللامتناهي للكون، وآلاف النجوم، والأجسام السماوية التي حرم عليهم إلى الأبد بلوغها... وهذا الإدراك يجعل منهم أعظم عبيد بوسعهم الحلم: عبيد الزمان والمكان.

ومشوا صامتين فوق الدروب المقفرة.

ـ أما من شيء جديد، قال، في هذه الجنة المهجورة؟

ـ لا شيء، خلا أننا ننتظر بعض الأطفال...

ـ سنكون بحاجة إليهم. احرصي على أن يتم كل شيء على ما يرام.

ثم التفت إلى الداعيين الكبيرين:

ـ سيكون أولئك الأطفال، الكائنات الوحيدة في العالم الذين اعتقد آباؤهم اعتقاداً جازماً بأن أمهاتهم هن صبايا الفردوس... كائنات ليست أرضية إن صح القول.

وتحلقوا حول الحوض. وتابع الحسن قائلاً:

ـ سيقبل الربيع، ومن بعده الصيف. أمضوا الشتاء على أفضل وجه وبأكبر دفء ممكن... إلى أن تضفي الطبيعة من جديد على هذه الحدائق روعتها... ونحن أيضاً، سننزوي في خلوتنا. لقد تغطت السماء بغلالة مريبة، ربما تثلج غداً... البرد، البرد الشديد يقترب...

وحين عادوا إلى القصر، استأذن الحسن من صاحبيه في الانصراف:

ـ أتمت الأرض تقريباً نصف دورتها حول الشمس... في تعاقب آلاف مؤلفة من الدورات المماثلة التي هي نصيبها. ومع ذلك، بوسعنا القول أن ثمة أشياء كثيرة تغيرت تحت الشمس. لقد تلاشت سلطنة إيران. بيد أن مؤسستنا انبثقت من الليل. ما هو تاريخها الآتي؟ من العبث أن نبحث عن إجابة. النجوم صامتة فوقنا.

وعانق للمرة الأخيرة صديقيه. ثم دلف إلى المنصة. وتبعاه بأعينهما في حزن غريب.

أغلق على نفسه في أجنحته ومات في نظر الناس. وضمته الأسطورة تحت جناحها.